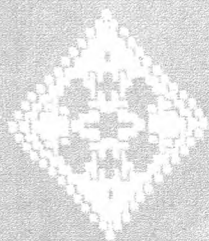


✓



L4-1



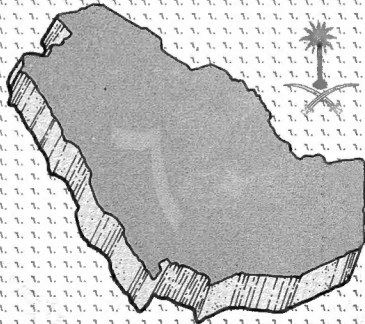


# الحكمة



مجلة فصلية محكمة تصدر عن دار الملك عبدالعزيز بالرياض

العدد الثالث • السنة السابعة عشرة • ربيع الآخر • جمادى الأولى • جمادى الآخرة ١٤١٢ هـ



اليوم الوطني للمملكة

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِ الْإِنْشَاءِ

وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

وَلَكِنْ كَثُرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ

(سورة يوسف - آية ٢١)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



٩٢٧

مجلة فصلية محكمة تصدر عن  
دائرة الملك عبد العزيز بالرياض

## دائرة الملك عبد العزيز بالرياض

أنشئت بمقتضى المرسوم الملكي الكريم رقم م/٤٥، في  
١٣٩٢/٨/٥ هـ، كهيئة مستقلة ذات شخصية اعتبارية،  
يديرها مجلس إدارة له كافة الصلاحيات اللازمة لتحقيق  
أهدافها.

والغرض من إنشائها: خدمة تاريخ المملكة  
وجغرافيتها، وآدابها، وأثارها الفكرية والعمرانية بخاصة،  
والجزيرة وبلاد العرب والإسلام بعامة، وذلك عن طريق إنجاز  
البحوث ونشرها، وجلب الوثائق والمخطوطات وتحقيقها،  
وإصدار مجلة تحمل اسمها.

كما أنها «المركز الوطني للوثائق والمخطوطات»، بمقتضى  
الموافقة السامية رقم ١٢٦٠٨/٥ في ١٢٦٠٨/٥ هـ.

العدد الثالث • السنة السابعة عشرة • ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخرة ١٤١٢ هـ

٢٩٤٥ - الرياض. ١١٤٦١ المملكة العربية السعودية

رقم الفاكس ٠٠٩٦٦١/٤٤١٧٠٢٠

General Organization, King Abdul Aziz  
Foundation for Research and Studies

رئيس التحرير

محمد حسين زيدان

الأمين العام للإدارة، والتدبير العام للمجلة

عبد الله بن محمد الطويل

### هيئة التحرير

د. مسند منصور إبراهيم السليمان

عبد الله بن محمد العنيز بن إدريس

د. عبد الرحمن السليمان السليمان

د. عبد الله السليمان السليمان

د. محمد السليمان السليمان

سكرتير التدبير، والمشرق الفني

مصطفى أمين جاهد

### الإشتراكات

ترسل الاشتراكات بشيك

مصنق باسم

دائرة الملك عبد العزيز بالرياض

### الإدارة، والتحرير

٤٤١٣٩٤٤ - ٤٤١٣٣١٨

الفاكس: ٤٤١٣٣١٦

### البحوث

ترسل البحوث باسم

رئيس التحرير

٤٤١٧٠٢٠ : ☎

## آراء الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

- ترسل البحوث مطبوعة على الآلة الكاتبة أو بالكمبيوتر على ألا تزيد على ثلاثين صفحة من القطع المتوسط، وأن يكون اسم الباحث رباعياً، وأن يذكر عنوانه مفصلاً.
- ترسل البحوث سرياً إلى محكمين، ويتم نشرها بعد النظر في صلاحيتها لمنهج المجلة.
- ترتيب البحوث داخل العدد يخضع لأسباب فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث.
- لن ينظر في البحوث غير المستوفية لشروط المجلة.
- لا ترد البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

## قيمة العدد

- السعودية : ثلاثة ريال - الإمارات العربية : أربعة دراهم
- قطر : أربعة ريال - مصر : ٤٠ قرشاً - المغرب : خمسة دراهم - تونس : ٤٠٠ مليم
- خارج البلاد العربية : دولار للمعدد

## الاشتراكات السنوية

- ٢٠ ريالاً للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية.
- وفي البلاد العربية ما يعادلها.
- ٦ دولارات خارج البلاد العربية.

## الموزعون

- |  |  |
|--|--|
| <ul style="list-style-type: none"> <li>• البحرين : مؤسسة الهلال للتوزيع</li> <li>• مصر : مؤسسة الأهرام للتوزيع</li> <li>• تونس : الشركة التونسية للتوزيع</li> <li>• المغرب : الشركة الشريفة للتوزيع</li> </ul> | <ul style="list-style-type: none"> <li>• السعودية : الشركة السعودية للتوزيع</li> </ul>   |
| <ul style="list-style-type: none"> <li>• ٢٦٢ - ٢٦ : ٢٢٤ الماسة - ☎</li> <li>• ٧٥٥٠٠ : القاهرة ☎</li> <li>• ٥ : نهج قرطاج</li> <li>• 683 : الدار البيضاء ☎</li> </ul>   | <ul style="list-style-type: none"> <li>• ٩٢ - ٦٥٣٢ جدة ☎</li> <li>• ٤٩١٦٧٣٧ - ٦١٦٧٤١ الرياض ☎</li> <li>• ٣٧٧٨ أبو ظبي - ☎ : ١١ : ٣٢٣</li> <li>• ٢٢٨٥٥٢ : - ٢٠٠٧ : ☎</li> <li>• ٣٢٣ : ٤٣١٨ : ☎</li> </ul> |
| <ul style="list-style-type: none"> <li>• أبو ظبي : مكتبة المنهل</li> <li>• دبي : مكتبة دار الحكمة</li> <li>• قطر : دار الثقافة</li> </ul>  |  |



اليوم الوطني للمملكة

اليوم الوطني للمملكة ص ٢٢٢-٢٥١

## في هذا العدد

- الافتتاحية ..... رئيس التحرير ٥
- المصطلح التحوي عند ابن قتيبة ..... د. صالح بن سليمان العمير ١١
- تنصيب الأنمة وخطباء المساجد في عهد الملك عبد العزيز ..... أ. محمد بن ناصر الثوري ٤١
- الظروف المكانية والبيئية وعلاقتها بالدعوة الإسلامية ..... د. صلاح عبد الجابر عيسى ٥٣
- مبادئ تدريب الجيش الإسلامي في عصر النبوة ..... أ. محمد جمال الدين محفوظ ٧١
- نظرية علم اللسانيات الحديث وتطبيقاتها على أصوات العربية ..... د. كونغ إجو ١٠٥
- التخصيص بين النظرية والتطبيق، مع إشارة خاصة للمملكة العربية السعودية ..... أ. محمد بن صنيان بن تباك ١٥٤
- الحياة الإنسانية في الأشعار الجاهلية . د. عبد الغني زيتوني ١٨٧
- استرداد الرياض .. عدة المقاتلين، وصحة أسماهم ..... مصطفى أمين جامين ٢٢٢
- الصيدلاني الأندلسي أبو العباس النباتي (ابن الرومية) (٥٦١-٦٣٧هـ) ... أ. فاضل المسباعي ٢٣٢
- حول ذكرى اليوم الوطني ..... أ. عبدالله بن حمد الحقييل ٢٥١



الافتتاحية

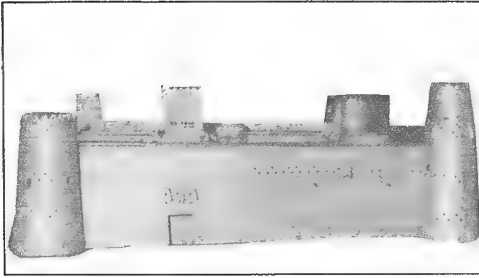
# عبد العزيز تاريخ .. لاسيرة



بقلم رئيس التحرير

وأحببت أن أكتب الكلمة في ذكرى اليوم الوطني فوجدتها  
تحت هذا العنوان عبد العزيز تاريخ .. لا سيرة، كتبتها من قبل  
فينبغي أن تكون في مجلة الدارة ليس لسعة الانتشار وإنما  
لبقاء المكتوب في مجلة تصدرها دائرة البطل عبد العزيز بن عبد  
الرحمن وإليك ما كتبت:





عبد العزيز الملك تاريخ .. لا سيرة، كثيرٌ هم الذين كتبوا عن الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بصفته بطلاً ملكاً واماماً قائداً وزعيماً رائداً، فهل أجادوا فيما كتبوا وألفوا. وهل جمعوا كل ما ينبغي؟ أم أن هناك الأهم والألزم قد ترك إلى حين. بعضهم كتب المقالة عاجلة لمناسبة دفعت إليها. وآخرون أصدروا الكتاب كبيراً في مجمعه حافلاً وبلغة عربية. أو بلسان أعجمي. وغير هؤلاء رجال يقصون الأعاجيب من سيرة البطل لم تدون في المقالة، ولم يشر إليها كتاب، منهم من شهد بها بنفسه، ومنهم من سمعها فرواها عن غيره، وهي بهذا كله تعني كنه التاريخ والسيرة معاً أكثر مما جاء في المکتوب وأشد طرافة منه. فالذين كتبوا المقالة والكتاب ولم يكتبوا التاريخ للبطل - إنما كتبوا سيرة البطل وفرق كبير بين هذين وليس ذلك عن عجز في قدره أو كسل في رغبة أو خمول في إرادة أو زهد في صيت أو حبس من العالمين والحافظين والمحتفظين. قصد به أن لا يكتب التاريخ لتكتب السيرة فقط. لم يكن هذا ولا ذاك ولكنه اليسر مطلب العاجلين والتهيب حاجز المقربين يبههم الإعجاب فيقتصرون على ما تيسر.

.. والقومية العربية لم يتعلمها البطل في تاريخ مکتوب .. ولا من معلم موهوب .. فليست لها فيما يعرف، وفيما عمل تعريف خاص، أو

أيديولوجية تلقى عنها المحاضرات في الجامعات والندوات.

هي ليست معرفة في نظره .. وإنما هي عقيدة في روحه .. في دمه .. من أعراقه الممتدة إلى بعيد .. وهو ليس في حاجة لأن يتعلمها .. وإنما كثير من قومه كانوا في حاجة لأن يعلمهم .. لم يعقد ندوة يلقي عليهم فيها محاضرة .. وإنما ألقى عليهم فيها وفي زمانه الممتد دروساً من العمل .. وعملاً من الكفاح .. وكفاحاً من العقيدة والنخوة .. لم يحسب أن يأتي يوم ينتشر فيه الجدل حول القومية العربية .. إنها قضية مسلمة في نظره، وفي عمله، وفي نهجه بوصفها إحدى البديهيات .. البحث فيها لا يفسرها .. ولا يوضحها .. وإنما يزيد لها غموضاً .. (كلما كان الشيء واضحاً كان البحث فيه موجباً لغموضه).

هذه كلمة سعد كإحدى مجنحاته .. وهي من عمل البطل عبد العزيز .. كإحدى تصوراته .. لم يتطرق إليه شك أنه العربي .. كل العربي .. فلا يدعوه حافز من قريب أو بعيد ليدعو لها .. وإنما يدعوه الوازع في نفسه أن عمل لها .. فركز قيمتها في نجد .. وركز رايتها خفاقة في الجزيرة العربية في كيان كبير ..

لم يجل بهمته الأجانب عن نجد وحدها .. وإنما أجلاهم عن أرضه كلها .. وأرضه هي تراثه التي ورثها اليوم .. لم يرثها ولد من صلبه .. ولم يرثها نحن سكانها فحسب .. وإنما ورثها كل العرب في دنيا العرب .  
لقد عمل لأمته أكثر مما عمل لأسرته .. وعمل لقوميته أكثر مما عمل لذات نفسه.

طعام على مض، وشرب على قذى، ومشى على جمر، ونوم على مدى ويحسب كثير من الناس أنه قد انعزل في نجد والأحساء عن القومية

العربية حينما قامت نهضة الإمام يحيى في اليمن .. وبعد أن قامت نهضة الحسين ابن علي في الحجاز.

لم يكن منعزلاً عن الحركات العربية .. والنهضات القومية.  
قلت ذلك في أكثر من موضع .. وفي أكثر من مقال .. حينما كتبت (أن السعودية ثورة).

وخلاصة ما قلت أمس البعيد . وما أقوله اليوم القريب .. هو أن البطل لم يكن انعزالياً حمدت السلامة منه .. ولم يكن خصيماً لهذه الحركات .. طلب إليه أن يكف عن هذه الخصومة .. ولم يكن عاجزاً عن المخاصمة، والتربص، والتعجيز والتخذيل .. لم يكن كل ذلك منه .. بل كان منه العون، والدب، والدفاع.

لو لم يثر في نجد فيجلي الحاكمين فيها، ويؤلف بين المحكومين لما استطاع الإمام يحيى أن يستغل في اليمن على قوة ضعيفة أمامه .. أضعفها اشتغال الجيوش العثمانية بمحاربة البطل.

لقد حاربها فدفعها عن الجزيرة .. وتنفست اليمن الصعداء .. وصحيح أن نهضة الإمام يحيى في اليمن قد أضعفت الجيش المحارب للبطل في نجد. ومن ناحية أخرى كنت أتصور أن البطل سلطان نجد عبد العزيز، قد منعه أن يتحرك ضد الحسين، اشتغاله ضد ابن الرشيد .. واشتغال القبائل بالحركة العربية.

كنت أحسب أن موقفه كان سلبياً استفادت منه الثورة العربية .. حتى بهرني دليل لا أملك وثيقته الآن .. وإنما أملك الثقة به كل آن .. فقد أرسل إليه فخري باشا آلافاً من الذهب، تبلغ الثلاثين .. وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت، يدعوه إلى مساعدته في قمع ثورة الحسين في الحجاز .. لأن

فخري يعلم كل العلم أن البطل لو أثار القبائل، وقاد الحرب ضد الحسين لما نجحت الثورة العربية..

وتسلم البطل الرسالة ولم يقتنع بها، ولم يعمل لها .. بل عمل على العكس .. لم يثر أية ثائرة ضد ثورة الحسين .. فسارت في طريقها .. بل إنه فعل أكثر من ذلك.. إنه أكثر سواد الملتفين حول هذه الثورة بعدم التضيق علي القبائل في نجد..

ولست في سبيل تعداد الذين أعرفهم من شيوخ هذه القبائل والذين شاركوا في جيش الثورة.

لقد كانت نظرة البطل صائبة كل الصواب .. وجاءت بأحسن النتائج. أولاً - لم يعرقل الثورة .. فقد تركها تمضي في سبيلها .. فكان موقفاً تحمده القومية العربية له .. جاء من دقة الفراسة ونبالة القصد .. فإن هزيمة العرب في مكان تعني هزيمتهم في المكان الآخر.

ثانياً - لقد استفادت القبائل في نجد فوائد عدة .. تمرست بالقتال، وعرفت كل الأحوال، ونالها خير كبير من (البرايوي) والمنح ما أفاد قراها وهجرها .. وأفادها أكثر من ذلك توفرها على جمع السلاح والذخيرة مما كان في جيش الثورة، ومما خلفه الأتراك في المدينة .. فكان كل ذلك قوة في حساب البطل جاءت النتيجة منه بالنصر أحسن توقيته .. وأجاد تنظيم أسبابه .. حتى تم له السلطان في هذا الكيان الكبير ..

ولو سارت الأمور في رخاء واتفاق .. لما شنها حرباً على أحد .. إنه يريد الصون لما أسس .. ويرفض الكيد للذين يعملون لقومه .. أما الذين يقلبون له ظهر المجن .. فإن الأمر في نهج البطل يختلف .. لأن طبيعة الصون فيما أسس تقتضي الدفاع عنه، ولو كان من يريد إباحة هذا الصون

أقرب المقربين إليه.

وهناك خطأ انتشر في أكثر من كتاب ألفه رجل آخر عن البطل .. هذا الخطأ هو القول بأن البطل قد رجع بعد (معركة تره) بموجب خطاب يحمله (جون فيلبي) في ذلك الوقت .. وعبد الله فيلبي بعد ذلك.

يقولون: إن عبد الله فيلبي قد سلم البطل عبد العزيز رسالة من الإنجليز يدعونه فيها أن يرجع عن الحجاز.

لقد شاع هذا الأمر على خطئه .. مع أن الصواب فيه غير ذلك .. صحيح أن عبد الله فيلبي كان يحمل الخطاب، ووصل به إلى الحجاز متأخراً، ولم يسلمه إلى البطل عبد العزيز إلا في نجد بعد أن رجع الجيش واستقر به الأمر .. ولم يتقدم خطوة بعد تره .. فليس الخطاب هو الذي أرجعه .. وليس فيلبي هو الذي نصحه .. ولكن الرجوع والسكون كان عن خطة قررها البطل .. ففي حسابه الدقيق فيما وصله من معلومات .. وفي استعداد .. في كل ذلك ما يدعوه إلى الرجوع .. فليس من المعقول أن يستمر في معركة يدخل بها الحجاز، وهو لم يصف حسابه مع حائل .. وليس من المعقول كذلك، وحائل يمكن أن تنقض على القصيم .. فالأوضاع لديه غير مواتية لخوض هذه المعركة.

إن الفرقة أول التدهور والانخداع. بل هي العدو الأكبر للنفوس والمغوية للبشر.

والاتحاد والتضامن أساس كل شيء. فيجب على المسلمين أن يحذروا التفرقة وأن يصلحوا ذات بينهم. ويبدلوا النصيحة لأنفسهم.

**محمد حسين زيدان**

# المصطلح النحوي عند ابن قتيبة

إعداد: د. صالح بن سليمان العمير

الحمد لله الذي ميز العربية على سائر اللغات بما اختصها من الفصاحة والبيان، والصلاحية لكل زمان، والصلاة والسلام على من معجزته القرآن الذي بحفظه حفظت العربية، واحتلت مكاناً علياً. أما بعد:



فإن النفس تتوق إلى دراسة ابن قتيبة وأمثاله من الأعلام المبرزين الذين استنار الناس بأرائهم في علوم القرآن واللغة والبيان، واستمدوا من مؤلفاتهم العلم النافع منذ القدم، وقد أسهم ابن قتيبة بالتأليف في جل صنوف المعرفة، وثار الجدل حوله وحول مؤلفاته، وكثر مناصروه كما كثر مناؤوه، واتهم بالضعف في النحو، وبالغلو في البصريين. ويرى بعض الباحثين أنه استفاد من البصريين والكوفيين، ومزج بين المذهبين حتى عد مؤسس مدرسة بغداد القائمة على الاختيار والانتخاب والتوسط بين الفريقين، لهذا قمت بهذه الدراسة لمصطلحاته التي استخدمها في ما وصل إلينا من مؤلفاته وهي قليل من

كثير بالنسبة لما نسب له من كتب، وهذه المصطلحات تتم عن عدم تعصب الرجل لمدرسة معينة، كما تتم عن توسطه واحترامه لمصطلحات الفريقين وآرائهما وتفضيله لما يدعمه الدليل والاستعمال العربي.

أما ابن قتيبة فهو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المروزي الأصل<sup>(١)</sup>، الكوفي المولد<sup>(٢)</sup>، البغدادي النشأة والمتوفى<sup>(٣)</sup>. ويقال له: الدينوري، لأنه تولى قضاء الدينور فترة من الزمن<sup>(٤)</sup>، ولقب بالقتبي والقتيبي نسبة إلى القتب وتصغيرها القتيبة<sup>(٥)</sup>. وكنيته أبو محمد، وكان يستخدم هذه الكنية في مؤلفاته<sup>(٦)</sup>.

ولد ابن قتيبة سنة ٢١٣ هـ وتوفي سنة ٢٧٦ هـ، وقيل ٢٧٠ هـ، وقيل ٢٧١ هـ، وقيل ٢٦٧ هـ<sup>(٧)</sup>.

وليس من شأن هذا البحث الخوض بتفصيلات عن حياة ابن قتيبة وعصره ومؤلفاته ومعاصريه وشيوخه وتلاميذه وأنصاره ومناوئيه، ففي مؤلفاته ومصادر ترجمته، وماتناوله الدارسون له ولمؤلفاته مايفي بهذا كله.

وهذا لا يمنعني من الإشارة إلى أن ابن قتيبة يعد موسوعة في عصره ألف في كل فن تناوله معاصروه فأجاد وأفاد، وخلف آثاراً تشهد بمقدرته وسعة ثقافته، فكتابه غريب الحديث من أبرز أصول علم غريب الحديث وأقدمها، وكتابه أدب الكاتب أحد كتب الأدب الأربعة التي عدها المتقدمون أصول الأدب وأركانها، ولاغنى لعالم أو متعلم عنه، وكتابه عيون الأخبار أحد الكتب الثلاثة التي عدها أبو بكر بن دريد متنزهات القلوب<sup>(٨)</sup>، ومؤلفاته في القراءات وإعراب القرآن وتأويل مشكله وتفسير غريبه وغيرها لا تقل شأنًا عن هذه الكتب. وهي ذات طابع تخصصي خالية من الاستطراد،



يدرك ذلك من يتبع مآعاليه في كل من تأويل مشكل القرآن وتفسير غريب القرآن.

وقد أخذ عن مشهوري العلماء في القرن الثالث كالرياشي وأبي حاتم والزيادي، والجاحظ وأبي سهل الصفار، وأبي سعيد الضرير، وعبد الرحمن ابن أخي الأصمعي.

كما أخذ عنه خلق كثير من مشاهير عصره، منهم ابنه محمد، وأبو بكر ابن المرزبان وعبيد الله السكري، وأبو القاسم التميمي، وابن درستويه، وابن أصمغ الأندلسي.

عده بعض الباحثين مؤسس المدرسة البغدادية<sup>(٩)</sup>، لأن نحوه مزيج من نحو الكوفيين والبصريين، وأثبتت هذه الدراسة استخدامه لمصطلحات الفريقين على السواء في الغالب، وهذا مادعا بعضهم إلى اتهامه بالضعف والتخليط<sup>(١٠)</sup>، وقد أجاب عن ذلك ابن دريد بأن ابن قتيبة ربوة بين جيلين<sup>(١١)</sup>، يعنى بالجيلين المبرد إمام نحاة البصرة في زمنه، وثلعب إمام المدرسة الكوفية في زمنه.

وابن قتيبة ثقة فيما يرويه صادق فيما يقول. على مذهب أهل السنة، كان لأهل السنة كالجاحظ للمعتزلة، فهو خطيب أهل السنة، كما أن أستاذه الجاحظ كان خطيب المعتزلة<sup>(١٢)</sup>.

ومارمي به أبو محمد في مذهبه وعلمه واتجاهه فإنه مزاعم لم تثبت أمام البحث والتحقيق والاطلاع علي تراثه، وقد أسقطها العلماء المصنفون ووثقوه<sup>(١٣)</sup>.

أسأل الله الكريم أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه نافعة بمنه وكرمه، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

## تقديم

لم تصلنا مؤلفات ابن قتيبة النحوية لتتبين منها اتجاهه الدقيق في استخدام ألقاب الإعراب والبناء، ومع ارتفاعنا بما وصل إلينا من مؤلفاته واستفادتنا منها إلا أنها ليست كتباً متخصصة في مجال النحو والصرف، وما ورد فيها من مسائل هذا الفن إنما قصد منه ابن قتيبة البيان والتقريب، ولم يعمد فيه إلى التعمق والبحث النحوي لذاته، لذا فإن الباحث لا يجد في كتبه التي بين أيدينا سوى ومضات وإشارات نحوية عابرة يصعب من خلالها القطع برأي مبني على الإحاطة والاستقصاء، وما ورد في أدب الكاتب من مسائل النحو والصرف - علي كثرت - لا يفي بالغرض الذي نسعى إليه، لأنه مجرد إشارات قصد منها توجيه الكتاب في زمانة إلى ما ينبغي لهم من آلات الكتابة ومتطلباتها، ولم يعمد فيه الشيخ إلى البسط والتطويل والتوضيح، لذا رأيت أن من الواجب علي أن أقرأ جل تراثه، وأن أقف عند كل صغيرة وكبيرة علي أظفر في نهاية المطاف بما يفي بالغرض المنشود، راجياً أن يكون هذا البحث إضافة للدراسات السابقة حول المصطلح، وإسهاماً في مجال دراسة النحو الكوفي خاصة. لأنه بحاجة ماسة إلى تضافر جهود الباحثين كي يقرّبوه للناس ويوضحوه لهم.

### ألقاب البناء والإعراب:

ألقاب الإعراب والبناء قديمة<sup>(١٤)</sup>، لكن المصادر لاتعيننا في نسبة هذه المصطلحات إلى أربابها، وربما يعود ذلك إلى تأخر عملية التدوين، وقلة حاجة الأمة إلى معرفتها في العصور الأولى التي سبقت فساد السياسة ومرحلة تدوين العلوم.

ولعل الخليل هو أول من نسبت له بعض المصطلحات بدقة وجلاء، ونقل

عنه سيبويه كثيراً منها<sup>(١٥)</sup>، وأشارت بعض المصادر إلي جانب كبير منها<sup>(١٦)</sup>.

وقد خصص البصريون مصطلحات لألقاب الإعراب، وأخرى لألقاب البناء<sup>(١٧)</sup>، بينما لم يميز الكوفيون بين مصطلحات ألقاب الإعراب والبناء<sup>(١٨)</sup>، بل وردت مختلطة في مؤلفاتهم<sup>(١٩)</sup>، فتجد المصطلح الواحد يستخدم للمعرب بحركة من الحركات، وللمبني على تلك الحركة.

ولم أر موقفاً محدداً لابن قتيبة تجاه ألقاب الإعراب فجمع بين المذهبين في استعماله، على طريقة متقدمي المشتغلين بعلوم القرآن وهو واحد منهم. فنراه مثلاً يستخدم الرفع لمطلق لضم، قال - أثناء حديثه عن هم - «قال<sup>(٢٠)</sup>: أصلها هل ضم إليها أم، والرفعة التي في اللام من همزة أم لمّا تركت انتقلت إلى ما قبلها»<sup>(٢١)</sup> فالرفع للضمّة أيا كان موضعها من الكلمة.

وقوله: «بأن رفع قافية وخفض أخرى»<sup>(٢٢)</sup> يشمل المضموم والمرفوع. لأن ضمة القافية تكون ضمة بناء كما تكون ضمة إعراب، وكذلك قوله: «وبعضهم يجعل الإقواء رفع قافية وجر أخرى»<sup>(٢٣)</sup>.

والغالب أن يستعمل الرفع للمرفوع<sup>(٢٤)</sup>، والضم للحروف الموسومة بالضم سواء كانت في أوائل الكلم أو في آواخره. فمن استخدامه له أول الكلمة قوله «وَالْوُقُودُ: الحطب بفتح الواو، والوُقُودُ بضمها: تَوْقُدها»<sup>(٢٥)</sup> ومن استخدامه إياه آخر الكلمة قوله: «ومن قرأه ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾»<sup>(٢٦)</sup> - بضم التاء - فهو كلام متصل من قول أم مريم عليها السلام «<sup>(٢٧)</sup>».

أما النصب فإنه يستخدمه لما اصطلاح عليه النحاة البصريون ما وُسِمَ حرفُ إعرابه بالفتحة أو ما ينوب عنها بتأثير العوامل<sup>(٢٨)</sup>، وهو المصطلح المشتهر السائد عند النحاة.

ويستخدمه - الكوفيون - للبناء. قال: «وإن شئت جعلتها من قولك: أن

لك كذا وكذا، وأدخلت عليها الألف واللام، ثم تركتها على مذهب «فعل» منصوبة، كما قالوا: (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قيل وقال وكثرة السؤال) (٢٩) فكانتا كالاسمين، وهما منصوبتان» (٣٠) وهو بهذا ينقل رأي الفراء ومصطلحه (٣١). وقال: «واعلم أن ما جاوز العشرة من العدد إلى تسعة عشر اسمان جعلا اسماً واحداً، فهما منصوبان أبداً في حال الرفع والنصب والخفض» (٣٢) وقال: «ويقال شتان ماهما بنصب النون» (٣٣).

وكذلك يستخدم النصب لفتح الحرف أيًا كان موضعه من الكلمة قال: «وفي مصحف عبد الله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَجْرَيْنِ﴾» (٣٤) منصوبة الألف بجعل (أن هذان) تبيناً للنجوى» (٣٥). وقال: «على مذهب من ينصب أن بالقول كما ينصبها بالظن» (٣٦) يريد: على مذهب من يفتح همزة إن بعد القول (٣٧). وذكر أن الحجاج غلط فقرأ بنصب أن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ (٣٨) فتنبّه لخطئه وحذف اللام من الخبر (٣٩)، كما ذكر اختلاف القراء في سورة الجن في نصب إن وكسرها (٤٠). وقال ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ (٤١) بنصب القاف، جعله من القرار» (٤٢). واستخدامه الفتح في ذلك هو الكثير الغالب (٤٣).

وأما الجر فقد استخدمه للحرف المكسور قليلاً، من ذلك قوله: أراد لم ترأهم فحذف الهمزة ونقل لها جرّها إلى الراء» (٤٤) رفع قافية وجر أخرى» (٤٥)، فإن هذا يشمل المبني على الكسر، والفعل المضارع المجزوم، وفعل الأمر المبني على السكون المحركين بالكسر للقافية. ويستخدم هذا المصطلح للمجرور بحرف الجار أو بالإضافة قليلاً (٤٦)، لأن الشائع عنده استخدام مصطلح الخفض لما تقدم.

ويستخدم الكسر في المبني على الكسر، لأنه - كالكوفيين - لا يستخدم مصطلح البناء في مقابل الإعراب. ف«طَمَارٌ: مكسور بغير تنوين، مثل: قَطَامٌ ورَقَاش» (٤٧).

ويستخدم الخفض كذلك لمجرد الكسر، فقوله: «بأن رفع قافية وخفض أخرى»<sup>(٤٨)</sup> يشمل المكسور لغير الجر.

والغالب أن يستخدم مصطلح الخفض للمجرور بالحرف أو بالإضافة<sup>(٤٩)</sup>، فهو يميل إلى استخدام الكوفيين في هذا المصطلح.

وأما الجزم فإنه يطلقه على مجرد تسكين الحرف أياً كان سببه. قال: «وقرأ حمزة: ﴿وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾»<sup>(٥٠)</sup> فجزم الحرف الأول، والجزم لا يدخل الأسماء، وأعرب الآخر وهو مثله»<sup>(٥١)</sup>. وقال: «الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾»<sup>(٥٢)</sup> - في قراءة من قرأ بجزم التاء وفتح العين - مقدم ومعناه التأخير»<sup>(٥٣)</sup>. فسمى تسكين الحرف المتحرك جزماً، وكذلك تسكين البناء. والجزم عنده يقابل الإعراب<sup>(٥٤)</sup>، فهل يعنى أنه البناء أم أن كل ساكن مجزوم؟. كما أنه أطلق على جزم المضارع لغير علة ظاهرة تسكيناً<sup>(٥٥)</sup>. ومع ذلك فالغالب أن يستخدم مصطلح الجزم للفعل المضارع المجزوم<sup>(٥٦)</sup>.

وهو بهذا يتفق مع الكوفيين<sup>(٥٧)</sup> وأتباعهم<sup>(٥٨)</sup> في استخدام هذا المصطلح. ويظهر لنا مما تقدم أنه لا يترجى من استخدام مصطلح الفريقين في ألقاب الإعراب، وإن كان إلى استخدام ماشاع عند الكوفيين - مما أثر عن الخليل أميل، وهو بهذا ينهج نهج المشتغلين بالتفسير والقراءات، وهو واحد منهم.

هذا بالنسبة لألقاب الإعراب. فإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن المصطلح في مسائل النحو وأبوابه ألفينا ابن قتيبة لم يلزم نفسه بالتعصب لمصطلح مدرسة معينة من مدارس النحو، فأخذ يراوح بين مصطلحات الكوفيين والبصريين في مؤلفاته التي وصلت إلينا مفضلاً ما استخدمه المفسرون والمشتغلون بالقراءات من جهة، ومطلقاً لنفسه العنان في استخدام ما يراه ملائماً منها من جهة أخرى. ولعله بهذا يُعَدُّ مِمَّنْ يُطَلَّقُ عليهم البغداديون،

أو مدرسة الاختيار التي نذرت نفسها لعدم التعصب لعالم ما من السابقين،  
يؤيد ذلك مصادر ثقافته التي تعد مشاعاً بين علماء البصرة والكوفة،  
وما اتسم به من عدم التعرض لطائفة معينة بالانتقاص. وسنرى من خلال  
الحديث عن مصطلحاته أنه استخدم جل مصطلحات الفريقين على نحو ما  
يأتي:

### الحرف:

أطلق ابن قتيبة الحرف - كالسابقين - على الكلمة، قال: «وحظ كل  
حرف الرفع، مالم ينصبه أو يجره حرف من الأدوات والأفعال»<sup>(٥٩)</sup>.  
ويطلق الحرف أيضاً على حروف المعاني<sup>(٦٠)</sup>، وعلى حروف الهجاء<sup>(٦١)</sup>.  
وعلى الأدوات ولو كانت أفعالاً. وقد يستخدم الأدوات كالكوفيين كما تقدم  
قريباً.

أما حروف الجر - فمع استعماله الجر للمجرور والحرف المكسور - فإنه  
استخدم فيها مصطلح الكوفيين، فمرة يطلق عليها حروف الإضافة، كقوله  
عن اللام الجارة: «وكل شيء من هذا إذا دخلت عليه لام الإضافة كتبتة  
بلامين»<sup>(٦٢)</sup>. وهذا المصطلح ينسب للكوفيين<sup>(٦٤)</sup>. وقد استخدم الخليل  
وسيويوه مصطلح الإضافة لحروف الجر<sup>(٦٥)</sup>. فليس مقتضراً على الكوفيين.  
ومرة أخرى يطلق عليها حروف الصفات<sup>(٦٦)</sup>، وهذا هو السائد عنده وقد  
يطلق الصفة على ظرف الزمان<sup>(٦٧)</sup>.

### حروف الصفات:

الصفة مصطلح كوفي يعنون به حرف الجر تارة والظرف تارة  
أخرى<sup>(٦٨)</sup>. أما الحرف لحروف المعاني كحروف الجر فهو مصطلح  
بصري استعمل الكوفيون بدله الأداة<sup>(٦٩)</sup>. وقد استخدم ابن قتيبة هذه

المصطلحات جميعاً مازجاً أحياناً بين مصطلحي الفريقين في عبارة واحدة. كقوله: «باب دخول بعض حروف الصفات مكان بعض»<sup>(٧٠)</sup> فالحرف مصطلح بصري، والصفة مصطلح كوفي، ويفرد المصطلح البصري تارة «حروف المعاني»<sup>(٧١)</sup>، كما أنه يستخدم المصطلح الكوفي مفرداً تارة أخرى: «الأداة»<sup>(٧٢)</sup>. واستخدامه مصطلح الصفات كما تقدم كثير إلى جانب استخدامه مصطلح الجر والظرف.

### الضمير والكناية:

الضمير والمضمر مصطلح بصري يقابله عند الكوفيين الكناية والمكني<sup>(٧٣)</sup>، وقد استخدم ابن قتيبة هذين المصطلحين على حد سواء قال - أثناء حديثه عن رسم كلمة: عمرو: «فإذا أضفت إلى مكني لم تلحق به واو..؛ لأن المضمر مع ما قبله كالشيء الواحد»<sup>(٧٤)</sup> وقال: «ومن الاختصار أن تضمر لغير مذكور»<sup>(٧٥)</sup> وقال أيضاً: «فكنى عن الشر وقرنه في الكناية بالخير قبل أن يذكره»<sup>(٧٦)</sup>. وقال أيضاً: «واحتج سيبويه بهذا البيت في عطف الظاهر على المكني بلا إعادة الباء»<sup>(٧٧)</sup> فاستخدم مصطلح الكوفيين مع أن مصدره الكتاب الذي عبر بالمضمر<sup>(٧٨)</sup>.

مالم يسم فاعله:

مصطلح كوفي استخدمه الكوفيون لفعل المبني للمجهول<sup>(٧٩)</sup>، كما استخدموا لنائب الفاعل اسم مالم يسم فاعله<sup>(٨٠)</sup>، وأطلق سيبويه عليه المفعول الذي لم يتعد إليه فعل فاعل<sup>(٨١)</sup>، ووسمه المبرد بالمفعول الذي لم يذكر فاعله.

وقد استخدم ابن قتيبة مصطلح الكوفيين في هذا، فمن ذلك قوله: «باب ماجاء على لفظ مالم يسم فاعله»<sup>(٨٢)</sup> وذكر أفعالاً لم ترد إلا مبنية لمفعول



وقال: «أهرعَ الرجل إذا أسرع على لفظ مالم يسم فاعله»<sup>(٨٤)</sup>.

وقد ساد مصطلح الكوفيين هذا رديحاً من الزمان<sup>(٨٥)</sup>، ولم يعرف الناس مصطلح الفعل المبني للمجهول، ونائب الفاعل إلا في وقت متأخر. ولعل أول من أثر عنه اصطلاح نائب الفاعل ابن مالك<sup>(٨٦)</sup>، ولم يستقر هذا المصطلح قبل ذلك، فابن جني - وهو بصري النزعة - ييوب له بقوله: «المفعول الذي جعل الفعل حديثاً عنه، وهو مالم يسم فاعله»<sup>(٨٧)</sup> أما الفعل المبني للمجهول فقد توصل أبو على الفارسي إلى مصطلح له تناقله الناس بعده حيث بوب له بـ «باب الفعل المبني للمفعول به»<sup>(٨٨)</sup> وتابعه على هذه التسمية عبد القاهر الجرجاني<sup>(٨٩)</sup>. واستخدم هذا المصطلح ابن برهان العكبري<sup>(٩٠)</sup>.

هذا ولعل ابن مالك استفاد من حاشية على الإيضاح العضدي بالتوصل إلى مصطلحه، إن كان صاحب الحاشية سابقاً له. قال فيها: «فإذا لم يسم احتاج الفعل إلى ما ييوب مناب الفاعل... ويحتاج أن يعرب بإعراب الفاعل لنيايته منابه»<sup>(٩١)</sup>.

### الفعل المتعدي والفعل الواقع:

الوقوف مصطلح كوفي<sup>(٩٢)</sup> يقابل التعدي عند البصريين، وهو ما يصل إلى مفعوله بنفسه، وقد استخدم ابن قتيبة المصطلحين معاً في مؤلفاته، فمن استخدامه مصطلح الكوفيين قوله: «وكذلك الأفعال إذا أوقعتها على مكني كتبت ما كان منها بالياء بالألف»<sup>(٩٤)</sup>، وقال: «والشهر منصوب لأنه ظرف، ولم ينصب بإيقاع شهد عليه»<sup>(٩٥)</sup>. ومن استخدامه مصطلح البصريين قوله: «وَأَفْعُولٌ يَتَعَدَّى، تَقُولُ: اَعْلُوْطُهُ، وَفَعْلَلْتُ يَتَعَدَّى، قَالُوا: صَعَرَ تَهُ فَتَصْعَرُ»<sup>(٩٦)</sup>. لا يستخدم مصطلح اللازم، بل يكفي بـ غير متعد، ولا يتعدى<sup>(٩٧)</sup>.

### التمييز والتبيين:

مصطلحان بصريان، وكلاهما مأثور عن الخليل<sup>(٩٨)</sup>، ويقابلهما عند نحاة الكوفة التفسير<sup>(٩٩)</sup>.

وقد تابع ابن قتيبة البصريين في استعمال ما اصطلاحوا عليه<sup>(١٠٠)</sup>، ولم أعثر له على ما يدل على أنه استخدم مصطلح نحاة الكوفة.

### الصفة والنعت:

هذان المصطلحان من المصطلحات التي شاعت بين النحاة قديماً وحديثاً دون تمييز بينهما، فقد استخدمهما سيبويه معاً<sup>(١٠١)</sup>، وكذلك المبرد<sup>(١٠٢)</sup>، وحذا حذوهما النحاة بعدهما<sup>(١٠٣)</sup>. لكن أئمة الكوفة اقتصروا على استخدام النعت<sup>(١٠٤)</sup>. ويرى بعضهم أن النعت يكون بالحلية كالطويل والقصير، والصفة تكون بالأفعال كالضارب والعائد والذاهب<sup>(١٠٥)</sup>. ولا يؤيد هذا التفريق ما في الكتاب والمقتضب<sup>(١٠٦)</sup>.

وقد استخدم ابن قتيبة المصطلحين معاً، قال: «وجعلت الدراهم والنسوة وصفاً للتسعة وللعشر»<sup>(١٠٧)</sup> ومن استعماله مصطلح النعت قوله: «و (ضيضى) فعلى فكسرت الضاد للياء، وليس في النعوت فعلى»<sup>(١٠٨)</sup> ويطلق هذين المصطلحين معاً على ما يقع صفة لغيره، وعلى الأوصاف المعروفة بالمشتقات دون تفريق أو تمييز<sup>(١٠٩)</sup>.

### العطف والنسق والرد:

الأول مصطلح بصري<sup>(١١٠)</sup>، واستخدمه الكوفيون قليلاً<sup>(١١١)</sup>، والمصطلح الشائع عند الكوفيين هو النسق<sup>(١١٢)</sup>، ويستخدم الكوفيون الرد كذلك<sup>(١١٣)</sup>، وربما استخدموا الرد للبدل<sup>(١١٤)</sup>. واستخدم سيبويه الشركة<sup>(١١٥)</sup> إلى جانب العطف.

ثم إن النسق مما أثر عن الخليل<sup>(١١٦)</sup>، ونسب للكوفيين لشيوعه في كتبهم. ومصطلح العطف هو الذي يكثر استخدامه بين النحاة، وأكثر ما يستخدم

النسق مع كلمة العطف، فيقولون عطف النسق تمييزاً له عن عطف البيان. وقد استخدم ابن قتيبة هذه المصطلحات ماعدا الشراكة، لكنه نهج نهج الكوفيين في التقليل من استخدام مصطلح العطف، قال: «واحتج سيويه بهذا البيت في عطف الظاهر على المكني بلا إعادة الباء»<sup>(١١٧)</sup>. ومن استعماله النسق قوله: «وخفض» «المسجد الحرام» «نسقا على سبيل الله» فكأنه قال: وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام»<sup>(١١٨)</sup> ومن استخدامه مصطلح الرد قوله: «كأنه أراد: لسنا الجبال ولا الحديد، فرد الحديد على المعنى قبل دخول الباء»<sup>(١١٩)</sup>.

وأكثر ما يستخدم مصطلحي الكوفيين النسق، والرد<sup>(١٢٠)</sup>.. فهو ينحى منحى كوفياً في هذا فاستخدامه للعطف نادر جداً.

### البذل والرد والترجمة والتبيين:

الترجمة مصطلح كوفي<sup>(١٢١)</sup> يقابل البذل عند البصريين، وكذلك يستخدم الكوفيون الرد والتبيين في مقابل البذل أحياناً<sup>(١٢٢)</sup>.

وقد استخدم ابن قتيبة هذه المصطلحات كلها ماعدا الترجمة، فمن استخدامه الرد قوله: «(ثمانية أزواج)»<sup>(١٢٣)</sup> أي كلوا مما رزقكم الله ثمانية أزواج، وإن شئت جعلته منصوباً بالرد إلى الحمولة والفرش تبيناً لها»<sup>(١٢٤)</sup> يعني أنها تعرب بدلاً<sup>(١٢٥)</sup>. كما أن التبيين من مصطلحات الكوفيين للبذل»<sup>(١٢٦)</sup> ومن استخدامه البذل قوله: «فأبدل قتلاً من الشهر الحرام»<sup>(١٢٧)</sup>.

ويظهر أنه لا مزية لواحد من هذه المصطلحات على الآخر عنده اللهم إلا إذا كان يرى استخدام مصطلح من نقل عنه من الأئمة، وهذا مشاهد من خلال متابعة تراثه. ويظهر أنه يستخدم التكرير للبذل<sup>(١٢٨)</sup>.

واستخدم ابن قتيبة الرد للمتعلق<sup>(١٢٩)</sup> الذي يطلق عليه الكوفيون

صلة<sup>(١٣٠)</sup>، كما استعمله للرد في الجواب<sup>(١٣١)</sup>، لأن أحرف الجواب يرد بها على كلام السائل والمخير ونحو ذلك.

### المصدر

مصطلح كوفي يطلقه الكوفيون<sup>(١٣٢)</sup> على ما يقابل الفعل، ولعل ذلك ناتج عن مذهبهم في أن الفعل هو الأصل الذي تصدر عنه المشتقات. وقد استخدمه ابن قتيبة في قوله: «فعرّف الصُّدر والمصدر»<sup>(١٣٣)</sup> وقوله: «باب المصادر المختلفة عن الصدر الواحد»<sup>(١٣٤)</sup> وقوله: «باب ما جاء فيه المصدر على غير صدر»<sup>(١٣٥)</sup>. عني بذلك اسم المصدر الذي يرد في الكلام مخالفاً لفعله. يوضح ذلك قوله: «وإنما تجيء هذه المصادر مخالفة للأفعال. لأن الأفعال - وإن اختلفت أبنيته - واحدة في المعنى»<sup>(١٣٦)</sup>.

### المستقبل

استخدم ابن قتيبة مصطلح الكوفيين «المستقبل» للفعل المضارع، قال: «وماسواها من فعل فإن المستقبل منه يفعل نحو: علم يعلم وعجل يعجل. فأما المعتل فمنه ما جاء ماضيه ومستقبله بالكسر، نحو: ورَمَ يَرَم»<sup>(١٣٧)</sup> واستخدم هذا المصطلح في نقله عن أبي عبيدة مرة<sup>(١٣٨)</sup>، وعن الفراء أخرى<sup>(١٣٩)</sup>. ولعله فضل هذا المصطلح لما فيه من مراعاة للناحية المعنوية البلاغية، فابن قتيبة من المهتمين بالتواحي البلاغية واللغوية بل حاز في هذين الفنين قصب السبق، يدل على ذلك قوله: «ومنه أن يأتي الفعل على بنية الماضي وهو دائم أو مستقبل»<sup>(١٤٠)</sup> قال هذا في معرض معالجته لقضايا بلاغية.

ما يجري وما لا يجري، وما يصرف وما لا يصرف:

الأول مصطلح كوفي<sup>(١٤١)</sup> للاسم المعرب غير المنون، وتابعهم عليه المبرد<sup>(١٤٢)</sup>، والثاني مصطلح البصريين<sup>(١٤٣)</sup> له. واستخدمه الفراء نادراً. وعلل ذلك باتجاه الفراء إلى تأسيس المذهب البغدادي<sup>(١٤٤)</sup>.

وقد استخدم ابن قتيبة مصطلح البصريين كثيراً في مؤلفاته<sup>(١٤٥)</sup>، ولم يستخدم مصطلح الكوفيين إلا نادراً، فعل ذلك عندما نقل عن أئمتهم، كقوله: «قال الفراء، قال الكسائي وغيره من أصحابنا: إنما ترك إجراؤها لأنها شبهت بفعلاء»<sup>(١٤٦)</sup> وقال: «قال الفراء: أصل شيء شيء على مثال: شيء... فخفف، وترك الإجراء لأنها أفعلاء»<sup>(١٤٧)</sup>.

وقد يكتفي بقوله: منون أو غير منون<sup>(١٤٨)</sup>؛ وذلك لأن الصرف هو التنوين، وتركه هو ترك ذلك التنوين. ويعبر عن التنوين - تنوين العوض - بالصرف<sup>(١٤٩)</sup>.

### الجد:

مصطلح للكوفيين<sup>(١٥٠)</sup> استخدموه مقابل النفي عند البصريين<sup>(١٥١)</sup>، وقد استخدمهما معاً ابن قتيبة، فمن استعماله النفي قوله: «يقال: ما على فلان طُحْرِبَةٌ ولا فِرَاضٌ، أي: ليس عليه شيء من اللباس.. وهذان الحرفان إنما يأتيان في النفي... ومثله في النفي: ما على المرأة خَرْبَصِيصَةً ولا هَلْبَسِيصَةً، يراد ما عليها شيء من الحلي»<sup>(١٥٢)</sup> ومن استخدامه الجحد قوله: «وكان بعض النحويين يجعلها صلة، ولو جاز هذا لم يكن بين خبر فيه الجحد وخبر فيه الإقرار فرق»<sup>(١٥٣)</sup>.

ويظهر أن استخدامه لمصطلح الكوفيين أكثر<sup>(١٥٤)</sup>، وتأثره بالكوفيين في مؤلفاته التي خدم بها كتاب الله ظاهراً، فقد أفاد من الفراء وغيره من علماء الكوفة كثيراً. وقد استخدم الإقرار للإثبات مثلهم كما تقدم. واستخدم الجحد للإنكار<sup>(١٥٥)</sup>، وما الجحد إلا إنكار، كما أنه أُرِدَ الجحد بالإباء<sup>(١٥٦)</sup>.

### العله واللغو والزيادة:

هذه المصطلحات إلى جانب الحشو والإقحام والتوكيد مما استخدمه المتقدمون - كما قال ابن هشام<sup>(١٥٧)</sup> - لزيادة حروف المعاني في الكلام.

ومع أن المشهور أن الصلة والحشو من مصطلحات الكوفيين، والزيادة واللغو من مصطلحات البصريين<sup>(١٥٨)</sup>، فإن الظاهر دوران هذه المصطلحات على أسنة العلماء دون تخرج من أكثرهم في استخدام أي مصطلح منها، اللهم إلا ما نقل عن بعضهم من التخرج في إطلاق مصطلح الزيادة على القرآن تأدياً وتنزيهاً له<sup>(١٥٩)</sup>، وإذا عرفنا أن زيادة حروف المعاني - كزيادة حروف المباني - لا تخلص من فائدة معنوية أو لفظية كالتوكيد والتقرير، وتحسين اللفظ<sup>(١٦٠)</sup>، وليس المراد به ما كان دخوله كخروجه في الكلام أدركنا أنه لا مشاحة في استخدام مصطلح الزيادة.

وقد استخدم ابن قتيبة في آثاره مصطلح الفريقين: الصلة واللغو والزيادة فمن استخدامه الصلة قوله: «ومن قرأ: ﴿إِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعٌ﴾ بالتخفيف: ﴿و﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾﴾<sup>(١٦١)</sup> جعل ماصلة، وأراد: وإن كل ذلك لمناجاة الحياة، وإن كل نفس [لما]<sup>(١٦٢)</sup> عليها حافظ»<sup>(١٦٤)</sup>.

ومن استعماله مصطلح اللغو قوله: «قال الخليل في مهمما هي ما أدخلت معها ما لغواً كما أدخلت مع متى لغواً... وكما أدخلت مع ما أي<sup>(١٦٥)</sup> كقوله: ﴿أَيَّامًا تَدْعُوْنَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾<sup>(١٦٦)</sup> أي أيا تدعوا»<sup>(١٦٧)</sup>.

أما مصطلح الزيادة فكثير شائع في مؤلفاته، وقد عقد له باباً في أدب الكاتب<sup>(١٦٨)</sup>، وقريب من ذلك ما جاء في تأويل مشكل القرآن<sup>(١٦٩)</sup>.

ويتضح من تتبع هذا المصطلح عنده أنه يميل إلى استخدام المصطلح البصري «الزيادة» الذي أكثر البصريون من استخدامه. أما مصطلح اللغو المنسوب للبصريين فقد استخدمه في نقل نص عن الخليل، ولم يكثر من استخدامه.

وأما الصلة فإنه يستخدمها كغيره من المشتغلين بعلوم القرآن، ولعله متأثر

في ذلك بالفراء، فهو ينقل عنه كثيراً، ويأخذ برأيه أيضاً.  
هذه أبرز المصطلحات التي شاعت في ماوصل إلينا من مؤلفات ابن  
قتيبة.

وهناك مصطلحات أخرى وردت قليلاً في كلامه، منها ماهو بصري  
كالحال<sup>(١٧٠)</sup> والظرف<sup>(١٧١)</sup>، وجرى في اسم المرة والهيئة على حد استعمال  
سيبويه لهما<sup>(١٧٢)</sup>، قال عن اسم المرة: «وإن أردت في فعلة المرة الواحدة  
فهي بالفتح.. وإن أردت الضرب من الفعل كسرت»<sup>(١٧٣)</sup>.

ومنها ماهو كوفي كاستخدامه فعل الفاعل للمصدر<sup>(١٧٤)</sup>، وقد استخدم  
المصدر<sup>(١٧٥)</sup>، ولكنه مع فعلة قلعله عنى به المفعول المطلق كالكوفين<sup>(١٧٦)</sup>،  
واسم الفاعل واسم المفعول مصطلحان استخدمهما سيبويه<sup>(١٧٧)</sup>، لكن ابن  
قتيبة استخدم مكانهما الفاعل والمفعول<sup>(١٧٨)</sup> ونحو ذلك، كقوله: «ومن قرأ  
(مُسَوِّمِينَ) بالفتح<sup>(١٨٠)</sup> أراد أنه فَعَلَ ذلك بهم»<sup>(١٨١)</sup> ولم أعثر له على  
استخدام الفعل المضارع ولا فعل الأمر، وتقدم أنه يستخدم المستقبل  
للمضارع، وكذلك استخدم له يَفْعَلُ<sup>(١٨٢)</sup>، واستخدم كلمة الأمر غير مسبوقة  
بفعل فيما دل على طلب الفعل، وأمرت للمضارع المسبوق بلام الأمر<sup>(١٨٣)</sup>،  
ولعله يتابع الكوفيين في تقسيم الفعل. وأن الأمر مقتطع من المضارع<sup>(١٨٤)</sup>.

ومن ذلك الحكاية<sup>(١٨٥)</sup> والإغراء<sup>(١٨٦)</sup>، والهاء لئاء التأنيث<sup>(١٨٧)</sup>، كما فعل  
سيبويه<sup>(١٨٨)</sup>. وحرف الجواب «إي» صلة لليمين<sup>(١٨٩)</sup>، والمعروف أن إي  
حرف جواب يأتي بعد الاستفهام مصحوباً بالقسم<sup>(١٩٠)</sup>، ولايراد بالصلة هنا  
الزيادة، ونقل عنهم أن (المقيمين)<sup>(١٩١)</sup> منصوب على المدح، ونسب إلى أبي  
عبدة أنه منصوب على تناول الكلام بالنسق<sup>(١٩٢)</sup>، وعبارة أبي عبدة:  
«العرب تخرج من الرفع إلى النصب إذا كثرت الكلام»<sup>(١٩٣)</sup> وألف القطع  
والألف المقطوعة<sup>(١٩٤)</sup>، لهزمة الوصل<sup>(١٩٥)</sup> وألف الوصل، أما



## ألف الفصل قليست

همزة<sup>(١٩٦)</sup>، ولم يستخدم مصطلحا محددا لصيغ المبالغة، بل فسرهما تفسيراً، كقوله: «الصديق الكثير الصدق، كما يقال: فسيق وشريب وسكير، إذا كثر ذلك منه»<sup>(١٩٧)</sup>. وقوله: «وفعليل لما دام منه العمل كقولك: رجل فسيق وسكير وسكيت، إذا دام منه الفسق والسكر والسكوت»<sup>(١٩٨)</sup>.

وقوله: «امرأة متآم مثل مفعال، إذا كان من عادتها أن تلد كل مرة توأمين... ومفعال يكون لمن دام منه الشيء أو جرى على عادته... وكذلك ما كان فعيل... وهو لمن دام منه الفعل، نحو: رجل سكير، كثير السكر... وكذلك كل اسم يكون على فعول... أو على فعال<sup>(١٩٩)</sup> وقد أطلق سيبويه على هذه الصيغ: المبالغة<sup>(٢٠٠)</sup>، وقد أدرجها ضمن اسم الفاعل. ويظهر من آثارة المطبوعة أنه يستخدم مصطلح الكوفيين<sup>(٢٠١)</sup> «الإدغام» بالتخفيف<sup>(٢٠٢)</sup> وتابع الفريقين في استخدام النسب والتصغير والإعالة والإضافة وما أشبه ذلك مما اتفق على استخدامه الفريقان، وتقدم مزجه بين مصطلحي الفريقين الحرف للبصريين والصفة لحروف الجر للكوفيين في عنوان عقده، وهو باب دخول حروف الصفات مكان بعض<sup>(٢٠٣)</sup>.

وممن استخدم هذا المصطلح الكوفي من أئمة اللغويين البصريين ابن دريد<sup>(٢٠٤)</sup>.

ولم يستخدم من مصطلحات الكوفة المصطلحات التي لم يكتب لها البقاء كالقطع والصرف والمثال والخروج والخلاف والمجهول وشبه المفعول.



## الهوامش

- (١) فارسي أبوه من أهل مرو العظمى: «مرو الشاهجان». انظر: تاريخ بغداد ١٠ / ١٧٠، وإنباه الرواة ٢ / ١٤٣، ١٤٧، ووفيات الأعيان ٣ / ٤٣.
- (٢) على الصحيح، وقيل: كانت ولادته ببغداد. انظر الفهرست ١١٥، وتاريخ بغداد ١٠ / ١٧٠، ونزهة الألباء ١٥٩، ووفيات الأعيان ٣ / ٤٣.
- (٣) انظر الفهرست ١١٥، وتاريخ بغداد ١٠ / ١٧٠، وإنباه الرواة ٢ / ١٤٧.
- (٤) انظر الفهرست ١١٥، والأنساب للسماعي ١٠ / ٦٤، ونزهة الألباء ١٥٩، ووفيات الأعيان ٢ / ١٤٧.
- (٥) انظر تهذيب اللغة ١ / ٣٤، وقتيب ٩ / ٦٥، والأنساب للسماعي ١٠ / ٢٦٣، واللسان «قتب» ١ / ٦٦١، وتاج العروس «قتب» ١ / ٤٢١.
- (٦) انظر مثلاً تأويل مختلف الحديث ١٢، ١٣، وإصلاح غلط أبي عبيد ٤٩، ٥٢، وتأويل مشكل القرآن ١٠٩، ٦٥، وغريب الحديث ١ / ١٣٧، ١٥٣، ١٦٧، ٢ / ٢٢.
- (٧) انظر ترجمته في مراتب النحويين ١٣٦ - ١٣٧، وطبقات النحويين للزبيدي ١٢٣ ولاحظ سنة وفاته فيه، والفهرست ١١٥ - ١١٦، وتاريخ العلماء النحويين ٢٠٩ - ٢١٠، وتاريخ بغداد ١٠ / ١٧٠ - ١٧١، وإنباه الرواة ٢ / ١٤٣ - ١٤٧، والأنساب للسماعي ١٠ / ٦٣ - ٦٤، ونزهة الألباء ١٥٩ - ١٦٠، والمنظم في تاريخ الملوك لابن الجوزي ٥ / ١٠٢، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٧ / ٤٣٨، ووفيات الأعيان ٣ / ٤٢ - ٤٤، والبداءة والنهاية ١١ / ٤٨، ٥٧، وسير أعلام النبلاء ٣ / ١٢٣ - ٢٩٦ - ٣٠٢، ودول الإسلام للمذهبي ١ / ١٣١، والبلغة للفيروز آبادي ١٢٧ - ١٢٨، ولسان الميزان لابن حجر ٣ / ٣٥٧ - ٣٥٩، وبغية الوعاة ٢ / ٦٣ - ٦٤، والمزهر ٢ / ٤٦٥، وطبقات المفسرين للدواودي ١ / ٢٥١ - ٢٥٢.
- (٨) والثاني الزهرة لأبن داود، والثالث قلق المشتاق لابن أبي طاهر. انظر معجم الأدباء ١٨ / ١٤٢ - ١٤٣.
- (٩) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢ / ٢٢١، ومقدمة المعاني الكبير «بيج»، ومقدمة أدب الكاتب، تحقيق محمد محيي الدين ٦، ومقدمة تأويل مشكل القرآن.
- (١٠) مراتب النحويين ١٣٦.
- (١١) انظر مقدمة محقق تأويل مشكل القرآن ٥٢.
- (١٢) انظر تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية ٨٦.
- (١٣) انظر تاريخ بغداد ١٠ / ١٧٠، والمنظم لابن الجوزي ٥ / ١٠٢، وتفسير سورة الإخلاص ٨٦ - ٩٧ والبداءة والنهاية ١١ / ٥٧، ولسان الميزان ٣ / ٣٥٨، ٣٥٩.
- (١٤) انظر مثلاً صحيح الأعشى للقلقشندي ٣ / ١٥٥، والوسائل في سامة الأوائيل للسيوطي ١٠٥.
- (١٥) انظر الكتاب ٢ / ٥٩ - ٦٠، ١٨٠.
- (١٦) انظر مجالس العلماء للزجاجي ١٩٣، ومفاتيح العلوم للخوارزمي ٣٠.
- (١٧) انظر الكتاب ١ / ١٣ - ٢٣، والمقتضب ٤ / ٢٠٢، ٢١٢.

- (١٨) انظر شرح المفصل ١/ ٧٢، وشرح الكافية للرضي ٢/ ٣، والفوائد الضيائية ٢/ ٧٣- ٧٤.
- (١٩) انظر مثلاً معاني القرآن للفراء ١/ ٥، ٩، ١٠، ١٧، ٢/ ٤، ٣٢، ٣٥، ٣٨٤، ومجالس ثعلب ٢/ ٤٣، وشرح شعر زهير لثعلب ٢٧٤، وإيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله ١/ ٤٨٢، ٤٨٤.
- (٢٠) يعني الفراء، فقد نسب الرأي له.
- (٢١) تأويل مشكل القرآن ٥٥٧.
- (٢٢) المصدر السابق ١٩.
- (٢٣) المصدر السابق ٢٠.
- (٢٤) انظر مثلاً تأويل مشكل القرآن ٥٢، ٥٣، ٢٥٧، وأدب الكاتب ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٧٠، ٢٧١، وتفسير غريب القرآن ٥٠، وعيون الأخبار ٢/ ١٥٩.
- (٢٥) تفسير غريب القرآن ٤٣.
- (٢٦) من الآية ٣٦ آل عمران.
- (٢٧) تفسير غريب القرآن ١٠٤. وضم التاء قراءة ابن عامر، ورواية أبي بكر عن عاصم. انظر السبعة لابن مجاهد ٢٠٤، والكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٤٠.
- (٢٨) انظر مثلاً الشعر والشعراء ١/ ١٠٤، وعيون الأخبار ٢/ ١٥٥، ١٥٨، وأدب الكاتب ٢٤٩، ٢٥٣، وتفسير غريب القرآن ١١٨، ١٢٣، وتأويل مشكل القرآن، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٢٥٧.
- (٢٩) الحديث في صحيح مسلم ٥/ ١٣١.
- (٣٠) تأويل مشكل القرآن ٥٢٤.
- (٣١) انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٤٦٨- ٤٦٩ مع تغيير يسير في العبارة.
- (٣٢) أدب الكاتب ٢٧٠، وانظر ٢٧١.
- (٣٣) المصدر السابق ٤٠٣.
- (٣٤) (فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى \* قَالُوا إِنَّ هَذَا لَشَاِرَانِ الْآيَاتِ: ٦٢، ٦٣ طه.
- (٣٥) تأويل مشكل القرآن ٥٢، وانظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٤.
- (٣٦) تأويل مشكل القرآن ١٤. وفي أدب الكاتب ٤٣٠: «السَّيْلُحُونَ» بنصب اللام.
- (٣٧) أشار إلى ذلك ابن مالك في الألفية، قال:
- وأجرى القول كظن مطلقاً عند سليم. نحو: قل ذا مشفقاً
- (٣٨) العاديات.
- (٣٩) عيون الأخبار ٢/ ١٦٠.
- (٤٠) تأويل مشكل القرآن ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٣٢، ٤٣٣.
- (٤١) من الآية ٣٣ الأحزاب.
- (٤٢) تفسير غريب القرآن ٣٥٠، وانظر ٣٧٦، ٣٩٨.
- (٤٣) انظر مثلاً تأويل مشكل القرآن ١٨، وتفسير غريب القرآن ٤٣، ٣٥٠، وأدب الكاتب ٤٢٦ - ٤٣٠.

- (٤٤) غريب الحديث ١/ ٤٠٢ علق بذلك على قول كثير عزة:  
لَا أَنْزُرُ النَّائِلَ الْخَلِيلَ إِذَا مَا عَتَلْتُ نَزْرَ الظُّنُورِ لَمْ تَرِمِ  
بكسر الراء في الديوان ٢٧٤، وفتحها في تهذيب اللغة (نزر) ١٣/ ١٨٧، واللسان (نزر) ٥/ ٢٠٤،  
ولعل الكسر لأجل القافية وسوغه مجاورته للميم المكسورة.  
(٤٥) تأويل مشكل القرآن ٢٠.  
(٤٦) انظر مثلاً أدب الكاتب ٢٤٥، ٢٦٧، وتأويل مشكل القرآن ٢٥٧، ٣٩٧، ٥٣١، وغريب الحديث  
١٣/ ٢.  
(٤٧) غريب الحديث ٣/ ٦٦٠، وطمار: المكان المرتفع، وطمر الرجل: وثب من علو إلى سفلى.  
(٤٨) تأويل مشكل القرآن ١٩.  
(٤٩) انظر مثلاً تأويل مشكل القرآن ٥٢٤، ٥٢٨، ٥٢٩، وأدب الكاتب ٢٥٣، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٦، ٢٦٧،  
٢٧٧، ٢٧٧، وتفسير غريب القرآن ٨٢٢، ١١٨، وغريب الحديث ٢/ ١٢، ١٣، والشعر والشعراء ١/  
١٠٤، ١٠٥.  
(٥٠) من الآية ٤٣ فاطر.  
(٥١) تأويل مشكل القرآن ٦٣، قرأ حمزة وحده من السبعة «مكر السيمى» بإسكان الهمزة تخفيفاً. انظر  
السبعة لابن مجاهد ٥٣٥، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢١٢.  
(٥٢) من الآية ٣٦ آل عمران.  
(٥٣) تفسير غريب القرآن ١٠٤، وتسكين التاء قراءة الجمهور. انظر السبعة لابن مجاهد ٢٠٤، والكشف عن  
وجوه القراءات ١/ ٣٤٠، وتقدم هذا قريباً.  
(٥٤) انظر غريب الحديث ٢/ ٦٣٢.  
(٥٥) انظر الشعر والشعراء ١/ ١٠٤.  
(٥٦) انظر مثلاً: تأويل مشكل القرآن ١٥، ٢٦، وأدب الكاتب ٢٢٦، ٢٣٧.  
(٥٧) انظر معاني القرآن للقرطبي ١/ ٩، ١٠، ١٧٢، ٢/ ٣١٩، وشرح شعر زهير ٢٢٤.  
(٥٨) انظر اللسان (جزم) ١٢/ ٩٧.  
(٥٩) تأويل مشكل القرآن ٢٥٧، وانظر ص ٥٠، ٥١، ٥٣، وأدب الكاتب ٢١٨، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٦٦.  
٤٨٣، ٤٨٤، ٥٦٤.  
(٦٠) انظر مثلاً تأويل مشكل القرآن ٥١٧، ٥٦٥، وأدب الكاتب ٤١٨.  
(٦١) انظر مثلاً تأويل مشكل القرآن ١٤، ١٥، ١٦، ١٨.  
(٦٢) انظر أدب الكاتب ٢٦٠ وما بعدها.  
(٦٣) أدب الكاتب ٢٤٤.  
(٦٤) انظر النعم ٤/ ١٥٣، والتصرع على التوضيح ٢/ ٢.

- (٦٥) انظر الكتاب ٣ / ٤٩٦ - ٤٩٨ ، ٤ / ٢١٧ .
- (٦٦) انظر مثلاً تأويل مشكل القرآن ٢٢٨ ، ٥٦٥ ، وأدب الكاتب ٢١٨ ، ٤١٨ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٢٠ ، ٥٢٣ .
- (٦٧) انظر تأويل مشكل القرآن ٥٢٣ .
- (٦٨) انظر مختصر المذكر والمؤث للمفضل «مجلة معهد المخطوطات العربية» ج ٢ عام ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م، ومعاني القرآن للفراء ١ / ٢ ، ومجالس ثعلب ١ / ٦٤ ، ٢ / ٣٩٥ ، ٤٧٧ ، وشرح القوائد السبع لابن الأنباري ٢٩ ، ٣٠٣ - ٣٠٤ ، ٣١٩ ، ٤٠٨ .
- (٦٩) انظر معاني القرآن للفراء ١ / ١٠ ، ٥٢ ، ٥٨ ، وكتاب مختصر في ذكر الألفاظ لابن الأنباري ١٩ ، ٣٢ .
- (٧٠) تأويل مشكل القرآن ٥٦٥ .
- (٧١) المصدر السابق ٥١٧ .
- (٧٢) المصدر السابق ٢٥٧ .
- (٧٣) انظر في ذلك الكتاب ٢ / ٦٠ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ومعاني القرآن للفراء ١ / ٥ ، ١٩ ، ومجالس ثعلب ١ / ٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢ / ٥٩٢ ، والموفي في النحو الكوفي ٩٢ .
- (٧٤) أدب الكاتب ٢٤٥ ، وانظر ٢٥٣ .
- (٧٥) تأويل مشكل القرآن ٢٢٦ ، وانظر أدب الكاتب ٢٦٢ ، وتفسير غريب القرآن ٣٠٦ .
- (٧٦) تأويل مشكل القرآن ٢٢٨ ، وانظر أدب الكاتب ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ .
- (٧٧) غريب الحديث ٣ / ٦٧٧ .
- (٧٨) انظر كتاب سيبويه ٢ / ٣٨٢ .
- (٧٩) انظر معاني القرآن للفراء ١ / ١٠٢ ، ٢ / ٢١٠ ، ٣ / ٢١ ، والمذكر والمؤث لابن الأنباري ٤٨٢ .
- (٨٠) انظر إيضاح الموقف والابتداء ١ / ٤٧٨ ، وشرح القوائد السبع ، ٤٨ .
- (٨١) انظر الكتاب ١ / ٤٢ .
- (٨٢) انظر المقتضب ٤ / ٥٠ .
- (٨٣) أدب الكاتب ٤٠١ .
- (٨٤) تفسير غريب القرآن ٢٠٦ .
- (٨٥) انظر مثلاً إعراب القرآن للنحاس ١ / ٥٠٨ ، ٢ / ٣٩٥ ، والجمل للزجاجي ٧٦ ، ٨٠ ، وإعراب ثلاثين سورة ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٧ ، والكشف عن وجوه القراءات ٢ / ٢٢٤ ، والتبصرة والتذكرة للصيمري ١ / ١٢٤ - ١٢٩ ، وإصلاح الخلل للبطليوسي ١٩٥ ، ٢٠٣ ، وأسرار العربية ٨٨ ، والتبنيان في إعراب القرآن ٢ / ٨٥٧ ، وشرح ألفية ابن معط ١ / ٦١٥ .
- (٨٦) انظر الكافية الشافية ٢٩ ، وشرحها ٢ / ٦٠٢ ، والتصريح على التوضيح ١ / ٢٨٦ .
- (٨٧) اللمع ٨٢ .
- (٨٨) الإيضاح العسدي ١١١ .

- (٨٩) انظر المقتضد في شرح الإيضاح / ١ - ٣٤٤ - ٣٤٥.
- (٩٠) انظر شرح الملح / ١ - ٤٥.
- (٩١) حاشية على الإيضاح ١١١. يقول الدكتور حسن شاذلي «محقق الإيضاح» إن هذه الحاشية كتبت سنة ٥٢٨ هـ. فهي سابقة لابن مالك.
- (٩٢) انظر معاني القرآن للفراء / ١ - ١٦، ١٧، ٥٩، ومجاس ثعلب / ٢ - ٥٨٨، وشرح القوائد السبع ٥٨٧.
- (٩٣) انظر الكتاب / ١ - ٣٣، ٣٤.
- (٩٤) أدب الكاتب ٢٦.
- (٩٥) تفسير غريب القرآن ٧٣.
- (٩٦) أدب الكاتب ٤٧٠، وانظر ٤١٨، ٤٤٤، ٤٧١، ٥٧٦.
- (٩٧) انظر أدب الكاتب ٤٧٠ - ٤٧١، ٤٧٩.
- (٩٨) وكذلك أثر عن الخليل استخدام التفسير. انظر الكتاب ٢ / ١٧٢، ١٧٣، ١٨١.
- (٩٩) انظر معاني القرآن / ١ - ٧٩، ومجاس ثعلب / ١ - ٢٦٥، ٢ / ٤٣٧.
- (١٠٠) انظر تفسير غريب القرآن ١٢٣، وأدب الكاتب ٢٧١، ٢٧٢.
- (١٠١) الكتاب / ١ - ٣٦٣، ٤٢١ - ٤٣٤، ١١ / ٢، ١٢، ١٣، ٣٣ - ٣٥، ١٩٢، ١٩٣.
- (١٠٢) انظر المقتضد / ١ - ٢٦، ٤ / ١٢، ١٤، ٥٣، ٣١٥.
- (١٠٣) انظر مثلاً التبصرة والتذكرة / ١ - ١٦٩ - ١٨١.
- (١٠٤) انظر مثلاً معاني القرآن للفراء / ١ - ١١٢، ١١ / ٢، ١٤٥، ٣٦٦، ٣ / ٣٩٨، ٥.
- (١٠٥) انظر شرح المفضل / ٣ - ٤٧، وحاشية الصبان على شرح الأسموني / ٣ - ٥٦.
- (١٠٦) انظر ما أشرت إليه قريباً من صفحات كتابيهما.
- (١٠٧) أدب الكاتب ٢٧٣. وانظر أيضاً غريب الحديث / ٢ - ٥٧٠، ٥٧١.
- (١٠٨) تفسير غريب القرآن ٤٢٨.
- (١٠٩) انظر أدب الكاتب ٢٨٥، ٢٨٥، ٢٩١، ٥٧٨، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٥، ٦٢١، وتفسير غريب القرآن ٢٥٠، ٢٦٧.
- (١١٠) انظر الكتاب / ١ - ٢٦٤، ٢٧٧، ٢ / ٣٨٢، والمقتضد / ٤ - ١٩٥، ٢١١، ٣٨٧.
- (١١١) انظر معاني القرآن / ١ - ٢٦، ٣٣، ٢ / ٥٨.
- (١١٢) انظر معاني القرآن / ١ - ٤٤، ٥٩، ٧١، ٢٣٥.
- (١١٣) انظر معاني القرآن / ١ - ١٧، ٧٥، ١٨١، وشرح القوائد السبع ١٨٢، ١٩٢.
- (١١٤) انظر معاني القرآن / ١ - ١٧٩، وشرح القوائد السبع ١٠٦، ٣١٥، ٤٠٥.
- (١١٥) انظر الكتاب / ١ - ٤٣٤ - ٤٤١، ٢ / ٣٧٧ وما بعدها.
- (١١٦) انظر مقدمة في النحو ٨٥ - ٨٦.
- (١١٧) غريب الحديث / ٣ - ٦٧٧.

- (١١٨) تفسير غريب القرآن ٨٢. وذلك في معرض حديثه عن الآية ذات الرقم ٢١٧ من سورة البقرة.
- (١١٩) الشعر والشعراء / ١ - ١٠٥.
- (١٢٠) انظر الشعر والشعراء / ١ - ١٠٤، وتأويل مشكل القرآن ٥٢، ٥٣، ٥٤، ١٠٠، ٢٥٢، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٢، ٤٣٣، ٥٣٧، ٥٤٣ وأدب الكاتب ٢٢٦.
- (١٢١) انظر مجالس ثعلب / ١ - ٢٠ وانظر شرح القصائد السبع ١١، ٢٩، ٣٦، وإيضاح الوقت والابتداء ١ - ١١٧، ١٣٢، ٢ / ٥٨٠.
- (١٢٢) انظر معاني القرآن / ١ - ٣٥٩.
- (١٢٣) من الآية ١٤٣ الأتعام.
- (١٢٤) تأويل مشكل القرآن ٣٣٩، وأعرابها الطبري في تفسيره ٨ / ٤٨ ترجمة وبدلاً.
- (١٢٥) انظر معاني القرآن ٣٥٩، وإعراب القرآن للنحاس ١ / ٥٨٦.
- (١٢٦) انظر ارتشاف الضرب ٧ / ٦١٩، والتصريح ٧ / ١٥٥.
- (١٢٧) تفسير غريب القرآن ٨٢.
- (١٢٨) انظر تأويل مشكل القرآن ٤٢٥، وتفسير ابن جرير ٣ / ١٩٩، وروح المعاني ٣ / ٢٢٩.
- (١٢٩) انظر تأويل مشكل القرآن ٤١٣.
- (١٣٠) انظر معاني القرآن للفراء ٣ / ٢٩٣، وتفسير ابن جرير ٣ / ١٩٧. فقله تعالى: (لا يلاف قريش) قريش: ضلة أي تتعلق بقوله تعالى (فجعلهم) القليل.
- (١٣١) تأويل مشكل القرآن ٢٤٧، وانظر معاني القرآن للفراء ٣ / ٢٠٧.
- (١٣٢) انظر الاقتضاب للبطلوسي ١ / ٧٦، وشرح أدب الكاتب للجواليقي ٢٤٩.
- (١٣٣) أدب الكاتب ١٢.
- (١٣٤) المصدر السابق ٣٣٣.
- (١٣٥) المصدر السابق ٦٣.
- (١٣٦) المصدر السابق ٦٣٠.
- (١٣٧) أدب الكاتب ٤٨٣ وانظر ٤٨٢.
- (١٣٨) المرجع السابق ٤٨٣ - ٤٨٤.
- (١٣٩) المصدر السابق ٢٤٩.
- (١٤٠) تأويل مشكل القرآن ٢٩٥.
- (١٤١) انظر معاني القرآن / ١ - ٤٢، ٤٣، ١٩ / ٢، ومجالس ثعلب ٢ / ٥٨٥.
- (١٤٢) عقد باباً في المقتضب ٣ / ٣٠٩ بعنوان «هذا باب مايجرى، مالا يجرى» لكنه استخدمه بعد ذلك الصرف.
- (١٤٣) الكتاب ٣ / ١٩٣ ومابعدها، والمقتضب ٣ / ٣٠٩ - ٤ / ٤.
- (١٤٤) وهذا المذهب يأخذ من المذاهب التي سبقته. انظر: أبو زكريا الفراء - مذهبه ٤٥٢ - ٤٥٣.

- (١٤٥) انظر تفسير غريب القرآن ٢٣، ٣٦، ١٥٩، غريب الحديث ٢ / ٢٦١، والشعر والشعراء ١٠٧.
- وأدب الكاتب ٧٠، ٢٢٩، ٢٤٥، ٢٥٣، ٢٨١ - ٢٨٧، ٥٦٥ - ٥٦٦.
- (١٤٦) أدب الكاتب ٦١٦.
- (١٤٧) المصدر السابق ٦١٧.
- (١٤٨) انظر أدب الكاتب ٤٠٥، ٦٥٧.
- (١٤٩) انظر الشعر والشعراء ١٠٥.
- (١٥٠) انظر معاني القرآن ١ / ٨، ٥٢، ٥٣، ١٦٦، ١٧٥، ١٧٧، ٣٧٤، مجالس ثعلب ١ / ١٣٢، ٢ / ٥٩٧، وشرح شعر زهير ٧٠.
- (١٥١) انظر الكتاب ١ / ١٣٥ - ١٣٦.
- (١٥٢) غريب الحديث ٢ / ٢٦٢.
- (١٥٣) تأويل مشكل القرآن ٢٤٧.
- (١٥٤) تأويل مشكل القرآن ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧.
- (١٥٥) تأويل مشكل القرآن ١٣١.
- (١٥٦) انظر تأويل مشكل القرآن ٢٤٣، وأدب الكاتب ٢٤١.
- (١٥٧) الإعراب عن قواعد الإعراب ١٠٩، وانظر الأشباه والنظائر ١ / ٢٠٤.
- (١٥٨) انظر شرح المفصل ٨ / ١٢٨، والبرهان في علوم القرآن ٣ / ٧٢، والأشباه والنظائر ١ / ٢٠٤.
- (١٥٩) انظر البرهان في علوم القرآن ٣ / ٧٠، ٧٢.
- (١٦٠) انظر مثلاً البرهان في علوم القرآن ٣ / ٧٢، والكلبيات للكفوي ٣ / ٤٠٧ - ٤٠٨، والإعراب عن قواعد الإعراب ١٠٨.
- (١٦١) الزخرف ٣٥ والتشديد قراءة عاصم وحزمة، وقرأ الباقر من السبعة بالتخفيف إلا ابن عامر فقد روي عنه الوجهان. انظر السبعة لابن مجاهد ٥٨٦.
- (١٦٢) الطارق. والتشديد قراءة عاصم وابن عامر وحزمة، أما التخفيف فقرأ به بقية السبعة. انظر السبعة لابن مجاهد ٦٧٨.
- (١٦٣) هكذا. ولعل الصواب لعلها.
- (١٦٤) تأويل مشكل القرآن ٤٥٢، وانظر ص ٢٤٧، وتفسير غريب القرآن ١٩، ٦٦ - ٦٧، ٤٩٩، وأدب الكاتب ٢٣٥ - ٢٣٨، ٢٤٠.
- (١٦٥) هكذا. والصواب: وكما أدخلت ما مع أي لقوا.
- (١٦٦) ١١٠ الإسراء.
- (١٦٧) تأويل مشكل القرآن ٥٣٢. وانظر أدب الكاتب ٢٤٩.
- (١٦٨) أدب الكاتب ٥٢٠.
- (١٦٩) تأويل مشكل القرآن ٢٤٣ - ٢٤٥، وانظر ١٨٣، ٢٤٨، ٣٠٤، ٣٥١، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٦٠، وتفسير



- غريب القرآن ٤٥، ١-٣، ١١٤، ١٥٦، ١٦٦، ٢٩١، ٣٢٤، ٣٣٧، ٤٧٧، ٤٨٨.
- (١٧٠) انظر أدب الكاتب ١٢، وتاويل مشكل القرآن ١٠٠.
- (١٧١) انظر أدب الكاتب ١٢، وتفسير غريب القرآن ٧٣.
- (١٧٢) انظر الكتاب ٤ / ٤٤ - ٤٥، ٨٦ - ٨٧.
- (١٧٣) أدب الكاتب ٥٣٩.
- (١٧٤) انظر تفسير غريب القرآن ٣٧، ومعاني القرآن للفراء ١ / ٤٥، وأبو زكريا الفراء ٤٥١.
- (١٧٥) انظر أدب الكاتب ٦٢٨ - ٦٣٠.
- (١٧٦) انظر «أبو زكريا الفراء» مذهب النحوي ٤٥١.
- (١٧٧) الكتاب ١ / ٣٣.
- (١٧٨) انظر تأويل مشكل القرآن ٢٩٦ - ٢٩٨.
- (١٧٩) من الآية ١٢٥ آل عمران.
- (١٨٠) قرأ بالفتح من السبعة: نافع وابن عامر وحزمة والكسائي. انظر السبعة لابن مجاهد ٢١٦، والكشف عن وجوه القراءات ١ / ٣٥٥.
- (١٨١) تفسير غريب القرآن ١١٠.
- (١٨٢) انظر أدب الكاتب ٢٦٦.
- (١٨٣) انظر أدب الكاتب ٢٥٠، ٤٠٢.
- (١٨٤) انظر التصريح ١ / ٥٨، وحاشية يس عليه، والهمع ١ / ١٥، والمصطلح النحوي ١٨١.
- (١٨٥) انظر تفسير غريب القرآن ٥٠.
- (١٨٦) انظر أدب الكاتب ٢٤٩.
- (١٨٧) انظر أدب الكاتب ٢٤٤، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٨٨.
- (١٨٨) الكتاب ٢ / ٣٨.
- (١٨٩) انظر تأويل مشكل القرآن ٥٦٢.
- (١٩٠) انظر التسهيل ٢٤٥، وكافية ابن الحاجب ٢٢٩، وشرح الكافية للرضي ٢ / ٣٨٣.
- (١٩١) من الآية ١٥٢ النساء.
- (١٩٢) تأويل مشكل القرآن ٥٣.
- (١٩٣) مجاز القرآن ١ / ١٤٢.
- (١٩٤) انظر أدب الكاتب ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧.
- (١٩٥) المصدر السابق ٢١٥، ٢١٩، ٢٢٢.
- (١٩٦) المصدر السابق ٢٢٥.
- (١٩٧) تفسير غريب القرآن ٢١٨.
- (١٩٨) المصدر السابق ٢٠٨.

(١٩٩٩) أدب الكاتب ٣٣٠ - ٣٣١.

(٢٠٠) الكتاب ١ / ١١٠.

(٢٠١) انظر تفسير غريب القرآن ٨٤، ٨٩، ١١١، وتأويل مشكل القرآن ٣٦٤.

(٢٠٢) انظر شرح المفصل ١٠ / ١٢١، والتصريح ٢ / ٣٩٧ - ٣٩٨.

(٢٠٣) تأويل مشكل القرآن ٥٦٥.

(٢٠٤) انظر جمهرة اللغة ٣ / ٤٩٤.

## المراجع

- ابن الأثير: المبارك بن محمد (ت ٦٠٦ هـ) الكامل في التاريخ (بيروت: دار صادر ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م).

- الأحرر: خلف بن حبان (ت ١٨٠ هـ) مقدمة في النحو، تح: عز الدين التنوخي - دمشق: مديرية إحياء التراث القديم ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م).

- الأزهرى: خالد بن عبد الله (ت ٩٠٥ هـ) التصريح على التوضيح (القاهرة: عيسى البابي الحلبي).

- الأزهرى: أبو منصور محمد بن أحمد (ت ٣٧٠ هـ) تهذيب اللغة، ت: عبد السلام هارون وآخرين (القاهرة: الدار المصرية للتأليف ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م).

- الألوسي: شهاب الدين محمود (ت ١٢٧٠ هـ) روح المعاني في تفسير القرآن (بيروت: إحياء التراث العربي).

- ابن الأنبارى: أبو البركات عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٧٧ هـ) أسرار العربية، تح: محمد البيطار (دمشق: مطبعة الترقى ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م).

- ابن الأنبارى: نزهة الألباء، تح: إبراهيم السامرائي (الزرقاء: مكتبة المنارة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م).

- الأنصارى: أحمد مكي، أبو زكريا الفراء (القاهرة: المجلس الأعلى لرعاية الفنون ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م).

- ابن برهان العكبري: عبد الواحد بن علي (ت ٤٥٦ هـ) شرح اللمع، تح: فائز فارس (الكويت: المجلس الوطني للتراث والفنون والآداب ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م).

- بروكلمان: كارل (ت ١٣٧٥ هـ) تاريخ الأدب العربي، ترجمة النجار (القاهرة: دار المعارف ط ٤).

- البطليوسي: عبد الله بن السيد (٥٢١ هـ) إصلاح الخلل الواقع في شرح الجمل للزجاجي، تح: حمزة النشترتي (الرياض: دار المريخ ط ١ / ١٣٩٩ هـ).

- الاقتضاب، تح: السقا وحامد عبد المجيد (القاهرة: الهيئة المصرية ١٩٨١ م).

- التنوخي المعري: المفضل بن محمد (ت ٤٤٢ هـ) تاريخ العلماء التحويين، تح: عبد الفتاح الحلو (الرياض: مطابع الهلال ط ١ / ١٩٨١ م).

- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨ هـ) تفسير سورة الإخلاص. تصحيح محمد النعساني (القاهرة: دار

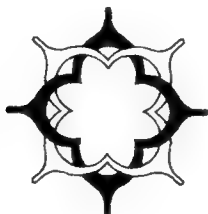
المطبعة الحسينية ١٣٢٣ هـ).

- ثعلب: أحمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ) شرح شعر زهير، ت: قباوة (بيروت: دار الآفاق ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م)، مجالس ثعلب، تح: عبد السلام هارون (القاهرة: دار المعارف).
- الجامي: عبد الرحمن (ت ٨٩٨ هـ) الفوائد الضيائية، تح: أسامة الرفاعي (بغداد: وزارة الأوقاف ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م).
- الجرجاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١ هـ) المقتصد في شرح الإيضاح، كاظم المرجان (بغداد: دار الرشيد ١٩٨٢ م).
- ابن جني: عثمان (ت ٣٩٢ هـ) اللع، تح: حسين شرف (القاهرة: عالم الكتب، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م).
- الجواليقي، أبو منصور موهوب بن أحمد (ت ٥٣٩ هـ) شرح أدب الكاتب (بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت).
- ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ط ١: ١٣٥٧ هـ).
- ابن الحاجب: عثمان بن عمر (ت ٦٤٦ هـ) الكافية في النحو، تح: طارق نجم (جدة: مكتبة دار الوفاء ط ١: ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م).
- ابن حجر: أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ) لسان الميزان (بيروت: مؤسسة الأعلمي ط ٢: ١٩٧١ م) ولعلها مصورة عن حيدر آباد ١٣٣٠ هـ.
- الحموي: ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ) معجم الأدياء (بيروت: دار المأمون، د. ت).
- أبو حيان: محمد بن يوسف (ت ٧٤٥ هـ) الارتشاف، تح: مصطفى النحاس (القاهرة: مطبعة المدني ط ١: ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م).
- ابن خالويه: الحسن بن أحمد (ت ٣٧٠ هـ) إعراب ثلاثين سورة (بيروت: دار مكتبة الهلال ١٩٨٥ م).
- الخطيب البغدادي: أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ) تاريخ بغداد (بيروت: دار الكاتب العربي، د. ت).
- ابن خلكان: أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) وفات الأعيان، تح: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، د. ت).
- الخوارزمي: محمد بن أحمد (ت ٣٨٧ هـ) مفاتيح العلوم (القاهرة: الكليات الأزهرية ط ٢: ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م).
- الداودي: محمد بن علي (ت ٩٤٥ هـ) طبقات المفسرين (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م).
- ابن دريد: محمد بن الحسن (ت ٣٢١ هـ) جمهرة اللغة (بيروت: دار صادر، مصورة عن حيدر آباد ١٣٥١ هـ).
- الذهبي: محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ) دول الإسلام (حيدر آباد: دائرة المعارف النظامية ١٣٣٧ هـ).
- سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط وزميله (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م).

- الرضي: محمد بن الحسن الاسترأبادي (ت ٦٨٦ هـ) شرح كافية ابن الحاجب (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت).
- الزبيدي: محمد بن الحسن (ت ٣٧٩ هـ) طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبي الفضل (القاهرة: دار المعارف ط ٢، د. ت).
- الزبيدي: محمد بن محمد بن محمد (ت ١١٤٥ هـ) تاج العروس، (القاهرة: المطبعة الخيرية ١٣٠٦ هـ).
- الزجاجي: عبد الرحمن بن إسحاق (ت ٣٤٠ هـ) الجمل في النحو، تح: عبد السلام هارون (القاهرة: مطبعة المدني ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م).
- مجالس العلماء، تح: علي توفيق الحمد (بيروت: دار الرسالة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م).
- الزركشي: محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤ هـ) البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبي الفضل (دار الفكر ط ٣: ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م).
- السمعاني: عبد الكريم بن محمد (ت ٥٦٢ هـ) الأنساب، تح: عبد الرحمن اليماني وآخرين (بيروت: مط محمد دمج ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م).
- سيبويه: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠ هـ) الكتاب، تح: عبد السلام هارون (القاهرة: الهيئة المصرية العامة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م).
- السيوطي: عبد الرحمن بن الكمال (ت ٩١١ هـ) الأشبا، والنظائر، تح: طه سعد (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م).
- بنية الوعاة، تح: محمد أبي الفضل (دار الفكر ط ٣: ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩).
- المزه، تعليق محمد أبي الفضل وآخرين (بيروت: المكتبة المصرية ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م).
- الهمع، تح: عبد العال مكرم (الكويت: دار البحوث العلمية ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٥ م).
- الوسائل في مسامرة الأوائل، تح: محمد السعيد زغلول (بيروت: دار الكتب العلمية ط ١: ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م).
- الصبان: محمد بن علي (ت ١٣٠٦ هـ) حاشية الصبان على شرح الأشموني (مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي، د. ت).
- الصيمري: عبد الله بن علي (ت قبل ٤٠٠ هـ) التبصرة والتذكرة، تح: فتحي علي الدين (دمشق: دار الفكر ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م).
- الطبري: محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) تفسير ابن جرير «جامع البيان» (دار الفكر ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م).
- أبو الطيب اللغوي: عبد الواحد بن علي (ت ٣٥١ هـ) مراتب النحويين، ت: محمد أبي الفضل (القاهرة: دار نهضة مصر، د. ت).
- أبو عبيدة: معمر بن المشني (ت ٢٠٩ هـ) مجاز القرآن، تح: محمد سزكين - القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ت).
- المكبري: أبو البقاء عبد الله بن الحسين (ت ٦١٦ هـ) التبيان في إعراب القرآن، تح: محمد الجاوي

- (القاهرة: عيسى الحلبي ١٩٧٦ م).
- العلمي: الشيخ يس (ت ١٠٦١ هـ) حاشية على التصريح (القاهرة: عيسى البابي، د. ت).
- الفارسي: أبو علي الحسن بن عبد الغفار (ت ٣٧٧ هـ) الإيضاح العضدي «حاشية عليه» تح: حسن شاذلي فهدو (الرياض: دار العلوم ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م).
- الفراء: أبو زكريا يحيى بن زياد (ت ٢٠٧ هـ) معاني القرآن، تح: أحمد يوسف ومحمد النجار (القاهرة: الهيئة المصرية ١٩٨٠ م).
- الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ) البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ت: محمد المصري (الكويت: جمعية إحياء التراث، ط ١: ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م).
- ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) أدب الكاتب (أ) تح: محمد الدالي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١: ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م). (ب) تح: محمد محيي الدين (بيروت: دار المطبوعات العربية، د. ت).
- إصلاح غلط أبي عبيدة، تح: عبد الله الجبوري (بيروت: دار القرب، ط ١: ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م).
- تأويل مختلف الحديث (بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت).
- تأويل مشكل القرآن، تح: أحمد صقر (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ط ٣: ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م).
- الشعر والشعراء، تح: أحمد شاکر (القاهرة: دار التراث ط ٣: ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م).
- عيون الأخبار (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة، مصورة عن طبعة دار الكتب).
- غريب الحديث، تح: عبد الله الجبوري (بغداد: إحياء التراث الإسلامي: ١٩٧٧ م).
- المعاني الكبير (بيروت: دار الكتب العلمية ط ١: ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م) «المقدمة».
- القفطي: علي بن يوسف (ت ٦٢٤ هـ) إنباء الرواة، تح: محمد أبي الفضل (القاهرة: دار الفكر العربي ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م).
- القلقشندي: أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ) صبح الأعشى، تعليق: محمد شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١: ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م).
- ابن القواس: عبد العزيز بن جمعة (ت ٦٩٦ هـ) شرح ألفية ابن معط، تح: علي الشوملي (الرياض: مكتبة الخريجي ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م).
- القوزي: عوض بن حمد، المصطلح النحوي (الرياض: شركة الطباعة العربية السعودية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م).
- القيسي: مكى بن أبي طالب (ت ٤٣٧ هـ) الكشف عن وجود القراءات السبع، تح: محيي الدين ومضان (الكويت: معهد المخطوطات ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م).
- ابن كثير: عماد الدين إسماعيل (ت ٧٧٤ هـ) البداية والنهاية (بيروت: دار المعارف، ط ٤: ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م).
- كثير عزة (ت ١٠٥ هـ) ديوانه، تح: إحسان عباس (بيروت، دار الثقافة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م).
- الكفوي: ابوبن موسى (ت ١٠٩٤ هـ) الكليات، تح: عدنان درويش ومحمد المصري (دمشق: وزارة

- الثقافة ١٩٨٢ م).
- الكتفراوي: عبد القادر بن عبد الله (ت ١٣٤٩ هـ) الموفي في النحو الكوفي، ت: محمد البيطار (دمشق: المجمع العلمي، د. ت).
- ابن مالك: محمد بن عبد الله (ت ٦٧٢ هـ) تسهيل الفوائد، ت: محمد بركات (القاهرة: دار الكتاب العربي ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م).
- شرح الكافية الشافية، ت: عبد المنعم هريدي (دمشق: دار المأمون، د. ت).
- ابن مجاهد: أحمد بن موسى (ت ٣٣٤ هـ) السبعة في القراءات، ت: شوقي ضيف (القاهرة: دار المعارف ١٩٧٢ م).
- الميسرد: محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) المختضب، ت: محمد عبد الخالق عضيمة (بيروت: عالم الكتب، د. ت).
- الفضل بن سلمة (ت ٣٠٠ هـ) مختصر المذكر والمؤنت، ت: رمضان عبد التواب (مجلة معهد المخطوطات العربية مجلد ١٧ ج ٢: ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م).
- ابن منظور: محمد بن مكرم (٧١١ هـ) لسان العرب (بيروت: دار صادر، د. ت).
- النحاس: أحمد بن محمد (ت ٣٣٨ هـ) إعراب القرآن، ت: زهير غازي (بغداد: وزارة الأوقاف ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م).
- ابن النديم: محمد بن إسحاق (ت ٣٨٥ هـ) الفهرست (بيروت: دار المعرفة، د. ت).
- ابن هشام: عبد الله بن يوسف (ت ٧٦١ هـ) الإعراب عن قواعد الإعراب، ت: على فودة (الرياض: جامعة الرياض).
- ابن يعيش: يعيش بن علي (ت ٦٤٣ هـ) شرح المفصل، (بيروت عالم الكتب، د. ت).



# تنصيب الأئمة وخطباء المساجد في عهد الملك عبد العزيز

للاستاذ محمد بن ناصر الشثري

إن استعراض واقع الدعوة في أنحاء الجزيرة العربية قبيل  
الملك عبد العزيز وخلال سنوات التوحيد يؤكد أن السمة  
السائدة لنشر مبادئ الدعوة هي الأسلوب التقليدي داخل نموذج قديم  
لمدرسة المسجد والكتّاب.

والحقيقة أن هذا الأسلوب قد حافظ على قدر كبير من آثار الدعوة  
السلفية والتراث العلمي القديم فضلاً عن تخريجه مجموعة من العلماء  
والقضاة.

فالمسجد هو القاعدة التي تنطلق منها رسالة المؤمن وفيه تتحقق  
العبودية بمعناها الصحيح. وهو المدرسة التي تربي المسلم من جميع  
الجوانب - علم وعمل، وشجاعة وجهاد وتواضع لله - وبذلك أثر  
المسجد في الرعيّل الأول. فكانوا مصليين وقادة فاتحين منتصرين.

ومن أهمية المسجد تنبثق أهمية الإمامة منه فهي مسئولية كبرى

أولاً الإسلام غاية فائقة دلّ على ذلك الشروط التي أفاض الفقهاء في شرحها وذهبوا إلى وجوب توافرها في الإمام وهي ليست مجال البحث ولا يقتصر دور الأئمة في المسجد على إمامة المصلين في الجماعات وخطبة الجمعة بل يكون لهم دورهم في التثقيف والتربية والتعليم، وذلك بعقد الندوات والمحاضرات التي تتعرض لمشاكل العصر والتي يتعرض لها المسلم وتوضح موقف الإسلام من هذه لمشاكل. والإمامة في اللغة: أمه : قصده وأمه وتأممه أيضاً: قصده وأم به إمامة: صلى به إماماً، وأم القوم: تقدمهم وصلى بهم إماماً.

والإمام: هو من يأتي به الناس من رئيس وغيره ومنه إمامة الصلاة والخليفة والقائد للجند، والقرآن للمسلمين، والدليل للمسافرين والحادي للإبل والقدر الذي يتعلمه التلميذ كل يوم في المدرسة يقال « حفظ الصبي إمامه»<sup>(١)</sup>.

**والإمامة في الاصطلاح:** قدوة المصلين وتولي شئون المسجد من صلاة وخطبة الجمعة<sup>(٢)</sup>.

والإمامة درس عملي في حق الاقتداء قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لقد كانت سنة المصطفى وسائر خلفائه الراشدين ومن سلك سبيلهم من ولاية الأمور في الدولة الإسلامية أن الأمير هو الذي يكون إماماً في الصلاة والجهاد، وكان صلى الله عليه وسلم إذا بعث أميراً على حرب كان هو الذي يتولى إمامة الصلاة وكذلك إذا استعمل رجلاً نائباً على مدينة، وكان نائبه صلى الله عليه وسلم هو الذي يصلي بهم ويقيم فيهم الحدود، وكذلك خلفاؤه بعده، ومن بعدهم من الأمويين وبعض خلفاء العباسيين وذلك لأن أهم أمر الدين الصلاة والجهاد<sup>(٣)</sup>.

فالإمامة مرتبة عالية وفضيلة ظاهرة لا يستحقها إلا من هو أهل لها. ولا شك إن وجود الإمام الصالح الحافظ لكتاب الله، الفاهم للإسلام



والشريعة وقضاياها فهماً صحيحاً يسهم في خدمة الدعوة إلى الله. فهي وظيفة الأنبياء ومن أداها بإخلاص على الوجه المشروع استحق أن يكون وريث الأنبياء كما في الحديث الذي أخرجه البخاري «العلماء هم ورثة الأنبياء ورثوا العلم من أخذه أخذ بحظ وافر»<sup>(٤)</sup>. هذا ويعدُّ الإمام قدوة للناس وغير خاف على أحد أثر القدوة الطيبة من تأثير حسن في التربية والسلوك.

ولا يفوتنا أن ننوه هنا إلى أهمية صلاة الجمعة وخطبة الجمعة التي أحاطها الإسلام بسياج من الأهمية وصل بها إلى درجة أنها واجبة وركن في أداء صلاة الجمعة وألزم المسلمين الإنصات لها وكأنهم في صلاة: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة: أنصت - والإمام يخطب - فقد لغوت»<sup>(٥)</sup>.

وأمر المسلمين في وقتها أن يدعوا كل عمل سواها بل حرم في وقتها البيع والشراء وكل المعاملات؛ قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع»<sup>(٦)</sup>.

قال الشيخ السعدي: يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها من حين ينادى لها. والسعي إليها أي المبادرة والاهتمام وجعلها أهم الأشغال.

﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾: أي اتركوا البيع إذا نودي للصلاة وامضوا إليها فإن ﴿ذَرَكُمُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من اشتغالكم بالبيع أو تفويتكم لصلاة الفريضة التي هي من أكد الفروض.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما عند الله خير وأبقى وأن من أثر الدنيا على الدين فقد خسر الخسارة الحقيقية من حيث يظن أنه يربح.

وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة<sup>(٧)</sup>.

فخطبة الجمعة شأنها عظيم في الدعوة إلى الله فهي حدث مهم وعنصر من عناصر تربية الأمة الإسلامية جدير بالعناية وخليق بأن يهتم المسلمون به.

قال ابن القيم: ( إنه يوم اجتماع الناس وتذكيرهم بالبدأ والميعاد وقد شرع الله سبحانه وتعالى لكل أمة في الأسبوع يوماً يتفرغون فيه للعبادة ويجتمعون فيه لتذكيرهم المبدأ والمعاد والثواب والعقاب ويتذكرون اجتماعهم يوم الجمع الأكبر قياماً بين يدي رب العالمين .

وكان أحق الأيام بهذا العرض المطلوب اليوم الذي يجمع الله فيه الخلائق وذلك يوم الجمعة فادخره الله لهذه الأمة لفضلها وشرفها فشرع اجتماعهم فيه مع الأمم لنيل كرامته فهو يوم الاجتماع شرعاً في الدنيا وقدرأ في الآخرة .

ولما خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وتعرف بذلك إلى عبادته على أسنة رسله وأنبيائه شرع لهم في الأسبوع يوماً يذكرهم فيه بذلك وحكمة الخلق وما خلقوا له في السموات والأرض وعود الأمر كما بدأه سبحانه وعدأ عليه حقاً وقولاً صدقاً<sup>(٨)</sup> .

### دور الإمام في الدعوة إلى الله:

يلزم إمام المسجد أن يكون قدوة صالحة لمن حوله ليؤدي دوره في الدعوة باعتبارها أهم الأعمال التي ينبغي أن يقوم بها في المسجد .

وفي خطبه والعديد من مجال واسع لدعوة الناس وتوجيههم إذا أحسن الإمام استغلالها . لهذا جعل الإسلام خطبة الجمعة تتكرر كل أسبوع تلبية لحاجة الناس إلى الإرشاد والعلم كما جعل خطبة العيد في العام مرتين ليتسنى للخطيب طرح الطول المناسبة لمشاكل الناس وما يتطلبه واقع المسلمين ، فالخطابة تعبير أعظم ووسيلة قولية لتبليغ الدعوة إلى الناس حيث يمكن للخطيب استمالة المدعوين وإقناعهم بما يدعوهم إليه فيملك قلوبهم ويشد انتباههم إلى محاسن الدين وأهمية التوحيد .

قال ابن القيم رحمه الله :

( ومن تأمل خطب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وخطب أصحابه وجدها

كفيلة ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب جل جلاله وأصول الإيمان الكلية والدعوة إلى الله وذكر آلائه تعالى التي تحببه إلى خلقه وأيامه التي تخوفهم من بأسه والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه. لاخطب غيره التي تفيد أموراً مشتركة وهي النوح على الحياة والتخويف بالموت فإن هذا أمر لا يحصل في القلب إيماناً بالله ولا توحيداً له ولا معرفة ولا بعثاً للنفوس على محبته فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة غير أنهم يموتون وتقسّم أموالهم ويلى التراب أجسامهم فياليت شعري أي إيمان حصل بهذا وأي توحيد ومعرفة وعلم نافع حصل به (٩).

ونظراً لأهمية الخطابة فقد حظيت بعناية المؤلفين (١٠) لما لها من أهمية بالغة في الدعوة إلى الله.

واهتم العلماء وولاة الأمر بإعداد الدعاة لهذه الوسيلة المهمة فضمنوها مناهج الدراسة في دور العلم والمعرفة.

ويجب أن يكون الخطيب ذا ثقافة واسعة في الدين والاجتماع والتاريخ والأدب وغير ذلك من المعارف حتي يملك قلوب الناس بحسن عباراته وصدق تعبيراته وجودة إلقائه.

( يجب أن تكون الخطبة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحياة الناس العامة وذلك لأن الناس لهم قضايا ومشكلات ولهم آمال وآلام ولهم مغامم ومغارم. فالخطبة الناجحة هي التي تعالج مثل هذه القضايا وتتحدث عن ذلك لتحقيق الدور الفعال لخطبة الجمعة التي جعلها الإسلام بمثابة زاد أسبوعي للمسلم يجد فيه حلاً لمشكلاته وتعليماً لما يخفي عليه وتوجيهاً لما يحتاجه من أمور دينه ودنياه (١١).

أما إلقاء الدروس والمحاضرات والندوات في المسجد سواء قام بها إمام المسجد أو غيره من العلماء فتأثيرها في نجاح الدعوة كبير.

( ومن أهم مزايا الدرس أنه أكثر فائدة من الخطبة والمحاضرة والندوة حيث يستطيع المشارك في حضور الدرس أن يسأل ويستفسر عن كل مايجول بخاطره أو يشكل عليه وبذلك تكون فائدته أعمق وأدق لقرب المدرس من الطلاب وإفساحه المجال لهم بالسؤال والتعليق والإضافة(١٢).  
أما المحاضرة فهي مجال رحب للدعوة إلى الله تعالى، من خلالها يستطيع : إمام المسجد أن يستقطب جمهوراً كبيراً ويؤثر فيه إذا قام بهذا الأمر كما ينبغي ويكون تأثيرها أكبر لو اختار المواضيع المناسبة للزمان والمكان واختار العلماء المختصين.

والندوة لا تقل في الأهمية عن المحاضرة وفائدتها إلا أنها تختلف عنها قليلاً، فالندوة يكون المتحدث فيها أكثر من واحد فتعم الفائدة جمهور المستمعين وغالباً تكون هناك توصيات وقرارات تعرض على الحاضرين للموافقة عليها نتيجة لما أسفرت عنه المناقشة وإن تعدد المتحدثين في الندوة دفعاً للملل وتعميماً للفائدة حيث يأتي المتحدثون على كل جوانب الموضوع محل الندوة.

وهكذا تتضح لنا أهمية الخطب والدروس والمحاضرات والندوات ودورهن في دعوة الناس وتوجيههم لذا كان على إمام المسجد إن يحرص على عقد الدروس والمحاضرات والندوات وأن يدعو إليها من علماء الأمة ومفكرها من يستطيع التأثير على الناس ودعوتهم إلى طريق الصلاح والهدى.

وهكذا تؤدي الجمعة والجماعات إلى تعميق المعرفة الدينية ويتأثر سلوك الفرد بالجماعة. ويؤثر فيها ذلك أن المسلم يسلك داخل جماعته الإسلامية سلوكاً ينسجم مع قيم هذه الجماعة ومثلها العليا. ونظراً لأهمية الإمامة فإن الدولة السعودية - منذ نشأتها كانت حريصة على تدعيم هذا المرفق المهم فقد اهتمت بتعيين الأئمة والخطباء فكانوا رجالها في مجال نشر الدعوة

السلفية وتثبيت أركانها في المجتمع فعندما دخل سعود الكبير الأحساء سنة ١٢١٠هـ وامتدت حركة الدعوة السلفية إلى الأحساء نقل لنا ابن بشر مايلي:

( أقام سعود قريئاً من شهر ورتب أئمة المساجد وأمرهم بالمواظبة على الصلوات وإقامة الجمع والجماعات ونادى بإبطال جميع المعاملات الربوية وماخالف الشرع .

ورتب سعود الدروس وجعل فيهم رجالاً علماء من قومه يعلمونهم التوحيد ويذاكرونهم ويعلمونهم أصول الإسلام وهم عبد الله بن فضل وإبراهيم بن حسن بن عيدان وأمير المرابطة محمد بن سليمان بن خريف وحمد بن حسين بن سبيت. (١٣).

ومع إشراقه الدولة السعودية الثالثة كأن أغلب المساجد بدون أئمة لقلة الدعاة وازدادت حدة المشكلة مع توالي الفتوح وتوحيد البلاد فقد اتسعت رقعة الدولة وازداد عدد المساجد فكان على الملك عبد العزيز أن يواجه هذه المشكلة وقد انتهج ابن سعود في هذا المجال عدة تدابير منها:

١- شغل المساجد الكبرى بأئمة وخطباء غير متفرغين ممن كانوا يشغلون مناصب القضاء والتدريس وغيرها، وذلك لما كان يتمتع به شاغلو هذه المناصب من درجة كبيرة من العلم فقد كان هؤلاء العلماء يوقظون بمواعظهم القلوب ويكشفون عن الشبهات ويدعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وكانت لهم خطأ ثابتة في نشر العلم ومكافحة الجهل خاصة وإن معظم رواد المسجد في هذه الفترة من العوام.

ومعظم هؤلاء العلماء قضوا حياتهم في نفع العباد ونشر العلم لوجه الله. منهم الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ فقد عينه الملك عبد العزيز إماماً في مسجد والده الإمام عبد الرحمن آل فيصل فاستمر إماماً وواعظاً ومدرساً في هذا المسجد وقام بذلك خير قيام.

كما كان رحمه الله إماماً للملك وقاضياً للجيش وواعظاً ومزهداً ولما استتب الأمر في الحجاز في مدنه وقراه جعله الملك عبد العزيز إماماً وخطيباً في المسجد الحرام سنة ١٣٤٤هـ وكما أسند إليه الملك عبد العزيز منصب رئاسة القضاء ورئاسة الأمر بالمعروف كما أسند إليه تعيين الأئمة في المساجد واختيارهم، كما جعل المشرف العام على أحوال المسجد الحرام والمدرسين والوعاظ فيه وتعيينهم وتوجيههم.

فعمرت المساجد والخطب وقام بالتدريس والوعظ في المسجد الحرام على أحسن ما يرام من تقرير عقائد السلف وتدريس مذهب أهل السنة والجماعة مع سائر العلوم الشرعية والعربية<sup>(١٤)</sup>.

(وعين الملك عبد العزيز الشيخ سعد بن عتيق إماماً في جامع الرياض الكبير وفي هذا المسجد الواسع عقده حلقتين للتدريس إحداها بعد طلوع الشمس حتى امتداد النهار والثانية بعد صلاة الظهر.

وكان حريصاً على ما يليق به من الدروس شديدة التثبت لمعنى ما يقرأ عليه فلا يلقى درسه ولا يسمعه من الطالب حتى يراجع عليه شروحه وحواشيه ومأقالات العلماء عليه وضبطه لغة ونحواً وصرفاً حتى يحرر الدرس تحريراً بالغاً لذا أقبل عليه الطلاب واستفادوا منه فوائد جليلة<sup>(١٥)</sup>.

٢- إنشاء المؤسسات التعليمية الحديثة التي تكون نواة لتخريج أئمة مؤهلين مثل إنشاء دار التوحيد في الطائف سنة ١٣٦٤هـ.

(ليس هناك شك في أن صاحب فكرة تأسيس دار التوحيد هو الملك عبد العزيز، وكان يهدف كما يقول التقرير الموجز الذي أعده الأستاذ أحمد الشائع عن هذه الدار- إلى تأسيس معهد ديني يخرج شباباً عقائدياً مؤهلين لوظائف القضاء والتعليم والعمل في السلك الحكومي والوظائف الدينية.

لا سيما وأن المملكة في بداية تأسيسها كانت في أشد الحاجة إلى مثل هذا

النوع من الرجال).<sup>(١٦)</sup>

وسوف يأتي مفصلاً - إن شاء الله - عن هذه الدار عند حديثنا عن إنشاء المدارس الحديثية كوسيلة من وسائل الدعوة في عهد الملك عبد العزيز.

٣- أسند إلى رئاسة القضاء الشرعي المهام المتعلقة بالمدرسين في المساجد. حيث نص نظام تركيز مسئوليات القضاء الشرعي<sup>(١٧)</sup> على مايلي :

(جميع المدرسين الرسميين في المساجد يكون تعيينهم وفصلهم وتنقلاتهم وغير ذلك من اختصاص رئاسة القضاء)<sup>(١٨)</sup>

وكان من حق رئاسة القضاء مراقبة الدروس بحيث لا يقر فيها ما يخالف العقيدة ويتنافى مع الشرع الحنيف .

ويتضح من النص السابق أن عملية تعيين الأئمة والخطباء قد دخلها شيء من التنظيم فقد أصبح هناك مدرسون رسميون للمساجد بدلاً من المتطوعين .

٤- توجيه الاهتمام بأحوال الأئمة: فإنه نظراً لتطور الظروف المعيشية وجب أن يمنح القائمون بوظيفة الإمامة والخطابة والدعوة إلى الله الحقوق المادية التي تؤهلهم للتفرغ الكامل لوظائفهم وتضمن لهم المعيشة الكريمة الهادئة فلا يشغلون بمعاشهم ومعاش أسرهم عن التفرغ لمهامهم .

ويأتي في مقدمة هذه الحقوق أن يلحق بكل مسجد دار تعد لإمام المسجد لتسهيل له مهمته للإمامة في كل الصلوات وفي الحر والبرد ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة فقد كانت حجرات نسائه ملاصقة للمسجد وأبوابها شارة إليه .

وقد تنبه الملك عبد العزيز لهذه الناحية فلما زادت موارد الدولة نتيجة تدفق البترول شرع يخصص رواتب للأئمة ويشترى لهم البيوت وبأيدينا

مخطوطة تضمن خطاباً من الملك عبد العزيز إلى الشيخ حمد بن عبد المحسن التويجري يكلفه بشراء بيوت للأئمة والمؤذنين<sup>(١٩)</sup>.

ولقد كان لإمام المسجد في عهد الملك عبد العزيز دور كبير في الدعوة خاصة بعد تأسيس الهجر سنة ١٣٣٠ هـ فقد كان لهم إسهامات في مجال الدعوة نتيجة لاتصالهم بالناس في اليوم خمس مرات . فمعلوم أن الله عز وجل قد أوجب الصلاة مع الجماعة ولم يُسْتَنَّ من هذا الواجب بدوي ولا حضري .

ولم يقتصر دور الإمام في هذه الفترة على مجرد الإمامة في الصلاة بل إن الإمام كان مرجعاً للجماعة في المسائل الدينية حتى كانوا يسألونه عما يشكل عليهم كما كان الإمام في ذلك الوقت يقوم بما يقوم به القاضي بالإضافة لعمله الأساسي في الإمامة والخطابة والوعظ والتدريس والتصدي لإفادة الطلاب والعامة حيث كان لمعظم الأئمة دروس خاصة للطلاب ودروس عامة لسائر الناس .

وكان الأئمة لهم نشاط كبير في الدعوة حيث كانوا يستغلون فرصة إقبال الناس على الدين فنشطوا في تثقيف العامة ونشر العلوم الدينية وكان من عادة الأئمة في أغلب المساجد عقب صلاة الفجر أن يختار أحد الحاضرين ويسأله عن ثلاثة الأصول<sup>(٢٠)</sup>.

من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

وهكذا يخصص المسائل الضرورية بمزيد العناية وكثرة المراجعة كما كان لإمام المسجد درس يومي عقب صلاة العصر وغالباً ما يكون في رياض الصالحين<sup>(٢١)</sup> أو الترغيب والترهيب<sup>(٢٢)</sup> ، ودرس آخر قبل صلاة العشاء يكون في تفسير ابن كثير<sup>(٢٣)</sup> أو السيرة النبوية.

وكانوا يتخللون الناس بالموعظة كراهة الملل ويزداد نشاطهم في الدعوة



مع مواسم الخير كـشهر رمضان وكان على المؤذن أن يتفقد جماعة المسجد ومعرفة المتخلف عن الصلاة حتى يؤديوا حقه في العيادة إن كان مريضاً أو المواساة إن كان مصاباً أو مجازاته إن كان متخلفاً بغير عذر وذلك بإذن الإمام .

وكان الأئمة والخطباء يرجعون إلى بعض الكتب والدواوين الوعظية في خطب الجمعة والأعياد وأشهرها في ذلك الوقت ديوان الشيخ عبد الله ابن حسين المخضوب<sup>(٢٤)</sup>.

وهذا الديوان يدل على أن صاحبه عالم كبير وأديب ضليع لما فيه من حلاوة الأسلوب واستعمال المحسنات البديعية بلا تكلف مما يدل على بلاغة مؤلفه وفصاحته وقدرته الكلامية<sup>(٢٥)</sup>.

أما بالنسبة لراتب الإمام فإنه في البلدان الكبيرة غالباً ما يكون هناك وقف على المسجد ينفق منه على المسجد وإمامه. وأما المساجد في البلدان الصغيرة التي ليس لها أوقاف فإن كان الإمام غنياً عمل تطوعاً وإلا جعل له جماعة المسجد راتباً .

وأما بالنسبة للهجر التي أنشئت في ذلك العصر وهي كثيرة فكان إمامهم قاضياً مكلفاً من قبل الملك عبد العزيز. فإن لم يكن هناك قاضٍ طلبوا من الملك عبد العزيز إماماً (مطوعاً) فيرسل لهم من يقوم بذلك مثل هجرة آل عاطف حينما طلب أميرهم من الملك مطوعاً فأرسل لهم الشيخ صالح بن مطلق، رحمه الله<sup>(٢٦)</sup>.

وكان له مرتب سنوي من بيت المال يصرف عادة من الزكاة تمرأ أو قمحاً ونحوه.


ولما تدفق البترول وازدادت موارد الدولة رتب الملك عبد العزيز الرواتب للأئمة واهتم بأحوالهم المعيشية .

## المواضع

- (١) الصباح المنير في غريب الشرح الكبير ج ٣/١ أحمد محمد العيوض .
- (٢) المعجم الوسيط ج ٢٧/١ د- إبراهيم أنيس ود- عبد الحليم منتصر .
- (٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٢٨ / ٢٦٠ .
- (٤) فتح الباري ج ١ ص ١٦٠ .
- (٥) أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي هريرة ( ج ٢ / ٤١٤ فتح الباري ) قال الحافظ وروى أحمد عن علي رضي الله عنه « من قال صه فقد تكلم ومن تكلم فلا جمعة له » .
- (٦) سورة الجمعة الآية (٩) .
- (٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر العدي ج ٧ / ٣٨٢ .
- (٨) زاد المعاد ج ١ / ١٤٤ .
- (٩) زاد في هدي خير العباد / لابن قيم الجوزية ج ١ / ١٤٥ .
- (١٠) مثل الشيخ علي محفوظ مؤلف كتاب «الخطابة» وهداية المرشدين - والشيخ محمد أبي زهرة مؤلف كتاب « الخطابة أصولها وتاريخها عند العرب »؛ والدكتور محمد طاهر درويش مؤلف كتاب « الخطابة في صدر الإسلام » .
- (١١) إرشادات لتحسين خطبة الجمعة - د- محمد عبد القادر ص ٣٥ .
- (١٢) راجع في ذلك ( تذكرة الدعاة ) البهي الخولي ص ٤٨٥ .
- (١٣) عنوان المجد في تاريخ نجد ج ١ / ١٢٩ ابن بشر
- (١٤) علماء نجد خلال ستة قرون / البسام ج ١ / ٨٢ - ٨٤ .
- (١٥) علماء نجد خلال ستة قرون / البسام ج ١ / ٢٦٧ .
- (١٦) الملك عبد العزيز والتعليم ص ٢٠٤ .
- (١٧) صدر في ١٤ / ١ / ١٣٧٢ هـ .
- (١٨) المرجع السابق ص ١٤٢ .
- (١٩) المخطوطة بدار الملك عبد العزيز برقم (٧١٩)
- (٢٠) ثلاثة الأصول: للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله استنتجها من فتنة القبر وأسئلة الملائكة لأهلها ... طبع عدة مرات .
- (٢١) رياض الصالحين: الإمام النووي .
- (٢٢) الترغيب والترهيب: المنذري .
- (٢٣) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير .
- (٢٤) ولد سنة ١٢٣٠ هـ وهو من بني هاجر .
- (٢٥) علماء نجد خلال ستة قرون / البسام ج ٢ / ٥٣١ .
- (٢٦) ولد سنة ١٣٠٧ هـ وقرأ على مجموعة من العلماء عين إماماً ومرشداً لهجرة الرين الأوسط عام ١٣٦١ هـ توفي عام ١٣٨٥ هـ (إتحاف اللبيب ص ١١٨) .

# الظروف المكانية والبيئية وعلاقتها بالدعوة الإسلامية

د. صلاح عبد الجابر عيسى

 يرتبط نجاح أي دعوة بمجموعة من العوامل التي تتعلق بمضمونها أو أهدافها أو أساليبها، ومن بين تلك العوامل التعرف الواعي على أحوال المدعوين، أو المستهدفين من الدعوة، ومواءمة أسلوب ومنهج الدعوة المستخدم مع تلك الأحوال، التي من أهمها أن المدعوين يعيشون في مكان معين له ظروفه الطبيعية والبشرية والاقتصادية، أو بمعنى آخر لهم بيئتهم المميزة والوصول إليهم يكون عبر طريق أو مكان مختار، كما أن اتخاذ مراكز إشعاعية مناسبة للدعوة يقوم- فيما يقوم عليه- على تقدير ظروف الموقع الجغرافي.

ويهدف البحث الحالي إلى توضيح العلاقات المكانية في بيئة الدعوة الإسلامية لكي يلم بها الداعية المسلم الذي يفهم مقتضيات أن

تكون دعوته علي بصيرة: «قل هذه سبيلي، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعن» ولنعالج هنا ظروف البيئة باعتبارها عوامل حتمية مؤثرة على عملية الدعوة، فليس للحتميات وجود في الفكر الجغرافي بحقيقة انتشار الإسلام. بل نعالجها كمجموعة من الاختيارات المكانية ينبغي أن يدخلها الداعية في اعتباره عند اختيار الأسلوب الأمثل للدعوة.

وفي عمل سابق للباحث أشار إلى أن دراسة الأبعاد المكانية للدعوة، «أو جغرافية الدعوة» يمكن أن تشكل مبحثاً رئيسياً ضمن جغرافية الإسلام الأصولية وأنها يمكن أن تتخذ بُعدين، بُعداً تاريخياً يتجه إلى تتبع دورها ونسقتها في نشر الإسلام وتكوين عالمه، وبُعداً واقعياً ومستقبلياً يهتم بتحديد الجهات التي تلزمها الدعوة الإسلامية، وتحليل ظروفها الجغرافية الشاملة لمعرفة القدر المطلوب والأسلوب المناسب للدعوة زماناً ومكاناً والمشكلات التي يمكن أن تواجهها وكيفية التغلب عليها.

وتأسيساً على ماسبق يحسن أن نعرض البحث في العناصر التالية:

- المفاهيم الأساسية.

- النظام المكاني لحركة الدعوة الإسلامية.

- علاقات الظروف البيئية بالدعوة الإسلامية.

**أولاً: المفاهيم الأساسية:**

تقع نقطة البحث الحالي عند ملتقى ثلاثة تخصصات علمية على الأقل، علوم الدعوة والاتصال، علم البيئة، علم المكان أو الجغرافيا، وقد تبدو لذلك أهمية توضيح بعض المفاهيم المستخدمة هنا (الدعوة - المكان - البيئة) من

وجهة نظر تخصصها، وتكاملها معاً، تجدر الإشارة إلى أن عدداً من الدراسات الحديثة في جغرافية الاتصال (المواصلات) والجغرافيا السلوكية قد تداولت مثل تلك المفاهيم وحاولت صياغتها في نظم ونماذج مكانية. ونشير بتركيز إلى تلك المفاهيم الثلاثة:

#### ١- الدعوة:

دونما إغفال للتعريف المعجمي لكلمة الدعوة، فإنه يمكن أن نركز فهمنا للدعوة بأنها عملية متكاملة لنقل وإبلاغ أفكار معينة من مصدر واحد أو عدة مصادر (داعية) إلى من لم تبلغهم - أو من بلغتهم على سبيل التذكير - تلك الأفكار (مدعوين) وذلك عبر مجموعة من أساليب ووسائل الاتصال. وتتضمن الدعوة أيضاً تأكيد تلك الأفكار لدى المدعوين عن طريق القدوة والممارسة، ما قد يستلزم معاشة الداعية للمدعوين، وقيام علاقات حياتية بينهما.

وتتحقق فريضة الدعوة من جانب الداعية إذا بلغ بأمانة مضمونها الصحيح بالحكمة، والموعظة الحسنة، ولكن نجاح الدعوة متوقف على السماع والإجابة من جانب المدعوين حين يقولون «سمعنا وأطعنا». والداعية إنسان مؤمن بفكرة، يدعو إليها بالكتابة والخطابة والحديث العادي والعمل الجدي في سيرته الخاصة والعامة، وبكل ما يستطيع من وسائل الداعية

وتتميز الدعوة الإسلامية بعدة خصائص أهمها أنها دعوة إلى الله، وأنها على خط مستقيم، وأنها واسعة السعة الكون، وأنها عالمية تخاطب الناس كافة خطاباً صادراً عن رب الناس.

## ٢- المكان:

اطلق بعض الجغرافيين على موضوع تخصصهم اسم «علم المكان» مقابلاً للتاريخ الذي هو علم الزمان، والمكان بهذا المعنى الواسع يشمل الأرض وما عليها، ولكن حين تركز المعالجات الجغرافية على العلاقة بين الأماكن، أو ما يطلق عليه العلاقات المكانية فإن اصطلاح المكان يتحدد في بعدين أساسيين، الموقع - الطريق، وهنا يتم دراسة خصائص المواقع وعلاقتها النسبية بما يحيط بها، وتقويم كفاءة الوصول إليها (شبكة الطرق)، وتتباين المواقع في ذلك فبعضها يحقق درجة كبيرة من المركزية أو الوسطية، والبعض قد يتصف بالهامشية أو التطرف، ومنها ما يكون بين النوع الأول أكثر أهمية في نظم الحركة البشرية والاقتصادية على سطح الأرض ومنها حركة الدعوة الدينية، بينما النوع الأخير محدود القيمة.

وقد أثبتت الدراسات الجغرافية الحضارية لمنطقة الشرق العربي، مثلاً - أن موقعها الجغرافي كان ولا يزال - متوسطاً في العلاقات الإقليمية والعالمية، ولذلك فإنها قامت بدور «الوساطة التجارية من جانب» وبدور «الدعوة والبلاغ» الفكري والروحي والاجتماعي من جانب آخر، وكان مهبط الديانات الثلاث بحق أوفق مكان لكي تنتشر منه تلك الديانات بسهولة إلى بقية العالم المعمور.

## ٣- البيئة:

بدأ استخدام هذا التعبير في عالم النبات، ثم أصبح مفهوماً متداولاً في كثير من العلوم ليدل على مركب أو مجمع من العناصر الطبيعية، أو

البشرية المتداخلة، والتي تترابط فيما بينها ترابطاً سببياً أو وظيفياً، وأصبحت البيئة مذهباً فكرياً تبناه بعض العلماء أوائل هذا القرن - ومنهم جغرافيون - لتفسير علاقة سلوك الإنسان بالظروف الطبيعية، واستقر عندهم أن الإنسان يخضع لها وفق قوانين حتمية، ولكن سرعان ما انتبه العلماء إلى أن هذا الفكر يحول دون الإدراك الصحيح للأمور، وأصبح الفهم السليم للبيئة أنها تضم مجموعة من العناصر المترابطة التي يتخير الإنسان منها ما يناسبه، ويتفاعل معه، ويحاول تطويعه أو التكيف معه، وهكذا أصبح يشار إلى الظروف البيئية باطمئنان إلى عدم الوقوع في خطأ التفسير الحتمي حين دراسة سلوك الإنسان على سطح الأرض ومنه نشاط الدعوة الدينية، وأصبحت دراسة «وطن الدعوة»، أو بيئة الدعوة مقدمة ضرورية لمتابعة حركة وتطور ونتائج نشاط الدعوة الإسلامية في منطقة ما، مثلما فعل حسن عبد الظاهر في دراسته للدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا، حيث يعبر عن وطن الدعوة بأنه الوعاء الذي تمت فيه، ويبدأ بتحديدته طبيعياً وبشرياً ثم يدرس ظروفه الطبيعية العامة، وظروف سكانه سلالياً واثولوجياً ولغوياً وذلك قبل أن ينتقل إلى دراسة تطور الدعوة وعملياتها وعواملها وأساليبها.

وقد سجل فتحى يكن سنة ١٩٦٨ أن تجارب الحركة الإسلامية في الأربعين عاماً السابقة على ذلك التاريخ قد أوضحت أهمية ملاحظة الفوارق الطبيعية بين بيئة وأخرى في عملية تطوير أساليب الدعوة الإسلامية، فما يقاس على الدعوة في بيئة لا يمكن أن يقاس عليها في كل بيئة أخرى.

المهم أنه يمكننا أن نبرز نوعاً من الترابط والتكامل بين المفاهيم الثلاثة السابقة في عملية الدعوة الإسلامية، إذا ركزنا كل مفهوم في أخص خصوصياته:

فالدعوة تتلخص في مضمون فكري يتم إبلاغه.  
والمكان يتلخص في نظام حركة وانتقال إشعاعي.  
والبيئة تتلخص في علاقات متفاعلة مع سلوك الداعية وأسلوب ومنهج الدعوة.

### ثانياً: النظام المكاني لحركة الدعوة الإسلامية:

حاول كثير من الجغرافيين رصد وتنظير أنماط تدفق (حركة) الظواهرات الجغرافية على سطح الأرض، ومن بينها سلوكيات تدفق المعلومات في مجالات الجغرافيا البشرية، وقد وُجد أن هناك أكثر من نمط أو نظام لحركة الظواهرات في المكان.

وباستثناء حركة دوران الأرض حول نفسها يومياً أو حول الشمس سنوياً- يمكننا تبعاً لوليام كوفي William Coffey أن نميز بين نمطين من الحركة المكانية على سطح الأرض هما: الحركة الدائرية Circulation، والانتشار Diffusion.

### ١- الحركة الدائرية:

وتعني الدائرية أن الحركة تكون تفاعلية بين عناصر مرتبة ومتتابعة داخل نظام مكاني طبيعي أو بشري، ويمكن أن تتفرغ هذه الحركة، أو يغذيها رافد جديد في كل حلقة من التتابع، وعلى ذلك نستطيع أن نحدد في نمط الحركة الدائرية مجموعة أو سلسلة من العناصر المتدفقة أو المتحركة.



وقد ظهرت في الكتابات الجغرافية الحديثة محاولات عديدة لتنظير هذه النظم والتي تعتمد في معظمها على مرور العناصر المتحركة على مرشحات، أو خلايا تؤثر فيها وتتأثر بها بحيث تخرج تلك العناصر بصورة مغايرة لما دخلت به إلى تلك المرشحات، وهذه نظرية المدخلات والمخرجات في بناء النظم المكانية.

ونشير هنا إلى نموذجين لنظم الحركة الدائرية في مجال الاتصالات- والدعوة بالتالي:

النموذج الأول أبلر Abler سنة ١٩٧٤ انظر شكل (رقم ١). ومفاده أن الأشخاص أو الجماعات يستقبلون المعلومات البيئية عن طريق ثلاث وسائل وهي الخبرة الشخصية، والاتصال الثنائي، والاتصال الجماهيري، وتمثل الأفكار الموجودة (نظريات ونماذج) مرشحات تسمح بمرور بعض المعلومات بصورتها الحقيقية أو المعدلة أو تمنع بعضها عن المرور، المهم أن البيئة السلوكية تتألف من تلك المعلومات بعد ترشيحها وتتفاعل تلك المعلومات مع حاجات ورغبات الأفراد، فتسفر عن قرارات سلوكية يتخذها الإنسان في المكان. وتصبح هذه القرارات أحد المعلومات البيئية المستقبلية في دورة تفاعل جديدة بنفس النظام.

أما النموذج الثاني فقد وضعه ماجد طهراني سنة ١٩٧٧ (شكل ٢) ويتألف هذا النظام من العناصر التالية :

- مرشد، وهو القائد الذي يضع استراتيجية النظام بعد التفاعل مع الظروف البيئية المتغيرة، وذلك كان دوره بمثابة تغذية ايجابية للنظام.
- المدخلات، وهي الموارد بأنواعها وكذلك الأهداف الموضوعية.
- وسيلة الاتصال، من حيث تركيبها (مقابلة- وسيلة تصويرية- سماعية- مرئية- نشر إعلامي)، ومن حيث وظيفتها أو المجال الذي

تخدم فيه.

- مخرجات النظام، وهي القرارات المتخذة.  
وهناك تغذية سلبية للنظام تتمثل في المعوقات بكافة أنواعها.

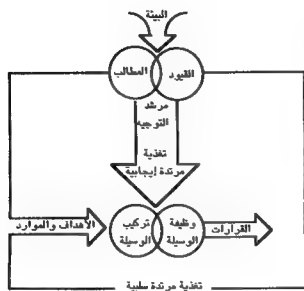
## ٢- الانتشار:

ويعني تدفق أو انتقال أي شيء مادي أو غير مادي من مكان إلى آخر، ويحدث الانتشار سواء داخل النظام المكاني، كما قد يحدث في حالة عدم وجود نظام. وإن كان الملاحظ أن الانتشار يحدث عموماً وفق نسق مكاني مميز، فهناك من يرى أن معظم مظاهر الحركة على سطح الأرض هي حالات خاصة للتعرية بمفهومها الطبيعي، والتي تتمخض عن انتقال أو انتشار التربة من نقطة معينة إلى نقطة أخرى أو طاً منسوباً.

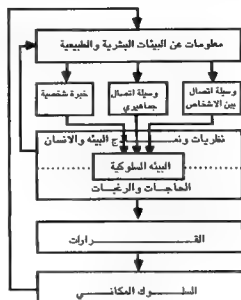
ويهمنا بعد هذا العرض معرفة خصائص النظام المكاني لحركة الدعوة الإسلامية وموقعه بين تلك الأنماط من النظم.

ويتضح من استقراء حالات متعددة للدعوة الإسلامية وانتشار الإسلام في أمكنة وأزمنة مختلفة، أن النظام المكاني لحركة الدعوة الإسلامية أقرب إلى النوع الانتشاري منه إلى النوع الدائري، فهذا الأخير يتميز بأنه مغلق على نفسه، كما يقتضي وجود تغذيات مرتدة إيجابياً أو سلبياً تؤثر على كل النظام، بينما النوع الانتشاري مفتوح، غير محدود المدى، وهذا مايناسب عالمية واستمرار الدعوة الإسلامية، وفي كل من النوعين توجد المرشحات التي تؤثر على القرار.

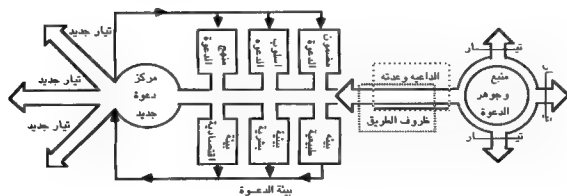
أي أن نظام حركة الدعوة الإسلامية يأخذ من النوع الانتشاري معظم خصائصه، ومن النوع الدائري خاصية وجود تغذية مرتدة- في بعض عناصر النظام.



نموذج تصنيفي للاتصال  
«المدخلات المخرجات» «عن الطهراني»  
شكل رقم (٢)



نموذج الاتصال  
للسلوك المكاني للإنسان  
(نقلا عن Abler)  
شكل رقم (١)



تصور للنظام المكاني لحركة  
الدعوة الإسلامية  
شكل رقم (٣)

ويمكن أن تتصور بناء النظام المكاني للدعوة الإسلامية من ثلاث وحدات مكانية ووظيفية (انظر شكل رقم ٣).

١- منطقة المصدر أو المنبع حيث تخرج الدعوة منها، ويتركز بها جوهر الدعوة الذي يظل ثابتاً مهما انتشرت في الزمان والمكان، والجوهر هنا هو الدعوة الخالصة إلى الله في أكمل صورها وأتم أركانها.

٢- منطقة المصب، حيث تصل الدعوة وتتم، أو هي المنطقة المستهدفة، أو بيئة المدعويين، وهنا تمارس عملية الدعوة بشكل مركز متفاعل مع ظروف هذه البيئة. وقد تبعد منطقة المصب أو تقترب نسبياً من المنطقة الأولى.

٣- طريق الدعوة، أو مجراها، ويقع بين المنطقتين السابقتين ويتحرك فيه داعية، يحمل مضموناً معيناً، وله أساليب ومناهج يستخدمها في نقل الدعوة إلى منطقة المصب.

أما عن طبيعة واتجاهات الحركة بين وداخل الوحدات السابقة فيمكن تصورها كالطريقة الحادثة في نظام التصريف النهري.

- فالمنبع قد يخرج منه أكثر من طريق للدعوة إلى بيئات متعددة، وتتأثر الحركة فيما بينهما بدرجة الاختلاف في النسب، أو المتاح في المنبع والمطلوب في المصب.

- تتأثر حركة الدعوة بالظروف المحيطة بطريقها، وقد تكون هذه الظروف إيجابية تغذي التيار أو تستفيد منه، وقد تكون سلبية.

- يتفاعل تيار الدعوة الواصل إلى المصب مع الظروف البيئية فيه، وبذلك يتشكل أسلوب ومنهج للدعوة داخل هذه البيئة يناسب ظروفها.

- بيئة المصعب في الدعوة الإسلامية لا تستمر بهذه الصفة على الدوام، بل تتحول في مرحلة ما إلى منبع لمصب جديد إذا ظهرت مقتضيات الحركة والتصريف فيما بينها، ويستمر التيار الرئيسي متدفقا من المنبع الرئيسي إلى المصببات المنتشرة والمتجددة حوله باتساع، وبحيث يظل النمط الإشعاعي سائداً.

- قد تحدث عملية تجديد لشباب الدعوة على طول المجري إذا أصاب الحركة نوع من الشيخوخة والركود، مثلما يحدث تجديد شباب التيار النهري. ونتيخز من حالات الدعوة الإسلامية نماذج تؤكد النظام السابق وصفه.

**الحالة الأولى:** انتظمت حركة الدعوة فيها أسرة أسهمت في نشر الإسلام في جزر وأشباه جزر جنوب شرق آسيا، وهي أسرة السيد الشريف أحمد ابن عيسى العريضي العلوي، الذي هاجر بأسرته من البصرة إلى حضرموت سنة ٣١٧هـ، وانتقلت منها إلى السند أواسط القرن السادس الهجري، واستوطنت مدينة أحمد آباد، وأنتشرت ذريته - وخصوصاً أسرة آل عبد الملك العلوي في الهند والهند الصينية وجزر أندونيسيا في منتصف القرن السابع الهجري، وينتسب معظم أمراء وسلاطين جزر أندونيسيا إلى هؤلاء العلويين، وكان الداعية الأول في جاوه الشرقية هو الشريف «رحمت» وكانت طريقتهم في الدعوة اتخاذ بيوتهم معاهد وملاجئ لإيواء المريدين من طلاب العلم، ثم بثهم إلى القرى والنواحي، كما تزوج بعض أفراد تلك الأسرة من أبناء الأقاليم المجاورة. (انظر شكل ٤).

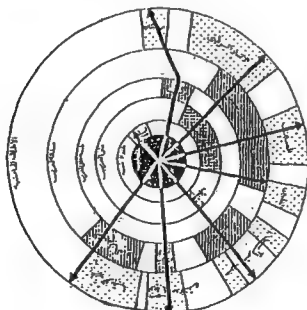
**الحالة الثانية:** تتمثل في حركة المرابطين للدعوة الإسلامية في غربي

أفريقيا في القرن الخامس الهجري (١١ ميلادي)، وقد اعتمدت على رجل دولة، ورجل دعوة، بمعنى آخر اندمجت الدعوة والدولة في هدف واحد هو نشر الإسلام، وقد شملت دولة المرابطين أراضي المغرب العربي وغرب أفريقيا حتى أواسط نهر النيجر، وكانت لها عاصمة شمالية في مراکش وعاصمة جنوبية في تمكتو، وفي القرن السابع الهجري امتدت الدعوة إلى إمبراطورية مالي الإسلامية من المحيط غرباً إلى بلاد برنو شرقاً، وفي القرن الثاني عشر الهجري قامت دولة الفولاني الإسلامية بدور الدعوة إلى الشرق من دولة مالي. والجدير بالذكر أن أساليب الدعوة في غرب أفريقيا كانت تمارس من خلال هجرات القبائل، وقوافل التجارة، والدعاة والعلماء. (انظر شكل ٥)

**الحالة الثالثة:** عن العالم الإسلامي ككل، وتتمثل في محاولة جمال حمدان لتصور هيكل تجريدي لرفولوجية العالم الإسلامي وفقاً لخمسة أسس، هي عُمُر أو تاريخ انتشار الإسلام، وكثافة الإسلام، ونوعيته. ونسبة العرب، ونسبة اللغة العربية. وقد لاحظ أن هذا الهيكل يتألف من عدة انحدارات تخرج إشعاعية - وبالتالي حلقيه - من نواة داخلية (هي مصدر الدين الإسلامي) حتى تنتهي في أطراف هامشية، وبحيث يكثر تركيز الأسس الخمسة السابقة في الداخل، ويقل تركيزها كلما اتجهنا إلى الخارج أو نحو الأطراف، شكل (٦).

### ثالثاً: علاقة الظروف البيئية بالدعوة الإسلامية:

تختلف درجة وطبيعة العلاقة بين كل عنصر من عناصر البيئة وبين الدعوة الإسلامية، ويحسن أن نركز في هذا الجزء على أكثر هذه العناصر



قوة في علاقتها بالدعوة مضموناً وأسلوباً ومنهجاً وهي كما يلي:

#### أ- ظروف البيئة الطبيعية:

وتتضمن خصائص الموقع وسطح الأرض والمناخ والبيئة الحيوية من نبات وحيوان. ومن المهم إلمام الداعية بفكرة عن تلك الظروف في البيئة المستهدفة للدعوة ودرجة تشابهها مع بيئته الأصلية، فكلما كانت درجة التشابه كبيرة كانت هناك الألفة المسبقة بين الداعية والمكان، أما إذا اختلفت الظروف كثيراً فلا بد من مراعاة أساليب التكيف المطلوبة بين الداعية وظروف المنطقة الجديدة المستهدفة للدعوة. ولا يقلل هذا من افتراض أن الداعية يحسبُ عند الله مايلقاه من ظروف صعبة في البيئة الجديدة، ولكن كلما قلَّت تلك الصعوبات كلما تهيأت الفرصة أكبر لمهمة الدعوة بنجاح وفي زمن أقصر.

#### ب- الظروف البيئية البشرية:

ويمكن إبراز أكثرها أهمية في:

١- توزيع السكان ومعرفة مراكز توطنهم، والسكان هنا هم المستهدفون بالدعوة، وتفيد هذه المعرفة في تدبير الإمكانات اللازمة من أعداد الدعاة، ولكن ليس حجمُ السكان قرينة كافية لتقدير المطلوب من الدعاة، ولكن يؤثر على ذلك أيضاً نمط توزيع السكان بين التركيز والتبعثر، فالسكان المتجمعون في مدن وقرى، سهل - مع كبر عددهم - إبلاغهم الدعوة بكفاءة وسرعة أكثر منها للسكان المنتشرين أو غير المستقرين كالبدو الرحل مثلاً.

وقد نلاحظ هنا أن الدعوة الإسلامية في العالم الغربي تتخذ مراكزها في



المدن الكبيرة نسبياً، ومنها تنتشر إلى خارجها.

٢- الخصائص الاجتماعية والثقافية للسكان، وأهمها العادات والتقاليد، وخصائص النوع والسن، والزواج، ودرجة التعليم والخبرة، والثقافة العامة. ويترتب على هذه الخصائص أمور حيوية مرتبطة بالدعوة، منها:

- نوعية القضايا الاجتماعية السائدة، ومدى توافقها مع روح ومضمون الدعوة، وأساليب مواجهتها.

- أسلوب المخاطبة والإقناع، لغةً ومنهجاً، فكل فئة ثقافية مدخل أنسب للإبلاغهم.

- سرعة الاستجابة من جانب المدعويين، فأصحاب المستويات الاجتماعية والثقافية البسيطة قد يكونون أقل تأثراً بنوازع الاستعلاء والمكابرة أمام بديهيات الدعوة.

- تكوين كوادر جديدة للدعوة للانتشار خارج بيئة المدعويين.

ومن الطبيعي أن اختلاف الخصائص الاجتماعية والثقافية للسكان يُنشئ أنماطاً كثيرة من علاقات التفاعل مع الدعوة سلباً وإيجاباً وهذا لا يحتاج إلى ضرب الأمثلة.

ج- الظروف البيئية الاقتصادية:

ومن أكثرها تأثيراً:

١- نوع الحرفة أو النشاط الاقتصادي للسكان، إذ قد يرتبط بكل حرفة قضايا سلوكية ودينية لا توجد في غيرها، مما ينبغي أن يُعَدَّ الداعية

نفسه وعلمه وأسلوبه لمواجهتها، وإذا ضربنا بفريضة الزكاة مثلاً نجد أن أكثر أنواعها شيوعاً في بيئة الزراعة هي زكاة الزروع والثمار، وفي البيئات الرعوية زكاة السائمة (الدواب)، وفي البيئات الحضرية والتجارية زكاة التجارة والتقدين، وفي المناطق التعدينية زكاة المعدن والركاز. هذا بالإضافة إلى أن الحرفة عادة ما ترتبط بمستوى دخل معين وظروف حياتية قد تُعينُ الداعية على فهم موقف المدعو من الدعوة. كما أن طبيعة العمل بكل حرفة يوفر أوقاتاً أنسب من غيرها يمكن أن تمارس فيها أساليب الدعوة.

٢- المشكلات الاقتصادية التي تعاني منها البيئة، كمشكلة البطالة، أو تدهور الإنتاج، وانخفاض مستويات الدخل. وهنا يمكن تَبَنِّي منهج وأسلوب للدعوة لمواجهة بعض هذه المشكلات وإبراز الحلول العلمية لها واشتراك المدعوين فيها وبث كل من الدعوة الدينية والدينية في اندماج منظم يضمن النجاح للدعوة الإسلامية المتكاملة عن قناعة بجداولها في صلاح الدنيا والآخرة.

٣- طرق النقل والمواصلات: فإذا كان النقل يختص بالسلع والمواد والأشخاص، والمواصلات تختص بالأفكار مكتوبة ومسموعة ومرئية، فإن توافر وسائل النقل والاتصال من الأمور اللازمة جداً في تحديد منهج وأسلوب الدعوة في أية بيئة من البيئات، ولذا يلزم أن يلم الداعية بالمتاح من تلك الوسائل ويُرَتَّب عليها أنسب أسلوب يستخدمه من الدعوة، ويجدر ذكر أن التقدم العلمي الكبير المستمر في وسائل الاتصال أصبح أداة خطيرة وفعالة في مجال نقل الدعوات والأفكار،

فهي إذا أُسيئَ استخدامها يمكن أن تتحول إلى معاول هدم سريعة لتقويض ما أسسته الدعوة الإسلامية، أما إذا أُحسنَ توظيفها في مجال الدعوة الإسلامية، فإنها تختصر كثيراً من الوقت في بث هذه الدعوة إلى الملايين من البشر المتعطشين إلى دعوة رشيدة تجذبهم إلى طريق ربهم وخالقهم، سواء كانوا من غير المسلمين، أو من المسلمين الذين يلزمهم التذكير المستمر بأمور دينهم ودنياهم.

### خاتمة:

- وفي ختام هذا البحث يمكن أن نؤكد على الاستخلاصات التالية:
- هناك علاقة أكيدة بين الدعوة كمضمون، وبين المكان كنمط حركة، وبين البيئة كعناصر متفاعلة مع عملية الدعوة في تفاعل اختياري وليس حتمي.
  - النظام المكاني لحركة الدعوة الإسلامية نظام انتشاري إشعاعي متجدد، وليس نظاماً دائرياً متردداً، وهذا يتفق مع طبيعة الدين الإسلامي كدين عالمي خاتم.
  - ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار اختلاف الظروف البيئية في اختيار الأسلوب والمنهج. بل والمضمون في بعض الأحيان - المستخدم في الدعوة الإسلامية في بيئة من البيئات، وتبدو أهمية ذلك مع حقيقة اتساع العالم الإسلامي وتنوع بيئاته كثيراً، فضلاً عن بيئات العالم ككل.

## المصادر والمراجع

### أولاً: مصادر ومراجع باللغة العربية

- ١- القرآن الكريم
- ٢- البهي الخولي، تذكرة الدعاة، القاهرة ١٩٧٩م.
- ٣- جريفت تيلور، الجغرافيا في القرن العشرين، الجزء الأول، ترجمة غلاب وأبو الليل، القاهرة ١٩٨٢م.
- ٤- جمال حمدان، العالم الإسلامي المعاصر، القاهرة ١٩٧١م.
- ٥- حسن عيسى عبد الظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٩٨١م.
- ٦- سليمان حزين، المشرق العربي بين الماضي والحاضر. دراسة في الجغرافيا الحضارية، المجلة الجغرافية العربية، العدد الأول، القاهرة ١٩٦٨م.
- ٧- صلاح عبد الجابر عيسى، حول منهج لجغرافية الإسلام، مجلة الدارة، العدد الرابع - السنة الثانية عشرة، الرياض، مارس ١٩٨٧م.
- ٨- عبد المقادر عبد الله الجفري، العرب في أندونيسيا، مجلة الأزهر، القاهرة أكتوبر ١٩٦١م.
- ٩- فتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، الطبقة الرابعة - بيروت ١٩٨٢م.
- ١٠- يوسف أبو الحجاج، خريطة الإسلام، ضالة دور الظروف الجغرافية في رسمها، المجلة الجغرافية العربية، القاهرة، العدد ١٥: ١٩٨٣م.
- ١١- يوسف أبو الحجاج، نظرات في خريطة العالم الإسلامي، المجلة الجغرافية العربية، القاهرة، العدد ١٦، ١٩٨٤م.

### ثانياً: مراجع باللغة الإنجليزية.

- 1- Abler, R.F., "The Geography of Communications, in Hurst E., Transportation geography, New york 1974†
- 2- Coffey, William, geography, towards a genral Spatial Systems Opproach, london 1981.
- 3- Huggett, R., System Anlysis in geojaphy, Oxford, 1980.
- 4- Teheranain M. and Others, Communications Policy for mational development london, 1977.
- 5- Walmsley, D. J. & Lewis, G. J., Human geography. behauioual opprach. London, 1984.

# مبادئ تدريب الجيش الإسلامي

## في عصر النبوة

للأستاذ/ محمد جمال الدين محفوظ

ضرورة التدريب



التدريب على القتال من أهم الضرورات الحيوية لبناء القوة الرادعة التي أمر الله تعالى بإعدادها في قوله: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم...»<sup>(١)</sup> ويستخلص من ذلك مايلي:

(١) أن تكون الكفاءة القتالية للمسلمين على النحو الذي يوقع الرهبة في قلوب الأعداء ويخيفهم من عاقبة عدوانهم، فيمتنعون عن العدوان تحسباً للنتائج التي لن تكون في صالحهم .  
(٢) وأن يكون المسلمون قادرين - في حالة تعرضهم للعدوان - على أن يوقعوا بالمعتدي هزيمة تردعه وتوقع الرهبة في قلبه بحيث لا يفكر في العودة مرة أخرى إلى العدوان عليهم .

(٣) وأن يحافظ المسلمون - بالمرابطة واليقظة والحذر - على درجة عالية من الاستعداد القتالي والتأهب لرد أي عدوان في جميع

الأوقات وتحت كل الظروف .

\* وينبه المولى جل شأنه إلى أن العدو يريد أن نتهاون في التدريب ونتخلى عن السلاح فيجد فرصته في النيل منا، وهو بعض ما يفهم من قوله سبحانه: «...ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلاً واحدة...»<sup>(١)</sup>.

\* من أجل ذلك عني الرسول القائد، صلى الله عليه وسلم، بتدريب رجاله على القتال عناية فائقة، ووضع لذلك خير المبادئ والأساليب، وقد ظهرت نتائج هذا التدريب في المعارك التي خاضوها جهاداً في سبيل الله، حيث أثبتوا عملياً قدرتهم على القيام بجميع أشكال العمليات العسكرية بكفاءة عالية ومن ذلك على سبيل المثال :

- (١) أعمال الاستخبارات والحرب النفسية .
- (٢) مفارز (دوريات) الاستطلاع ومفارز القتال .
- (٣) الإغارات .
- (٤) أعمال الحراسة والوقاية .
- (٥) العمليات الدفاعية وتنظيم المواقع الدفاعية والخنادق الدفاعية .
- (٦) الهجوم على القرى والمواقع الحصينة ( في قتالهم ضد اليهود ) .
- (٧) مسير الاقتراب (التقدم نحو أرض المعركة) وقد قام المسلمون بمسيرات طويلة شاقة في مختلف الظروف والأحوال ليلاً ونهاراً .
- (٨) العمليات الهجومية ليلاً ونهاراً .
- (٩) أعمال الحصار واستخدام أسلحة الحصار ودك الحصون كالمنجنيق .
- (١٠) أعمال المطاردة .

\* وبذلك أثبت المسلمون منذ أربعة عشر قرناً ما قرره العلم العسكري حديثاً وعبر عنه فيلسوف الحرب كلاوكتز: « إن القوات العسكرية الماهرة

المدرية جيداً، يمكنها أن تقوم بجميع الأعمال العسكرية»<sup>(٣)</sup>.

ونتناول فيما يلي المبادئ التي قررها الرسول، صلى الله عليه وسلم، لتدريب الجيش كما نستخلص منها الدروس المستفادة لكي ينتفع بها المسلمون اليوم .

### أولاً : تحقيق التفوق على العدو في الكفاءة القتالية :

\* حدد الرسول، صلى الله عليه وسلم، « المستوى » الذي ينبغي أن يصل إليه المسلمون بالتدريب وهو أن يكونوا متفوقين على العدو في الكفاءة القتالية وجعل ذلك من مقتضيات الردع وإرهاب العدو كما قدمنا .

\* ونضرب لذلك مثلاً في مجال الرماية: فقد كانت مهارة الفرس في الرماية مهارة فائقة يقول عنها الطبري: «بلغ من مهارة الفرس في الرماية أن أحدهم كانت ترفع له الكرة فيرميها ويشكها بالنشاب (السهم)»<sup>(٤)</sup>، وفي يوم ذي قار قال حنظلة بن ثعلبة لقومه: «إن النشاب الذي مع الأعاجم يفرقكم، فإذا أرسلوه لم يخطئكم، فعاجلوهم اللقاء» وقال آخر لقومه أيضاً: «لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها»<sup>(٥)</sup> وقد أيد «النويري» امتياز الفرس بالرمي في قوله: «لم تزل الفرس تفتخر بالرمي في الحروب والصيد»، ومما يدل على براعة العرب في استخدام السيف وامتياز الفرس بالقوس، قول أعشى قيس في يوم ذي قار:

لما أمالوا إلى النشاب أيديهم

ملنا ببيض فظل الهام يقتطف<sup>(٦)</sup>

\* وقد أدرك الرسول، صلى الله عليه وسلم، تفوق الفرس على العرب في الرمي فقال لأصحابه عنهم: «هم أقوى منكم رمية»<sup>(٧)</sup>، ومن ثم كان اهتمامه عليه الصلاة والسلام برفع مستوى كفاءتهم في الرمي إلى أعلى المستويات ومن ذلك مايلي :

### (١) اعتباره الرمي جماع القوة

فغن عقبة بن عامر ،، رضي الله عنه،، قال: «صعد رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، المنبر يوماً فقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ثم قال: «ألا إن القوة الرمي، إن القوة الرمي، إن القوة الرمي» (٨).

### (٢) واعتباره طريقاً لدخول الجنة

فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه المحتسب في عمله الخير، والرامي به، والمُدبّ به (أي رجل الإمداد بالذخيرة)» (٩)، ومر ،صلى الله عليه وسلم، بموضع كان الصحابة يتدربون فيه على الرمي، فنزع نعليه وقال: «روض من رياض الجنة».. أي أنه ،، صلى الله عليه وسلم،، جعل لمكان التدريب على الرمي قدسية توازي قدسية رياض الجنة التي ينبغي على المسلم خلع نعليه فيها.. وقال أنس: ما ذكرت القوس عند النبي عليه الصلاة والسلام إلا قال: «ما سبقها سلاح إلى خير قط»، وقال عليه الصلاة والسلام: «من مشى بين الغرضين كان له بكل خطوة حسنة» (١٠) (والغرض هو ما يحاول الرامي إصابته) كما قال عليه الصلاة والسلام: «كل شيء يلهو به ابن آدم باطل إلا ثلاثة: رمية عن قوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهن من الحق». (١١)

### (٣) ومشاركته أصحابه في التدريب

فقد خرج ،صلى الله عليه وسلم، مع نفر من بني أسلم ينتضلون بالسوق (أي يتسابقون في الرمي) فقال: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان، فأمسك أحد الفريقين، فقال: «مالك لا ترمون؟ فقالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال: ارموا فأنا معكم



كلكم» (١٢).

والمراد بالمعية: معية القصد إلى الخير .

#### (٤) الإشادة بالمتفوقين في الرمي

فقد كان عليه الصلاة والسلام يقول لسعد بن أبي وقاص وهو يرمي بين يديه في معركة أحد (وكان يجيد الرمي) : « ارم فذاك أبي وأمي، » وما جمع النبي، صلى الله عليه وسلم، أبويه لأحد غير سعد، يقول الإمام علي، رضي الله عنه،: « مارأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يفدي رجلاً بعد سعد، سمعته يقول: ارم فذاك أبي وأمي» (١٣)، وقد كان سعد يفخر بهذا التكريم فيقول، رضي الله عنه،: « جمع لي النبي، صلى الله عليه وسلم، أبويه يوم أحد» (١٤)

\* وقد كان من آثار عناية الرسول، صلى الله عليه وسلم، الفائقة بتدريب أصحابه أنهم بلغوا في الرمي مستوى عالياً جداً حتى استحقوا أن يطلق عليهم «رماة الحق»، أي أن الرامي منهم كان إذا أراد تصويب سهمه نحو عين عدوه لم يخطئها، وقد شهد التاريخ بذلك ومن ذلك أنه في فتح الأنبار أمر خالد بن الوليد رُماته أن يرموا حماة الحصن المشرفين من أعلاه، وأن يتوخَّوا العيون، ففَقَّأوا يومها ألف عين حتى عُرِفَت تلك الموقعة بـ «ذات العيون» (١٥)

#### ثانياً: التدريب على استخدام الأسلحة والفروسية

\* وبالإضافة إلى التدريب على الرمي، فقد كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يحث المسلمين ويشجعهم على التدريب على الضرب بالسيف والطعن بالرماح والحراب والتمرس بأعمال القتال حتى لقد سمح باتخاذ المسجد ميداناً للتدريب، عن أبي هريرة، رضي الله عنه،: «بيننا الحبشة يلعبون عند النبي، صلى الله عليه وسلم، بحرابهم، دخل عمر فأهوى إلى

الحصباء فحصبهم بها، فقال: دعهم يا عمر»<sup>(١٦)</sup>  
وقد قال الرسول، صلى الله عليه وسلم، ذلك لأن المسجد موضوع لأمن  
جماعة المسلمين، فأى عمل من الأعمال يجمع بين منفعة الدين وأهله، فهو  
جائز فيه، مباح بين جدرانته .

\* كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يشجع المسلمين على اقتناء  
الرمح والقوس بالإشادة بهما في قوله لما رأى القوس: «بهذا وبرماح القنا  
تفتحون البلاد»، وقوله: «جُعل رزقي تحت ظل رمحي»<sup>(١٧)</sup>، وقوله:  
«واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»<sup>(١٨)</sup>.

\* وحث عليه الصلاة والسلام المسلمين على التدريب على ركوب  
الخيول وعلى فنون الحرب بها فقال: «الخيول معقود في نواصيها الخير إلى  
يوم القيامة، الأجر والغنيمة»<sup>(١٩)</sup>، وقال: «عابوا الخيل فإنها تُعْتَب»<sup>(٢٠)</sup> أي  
أدبوا وروضوها للحرب والركوب فإنها تتأدب وتقبل العقاب .

كما رغب عليه الصلاة والسلام في اقتناء الخيل والعناية بها، فعن أبي  
هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «من  
احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإن شبعه وريته  
وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»<sup>(٢١)</sup>، كما قال عليه الصلاة والسلام:  
«أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته  
في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله»<sup>(٢٢)</sup>.

وجعل عليه الصلاة والسلام للفرس - عند توزيع الغنائم سهمين  
ولصاحبه سهماً وجعل للراجل سهماً واحداً، وذلك لكي يستعين الفارس  
بالسهمين الزائدين على إعاشة فرسه وإعدادها للحرب، عن ابن عمر  
، رضي الله عنهما، قال: «قسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يوم  
خيبر للفرس سهمين وللراجل سهماً قال قُسِرهُ نافع فقال: إذا كان مع

الرجل فرس فله ثلاثة أسهم فإن لم يكن فرس فله سهم» (٢٣).  
كما أن الإسلام أعفى المسلم من صدقة (زكاة) فرسه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: «ليس على المسلم في فرسه وغلामه صدقة» (٢٤).

وكان من أثر ذلك أن كان بعض الفرسان الأشداء يخرج للقتال بفرسين يحارب عليهما ويأخذ أسهمهما كما فعل الزبير بن العوام في غزوة خيبر وفي حروب الشام المختلفة، وروى الشافعي من حديث مكحول: «أن النبي، صلى الله عليه وسلم، أعطى الزبير خمسة أسهم لما حضر خيبر بفرسين».

### ثالثاً: تقوية الأبدان

\* مدح الإسلام المؤمن القوي، فقال الرسول، صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» (٢٥).

\* وقد حث الإسلام على تعلم السباحة وركوب الخيل مسرعة ومعارة، والسباق في الجري، والسباق بين الفرسان على الخيل أو الإبل، والمصارعة ورفع الأثقال إلى غير ذلك من ألوان التربية البدنية والرياضية التي تبني الجسم القوي السليم، فعن بكر بن عبد الله بن الربيع الأنصاري أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «علموا أبناءكم السباحة والرماية ونعم لهو المؤمنة في بيتها المغزل، وإذا دعاك أبواك فأجب أمك.» (٢٦)

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يتمتع بلياقة بدنية قوية فكان يركب الفرس عارية فيروضها على السير، وكان يداعب من يحب بالمسابقة في العدو وكان يصرع الرجل القوي ومن ذلك أن «ركانة بن عبد يزيد صارع النبي، صلى الله عليه وسلم، فصرعه النبي، صلى الله عليه وسلم، مرتين أو ثلاثاً وكان ركانة هذا من أشد قریش» (٢٧)، وعن

عائشة، رضي الله عنه، قالت: «سابقني رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فسبقته، فلبثنا حتى إذا أرمقني اللحم سابقني فسبقني، فقال: هذه بتلك» (٢٨).

وعن سلمة بن الأكوع قال: «بينما نحن نسير، وكان رجل من الأنصار لا يسبق شداً، فجعل الأكوع يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟، هل من مسابق فقلت: أما تكرم كريماً ولا تهاب شريفاً؟ قال: لا، إلا أن يكون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي، ذرني فلأسباق الرجل، قال: إن شئت، قال: فسبقته إلى المدينة» (٢٩).

رابعاً: إتقان التدريب:

\* يحث الإسلام على إتقان التدريب لبلوغ أعلى قدر من الكفاءة القتالية، يقول الله تعالى: «وأحسنوا إن الله يحب المحسنين» (٣٠)، ويقول الرسول، صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب إذا عمل العبد عملاً أن يتقنه» (٣١).

\* ومن مقتضيات هذا المبدأ ألا يكتفي المسلم بالمستوى الذي بلغه، بل عليه أن يجود فيه ويرفع مستواه بالمزيد من المعرفة والتمرين، فقد أمر الله تعالى نبيه - وهو قدوة المسلمين - أن يقول: «رب زدني علماً» وهذه المسؤولية تقع على عاتق الفرد قبل أن تقع على عاتق قيادته، والله تعالى يقول: «ولتسألن عما كنتم تعملون» (٣٢).

\* والمنافسة من أفضل الحوافز على الإجابة والإتقان، إذ أنها - من وجهة نظر علم النفس - تحرك في الإنسان دافعاً ذاتياً لكي يتفوق على غيره، لأن الإنسان بطبيعته لا يحب أن يتميز عليه غيره .

من أجل ذلك كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يشجع على المسابقات في كل مجالات التدريب البدنية والرياضية والرمي واستخدام السلاح والفروسية، بل لقد كان يشترك بنفسه فيها حفزاً للهمم وإذكاء لروح

التنافس كما ذكرنا. فعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنه: «أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سابق بين الخيل التي أُضْمِرَتْ (٣٣) من الحَفِيَاءِ وأَمْدُهَا ثَنِيَّةُ الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تُضْمَرْ من الثَنِيَّةِ إلى مسجد بني زُرَيْقٍ، وأن عبد الله بن عمر كان فيمن سابق» (٣٤)، وعن ابن عمر رضي الله عنهما، «أن النبي، صلى الله عليه وسلم، سابق بين الخيل وأعطى السابق» (٣٥).

وأوقع، صلى الله عليه وسلم، السباق بين الإبل، فسابق بلال، رضي الله عنه، على ناقته، صلى الله عليه وسلم، القصواء فسبقت غيرها من الإبل، وسابق أبو سعيد الساعدي، رضي الله عنه، على فرسه، صلى الله عليه وسلم، الذي يقال له الظراب فسبق غيره من الخيل. (٣٦)

ومن أمثلة التنافس الشريف في خدمة الدين ماوقع بين الأوس والخزرج بعد أن جمع كلمتهم وألف بين قلوبهم، حيث تحولت عصبيتهم القبلية إلى تنافس شريف وتسابق عجيب في خدمة الدين، فصار الأوس والخزرج يتجهون إلى هدف واحد هو إرضاء الله ورسوله، ولكن يتسابقون في هذا السبيل ويتنافسون، ويأبى كل فريق منهما أن يسبقه الآخر بميزة أو يتقدم عله بفضل أو يزيد عليه في تضحية وجهاد... وفي ذلك يقول ابن هشام.. «وكان معاصنغ الله لرسوله، صلى الله عليه وسلم، أن هذين الحَيِّين من الأنصار (الأوس والخزرج) كانا يتصولان مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تصاول الفحلين، لاتصنع الأوس شيئاً فيه دفاع عن الرسول والإسلام إلا قالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلا ينتهون حتى يفعلوا مثلاً، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك». (٣٧)

### خامساً: استمرار التدريب:

\* ومن أهم مبادئ التدريب التي قررها الرسول ،صلى الله عليه وسلم، مبدأ «الاستمرار» الذي يحقق فائدتين كبيرتين: الأولى. هي المحافظة على مستوى كفاءة المسلمين القتالية ليكونوا قادرين على القتال في أية لحظة، والثانية، هي دعم تلك الكفاءة والارتفاع بها إلى مستوى أفضل .

\* وقد حذر الرسول القائد ،صلى الله عليه وسلم، من الانقطاع عن التدريب فقال:

- «من علم الرمي ثم تركه فليس منا، أو فقد عصى». (٣٨)

- «من ترك الرمي بعدما علمه فإنما هي نعمة جحدّها» (٣٩)

ويشير هذا الحديث إلى أن التدريب على الرمي « نعمة » لها حق سائر النعم، من الحفاظ عليها، والقيام بشكرها، والاستزادة منها، وهي نعمة عظيمة في ذاتها، كما أنها نعمة باعتبار ما يترتب عليها من الصبر والمصابرة والمراعاة والمجاهدة في سبيل الله، ويكفي أن الم رابط لا تمسه النار يوم القيامة.. يقول الرسول ،صلى الله عليه وسلم: «عينان لا تمسهما النار يوم القيامة، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله» (٤٠)

وقد كان إدراك المسلمين لقيمة مبدأ الاستمرار في التدريب من أكبر الحوافز لهم على دفع الملل الذي قد ينتاب النفوس من التكرار والاستمرار، قال عطاء بن أبي رباح: رأيت جابر بن عبد الله وجابر بن عمير الأنصاريين ،، رضي الله عنه، ما، يرتميان (من التدريب على الرمي) فلما أحدهما فجلس، فقال له صاحبه: أجلس؟ أما سمعت رسول الله ،صلى الله عليه وسلم، يقول: كل شيء: ليس من ذكر الله فهو سهو ولهو إلا أربعة: مشي الرجل بين الغرضين، وتأديبه فرسه، وتعلمه السباحة، وملاعبته أهله؟ (والغرضان: تنشئة غرض وهو ما يتخذ الرماة أثناء التدريب للرمي

عليه مثل لوحات التصوير وغيرها كما قدمنا.)

كما بلغ اهتمام المسلمين بمبدأ الاستمرار في التدريب أن بعضهم كان يتدرب حتى في يوم العيد فقد قالت عائشة ، رضي الله عنه: « وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب »<sup>(٤١)</sup>

#### سادساً : استخدام الحواس والعقل:

\* سبق الإسلام في تقرير مبدأ استخدام الحواس والعقل وهو من المبادئ العامة التي روعيت في الجيش وهو ما تأخذ به الجيوش حديثاً وخاصة بعد أن بدأت تستخدم علم النفس في أوجه نشاطها المتعددة ومن بينها التدريب، وقد اعتبرت الجيوش هذا الأمر تطوراً كبيراً يدخل حياتها بعد أن كان التدريب يتسم « بالجمود » لاعتماده على أساليب التلقين والتقليد والحفظ، وقد أصبح مقياس التقدم في أساليب التدريب استخدام أكبر عدد مستطاع من الحواس فيه، وظهرت وسائل الإيضاح التي تساعد في ذلك وهي الوسائل السمعية والبصرية، والسمعية البصرية... كما صاحب هذا التطور أيضاً تطور آخر هو استخدام الأسلوب الذي يجعل الجندي يستخدم عقله فيفكر في الموقف الذي يواجهه ثم يقرر التصرف الذي يهديه إليه تفكيره<sup>(٤٢)</sup>.

\* فالإسلام يدعو المسلمين إلى استعمال الحواس والعقل معاً في كل تجاربهم المادية والمعنوية فكلهما متمم لآخر، ويشير الله تعالى في تعداد نعمه علينا إلى الحواس والعقل فيقول جل شأنه :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾<sup>(٤٣)</sup>

كما جعلنا الله سبحانه « مسئولين » عن استخدام الحواس والعقل فقال جل شأنه:

﴿.. إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۖ﴾ (٤٤)

﴿.. وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٤٥)

\* وليس من شك في أن الإسلام هو دين الفكر والعقل والعلم، وقد ارتفع بالعقل وقدره حق التقدير وجعله ميزة للإنسان استحق بها الخلافة في الأرض، وبها احتمل الأمانة التي عجزت الجبال والأرض والسموات عن حملها :

﴿... فَأَيُّكُمُ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ...﴾ (٤٦)

والعقل في ميزان الإسلام هو التعبير الواقعي عن الرشد والأهلية لتحمل المسؤوليات والتبعات والتكاليف، كما أن له قيمته في حركة الحضارات إنشاءً وإضافةً وتطويراً، فقد حث الإسلام على التفكير والتفكير والمشاهدة والتأمل والنظر في ملكوت السموات والأرض لاستنباط الحقائق العلمية، والوصول إلى معرفة نواميس الكون، وهو ما يفهم من قول الله سبحانه وتعالى :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ﴾ (٤٧)

﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ﴾ (٤٨)

﴿أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ﴾ (٤٩)

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَ ۚ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ

وإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۚ﴾ (٥٠)

وهكذا أمر الإسلام - منذ أربعة عشر قرناً - باتباع المنهج العلمي في مناحي الحياة، وأمر باستخدام العقل وسائر الحواس استخداماً أساسه المشاهدة، فالعين يجب أن ترى، والأذن يجب أن تسمع، والعقل يجب أن ينظر ويفكر، وهذا هو المنهج الذي قامت عليه الحضارة الحديثة كما يشهد



بذلك التاريخ والمنصفون من علماء الغرب .

### سابعاً: تدريب القادة :

\* وقرر الرسول القائد ،صلى الله عليه وسلم، أن يشمل التدريب على القتال الجنود والقادة على حد سواء، وألا يكتفي الجيش بتدريب رجاله فحسب، بل عليه أيضاً أن يقوم بتدريب قادته، كما قرر عليه الصلاة والسلام أن كل قائد مسئول - في الوقت نفسه - عن إعداد نفسه والتزود بالمعارف والخبرات اللازمة له .

\* وقد عبر المشير مونتجمري عن أهمية إعداد القادة وتدريبهم في الجيوش الحديثة فقال: «والقادة عندما يخططون للمعركة يواجهون دائماً بالضباب الكثيف، ولكن براعتهم وحكمتهم في التخطيط تبدد هذا الضباب الكثيف أمام الجنود، وفي اعتقادي أن القادة المهرة لا يولدون قادة ولكن «يُصنعون» ، فلا يمكن للضابط أن يصل إلى مناصب القيادة العليا بدون دراسة طويلة، فالقيادة في الحرب ماهي إلا دراسة دائمة ، وإذا أهملها القائد فلن ينجح»<sup>(٥١)</sup>

\* والباحث المدقق يستطيع أن يستخلص ماجرت عليه سنة الرسول القائد ،صلى الله عليه وسلم، في مجال إعداد القادة وتدريبهم كما يلي:

#### ١- اكتساب القائد لصفات المقاتل:

فقد قرر عليه الصلاة والسلام أن بناء المقاتل أساس لبناء القائد، فلا يقود المقاتلين في المعركة إلا مقاتل تجتمع له صفات المقاتل ومهاراته وكل السجايا والفضائل الحربية كالشجاعة وقوة التحمل والخشونة والحزم والانضباط والطاعة وتقدير المسؤولية والنظام والإيمان بالحق والقتال عن عقيدة، من أجل ذلك مارس أصحاب الرسول ،صلى الله عليه وسلم، كل أشكال التدريب من تربية بدنية ورياضية وفروسية واستخدام الأسلحة ورماية

لا فرق بين جندي وقائد.. وقد ضرب عليه الصلاة والسلام المثل على نفسه بمشاركته بنفسه في التدريب والمسابقة فيه كما ذكرنا. في الفقرات السابقة أولاً وثانياً وثالثاً.

## ٢ - التحلي بصفات القيادة:

فلقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، هو قائد الجيش ومعلمه، وصاحب المدرسة التي لم يتخرج منها القادة العسكريون فحسب، بل تخرج فيها أيضاً قادة أمم، ورجال إصلاح، وعلماء وفلاسفة، ورواد حضارة. وكان عليه الصلاة والسلام هو المثل الكامل والقوة المثلى كما يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾<sup>(٥٢)</sup>، وهو القائد الذي اصطفاه الله ليبلغ أعظم رسالة، وجعله تحت حراسته ورعايته حتى كان أفضل قومه، واستوفى من مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ينلها إنسان قبله ولا بعده حتى خاطبه الله بقوله: «وإنك لعلى خلق عظيم»<sup>(٥٣)</sup>، وحتى حدث هو عن نفسه فقال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

وإذا كان القادة العسكريون يتعلمون فنون القيادة والحرب على يد غيرهم من القادة والمعلمين في المعاهد العسكرية، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، «لم يأخذ عن غيره» بل «أخذ عن الله جل شأنه»، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾<sup>(٥٤)</sup>.

وقد جرت سنته، صلى الله عليه وسلم، في غرس صفات القيادة في أصحابه على تدريبهم على التخطيط وإدارة المعارك وتعيينهم لقيادة السرايا، وقيادة وحدات الجيش تحت قيادته المباشرة وهو ما فصله فيما بعد.

فلا عجب إذن أن يظهر عليه الصلاة والسلام وأن يظهر تلاميذ

مدرسته بالتالي في أمور الحرب مالا يتسامى إليه قادة الحروب الذين تعلموا فنونها، واتخذوها صناعة، من عبقرية فذة في القيادة والتخطيط وإدارة المعارك الحربية وهو ما شهد به التاريخ . ومن ذلك قول المشير مونتجمري في كتابه (الحرب عبر التاريخ) تحت عنوان « المسلمون قوم لا يقهرون »: « في غضون مائة سنة امتدت الإمبراطورية الإسلامية من بحر الأورال إلى أعالي النيل ومن تخوم الصين إلى خليج بسكاي ... وفي عام ٦٣٦ حشد الإمبراطور البيزنطي جيشاً مكوناً من خمسين ألفاً ليقا تل به العرب الذين كان جيشهم نصف عدد الجيش البيزنطي بقيادة خالد بن الوليد وقد أسفرت معركة اليرموك عن هزيمة الجيش البيزنطي وتشتت صفوفه ولاقوا حتفهم على أيدي أهل الصحراء وأدى هذا إلى تقلص جبهة البيزنطيين حتى وصلت جبال طوروس. » (٥٥)

### ٣ - التدريب على التخطيط وإدارة المعارك:

عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : « مارأيت أحداً قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، » (٥٦) ، ومن خلال تطبيق الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لبدا الشورى - الذي أمره الله تعالى به : ﴿ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (٥٧) . شارك المسلمون في عمليات التخطيط وإدارة المعارك بالتفكير والمناقشة وإبداء الرأي معاً حقق لهم الفوائد التالية :

- (١) التدريب على فن التفكير واستخدام العقل والتعبير عن الرأي .
- (٢) والتدريب على حل المشكلات « بالطريقة العلمية » التي هي المدخل الصحيح للوصول إلى القرار السليم علي أساس من تحديد الأهداف بوضوح ، وفحص وتحليل المعلومات والمعطيات ، واستعراض الحلول والبدائل المختلفة لحل المشكلة ، واختيار الحل أو البديل الأفضل ، ثم

اختيار هذا الحل وتقويمه، ومن خلال هذا التدريب يكتسب قادة المستقبل القدرة على اتخاذ القرارات السليمة في الوقت المناسب وهي من أهم خصائص القيادة الناجحة .

(٣) تدريبهم على «البادأة» والتصرف السليم في المواقف التي تواجههم دون الحاجة إلى الرجوع للقيادة الأعلى وخاصة في المواقف المفاجئة أو التي لا تحتمل التأخير، وذلك لأن مشاركتهم في مرحلة التخطيط تتيح لهم معرفة واسعة بنوايا القائد وأهدافه، وإحاطة وافية بجوانب الموضوع، تمكنهم من اتخاذ قراراتهم في المواقف بهدي تفكيرهم وحده...

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يأخذ بالمشورة الصالحة « مهما كان مركز صاحبها» وينزل على الرأي الصواب، كما فعل عليه الصلاة والسلام مثلاً في غزوة بدر حين نزل على رأي الحباب بن المنذر ومشورته ونقل الجيش إلى موقع قريب من ماء بدر حيث أشار الحباب، (٥٨) ومن ذلك أيضاً أنه، صلى الله عليه وسلم، أخذ بمشورة سلمان الفارسي في حفر خندق للدفاع عن المدينة في غزوة الخندق. (٥٩)

ثم إن الأخذ بالمشورة الصالحة ينطوي على الدروس الآتية :

- تطبيق القائد لمبدأ الشورى آية من آيات حسن القيادة، تقترن بآية الابتكار والإنشاء، لأن القيادة الحسنة هي القيادة التي تستفيد من خبرة الخبير، كما تستفيد من شجاعة الشجاع، وهي التي تجند كل مابين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام .

- تكريم صاحب الرأي ، فقد قال الرسول، صلى الله عليه وسلم، للحباب : «أشرتَ بالرأي» (٦٠)

- تنفيذ ما استقر عليه الرأي له مغزى رفيع فوق النزول على الرأي هو

حفز همة كل فرد لأن يتقدم ويشارك بالرأي معايين على أن تأتي الخطط على أفضل وجه ممكن، كما يزيد من إيجابية المنفذين في العمل أو القتال لأنهم يؤدون عملاً «شاركوا» في التخطيط له.

#### ٤ - تولي قيادة مهام القتال المحدودة:

ولاشك في أن تولي القيادة الفعلية هو تطبيق عملي للمعارف والمهارات تحت إشراف القائد المعلم وتوجيهه، وقد عهد الرسول القائد، صلى الله عليه وسلم، إلى أصحابه بالقيادة في أشكال مختلفة من عمليات القتال المحدودة وهي ماسميت بالسرايا، ومن خصائص هذه العمليات أنها محدودة في أهدافها وفي القوة التي تتولاها، إذ تراوحت تلك القوة من بضعة أفراد إلى بضع مئات، وتحقق هذه العمليات الفوائد التالية :

(١) استطلاع أحوال العدو والدخول معه في تجربة لسبر أغواره واختبار قوته وقدراته القتالية وأساليبه في القتال.

(٢) دراسة طبيعة الأرض والطرق وغيرها من الظواهر الطبوغرافية .

(٣) تنمية الثقة في النفس لدى القادة ورفع روحهم المعنوية .

(٤) تنمية قدرات القادة على ممارسة القيادة على مستويات أكبر .

ومن أمثلة المهام المحدودة التي تولاها أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم مايلي:

#### - دوريات الاستطلاع :

مثل سرية عبد الله بن جحش، وقوامها اثنا عشر رجلاً في رجب من السنة الثانية للهجرة (٦١).

#### - دوريات القتال :

مثل سرية حمزة، وقوامها ثلاثون رجلاً في رمضان من السنة الأولى للهجرة. (٦٢)

## - الإغارات :

مثل سرية أبي سلمة، وقوامها مائة وخمسون رجلاً بقيادة أبي سلمة بن عبد الأسد في ذي الحجة من السنة الثالثة للهجرة. (٦٣)

## ٥ - قيادة وحدات الجيش تحت القيادة العليا للرسول

ومن صور تدريب القادة عملياً أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يعين أصحابه في قيادة الوحدات التي يتألف منها الجيش تحت قيادته في المعركة، ففي غزوة بدر مثلاً كان الجيش يتألف من كتيبتين كتيبة المهاجرين يقودها علي بن أبي طالب، وكتيبة الأنصار يقودها سعد بن معاذ (٦٤)، وفي غزوة فتح مكة كان الجيش يتألف من أربعة أرتال يقودها أربعة من القادة هم: الزبير بن العوام، وخالد بن الوليد، وسعد بن عباد، وأبو عبيدة بن الجراح. (٦٥)

وهذا الأسلوب يفيد القادة من حيث أنه يتيح لهم ملاحظة أسلوب القائد المعلم في القيادة الحربية وإدارة المعارك والتصرف في مواقفها، وهي فرصة ممتازة للتعليم « على الطبيعة » واكتساب الخبرة القتالية، تحت إشراف القائد الأكبر والإفادة من توجيهاته وملاحظاته .

## ثامناً : محو الأمية وطلب العلم:

كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، حريصاً على تعليم المسلمين القراءة والكتابة ومحو أميتهم وذلك مبدأ عام روعي في الجيش، فقد أمر كل أسير كاتب من المشركين من أسرى بدر أن يعلم عشرة من الصحابة الكتابة والقراءة، وجعل ذلك سبيل تحرره وإطلاق سراحه، فعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة». (٦٦)

كما خطب عليه الصلاة والسلام أصحابه فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً. ثم قال: «ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون، والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم، وليعلمن قوم من جيرانهم يتفقهون ويعظون أو لأعاجلنهم العقوبة، ثم نزل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال قوم: من ترونه عنى بهؤلاء؟ قالوا: الأشعريين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين. فأتوا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله ذكرت أقواماً بخير، وذكرتنا بشر فمالنا؟ فأعاد عليهم ما ذكره في خطبته: «ليعلمن قوم جيرانهم .... أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا» فقالوا: يا رسول الله، أنظن غيرنا؟ فأعاد عليهم ما قاله، ثم أعاد وأعادوا، فقالوا: يا رسول الله أمهلنا سنة، فأمهلهم وقرأ عليهم قوله تعالى: ﴿لِمَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. (٣٧)

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يعلن في هذه الخطبة الحرب على الأمية وعلى من يقصرون في التعليم أو طلب العلم، ويهدد الفريقين بالعقاب الشديد، وأعطى مهلة عام واحد للقضاء على الجهالة والجهال، وليس الأمر مقصوراً على الأشعريين وحدهم أو على علوم الدين وحدها، فإنه لم يخاطب الأشعريين بقوله: «أنتم المقصودون»، وقال: «لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم...»، فالدعوة عامة والمبدأ عام وهما غير خاصين بفئة معينة ولا بزمان معين، ولا بمعارف خاصة، وبهذا يكون الرسول الأمين، صلى الله عليه وسلم، قد أعلن مبدأ مكافحة الأمية منذ أربعة عشر

قرناً وهو الرسول الأمي المبعوث إلى قوم أميين، ولا عجب في هذا فإنه رسول الله الذي خاطبه الله بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَارَمَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (٦٨)

وأشاد به في قوله جل شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ مَوْزُونًا وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٩)

### تاسعاً: تأمين المسلمين ضد الإصابات أثناء التدريب:

وقرر الرسول، صلى الله عليه وسلم، أنه من الضروري اتخاذ كل التدابير التي تمنع حدوث إصابات للأفراد في أثناء التدريب، وهو مانجه اليوم في التدابير التي تسمى «باحتياطات الأمن» وتتخذها الجيوش لتفادي وقوع إصابات سواء للجنود أو للمشرفين على تدريبهم، أو للمارة أو للمحيطين أو القريبين من ميادين التدريب .

وفي هذا المجال نذكر من توجيهات الرسول القائد، صلى الله عليه وسلم، مايلي:

- عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: «لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار». (٧٠)

- وعن أبي بكرة قال، صلى الله عليه وسلم: «إذا أشار المسلم إلى أخيه المسلم بالسلاح فهما على حرف جهنم، فإذا قتله خراً جميعاً فيه». (٧١)

- وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال الرسول، صلى الله عليه وسلم: «من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه حتى يدعه، وإن كان أخاه لأبيه



وأمه». (٧٢)

- وعن جابر قال: «نهى النبي، صلى الله عليه وسلم، أن يُتعاطى السيف مسلولاً». (٧٣)

- وعن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه،: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم،:

« من مر في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك (أو ليقبض على نصالها بكفه) أن يصيب (أي حتى لا يصيب) أحداً من المسلمين منها بشيء ». (٧٤)

- وقال عليه الصلاة والسلام: « لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً ». (٧٥)

**عاشراً: العناية بالأسلحة والمعدات:**

\* وقرر الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن العناية بالأسلحة والمعدات وصيانتها واجب يؤديه المسلم وفاء بالأمانة التي في عنقه والتي يأمره الله أن يؤديها وأن يصونها، ومحافظةً منه على أدوات « القوة » التي أمر الله بإعدادها، وحرصاً منه على أدوات الجهاد في سبيل الله وظيفته الشريفة التي كرمه الله بأن اختاره لها (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم) وإحساساً منه وإدراكاً لعواقب إهمال هذا الواجب كما أخبر الله تعالى في قوله:

﴿...وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغَفَّلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمَّتَتِكُمْ فَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَجَدَةً...﴾ (٧٦)

\* ولذلك كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، الأسوة الحسنة حيث كان تناول ابنته فاطمة سيفه ويقول: « اغسلي عن هذا دمه يابنية فوالله لقد صدقتي اليوم .. وناولها علي بن أبي طالب سيفه وقال: وهذا أيضاً فاغسلي عنه دمه فوالله لقد صدقتي اليوم ». (٧٧)

\* كما حث عليه الصلاة والسلام على العناية بالخيول ورعايتها:  
- فعن نعيم بن أبي هند أنه عليه الصلاة والسلام أتى بفرس، فقام إليه  
يمسح عينيه ومنخريه بكم قميصه، فقيل: يا رسول الله أتمسح بكم قميصك؟  
فقال: «إن جبريل عاتبني في الخيل».

- وعن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى  
الله عليه وسلم،:

«إن الله تجوز لكم عن صدقة الخيل والرقيق» (٧٨).

- وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال، صلى الله عليه وسلم،:

«ليس على المسلم في فرسه وغلामه صدقة» (٧٩).

وقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل دينار ينفقه الرجل، دينار ينفقه على  
عياله ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على  
أصحابه في سبيل الله» (٨٠).

- وعن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: «نهى رسول الله، صلى الله  
عليه وسلم، عن إخصاء الخيل والبهائم، ثم قال ابن عمر: فيهما نماء  
الخلق» (٨١).

### حادي عشر: تكريم المعلم:

\* إن التدريب على القتال - كما ذكرنا - ضرورة حيوية لبناء القوة  
وإعداد المجاهدين في سبيل الله، والمعلم الذي يتولى تدريب المجاهدين  
يؤدي دوراً عظيماً لأن قدرة الجيش على هزيمة العدو وإيقاع الرهبة في  
قلبه، تتناسب طردياً مع مستواه في التدريب والكفاءة والاستعداد القتالي.

\* من أجل ذلك فإن الإسلام كرم المعلم وجعل له منزلة سامية ومكانة  
رفيعة كتلك المنزلة والمكانة التي جعلها للعلماء وذلك مبدأ عام روعي في  
الجيش، قال تعالى:

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (٨٢)

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٣)

ويقول الرسول القائد، صلى الله عليه وسلم،:

«العلماء ورثة الأنبياء» (٨٤)

«إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة» (٨٥)

«خيركم من تعلم القرآن وعلمه» (٨٦)

وعن أبي أمامة الباهلي قال: ذكر لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، رجلان أحدهما عابد والآخر عالم فقال، صلى الله عليه وسلم،: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» ثم قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلّون على معلّم الناس الخير» (٨٧)

وعن عبد الله بن عمرو قال: «خرج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ذات يوم من بعض حجره، فدخل المسجد فإذا هو بحلقتين: إحداهما يقرأون القرآن ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويعلمون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم،: «كُلُّ عَلَى خَيْر: هؤلاء يقرأون القرآن ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلما» فجلس معهم» (٨٨)

### ثاني عشر: التطور وملاحقة العصر:

\* حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على ملاحقة التطور في أسلحة القتال بتزويد الجيش بالأسلحة المعاصرة والتي لم يألفها من قبل وعلى تدريب المسلمين عليها ثم استخدامها في القتال، فقد كان جيش الإسلام يفتقر إلى أسلحة الحصار ودك الحصون مثل المنجنيق والدبابات،

فبعث الرسول، صلى الله عليه وسلم، من أصحابه من يتعلم صنعة هذه الأسلحة، قال ابن هشام: «ولم يشهد حيناً ولا حصار الطائف عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة، كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضُّبُور». (٨٩)

\* وقد غنم المسلمون في غزوة خيبر أسلحة ثقيلة دبابات ومنجنيقاً وجدوها في حصن الصعب، وقد ورد في بعض كتب السيرة أن المسلمين نصبوا المنجنيق الذي وجدوه على أحد حصون منطقة الشق في خيبر مما أدى إلى تسليم أهله، وقد روى ابن خلدون: «أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، همّ بنصب المنجنيق على خيبر فلما أيقنوا الهلكة سألوه الصلح». (٩٠)

\* وكانت الاستراتيجية العسكرية المعاصرة لعصر النبوة لدى القوى العظمى فارس وبيزنطة (الروم) تقوم على أساس أن الفرسان تشكل القوة الأساسية الضاربة في جيوشها، فحرص النبي، صلى الله عليه وسلم، على ملاحقة ذلك المستوى المعاصر الذي تتفوق فيه الجيوش الأجنبية المحيطة بالدولة الإسلامية، وأكبر دليل على ذلك إجراء مقارنة بين قوة الفرسان في جيش الإسلام في عصر النبوة في أول معركة وهي بدر، وآخر معركة وهي تبوك:

- ففي غزوة بدر كانت قوة المسلمين ٣٠٥ من الرجال ومعهم فرسان اثنان.

- أما في غزوة تبوك فقد كانت قوة المسلمين ٣٠,٠٠٠ من الرجال منهم ١٠,٠٠٠ فارس.

ومن ثم نلاحظ مدى التطور الذي حدث لملاحقة مقتضيات العصر، فبعد

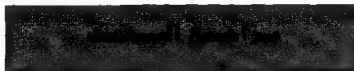
أن كانت نسبة الفرسان إلى قوة الجيش في أول معركة لا تذكر حيث كانت أقل من واحد بالمائة، قفزت في آخر معركة في عصر النبوة إلى نسبة الثلث من مجموع القوة، وقد حدث هذا التطور في أقل من سبع سنوات، وأصبحت لجيش الإسلام قوته الضاربة الماكية لعصرها، ولعل هذا يفسر شدة عناية الرسول، صلى الله عليه وسلم، بتدريب المسلمين على الفروسية وتشجيعهم على اقتناء الخيول ورعايتها وتدريبها كما ذكرنا .

\* وقد عمل المسلمون بعد عصر النبوة بسنة التطور والتجديد فتناولوا الأسلحة بالتحسين والتطوير، كما طوروا أساليبهم في القتال حتى أدهشوا في ذلك الفرس والروم، وقد اعترف بذلك الإمبراطور البيزنطي « ليو » مع ما عرف عنه من تعصب ضد العرب والمسلمين، فقد نقل عنه قون كيرمر أنه قال: «إن الجندي العربي ما كان يفرق عن الجندي البيزنطي في المون والسلاح»<sup>(٩١)</sup>

أما عن استخدام أساليب جديدة للقتال فقد ذكر إدوارد عطية في معرض أسباب نجاح حملات الفتح الإسلامي: «استخدامهم (أي المسلمين) لتكتيكات واستراتيجية جديدة مناسبة مثيرة للإعجاب للوسط الذي تحركوا خلاله للانقضاض على أعدائهم ونعني بها الصحراوات غير المطروقة. وقد اشتملت تكتيكاتهم على استخدام فعال للفرسان التي لم يعرفها قط الروام والبيزنطيون، بينما لعب الجمل في استراتيجيتهم دوراً في منتهى الأهمية في حمل الوحدات عبر مسافات طويلة في زمن قصير نسبياً، حتى كانوا يتمكنون من الظهور في نقاط حاسمة على غير توقع ظهوراً يغير الموقف تماماً، كما حدث حين استجاب خالد بن الوليد لطلب العرب الذين كانوا يهاجمون دمشق، فعبّر إليها من العراق ووصلها في أيام قليلة بالتعزيزات المطلوبة»<sup>(٩٢)</sup>.

## الخاتمة

- والخلاصة، أن تدريب الجيش على القتال في تقدير الإسلام ضرورة حيوية لبناء القوة التي أمر الله تعالى بإعدادها للدفاع عن الأمة وردع أعدائها، وقد وضع له الرسول القائد صلى الله عليه وسلم، المبادئ التالية:
- ١- ضرورة تحقيق التفوق على العدو في الكفاءة القتالية باعتباره من مقتضيات الردع وإيقاع الرهبة في قلب العدو .
  - ٢- ضرورة تحقيق أعلى مستوى في استخدام الأسلحة وأساليب القتال .
  - ٣- تقوية الأبدان .
  - ٤- إتقان التدريب لبلوغ أعلى مستوى من الكفاءة القتالية .
  - ٥- استمرار التدريب للمحافظة على الاستعداد القتالي في أية لحظة .
  - ٦- استخدام الحواس والعقل وهو من المبادئ العامة التي روعيت في الجيش لصلتها الوثيقة بالكفاءة القتالية .
  - ٧- تدريب القادة على القتال والتخطيط الحربي وإدارة المعارك .
  - ٨- محور الأمية وطلب العلم وهو من المبادئ العامة التي روعيت في الجيش .
  - ٩- تأمين المسلمين ضد الإصابات في أثناء الحرب باتخاذ التدابير الوقائية لتأمين سلامة القائمين بالتدريب والمشرفين عليه والقريبين من ميدانه على حد سواء .
  - ١٠- التدريب على صيانة الأسلحة والمعدات لتحقيق مبدأ السلاح الكفاء في يد المقاتل الكفاء .
  - ١١- تكريم المعلم في الجيش تقديراً لدوره المهم في بناء الكفاءة القتالية في إطار المبدأ العام الذي جعل للمعلم منزلة سامية .
  - ١٢- تطوير التدريب لملاحقة التطور في أسلحة القتال وأساليبه .



- ١- القرآن الكريم .
- ٢- ابن هشام: السيرة النبوية - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - مطبعة الحلبي - القاهرة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .
- ٣- أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي: السنن الكبرى - مجلس دائرة المعارف العثمانية - الهند ١٣٥٣هـ .
- ٤- أحمد بن حنبل: المسند - تحقيق وتعليق د. محمد أحمد عاشور - دار الاعتصام - القاهرة بدون تاريخ .
- ٥- أحمد عادل كمال: سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية - دار النفائس - بيروت - ط ١ - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- ٦- البخاري: صحيح البخاري - دار مطابع الشعب - القاهرة بدون تاريخ .
- ٧- جلال الدين السيوطي: جمع الجوامع المعروف بالجامع الكبير - مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - موسوعة السنة ط ١ القاهرة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م وما بعدها .
- ٨- الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه: السنن - ط الحلبي بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - القاهرة .
- ٩- الطبري: تاريخ الرسل والملوك - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٦ ط ٢ .
- ١٠- عبد الرؤوف عون: الفن الحربي في صدر الإسلام - دار المعارف - القاهرة ١٩٦١م .
- ١١- عز الدين ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة - كتاب الشعب - القاهرة ١٩٧٠م .
- ١٢- علي بن برهان الدين الحلبي: إسنان العيون في سيرة الأمين المأمون الشهيرة بالسيرة الحلبية - مطبعة الحلبي - القاهرة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .
- ١٣- فيكونت مونتجمري: الحرب عبر التاريخ- تعريب فتحى عبد الله النمر - القاهرة - ١٩٧٢م .
- ١٤- ليدل هارت: الاستراتيجية، الاقتراب غير المباشر- هيئة البحوث العسكرية- القاهرة ١٩٦٣م .
- ١٥- محمد أحمد جاد المولى وآخران: أيام العرب في الجاهلية - مطبعة الحلبي - القاهرة ١٩٤٢م .
- ١٦- محمد بن علي بن محمد الشوكاني: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار - مطبعة الحلبي - القاهرة ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م - ط ٣ .
- ١٧- محمد بن يوسف الصالحى الثامى: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - تحقيق إبراهيم التريزى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م .
- ١٨- محمد شمس الحق العظيم أبادي: عون المعبود بشرح سنن أبي داود - المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٩هـ .

- ١٩- محمد عبد الرحمن المباركفوري: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى - مطبعة الفجالة - القاهرة ١٣٨٥هـ ط ٢ .
- ٢٠- محمد فؤاد عبد الباقي: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م طبعة خاصة.



- (١) الآية الكريمة ٦٠ من سورة الأنفال .
- (٢) الآية الكريمة ١٠٢ من سورة النساء .
- (٣) ليدل هارت: الاستراتيجية، الاقتراب غير المباشر - هيئة البحوث العسكرية - القاهرة - ١٩٦٣م - ص ١٣٥ .
- (٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٦ ط ٢ - ج ٤ ص ١٥ - ١٦ .
- (٥) محمد أحمد جاد المولى وآخرين: أيام العرب في الجاهلية - مطبعة الحلبي - القاهرة ١٩٤٢ - ص ٣٠ .
- (٦) نفسه ص ٣٥ .
- (٧) عبد الرؤوف عون: الفن الحربى فى صدر الإسلام - دار المعارف - القاهرة ١٩٦١م - ص ١٣٣ .
- (٨) الحديث الشريف: رواه مسلم وأحمد وأبو داود عن عقبة بن عامر - حديث رقم ٤١٩ - ٩٠٠٣ جلال الدين السيوطي: جمع الجوامع المعروف بالجامع الكبير - مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - موسوعة السنة ط ١ القاهرة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م وما بعدها - العدد ٢٧ ج ١ ص ٣٣٤٨ .
- (٩) الحديث الشريف: رواه أحمد والترمذى عن عقبة بن عامر - حديث رقم ٥٢٥ - ٥١٠ جمع الجوامع العدد ١٣ ج ١ ص ١٦١٢ .
- (١٠) الحديث الشريف: رواه الطبراني بمجمع الزوائد ج ٥ ص ٢٦٩ عن أبي ذر، رضي الله عنه،
- (١١) الحديث الشريف: رواه أحمد والترمذى عن عقبة بن عامر - حديث رقم ٥٢٥ - ٥١٠ جمع الجوامع العدد ١٣ ج ١ ص ١٦١٢ .
- (١٢) الحديث الشريف: رواه البخاري عن سلمة بن الأكوع، رضي الله عنه، ج ٤ ص ٤٥ .
- (١٣) الحديث الشريف: رواه البخاري ومسلم حديث رقم ١٥٦١ محمد فؤاد عبد الباقي: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت ١٣٩٧هـ -



١٩٧٧م طبعة خاصة .

(١٤) الحديث الشريف: رواه البخاري ومسلم حديث رقم ١٥٦٢ اللؤلؤ والمرجان (الرجع السابق)

(١٥) أحمد عادل كمال: سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية - دار الفنائس - بيروت ط١ -

١٢٩٩هـ - ١٩٧٩م .

(١٦) الحديث الشريف: رواه البخاري ج٤ ص ٤٦ .

(١٧) الحديث الشريف: رواه البخاري ج٤ ص ٤٩ .

(١٨) الحديث الشريف: رواه البخاري ج٤ ص ٢٧ .

(١٩) الحديث الشريف: رواه البخاري ج٤ ص ٣٤ .

(٢٠) عبد الرؤوف عون: الفن الحربي في صدر الإسلام ص ١٢٤ .

(٢١) الحديث الشريف : رواه البخاري ج٤ ص ٣٤ .

(٢٢) الحديث الشريف: رواه أحمد ومسلم عن ثوبان، حديث رقم ٨٣ - جمع الجوامع العدد ١٠

ج١ ص ١١٦٢ .

(٢٣) الحديث الشريف: رواه البخاري ج٥ ص ١٧٤ .

(٢٤) الحديث الشريف: رواه البخاري ومسلم، حديث رقم ٥٦٨ اللؤلؤ والمرجان .

(٢٥) الحديث الشريف: رواه النسائي وابن ماجة عن أبي هريرة - حديث رقم ٢٣ - ١١٥٨٣ جمع

الجوامع العدد ٤٥ ج٢ ص ٥٩٤ .

(٢٦) الحديث الشريف: رواه أبو منده وأبو موسى - أسد الغابة ج١ ص ٢٤١ .

(٢٧) الحديث الشريف: ابن الأثير: أسد الغابة ج٢ ص ٢٣٦ .

(٢٨) الحديث الشريف: رواه أحمد وأبو داود - الشوكاني: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من

أحاديث سيد الأخيار - مطبعة الحلبي - القاهرة ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م - ط٣ - ج٨ ص ٩٥ .

(٢٩) الحديث الشريف: رواه أحمد ومسلم (مختصراً منه) نيل الأوطار المرجع السابق ج٨ ص

٩٥ .

(٣٠) الآية الكريمة: ١٩٥ من سورة البقرة .

(٣١) الحديث الشريف: رواه العسكري وأبو يعلى (بلفظ أن يحكمه) - حديث رقم ٧٣٣ - ٥٢١٨

جمع الجوامع عدد ٤١٤ ج١ ص ١٦٨٩ .

(٣٢) الآية الكريمة: ٩٣ من سورة النحل .

(٣٣) ضمّر الفرس للمسابق ونحوه: ربطه وعلفه وسقاه كثيراً مدةً، وركضه في الميدان حتى يخف

ويديق، ومدة التضمير عند العرب أربعون يوماً (المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية ج١ ط٢ -

١٩٧٢م) .

(٣٤) الحديث الشريف: رواه البخاري ج٤ ص ٣٨ - والحفباء: موضع بقرب المدينة بينه وبين ثنية

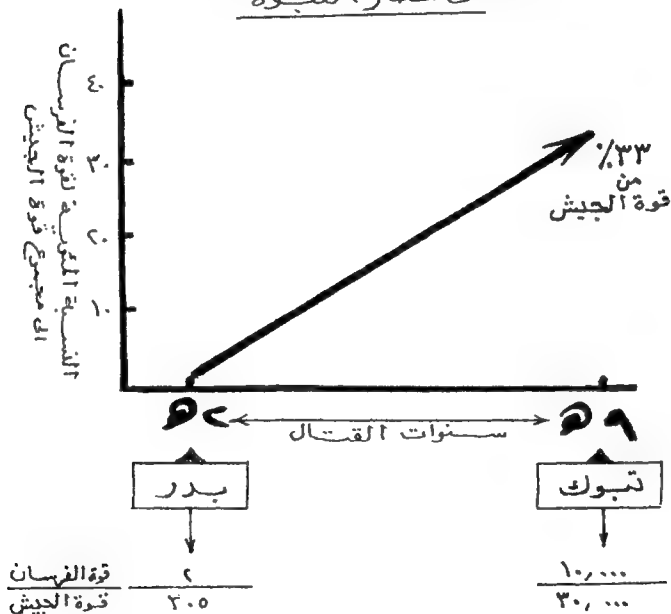
- الوداع ستة أميال تقريباً هي مسافة السباق للخيول المضمرة، أما المسافة للخيول غير المضمرة من التتية إلى مسجد بني زريق فهي ميل واحد: البخاري ج٤ ص ٣٨ .
- (٣٥) الحديث الشريف: رواه أحمد، حديث رقم ٥٦٥٦ ج٤ ص ١٦٢ - ١٦٣ .
- (٣٦) علي بن برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبي - مطبعة الحلبي - القاهرة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م ج٢ ص ٦٠١ + محمد بن يوسف الصالحى الشامى: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م - ج٤ ص ٤٩٩ .
- (٣٧) ابن هشام: السيرة النبوية - مطبعة الحلبي - القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م - القسم الأول (ج١، ٢) ص ٢٠٩ .
- (٣٨) الحديث الشريف: رواه مسلم عن عتبة بن عامر، رضي الله عنه، ج٦ ص ٥٢ .
- (٣٩) الحديث الشريف: رواه أحمد والترمذي عن عتبة بن عامر - مجمع الجوامع حديث ٥٢٥ - ٥٠١٠ العدد ١٣ ج١ ص ١٦١٢ .
- (٤٠) الحديث الشريف: رواه الترمذي عن ابن عباس، رضي الله عنهما: حديث رقم ١٦٩٠ ج٥ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ محمد بن عبد الرحمن المباركفوري: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ط ٢ - ١٣٨٥هـ القاهرة - مطبعة الفجالة .
- (٤١) الحديث الشريف: البخاري ج٤ / ٤٧ .
- (٤٢) من ذلك مثلاً أن يقوم المعلم بتصوير موقف شبيه بأحد مواقف المعركة الحقيقية التي يواجهها المقاتل كأن يجد أمامه حقل ألغام أو كميناً للعدو، ثم يترك الجندي ليفكر ويتصرف .
- (٤٣) الآية الكريمة: ٧٨ من سورة النحل .
- (٤٤) الآية الكريمة: ٣٦ من سورة الإسراء .
- (٤٥) الآية الكريمة: ٧٨ من سورة المؤمنون .
- (٤٦) الآية الكريمة: ٧٢ من سورة الأحزاب .
- (٤٧) الآية الكريمة: ٣٠ من سورة العنكبوت .
- (٤٨) الآية الكريمة: ١٠١ من سورة يونس .
- (٤٩) الآية الكريمة: ٤٦ من سورة الحج .
- (٥٠) للآيات الكريمة: ١٧ - ٢٠ من سورة الغاشية .
- (٥١) فيكونت مونتجمري: الحرب عبر التاريخ تعريب فتحي عبد الله النمر - القاهرة ١٩٧٢ ج١ ص ٣٥ .
- (٥٢) الآية الكريمة: ٢١ من سورة الأحزاب .
- (٥٣) الآية الكريمة: ٤ من سورة القلم .
- (٥٤) الآية الكريمة: ١١٣ من سورة النساء .

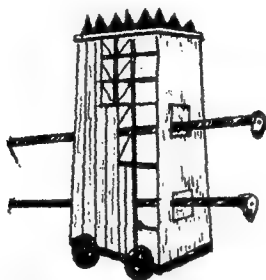
- (٥٥) فيكونت مونتجمري: المرجع السابق جـ٢ ص ١٨٦ - ١٨٩ .
- (٥٦) الحديث الشريف: رواه البيهقي في السنن الكبرى جـ ١٠ ص ١٠٩ .
- (٥٧) الآية الكريمة: ١٥٩ من سورة آل عمران .
- (٥٨) ابن هشام: القسم الأول ص ٦٢٠ .
- (٥٩) ابن هشام: القسم الثاني ص ٢٢٤ .
- (٦٠) ابن هشام: القسم الأول ص ٦٢٠ .
- (٦١) ابن هشام: القسم الأول ص ٦٠٠ .
- (٦٢) ابن هشام: القسم الأول ص ٥٩٥ .
- (٦٣) ابن هشام: القسم الثاني ص ٥٤ .
- (٦٤) ابن هشام: القسم الأول ص ٦١٢ - ٦١٣ .
- (٦٥) ابن هشام: القسم الثاني ص ٤٠٦ - ٤٠٧ .
- (٦٦) الحديث الشريف: رواه أحمد حديث رقم ٢٢١٦ جـ٢ ص ٣٤٣ عن ابن عباس ، رضي الله عنهما .
- (٦٧) الحديث الشريف: رواه الطبراني في الكبير حديث رقم ٢٥٧ - ١٨٦٢٩ جمع الجوامع العدد ١٧ جـ٣ ص ٢٠٩٨ والأيتان الكرمتان ٧٩.٧٨ من سورة المائدة .
- (٦٨) الآية الكريمة: ١١٣ من سورة النساء .
- (٦٩) للآيات الكريمة: ٢-٤ من سورة الجمعة .
- (٧٠) الحديث الشريف: رواه مسلم جـ ٨ ص ٣٤ .
- (٧١) الحديث الشريف: رواه النسائي والطبراني ورمز له بالصحة - حديث رقم ٣٣١ - ١٢٤٣ جمع الجوامع العدد ٤٤ جـ١ ص ٣٨٨ .
- (٧٢) الحديث الشريف: رواه مسلم جـ ٨/٣٤ .
- (٧٣) الحديث الشريف: رواه أبو داود حديث رقم ٢٥٧١ عون المعبود بشرح سنن أبي داود جـ ٧ ص ٢٥٢ .
- (٧٤) الحديث الشريف: رواه مسلم جـ ٨ ص ٣٣ .
- (٧٥) الحديث الشريف: رواه أبو داود برقم ٤٩٨٣ بشرح سنن أبي داود جـ ١٣ ص ٤٣٧ .
- (٧٦) الآية الكريمة: ١٠٢ من سورة النساء .
- (٧٧) ابن هشام: القسم الثاني ص ١٠٠ .
- (٧٨) الحديث الشريف: رواه ابن عدي وابن عساكر عن جابر ومسنده صحيح حديث رقم ٢٦١ - ٤٧٤٦ جمع الجوامع العدد ١٣ جـ١ ص ١٥٠٤ .
- (٧٩) الحديث الشريف: رواه البخاري ومسلم حديث رقم ٥٦٨: محمد فؤاد عبد الباقي: اللؤلؤ

- والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت - ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م - طبعة خاصة .
- (٨٠) الحديث الشريف: رواه أحمد ومسلم عن ثوبان حديث رقم ٨٣ - ٣٧٥٠ جمع الجوامع العدد ١٠ ج ١ ص ١١٦٢ .
- (٨١) الحديث الشريف: رواه أحمد عن ابن عمر ، رضي الله عنهما، حديث ٤٧٦٩ المسند ج ٣ / ٤٧٢ .
- (٨٢) الآية الكريمة: ١١ من سورة المجادلة .
- (٨٣) الآية الكريمة: ٩ من سورة الزمر .
- (٨٤) الحديث الشريف: رواه أحمد والحاكم وأبو داود والترمذي وابن حبان من حديث أبي الدرداء، حديث رقم ٨٠ - ١١٢٩١ جمع الجوامع العدد ٤٤ ج ٢ ص ١٤٠١ - ١٩٨١ .
- (٨٥) الحديث الشريف: رواه أحمد: المسند المطبوعة الميمية بمصر ١٣١٣هـ؛ ج ٣ ص ١٥٧ .
- (٨٦) الحديث الشريف: رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي حديث رقم ٤١٦ - ١٣٩٠٥ جمع الجوامع، العدد ١٥؛ ج ٢ ص ١٨٥٧ .
- (٨٧) الحديث الشريف: رواه الترمذي عن أبي أمامة حديث رقم ٥٢ - ١٥٧٨٠ العدد ٢٨؛ ج ٢ ص ٣٥٢٥ .
- (٨٨) الحديث الشريف: رواه ابن ماجه: المسند، ط الحلبي بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - القاهرة - حديث رقم ٢٢٩ ج ١ ص ٨٣ .
- (٨٩) ابن هشام: القسم الثاني ٤٧٨ - والضبور نوع من الدبابات .
- (٩٠) السيرة الحلبية: ج ٢ ص ٧٤٣ .
- (٩١) عبد الرؤوف عون: ان الحربي في صدر الإسلام ص ١٣٦ .
- (٩٢) أحمد عادل كمال: الطريق إلى المذائن - دار النقايس بيروت ط ١ - ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م ص ٣٥٠ .

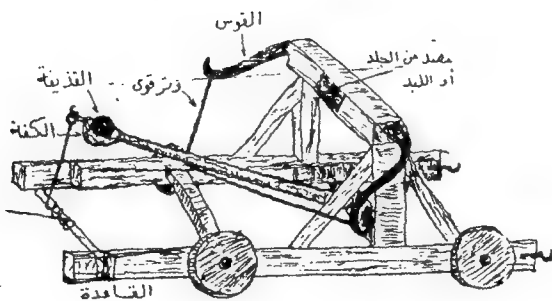


## تطور القوة الضاربة في عصر النبوة





دبابة مزودة برأس الكبش



منجنيق لقذف الأثقال

# نظرية علم اللسانيات الحديث وتطبيقها على أصوات العربية

د. كونغ الجور

## الفصل الأول: رأي المدرسة البنيوية السلوكية

تمهيد

شهدت دراسة اللغة في أوائل القرن العشرين تحولاً أساسياً  
وازدهرت دراسات علم اللغة الحديث على وجه الخصوص بعد وفاة



العالم السويسري فرديناندي سوسير (Ferdinand de Saussure) (١٨٥٧م - ١٩١٣م) الذي يعد رائد هذا العلم وصاحب فكرة المنهج الوصفي (Descriptive) <sup>(١)</sup> وعلى أفكاره قامت بعض المدارس اللغوية في أوروبا وأمريكا مثل مدرسة براغ (Prague) البنيوية التي ازدهرت سنة ١٩٤٢م والتي كان من روادها العالم الروسي جاكوبسن (Jakobson) (١٨٩٦ - ١٩٨٢) وزميله الروسي تروبتسكوي (Trubetzkoy) (١٨٩٠ - ١٩٣٨) <sup>(٢)</sup> وعندئذ ظهرت نظرية الفونولوجيا عند أعضاء مدرسة براغ وهي النظرية التي تميز بين أصوات اللغة من حيث وظيفتها أو دلالتها، وتعد أول تعميق

منهجي لنظرية سوسير في اللغة التي ترى، أن اللغة نظام من العلامات التي يتقابل بعضها مع البعض الآخر<sup>(٧)</sup>.

وقد تمثل الاتجاه الوصفي في دراسات اللغة في أمريكا في مدرسة سابير (Sapir) (١٨٨٤ - ١٩٣٩) التي استمرت حتى سنة ١٩٣٩. ثم تلتها مدرسة بلومفيلد (Bloomfield) (١٨٨٧ - ١٩٤٩) التي تأثر بعض علمائها بالمذهب السلوكي في علم النفس<sup>(٨)</sup>. ونظروا إلى اللغة على أساس أنها مجموعة من العادات السلوكية<sup>(٩)</sup>. فجاءت

دراساتهم اللغوية متأثرة إلى حد كبير بمفاهيم علم النفس السلوكي. وقد أقام بلومفيلد منهجه متأثراً بالمذهب السلوكي في علم النفس وبخاصة عند واطسن (J.B.Watson) الذي يشرح هذا الاتجاه، بأنه اكتشاف ما سوف يفعله الفرد في موقف معين أو حين يرى شخصاً ما يفعل شيئاً ما. ومن ثم يمكن التنبؤ بالاستجابة حين نعرف المثير أو المنبه أو الحافز<sup>(١٠)</sup>.

ويقدم بلومفيلد لنا المثال بقصته المشهورة، التي توضح الظروف البسيطة التي يمكن تحليلها إلى ما يلي<sup>(١١)</sup>:-

أ) أحداث عملية تسبق الحدث الكلامي.

ب) الكلام.

ج) أحداث عملية تتبع الحدث الكلامي.

فيشرح منهجه في بحث الحدث الكلامي من الوجهة السلوكية رافضاً طريقة التناول العقلية القديمة. وذلك لأنه فرق بين نظريتين لتفسير الكلام، الأولى: عقلية ترجع السلوك الإنساني إلى الروح أو العقل أو الإرادة، أي إلى عوامل غير فيزيائية ملموسة وهذه العوامل لا تخضع للوصف العلمي، والثانية: مادية أو آلية وهي التي يراها صالحة لدراسة السلوك الإنساني<sup>(١٢)</sup>.



إذاً اللغة في رأي بلومفيلد استجابة كلامية للمثير، فهي سلوك يرجع إلى عوامل فيزيائية تخضع للملاحظة والتنبؤ والتفسير والقياس المادي. ولكننا لا بد أن نلاحظ أن خضوع بلومفيلد للمذهب السلوكي لم يكن له أثر واضح في الفونولوجيا. وإنما عمل بلومفيلد في إطار تطبيق الأساليب اللسانية الحديثة على طرق تعليم اللغات وأسهم في وضع برنامج الدراسة اللغوية المكثفة وفي إعداد المعلمين<sup>(٩)</sup>.

وتعتمد المدرسة البنوية أيضاً على نظرية سكينر (Skinner) السلوكية التي تنظر إلى اللغة على أنها نمط من أشكال السلوك العامة<sup>(١٠)</sup>. ويرى أن من شأن المثيرات اللفظية والبيولوجية توليد الاستجابات اللفظية التي يتعلمها الكائن الحي أو الطفل بواسطة (التعزيز أو التدعيم) ويؤكد على أن تعزيز السلوك اللفظي يتم بواسطة الآخرين. فالتدعيم أو التعزيز شرط أساسي لقيام الصلة بين المثير والاستجابة للمثير. وقد وجه تشومسكي (Chomsky) (١٩٢٨) هجوماً عنيفاً إلى آراء سكينر ودحض كثيراً من حججه التي اعتمد عليها<sup>(١١)</sup>.

هذا وقد تطورت النظرية البنوية السلوكية تطوراً سريعاً وطبقت نتائج دراساتها على دراسة اللغات المختلفة، فأدى ذلك إلى إعادة النظر في المعطيات اللغوية وبخاصة المفاهيم الأساسية العائدة على الدراسات اللغوية والتطبيقية.

وسيقصر عرضنا في القسم الأول من هذا الفصل على اتجاهات هذه المدرسة في علم الفونولوجيا وتطبيق نظريتها على الأصوات العربية لنرى إلى أي مدى يمكن أن تساعد هذه الاتجاهات على إعداد المواد الدراسية لتعليم اللغة العربية للناطقين باللغة الكورية على أساس التحليل الفونولوجي.

## ١-١-٢ المذهب السلوكي والطريقة السمعية الشفوية:

يعتمد البنيويون النظرية السلوكية للغة، بمعنى أن اللغة هي عادات كلامية يوجد لها المثير<sup>(١٢)</sup>، واللغة سلوك يتعلمه الطفل تدريجياً من خلال اكتسابه للعادات. فهي إذن عادة سلوكية والعادة في علم النفس هي نمط من السلوك الذي تستثيره مواقف معينة بأسلوب آلي ميكانيكي<sup>(١٣)</sup>. فكلما وضع الكائن الحي في ذلك الموقف جاءت هذه الاستجابات الآلية المعروفة باسم (العادة) ويتم اكتساب العادة عن طريق التعليم ويحدث ذلك في أغلب الأحيان بالتكرار المستمر وإن كان من الممكن اكتساب العادة من محاولة واحدة فقط أو محاولات محدودة العدد.

وقد أثرت نظرة السلوكيين هذه في مجال تعليم اللغات تأثيراً بالغاً فنشأ عنها ما يسمى بالطريقة السمعية الشفوية (Aural ≠ Oral) أو الطريقة السمعية اللغوية (Audio≠Lingual)<sup>(١٤)</sup> ويمكن إيجاز المبادئ العامة للطريقة السمعية الشفوية في أمور هي<sup>(١٥)</sup>:

أ) اللغة أساسها الحديث قبل أن تكون كتابة، أي أن الشكل الشفوي أو الصوتي للغة يظهر عادة قبل ظهور الشكل الكتابي أو الرمزي لها ولذلك يجب أن ينصب الاهتمام في تعليم اللغات الأجنبية على الحديث أو الكلام وليس على القراءة والكتابة.

ب) المقارنة بين اللغة الأم واللغة الهدف على أسس علمية تجريبية وتحليلها، ومن هنا ظهرت الدراسات التقابلية بين اللغة الأم واللغة الهدف اللتين لا تنتميان إلى فصيلة لغوية واحدة.

ج) ينظر العلماء إلى القوالب اللغوية على أنها عادات وأن تثبيتها لا يتم إلا عن طريق التدريب المستمر وعن طريق التكرار والقياس والتعديل والتحويل والاستبدال، لذا ينبغي تثبيت تلك العادات اللغوية عن طريق

التدريب النمطي (Pattern Practice) أو الآلي.

(د) عملية تعلم اللغة كلها في مواقف حقيقية وحية ولا تتم في فراغ أو في مواقف مصطنعة فكلما كانت المواقف التعليمية واقعية وحية كان أثر التعليم أعمق وأثبت.

ويمكننا أن نستنتج من المبادئ المذكورة أعلاه أن الطريقة السمعية الشفوية تهتم بأمرين أساسيين هما:

(١) الدراسة التقابلية في تعليم الأصوات اللغوية.

(٢) التدريب النمطي في تعليم التراكيب النحوية.

وسوف نتناول فيما يلي الأمر الأول، لأنه ذو صلة مباشرة بموضوع هذه الدراسة.

### ١ - ٣ - الدراسة التقابلية في تعليم الأصوات اللغوية :

كانت الدراسة التقابلية سائدة في الستينيات حيث اعتمدت عليها المدرسة البنوية السلوكية في التحليل اللغوي ومعالجة المشاكل التي تواجه متعلمي اللغات الأجنبية والتي تنجم عادة عن الاختلافات بين اللغتين، اللغة الأم واللغة التي يراد تعلمها. وتعتمد الدراسة التقابلية على وصف لغتين ومقارنتهما بغية كشف نواحي التشابه والاختلاف بينهما وتحليلها وتفسيرها حتى يمكن معالجتها أثناء العملية التعليمية، لذا نجد الدراسة التقابلية تستعمل للتنبؤ بالصعوبات التي تواجه الدارس وما يمكن أن يقع فيه من أخطاء<sup>(١٦)</sup>، وقد دلت التجارب على أن في مقدور التقابل اللغوي أن يتنبأ بحوالي ٥٠٪ إلى ٦٠٪ من الأخطاء الحقيقية<sup>(١٧)</sup>.

وخلال السبعينيات - وهي السنوات التي - شهدت النقاش الحاد حول فرضية التقابل اللغوي، ظهرت اتجاهات متميزة بالنسبة للتقابل اللغوي

وهذه الاتجاهات تختلف في نظرتها لأسباب الصعوبات التي تواجه الدارس وهي:

(أ) اتجاه فريز (Fries) ولادو (Lado) وأتباعهما.

(ب) اتجاه اولار (Oller) وأتباعه.

(ج) اتجاه وردهوغ (Wardhaugh) وأتباعه.

ظهرت حركة قوية في ميدان تعليم اللغات الأجنبية منذ بداية النصف الأول من الخمسينيات، وكان من روادها تشارلز فريز (Charles C Fries) وروبرت لادو (Robert Lado) في الولايات المتحدة الأمريكية وقد نادى هذان العالمان بضرورة القيام بالدراسة التقابلية بين اللغة الإنجليزية من جهة وكل من لغات الدارسين الذين يدرسون اللغة الإنجليزية للناطقين بغيرها من جهة أخرى.

وكان كتاب لادو يعد أول عملية للتقابل اللغوي وقد قدم لنا في كتابه (علم اللغة عبر الثقافات) كيفية المقارنة بين نظامين صوتيين وبين نظامين صرفيين ونظامين نحويين ونظامين دلاليين وثقافتين متميزتين - وذكر أن للتقابل اللغوي فوائد كثيرة يمكن حصرها في التالي<sup>(١٨)</sup>:

(١) إعداد المواد التدريسية وتقويم محتواها اللغوي والثقافي.

(٢) تصميم الاختبارات.

(٣) الفهم الثقافي.

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أننا نستطيع أن نتجنب الأخطاء في اللغة الأجنبية، إذا بنينا تدريسنا على الدراسة التقابلية وركزنا على الاختلافات التي بين اللغة الأم واللغة الهدف لأن هذه الاختلافات هي التي تسبب الأخطاء<sup>(١٩)</sup>.

وقد ركز فريز على أهم أسس هذا الاتجاه في كتابه على النحو

### التالي: (٣٠)

(١) مفتاح اليسر أو الصعوبة في تعليم اللغة الأجنبية يكمن في المقارنة بين اللغة الأم واللغة الهدف.

(٢) إن أكثر المواد التعليمية فعالية هي تلك التي تقوم على أساس من الدراسة الوصفية العلمية للغة المراد تعلمها ومقارنتها مقارنة متوازنة وبدقة مع لغة المتعلم.

(٣) إن المعلم الذي يقف على أوجه التشابه والاختلاف بين اللغتين يكون أدرى بالمشكلات الحقيقية التي يواجهها المتعلم ويكون بالتالي أقدر على مواجهة هذه المشكلات.

على أن الدراسة التقابلية لم تجزِ بالقول بأن كل الأخطاء اللغوية التي يرتكبها الدارسون يكون سببها تداخل عناصر اللغة الأم في عملية التعلم لأن هذه الأخطاء قد تكون نتيجة عدم تمكن الدارس من استيعاب قواعد اللغة الأجنبية استيعاباً جيداً، كما أن هنالك أسباباً سيكولوجية خارجة عن نطاق التحليل اللغوي للغات، لذا يجب أن نؤكد القول بأن تجهيز المواد التدريسية هو من إسهام الدراسة التقابلية وأن التنبؤ بمواطن الأخطاء ليس همّها الأوحد<sup>(٣١)</sup>.

### ب) اتجاه أولار (Oller) وأتباعه:

الدراسة التقابلية من الناحية الصوتية تساعدنا على معرفة نواحي الصعوبات التي تقابل الدارس وإن الصعوبات ليست بالضرورة مواضع اختلاف بين اللغتين، بل ربما تنتج الصعوبات عن مواضع التشابه أيضاً<sup>(٣٢)</sup>.

وتدل التجارب على أنه توجد نواحٍ صعبة من اللغة الهدف أو اللغة

الاجنبية لكل الدارسين سواء كانت الأصوات متشابهة أم مختلفة، وقد تكون الأصوات السهلة الناتجة عن التشابه أصواتاً صعبة من جهة (٢٣).

وأهمية الدراسات التقابلية للتنبؤ بالصعوبات بوساطة دراسة النقاط التي تختلف فيها اللغتان وإهمال النقاط التي تتشابه فيها، كما هو عند لادو، لأن كثيراً من الأخطاء بين اللغات المتشابهة أيضاً ولكن الدراسة التقابلية مفيدة إذا استعملت بوصفها وسيلة لشرح الأخطاء وتفسيرها لا للتنبؤ بها فقط، كما أنها مفيدة في مساعدتنا لاكتشاف أقصر الطرق للعلاج.

(ج) اتجاه ورد هوغ (Wardhaugh) وأتباعه:

وقد قسم ورد هوغ (Wardhaugh) + منهج الدراسات إلى قسمين: (٢)

(١) الصورة القوية (the strong version)

(٢) الصورة الضعيفة (the weak version)

والصورة القوية تمثل التحليل التقابلي السابق (Apriori) وهي تحليل تنبؤي أما الصورة الضعيفة فتمثل التحليل اللاحق (Aposteriori) .

### (١) التحليل التقابلي السابق:

التحليل التقابلي السابق هو تحليل النظم الصوتية والصرفية والنحوية تحليلاً دقيقاً وكاملاً يقوم به اللغويون بقصد التنبؤ بنقاط الصعوبة. التي يواجهها المتكلم بلغته عند تعلمه اللغة الأجنبية، افتراضاً بأن نقاط الشبه لا تسبب مشاكل وأن الدارس يستطيع تعلمها دونما عناء، لأنه ينقل تراكيب لغته إلى تراكيب اللغة الأجنبية. فالغرض من إجراء التحليل التقابلي السابق هو استخلاص مواطن الخلاف بين الظاهرتين وأخذها كمؤثرات للتنبؤ بنوعية الصعوبات التي ستواجه دارس تلك اللغات. وعند إعداد وتجهيز المواد الدراسية يمكن تذكيل تلك الصعوبات.

### (٢) التحليل التقابلي اللاحق:

يعتمد التحليل التقابلي اللاحق على الملاحظة، حيث يقوم المعلم بملاحظة وتدوين أخطاء الدارسين والصعوبات التي تواجههم ثم يسخر معرفته بالعلوم اللغوية لتوصيف الأخطاء والصعوبات. وهذا التحليل لا يتطلب بالضرورة ما يتطلبه التحليل السابق من افتراض مواطن للصعوبات وبالتالي حتمية الخطأ في تلك المواطن، وعدم حتمية الخطأ في مواطن الشبه. والتحليل اللاحق لا يتطلب شرحاً نظرياً مفصلاً للتقابل، كما في التحليل السابق. ينطلق من المؤثرات التي تبرز نتيجة للتداخل اللغوي ويستعمل هذه المؤثرات لتوضيح نقاط الشبه ونقاط الخلاف بين اللغات المقابلة<sup>(٢٥)</sup>.

#### ١-٤ اتجاهات التحليل الفونولوجي في المدرسة البنوية:

تقوم دراسة الاتجاهات الفونولوجية في هذه المدرسة على النظر إلى الفونيم باعتبار وظيفته في النظام اللغوي ومن أشهر العلماء الذين تبنوا هذه الاتجاهات تروبتسكوي (Trubetzkoy) وبلومفيلد (Bloomfield) وجاكوبسن (Jakobson) وپايك (Pike). ونقدم فيما يلي عرضاً سريعاً لأهم تلك الاتجاهات:-

##### أ) الاتجاه الوظيفي:

يعرف تروبتسكوي الفونيم بأنه «الوحدة الفونولوجية الصغرى المميزة والتي لا يمكن تحليلها إلى وحدات فونولوجية أصغر» والوحدة الفونولوجية عند تروبتسكوي هي تلك الوحدة التي تقع في تقابل مع نظائرها وفي هذا التقابل تظهر قدرتها على تمييز المعاني المعجمية للكلمات ومن هنا يرى تروبتسكوي أن الفونولوجيا هي «دراسة التقابلات الصوتية التي لها القدرة على تمييز المعنى المعجمي» ومن هذا التعريف، نرى أن الفونولوجيا هي دراسة تقتصر على وظائف الأصوات وهذا يتفق مع

تعريف تروبتسكوي للفونيم.

ولكن بلومفيلد صاحب نظرة أخرى الفونيم فهو يعرفه بأنه «الوحدة الصغرى التي تحدث اختلافاً في المعنى». ويرى أننا نستطيع وفقاً لهذا التعريف أن نحدد الفونيمات على أساس الدور الذي يؤديه كل فونيم في بنية أشكال الكلام ويرى أيضاً أن الفونيمات ليست أصواتاً ولكنها ملامح صوتية يستطيع المتكلم أن يتدرب على نطقها وإدراكها. ومن هنا نستنتج أن بلومفيلد قد اعتمد في تعريفه على الجوانب الوظيفية والنطقية والسمعية. ويرى بلومفيلد من جهة أخرى أن الفونولوجيا «هي دراسة أصوات الكلام ذات المعنى» ويشرح المقصود بذلك فيقول: إن الفونولوجيا تقبل الفونيمات كوحدات مميزة وتحدد كل فونيم من خلال الدور الذي يؤديه في بنية أشكال الكلام<sup>(٦)</sup>. ومما سبق نستطيع القول بأن فونولوجيا بلومفيلد سارت في طريق فونولوجيا تروبتسكوي وإن تميزت فونولوجيا الأول بالدراسة التوزيعية للأصوات من خلال بحث مواقعها وتجمعاتها المختلفة.

### ب) الملامح المميزة:

الفونيم كما يرى جاكوبسن (١٨٩٦ - ١٩٨٢) هو مجموع الملامح المميزة (Distinctive Features) حيث يرى أن الفونيم يكتسب هويته الذاتية التي تجعله قادراً على تمييز معاني الكلمات من خلال مجموع الملامح المميزة التي تجعله يدخل في تقابل مميز مع نظائره التي تفقد هذه الملامح. ويرى جاكوبسن أن الفونولوجيا «هي بحث الملامح المميزة». فالفونولوجيا عنده لا تتعامل مع الأصوات وإنما تتعامل مع ملامحها المميزة التي يمكن أن تدخل في تقابل مميز. أما الملامح التي لا يوجد لها مقابل فيسميها جاكوبسن بالحياد. ومن هنا نلاحظ أن جاكوبسون قد أدرك وظيفة الفونيم في تمييز المعاني ولكنه وضع لنا الخواص أو الملامح التي تجعله



يؤدي هذه الوظيفة. إلا أن اعتقادي بأن بحث الملامح المميزة لا بد أن يسبقه إدراك لوظيفة الفونيم في تمييز المعاني. وعندئذ يكون بحث تلك الملامح توضيحاً لتلك الوظيفة الفونيم هو الملامح الأصغر الموجود في نظام التعبير في اللغة المنطوقة والذي بواسطته تتمكن من تمييز منطوق آخر وهذا التعريف كما نرى يقوم على أساس الوظيفة التي يؤديها الفونيم في اللغة وهذا ما قال به ترويتسكوي وبلومفيلد.

ويقصد جاكوبسن بالخصائص أو الخواص الصوتية التي تميز فونيماً عن فونيم آخر. ومن ثم أصبح مفهوم الفونيم عنده عبارة عن مجموعة من الملامح المميزة التي تنبع من الخصائص النطقية (Articulatory) أو الأكوستيكية (Acoustic) التي تحدد كل صوت من أصوات اللغة مثل موضع النطق وصفته. ولعل دقة هذه الملامح المميزة لكل فونيم واحتياجها إلى التحديد الدقيق هو ما دعا إليه جاكوبسن في الدراسة الصوتية.

وبناءً على فكرة الملامح المميزة هذه، أقام جاكوبسن نظريته الفونولوجية على مبدأ الإزدواجية أو الثنائية وهي تمثل خطوة أصيلة في الدراسات الفونولوجية. فالوحدات الصوتية تحدث وتظهر نتيجة لتقابلات صوتية معينة، إذا وجدت الوحدة الصوتية معلّمة أو ذات علامة (Marked) وإذا غابت أصبحت غير معلّمة (Unmarked) مثل التقابل بين انتشار الصوت وكثافته أو النغمة العالية والمهابة وغير ذلك من الملامح المميزة لكل صوت لغوي.

### (ج) النظرية التوزيعية:

طور بلومفيلد النهج الوصفي إلى منهج تصنيفي يستند إلى النظرية التوزيعية التي قال بها وطبقها من جاء بعده من علماء المدرسة البنوية مثل هاريس (Harris) وهوكت (Hockett) وپايك (Pike).

وكان پايك على رأس أنصار هذا الاتجاه الذي يرى أن الفونولوجيا دراسة توزيعية تتم على أساس الاستفادة من قواعد النحو. وهي عندهم لا تقوم على التجزئة وإنما تتم من خلال التراكيب. ولكي نتعرف على طبيعة الفونيم، يرى سابير (Sapir) (١٨٤٨-١٩٣٩) وهو أحد أنصار النظرية التوزيعية - أن المعيار التوزيعي هو المعيار الحاسم الذي يمكننا من التعرف على الفونيم ويقصد بالمعيار التوزيعي: المواضع التي يظهر فيها فونيم معين مع الفونيمات الأخرى التي تشترك معه في نظام لغوي واحد. وتقوم النظرية التوزيعية على فكرة الإبدال والإحلال حيث تستبدل وحدة لغوية محل وحدة أخرى في بنية لغوية أكبر مثل الفونيم في كلمة أو كلمة في جملة، مثال ذلك:

استبدال الفونيم (ق) في كلمة (قام) بفونيم النون (ن) في كلمة (نام)، ومعنى هذا أن الفونيمين (ق، ن) ينتميان إلى طبقة لغوية واحدة وهي الفونيم، وإن كانا داخل هذه الطبقة ينتميان إلى نوعين مستقلين من الفونيمات.

#### ١-١-٥ تطبيق هذه الاتجاهات على أصوات العربية:

نتناول تطبيق هذه الاتجاهات كما يلي:

(أ) تطبيق نظرية تروبتسكوي في التقابلات الفونولوجية:

قبل أن نخطو على طريق التطبيق، نذكر بعض أسس تلك النظرية والتي سيكون تحركنا التطبيقي في ضوئها وهذه الأسس هي:-

(١) نظرية التقابلات تهتم بجانب الوظيفة التي تؤديها الأصوات في اللغة.

(٢) الوظيفة التي تؤديها الأصوات هي تمييز المعاني المعجمية للكلمات.

(٣) كل صوت يدخل في تقابل معنوي نسميه وحدة فونولوجية.

٤) كل وحدة فونولوجية غير قابلة للانقسام إلى وحدات أصغر نسميها فونيمًا.

٥) إذا كانت الوحدة الفونولوجية تتكون من أجزاء يدخل بعضها في تقابل فرعي مع الأجزاء الأخرى، فمعنى ذلك أنها أكثر من فونيم. وطبقاً للأسس المذكورة آنفاً سنضرب أمثلة من الثنائيات الصغرى (Minimal Pairs) فيما يلي:

(١) بذر / بدر ، بشر / بسر ، حضر / حصر ، حزر / حجر ، غام / عام  
بال / مال ، لام / نام ، بتر / بثر ،

نلاحظ في المجموعات السابقة أننا قد أتينا بأزواج من الكلمات تشترك في شيء وتختلف في شيء. ونلاحظ من هذه المجموعات قابلية التقابلات للانقسام إلى وحدات مميزة أصغر ولذلك نسميها فونيمات. وتشغل الفونيمات مواقع مختلفة بحيث يصبح من الممكن أن تقترب صفات الفونيم من فونيم آخر وتتعدل صفات الفونيم تبعاً للسياق الصوتي الذي يقع فيه.

### ب) النظرية التوزيعية والأصوات العربية:

ولا بد لكي يكتمل الوصف الفونولوجي للأصوات العربية أن نوضح التنوعات الموقعية لها طبقاً للنظرية التوزيعية التي أخذ بها بلومفيلد وتلاميذه مثل بايك على النحو التالي:

١) فونيمات اللغة العربية يمكن تحديدها من عدة جوانب كما سنذكر في الباب التالي من هذا البحث وهي تنقسم باعتبار الطريقة التي ينطق بها الصوت من موضعه إلى انفجارية واحتكاكية وانفجارية - احتكاكية (مركبة) ومكررة وجانبية وأنفية ومفخمة ومرفقة:

أولاً: الأصوات الانفجارية هي (ب ض ط د ت ك ق همزة).

ثانياً: الأصوات الاحتكاكية هي (ظ ذ ز غ ع ص س ف ث ش خ ه).

ثالثاً: الصوت المركب هو صوت الجيم.

رابعاً: الصوت الجانبي هو صوت اللام والصوت المكرر هو صوت الراء  
والأصوات الأنفية هي صوتا الميم والنون ونصف الصوائت هي  
صوتا الواو والياء.

خامساً: الأصوات المفخمة هي (ص ض ط ظ ق)

أما الأصوات المرققة فهي (ب د ت ك همزة ذ ز غ ع خ ح هـ ش س  
ث ف ج ل ر م ن و ي).

٢) ويرى الباحث أن كل فونيمات اللغة العربية تقبل الوقوع في كل  
المواقع المختلفة بداية أو نهاية ماعدا فونيمات معينة يكون وقوعها مقيداً،  
منها:

أولاً: الفونيمات الطويلة تقع في موقع البداية مثل (آداب).

ثانياً: الفونيمات الطويلة لا تقع في موقع نهاية الكلمة المتبوعة بكلمة أخرى  
تبدأ بصوت صامت لأنها في هذه الحالة تتحول إلى حركات قصيرة  
مثل (في البيت).

ثالثاً: الوحدات الفونيمية الانزلاقية المكونة من (ـَ و) فتحة متبوعة بواو أو  
(ـِ ي) فتحة متبوعة بياء لا تقع في موقع البداية.

رابعاً: فونيمات الحركات القصيرة لا تقع في موقع البداية الا في الحالات  
التي تبدأ فيها الكلمة بصامت يستعان على النطق به لجلب همزة  
الوصل كما يرى بعض الباحثين.

(ج) تطبيق نظرية الملامح المميزة:

ترى هذه النظرية أن هناك ملمحاً مميزاً ثابتاً في كل فونيم وهذا الملمح

المميز الثابت هو الذي يكسب الفونيم هويته الذاتية ويمنع اختلاطه بالفونيمات الأخرى، بل هو الذي يجعل فونيماً يقف في تقابل مع كل فونيمات اللغة. وهذه هي نظرية الملامح المميزة عند جاكوبسن وهالي. ووفقاً لهذه النظرية يلاحظ الآتي:

أولاً: إن لكل فونيم مجموعة من الملامح المميزة وهي اثنتا عشرة مجموعة. ثانياً: عند عقد تقابلات صوتية سنجد أن هنالك ملمحاً على الأقل يوجد في أحد عضوي التقابل ولا يوجد في العضو الآخر. ثالثاً: وباستمرار عقد هذه التقابلات نتعرف على مجموعة الملامح المميزة عند جاكوبسن وهي كما يلي:

(١) صائتي (Vocalic) في مقابل لا صائتي (Nonvocalic) ينتج الصوت الصائتي باندفاع الهواء ماراً حراً بالحجرة ما أن يتذبذب الوتران الصوتيان.

(٢) صامتي (Consonantal) في مقابل لا صامتي (Nonconsonantal) يواجه الصوت الصامتي في إنتاجه عقبة في الممر الصوتي وقد تؤدي تلك العقبة إلى إعاقة كاملة في مرور الهواء كما هو الحال في إنتاج صوت التاء والذال وقد تكون جزئية ناتجة عن تضيق ممر الهواء كما هو الحال في إنتاج صوت الشين والصاد والسين... إلخ.

(٣) متضام (Compact) في مقابل منتشر (Diffuse) ويكون الفراغ الغموي ما بعد منطقة التضيق (Narrowing) حيث تلتحم أعضاء النطق أو تتقارب أقل في حالة الأصوات المتضامة منها في الأصوات المنتشرة. فالأصوات المتضامة هي الأصوات الطبقيّة والغازية والصوائت الواسعة، في حين أن الأصوات المنتشرة هي الأصوات الأسنانية

## واللثوية والصوائت الضيقة.

(٤) متوتر (Tense) في مقابل غير متوتر (Lax)

تصاحب الأصوات المتوترة تغيرات كثيرة في مناطق مختلفة من المر الصوتي مقارنة بالأصوات غير المتوترة حيث تقل فيها نسبة تلك التغيرات.

(٥) مجهور (Voiced) في مقابل مهموس (Voiceless)

ينتج الصوت المجهور بذبذبة الوترين الصوتيين، في حين أن الصوت المهموس لا تحدث فيه هذه الذبذبة.

(٦) أنفي (Nasal) في مقابل فموي (Oral)

ينتج الصوت الأنفي بمرور الهواء عبر التجويف الأنفي، في حين يمر الهواء فقط عن طريق الفم في حالة الأصوات الفموية.

(٧) استمراري (Continuant) في مقابل غير استمراري (Discontinuous) ينتج الصوت الاستمراري بالقفل والفتح السريع لبعض أعضاء النطق في المر الصوتي كما في صوت الزاي والراء.

(٨) خشن (Strident) في مقابل رقيق (Mellow)

يترك التضيق الإضافي التأثير في موضع النطق حين ينتج الصوت الخشن، في حين أن الصوت الرقيق ينتج بأقل التضيق في فراغ الفم.

(٩) مهموز (Glottalized) في مقابل غير مهموز (Nonglottalized)

ينتج الصوت المهموز في الحنجرة وذلك عن طريق قفلها وفتحها كما في صوت الهمزة أو عن طريق تضيقها كما في صوت الهاء.

(١٠) قراري (Grave) في مقابل غير قراري (Acute)

الأصوات القرارية هي الأصوات الطريفة مثل الأصوات الشفوية والطبقية إذ ينتج الصوت بتفريق الجسم الرنان، في حين أن الأصوات غير القرارية هي الأصوات الوسيطة مثل الأصوات الإسنانية والغارية.

(١١) استوائى (Flat) في مقابل غير استوائى (Nonflat)

الصوت الاستوائى صوت مضيق في الفتحة لأنه ينتج هذا الصوت في التجويف الأمامى أو الخلفى من فراغ الفم ويصاحب الإطباق اتساع في الجسم الرنان في فراغ الفم.

(١٢) حاد (Sharp) في مقابل غير حاد (Nonsharp)

ويمتاز الصوت الحاد بارتفاع ملحوظ في معدل تردد ذبذباته الصوتية وانفراج ملحوظ في التجويف الحلقى.

ونبدأ الإجراء التطبيقي باختيار مجموعة من الفونيمات ولتكن هذه المجموعة (الذال والطاء والظاء) و (السين والصاد والزاي) و (النون والميم) و (العين والحاء) و (الهمزة والهاء) و (اللام والراء) و (الواو والياء) وفي ضوء تسعة من التقابلات النطقية التي نص عليها جاكوبسن وهالي سنحدد الملح المميز لكل فونيم:

جدول رقم (١)  
الهاء والذال والظاء

| الملاحم المميزة | الهاء | الذال | الظاء |
|-----------------|-------|-------|-------|
| صامتة           | +     | +     | +     |
| استوائية        | -     | -     | +     |
| أنفية           | -     | -     | -     |
| متضام           | -     | -     | -     |
| قراري           | -     | -     | -     |
| متوتر           | +     | -     | -     |
| استمراري        | +     | +     | +     |
| خشن             | -     | +     | +     |

(+ = وجود الملمح، - = عدم وجوده)

نلاحظ من الجدول السابق الآتي:

أولاً: تتفق أصوات الهاء والذال والظاء في وجود ملمحي الصامتة والاستمرار.

ثانياً: تتفق الأصوات الثلاثة في عدم وجود ملاحم الأنفية والتضام والقرار.

ثالثاً: يختلف صوت الهاء عن الصوتين الآخرين في عدم وجود ملمح الخشونة فيه.



رابعاً: يختلف صوت الثاء عن الصوتين الآخرين في وجود ملمح التوتر.

جدول رقم (٢)

السين والصاد والزاي

| الملامح المميزة | السين | الصاد | الزاي |
|-----------------|-------|-------|-------|
| صامت            | +     | +     | +     |
| استوائي         | -     | +     | -     |
| أنفي            | -     | -     | -     |
| متضام           | -     | -     | -     |
| قراري           | -     | -     | -     |
| متوتر           | +     | +     | -     |
| استمراري        | +     | +     | +     |
| خشن             | +     | +     | +     |

(+ = وجود الملمح، - = عدم وجوده)

نلاحظ من الجدول السابق الآتي:

أولاً: تتفق أصوات السين والصاد والزاي في وجود الملامح الصامتة والاستمرارية والخشنة.

ثانياً: تتفق الأصوات الثلاثة في عدم وجود ملامح الأنفية والتضام والقرار.

ثالثاً: يختلف صوت الصاد عن الصوتين الآخرين في وجود ملمح الاستواء.

رابعاً: يختلف صوت الزاي عن الصوتين الآخرين في عدم وجود ملمح التوتر فيه.

### جدول رقم (٣) النون والميم

| الميم | النون | الملامح المميزة |
|-------|-------|-----------------|
| +     | +     | صامتي           |
| -     | -     | استوائي         |
| +     | +     | أنفي            |
| ٥     | ٥     | متضام           |
| +     | -     | قراري           |
| ٥     | ٥     | متوتر           |
| ٥     | ٥     | استمراري        |
| ٥     | ٥     | خشن             |

(+ = وجود الملمح، - = عدم وجوده، ٥ = الحياد)

نلاحظ من الجدول السابق أن الاختلاف الوحيد بين الميم والنون هو في وجود ملمح القرار في الميم وعدمه في النون.

### جدول رقم (٤) العين والحاء، الهمزة والهاء

| الملاح الميزة | العين | الحاء | الهمزة | الهاء |
|---------------|-------|-------|--------|-------|
| صامت          | -     | -     | -      | -     |
| استوائي       | +     | +     | -      | -     |
| أنفي          | ٥     | ٥     | ٥      | ٥     |
| متضام         | ٥     | ٥     | ٥      | ٥     |
| قراري         | ٥     | ٥     | ٥      | ٥     |
| متوتر         | -     | +     | -      | +     |
| استمراري      | ٥     | ٥     | ٥      | ٥     |
| خشن           | ٥     | ٥     | ٥      | ٥     |

(+ = وجود الملمح ، - = عدم وجوده ، ٥ = الحياد)

نلاحظ من الجدول السابق الآتي:

أولاً: تتفق أصوات العين والحاء والهمزة والهاء في عدم وجود ملمح الصامتية.

ثانياً: يختلف صوتا العين والحاء عن الصوتين الآخرين في وجود ملمح الاستواء.

ثالثاً: يختلف صوتا العين والهمزة عن الصوتين الآخرين في عدم وجود ملمح التوتر فيه.

**جدول رقم (٥)**  
**اللام والراء ، الواو والياء**

| الملاح المميزه | اللام | الراء | الواو | الياء |
|----------------|-------|-------|-------|-------|
| صامتة          | +     | +     | -     | -     |
| استوائيه       | -     | -     | ٥     | ٥     |
| أنفي           | ٥     | ٥     | ٥     | ٥     |
| متضام          | ٥     | ٥     | ٥     | ٥     |
| قراري          | ٥     | ٥     | +     | -     |
| متوتر          | ٥     | ٥     | -     | -     |
| استمراري       | +     | -     | ٥     | ٥     |
| خشن            | ٥     | ٥     | ٥     | ٥     |

(+ = وجود الملمح ، - = عدم وجوده ، ٥ = الحياد)

تلاحظ من الجدول السابق الآتي:-

أولاً: يتفق صوتا اللام والراء في وجود ملمح الصامتة.

ثانياً: يتفق اللام والراء في عدم وجود ملمح الاستواء.

ثالثاً: يختلف صوت اللام عن صوت الراء في وجود ملمح الاستواء.

رابعاً: يتفق صوتا الواو والياء في عدم وجود ملمح الصامتة والتوتر.

خامساً: يختلف صوت الواو عن صوت الياء في وجود ملمح القرار.

ويكتفي البحث بهذه التقابلات.

## الفصل الثاني: رأي المدرسة اللغوية الاجتماعية

١-٢-١ تمهيد

لقد كانت نظرية فرث (Firth) (١٨٩٠ - ١٩٦٠م) رائد المدرسة اللغوية الاجتماعية محصلة للدراسات اللغوية التي بدأت في بريطانيا منذ نهاية القرن الثامن عشر. وكان لفيرث اهتمام خاص باللغات الشرقية فقد عاش فترة من الزمن في الهند وتأثر بجهود علماء اللغة الهنود القدماء ووصفهم للغة السنسكريتية وبخاصة من الناحية الصوتية، وكل ذلك أهله لوضع نظرية لغوية قامت على أصولها مدرسة لغوية مستقلة في تاريخ الفكر اللغوي عرفت باسم المدرسة الاجتماعية الإنجليزية وحجرت الزاوية في هذه النظرية هو فكرة السياق<sup>(١)</sup>.

ومن أهم خصائص السياق عند فيرث إبراز الدور الاجتماعي الذي يقوم به المتكلم وسائر المشتركين في الكلام. ويجب تحليل الكلام إلى عناصره ووحداته المكونة له والكشف عما بينها من علاقات داخلية لكي نصل إلى المعنى الذي يتصل أيضاً بمستويات التحليل المختلفة الصوتية والفونولوجية والمورفولوجية والنحوية، مع ملاحظة أن هذه المستويات ترتبط فيما بينها برابط وثيق. ومفهوم المعنى عند فيرث هو مجموعة من العلاقات والخصائص والمميزات اللغوية التي نستطيع التعرف عليها في موقف معين يحدده لنا السياق.

وسنعرض في هذا الفصل نظرية المدرسة اللغوية الاجتماعية الإنجليزية واتجاهات التحليل الفونولوجي وتطبيقها على أصوات اللغة العربية. والجدير بالذكر بأن هذه المدرسة لا تملك نظرية لتعليم الأصوات اللغوية كالمدرسة البنوية السلوكية.

## ٢-٢-١ نظرية المدرسة اللغوية الاجتماعية:

في عام ١٩٤٤ شاركت بريطانيا لأول مرة في وضع نظرية لغوية عامة على يد فيرث (J.R.Firth) الذي كان يعرف أن اهتمام علماء اللغة في بريطانيا لم يتجاوز وضع المعاجم والدراسة الصوتية واللهجة. وقد تأثر فيرث في وضعه لهذه النظرية بنظرية العالم البولندي مالينوفسكي (B.Malinowski) الذي صادف العديد من الصعاب في ترجمة بعض آداب الشعوب البدائية ووجد من الضروري وضع الكلمات في سياقها (Context of Situation) الذي استُخدِمت أو نُطِقت فيه وقد رأى فيرث أن فكرة السياق هذه يمكن أن تمتد وتتسع في إطار تجريدي عام لدراسة المعنى. ومن ثم وضع أصول نظريته التي أصبح السياق فيها يمثل حقلاً من العلاقات الداخلية والخارجية.

قال فيرث إن «علم الأصوات هو دراسة للدلالة الصوتية للنطق» فالكلام البدائي يحتاج إلى معرفة جيدة للدلالة المتداخلة في الوحدات الصوتية. وقد كان فيرث يركز على الدلالة الصوتية في سياق الكلام ولذا اهتم بالنبر والتنغيم والنغم. وهذه الأشياء تسمى بالمكونات التطريزية (Prosodic) للكلمات.

قديمًا كانت التطريزية تعني النبر والطول والكمية ودرجة الصوت وما إلى ذلك. وإذا قارنا التطريزية بنظرية فيرث نجد تشابهاً بسيطاً جداً بينهما، وكانت أهمية المظاهر التطريزية قليلة جداً قبل ظهور فيرث. وهذه التطريزية عند فيرث تستعمل للمظاهر السياقية وعلاقات الشكل الصوتي، لذا نجد فيرث اهتم بدراسة اللغة المنطوقة دون أن يهتم باللغة المكتوبة.

فاستيعاب الكلام لا بد أن يرجع لهذه المظاهر التطريزية، والدلالة الصوتية عند فيرث تكون دلالة وظيفية مطردة وهذه الدلالة الوظيفية

المطرودة تعتمد على تغيير مواقع الفونيمات، أي باستخدام المقابلات الاستبدالية بين الألفاظ حتى يحدث تعديل أو تغيير في معاني هذه الألفاظ، لأن كل فونيم مقابل استبدالي لآخر. فتغييره أو استبداله بغيره لا بد أن يعقبه اختلاف في المعنى، كما نقول في العربية (نفر ونفذ) وهذا ما يسميه فيرث (الوظيفة الصوتية الصغرى) مقابل الوظائف الكبرى: المعجمية والصرفية والنحوية ووظيفة سياق الحال الدلالية. وعليه كل صامت أو صائت في اللغة العربية يمكن أن يكون مقابلاً استبدالياً. فالصوامت في تبدلها ذات وظيفة فونيمية، كذلك الصوائت لها دلالة صوتية أي ذات وظيفة فونيمية أقرب إلى وظيفة الصوامت في تغيير معاني الكلمات، إذ الصائت صوت في الكلمة وجزء لا يتجزأ منها ويختلف بعض الباحثين مع فيرث في جعله الصوائت العربية (الفتحة والكسرة والضمة) من قبيل الظواهر التطريزية لاتصالها بأكثر من وحدة فونيمية (Phonematic units) وبمعنى آخر، إن النظام الفونولوجي يتكون من وحدة فونيمية وظواهر تطريزية. ويفهم من كلام فيرث أن النظام التطريزي الذي اقترحه للكتابة إنما تشير رموزه إلى ظواهر تطريزية لا إلى وحدات. وهنا نختلف معه في بعض ما رآه. كون الألف والياء والواو والسكون دلالات كتابية على ظواهر تطريزية أمر مقبول، لأن الأمر فيما يختص بالألف والواو والياء بوصفها دلالات على طول الحركات، إذ الطول ليس وحدة بذاته وإنما هو ظاهرة تطريزية أما الفتحة والكسرة والضمة والهمزة رموز لظواهر تطريزية فالقول غير مقبول عندنا. ذلك لأن الفتحة والكسرة والضمة والهمزة تشير إلى وحدات، لا إلى ظواهر تطريزية، إذ هي عناصر أساسية في التركيب الصوتي للغة العربية.

والظواهر التطريزية هي الملامح الصوتية التي تصاحب الكلمات المتصلة أو الجمل، فتؤدي وظيفة دلالية وأهم هذه الملامح الصوتية النبر والتنغيم.

وقد نجد في كثير من الأحيان تداخلاً صوتياً بين التحليل الفونولوجي والتحليل المعجمي النحوي، وكان علماء النظرية التطريزية يقومون بتحليل الكلمات داخل الإطار النحوي، غير أن مصطلح ظواهر تطريزية هنا يقتصر على الدراسة الفونولوجية فالتحليل التطريزي يهتم بدراسة الملامح الصوتية ومقابلتها، مثلاً في اللغة العربية صوت (التاء) الذي يمثل صوتاً أمامياً يقابل صوت (الطاء) الذي يمثل صوتاً خلفياً.

وتصنيف أشكال النظرية التطريزية يكون من الناحية الفونولوجية فقط. وبناءً عليه نوضح فيما يلي أسس هذا التصنيف.

أ) لا بد من التأكد من وجود الملامح الصوتية أو عدم وجودها.  
ب) لا بد من التأكد من أن الملامح المميزة ما إذا كانت متشابهة أو مختلفة في علاقتها مع بعضها البعض.

وبهذا المنهج التحليلي يتكامل مفهوم نظرية السياق عند فيرث ومعنى هذا أن السياق عنده ينقسم إلى نوعين:

أ) السياق اللغوي: ويتمثل في العلاقات الصوتية والفونولوجية والمورفولوجية والنحوية والدلالية.

ب) سياق الحال: ويتمثل في الظروف الاجتماعية والبيئية والثقافية للمتكلمين أو المشتركين في الكلام.

وسنعرض التطبيق لهذا التحليل الفونولوجي على أصوات العربية في الصفحات التالية:



## ١-٢-٣ اتجاهات التحليل الفونولوجي في المدرسة الاجتماعية الإنجليزية:

وقد أوضح فيرث نقطة الخلاف الرئيسة بينه وبين من ينظرون إلى الفونيم على أنه عائلة من الأصوات الموزعة توزيعاً تكاملياً. فيرى فيرث أن الفونولوجيا هي العلم الذي يهتم بتوضيح الملامح المميزة الصوتية الضرورية في شكل معين من أشكال الكلام. ويبين مكان كل صوت في النظام الصوتي كله، ويرى أن القيمة اللغوية لكل صوت أو توزيع صوتي على بعض الأصوات الأخرى وبشكل غير مباشر على كل أصوات نفس اللغة.

فمن خلال دراسة البنية المقطعية نتمكن من توضيح المكونات الفونيمية والمكونات التطريزية للكلمات.

ويجدر بنا قبل الانتقال إلى التطبيق أن نبرز أهم الخطوط الرئيسة في نظرية فيرث الفونولوجية.

أولاً: يؤكد فيرث على أهمية الدراسة التركيبية للكلمة أو للجملة.

ثانياً: تعتمد دراسة فيرث التطريزية على مبدأ تعدد الأنظمة.

ثالثاً: أولى الخطوات العلمية عند فيرث تبدأ بتحديد الكلمة عن طريق دراستها داخل الجملة أو شبه الجملة، حيث تشكل الكلمة وحدة من وحدات هذا التركيب الطويل.

رابعاً: الطريق لدراسة هذه الوحدات الصغرى للكلمات يتم خلال دراسة بنيتها المقطعية.

خامساً: التطريزية عنده تعني كل السمات الموقعية سواء منها التي تحدد بداية الكلمة أم القطع أم الجملة أم وسطها أم نهايتها.

سادساً: يرى فيرث أن العناصر التطريزية لكلمة تتضمن:-

- (أ) عدد المقاطع      (ب) كمية المقاطع      (ج) طبيعة المقاطع  
(د) موقع المقاطع      (هـ) تتابع المقاطع

سابعاً: يرى فيرث أن في اللغة العربية نظاماً آخر غير النظام الفونيمي وهو النظام التطريزي وأعضاؤه هي الفتحة والكسرة والضمة والسكون والألف والواو والياء والهمزة.

#### ١-٢-٤ تطبيق هذه الاتجاهات على أصوات العربية:

نبدأ تطبيقنا بالتعرف على بنية المقاطع في اللغة العربية. ويرى إبراهيم أنيس أن المقاطع المستعملة في اللغة العربية (١) ص ح (٢) ص ح ح (٣) ص ح ص (٤) ص ح ح ص (٥) ص ح ص ص. الأنواع الثلاثة الأولى من المقاطع العربية هي الشائعة وهي التي تكون الكثرة الغالبة من الكلام العربي. أما النواعان الأخيران فقليلا الشيوع ولا يكونان إلا في أواخر الكلمات حين الوقوف. وقد أضاف أحمد مختار عمر مقطعاً آخر هو (ص ح ح ص ص) ومثل له بكلمة (راد) فلذن بصير عدد المقاطع المستعملة في اللغة العربية ستة وهي الخمسة المذكورة مضافاً إليها ما ذكره أحمد مختار عمر وهو (ص ح ح ص ص).

الآن نتناول تطبيق اتجاهات التحليل الفونولوجي في المدرسة الاجتماعية الإنجليزية كما يلي:

#### (أ) عدد المقاطع:

الكلمة العربية مهما اتصل بها من لواحق (Suffixes) أو سوابق (Prefixes) لا تزيد عدد مقاطعها على سبعة.

ففي كل من المثالين (فسيكفيكهمو) أو (أنلز مكموها) مجموعة مكونة من سبعة مقاطع. على أن هذا النوع نادر في اللغة العربية وإنما الكثرة الغالبة من الكلام العربي تتكون من مجاميع من المقاطع، كل مجموعة لا تكاد تزيد على أربعة مقاطع.

### ب) كمية المقاطع:

تنقسم هذه المقاطع العربية من حيث الكمية إلى:

- ١) مقاطع قصيرة وهي (ص ح).
- ٢) مقاطع متوسطة وهي (ص ح ح)، (ص ح ص).
- ٣) مقاطع طويلة وهي (ص ح ح ص)، (ص ح ص ص)، (ص ح ح ح ص).

### ج) طبيعة المقاطع:

تنقسم المقاطع العربية من حيث طبيعتها إلى:

- ١) مقاطع مفتوحة وهي (ص ح)، (ص ح ح).
- ٢) مقاطع مغلقة وهي (ص ح ص)، (ص ح ح ص)، (ص ح ح ح ص).

### د) موقع المقاطع:

موقعية المقاطع العربية:-

- ١) المقاطع (ص ح) يقع في البداية أو في الوسط أو في النهاية فهو مقطع حر.

٢) المقطع (ص ح ص) يقع في كل المواقع السابقة فهو مقطع حر.

٣) المقطع (ص ح ح) يقع في كل المواقع السابقة فهو مقطع حر.

٤) المقطع (ص ح ح ص) يقع أيضاً في كل المواقع السابقة فهو مقطع حر.  
٥) المقطع (ص ح ص ص) لا يوجد في الفصحى إلا في آخر الكلمة عند الوقف بالسكون فهو مقطع مقيد.

٦) المقطع (ص ح ح ص ص) ولا يوجد في الفصحى إلا في آخر المجموعة الكلامية، حين الوقوف بالسكون على مشدّد مسبوق بصوائت طويلة فهو مقطع مقيد.

نخلص مما سبق إلى القول بوجود أربعة مقاطع حرة هي (ص ح) (ص ح ح) (ص ح ص) (ص ح ص ص) وإنها لا تنقيد في الموضع وتقع في أول الكلمة ووسطها وآخرها. ومقطعان مقيدان منها يختصان بنهاية المجموعة الكلامية وهما (ص ح ص ص)، (ص ح ح ص ص).

#### هـ) تتابع المقاطع:

الكلمة المشتقة في اللغة العربية، اسماً كانت أو فعلاً، حين تكون مجردة من اللواحق والسوابق لا تكاد تزيد على أربعة مقاطع، ويندر أن نجدها تتكون من خمسة مقاطع مثل (يتعلم) فتتابع المقاطع في هذه الكلمة هو:

(ص ح + ص ح + ص ح ص + ص ح + ص ح)

وكذلك الأسماء المشتقة من هذه الكلمة قد تتكون من خمسة مقاطع مثل (متعلم) ولكن لندرة هذا النوع من الكلمات نفرض هنا أن كلمات اللغة العربية لا تزيد على أربعة مقاطع.

وإذا نظرنا إلى الكلمات العربية التي تتكون فعلاً من المقاطع (ص ح) (ص ح ح) (ص ح ص) وجدنا أشكال تتابع المقاطع محدودة لأن أشكال تتابع المقاطع التي يمكن أن توجد للكلمات ذات الثلاثة أو الأربعة المقاطع ومن الأنواع الثلاثة التي ذكرناها تجاوز المئة، في حين أن المستعمل فعلاً في اللغة لا يكاد يجاوز ربع هذا العدد.

(ص ح + ص ح ح + ص ح ح)

والكلمات التي تتبع هذا النسيج كثيرة مثل: (يختار، يمتاز... إلخ) كما قد يكون النسيج مثل: (ص ح + ص ح ح + ص ح ح). وكلمات هذا النسيج أمثال (مناد، معاد... إلخ) وكذلك قد يكون النسيج مثل (ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح) وكلمات هذا النسيج أمثال (قائل، بايع... إلخ) أما الكلمات التي تتكون من أربعة مقاطع فإن نسيجها يكون على النحو التالي (ص ح + ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح) مثل (يقدّم، يدحرج... إلخ).

### الفصل الثالث: رأي المدرسة التوليدية التحويلية

#### ١-٣-١ تمهيد

تنسب النظرية التوليدية التحويلية إلى اللغوي الأمريكي أفرام نوح تشومسكي (Avram Noam Chomsky) وكان تشومسكي في التاسعة والعشرين من عمره، حين أصدر كتابه الأول (التراكيب النحوية) (Syntactic Structure) عام ١٩٥٧م والذي بدأ به الثورة على علم اللغة الوصفي. وفي هذا الكتاب كان يركز أساساً على توليد الجملة وتحويلها فقط ولم يكن يتناول علم الأصوات بصورة منفردة، إلا في كتابه (النظام الصوتي للغة الإنجليزية) (the Sound Pattern of English) (١٩٦٨) وكان قد شاركه في تأليف هذا الكتاب العالم المعروف موريس هالي (Morris Halle).

وخرج الكتاب متأثراً بنظرية جاكوبسن الذي يرى أن الفونيمات هي

ملاح مميّزة. وإذا أمعنا النظر في عنوان الكتاب (النظام الصوتي للغة الإنجليزية) لوجدنا أنه لا يقتصر على قواعد اللغة الإنجليزية، بل كان يريدها قواعد شمولية أو كلية ويرى تشومسكي أن علم الفونولوجي التوليدي يتناول الفونيمات كوحداث مميّزة في المعنى.

والنظرية التوليدية التحويلية لا تتناول هي الأخرى طرق تدريس الأصوات اللغوية.

سنتناول بالبحث في هذا الفصل، الجزء المهم من أعمال تشومسكي مما يتصل بموضوع الدراسة وعرض ذلك بصورة مُيسّرة بعيداً عن التعقيدات الفنية في هذه المدرسة التوليدية التحويلية، ولذا سنبدأ أولاً بعرض بعض المصطلحات والمفاهيم التي تضع بين يدي القارئ صورة عن الفونولوجي التوليدي لكي يستطيع في النهاية أن يقدر آفاق الموضوع وأبعاده وتطبيقه على أصوات اللغة العربية.

### ١-٣-١ الشمولية اللغوية عند تشومسكي

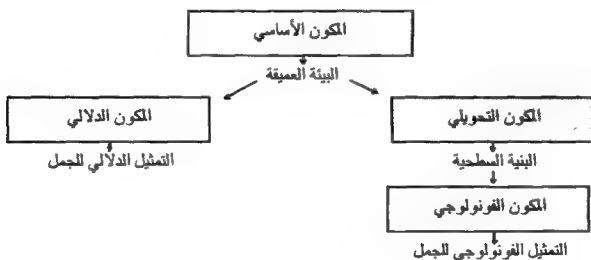
إن هدف المدرسة التوليدية التحويلية الأساسي هو العمل على تكوين نظرية لغوية شاملة (UNIVERSAL) تنتظم عموم اللغات في العالم. والتمييز بين ما يخص لغة معينة وبين ما يخص اللغات بصورة عامة.

قد قسم تشومسكي الشمولية اللغوية إلى جزأين، أولهما كلية منطقية أو شاملة منطقية (Formal Universal) وهي عبارة عن مبادئ عامة تحدد صورة القواعد وشكلها وطريقة عملها من خلال النظم النحوية لعدة لغات معينة. والآخر شاملة ثابتة (Substantive Universal) وهي عبارة عن شاملة تحدد نظاماً من العناصر التي تتصور أو تشكل في قواعد معينة. ويرى تشومسكي مثلاً أن النظرية التوليدية التحويلية تقترح شاملة منطقية باعتبار

أنواع القواعد في النحو، على حين أنها تعدُّ طبقاً للنظرية اللغوية العامة - عناصر كلية ثابتة .

وستتناول نظرية علم الأصول الشمولي في هذا الفصل وهي فرع من فروع علم اللغة العام وكذلك تختص هذه النظرية بمجموعة من التمثيلات الصوتية الممكنة للجمل بواسطة تحديد نظام شامل للعلامح الصوتية ويشق التأويل الصوتي لكل جملة من بنيتها السطحية (Surface Structure) التي تشق بواسطة قواعد معينة لذا يقتصر اهتمامنا على البنية.

السطحية والتمثيلات الصوتية وقواعدها. ونصوّر العلاقات بين علم الأصوات الشمولي (الفونولوجي التوليدي) وعلم التراكيب (علم النحو) وعلم الدلالة. في الشكل الآتي:



ويمكن أن ننظر إلى المستوى النحوي للجملة على أساس أنه شيء مستقل كلياً أو جزئياً عن النظام الذي تظهر فيه الكلمات متعاقبة ترتبط أحدها بالآخرى. ونلاحظ أيضاً أن التمثيل الصوتي لكل جملة من بنيتها السطحية عن طريق القواعد الفونولوجية .

### ١-٣-٢ اتجاهات التحليل الفونولوجي في المدرسة التوليدية :

والحقيقة أن موقف تشومسكي يشبه موقف عالم اللغة الروسي جاكوفين الذي استقر به المقام في الولايات المتحدة الأمريكية لعدة سنوات كان خلالها يجهر بالقول ناقداً آراء بلومفيلد ومذهبه في علم اللغة. وكان تشومسكي يشارك جاكوبسن في اعتقاده بأن هناك وحدات فونولوجية ونحوية ودلالية كلية وشاملة قد تشترك فيها اللغات جميعاً ولكنها ليست متحققة بالضرورة في جميع اللغات، بل ربما يتحقق هذا الوجود بصورة مختلفة وأقل إطراداً مما يُوحى به مصطلح الكلية أو الشمولية ومع ذلك فإن هذه الوحدات الفونولوجية يمكن

تحديدتها بصورة مستقلة عند وجودها في لغة معينة، بل يمكن أيضاً التعرف عليها عندما توجد في عدد من اللغات شريطة أن يتم تعريف هذه الوحدات وتحديداتها في إطار نظرية لغوية عامة. فنحن نعرف مثلاً أن هناك نظاماً فونولوجياً ثابتاً يحتوي على ما يقرب من ست وعشرين وحدة فونولوجية ذات خصائص وسمات أو ملامح مميزة ونعرض هذه الملامح المميزة مع تطبيقها على أصوات العربية. وجدير بالذكر أن تشومسكي تناول الملامح المميزة الصوتية بالصورة الفيزيولوجية، على حين أن جاكوبسن تناول الملامح الصوتية بالصورة الأكوستية.

#### أ) ملامح المجموعة الأساسية :

(١) الرنانة (Sonorant) في مقابل غير الرنانة (Obstruent):

الأصوات الرنانة هي التي تنتج بتشكيل التجويف للوترين الصوتيين الذي يجعل الجهر التلقائي ممكناً والأصوات غير الرنانة تنتج بتشكيل التجويف الذي يجعل الجهر التلقائي غير ممكن. فالأصوات الرنانة هي الأصوات الانزلاقية (أي الواو والياء) والأنفية (أي الميم والنون) والمائعة



(Liquids) (أي الراء واللام) والأصوات الصائتة. أما الأصوات غير الرنانة فهي الأصوات الانفجارية والاحتكاكية والانفجارية - الاحتكاكية

٢) صائتي (Vocalic) في مقابل لاصائتي (Nonvocalic):

الأصوات الصائتة تنتج بالتجويف الفموي الذي لا يتجاوز التضيق الجذري الموجود في الصوائت المرتفعة مثل (أ) و (u) ويكون ذلك مع الاحتفاظ للوترين الصوتيين بوضع يسمح بالجهر التلقائي ولا يكفي شرط أو شرطان في إنتاج الأصوات غير الصائتة. فالأصوات الصائتة هي صوائت مجهورة، على حين أن الأصوات اللاصائتة هي أصوات انزلاقية وأنفية وأصوات غير رنانة .

٣) صامتي (Consonantal) في مقابل لاصامتي (Nonconsonantal):

تواجه الأصوات الصامتة عقبة جذرية في إنتاجها في المنطقة الوسطى من الوترين الصوتيين. أما الأصوات غير الصامتة فهي تنتج بدون مواجهة هذه العقبة .

الأصوات الصامتة هي الأصوات المائعة والانفجارية والاحتكاكية والانفجارية - الاحتكاكية، على حين أن الأصوات اللاصامتة هي الصوائت.

فيمكن تمثيل ملامح المجموعة الأساسية على النحو التالي:

جدول رقم (٦)

| الصفات/ الملامح | صائتي | صامتي | رنان |
|-----------------|-------|-------|------|
| صوائت مجهورة    | +     | -     | +    |
| أصوات انزلاقية  | -     | -     | +    |
| أصوات مائعة     | -     | +     | +    |
| أصوات أنفية     | -     | +     | +    |

## ب) الملامح التجويفية

### ب - ١) التضييق الأساسي :

١) نطعي (Coronal) في مقابل غير نطعي (Noncoronal) :

تنتج الأصوات النطعية بطرف اللسان عندما يكون مرتفعاً إلى أعلى من وضعه الأساسي (أو المحايد) وهي أسنانية ولثوية ولثوية مغورة (Palato-Alveolar) أما الأصوات غير النطعية فهي تنتج بطرف اللسان عندما يكون وضعه في الوسط (أو المحايد) وهي أصوات شفوية وغارية وطبقية ولهوية وحلقية.

٢) أمامي (Anterior) في مقابل غير أمامي (Nonanterior)

تنتج الأصوات الأمامية عند التضييق الذي يحدث أمام مخرج اللثة المغورة فهي أصوات شفوية وأسنانة ولثوية. أما الأصوات غير الأمامية فهي تنتج بدون حدوث أي تضيق وهي لثوية مغورة والتوائية وغارية وطبقية ولهوية وحلقية .

### ب-٢) الملامح المتعلقة بموضع اللسان:

تعد الكسرة المائلة (e) صائناً محايداً في الملامح المتعلقة بموضع اللسان. وهذه الملامح تختص بالأصوات التي تحدث بعد الحنك الصلب .

١) مرتفع (High) في مقابل غير مرتفع (Nonhigh)

تنتج الأصوات المرتفعة بارتفاع جسم اللسان إلى فوق الموضع المحايد وهي تقابل الأصوات غير المرتفعة .

٢) منخفض (Low) في مقابل غير منخفض (Nonlow)

تنتج الأصوات المنخفضة بانخفاض جسم اللسان إلى تحت الموقع المحايد وهي تقابل الأصوات غير المنخفضة .

٣) خلفي (Back) في مقابل غير خلفي (Nonback)

تنتج الأصوات الخلفية بترأّج جسم اللسان من الموضع المحايد وتقابل الأصوات غير الخلفية.

ويكون تمثيل هذه الملامح على النحو التالي:

جدول رقم (٧)

| الملامح/مواضع النطق | حلقي | لهوي | طبقي | غاري |
|---------------------|------|------|------|------|
| مرتفع               | -    | -    | +    | +    |
| منخفض               | +    | -    | -    | -    |
| خلفي                | +    | +    | +    | -    |

وقد تلعب هذه الملامح الثلاثة دوراً مهماً في النطق الثانوي ويشمل ذلك أنواعاً من التعديلات ومنها :

- أ) التغيرير (Palatalization) يفرض الوضع المميز لنطق الصائت (i)
- ب) التحليق (Pharyngealization) يفرض الوضع المميز لنطق الصائت (a)
- ج) الإطباق (Velarization) يفرض الوضع المميز لنطق الصائت (i)

المركزي

ويمثل الجدول التالي الملامح الثلاثة المذكورة أعلاه:

جدول رقم (٨)

| الملامح/مواضع النطق | أصوات مغورة | أصوات مطبقة | أصوات محلقة |
|---------------------|-------------|-------------|-------------|
| مرتفع               | +           | +           | o           |
| منخفض               | o           | o           | +           |
| خلفي                | -           | -           | +           |

(o = محايد)

وقد أجمع تشومسكي وهالي (Chomsky & Halle) على أن الأصوات المحلقة توجد في اللغة العربية ويسمىها أصواتاً مفخمة (EmphaticS) ولقد اختلفت تسمية الملامح الثلاثة عند تشومسكي وياكوبسن بالصورة الموضحة أدناه.

جدول رقم (٩)

| تشومسكي    | ياكوبسن       |
|------------|---------------|
| مرتفع High | منتشر Diffuse |
| منخفض Low  | متضام Compact |
| خلفي Back  | قراري Grave   |

ويمكن تمثيل الملامح التجويفية على النحو التالي:

## جدول رقم (١٠)

| مواضع النطق      | خلفي | منخفض | مرتفع | نطعي | أمامي |
|------------------|------|-------|-------|------|-------|
| شفوية            | -    | -     | -     | -    | +     |
| أسنانية          | -    | -     | -     | +    | +     |
| غارية            | -    | -     | +     | -    | -     |
| أسنانية مطبقة    | +    | -     | +     | +    | +     |
| طبقة             | +    | -     | +     | -    | -     |
| لهوية            | +    | -     | -     | -    | -     |
| أسنانية محلقة    | +    | +     | -     | +    | +     |
| حلقي             | +    | +     | -     | -    | -     |
| صائت مرتفع أمامي | -    | -     | +     | -    | -     |
| صائت مرتفع خلفي  | +    | -     | +     | -    | -     |
| صائت متوسط أمامي | -    | -     | -     | -    | -     |
| صائت متوسط خلفي  | +    | -     | -     | -    | -     |
| صائت منخفض أمامي | -    | +     | -     | -    | -     |
| صائت منخفض خلفي  | +    | +     | -     | -    | -     |
| ياء انزلاقية     | -    | -     | +     | -    | -     |
| واو انزلاقية     | +    | -     | +     | -    | -     |
| مائع أسناني      | -    | -     | -     | +    | +     |

٤) مستدير (Rounded) في مقابل غير مستدير (Nonrounded)

تنتج الأصوات المستديرة بتضييق فتحة الشفة، على حين أن الأصوات غير المستديرة تنتج بدون حدوث أي تضييق. والأصوات المستديرة لها صلة وثيقة بالأصوات الخلفية كما في الجدول التالي.

جدول رقم (١١)

| I  | U | A  | ة | Y  | الأصوات / الملامح |
|----|---|----|---|----|-------------------|
|    |   |    |   |    | خلفي<br>مستدير    |
| -- | + | -- | + | -- |                   |
| -- | + | -- | + | -- |                   |

(٥) موزع (Distributed) في مقابل غير موزع (Nondistributed)

تنتج الأصوات الموزعة بالتضيق الذي يمتد مع اتجاه التيار الهوائي إلى أقصى حد ممكن، على حين أن الأصوات غير الموزعة تنتج بالتضيق مع اتجاه التيار الهوائي إلى مدى محدد.

(ج) ملامح الصفات:

(١) استمراري (Continuant) في مقابل غير استمراري (Stop)

عند إنتاج الأصوات الاستمرارية نجد أن هنالك تضيقاً بدائياً في الوترين الصوتيين إلا أنه يسمح بمرور التيار الهوائي. أما الأصوات غير الاستمرارية نجد أن التيار الهوائي الذي يمر عبر الفم يغلق بصورة فعلية.

(٢) التسريح الفجائي (Instantaneous Release) في مقابل التسريح البطيء

(Delayed Release).

يفرق هذا الملمح المميز بين الأصوات الانفجارية والأصوات الانفجارية - الاحتكاكية وذلك لأن الأصوات الانفجارية تنتج بالتسريح الفجائي، على حين أن الأصوات الانفجارية - الاحتكاكية تنتج بالتسريح البطيء.

(٣) متوتر (Tense) في مقابل غير متوتر (Lax).

الأصوات المتوترة تنتج بوضوح ودقة ويبدل فيها الجهد العضلي

بصورة كبيرة، على حين أن الأصوات غير المتوترة تنتج سريعاً وتكون أقل وضوحاً من الأصوات المتوترة.

٤) مجهور (Voiced) في مقابل مهموس (Nonvoiced)

تحدث الأصوات المجهورة بذبذبة الوترين الصوتيين مع تيار الهواء وكلما كان تيار الهواء متحركاً فإنه يساعد في جهر الأصوات وتقابل الأصوات المهموسة.

٥) خشن (Strident) في مقابل غير خشن (Nonstrident)

الأصوات الخشنة تصدر ضجيجاً أكوستيكيّاً أكثر من الأصوات غير الخشنة. فالأصوات الخشنة هي أصوات استمرارية غير رنانة وانفجارية-احتكاكية، على حين أن الأصوات غير الخشنة هي أصوات انفجارية ورنانة.

وقد قام تشومسكي بالوصف الفونولوجي على أساس هذه الملامح المميزة كالتالي:

تتكون كل قاعدة من القواعد الفونولوجية مما يأتي :

حيث ترمز (س) إلى عنصر مفرد، بينما ترمز (ص) إلى سلسلة مركبة من عدة عناصر. وقد تكون من عنصر واحد أحياناً. ولذا (س) و (ص) تمثلان الوحدات الفونولوجية ويشير السهم إلى أن العنصر الخارج عنه السهم يمكن أن يتحول إلى العنصر المتجه إليه، أي أنه يمكن أن تحل (س) محل (ص). أما (ف) و (ق) فتشير إلى الموقع أو السياق الذي تقع فيه (س). وتتضح لنا وظيفة مثل هذه القاعدة في تفسير بعض الظواهر الصوتية في اللغة العربية مثل ظاهرة مماثلة النون للصوت الشفوي الذي يليها يمكن تمثيل ذلك في القاعدتين التاليتين -

(٣) ن — م / ب

(٤) ن — م / م

ثم توحد القاعدتان في القاعدة التالية هي:

(٥) ن — م / صامت

+ شفري

١-٣-٤: تطبيق هذه الاتجاهات على أصوات العربية :

نتناول تطبيق هذه الإتجاهات فيما يلي:

(١) الأصوات الرنانة في اللغة العربية هي الأصوات الأنفية والمكررة والجانبية ونصف الصوائت والأصوات الصائتة. أما الأصوات غير الرنانة في اللغة العربية فهي الأصوات الانفجارية والاحتكاكية والانفجارية- الاحتكاكية .

(٢) الأصوات الصامتة في اللغة العربية هي الأصوات الانفجارية والاحتكاكية والانفجارية-الاحتكاكية والمكررة والجانبية ونصف الصوائت. أما الأصوات الصائتة في اللغة العربية فهي الصوائت .

(٣) الأصوات النطعية في اللغة العربية هي الأصوات الأسنانية مابين الأسنان. أما الأصوات غير النطعية فهي الأصوات الشفوية والغازية والطبقية واللهاوية والحلقية .

(٤) الأصوات الأمامية في اللغة العربية هي الأصوات الشفوية والأسنانية والأصوات مابين الأسنان والأصوات اللثوية. أما الأصوات غير الأمامية في اللغة العربية هي الأصوات الغارية والطبقية واللهاوية والحلقية .

(٥) الأصوات المرتفعة في اللغة العربية هي الأصوات الغارية والطبقية



ونصف الصوائت والكسرة والضمة. أما الأصوات غير المرتفعة في اللغة العربية هي الأصوات اللهوية والحلقية والمكررة والجانبية والشفوية والأسنانية والفتحة .

(٦) الأصوات المنخفضة في اللغة العربية هي الأصوات الحلقية والحنجرية والأصوات غير المنخفضة هي الأصوات الشفوية والأسنانية والغارية والطبقية واللهوية والمكررة والجانبية ونصف الصوائت .

(٧) الأصوات الخلفية في اللغة العربية هي الأصوات الطباقية واللهوية والحلقية وصوت الواو والضمة. أما الأصوات غير الخلفية في اللغة العربية هي الأصوات الشفوية والأسنانية والغارية والجانبية والمكررة وصوت الياء والكسرة والفتحة .

(٨) الأصوات غير الاستمرارية هي الأصوات الانفجارية والانفجارية-الاحتكاكية.

أما الراء اللمسية في اللغة العربية فهي غير استمرارية.

(٩) الأصوات المجهورة في اللغة العربية هي أصوات الباء والذال والضاد والجيم والطاء والذال والزاي والغين والميم والتون والراء واللام والواو والياء والأصوات الصائتة .

أما الأصوات المهموسة هي أصوات الهمزة والتاء والتاء والحاء والخاء والسين والشين والصاد والطاء والفاء والقاف والكاف والهاء .

(١٠) الأصوات الخشنة في اللغة العربية هي الأصوات الاستمرارية غير الرنانة والأصوات الانفجارية والأصوات الانفجارية-الاحتكاكية، في حين أن الأصوات غير الخشنة هي الأصوات الانفجارية والأصوات الرنانة .

فيما يلي إليك الجدول الذي يمثل خلاصة للملامح المميزة لأصوات العربية طبقاً لنظرية الفونولوجيا التوليدية .

الملاحح المبيرة لأصوات اللغة العربية الفصحى

جدول رقم (١٧)

| ملاحح<br>أصوات | ب | د | ض | ث | ط | ك | ق | ح | ز | ظ | ف | س | ش | خ | ح | م | ن | ر | ل | وي | فتحة | كسرة | ضمة |
|----------------|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|----|------|------|-----|
| رئانة          | - | - | - | - | - | - | - | - | - | - | - | - | - | - | - | - | + | + | + | +  | +    | +    | +   |
| صائتي          | + | + | + | + | + | + | + | + | + | + | + | + | + | + | + | + | + | + | + | +  | -    | -    | -   |
| نظمي           | - | + | + | + | + | - | - | - | + | + | - | + | - | - | - | - | + | + | + | +  | -    | -    | -   |
| أمامي          | + | + | + | + | + | - | - | - | + | + | + | + | + | + | + | + | + | + | + | +  | -    | -    | -   |
| مرتفعة         | - | - | - | - | - | + | - | - | - | - | - | - | - | - | - | - | + | + | + | +  | +    | +    | +   |
| منخفض          | - | - | + | - | + | - | + | - | + | - | + | - | + | - | + | + | + | + | + | +  | -    | -    | -   |
| خلفي           | - | - | + | - | + | + | - | - | + | + | - | - | + | + | + | + | + | + | + | +  | -    | -    | -   |
| استعراي        | - | - | - | - | - | - | - | - | + | + | + | + | + | + | + | + | + | + | + | +  | +    | +    | +   |
| مجهور          | + | + | + | - | - | - | - | + | + | + | - | - | + | + | + | + | + | + | + | +  | +    | +    | +   |
| خشن            | - | - | - | - | - | - | - | + | - | + | - | + | + | + | + | + | + | + | + | +  | -    | -    | -   |

## المراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩.
- أحمد عزت البيلي، اتجاهات التحليل الفونولوجي في المدارس اللغوية المعاصرة (رسالة ماجستير) القاهرة: جامعة عين شمس، ١٩٨٥.
- أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨١.
- تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، القاهرة: دار الثقافة، ١٩٧٩.
- جعفر ميرغني، جرس اللسان العربي، الخرطوم: معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، ١٩٨٥.
- جورج كلاس، الأسنية ولغة الطفل العربي، بيروت: المنشورات الجامعية، ١٩٨٤.
- جون ليوينز، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة حلمي خليل، الإسكندرية: حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنوي، دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨.
- حمدي قفيشة، تحليل الأخطاء، وفائز ندوات تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ج٣، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٥.
- كريم زكي حسام الدين، أصول نرائية في علم اللغة، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٥.
- كمال محمد بشر، دراسات في علم اللغة، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١.
- كمال محمد بشر، علم اللغة العام - الأصوات، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠.
- محمود إسماعيل صيني وإسحاق محمد الأمين، التقابل اللغوي، وتحليل الأخطاء، الرياض: عمادة شؤون المكتبات، ١٩٨٢.
- ميشال زكريا، الأسنية المبادئ والأعلام، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٣.
- ، مباحث في النظرية الأسنية وتعليم اللغة، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٣.

Bloomfield, L., Language, New York; Holt, Rinehart and Winston, 1961

Brooks, Nelson, Language and Language Learning, New York: Macourt, Brace and World Inc. 1964

Chonisky, Noam, " A Review of B.F. Skinner's Verbal Behavior "Language Vol. 35 No.1 Baltimore: Maryland.

Chonisky, N., & Morris Malle, The Sound Pattern of English, New York: Harper and Row, 1968

Ferguson, Charles A., "The Emphatic "I "in Arabic" Language XXX11, 1956

Firth, J.R., Papers in Linguistics, 1934-1951, London: Oxford University Press, 1957.

Fries, C., Teaching and Learning English As a Foreign Language, Ann Arbor: University of Michigan Press, 1953.

Jacobson, R., Selected Writings, Vol.1 The Mogue: Mouton, 1971

Jacobson R., et, al.; Preliminaries to Speech Analysis, Massachusetts: M.I.T. Press, 1967.

Lado, Robert, Linguistics Across Cultures, Ann Arbor: The University of Michigan Press, 1968.

Mitchell, T. F., Principles of Firthian Linguistics, London: Longman, 1975.

Newmeyer, Frederick J., Linguistic Theory in America, Orlando: Harcourt, Brace Jovanovich, Publishers, 1980.

Nickel, Gerhard, Papers in Contrastive Linguistics, Oxford: The University of Pennsylvania Press, 1974.

Oller, John W., & Seid M. Ziahosseiny, "The Contrastive Hypothesis and Spelling Errors". Language Learning Vol. 20 No. 2, Ann Arbor: The University of Michigan.

Pike, Kenneth L., Language, Part III, California: Summer Institute of Linguistics, 1960.

Rivers, Wilga M., The Psychologist and the Foreign Language Teacher, Chicago: The University of Chicago Press, 1967.

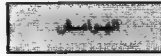
Robins. R.H.; General Linguistics, An Introductory Survey, London: Longman Group Limited, 1971.

Saussure, F. De, Course in General Linguistics, New York : Philosophical Library, 1959.

Skimmer, B.F., Verbal Behavior, New York: Apple-ton-century-Crofts, 1957.

Trubetzkoy, N.S., Principles of Phonology, Berkeley: University of California, Press, 1971.

Vjardhaugh. R., "The Contrastive Analysis Hypothesis", TESOL Quarterly Vol. 4. No. 2, Washington D.C.



- F.de Saussure, Course in General Linguistics P.81. (١)
- (٢) حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص ١٠٥.
- (٣) كريم ذكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص ٥٧.
- Frederick J.Newmeyer, linguistic theory in America, P.2. (٤)
- B.F.Sk inner, Verbal Behavior, P.16. (٥)
- (١) عبده الراجحي النحو العربي والدرس الحديث ص ٣٧.
- BloomFieed, Language, P.23. (٧)
- 144- Ibid, P.38. pp. 142 (٨)
- (٩) ميشال زكريا، الاسمية المبادئ والاعلام، ص ٢٣٢.
- B.F.Skinner, Verbal behavior, P.80. (١٠)
- Noam Chomsky, A Review of B.F.Skinner's Verbal Behavior, Language 35:1 pp. (١١)
- 28.-26
- (١٢) جورج كلاس، الاسمية ولغة الطفل العربي، ص ١٠٧.
- B.F.Skinner, Op. Cit p.190. (١٣)
- Nelson Brooks, Language and, Language Leaning, pp.263-264 (١٤)
- Wilga M.Rivers, the Psychologist and the Foreign Language Teacher, pp. 13 - 16 (١٥)
- (١٦) محمود إسماعيل صيني وإسحاق محمد الأمين، التقابل اللغوي وتحليل الأخطاء، ص ٩٨.
- (١٧) حمدي قنينة، تحليل الأخطاء، وقائع ندوات تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، ج٢، ص ٩٨.
- R. Lado, Linguistics Across Cultures, pp. 2- 8 (١٨)
- Charles C. Fries, Teaching and learning English as a Foreign , Language p.14 (١٩)
- RLado, Op. cit., p.11.. (٢٠)
- Gerhard Nickel, Papers in Contrastive Linguistics, pp. 6-16 (٢١)
- John W. Oller and Seid M. Ziahosseiny, The Contrastive Hypothesis and spelling er- (٢٢)
- ors, Language Learning 220:2, pp. 183 - 189.
- Yao Shen, Linguistic Expreience and Linguistic Habit, Language Learning 12:2 pp. (٢٤)
- 150.-133
- Ronald Wardhaugh, the Contrastive Analysis Hypothesis, tesol Quarterly 4:2, pp. (٢٤)
- 130.-123
- (٢٥) حمدي قنينة، مرجع سابق ذكره، ص ١٠٧.
44. - N.S.Trubetzky, Principles of Phonology, pp.37 (٢٦)
- Ibid ., p. 33. (٢٧)

(٢٨) اصدر كتابه (مدخل إلى اللغة) (Introduction to the Study of Language) في سنة ١٩١٤ ثم راجعه وعُدل فيه وأصدره مجدداً في سنة ١٩٢٣ بعنوان (اللغة) (Language) وقد وصفه بعض العلماء بـ (أنجيل علم اللغة الأمريكي).

Bloomfield, Language, P.136. (٢٩)

Bloomfield, Language, P.136. (٣٠)

Ibid., P. 138. (٣١)

Ibid., 137 (٣٢)

(٣٣) جاكوبسن، لغوي روسي في جامعة موسكو في القواعد المقارنة وفي فقه اللغة السلافية (Slavic) أسس في سنة ١٩١٥ مع بعض الطلاب (نادي موسكو الأسني).

R.Jakobson and M.Halle, "Phonology and Phonetics" Selected Writings Vol.1,p.485. (٣٤)

(٣٥) حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنوي، ص ١٠٩ - ١١٠.

Kenneth L.Pike, Language, P.1 (٣٦)

(٣٧) نظرية تشومسكي هي نظرية متأثرة إلى كثير من جوانبها بالمذهب التوزييمي والتوزييمية كما سنرى خلال هذا البحث تمثل قمة النزعة البنوية.

(٣٨) حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنوي، ص ١٢٥.

(٣٩) يرى تمام حسان أن همزة الوصل عبارة عن الحركة القصيرة.

R. Jakobson, and M.Halle, "Phonology and Phonetics" Selected Writings, Vol. 1, PP. (٤٠)

486-484

Ibid., P.484. (٤١)

Ibid., P.484. (٤٢)

Ibid., P.485. (٤٣)

Ibid., P.486. (٤٤)

Ibid., P.486. (٤٥)

(٤٦) حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنوي، ص ١٣١ - ١٣٦.

(٤٧) حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنوي، ص ١٣٢.

(٤٨) المرجع نفسه.

T.F.Mitchell, Principles of Firthian Linguistics,P.4. (٤٩)

J.R.Firth, Papers in Linguistics, P.33. (٥٠)

R.H.Robins, General Linguistics, An Introductory Survey, P.152. (٥١)

(٥٢) كمال محمد بشر، دراسات في علم اللغة، القسم الثاني، ص ٢٢٩.

T.F.Mitchell, Op.cit.P.42. (٥٣)

(٥٤) حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنوي، ص ١٣٥.

J.R.Firth, Papers in Linguistics, P 20.(٥٥)

(٥٦) يسميها كمال محمد بشر في كتابه (علم اللغة العام - الأصوات) بالتطريزية ويسميتها محمد حلمي خليل في كتابه (الصوتيات) بالعروضية.

T.F. Mitchell, Op.cit, P.37. (٥٧)

(٥٨) أحمد عزت البيلي، اتجاهات التحليل الفونولوجي في المدارس اللغوية المعاصرة، ص ١٥٠.

T.F. Mitchell, Principles of Firthian Linguistics, PP.82- 85 (٥٩)

(٦٠) الأصوات اللغوية، ص ١٦٣.

(٦١) المرجع نفسه، ص ١٦٥.

(٦٢) دراسة الصوت اللغوي، ص ٢٥٦.

(٦٣) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص ١٦٢.

(٦٤) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص ١٦٢.

(٦٥) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص ١٦٦.

(٦٦) المرجع نفسه، ص ١٦٨.

(٦٧) ولد تشومسكي في فلاديفيا عام ١٩٢٨، ودرس علم اللغة والرياضيات والفلسفة في جامعة بنسلفانيا، كما تتلمذ على يد عالم اللغة الأمريكي هاريس (Harris) الذي كان أستاذ علم اللغة بجامعة بنسلفانيا. ويعمل تشومسكي الآن أستاذًا لعلم اللغة في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T) منذ عام ١٩٥٥ م.

(٦٨) ولد موريس هالي عام ١٩٢٤ م وتعلم على يد جاكوبسن - الذي كان يعمل في حقن علم اللغة في جامعة هارفرد ونال درجة الدكتوراه في علم اللغة بإشرافه.

N.Chomsky & M.Halle, The Sound Pattern Of English, P.4.(٦٩)

Ibid.,(٧٣)

Ibid.,(٧١)

Ibid.,(٧٠)

N.Chomsky & M.Halle, The Sound Pattern Of English, P.7.(٧٣)

(٧٤) ميشال زكريا، مباحث في النظرية الأسنية وتعليم اللغة، ص ٣٧.

(٧٥) جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة حلمي خليل، ص ٢٣٧.

. N.Chomsky& M.Halle, Op.cit., pp.302 - 329.(٧٦)

R.Jakobson,C.G.M. Fant And M.Halle, Op.cit.,pp. 31-50.

N.Chomsky & M.Halle, Op.cit., P.302.(٧٧)

. Ibid., p.303 (٧٨)

N.Chomsky & M.Halle, The Sound Pattern Of English,p.304.(٧٩)

Ibid., p.305.(٨١)

Ibid., P.305. (٨٠)

Ibid., P. 306.(٨٣)

Ibid., P.306. (٨٢)

Ibid. , P.307. (٨٥)

Ibid., P. 306. (٨٤)

. Ibid., P. 312 (٨٧)

. Ibid., P. 309 (٨٦)

Ibid., P. 324. (٨٩)

Ibid., P. 319.(٨٨)

. Ibid., P. 329 (٩١)

. Ibid., P.326(٩٠)

Ibid. , p. 318 (٩٢)

# التفصيل بين النظرية والتطبيق

## مع إشارة خاصة

### للمملكة العربية السعودية

للاستاذ محمد بن صديتان بن تنباك

#### مقدمة:

للقطاع الخاص دور كبير مهم في التنمية الاقتصادية والاجتماعية وهو أحد الأدوات الفاعلة للحكومة لكي تقوم بالدور الإيجابي لتدعيم النشاط الاقتصادي وتحقيق الرفاهية الاجتماعية وقد بدأت الاشتراكية على استحياء تتنازل عن بعض النشاطات الإنتاجية والخدمية للقطاع الخاص، وقد بدأت الخطوة الأولى من معاقل الاشتراكية كالاتحاد السوفيتي والصين.

وإذا أخذنا الولايات المتحدة مثلاً، وجدنا القطاع الخاص هو الممول والتنفيذي لكثير من النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والحضارية لدرجة أن الحكومة الأمريكية سواء على مستوى الولايات أو على مستوى الحكومة الفدرالية، تقرض من القطاع الخاص، ويجوز لنا أن نقول إن الحكومة الأمريكية حصرت سلطاتها السيادية في الأمن والدفاع والسياسة الخارجية وما يتبعها من مخابرات وغيرها، مما يجعلنا نستببط أن إمبراطورية أمريكا المالية والاستراتيجية قد تكون حصيلة لهذا التوجه الذي بدأ الأخذ به عالمياً كقناعة بأن القطاع الخاص وقدرته المالية والإدارية من الأدوات الرئيسة للحكومة لتقديم الأفضل اقتصادياً واجتماعياً.



## أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث في كون كثير من الدول في العالم بدأت تعول على التخصيص في سبيل تنشيط اقتصادياتها وأصبح التخصيص في هذه الأيام من أهم الموضوعات إثارة في الساحة الاقتصادية والسياسية المعاصرة. وفي المملكة العربية السعودية بدأ إدراك أهمية دور القطاع الخاص كتوأم للبترول، وأخذ هذا الاهتمام يتنامى طردياً مع الخطط الخمسية المتتابعة وذلك من خلال الاستمرار في تشجيع القطاع الخاص على زيادة إسهامه في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية حيث جاء الأساس الاستراتيجي الثالث في استراتيجية خطة التنمية الخامسة (١٤٠٥هـ - ١٤١٠هـ) أكثر وضوحاً في مجال ما اعتمدته الدولة سابقاً من سياسة فتح المجال أمام القطاع الخاص لمزاولة الأنشطة الاقتصادية (أمانة مجلس الغرف التجارية السعودية : (١) بما في ذلك ما تقوم به الدولة حالياً من أنشطة اقتصادية يمكن أن يؤديها القطاع الخاص إذا توفرت الكفاءة في خفض التكاليف وجودة الأداء.

## هدف الدراسة:

التخصيص ظاهرة جديدة في المجتمع الدولي - وإن كان بعض الناس يعدّه فكرة قديمة كما سيأتي - وقد لا يُعرف هذا المصطلح إلا في الأوساط الاقتصادية البحتة.

وهذه الدراسة محاولة استكشافية للتخصيص في دول العالم وبالأخص في المملكة العربية السعودية، وتهدف إلى تسليط الضوء على هذا النمط الاقتصادي الجديد في عالم الاقتصاد، حيث اتجه القطاع العام لهذا البديل من دافع اعتقاده أن القطاع الخاص أكفأ وأجدر بإدارة المشاريع الاقتصادية سواء كانت تلك المشاريع إنشائية أو خدمية، هذا الاعتقاد يحفزنا لدراسة هذا الاتجاه الجديد وما يعنيه من إدارة لمشاريع الحكومة من قبل القطاع الخاص، أو تملك وإدارة المشاريع من قبل القطاع الخاص نفسه.

ذكرت بعض الدراسات أن التخصيص بوصفه فكرة عرفت من زمن بعيد (ربيع دحلان ١٤٠٩: ١٠١) وتشهد هذه الدراسة تاريخياً بما عرف من نظام للمرتزقة في العهد الإغريقي بقيامها بشئون الدفاع والخدمات وكذلك تعاقدات إدارة المدن إبان عهد النهضة الإيطالية. وذكر ميكافلي (مطارحات ميكافلي ١٩٧٩: ٥١٨) الاستعانة بالمرتزقة حيث تستنجد المدن الإيطالية بالجيوش المرتزقة للدفاع عنها.

وقد خلّفت الحرب العالمية الثانية مشكلات متعددة ومتنوعة، أهمها الكساد والبطالة، وقد حاولت كثير من الدول علاج مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعية بإنشاء العديد من المشاريع التي تديرها الدولة كما سادت مسألة تأميم المشروعات الخاصة تحت شعار توزيع الثروة وتفتيت الطبقة، وقد كانت الدوافع القوية لقيام المشروعات العامة في الدول النامية محاربة الجهل والفقر والمرض التي سببها الاستعمار والأطماع الخارجية، وتنافس الدول الكبرى القوية على الدول الصغيرة والضعيفة.

وفي الحقيقة فإن الدول أصبحت تمارس دوراً اقتصادياً في العمليات التنموية اقتصادياً واجتماعياً سواء منها الدول الاشتراكية أو الرأسمالية أو الانظمة الأخرى، ولكن القطاع العام أدار هذه المشاريع من خلال مفهوم البيروقراطية التي أدت إلى فشل كثير من المشاريع في كثير من الدول مما جعل هذه الدول تتلمس حلولاً أخرى تدل على التخصيص كتنظير فلسفي وأيديولوجي ولم يقف الكاتب على كتابات أو بحوث في العهد القديم، وفي العصر الحديث تتنازع القضايا الاقتصادية مدرستان مهمتان هما الرأسمالية الاشتراكية والتي لم يكن التخصيص أحد أفكارهما الرئيسة، وكما دار الجدل ولا زال بين الرأسمالية والاشتراكية دار الجدل الإداري بين إدارة الأعمال والإدارة العامة، وأدى هذا الجدل إلى ظهور المدرسة التقليدية والمدرسة الحديثة حيث تبنت كل منهما اتجاهاً معيناً (دحلان ١٤٠٩: ٧٧) وكل مدرسة أبرزت تشريعات وأهدافاً وطبيعة نشاط خاصة بها

ومعايير سياسية واقتصادية واجتماعية تختلف عن غيرها. وفي واقع الأمر أن ما عرف بالتخصيص هو المقصود بهذه الدراسة وهو أسلوب تطبيقي وليس نظرياً. كما أنه فيما يبدو موضوعاً غير صالح للتنظير الفلسفي وهو خيار وبديل من ضمن بدائل اقتصادية وإدارية وتوجهات حكومية يباركه القطاع الخاص ويحتضنه بلهفة وشوق وليتوسم به أن يكون إحدى الأدوات الفعالة في زيادة وفعالية الكفاءة الإنتاجية، مع التقليل في التكاليف وكسر قيد الاحتكارية بفتح أبواب المنافسة الشريفة التي تؤدي بالتالي إلى خدمة الاقتصاد العام، كما أن الرغبة في تخفيف العبء عن ميزانية الدولة إحدى المطالب المهمة لتوجه الدولة نحو التخصيص. ومن ضمن التوجهات المتفائلة للتخصيص المسارعة في نقل التكنولوجيا وثبات دعائم الاقتصاد الكلي الوطني.

وبالفعل اتجهت الكثير من الدول على اختلاف توجهاتها السياسية والاقتصادية والعقائدية إلى أهمية القطاع الخاص بالاضطلاع بالعديد من المشروعات والأنشطة الاقتصادية سواء عن طريق تحويل ما كانت تملكه الدولة من مشروعات أو ما كانت تديره منها بإنشاء مشروعات جديدة عن طريق الاكتتاب العام من قبل الأفراد.

وقد تكون ظروف الواقع الاقتصادي المعاصر تحتم هذا الاختيار وما يتطلبه من نقل فعلي للملكية والمسئولية الإدارية مما يؤدي إلى تغيير دور الحكومة والإدارة، والتقليل من الأعباء المالية عن الدولة، مما يؤدي إلى تخفيض العجز في ميزانيتها العامة ولكن هذا الاتجاه بدأ حديثاً ويعتقد أن أول ما بدأه المملكة المتحدة (دحلان/١٠٢٠) وتحدد بعض الدراسات ذلك بعام ١٩٧٩ (المعلمي ١٤٠٩).

## التخصيص من الناحية التطبيقية

كل عمل يقوم به الإنسان لابد أن يهدف من ورائه اغتنام منفعة أو اجتناب مضرة، وقد أخذ التوجه الدولي بالاتجاه نحو مشاركة القطاع الخاص في مسئوليات كثيرة كانت تقوم بها الحكومة، بهدف الوصول للأفضل في تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الذي أناب الحكومة في رعاية مصالحه، يعزز ذلك إدراك الحكومات بسحر الدافع الذاتي والابتكارات الفردية، وإن دافع الربح سيقوض معوقات الروتين الذي لا يزال يكبل الأجهزة البيروقراطية من إنتاجية وخدمية، ولكل دولة أهداف معينة قد تشترك فيها مع غيرها أو تنفرد بها كل بحسب مقتضيات ظروفه وما يقابلها من مشكلات وطموحات تسعى لتحقيقها وقد يكون من تلك الأهداف المشتركة:

١- التقليل من دور الحكومة في الاقتصاد الوطني الكلي من خلال إسناد بعضه للقطاع الخاص وذلك للتفرغ لمهام أخرى دفاعية وسياسية وأمنية وتعشماً في أن تكون الحوافز المتعددة للقطاع الخاص من ربح وغيره دافعاً قوياً للابتكار الخلاق المتواصل في ترسيخ دعائم اقتصادية قوية في وجه الكوارث وعوادي الزمن في حالات الركود الاقتصادي التي تهب رياحه بين فترة وأخرى في العالم كله أو جزء منه، وذلك لاضطراد التنمية الاجتماعية التي هي الهدف الأسمى الذي تسعى كل الوسائل الممكنة الشريفة لتحقيقه.

٢- رفع الكفاءة الإنتاجية وذلك من خلال فعالية التشغيل ومهارة الإدارة، حيث يتضح من خلال الملاحظات العابرة أن المؤسسات والشركات

وكافة القطاع الخاص عموماً يتفوق على الكيانات البيروقراطية في شحذ الهمم وابتكار الوسائل وتنافس المهارات.

٣- قد يكون من الدوافع القوية لبعض الحكومات من إسناد بعض المسؤوليات الاقتصادية للقطاع الخاص التقليل أو التخفيف من الأعباء المالية.

٤- انتشار بعض المؤسسات التي تديرها الدولة من الخسارة.

٥- تخلص الدولة من الإعانات أو تقليل نسبتها على الأقل.

٦- الحلولة دون احتكار المؤسسات العامة.

٧- التنافس الشريف لدعم الاقتصاد الوطني.

٨- تعزيز وتحسين سوق رأس المال.

٩- اجتذاب رؤوس الأموال الأجنبية للاستفادة من عوائدها وكذلك تعزيزها للاقتصاد الوطني.

١٠- استعادة رؤوس الأموال الوطنية المهاجرة بالنسبة للدول الغنية بالسيولة.

١١- زيادة كمية الإنتاج وتحسين نوعية الخدمات وجودتها وتعدد أغراضها.

١٢- النظرية الاجتماعية حول التشجيع بتمليك العاملين بها من خلال إعطائهم نسباً محددة من أسهم المؤسسة.

## نظرة مختصرة عن التجارب العالمية في التخصيص

### ١- بريطانيا:

أرادت بريطانيا من وراء توجهها للقطاع الخاص تقليل دور القطاع العام في هذا الشأن وقد قاد هذا التوجه حزب المحافظين وعلى الأخص حكم السيدة ثاتشر (المعلمي ١٤٠٩: ١٣٣) وذلك لتوسيع الملكية الفردية للأسهم بغية رفع الكفاءة الإنتاجية للاقتصاد الوطني البريطاني، كما قصدت الحكومة البريطانية من بيعها لأصولها إلى زيادة رأس مالها الذي سيمكنها من عدم اللجوء إلى الاقتراض العام.

ولتحقيق ذلك فقد عمدت بريطانيا لإنزال بعض الشركات المملوكة للقطاع العام للبيع الجزئي أو بالكامل، كما أتبعت دولة بريطانيا بعض السياسات كإلغاء بعض القيود التي كانت تكبل مجالات الاستثمار في النقد، وأطلقت العنان للقطاع الخاص للاستثمار في مجالات استثمارية كانت من حكر القطاع العام، كما أخذت على عاتقها إرساء قدر ممكن من المهام الحكومية على القطاع الخاص عن طريق المقاولات العامة.

وقد أكدت بعض الدراسات فائدة هذا الإجراء حيث حصلت الحكومة البريطانية على أكثر من ١٨ بليون دولار أمريكي وذلك عند بيع حوالي ٢٠ شركة إلى القطاع الخاص (المعلمي ندوة التخطيط: ١٣٣).

وقد بالغت الحكومة البريطانية في الأخذ بالتخصيص حتى إنها باعت ما تملكه في شركة البترول البريطانية، كما طال التخصيص الضمان الاجتماعي، الذي هو من صميم مهام الدولة تجاه رعاياها (دحلان ١٤٠٩: ١٠٣) مما عزز الانتقادات لحكومة ثاتشر بتخلي الدولة عن بعض

المجالات كالمرافق العامة باعتبارها جزءاً أساسياً من الخدمات الرئيسة للجمهور.

كما عدّ مستوى بيع الشركات العامة متدنياً عن قيمتها الحقيقية ويرى بعض المعارضين أن بيع ممتلكات الدولة يحرم الأجيال القادمة من عوائد مستقبلية مستمرة، كما قاوم بعض العاملين في الوظائف الحكومية التخصيص خوفاً من فقدان فرصهم الوظيفية وقد يكون رد الحكومة البريطانية هو عدم إغفالها للمصالح الاستراتيجية العليا، وذلك من خلال احتفاظها بالسهم الذهبي الذي يمكنها من حق النقض للقرارات الأساسية وكذلك حددت ما يطرح للاكتتاب أمام الأجانب في ٢٠٪ في كثير من الحالات أو أقل من ذلك ويتدرج إلى حد المنع المطلق في بعض الحالات وأيضاً فرض القيود على جنسية أعضاء مجلس الإدارة في بعض الشركات المتخصصة.

كما قيدت قدرة بعض الشركات على بيع شيء من ممتلكاتها لأسباب عسكرية استراتيجية، واتخذت بعض الإجراءات وعملت على تحقيق بعض الحوافز لمصالح صغار المستخدمين (المعلمي / ندوة التخطيط ١٤٠٩: ١٣٥).

## ٢- فرنسا:

تحاول فرنسا تطبيق التخصيص على كل الأجهزة والمؤسسات التي تم تأميمها منذ الحرب العالمية الثانية وتهدف فرنسا من التخصيص إلى الحد من الازدواجية بين دور الحكومة بوصفها جهة منظمة لحركة الاقتصاد ودورها بوصفها لاعباً فيه (دحلان ١٤٠٩: ١٠٣) وكذلك رفع الكفاءة والفعالية وتوسيع قاعدة الملكية الفردية للأسهم مع تطوير أسواق رأس المال.

وقد اتبعت الحكومة الفرنسية وسائل عدة لهذا الغرض حيث كونت هيئة تسمى هيئة التخصيص مهمتها تحديد أدنى سعر لأسهم الشركات المطروحة للتخصيص واحتفظت الدولة بسهم ذهبي في بعض الشركات كما قامت

بتخصيص ١٠٪ من الأسهم ل طرحها على العاملين بسعر تشجيعي ووضعت الحوافز الملائمة لتشجيع صغار المستثمرين على الاكتتاب والاحتفاظ بأسهمهم مدة طويلة وتجنبت الدولة الفرنسية شركات المرافق العامة والاتصالات وما شابهها، وقد بلغ حجم ما تم بيعه حوالي أحد عشر بليون دولار أمريكي من أصل ٥٠٤٠ بليون دولار (المعلمي: ١٣٦).

#### ٢- الجمهورية التركية:

من أهداف الحكومة التركية لبيع القطاع العام تقليص دور الحكومة في الاقتصاد الوطني وكذلك تطوير رؤوس الأموال عن طريق توسيع قاعدة الملكية، وأخيراً اجتذاب رؤوس الأموال الأجنبية ومدخرات العمال الأتراك في الخارج ومن العقوبات التي تواجه التخصيص في تركيا هي نقص الكفاءات الإدارية وانخفاض الفاعلية الإنتاجية إلى الحد الذي يصعب معه ترويج أسهمها في الأسواق فضلاً عن صغر رؤوس الأموال المتوفرة في البلاد.

وقد خصصت ١٠٪ من أسهم الشركات للعاملين وحرصت على نشر التوعية الإعلامية للمواطنين بأهمية ملكية الأسهم وكيفية التعامل معها، وقد أقدمت تركيا على إنشاء صندوق لتنمية بهدف الترويج لاسهم الشركات التركية في اسواق المال في امريكا (المعلمي: ١٣٥) وكذلك قامت ببيع بعض الجسور كجسر البسفور وكذلك بعض السدود. (دحلان ١٤٠٩: ١١٢).

#### ٤- هندي:

شمل بيع الحكومة الهندية لمملوكاتها الإنتاجية والتي حققت خسائر كبيرة كأنتاج الطائرات وشركات المناجم والطاقة وخدمات الاتصال وحتى إنتاج الاسلحة العسكرية (دحلان ١٤٠٩: ١٠٣).

#### ٥- ألمانيا:

أخذت ألمانيا ببعض الوسائل برغبة التخصيص كتخفيض حصتها في ملكية الشركات وبرمجة التمويل في مجال المواصلات والمعارف



والصناعة وكذلك؛ الخدمات والشحن (دحلان ١٤٠٩: ١٠٣).

#### ٦- إيطاليا:

أخذت تؤمن الحكومة الاشتراكية في إيطاليا بأهمية إنتاجية القطاع الخاص وترجمة ذلك علمياً ببيع قطاعات تعمل في مجال الفضاء والالكترونيات والاتصالات والمعارف.

#### ٧- اليابان:

كانت البيروقراطية ونقابات العمال عقبة في وجه الحكومة اليابانية في طريقها للتخصيص ولكنها تمكنت في عام ١٩٨٤م من إجازة مشروع لتمويل بعض الخدمات كالاتصالات والتبغ واحتكار الملح للقطاع الخاص وكان هدف الحكومة التخلص تدريجياً من المؤسسات الخاسرة كاستراتيجية منها للتقليل من الإنفاق الحكومي (دحلان ١٤٠٩: ١٠٥).

#### ٨- أسبانيا:

ترجمت أسبانيا هذا التوجه علمياً ببيع صناعة السيارات والنسيج وإنتاج الشاحنات والخطوط الجوية وبعض الصناعات التي تعمل في قطاع التكنولوجيا إلى القطاع الخاص. (دحلان ١٤٠٩: ١٠٥)

#### ٩- السويد:

والسويد كذلك صممت حكومتها الاشتراكية على السير بهذا الاتجاه والاتصالات والمواصلات وبعض مصانع النسيج للقطاع الخاص، كما امتنعت عن الدخول في أي نشاط من الممكن أن يقوم به القطاع الخاص بكفاية.

أما بنجلاديش فقد أعلنت في عام ١٩٨٢ سياستها الصناعية ببيع ١٠٠ شركة تقريباً احتوت على قطاعات إنتاجية وخدمية متعددة.

والهند عازمة على استيقاف هيمنة الشركات الحكومية وذلك بإشراك القطاع الخاص في مجالات كانت حكراً على الحكومة الهندية، وكذلك تعمل الأقاليم في الهند على بناء طرق حديثة بمشاركة القطاع الخاص.

وتعاقدت باكستان على صيانة العديد من مرافق الري مع القطاع الخاص وقد لجأت ماليزيا للتحول للقطاع الخاص للحد من تضخم القطاع الخاص، كالاتصالات والخطوط الجوية وإدارة الطرق والفنادق ومواقف السيارات والملاهي وحتى مصادر امدادات المياه. وكذلك سنغافورة بدأت التراجع عن الاقتصاد الموجه من قبل الحكومة ودول نامية أخرى أخذت للاتجاه للتخصيص (دحلان ١٤٠٩:١١٢).

### التخصيص في المملكة العربية السعودية

كانت حكومة المملكة العربية السعودية ولا زالت الممكن الوحيد الذي يتولى عملية التنمية. ولقد أدى التصاعد السريع في حجم العوائد النفطية ولا سيما على إثر الطفرة السعريّة خلال السبعينات حيث عجز الجهاز الإداري للدولة عن مسايرة حركة التطور الاقتصادي. فقد أدت التراكمات المالية إلى إيجاد قدرات عالية في مجال التوسع الاستثماري وتقديم خدمات اجتماعية لرفاهية المجتمع، صاحبه عدم قدرة الجهاز الحكومي على مواكبة متطلبات التنمية، بالإضافة إلى غياب القطاع الخاص مما حدا بالدولة إلى الاستعانة بالشركات والعمالة الوافدة. وكأن القطاع الخاص آنذاك لم يتمكن من تحقيق تطور متوازٍ مع تلك الظروف، في الوقت الذي كان لابد له من التوسع الكافي الذي يمكنه من إدارة العملية الاستثمارية والإشراف عليها ومراقبتها. الأمر الذي خلق ظرفاً يبدو اضطرارياً ويدفع عملية التنمية للاستعانة بالقطاع الأجنبي عمالة وإدارة.

وكانت غمرة الإنشاء بالوفرة المالية الحكومة بعامل الطفرة قد حالت دون استشعار أهمية دور القطاع الخاص بكفاءة ممارسة النشاطات المختلفة

التي تفترضها عملية التنمية الشاملة وخاصة مع ما تتميز به المشاريع التنموية من ضخامة وتعقيد، قد يكون ناتج عن عدم قدرة القطاع الخاص على توفير الكفاءات والمهارة البشرية اللازمة لتشغيل وإدارة مشروعات التنمية وذلك من خلال النقص الكمي والنوعي على المستويات الفنية والمهارات المهنية في المملكة، وكذلك ندرة الإداريين من منظمين ومخططين بحيث يستطيعون قيادة المشروعات المتعددة والمتنوعة بنجاح.

وفي هذا المقام يجوز لنا التنويه بطبيعة الاختيارات التنموية لدى القطاع الخاص آنذاك حيث تركزت بصورة ملموسة في أعمال المضاربات العقارية وأعمال الوسطاء التجاريين والمقاولين من الباطن يضاف إلى ذلك سحب بساط الثقة في الاستثمارات طويلة الأجل والتوجه لتنفيذ المشروعات ذات الربح السريع وذات المخاطرة المحدودة. مع ما صاحب ذلك من هاجس عدم الاستقرار في ظل الأوضاع السائدة في المنطقة، انطلاقاً من المبدأ القائل رأس المال جبان، ومن كل ما ذكر فقد عقدت الحكومة السعودية العزم بأن يأخذ القطاع الخاص دوره المسئول وذلك بإشراكه كامل المسئولية لتجعل منه البديل الذي لا ينضب ويكون تعامله مع التنمية اقتصادياً واجتماعياً تعامل المقتدر، يعزز ذلك ما تقدمه الحكومة من تمويل مجزٍ ومناخ جيد لكي يتنامى ويؤتي أكله، وقد أصبح هدف الحكومة السعودية واضحاً في ارتكازه على تنويع مصادر الدخل الوطني بتقوية المصادر غير النفطية وذلك بتأكيد زيادة الثقة في قدرات القطاع الخاص وإمكانية قيامه بدور أكبر في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وذلك من خلال استحضار القطاع الخاص وتعبئة مكامن القوى فيه للوصول بإدارة الاقتصاد الوطني إلى درجة النجاح الجيد.

ولازال نمو القطاع الخاص مشجعاً فقد زاد عدد الشركات من ٥٠٢٧

شركة عام ١٤٠٢هـ إلى ٧٠٦٠ شركة عام ١٤٠٧هـ وزاد رأس المال كذلك من ٥٤,٤ بليون ريال إلى ٨٣,٢ بليون ريال خلال نفس الفترة (مجلس الغرف السعودية ص ١٤٠٩: ١١). وإذا جاز لنا ذكر الأهداف بنقاط محددة فإننا نعتقد أن من ضمن الأهداف الحكومية:

١- تعزيز مكانة القطاع الخاص ليقوم بدور واعد جنباً إلى جنب مع الحكومة، وليكون الابن الأكبر الذي يحظى بجل الرعاية والإعداد ليعتمد عليه بتقاسم المسؤولية مع الحكومة متى أنست من جانبه الرشد.

٢- أن يقوم القطاع الخاص بدوره الفعال في إيجاد الفرص الوظيفية من إدارية وفنية ومهنية للمواطنين.

٣- أن يكون قادراً على استيعاب مشاريع التنمية التي تقوم بها الحكومة لزيادة المدخرات الوطنية ولتحقيق الرضا النفسي للحكومة من أن ما تدفعه يصب في أيدٍ وطنية وبالتالي حققت التنمية الاجتماعية القيام بالمشروعات المملوكة التي تدار بأيدي وطنية وكذلك حققت التنمية الاقتصادية حيث تصب المبالغ الضخمة سنوياً في أوعية وطنية قادرة على تدويرها واستثمارها للأهداف الاقتصادية الوطنية بدلاً من صبها في جيوب أجنبية تحول معظمها بشيكات الدفع لوطنها الأصلي ولا تدفع منها حتى أجور أو مشتريات استهلاكية، حيث صاحب ظاهرة الطفرة ظاهرة التجمعات العمالية المقامة بمواقع المشروع بدون دفع مقابل والمواد الغذائية تستورد من الوطن الأصلي لتعهد المشروع، وإذا كان هناك نفع مادي فيقتصر على قلة من المواطنين كالوسطاء والكفلاء ومتعهدي المشروعات.

٤- القطاع الخاص أحد الوسائل المهمة للدولة في نقل التكنولوجيا.

٥- تشجيع القطاع الخاص وإيجاد الفرص الاستثمارية الواسعة والمتعددة،

دافع جوهري للاستفادة من رؤوس الأموال المهاجرة واستثمارها وطنياً يوجهها نحو التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الوطن.

٦- سعودة العقود والمشاريع. لقد أصبح تنشيط وتدعيم الاقتصاد الوطني مطلباً أساسياً وقومياً وهاجساً ملحاً لكل حكومة، لا زالت لديها القدرة المالية وحاجة البلاد لاستثمار التنمية تتطلب مزيداً من المشاريع ومزيداً من العقود وشعار سعودة الوظائف قد رفع منذ زمن لذا حان رفع شعار سعودة العقود والمشاريع.

٧- تقيد طبيعة دور الحكومة في الاقتصاد.

٨- تخفيض الأعباء المالية على الدولة وتقليص العجز في ميزانيتها العامة ومن مصلحة المواطنين والأجيال القادمة عدم الاعتماد على مصدر واحد كالبتروول بتدبير مصادر أخرى، يكون خيار القطاع الخاص صناعياً وتجارياً وزراعياً وخدمات هو أحد هذه المصادر في الوقت الحاضر وذلك لزيادة معدلات الإنتاج وتطوير المواد البشرية وتنويعها على تقبل المفاهيم الحرفية والمهنية وبيئة الشغل والسير نحو التكنولوجيا ولتنويع مصادر الدخل بتوظيف الاستثمارات وتحضير المدخرات المالية للأفراد ومؤسسات القطاع الخاص لتوظيفها في المشاريع الإنتاجية والخدمية والعمل الجدي لاستعادة الأموال المهاجرة والاستفادة منها في المشاريع الاقتصادية في أرض الوطن والحيلولة دون تركها لقمة سائغة للبنوك الأجنبية وكذلك الحرص على تشجيع الاستثمارات الأجنبية بتوظيفها داخل المملكة، مما يحقق للبلاد العملة الصعبة ونقل التكنولوجيا بالاستفادة من الخبرات الأجنبية في الإدارة والتسويق والاستثمار وتشجيع الصادرات.

## الجهود المبذولة من أجل التخصيص

للقطاع الخاص دور رائد في تنويع القاعدة الاقتصادية في البلاد والحكومات تدرك أهمية دور القطاع الخاص وتتفق جميعها على إنمائه وتطويره بزيادة إمكاناته وتعزيز قدراته، والمملكة العربية السعودية كونها تأخذ بمبادئ الحرية الاقتصادية وفق مقتضيات الشريعة الإسلامية وحرصاً على تعزيز الاقتصاد الوطني ورسوخ القاعدة الاقتصادية بدأت التوجه الفعلي نحو التخصيص، يتضح ذلك من تشجيعها لرجال الأعمال لعقد المؤتمرات والندوات حيث يلتقون بالمستولين في الدولة لتبادل وجهات النظر نحو الأفضل للتنمية الاجتماعية والاقتصادية وزيادة التفاعل الإيجابي بين قطبي الاقتصاد الوطني (الحكومة والقطاع الخاص). فقد كان هناك أربع مؤتمرات في كل من الدمام والرياض وأبها وجدة وذلك في الأعوام ١٤٠٣هـ، ١٤٠٥هـ، ١٤٠٧هـ، ١٤٠٩هـ. وكانت حصيلة هذه المؤتمرات الاتفاق على أهمية دور القطاع الخاص في المشاركة في التنمية الاجتماعية والاقتصادية (ندوة دور القطاع الخاص في التنمية ١٤٠٩هـ : ٣٨).

وقد بدأت الجهود المبذولة فعلاً بهذا الشأن ابتداء من الخطة الخمسية الثانية ١٩٧٥م - ١٩٨٠م بإنشاء وزارة الصناعة والكهرباء، وبالتحديد فقد صدر الأمر الملكي رقم ٣٣٦/١ في ٨/١٠/١٣٩٥هـ بإنشاء وزارة الصناعة والكهرباء.

وفي الواقع فقد سعت المملكة إلى تدعيم وزيادة قدراتها الاستيعابية لاقتصادها الوطني في مختلف الأنشطة والحقول، متضمنة إقامة بنية أساسية متطورة بما فيها إنشاء محطات تولد الكهرباء وتحتلية المياه والطرق

والموانئ والمطارات والمواصلات الحديثة وكذلك المناطق الصناعية التي توفر التسهيلات المهمة التي تحتاج إليها المشروعات الصناعية مثل إنشاء هيئة خاصة كالهيئة الملكية لمشروع الجبيل وينبع، والتي استخدمت خبرة بعض البيوتات العالمية كبكتل وبارسونز الأمريكيتين حيث يعد الجبيل وينبع منبعين رئيسيين للتدفق الصناعي في المملكة باعتبار هذين المركزين مجتمعين كبيرين للصناعات الهيدروكربونية والصناعات كثيفة الاستخدام للطاقة. ففي ينبع توجد المحطة الأخيرة لضخ النفط وتخزينه لإبحاره عبر البحر الأحمر ومن ثم للأسواق الأوروبية والأمريكية. كذلك مشروع أرامكو للغاز السائل ومصافي بترومين للاستخدام المحلي والتصدير، ومصنع بترومين لزيوت التزيت ومصنع ينبع للبتروكيماويات، أما الجبيل ففيها مصفانان للنفط ومفصى لزيوت التزيت ومخزن للمنتوجات النفطية الثانوية وأربعة مصانع للبتروكيماويات ومصنع للحديد والصلب ومصنع للأسمدة، هذين الموقعين في شرق المملكة وغربها يتوخى أن يقدم الفائدة المرجوة منهما للصناعات التحويلية الأخرى على وجه الخصوص الصناعات التي تستخدم منتوجات الصناعات الأساسية لهذين المركزين.

وتتولى الهيئة الملكية لمشروع الجبيل وينبع بالإضافة للإشراف على إنجازات الهياكل الأساسية المطلوبة للمشاريع الصناعية الأساسية تنفيذ واجبات مدنية تتعلق بالسكن والتعليم والمواصلات والنظافة والتطبيب وغيرهما من الخدمات التي تحتاجها هاتان المدينتان الصناعيتان.

وقد أخذت الحكومة على عاتقها مهمة إنشاء المشروعات الصناعية الأساسية التي لا يتحملها القطاع الخاص كتكرير النفط ومصانع البتروكيماويات والحديد والصلب والأسمدة وغيرها وتشترك أحياناً مع الشركات متعددة الجنسية بهدف تجاوز المشكلات المتعلقة بالإشراف على

إنشاء المعمل وتشغيله وتسويق منتوجاته وضمان الحصول على تعاميم جديدة وتكنولوجيا متقدمة (ندوة التنمية المستقلة في الوطن العربي ٥٧٢/٨٩).

ومما هو معروف للجميع أن النفط هو المحدد الرئيسي لنشاط الاقتصاد في الدولة وفي جميع المجالات وتصدير النفط وتسويقه يتوقف على أوضاع السوق الدولية المتقلبة كثيراً وباستمرار ويتأثر كذلك بالأحداث والتطورات الناجمة عن أوضاع الاقتصاد العالمي ويد النفط في الشرق الأوسط أداة سياسية وحربية، وقد كانت له تأثيراته السياسية كما حدث في حرب ١٩٧٣م مع العدو ولازال الشرق الأوسط يعيش عقداً سياسية ومخاوف حربية طالما القوى الدولية تؤيد التوسع الإسرائيلي على حساب الوطن العربي ومادام أعداء الإسلام والعروبة ناجحون في التفريق بين العرب سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وحتى ثقافياً وأي تغيير في الأوضاع الاقتصادية أو السياسية سيحدث أثراً جوهرياً في أوضاع أي اقتصاد يعد النفط عموده الفقري.

ومن هذا الهاجس قامت الدولة بتكوين مؤسسة بترومين وجعلت من مهامها إنشاء مصافي النفط ومجمع الغاز. وبدأت الجهود بعملية التصنيع بتكرير النفط الخام وإقامة المشاريع الهادفة إلى تحسين معدل الاستفادة من الغاز المصاحب للبترول عن طريق تسييله. وهناك ثلاثة معامل لتسييل الغاز وقد أعيد تنظيم بترومين وفق هياكل تنظيمية وإدارية بغية زيادة فاعليتها وكفاءتها الإنتاجية، فقد انفردت (بترو) كشركة موحدة لزيوت التشحيم وأعلن أخيراً عن شركة (سمارك) ودمجت فيها النشاطات الإنتاجية والتسويقية في مصافي التكرير.

ومع أن الحكومة هي المولد الرئيسي للنشاط الاقتصادي باعتبار أنها هي



المالك للنفط والغاز الطبيعي فينتظر أن تستمر الحكومة بالقيام بدور اقتصادي رئيسي في الوقت الذي تعمل فيه على تنمية القطاع الخاص والمشاركة في عدد لا بأس به من المشروعات الإنتاجية.

ومن الأهداف الرئيسية للاقتصاد الوطني في الظروف الراهنة تنويع وتعدد مصادر الدخل عن طريق استغلال البترول ومشتقاته بصورة تتمكن معها الأدلة من تحويلها إلى أصول منتجة لتحل هذه الإيرادات المتحققة للتحويلات الجديدة محل إيراد خام النفط على نحو دائم ومستمر ومنظم مما يؤدي إلى تخفيض الاعتماد شبه الكلي على الأسواق الخارجية سواء تصريف النفط الخام أو الغاز المسيل أو تأمين احتياجات الدولة من مختلف السلع والمواد الاستهلاكية الوسيطة والأسمالية.

وبالنسبة للصناعات البتروكيماوية فقد أسست الدولة أول معمل للسجاد عام ١٩٦٩م كما أسست معملًا آخر عام ١٩٨٠م بالتعاون مع شركة تايوان للأسمدة ومنذ عام ١٩٧٦م بدأت الدولة في توظيف الاستثمارات في برنامج ضخم لإنتاج البتروكيماويات كالأيثيلين والميثانول والمشروعات البتروكيماوية الوسيطة كالبولي إيثيلين واليولي إيثيلين والأيثيلين كليكول والكوارين والصودا الكاوية (ندوة التنمية المستقلة في الوطن العربي ١٩٨٩م/٥٨٩)

كما قامت الحكومة من خلال إنشاء الصندوق السعودي للتنمية الصناعية عام ١٩٧٤م بتقديم ٥٠٪ من احتياجات المشروعات الصناعية على شكل قروض ميسرة لتطوير الصناعات التحويلية وبخاصة ما يتعلق بالصناعات الغذائية والمنسوجات والسكن، بهدف الوفاء بالاحتياجات الأساسية وكذلك قيام الحكومة بإنشاء المناطق الصناعية في المدن المجهزة بجميع احتياجات الصناعة من ماء وكهرباء وغاز ومرافق النقل والمواصلات وغيرها، وقد

قدمت هذه الخدمات للمشروعات بأسعار مدعومة.

وقد تولى القطاع الخاص الصناعات الصغيرة والمتوسطة، حيث يقوم القطاع الخاص بإنشائها وإدارتها وكذلك هو المنتج الرئيسي لمنتجات مختلفة كالأسمنت والكونكريت والطابوق والبلاط والأبنية الجاهزة والأبواب والشبابيك والمواد العازلة ومكيفات الهواء والمواد الغذائية والسلع والأدوات المنزلية وكل ذلك مدعوم من الدولة لخلق قطاع خاص يقف زائماً في المستقبل.

وكذلك أسندت بعض المشاريع كخدمات الصيانة والمقاولات للقطاع الخاص وقد أنفقت خلال خطط التنمية الثلاث على الموارد البشرية ما تجاوز الـ ٢٠٠ بليون ريال سعودي بغية مشاركة فعلية من المواطنين في إدارة وتشغيل مؤسسات الخدمات والمشروعات الإنتاجية (ندوة التنمية المستقبلية في الوطن العربي/٥٧٢).

ويقوم البنك الإسلامي للتنمية بتحويل الصادرات من السلع غير التقليدية بين الدول الإسلامية، وقد اشتركت المملكة بحصة كبيرة في هذا البرنامج تشجيعاً للصادرات بها ولتمكين المصدر السعودي من الاستفادة من الضمانات المالية ضد المخاطر التجارية وغيرها بين الدول العربية.

وفي عام ١٩٨٩م قام القطاع الخاص بتأسيس الشركة السعودية لتنمية الصادرات لتمويل وتشجيع الصادرات السعودية كما قامت الشركة السعودية للتنمية الصناعية بتشجيع إقامة الشركات المساهمة لتوسيع القاعدة الرأسمالية مع ما يتيح من إشراك عدد لا بأس به من صغار المستثمرين المساهمين في رأس مال هذه الشركات، بالإضافة لما تقوم به المملكة من إقامة مشاريع للتوازن مع بعض الدول الغربية من أجل تأمين التكنولوجيا المتقدمة (الشرق الأوسط ١٠/٢/١٤٠٩هـ)

كما تستفيد المملكة العربية السعودية من عضويتها في مجلس التعاون الخليجي لتفادي ازدواجية المشاريع وفق إطار الاتفاقية الاقتصادية الموحدة من التحرير الكامل لتبادل السلع ذات المنشأ الوطني بين الدول الأعضاء. وقد شاع في المملكة ظاهرة طرح مشاريع الخدمات العامة في مناقصات أمام القطاع الخاص، كعمليات الأشغال العامة والمشاريع البلدية وأعمال المياه والكهرباء والنظافة والصيانة وغيرها، كما ركزت في صناعاتها على استخدام التكنولوجيا للتقليل من العمالة الوافدة والأجنبية وبالذات للمحافظة على خصوصية المجتمع العربي المسلم والمحافظة ما أمكن على تركيبة المجتمع المحافظ وعاداته.

وهناك بعض الإجراءات التشريعية التي اتخذتها الدولة السعودية منها نظام إعطاء الأفضلية في المشتريات الحكومية من المنتجات الوطنية على غيرها من المنتجات الأجنبية المثيلة وكذلك حماية الدولة للمنتجات الوطنية سواء من ناحية رفع الرسوم الجمركية أو تحديد كمية المستوردات الأجنبية المماثلة للإنتاج المحلي، كما صدر نظام استثمار رأس المال الاجنبي في عام ١٩٧٩م بغية استقطاب الخبرات الأجنبية في مجال الإدارة والتسويق من أجل نقل التكنولوجيا المتقدمة وشرطت الدولة امتلاك رأس المال الوطني بنسبة لا تقل عن ٢٥٪ من رأس مال المشروع للمستثمر الأجنبي تشجيعاً للقطاع الخاص على الاستثمار وكذلك الاستفادة من الخبرات الإدارية والفنية المتقدمة التي سيحصل عليها من شريكه الأجنبي (الشرق الأوسط ١٤١٠/٢/١٠هـ).

وتدرجت المملكة باتجاه التخصيص بإعطاء المشروعات بعض الاستقلال بمزيد من المرونة في الإدارة مع بقائها تابعة للجهاز الحكومي ثم بدأ التدرج بالاستقلال حتى وصل بيع الأصول والممتلكات للقطاع الخاص أو المشاركة، كملكية مختلطة.

نستفيد مما ذكر أن المقصود بالتخصيص هو إدارة وملكية المشاريع من قبل القطاع الخاص وأن التخصيص أصبح وسيلة ضمن وسائل تسلكها كل الدول التي تنشئ التنمية هدفاً وغاية بعد تجاربها المبررة في التأميم وإدارة المشاريع الاقتصادية من قبل البيروقراطية الحكومية مما سبب لكثير من هذه الدول الإخفاق في مشروعاتها الإنتاجية ثم الاقتراض والعجز عن السداد والدخول في حلقة مفرغة من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، وكون المملكة العربية السعودية تؤثر وتتأثر في المجتمع الدولي كأحد أعضائه فقد اتجهت للتخصيص بدون اندفاع يوقعها في الخطأ أو تزيث يفوت عليها الفرص، ولا زالت تحاول وضع الهياكل التنظيمية والإدارية وتهيئة المناخ والإعداد النفسي لاحتضان هذا المولود الجديد، وإن كانت الدولة حتى الآن تحاول إدارة وملكية المشاريع الكبيرة بنفسها حتى إذا أثبتت نجاحها والاطمئنان على مستقبلها قدمتها للمواطنين رطباً جنيماً على شكل أسهم سواء بالمشاركة أو امتلاكها كلياً ولا يوجد حتى الآن النموذج الحي على التخصيص سوى جزء من سابق وهو نموذج مغربي تتبعه مشاريع أخرى.

**والموضوعة نقول:** إن القطاع الخاص لازال يعاني من مشاكل كثيرة قد لا تجعله قادراً على إدارة التنمية بالقدر الذي تنشده الدولة.

بالرغم من أن عهد الطفرة تمخض عن زيادة في رأس المال وفي عدد الشركات العاملة فقد ارتفع عدد الشركات العاملة من (٥٠٢٧) في عام ١٤٠٢هـ إلى (٧٠٠٠) شركة في عام ١٤٠٦هـ وبنسبة نحو ٣٩٪، كما ارتفع مقدار رأس المال لتلك الشركات من ٥٤ بليون إلى ٨٦ بليون خلال نفس الفترة بنسبة نحو ٢٥٪، ولكن هذه الطفرة في السيولة وما حققتها من أرباح خيالية كانت السائر الذي يخفى وراءه عيوب هذه الشركات من

تنظيمية وتخطيطية وتمويلية واستراتيجية تسويقية. كما أن الاندفاع لاقتسام الغنائم من دعم وإعانات مالية أدى إلى زيادة في عدد الشركات المؤسسة على غير مقومات اقتصادية سليمة.

وبظهور فترة التكيف ولا نقول الكساد تعثرت معظم هذه الشركات وبدأت سواتها التنظيمية والتمويلية والتسويقية وقلة خبرتها الإدارية. والنمط الغالب في تكوين معظم الشركات يأخذ بطابع الشركات الفردية ذات المسؤولية المحدودة أو التضامنية أو التوصية البسيطة، ومعظمها ذات رأس مال صغير ويملك ويدار بأفراد العائلة الواحدة أو أقاربها وأصهارها، أو عدد قليل قد لا يصل لعدد الجماعة مما يقلل الغرض عن عدد كبير من الأفراد وتوسيع قاعدة الأسهم كما يحصل في الشركات المساهمة وقد أوضحت دراسة قامت بها الأمانة العامة لمجلس الغرف السعودية (الأمانة العامة لمجلس الغرف السعودية ١٤٠٩: ٢١) أن الشركات الفردية غير المساهمة تعاني من:

١- تردي المراكز المالية وقلة السيولة وبالأخص المؤسسات الصغيرة والمتوسطة لدرجة تعرض الكثير منها لأزمات في السيولة جعلت البعض منها عاجزاً عن الوفاء بمتطلبات الإنفاق الدوري العادي بما في ذلك سداد المديونيات المستحقة لبعض العاملين.

٢- انتشار ظاهرة الاعتماد على القروض المصرفية من البنوك والصناديق الحكومية المتخصصة قد تصل إلى ٥٠٪ من جملة التكاليف الاستثمارية للمشروع مما يحمل الإيرادات أعباء سداد المديونيات.

- وفيما يتعلق بالواقع التنظيمي أوضحت الدراسة أن معظم مقررات العينة لا يتمتع هيكلها بالاستقرار والثبات وبالتالي يتعرض كثيراً للتغيير والتعديل غير المدروس وإن وجد التنظيم فيكون بصورة مركزة على الوظائف المالية والإدارية دون الاهتمام بالإدرات الفنية المتخصصة.

كما أن العينة كذلك تعاني من مشاكل أخرى في الإنتاج والتسويق وعدم

## استقرار العمالة الأجنبية.

وفي الواقع فإن هذا الاختلاف في الهياكل التنظيمية والإدارية الذي يصاحب نشوء مؤسسات القطاع الخاص مرده إلى قلة الخبرة والدراسة، ومعرفة السوق مع لهفة في اغتنام الفرص المتاحة بطريقة مشجعة ومغرية مع سهولة الحصول عليها لكل من يريد الربح السريع متوهماً أنه سيصبح فارساً في هذا الميدان، ولو لم يكن لديه أدنى إلمام بأبجديات مفاهيم السوق واحتياجاته وإمكاناته المستقبلية وبناء الهيكل التنظيمي وخطط التشغيل.

والحقيقة فإن كثيراً من هذه النماذج حصلت على أرباح بشكل عشوائي، مستفيدة من ركوب موجة الطفرة، حتى إذا ما انقشعت سكرتها ظهرت حقيقة هذه المؤسسات المالية والتنظيمية والإدارية، وقد يكون سعيد الحظ إذا بدأ مواصلة التكيف في إيرادات تعادل مصروفاته، مع ملاحظة أن المملكة تعتمد على الدول الصناعية في تأمين الأسواق لصادراتها حيث تشير بعض الدراسات (التنمية المستقبلية في الوطن العربي ٥٨٣) إلى أن تجارة المملكة مع دول الخليج بحدود ٢ - ٤٪ من مجمل تجارتها الخارجية، وكذلك تجارتها مع الدول العربية الأخرى والدول النامية عموماً لا تتجاوز ربع التجارة الخارجية، ولكن تجارتها مع الدول الصناعية تزيد على ثلاثة أرباع التجارة الخارجية السعودية بمجملها، هذا الأمر سيجعل المملكة تدخل مع الدول الصناعية وجهاً لوجه في منافسة غير متكافئة، والمملكة لا تختار سوق الدول الصناعية لصادراتها بدافع الاستلطاف ولكن كون معظم صادراتها من البترول ومشتقاته التي تحتاجه الدول الصناعية أكثر بكثير من الدول النامية، كما لا أن المملكة تعتمد على التكنولوجيا المستوردة شأنها في ذلك شأن بقية الدول النامية كما زالت المشاركة الفعلية للمواطنين في إدارة وتشغيل مؤسسات ومشاريع الخدمات والمشروعات الإنتاجية متواضعة برغم ما يصرف على تنمية الموارد

البشرية لإعداد الأطر والكفاءات الفنية والإدارية ولكنها حتى الآن لا تفي بكامل احتياجات القطاع الخاص مما حدا بالقطاع الخاص إلى الاعتماد على الخبرات الأجنبية في مجالات عديدة ابتداءً من وضع الخطط إلى دراسة الجدوى والإشراف على اختيار التكنولوجيا وإنشاء المصانع وتشغيلها وصيانتها ومن ثم تسويق منتجاتها.

وتحاول الحكومة جاهدة معالجة هذا النقص حيث تشترط على الشركات الأجنبية الداخلة في مشاركة مع القطاع العام تدريب العمالة السعودية لإحلالها في المراكز الفنية والإدارية في المشروع بدل العمالة الوافدة، وكذلك تقوم الدولة بجهد ملموس في تدعيم التعليم الفني والإداري على حد سواء.

### المقترحات

١- قد يكون من المفيد جداً لو كان التركيز أكثر على الاستثمار في المشاريع القائمة المرتبطة بالغاز والنفط كالصناعات الهيدروكربونية والصناعات كثيفة الاستخدام للطاقة، وهناك فرص كثيرة في هذا المجال كتحويل الثروة النفطية إلى أنماط أخرى من الثروة لاستثمار هذه المادة الخام في مشاريع إنتاجية وتحويلية للاستهلاك المباشر وذلك مما يعزز دور الاقتصاد الوطني.

٢- أن تقوم هيئات القوى العاملة بالتعجيل في تنمية الموارد البشرية وبالقدر الكافي من الكمية والكمية. حيث تعدّ قلة الموارد البشرية المؤهلة عقبة في وجه النمو الاقتصادي، وندرة الموارد البشرية ليست كمية فقط بل نوعية كذلك ولا بد من التوسع في تدريب وتعليم العمالة السعودية ولا سيما أن بناء الاقتصاد الذاتي القوي يعتمد على خبرات عالية وكفاءات مدربة مما يستلزم تدريب الأطر العليا المتخصصة التي تساعد في قيادة عملية التنمية الاقتصادية في البلاد.

ولنجاح القطاع الخاص في عملية التصنيع والإنتاج الوطني لابد من

توافر القرارات والكفاءات الوطنية وتطويرها على شكل خبرات ومعارف فردية ومؤسسات قادرة لصهرها في مشروع وطني ولا بد من تكوين الموارد البشرية وتنميتها بشكل يمكنها من القيام ببرامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية اعتماداً على الإمكانيات الذاتية، ولعل كثرة الخريجين مع محدودية الفرص الوظيفية في الحكومة فرصة سانحة للاستفادة منهم إذا وجهوا هذا التوجه.

٣- الرأي العام في القطاع الخاص يقيم العامل الوطني بموجب معايير غير دقيقة وأحكام غير رشيدة سواء ما يعود على صاحب العمل ومنشأته بشكل مباشر أو ما تسببه هذه التوجهات غير الواعية من آثار اجتماعية واقتصادية واستراتيجية تؤدي إلى مناعب وطنية على المدى الطويل والقصير، إن رجل الأعمال يبني توجهاً للعمالة الوافدة على معايير منها: انخفاض مستوى الأجر الذي يقبله العامل الوافد مقارنة بالقدر الذي يطلبه العامل الوطني، العامل الوافد يصل مدرباً وجاهزاً للعمل بينما العامل الوطني يحتاج إلى تدريب، كما أن العامل الوافد يقبل العمل في أي مكان في الوقت الذي لا يقبله العامل الوطني.

ومع الاعتراف بمنطق هذه المعايير إلا أنه من السهل دحضها بالحجج

التالية:

**أولاً:** خطط التنمية الأربع أفرزت للسوق المحلية من العمالة الوطنية نوعيات يعول عليها خلال حقها الطبيعي في المشاركة في جهود التنمية.

**ثانياً:** العمالة السعودية نشطة ومقتدرة ومستوعبة للتكنولوجيا من خلال قيامها بواجباتها في المشاركة في التنمية إذا أعطيت حقوقها، ونرى ونلمس وجود المواطنين على مختلف المستويات الإدارية والفنية والإشرافية في قطاعات اقتصادية حيوية مثل أرامكو وبترومين ومجموعة سابك والخطوط الجوية السعودية والهاتف الآلي السعودي والمصانع الحربية والثروة المعدنية. هذه المواقع الحيوية أعطت المواطن حبها وأعطاهم عشقه



وأصبح مرتبطاً إلى يوم التقاعد كل ذلك يرفع الملامة عن العامل الوطني ولا يعذر القطاع الخاص بارتباطه العاطفي مع العامل الوافد.

**ثالثاً:** العامل الوافد يسبب للمنشأة المواجه التالية:

أ- يحتاج لفترة تأقلم لا تقل عن الفترة التي تلزم تأهيل العامل الوطني .

ب- صاحب المنشأة يحتاج لفترة لفهم هذا العامل الوافد نفسيته عاداته خلقه صحيفة سوابقه فهمه للعمل، تكيفه مع زملائه، معرفته لأنواع الزبائن وأساليبهم وهذه كلها عوامل مهمة في التجارة وسبب رئيسي في العائد الربحي للمؤسسة، هذه المدة قد تطول عن مدة التدريب التي تحاشي العامل الوطني من أجلها.

ج- من الشواهد الكثيرة التي تدعمها الوثائق والأرقام التي تطالعنا بها وسائل الإعلام مسموعة ومقروءة عن ارتشاء وتزوير وهروب العمال الوافدين، بالإضافة لسرعة تنقل العامل من مؤسسة إلى مؤسسة أخرى فما أن يحل في مؤسسة إلا ويبحث عن الأخرى طمعاً في زيادة الأجر، هذا بالإضافة إلى المصروفات الإضافية المتمثلة في تذكار الإركاب والعلاج والبحث عنه والإعلان في حالة الهروب ونقل جثمانه جواً في حالة الوفاة كل ذلك يسبب آلام نفسية لصاحب العمل وخسارة للمؤسسة وفوق ذلك كله ما يسببه من متاعب للوطن من حيث تغيير التركيبة الاجتماعية في العادات والتقاليد وزيادة وتغيير نوعية الجرائم وغير ذلك.

د- تعرض المؤسسة التي تعتمد كلياً على العمالة الوافدة للإفلاس لو حدثت تغييرات في أسواق العمالة اقتصادياً، أو فرص في بلدان أخرى أو منع هجرة.

هـ- العمالة الوافدة بالشكل الموجود في المملكة تسبب نزيفاً للاقتصاد الوطني حيث معظم العمالة الوافدة تحول بالعملة الصعبة كامل أجورها بالإضافة للاستفادة من الدعم للسلع الاستهلاكية واستخدام

المرافق المجانية.

ومن كل ما ذكر فمن المصلحة للاقتصاد الوطني وللعمالة الوطنية وللقطاع الخاص الاعتماد ما أمكن على القدرات الوطنية مع خصوصية تعاضد جهود مؤسسات القوى العاملة والقطاع الخاص في التوسع في التدريب الفني والإداري للشباب من المواطنين ويقع على الإعلام بكافة وسائله ومناشئة عبء خاص من حيث تغيير النظرة الذاتية للعمل المهني. وكذلك تسليط الضوء على مستقبل الأعمال الصناعية والخدمية والتجارية التي يضطلع بها القطاع الخاص والعام.

٤- يرى الكاتب بث الحماس الوطني في عاطفة القطاع الخاص من خلال مساهمته في توظيف العمالة الوطنية، وكذلك التدخل الرسمي بفرض سياسة التدرج بإحلال العمالة الوطنية محل العمالة الوافدة بشكل تناسب عكسي يؤدي إلى زيادة عدد العمالة الوطنية وتناقص أعداد العمالة الوافدة مع الاحتفاظ بتوازن القطاع الخاص وألا تؤثر العاطفة الوطنية على العقلية الاقتصادية أو تتجاهل العامل النفسي لدافع الربح الذي ينشده القطاع الخاص.

٥- أن تناط مهمة التشغيل للسعوديين بالغرف التجارية بدلاً من مكاتب العمل التي يفترض أن تقتصر على النواحي القانونية المتعلقة بالشكاوي.

٦- لا بد من دعم القطاع الخاص مادياً ومعنوياً بما يضمن له النجاح للاضطلاع بدوره القيادي في التنمية من حيث الأداء الإنتاجي الجيد وامتصاص العمالة الوطنية مع تدريبها مهنيًا وفنيًا لربطها العضوي بجسم القطاع الخاص.

٧- تحبذ الدراسة أن يتم التحول إلى القطاع الخاص بالتدرج بشرط أن يسبقه تهيئة المناخ لنجاحه.

٨- إن بعض المشاريع لا تفيد التنمية بل هي عبء عليها لمجرد صيانتها وتعميرها فهي تولد كلفة مستمرة على الاقتصاد الوطني. لهذا تنصح الدراسة بالابتعاد ما أمكن عن محاولة القيام بمشاريع إنتاجية أو خدمية تولد كلفة مستمرة على الاقتصاد الكلي من خلال ما تشكله من أعباء جديدة على الاقتصاد لمجرد صيانتها.

٩- تقديم الخدمات على شكل رسوم ولو بشكل رمزي والابتعاد ما أمكن عن مفهوم الخدمات المجانية مما يقلل من أهميتها ويؤدي إلى سوء استخدامها مادامت تقدم مجاناً.

١٠- إن اعتماد المملكة بصادرتها على عدد معين من الدول الأجنبية يعرضها لإجراءات الحماية - والتميز مما يضع بعض العراقيل على الصناعة الوطنية، ولتوسيع أسواق المملكة لابد من التوجه إلى الخارج والاكتفاء بدلاً من التوجه إلى الداخل من خلال التكامل الاقتصادي العربي والإسلامي والعمل المشترك الأخوي والجواري الذي سيفتح رحبة للصناعات الوطنية حيث إنتاج البتروكيماويات والصناعات الأساسية كالحديد والصلب التي تحتاجها الدول العربية والإسلامية وكافة دول الجوار لانعدامه أو قلته في تلك الدول، والتكامل الاقتصادي الأخوي مفيد وملح للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للمملكة.

١١- والمملكة تحرص على التحول من مرحلة الاعتماد على النفط إلى مرحلة الاقتصاد المتوازن بتنويع مصادر الدخل كشيء أساسي ومهم للتنمية، وكون البلاد من أكبر الدول احتياطياً للبتترول والغاز فإنها كذلك غنية بالطاقة الشمسية وموارد مهمة جداً وغير معدنية منها وجود الحديد والذهب والفضة والنحاس والكروم والمنجنيز والملح والفوسفات والجبس والمياه الملاحية والموارد السمكية (التنمية المستقبلية في الوطن العربي ٥٩٢)

ويمكن للمملكة أن تستغل هذه الموارد تجارياً عن طريق التعاون والتسيق مع المنظمة العربية التي تحتاج لمثل هذه الصناعات. وقد تحتاج المملكة للاستيراد الزراعي والحيواني من أقطار عربية وقد يكون من المفيد اقتصادياً إذا ركزت المملكة على الصناعات البترولية والمعدنية واشتهرت بها ولا يشترط لنجاح أي دولة اقتصادياً أن يكون هناك توازن في استغلال كل الثروات فالتوجه الرشيد هو حسن استغلال الثروة الوطنية المؤهلة اقتصادياً. وهناك دول كثيرة تصدر غيرها وتستورد من غيرها، ولا يؤثر على أمنها الاستراتيجي أو يدب لها الخوف مادامت هي ناجحة اقتصادياً بسلعة أو أكثر والمملكة العربية السعودية بحكم توسطها من العالم العربي يجعلها مستفيدة من الثروات الطبيعية لتلك الدول.

فإذا ما ثبت أن مناخ المملكة شبه الاستوائي لا يساعد على النمو الزراعي بشكل اقتصادي أو مزيد من التكليف باستخدام الأساليب الحديثة. فيمكن للمملكة الاعتماد على بعض الدول العربية في جميع أو بعض المحصولات الزراعية حيث توفر خصوبة الأراضي الصالحة للزراعة والمياه والطقس الملائم والبيئة الفلاحية التي توفر عمالاً زراعين متوازني المهنة الفلاحية.

ومن الملاحظ عن طريق العين المجردة أن المملكة افتقر إنتاجها الزراعي بكميات وفيرة على القمح فقط وفي مناطق محدودة جداً من مساحتها الشاسعة ومحصول القمح محصول موسمي وهو في السنة مرة والتميز بإنتاج القمح فقط ليس مؤشراً قوياً على الاكتفاء الذاتي في الأمن الغذائي.

وإذا كانت المملكة سائرة بعزم على تحسين المورد الزراعي والتوازن الاقتصادي فيمكن الاستفادة من تطوير الشركات المساهمة الزراعية وذلك لضخامة رأس المال، وتفوق الإدارة على إدارة الأفراد

ملاك المساحات الصغيرة. بالإضافة إلى ما تتمتع به الشركات المساهمة من توسيع لقاعدة الأسهم الأمر الذي سيستفيد منه قطاع كبير من المواطنين ويعزز الاقتصاد الوطني. ويستحسن أن تكون الاستراتيجية الزراعية موجهة للتصنيع الزراعي، وأن تكثف الجهود على المناطق الصالحة للزراعة والتي قد يكون من الميسور تدبير مواردها المائية كالسدود الكبيرة أو المعرضة لنزول الأمطار بكثرة واستمرار، وستسهم هذه السدود في تدبير مصادر المياه للزراعة والشرب إذا أثمرت الدولة منها، وهناك نماذج زراعية جيدة كتحصين الري والصرف في الأحساء ووادي الدواسر ومنطقة جيزان والقصيم والشمال كتبوك والجوف. ولا بد أن تكون هذه السدود وجميع المشاريع الزراعية صادرة عن تصور عام متبلور في خطة مدروسة وموحدة سواء من قبل وزارة الزراعة أو وزارة التخطيط.

١٢- وللاستفادة من الثروة الحيوانية يحبذ الكاتب أن تتولى الدولة تنظيم البادية الرحل وشبه الرحل المستوطنين في القرى والهجر غير الزراعية وذلك من خلال دراسة متخصصة تجمع بين الاستفادة من تربية المواشي اقتصادياً آخذين بعين الاعتبار ندرة الأمطار وعدم استمرارية دعم العلف وبين إفادتهم بتمكينهم من التعليم ووسائل المواصلات والاتصالات ووسائل الترفيه، ودمجهم في البيئة الحضرية كمصادر بشرية مهمة في كل المجالات التي تحتاجها الدولة.

١٣- وللتقليل من الواردات الزراعية والحيوانية وفي مقابل الاعتماد على الإنتاج المحلي واستخدامه اقتصادياً لا بد من تنويع العادات الاستهلاكية، فقد بلغ قيمة الواردات الزراعية نحو ٥,٢ بليون دولار عام ١٩٨٢م أي ما يعادل ١٩,٢ بليون ريال سعودي (التممية المستقبلية ٥٥٧).

أما الذبائح التي تنحر باسم الكرم لضيف ولا يؤكل منها سوى النزر اليسير وكذلك في المناسبات والأفراح التي تكاد أن تؤخذ بكاملها وترمي مما سبب نزفاً اقتصادياً وإهداراً للثروة الحيوانية المحلية وتضخم الاستيراد، حيث بلغ ما استوردته شركة المواشي عام ١٩٨٨م ١٤٠ ألف رأس، واعترفت الشركة أنها تباع بحوالي ٤٠٠ مليون سنوياً (اليمامة العدد ١٠٦٦: ٤٨) واعترفت نفس الشركة أنها تذيب ٨٠٠ رأس من الأغنام يومياً (اليمامة ١٠٦٥: ٢٢) علماً أن هذا المؤشر يقتصر على شركة المواشي فقط، وقس على ذلك بقية تجار المواشي، والماشية المحلية واللحوم المثلجة واللحوم البيضاء الأخرى.

١٤- العمل على سرعة إنشاء الأسواق الفعالة لرءوس الأموال، حيث يلزم نجاح انشغال الملكية للقطاع الخاص إيجاد سوق لرءوس الأموال ومن هذا المنظور فهناك فريقان:

فريق يرى أنه لم يحن سوق لرءوس الأموال بعد، مدلاً بذلك على أن عدد الشركات ذات الأسهم القابلة للتداول في الوقت الحاضر قليل ومحدود، وكذلك وجود سوق للأسهم قد يعرضها لكارثة اقتصادية على غرار سوق المناخ في الكويت.

أما الفريق الآخر فيرى أن هذه النظرية لاتمتد على المدى البعيد للمستقبل والاحتياج بسوق المناخ الكويتي يفتقر إلى الموضوعية والواقعية، وحجتهم في ذلك أن أسواق المملكة قد تجاوزت حالة مشابهة لسوق المناخ في الكويت وهو أزمة سوق العقار عندما انحدرت أسعار الأراضي وانخفضت أسعار الأسهم في مرحلة سابقة وفي الواقع فإنه لا بد من سرعة وجود سوق مالي على أسس علمية ودقيقة ومن واقع الاستفادة من تجارب الآخرين ولا بد كذلك من الارتباط الفعال بالأسواق الإقليمية والدولية عن طريق استخدام

## التكنولوجيا في هذا المجال.

١٥- ولابد من إعداد بيئة المعلومات والمحاسبة والإدارة والقضاء والتجارة الصالحة لنمو القطاع الخاص بالشكل الذي يفيد الاقتصاد الوطني بشكل عام. وكحد أدنى فإن هذه المعلومات توفر دقة التقارير ربع السنوية التي تنشرها الشركات المساهمة بحيث تمكن مؤشرات الاقتصادية من التحاليل الموضوعية.

ولابد من وضع معايير محاسبية دقيقة لمكاتب المحاسبين القانونيين ولتحسين مستوى العاملين في هذا المجال.

وكذلك لابد من تطوير النظام القضائي التجاري ووضع القواعد التطبيقية اللازمة وتطوير الأساليب والإجراءات المتبعة في هذا المجال وخاصة فيما يتعلق بأنشطة المصارف التجارية وفق الشريعة الإسلامية.

ولابد أن يتزامن نقل الملكية مع نقل كامل السلطة الإدارية إلى من ستؤول له هذه الملكية أو من ينوبه كمجلس الإدارة.

وقد يكون من المفيد أن تقوم البنوك المصرفية ومؤسسات الاستثمار وأصحاب رؤوس الأموال الكبيرة لتشدد أزر رجال الصناعة ولا سيما الشرائح الإنتاجية وذلك من خلال طرق ووسائل استثمار تجنبهم مهالك الربا ويحقق لجهات الإقراض عائداً لا بأس به. ولكي نسهم في هذا المجال فإننا نرى أن تقوم تلك الجهات التمويلية بإقراض المشروعات الإنتاجية بالأجل وهو ما يسمى في الشريعة بالسلم، كأن يقدم صاحب المشروع مخططاته للجهة المقرضة التي تقوم بتنفيذ تلك المشروعات من الأساس حتى مهلة الإنتاج أو تنفيذ بعض مراحله حسبما يتفق الطرفان ويتفق على التسديد إما عن طريق المشاركة أو بالتقسيط. وإذا اتضحت صعوبة التطبيق من هذا المنظور فإننا نرى أن تكون هذه المهمة عن طريق مشاركة الدولة والجهات آنفة الذكر بتحمل ٥٠% لكل منهما على أن يسدد نصيب الدولة بدون فوائد

والشق الأخير يراعى فيه نسبة من العائد كرسوم وغيرها أو مشاركة بنسبة معينة من رأس المال أو شراء الإنتاج وفي اعتقادي أن هذا الإسهام من جانب البنوك والبيوتات الاستثمارية أولى من الإسهام في بعض المشاريع البلدية، أو يعمل لغرض الدعاية أو ما يقدم في منافع وقتية لا يعلم مدى أحقية الحاصلين عليها.

وخلاصة كل ما ذكر فإن نجاح دور التخصيص بتعزيز الاقتصاد الوطني يقوم على عاملين هما:

العمالة الوطنية المدربة والمؤهلة واختيار نوعية المشاريع التي تقوم على ثروات طبيعية تؤدي إلى ربح جيد لا يحتاج إلى الدعم الرسمي باستمرار.

## المراجع والكتب

- دحلان ربيع ١٤٠٩هـ  
الاتجاهات المعاصرة في إدارة المشروعات العامة: التحول إلى القطاع الخاص - جدة دار البلاد للطباعة والنشر، الطبعة الأولى.  
ميكافى، نيقولو ١٩٧٩  
مطارحات ميكافى، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة تعريب خيرى حماد، الطبعة الثانية. الدوريات  
الأمانة العامة لمجلس الغرف السعودية ١٤٠٩هـ.  
تطوير بنية القطاع الخاص لمواجهة تحديات التنمية في المرحلة القادمة، ورقة عمل مقدمة للمؤتمر الرابع لرجال الأعمال السعوديين في جدة ٢٤-٢٧ شوال ص ١١.  
المعلمي يحيى عبدالله ١٤٠٩  
أفاق التحول إلى القطاع الخاص في المملكة العربية السعودية، ورقة عمل مقدمة إلى ندوة مساهمة القطاع الخاص في التنمية في الرياض ٩-١١/٥/١٤٠٩هـ  
وزارة التخطيط ١٤٠٩هـ  
ندوة دور القطاع الخاص في التنمية ٩-١١ جمادي الأولى.  
صحيفة الشرق الأوسط صحيفه يومية تصدر من لندن.  
اليمامة مجلة أسبوعية تصدر من الرياض.



# الحياة الإنسانية في الأشعار الجاهلية

د. عبد القوي زبوني



لاريب لدينا في أن الشعراء الجاهليين كانوا أكثر الأفراد حينذاك شعوراً وإحساساً بالزمن، كما كانوا أكثر قدرة على التعبير الصادق عن رؤيتهم الحقيقية للحياة، ولما يبعثه الزمن الضيق في نفوسهم من أحاسيس وانفعالات، منطلقين، في ذلك كله، من إدراكهم للظروف المعيشية التي تحيط بهم، وتلقى بظلالها على مجرى حياتهم، ومتأثرين بنظرة المجتمع عامة تجاه الزمن؛ ومن هنا استطاعوا أن يعكسوا أيضاً حالة الإنسان العربي تجاه الزمن ومراحل العمر. وسيبدو لنا ذلك جلياً في حديثهم عن الشباب، والمشييب، وفي رؤيتهم لغاية الحياة التي كانوا يطمحون إليها.

## ١- الشباب:

لعلنا لانجانب الحق إذا قلنا، مستنديين في ذلك إلى نصوص شعرية لاحقة: إن إحساس الإنسان العربي المفرط بالزمن، في أكثر الأحيان، وشعوره الشديد بأنه مقيد به، ومن ثم قناعته بأن لا حيلة له في التخلص من النهاية الحتمية المتمثلة في الموت، كل ذلك جعله يرى في الشباب ذروة الحياة، ففيه تنفجر قوى الجسد، وتتأجج المشاعر

والأحاسيس، ويمرر الجسم كله بعنفوان الفتوة وحيويتها.

وقد زاد في أهمية الشباب ، لدي الفرد الجاهلي، أن البيئة التي يعيش فيها، وظروف المعيشة التي تحيط به، والحياة القبلية التي يحياها بغزواتها وغاراتها، تطلبت منه قوة جسدية لمواجهة التغلب عليها، كي يتمكن من الحفاظ على بقائه واستمرار وجوده، فضلاً عن أنه كان يجد في الشباب، غالباً، مجالاً لتحقيق رغائبه في الحياة، وقدرة على تنفيذ كثير من أماله وأمانيه.

وبذلك هيا الشباب للفرد القوة لخوض الحروب، ومقاتلة العدو، والصبر على شدائد الحياة في البادية، كما هيا له أسباب الفتوة القادرة على ضروب اللهو، وشتى متع الحياة. وربما كان هذان الأمران منطلق الأعشى في تصويره للشباب تارة بالرُمح القويم، ذي السنان الحاد اللامع، الذي لا يشك في قدرته على اختراق الأجسام والنفاذ فيها. وتصويره تارة ثانية بإناء الذهب الذي جهد صانعه في صياغته، فاكتمل بهاءً ورونقاً، وغدا وسيلة ممتعة إلى نهل الملذات: (١).

بينما المرء كالرويني ذي الجبِّ      سِوَاهُ مُصْلِحَاتُ الْكَثِيفِ (٢)  
أو إناء التَضَارٍ لَحْمَةُ الْقَيْدِ      مِنْ وَدَارَى صَدُوعَهُ بِالْكَثِيفِ (٣)  
رَدَهُ دَهْرُهُ الْمُضَلَّلُ حَتَّى      عَادَ مِنْ بَعْدِ مَشْيِهِ لِلدَّيْفِ (٤)

ويمكننا أن نستوحي من رؤية الشعراء للشباب عامة أنهم كانوا يعدونه خلاصة العمر وزهوّه؛ فهم يدأبون دائماً في إيراد صور حافلة بمسراته وأفراحه؛ سواء أكانوا في مرحلة الفتوة أم كانوا في مرحلة نالية لها. ففي المرحلة الأولى نجدهم يفخرون بما يتمتعون به من قوة كبيرة، تجعلهم فرساناً أشداء في المعارك ومجابهة الأخطار، ويتباهون بما يمارسون في حياتهم من ملذات، تشبع أحاسيسهم المتوثبة. وفي المرحلة الثانية نجدهم يمثلون حسرة وألماً على ماضى من عهد اللذائذ والمسرّات، ويكون ديدنهم حينذاك أن يسترجعوا في مخيلاتهم صور الشباب الأقل، والنعيم الزائل.

— أولاً، عهد الفتوة والشباب:

إن من يبحث عن صورة الإنسان في الشعر الجاهلي لابد أن يلحظ أمراً ذا دلالة

مهمة على موقف الفرد من الحياة، ومن الأسباب التي تربطه بالبيئة والمجتمع، والتي في مقدتها القوة، هذا الأمر هو عدم اهتمام الشاعر بالحديث عن طفولته المبكرة؛ إذ لانكاد نجد نصاً شعرياً يصور فيه الشاعر نفسه طفلاً، يرتع ويلعب مع لِداته وأقرانه، وينعم برعاية الوالدين وحنانهما، وإنما يطالعا مباشرة، لدى حديثه الذاتي، شاباً يافعاً، وفتى قوياً، وكأنه بذلك يريد أن يوحي إلينا أن عمره الحقيقي يبدأ بسن الشباب، لا بزمَن الولادة.

وربما كان سبب عزوف الشاعر عن ذكر طفولته يرجع إلى أنه لا يريد أن يصف نفسه إبَّان ضعفها وعدم قدرتها على الاعتماد على ذاتها، في عالم يتطلب القوة والمقدرة في كلِّ منحي من مناحيه. كما يخيل إلينا أن ثمة سبباً آخر أيضاً، في غياب مرحلة الطفولة من وصف الشاعر لحياته، وهو أن جُلَّ فخره بنفسه إنما كان ينصبُّ على مظاهر الشدة والقوة والبأس لديه من جهة، وينصبُّ كذلك على مباهج الحياة، وفي طليعتها شرب الخمر واللهو مع النساء، من جهة ثانية، وعن طبيعة الأمور ألاَّ يتحقَّق له ذلك في الطفولة والصغر، فكان قسماً به أن يعدَّ فتوته منطلقاً لفخره، ويهمل نشأته الأولى التي يكاد يندعم فيها كلُّ ما يبعث على الفخر والمباهاة.

وينبغي أن يكون بيننا لنا أن لفظ الفتى حين يرد في الشعر يدلُّ على الشباب غالباً، وقد تُضاف إليه معانٍ خلقية تَعَرَن به، وفي مقدمتها الشجاعة والكرم، وهذا ما ألمح إليه علماء اللغة في أثناء حديثهم عن هذا اللفظ<sup>(٥)</sup>.

وانطلاقاً من المفهوم السابق للشباب والفتوة نجد طرفة بن العبد يفخر بنفسه، فهو الفتى القوي الذي يلَبِّي النداء في اللمات، ويبادر إلى غوث الآخرين ومعاونتهم، وهو الفتى الذي يجمع بين صواب الرأي في المشورة، وحسن المناداة في الشراب<sup>(٦)</sup>:

إذا القومُ قالوا: مَنْ فَتًى خِلْتُ أَنْتِي      عَنَيْتُ قَلَمَ أَكْسَلٍ وَلَمْ أَتَيْدُ  
ولستُ بِحَلَّالِ التَّلَاعِ مَخَافَةَ      لَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدُ  
وإنْ تَبَغَيْتُ فِي حَلْقَمِ الْقَوْمِ تَلْقَيْتُ      وَإِنْ تَقْتَصِّنِي فِي الْحَوَانِيتِ تَصْنَدُ

وعهد الشباب لدى زهير بن مسعود الضبِّي حافلٌ بمباهج الفتوة، ومسرات الحياة

التي تبعثها قوة الصبا وعنفوانه، ومقترن في نفسه بمعاقرة الذنآن، ومقارعة الأبطال، ومغازلة الغانيات، والقدرة على تفريغ الهموم وإزالة الأحزان (٧) :

|                                       |  |
|---------------------------------------|--|
| قَلْبُ فَتِيَانٍ صَبَحَتْهُمْ         | مِنْ عَاتِقِ صَهْبَاءٍ فِي الْخَرَسِ (٨) |
| عَانِيَةً تَصْنُبِي الْحَلِيمَ إِذَا  | دَارَتْ أَكْفُ الْقَوْمِ بِالْكَأْسِ (٩) |
| وَمَنَاجِدِ بَطْلٍ دَبِيتَ لَهُ       | تَحْتَ الْغُبَارِ بَطْعَةً خَلَسَ (١٠)   |
| وَكَوَاعِبِ هَيْفٍ مَخْصِرَةٍ         | أُبْدَانٍ مِنْ بَيْضٍ وَمِنْ لُحْسِ (١١) |
| حُورٍ نَوَاعِمٍ قَدْ لَهَوَتْ بِهَا   | وَشَقِيتُ مِنْ لَذَائِهَا. نَفْسِي       |
| وَجَسِيمٍ هُمْ قَدْ رَحَلَتْ لَهُ     | حَتَّى تَوُوبَ بَلِيَّةٌ غَنَسِي (١٢)    |
| فَفَرَجَتْ هَمِّي بِالْعَزِيمَةِ إِنْ | الْعَزَمَ يَفْرَجُ غَمَّةَ اللَّبْسِ.    |

إن أهم مظاهر الفتوة والشباب التي تبرز في الشعر، والتي تناولها الشعراء مادة لوصف تلك المرحلة من حياتهم، هي الشجاعة والخرم والراة. ويتفاوت الشعراء في تفصيل تلك المظاهر، أو الإحاح على بعضها دون بعضها الآخر، بيد أن معظم يتفقون على أنها تتمثل في صور تعكس مشاهد حيوية من عمر الإنسان، وتعبّر عن عهد الفتوة، وقلمًا وجدناها تعبّر عن غير هذا العهد.

وقد لخص لنا سلمى بن عويّة تلك المظاهر جميعاً في هذه اللوحة الشعرية البديعة (١٣) :

|  |   |
|--|---|
| لَا يَنْعَنَ عَهْدَ الشَّبَابِ وَلَا   | لَذَائِهِ وَنَبَاتِهِ النَّضْرُ             |
| وَالْمُرْشِقَاتُ مِنَ الْخُدُودِ كَمَا | يُمَاضِ الْغَمَامُ صَوَاحِبِ الْقَطْرِ (١٤) |
| وَطِرَادُ خَيْلٍ مِثْلَهَا التَّقَاتُ  | لِحَفِيطَةِ وَمَقَاعِدِ الْخَمْرِ (١٥)      |

وكان علقمة بن عبيدة قد صور لنا في شعره لذات الشباب تُقال من مجالس الشرب، وغناء القيان، فضلاً عن خوض المعارك ومقارعة الأقران (١٦). وألح أوس بن حجر في حديثه عن فتوته، في بعض شعره، على اللهو بالمرأة الآسنة العروب، التي تفعل في نفس الفتى فعل الخمرة الصهباء المعتقة (١٧). وانتهى حب الأعشى للراح،

ومعاقرة الدنان إلى أن عدّها أقصى لذائذه في عهد الشباب، ولا سيما إذا كان ندماؤه فيها فتية كسيوف الهند عنفواناً وقوة<sup>(١٨)</sup>.

ولم يقتصر عمرو بن قعّاس على مظاهر الفتوة السابقة، وإنما أضاف إليها مظاهر أخرى، تتضمن خيلاء الشباب وكبرياءه وسخاءه. وذلك كلّ نجده لديه في هذه اللوحة الشعرية، التي قلّ أن نرى نظيراً لها في التعبير عن رؤية الإنسان العربي لتدفق الشباب وحيويته وتوثّبه وزهوه<sup>(١٩)</sup>:

|   |   |
|---|---|
| الْأَبْكَرَ الْعَوَائِلِ وَاسْتَمِيتُ   | وَهَلْ أَنَا خَالِدٌ إِمَّا صَحَوْتُ <sup>(٢٠)</sup>    |
| إِذَا مَا فَاتَنِي لَحْمٌ غَرِيضٌ       | قَطَعْتُ ذِرَاعَ بَكْرِي فَاشْتَوَيْتُ                  |
| وَكُنْتُ إِذَا أَرَى زَقَا مَرِيضَا     | يَنَاحُ عَلَى جَنَازَتِهِ بِكَوَيْتٍ <sup>(٢١)</sup>    |
| أَرَجُلٌ لِمَتِّي وَأَجْرُ ثَوْبِي      | وَتَحْمِلُ شِكْمِي أَفْقُ كَمَيْتٍ <sup>(٢٢)</sup>      |
| أَمْشِي فِي دِيَارِ بَنِي غَطِيفٍ       | إِذَا مَا سَاعَنِي أَمْرٌ أَيْبَتْ                      |
| وَسُودَاءِ الْمَحَاجِرِ الْإِفْ صَخْرٍ  | تَلَا حَظَنِي التُّطْلُعُ قَدْ رَمَيْتُ <sup>(٢٣)</sup> |
| وَتَامُورَ هَرَقْتُ وَلَيْسَ خُمَرَا    | وَحَبَّةٍ غَوَرَ طَاحُنَةٌ قَضَيْتُ <sup>(٢٤)</sup>     |
| وَلَحْمٍ لَمْ يَذُقْهُ النَّاسُ قَبْلِي | أَكَلْتُ عَلَى خَلَاءٍ وَانْتَقَيْتُ <sup>(٢٥)</sup>    |
| وَبِرْكِ قَدْ أَثَرْتُ بِمَشْرِفِي      | إِذَا مَا زِلُّ عَنْ عَقْرِ رَمَيْتُ <sup>(٢٦)</sup>    |
| مَتَى مَا يَأْتِي يَوْمِي تَجِدْنِي     | شَفِيتُ مِنَ اللَّذَازَةِ وَاشْتَقَيْتُ                 |

وكثرة حديث الشعراء عن متع الفتوة ومباهجها لاتعني أنهم كانوا يشيدون بالفرد الذي ينكبُّ على المِلذّات انكباباً تاماً، ويتفرّغ دائماً لمجالس الشرب ومغازلة الحسان، غير آبه بقضايا قومه، وشئون قبيلته، ولا ملتفت إلى السعي لبلوغ منزلة السادة والنبلاء والأشراف، فهذا الفرد يكون شأنه شأن طرفة بن العبد حين أدمن شرب الخمرة، وجعلها همه الأكبر، وغايته القصوى، منفقاً في سبيلها كلّ ما يملك من مال، فكانت عاقبته أن نبذته القبيلة، وأهمّله إهمالاً كاملاً<sup>(٢٧)</sup>:

وما زال تشرابي الخُمورَ ولذتي      وبينعي وإنفاقي طريقي ومُتَلَدِي  
إلى أن تحامشني العشيرة كلها      وأفردتُ إفرادَ البعيرِ المَعْبَدِ

وأغلب الظن أن الشباب الحق، في رأي الشاعر الجاهلي، هو الذي يجمع بين تحمل المسئولية القبلية أو الذاتية، وبين الانطلاق في ملاعب الصِّبَا، والجري وراء الملذات. وهذا ما وجدته الأعشى متحققاً في إياس بن قبيصة، حين قارن صورته الحيوية المثوبة، في مجالي الشجاعة واللهو، بصورة العاجز الواهن الذي فقد الشباب، ففقد به العزيمة والقوة، وأضحى يؤثر الراحة والنوم في البيت على نهب المتع وخوض المعامع والحروب (٢٨):

أخو النُّجْدَاتِ لا يَكْبُولُ ضُرَّ      ولا مَرَحَ إذا ما الخيرَ داما  
له يومان: يومَ لعابِ خَوْدِ      ويومَ يَسْتَمِي القَحْمَ العِظَاما (٢٩)  
إذا ما عاجزٌ رثتَ قِوَاهُ      رأى وطءَ الفراشِ له فناما  
كفاهُ الحربِ، إذ لَقِيتُ، إياسَ      فأعلى عن نِمارِقةٍ فقاما (٣٠)  
إذا ما سارَ نحو بلادِ قومِ      أزارهُمُ المنيةَ والحِماما  
كصدرِ السيفِ أخلصه صِقَالُ      إذا ما هزَّ مشهوراً حُساماً

وعلى هذا فإن عهد الفتوة والشباب، كما صورته لنا الشعر، كان فصح العمر لدى الإنسان العربي، نهل فيها فنون الملذات، وارتوى من معينها رحيق الصِّبَا، مختللاً بفروسيته وشجاعته، ومعتداً بقوته ومقدرته، وقد عدَّ هذا العهد زهرة عمره وذروة حياته. ومن هنا يمكننا القول إن الشباب هو العهد الوحيد من العمر الذي كان فيه الشاعر الجاهلي راضياً عن الزمن، قانعاً به، من غير سخط ولا تذمر في أكثر أحيانه ومعظم حالاته.

### — ثانياً. بكاء الشباب:

لاريب في أن الأهمية الكبيرة للشباب لدى الإنسان العربي، كما برزت جلية من الأشعار السالفة، كانت غالباً تبعث في نفسه الحسرة والأسى والحزن، عند شعوره بتسرب الشباب وانقضاء عهد الفتوة. فلم يكن مستغرباً بعد ذلك أن يعبر في شعره عما

اختلج في نفسه من مشاعر، وما أحدث فيها ألم الفقد ومرارة الفراق.

وهذا ماكان من شأن عدي بن زيد فيما أبداه من أسى عميق ولوعة حرى لفراقه الشباب؛ ذلك الذي غدَّ السير، وأسرع بالرحيل، غير مبالٍ بجزع الشاعر وبكانه؛ ليقينه بأنه فراق لإلقاء بعده، ورحيل لأوبة له (٣١):

يَا شَبَابَ قَمَالَهُ مَرْدُودٌ      وَعَلَى مِنْ سِمَةِ الْكَبِيرِ شُهُودٌ  
شَيْبَ بَرَأْسِي وَاضِحَ أَغْصِنَتِهِ      مِنْ بَعْدِ أَخْرِيَانٍ وَهُوَ حَمِيدٌ  
وَأَرَى سَوَادَ الرَّأْسِ يَنْقُصُهُ الْبَلَى      وَالشَّيْبُ عَنْ قَوْلِ الْحَيَاةِ يَزِيدُ  
وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ لَوَانَهُ      كَانَ الْبُكَاءُ بِهِ عَلَيَّ يَعُودُ  
لَيْسَ الشَّبَابُ وَإِنْ جَزَعْتَ بِرَاجِعٍ      أَبَدًا، وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْكَ مُعِيدُ

وشبيه بهذا ماكان من تلهف عمرو بن قميئة على ضياع أيام شبابه للأفلة؛ إذ أصابه بفقدائها أمر عظيم وخطب جَل، يتمثلان في ذهاب صحة البدن، ونضارة الوجه، وطيب العيش، وقوة الروح، فياحسرة مايعدها حسرة، وبألوعة تزداد حرقه كلما عُن ذكر الصبِّا على البال، وخطَرَ عهد القوة في الخيال (٣٢):

يَا تَهْفَ نَفْسِي عَلَى الشَّبَابِ، وَلَمْ      أَقْضِ بِهِ، إِذْ قَفَّتَهُ، أَمَمًا (٣٣)  
قَدْ كُنْتُ فِي مَنَعَةٍ أَسْرَبُ بِهَا      أَمْنُ ضَيْمِي وَأَهْبِطُ الْعَصَمَا (٣٤)  
وَأَسْحَبُ الرِّيطَ وَالْبُرُودَ إِلَى      أَدْنَى تِجَارِي وَأَنْفُضُ اللَّمَمَا (٣٥)

وإذا كانت مظاهر الشباب ومتعه التي تجلِّي في الشجاعة والخمرة والمرأة باعثًا لفخر الشاعر بنفسه، فإن تلك المظاهر نفسها تدفعه إلى الحسرة والأسى، وتزيد من حزنه على انحصار الشباب الذي كان يوفرها له، ويجعل لذاتها أقرب مأخذًا وأيسر منالاً.

وهذا ماكانت عليه حال أبي كبير الهذلي حين رحل عنه الشباب، ولم يتيقُّ منه إلا ذكرى لهوه مع النساء الغواني الفاتنات، وشجاعته في قيادة الفرسان واختراق صفوف الأعداء؛ وقد عبر عن حاله هذه في قوله، مخاطبًا ابنته زهيرَةَ (٣٦):

أَزْهِيْزْ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَعْدَلٍ      أَمْ لَا سَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ الْأَوَّلِ؟  
 أَمْ لَا سَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ، وَذِكْرَهُ      أَشْهُى إِلَيَّ مِنَ الرَّحِيقِ السَّمْسَلِ  
 ذَهَبَ الشَّبَابُ وَفَاتَ مِنِّي مَامِضَى      وَنَضًا، زَهِيْزَ، كَرِيهَتِي وَتَبْطُلِي  
 وَصَحَوْتُ عَنْ ذِكْرِ الْغَوَانِي وَانْتَهَى      عُرْيِي وَانْكَرْتُ الْغَدَاةَ تَقْتُلِي  
 أَزْهِيْزْ إِنْ يَشِيبَ الْفَذَالُ فَإِنَّشِي      رَبِّ هَيْضَلٍ مَرَسٍ لَقَفْتُ بِهِيْضَلٍ (٣٧)  
 قَلَقْتُ بَيْنَهُمْ لَغَيْرِ هَوَادَةٍ      إِلَّا لِسْفِكَ لِلْدَّمَاءِ مُحَلَّلٍ (٣٨)  
 حَتَّى رَأَيْتُ دِمَاعَهُمْ تَغْشَاهُمْ      وَيَقُلُ سَيْفٌ بَيْنَهُمْ لَمْ يَسْأَلِ (٣٩)

واقْتَنَصَ الْأَسْوَدُ بْنُ يَعْفَرٍ صُورَةَ بَارِعَةٍ لِلشَّبَابِ حِينَ جَعَلَهُ ثَوْبًا جَدِيدًا، يَرْتَدِيهِ  
 الْإِنْسَانُ مَدَّةَ مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ سَرَعَانَ مَا يَتَمَزَقُ إِلَى قِطْعٍ مَتَفَرِّقَةٍ؛ وَذَلِكَ عِنْدَمَا تَلُوحُ نُذُرُ  
 الشَّيْبِ فِي الرَّأْسِ، وَيَدْبُ الْوَهْنُ فِي الْبَدَنِ، وَتَكُونُ النَتِيجَةُ فَقْدَانُ ضُرُوبِ اللَّهْوِ، وَفِي  
 مَقْدَمَتِهَا مَغَازِلَةُ الْفَاتِنَاتِ الْحَسَانِ اللَّوَانِي مِنْ دَابَّهِنَّ الْإِحْتِقَالُ بِالشَّبَابِ، وَالْأَزْوَارُ  
 عَمَّنْ اشْتَعَلَ رَأْسُهُ شَيْئًا وَدَاهَمَهُ الْكِبَرُ (٤٠)؛

لَهَوْتُ بِسِرْبَالِ الشَّبَابِ مَلَاوَةً فَأَصْبَحَ سِرْبَالُ الشَّبَابِ شَبَارِقًا (٤١)

فَأَصْبَحَ بَيْضَاتُ الْخُدُورِ قَدْ اجْتَوَتْ لِذَاتِي وَشِمْنَ النَّاشِئِينَ الْغَرَانِقًا (٤٢)

وَشَكَا سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ شَكْوَى حَارَةً مِنَ الْإِنْقِصَاءِ السَّرِيعِ لِشَبَابِهِ، وَغَدَتْ ذِكْرَاهُ  
 الْأَفْقَةُ فِي ذَهْنِهِ مَقْتَرَنَةً بِالْأَمْجَادِ السَّامِيَةِ، وَالْأَفْعَالِ الْحَمِيدَةِ، وَاللَّذَائِذِ الْمُمْتَعَةِ؛ فَقَدْ  
 امْتَلَأَتْ تِلْكَ الْمَرَحْلَةُ نَشَاطًا وَحَيَوِيَّةً، إِذْ إِنَّ قِسْمًا مِنْهُ كَانَ يَقْضِي فِي مَجَالِسِ الْجَدِّ  
 وَاللَّهْوِ، وَقِسْمًا آخَرَ كَانَ يَسْتَفِرِّقُ فِي الْمَعَارِكِ وَالْحُرُوبِ (٤٣)؛

أَوْدَى الشَّبَابُ حَمِيدًا ذُو التَّعَاجِيْبِ      أَوْدَى وَذَلِكَ شَأْوٌ غَيْرَ مَطْلُوبٍ

وَلَيْ حَيْثُ وَهَذَا الشَّيْبُ يَطْلُبُهُ      لَوْ كَانَ يَدْرِكُهُ رَكْضُ الْيَعَاقِبِ (٤٤)

أَوْدَى الشَّبَابُ الَّذِي مَجَّدَ عَوَاقِبُهُ      فِيهِ تَلَذُّ وَلِالذَّاتِ لِلشَّيْبِ

يَوْمَانِ: يَوْمَ مَقَامَاتٍ وَأُنْدِيَةٍ      وَيَوْمَ سِيرٍ إِلَى الْأَعْدَاءِ تَأْوِينٍ (٤٥)

وَعَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ الشُّعْرَاءَ، فِي مَوْقِفِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ، كَانُوا يَرَوْنَ فِي الشَّبَابِ زَمَنًا



مميزاً من العمر، تتحقق لهم فيه ممارسة فعلية لرغائبهم السائدة في واقع الحياة القبلية، متمثلة حيناً في الشجاعة وبعض القيم الخلفية الأخرى، ومتمثلة حيناً آخر في نهل المتع والارتواء من اللذائذ المتاحة حينذاك.

ولم يكن بدءاً منهم بعد ذلك أن ييئسوا ذلك الزمن، ويعدّوه، مهما طال، أمداً قصيراً، مرّ بهم سريعاً، ورحل عنهم رحيلاً أبدياً. وكان معظمهم ينطلق في نظريته إلى الشباب من الواقع الحقيقي الذي عاشه، ومن التجربة الشخصية التي قام بها هو نفسه؛ ولذلك جاءت أشعار هؤلاء، كشأنها في أكثر الموضوعات الأخرى، مستندة إلى المشاهدة الحسية، وبعيدة، في الوقت نفسه، عن الإغراق في تزويق الخيال وتحليقاته، وسنجد أن الأمر ذاته ينطبق على موقفهم من الشيخوخة ورويتهم لها.

## ٢- المشيب والشيخوخة :

بعد أن بينّ لنا الشعر موقف الإنسان العربي من الشباب الذي كان يعدّه مرحلة القوة ونعيم العمر، فإننا لانعجب أن نجده في مرحلة المشيب والشيخوخة يتخذ موقفاً آخر، يختلف عن الموقف الأول ويناقضه .

فإذا كنا قد رأيناه في عهد القوة يمتلئ بهجة وعنفواناً، ويندفع إلى اللعب من فنون اللذات، مفتخراً بذلك أشدّ الفخر، ومزهواً به أعظم الزهو، فإن الشعر يظهره لنا في هذا العهد أقرب إلى الاكتئاب والأسى منه إلى الفرح والأمل، وأدنى إلى الضعف والعجز منه إلى القوة والاعتدال، وغير متيقّ له إلاّ ذكريات الشباب الغابر يسترّجها، ويكون ديدنه فيها الحديث عما حقق من أمجاد، وعما أترع من لذائذ. فإن طال به العمر كثيراً، وأناخ عليه الكبر بكلّله الضخم، نزع في أغلب الأحيان، إلى الملل من الحياة، والزهد في البقاء والرغبة في الموت للخلاص من مذلة الضعف وهوانه .

ولاريب في أن الشعراء، بما طُبّعوا عليه من رهاقة الحس وشفافية الشعور، أكثر تنبهاً لمرور الزمن، وأعمق إدراكاً بحلول المشيب والشيخوخة، فكان أن عبّروا عن إحساسهم وشعورهم أصدق تعبير، مقدّمين لنا بذلك صورة شاملة عن رؤية الإنسان العربي لعهد كبره وضعفه؛ سواء أكان ذلك في أثناء حديثهم عن النفور من المشيب، أم في كلامهم عن هاجس الشيخوخة، أم في تصويرهم لمشاهد ضعف الكبر وحالاته .

## – أولاً، المشيب :

لقد ألحنا، من قبل، إلى أن الشاعر الجاهلي كان يحسّ إحساساً كبيراً بالزمن، وهذا الإحساس جعله يندفع إلى اغتنام أوقات الشباب، حريصاً عليها أشد الحرص. ولعلنا لانغفل إذا زعمنا أنه كان يشعر في قرارة نفسه شعوراً ما بأن ذلك الحين قد منحه مقداراً أكبر من الحرية تجاه الزمن، تلك الحرية التي تمثلت لديه في إشباع رغائبه وتحقيق أهدافه. وربما كان هذا السبب هو الذي جعل الزمن محبباً إليه في تلك المرحلة، كما جعل صور الحياة حافلة فيه بالمباهج والمسرّات، وفي الوقت نفسه قلّ من حديثه عن وطأة الدهر والأيام، وكاد يغيب لديه ذكر الموت والفناء .

أما حين يذوى الشباب، وينفذ عهد القوة، وتظهر آيات الكبر متمثلة في الشيب، فإن إحساس الشاعر بالزمن يشرع بالتفاقم، وشعوره بوطأة العمر يبدأ بالازدياد، ودفقة الأمل الجياشة لديه بالحياة تأخذ بالتسرب شيئاً فشيئاً .

ولعل ذلك ما جعل تعاقب الزمن المؤلف من الأيام والليالي والشهور والسنين شديد الوقع على نفس مسّجّاح بن سبيح الضبيّ، وكان إحساسه به إحساساً مفرطاً، ولاسيما أنه قطع الأمل منه، بعد أن سلبه من يعتمد عليه في مشيبه وكبره<sup>(٤٦)</sup>:

|                           |                          |
|---------------------------|--------------------------|
| لقد طوّفتُ في الأفاق حتى  | بليت وقد أتى لي لو أبيدُ |
| وأفتاني، ولا يفتني، نهارُ | وليل كلما يَمْضِي يعودُ  |
| وشهرٌ مُستَهْلٌ بعدَ شهرٍ | وحولٌ بعده حولٌ جديذُ    |
| ومفقودٌ عزيزٌ الفقد تأتي  | منينته ومأمولٌ وليدُ     |

ولا يُستبعد أن يكون امتداد العمر بحاتم الطائي قد زاد في إحساسه بمرور الزمن؛ إذ أضحيّ لديه أوقاتاً محدودة في إطار الأيام، ولم تكن الأيام إلا اليوم والأمس والغد، وكأن العمر بحاضره وماضيه ومستقبله قد تجمّع في شعوره وتركّز في هذه الأيام الثلاثة<sup>(٤٧)</sup>:

|                                     |                                  |
|-------------------------------------|----------------------------------|
| هل الدهرُ إلا اليومُ أو أمسٌ أو غدُ | كذاك الزمان يننا يتَرَدّدُ       |
| يردُّ علينا ليلة بعد يومها          | فلا نحن مانبقى ولا الدهرُ يتفدُّ |

ولقد صور بعض الشعراء انحسار ماضى بهم من عمر بأنه في منزلة الطعام الذي يأكلونه، فلا يتبقى منه شيء بعد الأكل، وإنما يفنى فناء تاماً. ولعل هؤلاء، في تصويرهم هذا، أرادوا أن يوحوا إلينا بأن الزمن ببرهانه ولحظاته وساعاته ما هو إلا مدد الحياة، كما أن وجبات الطعام هي أساس استمرارها، معبرين بذلك عن شعورهم باقتران حياتهم بالزمن اقتراناً تاماً، وإحساسهم بأن فقدان الشباب وبداية مرحلة الكبر يقرّ بأنهم من الضعف والعجز، ويُدنيانهم من النهاية.

ويظهر ذلك جلياً لدى الحارث بن كعب الذي التهم شباباه، بشهوره وسنينه، وعاصر أجيالاً عدة من قومه، حتى آل به الأمر إلى ضعف الكبر، وقلة حيلته فيه. ومن الجدير بالاهتمام أن الشاعر عبر في شعره تعبيراً مباشراً عن الدهر بأنه قد حدّ من قوته، وقصر من خطوه، وهذا يؤكد مذهبنا إليه من أن الفرد كان يشعر بأنه مقيد بالزمن ومقترن به حتى الموت<sup>(٤٨)</sup>:

أَكَلْتُ شَبَابِي فَأَقْبَيْتُهُ      وَأَقْبَيْتُ بَعْدَ شُهُورٍ شُهُورًا  
ثَلَاثَةَ أَهْلِينَ صَاحِبَتَهُمْ      فَبَانُوا وَأَصْبَحْتُ شَيْخًا كَبِيرًا  
قَلِيلَ الطَّعَامِ عَسِيرَ الْقِيَامِ      قَدْ تَرَكَ الْقَيْدَ خَطْوَى قَصِيرًا  
أَبَيْتُ أَرَاعِي نَجُومَ السَّمَاءِ      أَقْبَبَ أَمْرِي بِطُونًا ظُهُورًا

وعلى هذا الغرار عبر ذو الإصْبَعِ العَدَوَانِيُّ عن انقضاء العمر حين ضرب مثلاً بلقمان الذي طالَّت حياته وعاش زمناً طويلاً فكانه ظلَّ يقنات من أيامه وشهوره وسنينه حتى أتى عليها جميعاً، فانتهى بذلك عمره، وانقضت حياته<sup>(٤٩)</sup>:

هَرَيْتُ زَنْبِيَّةً أَنْ رَأَتْ ثَرْمِي      وَأَنْ ائْحَنِ لِنَقَادِمٍ ظَهْرِي<sup>(٥٠)</sup>  
مَنْ بَعْدَ مَا عَوَّدْتِ، فَأَذَلَّتْنِي      يَوْمَ يَجِيءُ وَلِيْلَةٌ تَسْرِي<sup>(٥١)</sup>  
لَا تَهْزَنِي مَنِّي زَنْبَبٌ فَمَا      فِي ذَاكَ مِنْ عَجَبٍ وَلَا سَفْرِ  
أَوْ لَمْ تَرَي لِقْمَانَ أَهْلَكَهُ      مَا أَهَاتَ مِنْ سَنَةٍ وَمِنْ شَهْرِ

ويغلب على ظننا أن إحساس الإنسان العربي، والشاعر خاصة، ببلوغه مرحلة الكبر أدى به في كثير من الأحيان إلى الشعور بالقلق، لاعتقاده أن هذه المرحلة

سنتتهي به حتماً إلى الضعف والوهن ومن ثم إلى الموت. لذلك أضحي نفوره من الشيب أمراً ملائماً لحالته النفسية التي باتت نهياً لتصورات المستقبل القاتم، بعد أن أيقنت بفقدان الماضي المشرق .

ويعيننا على قبول هذا الظن مانجده لدى مساعدة بن جُوَيْهَة الهُدُلِيّ من حالة شبيهة بما ذهبنا إليه؛ إذ كان موقفاً بأن الهرم مترصد للإنسان، ولا سيما إذا اشتعل رأسه شيئاً، ولحق به داء المشيب الذي لا شفاء له، ولا براء منه، فسلبه القوة وجعله سقيماً أبداً (٥٢):

يَالَيْتَ شِعْرِي الْأَمَجَى مِنَ الْهَرَمِ      أَمْ هَلْ عَلَى الْعَيْشِ بَعْدَ الشَّيْبِ مِنْ نَدَمِ؟  
وَالشَّيْبُ دَاءٌ نَجِيسٌ لَا دَوَاءَ لَهُ      لِلْمَرْءِ كَانَ صَحِيحاً صَائِبَ الْقَحَمِ (٥٣)

وكان موقف عبيد بن الأبرص من الشيب قريباً من ذلك، فقد ذمّ الشيب الذي حلّ برأسه وعاث فيه فساداً، والذي دفع الغواني إلى مقاطعته، وهجره هجراً دائماً، وقد بلغ به الأمر إثر ذلك أن يعدّ الشيب وصمة تعيب صاحبها وتزري به بين الأنام، بعد أن كان سواد الرأس يزيّنه، ويرفع من مكانته (٥٤):

وَقَدْ عَلِمْتُ شَيْبَ فَوْدَعْنِي      مِنْهُ الْغَوَانِي وَدَاعَ الصَّارِمِ الْقَالِي  
بِأَنَّ الشَّبَابَ قَالِي لَا يَلُكُمُ بِنَا      وَاحْتَلَّ بِي مِنْ مَثْيِبِ أَيْ مُحَلَّلِ  
وَالشَّيْبُ شَيْنٌ لَمَنْ أَرَسَى بِسَاحَتِهِ      لِلَّهِ دَرُّ سَوَادِ أَلَمَةِ الْخَالِي (٥٥)

ولعل هذه النظرة إلى الشيب هي التي دفعت المُرْقُش الأكبر إلى محاولة إخفائه بالخصاب، لكن أثى له أن يحتال على الزمن، ذلك الذي خلع عنه ثوب الشباب مع سواد الرأس، وألبسه ثوب الكبر مصحوباً بالشيب والصلع (٥٦):

هَلْ يَرْجِعَنَّ لِي لِمَتِّي إِنْ خَصَبْتُهَا      إِلَى عَهْدِهَا قَبْلَ الْمَثْيِبِ خِضَابُهَا  
رَأَتْ أَقْحَوَانَ الشَّيْبِ فَوْقَ خَطِيطَةٍ      إِذَا مَطَرَتْ لَمْ يَسْتَكِنْ صَوَابُهَا (٥٧)  
فَإِنْ يَظْهَرِ الشَّيْبُ الشَّبَابَ فَقَدْ تَرَى      بِهِ لِمَتِّي لَمْ يَرَمْ عَنْهَا غَرَابُهَا (٥٨)

ويغدو الشيب أحياناً أمراً يبعث على التساؤل والاستغراب، فقد استتكرت عميرة بنت أعصر بن أسعد اللون الأبيض الذي داهم رأس أبيها، وانتشر فيه، وهي التي

ألقت سواده إبّان الشباب، فبرّد أعصرُ على استنكارها بأن ذلك من طبيعة الزمن الذي إذا طال على المرء آل به إلى هذا المآل (٥٩) :

قالت عميرة مالأرسك بعدما      نغذ الشَّبَابُ، أتى بلون منكّر؟  
أعمير إن أباك غيّر لونه      مرّ اللّيبالي واختلاف الأعصر

حقاً إن الزمن هو سبب الشيب وعلته الأولى، والملامة كل الملامة على الدهر الذي مايفتا يهاجم الجسم بحرايه ليلاً ونهاراً، حتى يفقده قوته، ويحوّله إلى ضعف الكبر والشيب، من غير أن يكون للمرء قدرة على الإفلات من هذا الهجوم المستمر، أو أن يكون له حيلة للخلاص من هذا العدو الفاتك، وذلك بحسب مايراه الأفوه الأودي حين يقول (٦٠):

إن ترّي رأسي فيه قرّع      وشواتي خلّة فيها دوار (٦١)  
أصبحت من بعد لون واحد      وهي لوان وفي ذاك اعتبار  
فصروف الدهر في أطباقه      خلّة فيها ارتفاع وانحدار  
ولياليه إلّ للفقوى      من مذاه تفتليها، وشفّار (٦٢)  
حتمّ الدهر علينا أنه      ظلف مانال منا وجبار (٦٣)  
قله في كل يوم عذوة      ليس عنها لامرئ طار مطار

لقد اشتكى معظم الشعراء من امتداد العمر بهم، ولاسيما بعد أن فقدوا قوة الشباب ونضارته، ورأوا في الشيب آية الكبر، ونذير الضعف والهزم؛ لذلك لقي منهم الذمّ والاستهجان والكرامية في أغلب الأحيان، وكان مصدراً لقلقهم من النهاية المرتقبة والمصير المحتوم. ولم تكن تلك الرؤية مقتصرة عليهم فقط وإنما كانوا يصدرون فيها عن رؤية شاملة للمجتمع القبلي وللإنسان العربي عامة .

#### ثانياً، هاجس النفوذة :

إن انحسار الماضي بأمجاده وقوته، وحلول الشيب بهومومه وضعفه جعل الشاعر الجاهلي، في حالات كثيرة، يحسّ بعظم ماقدّم من زمن كان محبباً إلى نفسه، ومن عهد

كان يتيح له حرية التمتع بالحياة إلى أبعد مدى. ويبدو أن أفراح الشباب حينذاك وانتهاج لذائذه قد شغلته عن التفكير في الزمن المقبل؛ إذ لانكاد نجد لديه رؤية مستقبلية لما سيؤول إليه في مشيبه وشيخوخته، وكأن مباحج الحياة قد أنسته أن ثمة حيناً من الزمن سيأتي عليه، ويجعله يرى نفسه عاجزاً عن اصطناع الأمجاد والارتواء من اللذائد. وعلى النقيض من ذلك نجده في مشيبه وكبره قد خيم عليه يأس من المستقبل، وأضحت تتنابه صور قائمة عنه، تحفل بمشاهد الضعف والعجز.

فمن ذلك مارسه لنا لبيد بن ربيعة في مشيبه من مشهد لما سيكون عليه في شيخوخته، من وهن في الجسم يجعله يتوكأ على العصا، ويلزمه أن يقعد في البيت مكتفياً بالاستماع إلي القصص والأخبار، فإذا رام السير أو الرحيل أخذ يدب على الأرض دبيباً، محني الظهر متناقل الخطو<sup>(٦٤)</sup>:

أليس ورائي، إن تراخت منيَّتي      لزومُ العصا تُحنى عليها الأصابعُ  
أخبرُ أخبارَ القرون التي مضت      أدبُ كائني كلما قمت راعِجُ  
فاصبحتُ مثل السوفِ غيرَ جفَّتْ      تقادمُ عهدِ القينِ والتَّصلُّ قاطعُ<sup>(٦٥)</sup>

وعلى نحو مماثل كانت رؤية عروة بن الورد لشيخوخته المقبلة، تلك التي ستجوجه إلى عصاً يتوكأ عليها، والتي ستحوّله إلى إنسان ضعيف مهانٍ، منزوٍ في ركن البيت، غير قادر على الغزو والإغارة، بل غير قادر على المشي الطبيعي والسير المستقيم، مما يبعث بأهله على الملل والضجر منه، ويبعث بخصومه على الشماتة منه والتشفي به<sup>(٦٦)</sup>:

أليس ورائي أن أدبُ على العصا      فهِشَمْتَ أعدائي ويسأمني أهلي  
رهينة قعر البيت كل عشية      يطيفُ بي الولدانُ أهدج كالرَّالِ<sup>(٦٧)</sup>

وقد بلغ الأمر لدى الأعشى مبلغاً أبعد من لبيد وعروة في رؤيته المستقبلية؛ إذ إن هاجس الشيخوخة الذي يراوده جعله يعتقد أن امتداد العمر بالإنسان ماهو إلا شفاء مضمّن وتعب منصب يلحقان به، لأنه بذلك يتلقّى ضربات شديدة من الزمن ومصائب، تدعه في مرض مقيم وحزن دائم؛ بل ينتهي به تصوره اليأس إلى أن

المرء في ذلك الحال لا يختلف عن الميت إلا في أن هذا قد دفن في التراب وغاب عن أنظار الأحياء، وذلك قد ظل في العراء من غير دفن ولا ستر<sup>(١٨)</sup> :

لَصَرَّكَ مَا طَوَّلَ هَذَا الزَّمَنَ عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا عَنَاءَ مُعْنٍ  
يَظُلُّ رَجِيماً لَرَيْبِ الْمَتُونِ وَلِلْمُسْكِمِ فِي أَهْلِهِ وَالْحَزَنِ<sup>(١٩)</sup>  
وَهَالِكِ أَهْلٍ يَجِئُونَهُ كَأَخَرٍ فِي قَفَرَةٍ لَمْ يَجَنَّ

ومما يزيد في قلق الشاعر واضطرابه، وربما خوفه أيضاً، من هوان الكبير المرتقب، أن النساء يبدأن، غالباً، بالازورار عنه وهجرانه. ولعل شيئاً لم يكن يحز في نفسه ويؤله أشد الألم من شعوره بأن المرأة تنظر إليه نظرتها إلى إنسان خالٍ من الرجولة فاقد للقوة، ولا سيما أنها كانت تمثل في ذهنه أبرز الرغائب التي يسعى الرجل لبلوغها وتحقيقها .

وعسى أن يكون لنا في شعر الأعشى ما يؤكد ذلك؛ إذ نجده يشكو شكوى مرة من الغواني اللواتي صرمنه حين رأين أمارات الكبير تلوح في رأسه، وحين قعدن الأمل بفتوته وشبابه، ولم يشفع ماكان له من ماضٍ حافل باللهو والمتع عندما كانت النسوة هن اللاتي يرغبن فيه ويسعين لطلبه:

أَسْوَى وَقَصَّرَ لَيْلَةً لِيَزْوَدَا فَصَنَّتْ وَأَخْلَفَ مِنْ قَتِيلَةٍ مَوْعِدَا  
وَمَضَى لِحَاجَتِهِ وَأَصْبَحَ حَبْلَهَا خَلْقًا، وَكَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْكَدَا  
وَأَرَى الْغَوَانِي حِينَ شَبْتُ هَجَرْتَنِي أَنْ لَا أَكُونَ لِهَنْ مِثْلِي أَمْرَدَا  
إِنَّ الْغَوَانِي لَا يَوَاصِلُنَّ أَمْرًا فَقَدْ الشَّبَابَ وَقَدْ يَصْلُنَّ الْأَمْرَدَا  
بَلْ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَعُودُنَّ نَاشِئًا مِثْلِي زَمَنِينَ أَحَلَّ بَرَقَةً أَنْفَدَا<sup>(٢٠)</sup>  
إِذْ لِمَتِي مَوْدَاءُ أَتَبِعَ ظِلَّهَا دَدَنَا فَعُودَ غَوَايَةِ أَجْرِي دَدَا<sup>(٢١)</sup>  
يَلُونِنِي دَيْنِي النَّهَارَ وَاجْتَرِي دَيْنِي إِذَا وَقَدَ النَّعَاسُ الرُّقْدَا<sup>(٢٢)</sup>

وقد يحاول الشاعر، من خلال هواجس الشيخوخة التي تنتابه، إقناع نفسه بأن الشيب والكبر يشملان المرأة أيضاً، فتغدو مثله قاصرة عن إدراك ماتصوب إليه من

الفتيان الأقوياء والرجال الأشداء. وهذا ماكان يعتقد بشر بن أبي خازم، فقد كفَّ عن الغزل وفنونه، بعد أن داهمه الشيب، بيِّدَ أنْ ذلك لم يقتصر عليه وحده، وإنما طالَ أيضاً محبوبته، فأضحى كلاهما في معزل عن اللهو والصِّبَا، وفي منأى عن تحقيق غايات الشباب ورغائبه(٧٤):

|   |  |
|---|--|
| أَجِدُّ مِنْ آلِ فَاطِمَةَ اجْتَنَابَا  | وَأَقْصَرَ بَعْدَ مَا شَابَتْ وَشَابَا     |
| وَشَابَ لِذَاتِهِ وَعَدَلْنَ عَنْهُ     | كَمَا أَبْلَيْتَ مِنْ ثُبُرِ ثِيَابَا      |
| فَإِنْ تَكُ تَبْلُهَا طَاشَتْ وَتَبْلِي | فَقَدْ نَرَمِي بِهَا حَقْبًا صِيَابَا (٧٥) |
| فَتَصْطَادُ الرِّجَالُ إِذَا رَمَتْهُمْ | وَأَصْطَادُ الْمُخَبَّاتِ الْكَعَابَا (٧٦) |

وفي غمرة الصراع النفسي الذي يحتدم في داخل الشاعر بسبب الكبر ومايجرى عليه من ضعف في البدن، وهجران من النساء، فقد يزعم أحياناً أنه هو الذي عزف عن الصِّبَا، وامتنع عن ضروب اللهو وخالف هواه في معاشره النساء الفاتنات، بعد أن كان ذلك من دأبه ومن حياته؛ وممن زعم هذا الزعم الأعشى حين قال(٧٧):

أَزْمَعْتُ مِنْ آلِ لَيْلَى ابْتِكَارَا وَشَطَطْتُ عَلَى ذِي هَوَى أَنْ تَرَارَا

|   |   |
|---|---|
| وَبَانَتْ بِهَا غَرَبَاتُ النَّوَى      | وَبَدَلَتْ شَوْقًا بِهَا وَادِّكَارَا         |
| فَفَاضَتْ دُمُوعِي كَفَيْضِ الْغُرُ     | بِإِمَاً وَكَيْفَاً وَإِمَاً انْحِدَارَا (٧٨) |
| قَلِيلًا فَلَمْ زَجَرْتُ الصَّبَا       | وَعَادَ عَلَيَّ عَرَائِي وَصَارَا             |
| فَأَصْبَحْتُ لِأَقْرَبِ الْغَانِيَا     | تِ مَزْدَجَرَا عَنْ هَوَايَ اَزْدَجَارَا      |
| وَأِنْ أَخَاكَ الَّذِي تَعْطَمِينَ      | لِيَالِيَتَا إِذْ نَحَلُّ الْجِفَارَا (٧٩)    |
| تَبْدَلُ بَعْدَ الصَّبَا حَكْمَةً       | وَقَعَّةَ الشَّيْبِ مِنْهُ خِمَارَا           |
| فَأَمَّا تَرَيْنِي عَلَى آلَةٍ          | فَلَيْتَ الصَّبَا وَهَجَرْتُ التَّجَارَا (٨٠) |
| فَقَدْ أَخْرَجَ الْكَاعِبَ الْمُسْتَرَا | ةً مِنْ خَذِرِهَا وَأَشْيَعَ الْقِمَارَا (٨١) |

ولعل زهير بن أبي سلمى كان يحاول إبعاد مايرأوده من هواجس الشيخوخة



ووساوس الهرم حين ادّعى أنه قد صحا من غفلته التي كان فيها أيام الشباب، فكفّ عن الإنطلاق في مضمار اللهو والصبا، وانقاد لوعظ الشيب ونصحه، فلم يعد ينحرف عن طريق الحق وجادة الصواب. بيّذ أن تجربته مع العذارى سرعان ما فضحت بطلان ادعائه، مبيّنة مدى حسرته على مفارقة الشباب، ومدى قلقه من نعت "العم" الذي أطلقه العذارى عليه<sup>(٨٣)</sup>:

صحا القلبُ عن سَلَمَى وأَصْرَ باطِلَةٍ      وعَرِيَ أفراسُ الصَّبَا ورواحِلُهُ  
وأَصْرَتْ عَمًا تَعْلَمِينَ وَسَدَدَتْ      عَلَيَّ سَوَى قَهْذِ السَّيْلِ، مَعَادِلُهُ<sup>(٨٣)</sup>  
وقال العذارى: إِنَّمَا أَنْتَ عَمٌّ      وكان الشبابُ كالخَطِيطِ نَزَائِلُهُ  
فأَصْبَحْنَا مَا يَعْرِفُنَّ إِلَّا خَلِيقَتِي      وإلا سَوَادَ الرَّأْسِ وَالشَّيْبُ شَامِلُهُ

ويخيّل إلينا أن الشاعر، في معاناته من تصورات الشيخوخة المقبلة، كان يلجأ غالباً إلى ماضيه يستمد منه ما يسدّ ثغرة الحاضر، ويبعد عنه توقعات المستقبل، بعد أن أضحي مقتنعاً بأنه قدّ مظاهر القوة وأسبابها، ولم يعد يجد وسيلة إليها؛ سواء في الحاضر الذي يعيش فيه أو في المستقبل الذي سيطل عليه حاملاً معه هموم الكبر وأثقاله.

ولعل استرجاع الشاعر لماضيه لم يكن إلا محاولة يؤكد فيها لنفسه أن ذلك الماضي، بما ينطوي عليه من مظاهر القوة والمتعة واللهو، ماهو إلا جزء لصيق به وقابع في ذاته. وإذا كان الزمن قد أخنى على جسمه فأضعفه وأنهكه، فإنّ روحه مازالت تحسّ بإحساس الشباب الماضي، ومازالت تشعر بمشاعر القوة الذاتية، ومعارضه لصور من أمجاد صباه إلاّ تعبيراً عن رفضه الشديد لما آل إليه من مصير، وإنكاره لما يناوش فكره من هواجس، وكأنه يريد أن يثبتّ مشاهد الماضي في مخيلته لتمنعها من إيراد صور المستقبل التي تعكس مظاهر الضعف والهوان والشقاء.

وقد رأيناه عند بكائه للشباب تتوارد على خاطره صوره ومظاهره، وهنا أيضاً نراه يعتمد إلى اجترار ذكريات الماضي ومشاهده ليعرضها على نفسه، وعلى من عيروه بالكبر، ووظنوا أن صورته الحاضرة هي التي تمثّل حياته كلها. ولعلنا نجد

أصدق تعبير عن هذه الحالة لدى أبي كبير الهذلي في مخاطبته لابنته زُهيرة، التي أطالت النظر إلى كبره وعجزه وقصوره، فبادر إلى ماضيه يستجلب منه صوراً حافلة بالقوة، وزاخرة بالأمجاد، ومترعة باللدائد؛ بيد أنه في نهاية المطاف لم يستطع أن يبعد عنه هواجس الشيخوخة الماثلة في ذهنه، فاعترف بأن واقعه الراهن قد محا كل آثار الماضي (٨٤):

|  |   |
|--|---|
| أزْهَرِ إنْ يُصْبِحَ أبوكِ مَقْصِراً           | طِفْلاً يَنْوُو، إِذَا مَشَى، لِلْكُنْكَلِ          |
| يَهْدِي الصُّمُودَ لَهُ الطَّرِيقَ إِذَا هَمَّ | ظَلَعُوا وَيَعِدُّ لِلطَّرِيقِ الْأَسْهَلِ          |
| فَلَقَدْ جَمَعْتُ مِنَ الصَّحَابِ سَرِيَّةً    | خُذْبًا لِذَاتِ غَيْرٍ وَخَنْسٍ سَخِلَ (٨٥)         |
| وَلَقَدْ سَرَيْتُ عَلَى الظَّلَامِ بِمِغْثَمٍ  | جَلَدٍ مِنَ الْفَتَيَانِ غَيْرِ مُهَيَّبِ (٨٦)      |
| وَلَقَدْ شَهِدْتُ الْحَقَّ بَعْدَ رِقَادِهِمْ  | تَقَلَّى جَمَاعَتَهُمْ بِكُلِّ مَقَالٍ (٨٧)         |
| نَضَعُ السُّيُوفَ عَلَى طَوَائِفِ مِنْهُمْ     | فَتَقِيْمُ مِنْهُمْ مَيْلَ مَا لَمْ يُعْدَلِ        |
| وَلَقَدْ رَيَّا إِذَا الرِّجَالُ تَوَاكَلُوا   | حَمَّ الظُّهَيْرَةِ فِي الْيَقَاعِ الْأَطْوَلِ (٨٨) |
| فِي رَأْسِ مُشْرِفَةِ الْقَذَالِ كَأَنَّمَا    | أَطْرَ السَّحَابِ بِهَا بَيَاضُ الْمَجْدَلِ (٨٩)    |
| وَجَلَّةِ الْأَنْسَابِ لَيْسَ كَمَثَلِهَا      | مِمَّنْ تَمَتَّعَ قَدْ أَتَتْهَا أَرْسَلِي          |
| سَاهَرَتْ عَنْهَا الْكَالِثَيْنِ كَلْبُهُمَا   | حَتَّى التَّقْتُ إِلَى السَّمَاءِ الْأَعْزَلِ (٩٠)  |
| فَدَخَلْتُ بَيْتًا غَيْرَ بَيْتِ سَنَاحَةٍ     | وَأَزْدَرْتُ مُزْدَارَ الْكَرِيمِ الْمُعْوَلِ (٩١)  |
| فَإِذَا وَذَلِكَ لَيْسَ الْأَحْيَنَةَ          | وَإِذَا مَضَى شَيْءٌ كَانَ لَمْ يَفْعَلِ            |

وشبيه بذلك ما كان من شأن ربيعة بن مقروم الضبِّي الذي امتدَّ به العمر، وتقلت عليه أعباؤه، واشتدَّت به وساوسه، فالتفت إلى الماضي يغترف من أمجاده ما يعوِّض به عجز الحاضر وضعفه، فكثيراً ما جالس الملوك، وكثيراً ما أقحم الخصوم، ولم يدع من لذائذ العيش شيئاً إلّا ناله، بيد أن ذلك كله قد طواه الدهر، وأبليت جدته الأيام (٩٢). ولم تكن حال الأعشى في مشييه بعيدة عن حال ربيعة، فهو أيضاً قد حاول أن يثبت لنفسه أن فتى الأمس، ذو القوة والافتدَار، وتلك صور أمجاده ومشاهد لهوه يعرضها

مقتالية، وكأنه يريد أن يدفع بها هواجس الشيخوخة التي أخذت تنتابه<sup>(٩٣)</sup>.

ونجد في بعض الأحيان أن أمر الكبر يغدو أشد وقعاً على النفس الشاعرة، وأبعد أثراً فيها؛ وذلك إذا كان الشاعر سيّداً شريفاً في قومه، لأن قوته وشجاعته وسائر مظاهر الفتوة لديه كان لها الدور الأكبر في منحه تلك المكانة؛ فإذا أحس بفقدائها، وشعر بأنها أخذت تنزوي في حجب الماضي، أدرك سوء الحال التي آل إليها، وبدأت تخيلات المستقبل المتشائمة تخيم على أفكاره، حينئذ لا يرى مُتَنَفِّساً له إلا استرجاع ما قبع في ذهنه من ذكريات الماضي، فيلتمت إليها بناجيتها، ويبعثها من جديد؛ لكي يبرهن على أنه قطف ثمار الحياة يانعة، ونهل من ينبوعها الثر حتى الاتواء، على نحو ما كان من شأن زهير بن جناب الكلبي حين بلغ من الكبر ما بلغ، فعبّر عن حاله في قوله<sup>(٩٤)</sup>:

أَبْنَيْ إِنْ أَهْلِيكَ فَإِنِّي قَدْ بَنَيْتُ لَكُمْ بَنِيَّةً  
وَجَعَلْتُكُمْ أَبْنَاءَ سَا دَاتِ زَنَابِكُمْ وَرِيَّةً  
مَنْ كُلِّ مَا نَالَ الْفَتَى قَدْ تَلَّاهُ إِلَّا التَّحِيَّةَ<sup>(٩٥)</sup>  
وَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّارَ لِلْسُلُوفِ تَوَقَّدَ فِي طَمِيَّةٍ<sup>(٩٦)</sup>  
وَلَقَدْ رَحِلْتُ الْبَازِلَ أَلْ وَجَاءَ لَيْسَ لَهَا وَلِيَّةُ<sup>(٩٧)</sup>  
وَلَقَدْ غَوَتْ بِمَشْرِفِ الطَّرْفِ عَيْنٌ لَمْ يَغْمِزْ شَطِيَّةُ<sup>(٩٨)</sup>  
فَأَصْبَحْتُ مِمَّنْ حُمِرَ الْقَنَا نَ مَعَا وَمَنْ حُمِرَ الْقَفِيَّةُ<sup>(٩٩)</sup>  
وَنَطَقْتُ خُطْبَةً مَا جَدِ غَيْرِ الضَّعِيفِ وَلَا الْعَبِيَّةُ

لقد أفصح الشعراء عما شعروا به من وطأة الزمن عليهم، وعما كان من قلقهم وهواجسهم تجاه مستقبلهم، إذا ما امتد بهم العمر، وقد زاد الحال سوءاً لديهم ما رآه من موقف النساء السلبى منهم، وهذا ما دفعهم إلى الالتفات نحو الماضي يستحضرونه، ويحبسون منه صور شبابهم وفتوتهم، يتعزّون بها، ويملأون حاضره بمشاهد ما. وذلك كله يؤكد رؤية الإنسان العربي لحياته التي تتمثل في أزمان متعاقبة وأطوار مختلفة، تحمله في رحلة العمر من ولادته حتى كبره وشيخوخته.

### - ثالثاً، عجز الشيخوخة :

لاريب في أن الحياة القبلية في الجزيرة العربية، كما أُلحنا إلى ذلك مراراً في هذا البحث، كانت تتطلب من الأفراد أن يكونوا أقوياء، لكي يواجهوا قسوة مناخها، فيتحملوا ماقد ترميهم به من ظمأ شديد، وماقد تلحق بهم من جوع مهلك، فضلاً عما ترصده لهم في تنقلهم من ضروب المهالك والأخطار، وعماً تخفيه لهم في ثناياها ومنعطقاتها من حيوانات تتحين غرة سائحة للانقضاض والافتراس. فإذا قدّمنا على ذلك كله ماكانت تقوم عليه تلك الحياة في معاشها من غزوات وإغارات وحروب أدركنا مدى احتياج الإنسان العربي إلى جسم قوي، وبدن متين، وقدرة مستمرة، تكون وسيلته إلى أسباب العيش، ومنعة تهين له الحفاظ على حياته وصون وجوده .

ومن المرجح لدينا أن الشاعر الجاهلي قد وعى ذلك وعياً تاماً، وأدركه إدراكاً كاملاً، وماكان إحساسه المفرط بالزمن، وجزعه من المشيب، وقلقه من هواجس الشيخوخة، التي عرضنا لها آنفاً، إلاّ صدّى لوعيه وإدراكه لأهمية القوة في الحياة .

ولعل هذا الأمر يغدو أكثر بروزاً وأظهر جلاء ووضوحاً لديه حين يُعمر طويلاً، فيُخني عليه الدهر بثقله، وينوء على جسمه بكلكله، ويسلب منه كل قوة، ليدعه في شيخوخته مهبّض الجناح، واهي القوى، قليل الحيلة، خائر العزيمة، فيزداد بذلك أمله من الزمن، وتزداد حسرته على ماضى من العمر، ويضحى غالباً متذمراً من الحياة، كثير الشكوى من الأحياء، معبراً عن ذلك في شعره تعبيراً صادقاً، عارضاً علينا فيه صوراً تمثل ماأل إليه في شيخوخته من ضعف شديد وعجز كبير .

وقد تركزت معظم هذه الصور حول حالتين من حالات الشيخوخة لديه، فأبرزت في الحالة الأولى شكواه السريرية معالقه به من ضروب الوهن والقصور، وأبرزت في الحالة الثانية مكابדתه ومعاناته من الموقف السلبي الذي يقفه منه أهله وأقرباؤه وقبيلته عامة .

ويبدو أن هاتين الحالتين قد دفعته، في أحيان كثيرة، إلى اليأس من الحياة والرغبة في الموت، على الرغم من أنه كان، في بعض الأوقات، يعزّي النفس بما للشيخوخة

من جانب إيجابي يتمثل في الحكمة والخبرة والتجربة التي يتصف بها صاحبها، وترفع من مكانته في قومه وقبيلته .

فمن الشعراء الذين نجد سمات الحالة الأولى ظاهرة لديهم عمرو بن قَمَيْة؛ وذلك حين بلغ أرذل العمر، وحمل أقال تسعين عاماً على كاهله، ممّا جعله يفقد عزيمة النفس، فلا يقدر على ضبط أموره، ويفقد قوة البدن، فلا يقدر على النهوض مباشرة إذا رام القيام. ويبدو أنه كان مقتنعاً بأن سبب كبره وضعفه يعود إلى الدهر ومصائبه ومكارهه، تلك التي أخمدت وهج الأمل في نفسه، وأفقدته الرجاء في عودة القوة والحياة إليه للاستمرار في الحياة والبقاء بين الأحياء (١٠١):

كأنّي، وقد جاوزتُ تسعينَ حِجَّةً،      خلعتُ بها يوماً عِذارَ لِجَامِي (١٠١)  
على الراحتينِ مرةً وعلى العصا      أنوءُ ثلاثاً، بعدَهْنِ قِيَامِي  
رَمَتِي بناتُ الدهرِ من حيثُ لأرى      فكيفَ بمنَ يرْمِي وليسَ بهِرامُ  
فلو أنّها نَبَلٌ إذا لا تُقْبِلُهَا      ولكنّي أرمي بغيرِ سهامِ  
إذا مارأني الناسُ قالوا: ألم تكنَ حديثاً جديداً البزَغيرَ كهامِ (١٠٢)

وأهلكني تأمِلُ يومٍ وليلةٍ      وتأمِلُ عامَ بعدِ ذاكَ عامٍ  
وعلى نحو قريب صور ذو الإصبعِ العذواني نفسه شيخاً قد ضعف بصره، وقل سمعه، وانحنى ظهره، ففدا وأمن العظم، فاقد القوى، قليل الحركة (١٠٣):

أصبحتُ شيخاً أرى الشَّخصينِ أربعةً      والشَّخصَ شخصينِ لمّا سنَّي الكِبَرُ  
لأسمعُ الصوتَ حتّى أستديرَ له ليلاً،      وإنْ هو ناغانِي بهِ القَمَرُ (١٠٤)  
وكنتُ أمشي على الرّجلينِ معتدلاً      فصرتُ أمشي على ماثبتِ الشَّجَرِ  
إذا أقومُ عَجَزَتِ الأرضُ متكبّناً      على البراجِمِ حتّى يذهبَ النُّقَرُ (١٠٥)

وقدّ عامر بن جُوَيْنٍ الطائي في شيخوخته الأمل في أن يعود سليم البدن، ممتلئاً صحة وعافية ونشاطاً، وذلك بعد أن تغصّن منه الجلد، وشاب الرأس، وتناقص الخطو، وذهب السمع، وتشقّق الضرس، وتكاثرت لديه الهموم والأحزان على من

هلك قبله من الأهل والأقرباء(١٠٦):

المرء يبكي للسلامة والسلامة لا تحصى  
أو سالم من قد تنسى جلد وأبيض رأسه؟  
أو دب من هــرم وأو دى سمعة وانفق ضيرته  
أودى الزمان بأهله وبأقربيه، فكل أنسنة

وقد أضاف الحارث بن التوأم اليشكري إلى مظاهر ضعف البدن ضعفاً آخر في النفس، يجلى في فقدان قوة الإرادة التي تساعد على تسيير أمور حياته، ويجلى أيضاً في فقدان القدرة على منع الذل ورفض الإهانة(١٠٧):

زعمت ثمامة أنني قد سؤتها ولقد أنى لي أن أسوء وأكبر  
إن الكبير إذا يخاف رأته مفر شيعاً، وإذا يهان استمرأ(١٠٨)  
وإن ترحل في الرعبة خلة كسلاً وعز عليه أن يتعدرا  
وإذا تراعى القوم شخصاً خاله شخصين ثمت لم يكن هو أبصرا

وإذا انتقلنا إلى الحالة الثانية وجدنا أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما عرضه لنا الشاعر في حالته الأولى كما تتأثر بها تأثراً مباشراً؛ إذ إن شعور الفرد بالعجز زاد من إحساسه غالباً بأن مكانته بين قومه أخذة بالزوال، وزاد في قاعته بأنه أضحي كلاً وعالة على أهله ورهطه. وآيات ذلك لديه ظاهرة في إهمالهم له إهمالاً واضحاً، وفي إهمامهم الأمور التي تخصه من غير مشورته، وفي تركه وحيداً منتبذاً في البيت، بل قد يبلغ الأمر بهم أحياناً أن يدعوا أطفالهم يحترشون به، ويزعجون، من غير أن يلتفتوا إلى ذلك أو يعيروهم اهتماماً .

فمن ذلك ماصوره لنا دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ، في شعره، من موقف قومه منه، بعد أن أسنّ، وضعف جسمه، ووهن عظمه؛ فقد أقصوه عن مجالسهم، ونأوا به بعيداً عن منازل ساداتهم وأشرفهم، فعدا كطير قد جُرّ منه الجناحان، أو كفرخ من الفراخ قد وقع في مخالب حيوان مفترس، فلم يستطع خلاصاً منها، فضلاً عن أنهم قد حرموه

حتى من إبداء الرأي وإسداء المشورة، على الرغم من أن عقله لا يزال راجحاً، وحكمته لا تزال صائبة، منتهياً إلى أن ذلك كله كان نتيجة لطول الزمن الذي امتد به، والذي أنهك جسمه، وقصر خطوه، وأفقدته قواه<sup>(١٠٩)</sup>:

أصبحت أقدف أهداف المنون كما يرمي الدريفة أدنى فوقة الوتر<sup>(١١٠)</sup>  
 في منصف من مدى تسعين من مئة كرمية الكاتب العذراء بالحجر<sup>(١١١)</sup>  
 في منزل نازح م الحي منتبذ كمربط العير لأدعى إلى خير  
 كأنني خرب فصنت قوايدمة أو جئة من بغاث في يدي خصر<sup>(١١٢)</sup>  
 يمضون أمرهم دوني وما فقدوا مني عزيمة أمر إماخلا كبري  
 ونومة لست أقضيها وإن متعت وماضى قبل من شأوي ومن عري  
 وإنني رابني قد حبست به وقد أكون ومايمشي على أثري  
 إن السنين إذا قارين من مئة لوين مرة أحوالي على مرر<sup>(١١٣)</sup>

وشبهه بهذا ما شكا منه مصاد بن جناب اليربوعي حين جاوز المئة، فأضحى فعيد الدار، يتولى أمره الآخرون، فيقيدون حريته، ويمنعون من تحقيق رغائبه، فلا يجد بداً من الانقياد لهم ذليلاً مهاناً؛ لأنه بات بلا حول ولا قوة<sup>(١١٤)</sup>. كذلك كان شأن سيمان بن هبيرة الأسدي في شيخوخته؛ إذ أصبح سخرية قومه، ونسائهم خاصة، عندما كثر شيب رأسه، وتقوس ظهره، وغدا ملازماً البيت، لا يقدر على تحصيل الأمجاد كما كان شأنه إبّان عهد فتوته وشبابه<sup>(١١٥)</sup>.

وبلغ الأمر بأحفاد المستور بن ربيعة أن اعتادوا على الاحتراس به، ومحاولة إيداعه، حتى خال أنهم غدا يكرهون بقاءه، ويرغبون في موته والتخلص منه. وذلك لما رأوا ما آل إليه من كبر أثقل سمعه، وجعله لا يستجيب إلا إذا دُعي بأعلى صوت وأجهره<sup>(١١٦)</sup>:

إذا ما المرء صم فلم ينأجى وأودى سمعه لأنبايا<sup>(١١٧)</sup>

ولاعب بالعشي بني بنيه كفعل الهر يحتش العظايا (١١٨)

يلعبهم وودوا لو سكوّة من الذيفان متّرعّة ميليا (١١٩)

فلا ذاق التّعيم ولا شراباً ولا يسقى من المرض الشّقايا

وهذا الموقف من الأهل والأقرباء تجاه الشاعر الشيخ جعله في بعض الأحيان يلجأ إلى فنه الشعري، يتخذ وسيلة إلى معانبتهم وتذكيرهم بحقوقه عليهم، وواجباتهم نحوه، وأدناها أن يولوه عناية واهتماماً، فيقدّموا إليه ما يحتاجه ويناسبه في مختلف الأوقات. وهذا مانجده واضحاً لدى الربيع بن ضيع الغزاري في معانبته لبنيه وأزواجه معانبة رقيقة، تتطوي على شيء يسير من التقرّيع والتأنيب (١٢٠):

ألا أبلغ بني بني ربيع فأنذال البنين لكم فداءً

بأنّي قد كبرت ورقّ عظمي فلا يشغلكم عني النساء

وإن كنّاني لنساء صدق وما أشكو بني وما أسأفوا

إذا جاء الشتاء فادفئوني فإن الشيخ يهرمه الشتاء

وأما حين يذهب كل قرّ فسرّبال خفيف أو رداءً

بيد أن الشاعر لم يكن في الغالب ليرضى عن معاملة قومه له، أو ليرضى عن وضعه في الحياة، ونحن نرى أن إحساسه الشديد بمظاهر الشيخوخة من ضعف وعجز وقصور كانت تدفعه إلى الاعتقاد أن مهمته في الحياة قد انتهت أو أوشكت على النهاية، فقد أضحى بمنأى عن مشاركة القبيلة في غزواتها أو في الذود عن حياضها، كما أصبح في معزل عن ارتياد مجالس اللهو والأنس وبلوغ المتع واللذائذ، ولم يتبقّ له إلا أن يقعد مع الخوالب والأطفال والمرضى، تنتابه الهموم والأحزان، وتستبد به الهواجس من كل حدب وصوب، ولا سيما أنه لم يجد في حياة الصحراء وأيامها الطويلة ما يشغله عما هو فيه من تعب ونصب.

فلذا أضفنا إلى ذلك كله ماورد عن العرب من أن منهم من كان يحجب الرجل



الكبير، فيتركه في بيت خاص ترعاه فيه الإماء<sup>(١٢١)</sup>، فإننا لانستغرب بعد ذلك أن نجد الشعراء والمُعمرين منهم خاصة، ينزعون في أشعارهم إلى اليأس والسأم والضجر من الحياة، ويثون فيها روح التشاؤم من استمرار العيش؛ بل قد يميل بعضهم إلى تفضيل الموت على حياة فيها ذل الكبر ومهانة الشيخوخة.

ولعل أكثر النصوص الشعرية التي قدمناها في هذه الفقرة قد عبّرت عن الحالة التي ألمحنا إليها، علاوة على ذلك مانجده لدى زهير بن أبي سلمى من ملل من الحياة، وازدياد سأمه من تكاليفها وأعبائها، على الرغم من أنه لم يعيش فيها سوى ثمانين عاماً<sup>(١٢٢)</sup>:

سَمِئْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعْشُ ثَمَانِينَ حَوْلًا، لَا أَبَالِكَ، يَسَامُ

وكذلك كان الشأن لدى لبيد بن ربيعة حين طال به العمر، وامتد به الأجل، وكثر سؤال الناس عن حاله في شيخوخته<sup>(١٢٣)</sup>:

وَلَقَدْ سَمِئْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطَوْلِهَا وَسَوَالِ هَذَا النَّاسِ: كَيْفَ لُبِيدُ؟

وقد أبان عامر بن جُوَيْنٍ في شعره عن سبب يأسه من الحياة وتشاؤمه مما قد تأتي به أيامها، بأن ذلك يرجع إلى إهمال قومه، وإيقانهم له مع النساء في ترحالهم؛ لما هو فيه من ضعف وعجز بلغا به مبلغاً جعله يطرد الكلاب التي تأوى إلى ظل جملة من الحر، وذلك خشية أن ينفر به فلا يستطيع أن يملك رأسه، ويمسك بزمامه<sup>(١٢٤)</sup>:

مَاذَا أَرْجِي مِنَ الْحَيَاةِ إِذَا خَلَقْتُ وَسَطَ الظَّعَانِ الْأَوَّلِ

مَعْتَرًا أَطْرَدَ الْكِلَابَ عَنِ الظِّلِّ إِذَا مَادَتُونُ لِلْجَمَلِ<sup>(١٢٥)</sup>

وهذه الحالة ذاتها هي التي دفعت بزهير بن جَنَابٍ إلى أن يفضل الموت على أن يظل ملازماً للظعائن، لا يقدر أن يركب مع الفرسان وأن ينزل معهم<sup>(١٢٦)</sup>:

فَلَنَمُوتُ خَيْرًا مِنْ حِدَاجِ مُوْطٍ مَعَ الظَّنِّ لَا يَأْتِي الْمَحَلَّ لَحِينِ<sup>(١٢٧)</sup>

وقد توصل بعض الشعراء، إثر ملاقى من متاعب الكبر وأشجانه، إلى ما يشبه

فلسفة فكرية معينة معينة؛ تقرر أنه إذا كانت القوة هي أساس حياة المرء في البداية فإن من الأفضل للمرء أن يموت حين يفقددها على أن يبقى حياً يعاني من آلام الشيخوخة البدنية والنفسية. وذلك مانجد ملامحه واضحة لدى زهير بن جَنَاب عندما قال (١٧٨):

والموتُ خَيْرٌ لِلنَّفْسِ      وَلْيَهْلِكَنَّ وَبِهِ بَقِيَّةُ  
من أن يرى الشيخ البَجَا      لَ، وقد يَهَادَى بِالْعَشِيَّةِ (١٧٩)

ويبدو أن بعض الشعراء كان يحاول أحياناً أن ينظر إلى المستقبل نظرة الأمل والتفاؤل، فيزعم أن روحه مازالت قوية، وأن نفسه مازالت في حداثتها ونشاطها، على الرغم من ضعف الجسم ووهن العظم، كما نتبين ذلك في قول لبيد بن ربيعة (٢٥٠):

فأصبحتُ مثلَ السيفِ غَيْرَ جَفْتِهِ      تَقَادِمُ عَهْدِ الْقَيْنِ وَالتَّصَلُّ قَاطِعُ  
وأعطى شُعْبَةَ بن قُمَيْرِ الطُّهَوِيَّ صورةً ماثلةً عن بقاء النفس فيه قوة، والإرادة لديه ماضية (١٢١):

وعدتُ كَنَصْلِ السَّيْفِ رَثَتْ جَفْوَتُهُ      وأبدانته، وَالتَّصَلُّ غَيْرُ كَلِيلِ  
وذهب شعراء آخرون إلى أنهم لا يزالون في كبرهم يتصفون بالأخلاق الفاضلة، ويقومون بالأعمال المجيدة التي كانوا يقومون بها إبان شبابهم، بل زادوا عليها حكمة استخلصوها من خبرة الأيام وتجاربها، على نحو مايفخر به عَوْف بن عَطِيَّة في قوله (١٢٢):

وقالتُ كَيْفِيَّةً مَنْ جَهْلُهَا      أَشْيَبًا قَدِيمًا وَحُظْمًا مَعَارًا؟  
فما زادني الشَّيْبُ إِلَّا نَدَى      إذا استروحَ المَرْضَعَاتُ الْقَتَارَا (١٢٣)  
أَحْيَى الْخَلِيلَ وَأَعْطَى الْجَزِيلَ      حِيَاءً وَأَفْعَلَ فِيهِ الْيَسَارَا (١٢٤)  
وَأَمْنَعُ جَارِي مِنَ الْمَجْحَفَا      تِ وَالْجَارُ مُمْتَنِعٌ حَيْثُ صَارَا

وشبيه بهذا ما افتخر به مالك بن حَرِيم الهمداني، في شعره، من أنه بعد مشيبه ظل يَأْبَى على نفسه أن يقعد عن حماية قومه، أو أن يغفل عن إكرام الضيف النازل به، أو

أن يخرق حرمة الجوار ويمتنع عن إكرامه<sup>(١٣٥)</sup>. وكذلك كان شأن لبيد بن ربيعة، حين ردّ على من عيّره بالشيب والكبر بأن حاله تلك أتت مما يقاسي من خطوب لا يقوم لها إلا السادة الكرماء العقلاء، ومما يقدمه من أفعال خيرة في أزمان الشدة وأيام المحن<sup>(١٣٦)</sup>.

وإذا كان قد ورد عن بعض العرب أنهم كانوا يحبون شيوخهم فإن ذلك لم يكن سائداً بينهم جميعاً، وإنما كان العرب عامة يحمدون آراء الشيوخ ويرفعون من مكانتهم، لما مرّ عليهم من التجارب التي عرفوا بها عواقب الأمور، ولما طرأ عليهم من الحوادث التي أوضحت لهم طريق الصواب، ولما منحوا من أصالة الرأي وصواب الحكمة<sup>(١٣٧)</sup>. ولعل حجب بعضهم للشيوخ إنما كان يتم عند عجزهم عجزاً تاماً، يجعلهم يفقدون القدرة على الحركة، ويضعفون عن المحاكمة السليمة وإبداء الرأي الصائب.

بيد أننا في كلامنا على المشيب والكبر قد اهتمنا اهتماماً زائداً بما عبّر به الشعراء أنفسهم عن الأحاسيس والمشاعر في دينك العهدين، وكانت الصورة، لدى معظمهم، تنبئ بكرههم للشيب والكبر والشيخوخة كرهاً واضحاً، ظهر في نفورهم من المشيب، وفي محاولتهم إبعاد هواجس الشيخوخة عن أفكارهم، كما برز لدى المعمرين منهم خاصة في معاناتهم معاناة شديدة من وطأة الشيخوخة وما تجره عليهم من مظاهر العجز ومجافاة الأهل.

وذلك كله قد نتج لديهم من تجارب ذاتية، ومن معاناة شعورية، كانوا يصدرون فيها عن رؤيتهم الشخصية الخاصة بتلك المرحلة من العمر؛ ولعل هذا ما جعل تلك الرؤية صادقة في التعبير عن ذوات أصحابها، وواقعية في تصوير أحاسيسهم وانفعالاتهم. وأغلب الظن أن الأغراض الشعرية الأخرى اقتدت، في معظمها، رؤية مشابهة، ذلك لأنها كشفت عن أغوار الإنسان العربي في موقفه من زمنه الضيق، وجلّت أبعاده النفسية حيال النهاية المرتقبة، وفي الوقت نفسه لم تغفل عن إظهار أثر البيئة التي عاش فيها، وأثر المجتمع الذي امتد به الأجل بين ظهرانيه.

## الحواشي والتعليقات

- (١) الديوان: ص ٣١٥ .
- (٢) الجبّة: حديدة السنان الذي يدخل فيها الرمح . تثقيب الرماح: تسويتها وإصلاح سنانها وتحديدتها .
- (٣) الكتيف: الضبّة، وهي من أدوات الحدادة والصياغة .
- (٤) الذكيف: مشي في خطو متقارب قصير .
- (٥) أساس البلاغة: مادة (فتي)، ولسان العرب: مادة (فتا)، والقاموس المحيط: مادة (فتاء) .
- (٦) شرح القصائد العشر: ص ١٢٣ - ١٢٥ .
- (٧) قصائد جاهلية نادرة: ص ٨٩ - ٩٠ .
- (٨) صهبا: شقراء . والحرس: اللثّ .
- (٩) عانية: خمر منسوبة إلى عانة، وهي قرية على الفرات في العراق، وقيل موضع بالجزيرة .
- (١٠) المناجد: المقاتل . وطعنة خلس: أي طعنة سريعة بهلج .
- (١١) اللّمس: جمع لسماء، من "اللّمس"، وهو لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلاً .
- (١٢) العنّس: الناقة الصلبة . والبيّنة: هنا، الناقة أبلاها السفر .
- (١٣) مجالس ثعلب: ٢٩٥/١، والأُمالي: ١٧٠/٢، وورد فيه أن اسم الشاعر سلّميّ ابن غويّة ابن سلّميّ .
- وعوية أو غويّة بن سلّميّ أبو الشاعر، ورد أنه من ضبّة من بني ثعلبة، شاعر جاهلي . انظر معجم الشعراء: ص ١٥٧ .
- (١٤) الإرشاق: إحداد النظر .
- (١٥) أي وطراد خيل خيلاً مثلها التقتا في الحرب .
- (١٦) الديوان: ص ٦٧ - ٧٣ .
- (١٧) الديوان: ص ١٣ - ١٤ .
- (١٨) شرح القصائد العشر: ص ٤٢٨ - ٤٣٠ .
- (١٩) الاختصاران: ص ٢١١ - ٢١٥، والطرائف الأدبية: ص ٧٢ - ٧٥ مع بعض الاختلاف في رواية الأبيات . وعمر بن قيس من بني غطّيف، من مراد، شاعر جاهلي . انظر معجم الشعراء: ص ٥٩، والاشتقاق ص ٤١٣ .
- (٢٠) استنبت: طلّبت، والظباء تُستسى، أي تُطلب وتُرمى نصف النهار .
- (٢١) يقول: إذا رأيت قوماً مجتمعين على زق دخلت معهم .
- (٢٢) الشكّة: السلاح . والأفق: الشديد المؤثّق .

- (٢٣) المحاجر: جمع الحجر، وهو مادار بالعين من جميع الجوانب، وأراد: مهاة سوداء المحاجر .
- (٢٤) التامور: شيء يثقبه بالحر والدم وبالصيغ، وإنما يعني دمًا هراقه. وحبة: يقال: حبة نفسه أي حاجتها .
- (٢٥) قيل: إنه هجا ملكًا، لم يهجه أحد، فكأنه أكل لحمه .
- (٢٦) البرك: القطعة من الإبل. المشرقي: السيف. العقر: حيث تقع أيدي الإبل على الحوض يقول: خاف أن تبرك فبادرها فرماها .
- (٢٧) شرح القصائد العشر: ص ١٣٠ .
- (٢٨) الديوان: ص ١٩٩ .
- (٢٩) القود: الشابة المنعمة . يستمي: يطلب. والقهم: الأحوال، مفردها: قحمة .
- (٣٠) لقحت الحرب: اشتدت. وأعلى: يقال: أعلى عن الدابة، إذا نزل عنها. الثمارق: جمع الثمرقة، وهي الوسادة الصغيرة، يتكأ عليها .
- (٣١) الديوان: ص ١٢٣، وانظر قطعة شعرية في المعنى ذاته: ص ١١٣ .
- (٣٢) الديوان: ٤٨ - ٥٠ .
- (٣٣) الأمم: العظيم والصغير، من الأضداد، وهنا الصغير .
- (٣٤) الميئة: من الشباب ومن كل شيء، أوله. والعصم: جمع الأعصم، وهو الوعل .
- (٣٥) الرط: جمع الرطة، وهي الملاة. والتجار: جمع تاجر، والعرب تسمي بائع الخمر تاجرًا . واللمم: جمع اللمة، وهي الشعر المجاوز شحمة الأذن .
- (٣٦) شرح أشعار الهذليين: ١٠٦٩/٣ - ١٠٧٠، وورد فيه أن اسم الشاعر عامر بن الحليّس، أحد بني سعد بن هذيل، واكتفى ابن قتيبة بأنه عامر بن الحليّس شاعر جاهلي، الشعر والشعراء: ٦٧٠/٢ .
- (٣٧) القذال: ما بين الأذنين والقفا. والهيصل: الجماعة من الناس يغزي بهم. ومرس: ذو شدة .
- (٣٨) لفتت بهم: كنت رئيسًا عليهم. ومحلل: يقول: كان عليهم نذر فأحلوه .
- (٣٩) يغل سيف لم يسئل: كثر بذلك عن هزيمتهم واندحارهم .
- (٤٠) النوادر في اللغة: ص ٤٤ .
- (٤١) ملأه: قليلاً. شبارق: مقطع .
- (٤٢) اجتوت: كرهت. اللكات: جمع اللدة، وهو الذي ولد معك وترى معك. والفرائق: جمع الفرثوق، وهو الشاب الأبيض الجميل .
- (٤٣) الديوان: ص ٩٠ - ٩٤ .
- (٤٤) اليعاقب: جمع يعقوب، وهو الحجل. وقيل إنه العقاب .
- (٤٥) التأويب: الإمعان في السير، والتأويب: الرجوع أيضاً .
- (٤٦) الحماسة: ١٠٠٩/٣، وذكر ابن دريد أن مسحاج بن سباع من ضبة، وأنه كان من المعمرين، الاشتقاق: ص ١٩٦ .

(٤٧) الديوان: ص ٣٤ .

(٤٨) الشعر والشعراء: ١٠٥/١، والأبيات مع بعض الاختلاف في الرواية في المعمرين والوصايا: ص ١٢٤.

وقد نسبها السجستاني إلى مالك بن المنذر البجلي. ووردت أيضاً في أمالي المرتضى: ٢٣٢/١. وقد ذكر ابن قتيبة في المصدر الأول أن الحارث بن كعب كان قديماً ويعُدُّ من أوائل الشعراء .

(٤٩) الديوان: ص ٣٩ - ٤٠. ونسبت الأبيات في مجالس ثعلب: ٢٩٦/١ إلى سلمى بن عوية، وفي الأمالي: ١٧٠/٢ إلى سلمى بن عوية .

(٥٠) الثَّرم: انكسار السن من أصلها، وذلك من أمارات الكبر .

(٥١) أدلّني: صيرني أدلف، أي أمشي وريدا .

(٥٢) شرح أشعار الهذليين: ١١٢٢/٣ .

(٥٣) النجيس: الناجس، وهو الذي لا يكاد يبرأ من الأمراض. والقَحَم: جمع القَحْمة، وهي المهلكة، أي إذا اقتحم قَحْمة لم يبطش .

(٥٤) الديوان: ص ١٠٠ - ١٠٤ .

(٥٥) السواد الخالي: الماضي، أو الخالي من الشيب .

(٥٦) المفضليات: ص ٤٨٤ .

(٥٧) الحظيطة: أصلها أرض لم تقطر بين أرضين مطورتين، شبه صلعته بها لأنه لابت فيها واستكن: استتر، والصَّوَاب: جمع الصَّوَابَة، وهي بيضة القمل أو صفاره، وقد صَبَّ رأسه كثر صَوَابُه .

(٥٨) لم يُمِّمْ عنها غرابُها: شبه سواد شعره بالغراب، أراد أن شعره كان أسود دائماً .

(٥٩) المفضليات: ص ١٠٢، وطبقات فحول الشعراء: ٣٣/١، مع بعض الاختلاف في الرواية .

(٦٠) الديوان (الطرائف الأدبية) : ص ١١ - ١٢ .

(٦١) القَرَع: جمع القَرَعَة، قطع من السحاب صفار متفرقة، وأن يُحلق رأس الصبي وتترك مواضع منه متفرقة تشبيهاً بقرَع السحاب. والشَّوَاة: جلدة الرأس .

(٦٢) الإل: جمع آلَة، وهي الحربة. والمَدْيَة: جمع مَدْيَة. وهي الشفرة، والضمير يعود على الدهر. واختلى: جَزُ، يقال اختلى النبات إذا جَزُ، والضمير يعود على القوى. والشَّفار: جمع الشَّفْرة .

(٦٣) الظَّف: الهَدَر، وكذلك الجُبار .

(٦٤) الديوان: ص ١٧١ .

(٦٥) يقول: قد بليَ بدني، ونفسي في حِدَّتْها وعزَّتْها كالسيف .

(٦٦) الديوان: ص ١١٤ .

(٦٧) الهَدَج: تدارك الخطو. والرَّآل: فرخ النعام .

(٦٨) الديوان: ص ١٥ .

(٦٩) الرَّجِيم: المرحوم، ورجمه: رماء بالحجارة، وقتله، أو لعنه وطرده. ورب المتن: صروف الدهر وتقليه ومصائبه .

(٧٠) الديوان: ص ٢٢٧، وانظر له شعراً آخر في المعنى نفسه: ص ١٥-١٦ و ص ٢٧، و ص ٤٥ .

(٧١) بُرْقَة أَتَقَد : موضع .

(٧٢) أتبع ظلها : يقال: "هو يتبع ظل لُمته، ويباري ظلُّ رأسه: إذا ختال. والدَّ والدُن: اللهو واللعب. وقَعُودٌ غَوَايَة أي قاعداً في الغواية .

(٧٣) يلمونني: يَظْلِمُونَنِي. واجتري: أتقاضى. ووَقَدَ: صَرَخَ: أراد أن النساء كُنَّ يظلمنه حقه نهاراً، ولا يقبلن أداؤه إلا ليلاً بعد نوم الناس .

(٧٤) الديوان: ص ٣١، ونسبت الأبيات إلى معاوية بن مالك في المفضليات: ص ٦٩٧.

(٧٥) الصَّيَاب: جمع الصَّائِب .

(٧٦) الكَعَاب: الجارية التي كَعَبَ ثَدْيُهَا ونَهَدَ .

(٧٧) الديوان: ص ٤٥ .

(٧٨) القُرُوب: جمع غُرْب، وهو الذكو العظيمة. والوكيف: انهماك الدمع .

(٧٩) الجفار: موضع بالبصرة .

(٨٠) الألة: الحالة والشدة والتَّجَار: قصد بهم تجار الحمير .

(٨١) المُسْتَرَاة: المختارة، من استريت الشيء إذا اخترت سركته وأحسنه .

(٨٢) الديوان: ص ١٢٤ - ١٣٥ .

(٨٣) المعادل: جمع المعدل، وهو كل ما عدل فيه عن القصد .

(٨٤) شرح أشعار الهذليين: ١٠٧٠/٣ - ١٠٨٠ .

(٨٥) الحُنْدَب: جمع الأخدب، وهو الأهرج الذي يركب رأسه فلا يرده شيء. ولِدَات: جمع لدة، وهو المقارب لك في السن. والوَخْش: النذل من كل شيء. والسُّخْل: الضعاف، من سَخِلَ الرجل إذا عابه وضعفه .

(٨٦) المِخْشَم: الذي يغشم الناس والمُهَبَّل : الكثير اللحم .

(٨٧) تُغْلَى : تُعْلَى. ومُقْلَل: أي بكل سيف جعلت له قُلَّة .

(٨٨) رِبَاتٌ: أي كتبت ربيعة لهم وحمَّ الظهيرة : معظمتها .

(٨٩) مُشْرِقة القنائل: أراد هضبة لها عنق مشرف. المجدك : القصر .

(٩٠) الكالي: الرقيب. السماك الأعزل: نجم في السماء وهما سِماكان. أي ظل ساهرا حتى ظهر السِّماك ونام الرقيبان .

(٩١) السُّنَاخَة: الوسخ والريح الممتنة، أي دخلت بيتا طيب الريح. المعرل: المدل عليه، وعرَّكت عليه: أدلَّت عليه .

(٩٢) انظر شعره في الأغاني: ١٠٤/٢٢ .

(٩٣) انظر ديوانه : ص ٨٣ .

(٩٤) طبقات فحول الشعراء: ٣٦-٣٧، وورد فيه أن زهيراً كان قديماً شريفاً اجتمعت عليه قضاة كلها،

ووردت الأبيات مع بعض الاختلاف في الرواية في المعمرين والوصايا: ص ٣٣ . كما وردت الأبيات

ماعدا السادس والسابع مع بعض الاختلاف في الرواية في الأغاني: ٢٢/١٩ .

(٩٥) التحية: الملك أو البقاء .

(٩٦) السلأف: جمع سالف، وهو المتقدم في السير. وطميّة: رأس جبل منيع كان به منزل زهير بن جَناب،

وعليه وقعت النار يوم "خُزَازي" .

(٩٧) البازل: الذي استكمل الثامنة من الإبل وطعن في التاسعة. والوجناء: الناقة الغليظة الصلبة. والولية:

البردة التي توضع على متن الناقة .

(٩٨) الطرفان: أراد بهما العنق ورؤوس الوركين. ولم يغمز: لم يطلع في مشيته. والشطبة: إبرة من العظم

في وظيف الفرس .

(٩٩) القنان: جبل لبني أسد. والقفية: موضع. وقيل أراد بعمر القنان أسرى الحرب .

(١٠٠) الديوان: ص ٤٤ - ٤٥ .

(١٠١) عذار اللجام: ماتدلى منه على وجه الفرس .

(١٠٢) الزبر: السلاح. والكهام: من الرجال الثقيل السن الذي لاغناء عنده .

(١٠٣) الديوان: ص ٣٣ - ٣٤ .

(١٠٤) المناغاة: المغازلة والمكاملة. وأراد أن القمر دانه بضوئه فلم يره لضعف بصره، فأحل السمع محل

البصر، فظن القمر يحدته، وعجز عن كلا الأمرين .

(١٠٥) البراجم: جمع البرجمة، وهي المفصل الظاهر أو الباطن من الأصابع. ولعله أراد أنه لم يعد يستطيع أن

ينهض مودعاً من ينزل به من الناس .

(١٠٦) المعمرين والوصايا : ص ٥٣ .

(١٠٧) المصدر نفسه: ص ٩٩، وورد فيه أن الحارث بن التوأم عاش دهرًا في الجاهلية ثم أدرك الإسلام، وهو

لا يعقل. و وردت الأبيات مع بعض الاختلاف في الرواية والاكْتفاء بنسبتها إلى رجل من يشكر، في

الاختيارين: ص ١٣٨ .

(١٠٨) يُضاف: زَيْنٌ، ويَصْنَعُ، ويُجَلِّي. والمقرنّشع: المنتصب النشيط. واستزمرّ: تصاغر وتقلص .

(١٠٩) الأغاني: ٢٥/١٠ - ٢٦ .

(١١٠) الرئية: الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها. والقوقة: مكان الوتر من السهم.

(١١١) المنتصف : الوسط .



- (١١٢) الحَرْبُ: ذكر الجُبَّاري، وهو طائر. والخصِر: البارد، ولا معنى لها هنا، وفي الحاشية من ص ٢٦ ذكر المحقق أنها ربما كانت "قَصْر" من قولهم: ليث هصور .
- (١١٣) المِرَّة: قوة الخلق وشدته، جمعها مِرَر .
- (١١٤) انظر شعره في المعمرين والوصايا : ص ٣٠ .
- (١١٥) انظر شعره في المصدر نفسه : ص ٦٥ .
- (١١٦) طبقات فحول الشعراء: ٣٤/١، وورد البيتان الأول والثاني في معجم الشعراء: ص ٢٣، وجاء فيه أن المستورغ اسمه عمرو بن ربيعة من تميم، وهو أحد المعمرين، ومات في صدر الإسلام .
- (١١٧) ندأيا: أراد: ندأ فقلب الهمزة ياء .
- (١١٨) العظايا: جمع عَظَايَة، وهي السُّحْلِيَّة، وأراد أن بني بنيه يفعلون به فعل الهَزّ في احتراش العظاء وصيدها، يأتيها من هنا وهنا، ويمسكها مرة ويرسلها أخرى .
- (١١٩) الذئبان: السم النافع القاتل. ملأيا: ملأ .
- (١٢٠) ذيل الأمالي والنوادر : ص ٢١٥ .
- (١٢١) المعمرُونَ والوصايا : ص ٩٤، والأغاني : ٢٥/١٠ .
- (١٢٢) شرح القصائد العشر : ص ١٩٧ .
- (١٢٣) الديوان : ص ٣٥ .
- (١٢٤) المعاني الكبير : ١٢١٣/٣، والمعمرُونَ والوصايا: ص ٥٣، مع بعض الاختلاف في رواية البيتين .
- (١٢٥) مُعْتَنَزٌ: يقال: اعتنز الرجل، إذا وقف ناحية. وقيل: المُعْتَنَزُ هو المتوسّ على عَنَزَة، وهي العكازة .
- (١٢٦) المعمرُونَ والوصايا: ص ٣٤، والأغاني: ١٥/١٩ وأمالي المرتضى : ١/ ٢٤٠ .
- (١٢٧) الحِدَج: مركب للنساء كالمحفة، والحداجة، لفة فيه .
- (١٢٨) طبقات فحول الشعراء: ٣٨/١، والمعمرُونَ والوصايا: ص ٣٣ .
- (١٢٩) الشيخ البَجَال: أراد: شيخًا بَجَالًا، والبَجَال والبَجَل: السيد له هيئة وسن. ويُهَادِي: يُهْدَى، أي يحفون به ويستندونه حتى يؤوب إلى مثواه .
- (١٣٠) الديوان: ص ١٧١ .
- (١٣١) المؤتلف والمختلف: ص ٢١٠ - ٢١١، وورد فيه أن الشاعر جاهلي أدرك الإسلام.
- (١٣٢) المفضليات: ص ٨٣٨ - ٨٣٩ .
- (١٣٣) اسْتَرْوَحَ: تشم. القطار : ريح الشواء .
- (١٣٤) أفعل فيه اليَسَار: أي أياسر فيه ولا أعاسر .
- (١٣٥) الأصمعيات: ص ٦٤ .
- (١٣٦) الديوان: ص ٥٨ - ٦٤ .
- (١٣٧) نهاية الأرب : ٧٤/٦ .

- الاختياران: للأخفش الأصغر (ت ٣١٥هـ)، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ط. دمشق ١٩٧٤م .
- أساس البلاغة: للزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، ط. بيروت ١٩٦٠م .
- الاشتقاق: لابن دريد (ت ٣٢١هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، ط. القاهرة ١٩٥٨م.
- الأصمعيات: للأصمعي (ت ٢١٦هـ)، تحقيق محمد أحمد شاكر، عبد السلام هارون، ط. مصر ١٩٦٧م .
- الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، من ١-١٣، ط. دار الكتب المصرية من ١٩٢٧م حتى ١٩٥٠م. ومن ١٧-٢٤، ط. الهيئة العامة للكتاب من ١٩٧٠م حتى ١٩٧٤م .
- الأمالي: لأبي علي الفالي (ت ٣٥٦هـ)، ط. دار الكتب المصرية ١٩٢٦م .
- أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد): للشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. بيروت ١٩٦٧م .
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك): للطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. القاهرة ١٩٦٠م .
- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم): لابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، ط. مصر، بلا تاريخ .
- الحماسة: لأبي تمام، شرح المرزوقي (ت ٤٢١هـ)، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط. القاهرة ١٩٥١م .
- الحماسة: لأبي تمام، شرح التبريزي (ت ٥٠٢هـ)، ط. بولاق ١٢٩٦هـ .
- خزانة الأدب: للبغدادي، أربعة أجزاء، تحقيق عبد السلام هارون، ط. القاهرة ١٩٦٧م .
- ديوان الأعشى الكبير: تحقيق محمد محمد حسين، ط. القاهرة ١٩٦٠م .
- ديوان أوس بن حجر: تحقيق محمد يوسف نجم، ط. بيروت ١٩٦٠م .
- ديوان بشر بن أبي خازم: تحقيق عزة حسن، ط. دمشق ١٩٧٢م .
- ديوان تميم بن مقبل: تحقيق عزة حسن، ط. دمشق ١٩٦٢م .
- ديوان حاتم الطائي: ط. بيروت ١٩٦٣م .
- ديوان حسان بن ثابت: تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، ط. مصر ١٩٢٩م .
- ديوان ذي الأصبح العدواني: تحقيق العدواني والدليمي، ط. الموصل ١٩٧٣م .

- ديوان زهير بن أبي سلمى: شرح ثعلب (ت ٢٩١هـ)، ط. القاهرة ١٩٦٤م.
- ديوان سلامة بن جندل: تحقيق د. فخر الدين قباوة، ط. حلب ١٩٦٨م.
- ديوان عبيد بن الأبرص: تحقيق د. حسين نصار، ط. مصر ١٩٥٧م.
- ديوان عدي بن زيد العبادي: تحقيق محمد جبار المعبيد، ط. بغداد ١٩٦٥م.
- ديوان عروة بن الورد: شرح ابن السكيت (ت ٢٤٤هـ)، تحقيق عبد المعين الملوحي، ط. دمشق ١٩٦٦م.
- ديوان علقمة الفحل: شرح الأعلام الشنتمري (ت ٤٧٦هـ)، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب، ط. حلب ١٩٦٩م.
- ديوان عمرو بن قميئة: د. حسن كامل الصيرفي، ط. المخطوطات العربية ١٩٦٥م.
- ديوان قيس بن الخطيم: تحقيق د. ناصر الدين الأسد، ط. القاهرة ١٩٦٢م.



بمناسبة اليوم الوطني للمملكة ..

# استرداد الرياض .. عدة المقاتلين وصحة أسمائهم

مصطفى أمين جاهين

اطلعت على الوثيقة التاريخية المهمة التي نشرتها مجلة "الدارة" في عددها الرابع للسنة الثامنة والصادر في شهر رجب عام ١٤٠٣هـ (أبريل «نيسان» ١٩٨٣م). وأسعدني قراءة المقدمة



الافتتاحية التي قدم بها سعادة الأديب محمد حسين زيدان (رئيس التحرير) لهذه الوثيقة بأسلوبه الشيق، ذي العبارات الجذابة المتدفقة، والمعبرة بالحماسة الشاعرية عما يجيش به صدره من رغبة صادقة في المحافظة على تراث المملكة العربية السعودية الحبيبة، قبله المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وبين جنباتها بيت الله الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا، والحرم النبوي الشريف.



وإذا كان نشر هذه الوثيقة التي تشتمل على أسماء الرجال السبعة والأربعين الذين رافقوا الإمام البطل السلطان الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود في معركة البطولة والفخار لاسترجاع الحقوق المغتصبة، ورفع الظلم والبطش عن الأهل والأنصار في الوطن، واستعادة الرياض قاعدة هذا الكيان الشاهق "المملكة العربية السعودية"، وحفظاً للوثائق التاريخية، فإن هذه الوثيقة تعدُّ في المقام الأول صوتاً للتراث، ولكي لا تندثر تلك الحقائق عبر الأيام وحتى لا تنقطع الوصل، وتجهل الدول، وتموت في أيام الآخر ذكر الأول.

وإذا كان هؤلاء الرجال قلة في العدد والعدة، إلا أنهم كثرة في المدد والقوة، يستمدون من قوة إيمانهم بالله وبتطبيق مبادئ الشريعة الغراء مدداً يطلبون به النصر من الله حماية للعقيدة، واسترجاعاً لحق مسلوب، ورفع الغبن عن أعناق تنسجت عبير الحرية، ولهم من الاعتماد على الله،

وبعزيمة الرجال إرادة صلبة وقوة دافعة للنصر، وخط سطور مضيئة على صفحات البطولة وإشراقة أمل في تاريخنا الحديث.

وقد دفعتني أحداث استرجاع الرياض إلى الاستغراق بين جنباتها، والرجوع إلى الماضي البعيد القريب، البعيد في عمق التاريخ، والقريب إلى الأذهان والعقول، لأجذني أردد في نفسي عجباً...!!

ما أشبه الليلة بالبارحة، عندما أعود بذاكرة التاريخ عدة قرون إلى الوراء، وأتذكر عبد الرحمن بن معاوية "الداخل" الذي يتمكن سنة ١٣٨هـ من إعادة حلقة صلبة من الدولة الأموية في بلاد الأندلس ("إسبانية والبرتغال حالياً") دون أن يكون معه رجال ولا سلاح ولا مال، وهي مقومات قيام الدولة، وبعد أن عاش شريداً في بلاد المغرب مطارداً من ولاية الدولة العباسية، ومع ذلك يتمكن بالعزيمة والإرادة من إحياء الدولة الأموية في الأندلس لتستمر منذ ذلك التاريخ وحتى سنة ٤٢٢هـ، وهذا مما دفع الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور لأن يطلق عليه «صقر قریش» - على حين أننا نجد الإمام البطل السلطان الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، يقوم باسترجاع الرياض في الخامس من شوال سنة ١٣١٩هـ (١٦ يناير (كانون الثاني) ١٩٠٢م) ويقيم المملكة العربية السعودية صرحاً شاهقاً للإسلام والمسلمين في ظروف مشابهة، مما جعله يستحق بجدارة أن يلقب "صقر الجزيرة" ويشعرنا بالتاريخ الحافل بالمفاخر الجليلة والبطولات الفذة التي ارتقت في روحها درجات المجد والرفعة.

وما أحوجنا اليوم إلى التعمق في دراسة هذه الفترة المشرقة من تاريخ المملكة العربية السعودية، بالبحث والتقصي سعياً وراء أحداثها، والتعرف على الملابس التي صاحبت تلك الأحداث، ولتكون الصورة واضحة أمام الأجيال المقبلة، بدقة البحث المتأنى والدراسة الأكاديمية التي تربط

الأحداث بأسلوب تاريخي مدعوم بالوثائق التاريخية.

فمن الحقائق الجلية أن المملكة العربية السعودية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمشاعر الشعوب الإسلامية والعربية مهما تباينت اتجاهاتها، وتباعدت ديارها، فهي الحاوية بين جنباتها لأقدس مقدسات المسلمين، وأن ملوك هذه المملكة هم حماة الحرم والكعبة المشرفة، والحراس الأمانة للحضرة النبوية الشريفة وأن رحاب مملكتهم هي الوطن الروحي لنسك المسلمين وحجهم.

ومن الملاحظات العابرة على ماكتب عن هؤلاء الرجال الذين رافقوا الإمام السلطان الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود في معركة تأصيل الكرامة والنجدة العربية باستعادة الرياض، تعددت الروايات حول عدد هؤلاء الرجال فقد ذكر في مجلة «الدارة» أن عددهم سبعة وأربعون<sup>(١)</sup> وزيادة في الدقة يشير الأستاذ محمد حسين زيدان إلى أهم أحداث بعضهم مع ذكر سنة وفاته أو استشهاده، «كلما أمكن»؛ على حين يذكر الأستاذ عبد الله العلي المنصور الزامل<sup>(٢)</sup> أن عددهم اثنان وأربعون ويورد أسماءهم، كما أشار<sup>(٣)</sup> إلى أنه كانه مرافقاً لجلالة الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود بالشنطة اللاسلكية سنة ١٣٥١هـ، وقد استمع إلى أحاديث الذكريات التي يتطرق إليها جلالتة مع رجال حاشيته، وحصل على الكثير من المعلومات عن طريق الرجال المعاصرين لتلك الأحداث، وتحري الدقة والصحة في ذكر تلك الأسماء، وأشار أيضاً إلى أن الأمير سعود بن هذلول قد ذكر هؤلاء الأبطال في كتابة تاريخ ملوك آل سعود الذي طبع عام ١٣٨٠هـ.

كما دونت أسماء هؤلاء الأبطال في كتاب التاريخ "لصف الثالث المتوسط" وعددهم ستون بطلاً، ويشير المؤلف إلى أن مرجعه في ذكر هذه الأسماء هو صاحب المعالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ «طيب الله

ثراه» وقد سمعها عن عمه الشيخ محمد بن عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ، رحمه الله، قبل وفاته بعامين في الطائف وكتبها عنه<sup>(٤)</sup>.

ويذكر الدكتور إبراهيم جمعة في «الأطلس التاريخي للدولة السعودية» عن هؤلاء الرجال أن عددهم أربعون رجلاً، ثم عاد وألقى الضوء على اختلاف التقديرات حول عددهم، حيث ذكر أنهم كانوا أربعين رجلاً عند خروجهم من الكويت متوجهين إلى الرياض في أوائل شعبان سنة ١٣١٩هـ (١٩٠١م)، ثم تزايد العدد حتى وصل إلى الستين رجلاً عندما قصدوا الرياض، دون أن يحدد الأسماء<sup>(٥)</sup>.

وجرياً وراء البحث والمقارنة للتعرف على هؤلاء الأبطال، قمت بعمل جدول مقارن لمن ورد ذكر أسمائهم في المراجع الثلاثة الأول، حتى يمكن التعرف بوضوح على الفروق فيما بينهم، واتخذت مما نشر في مجلة الدارة أساساً للمقارنة في الجدول. المرفق، كما أوضحت فيه من ذكرت أسماؤهم بالزيادة في نهاية جدول المقارنة أمام كتاب الصف الثالث المتوسط" وهو الأكثر في ذكر الأعداد" حتى تتضح الصورة.

وكم نحن بحاجة إلى جهود الباحثين في الكتابة عن هذه الفترة التي يشرف بها تاريخنا، راجياً أن يكون في نشر هذه الملحة البطولية حافزاً للدارسين والباحثين والمعنيين بالبحوث التاريخية، لعمل تراجم لهؤلاء الرجال، خاصة وأنها تمس مشاعرنا وترتبط ارتباطاً وثيقاً بوجودنا، وحتى تتضح الجهود البطولية الرائعة التي بذلها الملك عبد العزيز ورفاقه الأبطال الميامين لإقامة هذا الصرح الشاهق والكيان الكبير" المملكة العربية السعودية وملوك هذه الديار الحبيبة، حماة الحرمين الشريفين، وفقهم الله لما فيه خير البلاد والعباد.

والله نسأل أن يلهمنا التوفيق والسداد.



## جدول يبين أسماء الفائزين لمدينة الرياض صحبة الملك عبد العزيز في الخامس من شوال ١٣١٩هـ

| ١ - المنشورة في مجلة الدارة  | ٢ - المنشورة في كتاب الزامل  | ٣ - المنشورة في كتاب الصف الثالث المتوسط  |
|--|--|---|
| الأمير محمد بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود<br>(توفي بالرياض عام ١٣٦٤هـ)<br>الأمير فهد بن جلوي بن تركي آل سعود<br>الأمير عبد العزيز جلوي بن تركي آل سعود (قتله<br>ابن عجلان صبوا في معقلا الماء المعروف بين<br>الرياض والكويت عام ١٣٢٤هـ)<br>الأمير عبدالله بن جلوي بن تركي آل سعود (توفي<br>بالأحساء عام ١٣٥٤هـ)<br>الأمير عبد العزيز بن مساعد بن جلوي بن تركي آل<br>سعود (توفي عام ١٣٩٧هـ، وهو آخر من توفي<br>من المرافقين)<br>الأمير عبد العزيز بن عبد الله بن تركي آل سعود<br>(توفي عام ١٣٥٦هـ بالأحساء)<br>الأمير فهد بن إبراهيم بن شاري آل سعود (قتل<br>في وقعة البكيرية عام ١٣٢٢هـ)<br>الأمير عبدالله بن سعود بن حنينان آل سعود .<br>الأمير ناصر بن سعود بن فرحان آل سعود<br>الأمير سعود بن ناصر بن فرحان آل سعود<br>فهد بن عبد العزيز بن عمر (من كبار المعامرة اهل<br>سدوس، قتل عام ١٣٤٠هـ بالقرب من حائل)<br>صالح بن سيمان (من أهل الرياض، جرح وقت<br>استعادة المصبك والرياض)<br>سعيد بن بيشان (من أهل الدرعية) | محمد بن عبد الرحمن الفيصل<br>فهد بن جلوي<br>عبد العزيز بن جلوي<br>عبد الله بن جلوي<br>عبد العزيز مساعد بن جلوي<br>عبد العزيز بن عبد الله<br>ابن تركي<br>فهد بن إبراهيم المشاري<br>عبد الله بن حنينان<br>ناصر بن سعود بن فرحان<br>سعود بن ناصر بن فرحان<br>فهد بن مصر<br>صالح بن سيمان<br>سعيد بن بيشان | محمد بن عبد الرحمن آل فيصل<br>فهد بن جلوي<br>(غير مذكور)<br>عبد الله بن جلوي<br>عبد العزيز بن مساعد بن جلوي<br>عبد العزيز بن عبد الله<br>بن تركي آل سعود<br>فهد بن إبراهيم بن مشاري آل<br>سعود .<br>عبد الله بن حنينان آل سعود<br>ناصر بن فرحان آل سعود<br>سعود بن ناصر بن فرحان آل سعود<br>(غير مذكور)<br>صالح بن سيمان<br>سعيد بن بيشان الدوسري |

|   |  |  |
|---|--|--|
| مطلق بن عجمان<br>إبراهيم النفيس   | مطلق بن عجمان<br>إبراهيم النفيس                          | مطلق بن عجمان (من أهل الرياض)<br>إبراهيم بن عبد الرحمن النفيس (من أهل الرياض). جرح وقت إستعادة المصمك في الرياض)   |
| سعود آل مبروك<br>سظام أبا الخيل المعرب الدوسري<br>زيد بن زيد (بن عم محمد بن زيد)                | سعود المبروك<br>سظام أبا الخيل المطيري<br>زيد بن زيد     | مسعود آل مبروك (من أهل الرياض)<br>سظام أبا الخيل (من قبيلة الجبلان مطير)<br>زيد بن محمد بن زيد من أهل الرياض، قتل وقت أستعادة المصمك والرياض).             |
| فهد بن شعير الدوسري (لاحظ الاختلاف في الاسم)<br>حزام العجاليه الدوسري<br>ثلاث العجاليين الدوسري | فهد بن الوبر الشامي<br>حزام العجاليه الدوسري (غير مذكور) | فهد بن الوبر (من قبيلة العجمان، قتل وقت استعادة المصمك والرياض)<br>حزام بن حزام العجاليه (من أهل الافلاج)<br>ثلاث بن حمد العجالية الدوسري (من أهل الافلاج) |
| عبد الله بن شتار الدوسري<br>عبد الله عسكو الملقب بالسيد   | فلاح بن شتار الدوسري<br>عبد الله بن عسكو                 | عبد الله بن شتار الدوسري (من أهل الافلاج)<br>عبد الله بن عسكو الملقب بالسيد (من أهل الرياض)  |
| معضد بن خريصان الشمري (لاحظ الاختلاف ف الاسم)<br>عبد اللطيف المعشوق                             | معضد بن خريصان الشامي<br>عبد اللطيف المعشوق              | معضد بن خريصان (من أهل شامر آل شايقة العجمان)<br>عبد اللطيف المعشوق الملقب بالشليقي (من أهل الرياض، قتل في البكيرية عام ١٣٢٢هـ، وهو حامل الراية)           |
| فهد المعشوق<br>محمد المعشوق   | فهد المعشوق<br>محمد المعشوق                              | فهد المعشوق ( من أهل الرياض)<br>محمد المعشوق الملقب بالوعيد (من أهل الرياض)  |
| عبيد بن صالح الملقب عوييل (لاحظ الاختلاف في الاسم)  | (غير مذكور)  | عبد الله بن صالح بن شخص الملقب عوييل (من أهل الرياض، قتل في البكيرية عام ١٣٢٢هـ)   |
| يوسف بن شخص   | يوسف بن شخص  | يوسف بن صالح بن شخص أخ عوييل (من أهل الرياض، قتل في البكيرية عام ١٣٢٢هـ)   |
| مسلم بن مجفل السبيعي  | مسلم بن مجفل السبيعي                                     | مسلم بن مجفل السبيعي (من الصحلة سبيح.  |

|   |                                    |   |
|---|------------------------------------|---|
| قتل في وقعة الطرفية عام ١٣٣٥هـ)                 | عبد الله بن عبيد (لم يذكر الزامل)  | سعد بن عبيد الله بن عبيد (من أهل ملهم)  |
| سعد بن عبيد بن عبيد                             | سعد بن عبيد                        | سعد بن عبيد بن عبيد (والده بخيت مولى للأمير تركي ابن الأمام عبد الله ابن فيصل ابن تركي)       |
| عبد الله بن عثمان الهزاني                       | عبد الله الهزاني                   | عبد الله بن عثمان الهزاني (من بنى هزان أهل الحريق)  |
| عبد الله بن جريس                                | عبد الله بن جريس                   | عبد الله بن حسين بن جريس (من أهل الصارية)   |
| ناصر بن شامان                                   | ناصر بن شامان                      | ناصر بن عبد الله بن شامان المليجي (من أهل الصارية)  |
| محمد بن هزاع                                    | محمد بن هزاع                       | محمد بن هزاع (من أهل الدرعية، قتل في البكيرية سنة ١٣٢٢هـ)                                     |
| (غير مذكور)                                     | غير مذكور                          | خليفة بن بديع (من أهل الدرعية)  |
| عبد الله بن خنيزان                              | عبد الله بن خنيزان                 | عبد الله بن خنيزان (من أهل الدرعية)   |
| منصور بن حمزة آل منصور (لاحظ الاختلاف في الاسم) | منصور بن محمد بن حمزة              | منصور بن محمد بن حمزة (من أهل الرياض) (قتل في بلدة ترمدا في سرية مع عبد الله جلوي سنة ١٣٢١هـ) |
| منصور بن فريح (غير مذكور)                       | منصور بن فريح (ذكر فريح وليس فريح) | منصور بن فريح (من موالى الملك عبد العزيز، قتل في البكيرية عام ١٣٢٢هـ)                         |
| غير مذكور                                       | محمد بن شبل                        | محمد بن شبل (من أهل الدرعية)  |
| ماجد بن مرعيد السبيعي                           | (ذكر شبل وليس شبل مطلق)            | مطلق المقريبي   |
| (لاحظ اضافة السبيعي للاسم)                      | المقريبي                           | (من أهل الرياض)   |
| فرحان آل سعود                                   | (ذكر المقريبي وليس المقريبي)       | ماجد بن تركي بن مرعيد (من قبيلة الظفير، وهو خليف للجمال به سبيع)                              |
| فيروز   | ماجد بن مرعيد                      | فرحان آل سعود (من موالى آل سعود)  |
| (ملوك الملك عبد العزيز)                         | فرحان السعود                       | فيروز آل عبد العزيز (من موالى الملك عبد العزيز)   |
| مناور العزي                                     | (ذكر السعود وليس آل سعود)          | مناور العزي (من قبيلة عنزة)   |
| نافع الحربي                                     | فيروز العبد العزيز                 |   |
|   | (لاحظ التحريف في الاسم)            |   |

| (لاحظ الاختلاف في الاسم)  | (غير مذكور) | نافع العربي (من قبيلة حرب) |
|---|-------------|----------------------------|
| أسماء من ذكروا بالزيادة في كتاب<br>الصف الثالث المتوسط عما ورد في<br>الدار: | (غير مذكور) |                            |
| ١ - الملك بعد العزيز  |             |                            |
| ٢ - محمد بن الوبر الشرقي  |             |                            |
| ٣ - طلاب بن عجرش  |             |                            |
| ٤ - سعد بن جيفان  |             |                            |
| ٥ - حشاش العرجاني   |             |                            |
| ٦ - عبد الله أبو ديب السبيعي  |             |                            |
| ٧ - شائع بن شداد بن آل محميد<br>النهول                                      |             |                            |
| ٨ - محمد بن قماع  |             |                            |
| ٩ - عبيد الله الجطيلي   |             |                            |
| ١٠ - إبراهيم بن محذيف   |             |                            |
| ١١ - سالم الأميمج   |             |                            |
| ١٢ - سلطان ملوك الملك عبد العزيز  |             |                            |
| ١٣ - عبد أخو شعوي الدوسري   |             |                            |
| ١٤ - حنرش العرجاني  |             |                            |
| ١٥ - سعد بن هديب  |             |                            |
| ١٦ - مطلق بن جفال   |             |                            |
| ١٧ - زايد اليقني السبيعي  |             |                            |
| ١٨ - مشاور العزي  |             |                            |
| ١٩ - عبد الله بن مرعيد السبيعي  |             |                            |



## الهوامش

- (١) مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة الثامنة، رجب ١٤٠٣هـ/ أبريل ١٩٨٣م، ص ٦: ١٠.
- (٢) عبد الله العلي المنصور الزامل: أصدق البنود في تاريخ عبد العزيز آل سعود، نشر المديرية العامة للأبحاث والناهج والمواد التعليمية بوزارة المعارف، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ص ٥١: ٥٣.
- (٣) كتاب للصف الثالث المتوسط وزارة المعارف، المملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ٢٨٥: ٢٨٦.
- (٤) الدكتور إبراهيم جمعة: الأطلسي التاريخي للدولة السعودية، مطبوعات دار الملك عبد العزيز . الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ١٣٦.

# الميدلاني الأندلسي

أبو العباس النباتي (ابن الرومية)

٥٦١ - ٦٣٧ هـ

الأستاذ فاضل السيامي

١- تمهيد :



عاش « أبو العباس النباتي »، الإشبيلي، في عصر كانت فيه الأندلس تتعرض لضربات متفاقمة من إسبانيا النصرانية؛ وما كان ذلك إلا ليزيد في ازدهار الأدب والعلم والحضارة في تلك البلاد، الثانية، التي تشكل «القوادم» في أحد جناحي العالم الإسلامي الممتد شرقاً وغرباً، وقد تركت لمصيرها إلا من دعم، متفاوت القدر، تتلقاه من القطر الأقرب لها والذي لم يكن يفصلها عنه إلا مضيق جبل طارق، المغرب .

ولد « أحمد بن محمد بن مفرج »، المكنى بـ « أبي العباس »، في إشبيلية سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥م)، والأندلس، نيكاً العهد، جزءاً من دولة الموحدين الفتية، التي تم لها، سنة ٥٤٢ هـ، أن تبسط سلطانها على الغزوتين المغربية والأندلسية، بعد أن تمكنت من تقويض أركان دولة المرابطين وحلت محلها قوة وعظمة، وكان ثالث

أمرائها، يعقوب المنصور، هو قائد المعركة الظافرة «يوم الأراك»، التي وقعت شمالي قرطبة سنة ٥٩١هـ (١١٩٥م) وانتصر فيها على الجيوش الفشتالية، التي يقودها ألفونسو الثامن، انتصاراً كان من شأنه أن مّد في عمر الحقبة العربية في الأندلس أجياًلاً، بل منتين أو ثلاثاً من السنين!

كان أبو العباس أحمد، الأموي بالولاء<sup>(١)</sup>، محدثاً حافظاً ناقدًا، بصيراً بالحديث ورجاله. ولكن كانت له، إلى ذلك، « معرفة بالنبات فاق فيها أهل عصره »، كما قال معاصره ابن الأبار<sup>(٢)</sup>. وقال ابن عبد الملك المراكشي في حقه: هو « إمام أهل المغرب قاطبة في معرفة النبات (...) وعلى الجملة فإنه من حسنات الدهر التي قلما يسمح بمثلها »<sup>(٣)</sup>.

وأجمل، بعد هذين المؤرخين، صاحب « الإحاطة .. » رأيه في هذا العالم الذي دخل غرناطة غير ما مرة « لسماع الحديث وتحقيق النبات، ونقراً<sup>(٤)</sup> عن عيون النبات بجبالها »، فقال إن أبا العباس « كان نسيج وحده، وفريد دهره، وغرة جنسه، إماماً في الحديث (...)، عجيبة نوع الإنسان في عصره، وما قبله وما بعده، في معرفة (النباتات...) على اختلاف أطوار منابتها، بمشرق أو بمغرب، حساً ومشاهدة وتحقيقاً، لا مدافع له في ذلك ولا منازع، حجة لا تُرد ولا تدفع، إليه يسلم في ذلك ويرجع. قام على الصنعتين، لوجود القدر المشترك بينهما، وهما: الحديث والنبات، إذ موادهما الرحلة، والتقييد، وتصحيح الأصول، وتحقيق المشكلات اللفظية، وحفظ الأديان والأبدان ... »<sup>(٥)</sup>.

بعد هذا الثناء العاطر، الذي أغدقه على أبي العباس مؤرخون معاصرون له ولاحقون، يحق لنا أن نتساءل:

ما بال هذا العالم، الجليل الفذّ البقري، بعيداً عن دائرة اهتمام باحثينا المعاصرين، إلا من إشارات إليه مقتضبات، هنا وهناك، يطلقون عليه فيها:

« ابن الرومية »، الكنية التي لم يكن يستسيغها... ثم يُسدلون عليه ستاراً من الصمت صفيحاً؟!

ما ذلك في رأينا، إلا لأن مصنفاته، تلك التي ألفها في كلا الفئتين: الحديث والنبات، قد اندثرت، فلم يُبق لنا يد الحداث منها مصنفًا واحدًا. والذي وصل إلينا عنه لا يعدو كلمات، في بطون الكتب القديمة، طببات، هي على غرار الباقية العطرة التي اقتطفنا .

إلا أن هنالك، لحسن الحظ، نبأ، من علمه ونباته وطبّه، قُيِّض لها أن تنجو من قبضة القناء وتخرق جدار الزمن، فتبلغ علمنا عبر نقول قد اقتبسها منه - وهو بعد في قيد الحياة - تلميذه الأندلسي، النباتي، ضياء الدين «عبدالله بن أحمد» الملقب، المعروف بـ «ابن البيطار» (المتوفى سنة ٦٤٦هـ)، وضمّنها موسوعته الشهيرة: «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»!

## ٢- أبو العباس، العالم الطلعة :

في إشبيلية، المدينة الأندلسية الزاهرة، القرية من شاطئ بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) جنوباً، شبَّ أحمد بن محمد بن مفرج، وتعلّم، وسمع الحديث عن أكابر علماء عصره، وتفقّه طويلاً في مذهب الإمام أنس بن مالك، وأصبح محدثاً حافظاً ناقدًا .

وكان والده «محمد»، وكذلك جدّه «مفرج» من المعنّين بالتطبيب بالنبات، «وكانا قدوة في العلم به»، وعنهما - وخاصة عن جده «أبي الخليل مفرج» - وعن غيرهما، أخذ هذا العلم، حتى غدا، كما يقول ابن عبد الملك: «إمام المغرب قاطبة في معرفة النبات، وتمييز الأعشاب وتحليلاتها<sup>(١)</sup> وعلم منافعها ومضارها، غير مدافع عنه ولا منازع فيه»<sup>(٢)</sup>.

واتخذ لنفسه، في إشبيلية، مكاناً يستقبل فيها الناس: يصغي إليهم، ويطلع على حالتهم، ثم يقدم لهم من الأعشاب والنباتات ما ينفعهم في أمراضهم.



قال ابن الأبار: وقعد أبو العباس النباتي في دكان يبيع العشب، « وهناك رأيته، ولقيته غير مرة »<sup>(٨)</sup>.

وبدا أن حبةً للعلم، ولعله بالكتب، وإقباله على التأليف والنسخ، كان ذلك كله يجعله يستفيد، وهو في دكانه تلك، من كل سائحة تسنح له بالقراءة أو الكتابة أو النسخ... يحدثنا المقرئ، صاحب «نفح الطيب»، أن بعضهم حكى أن أبا العباس النباتي كان في دكانه يبيع الحشائش وينسخ. وذات يوم مرّ به وهو في دكانه، الأمير «أبو عبد الله بن هود» سلطان الأندلس ممطياً جواده، فسلم عليه، فردّ أبو العباس السلام دون أن يرفع إليه رأسه وهو يتابع النسخ! تقول الرواية: إن سلطان الأندلس لبث واقفاً في باب الدكان لحظات مديدة، منتظراً أن يرفع إليه النباتي رأسه... فلما لم يحفل به، ساق فرسه ومضى!<sup>(٩)</sup>

وحبّ أبي العباس للعلم وحرصه على التقصي، كانا يحملانه على التجول في أنحاء الأندلس بحثاً عن المعرفة التي لا ينضب معينها. وقد أورد ابن الخطيب في «الإحاطة» ترجمته - وهو ليس غرناطياً - بين من دخل غرناطة.. فقال إنه «دخلها غير مأمرة، لسماع الحديث وتحقيق النبات»<sup>(١٠)</sup>.

ويقول ابن الأبار إنه، في طلبه العلم، قد جاز البحر إلى العدو المغربية «للقاء ابن عبيد الله بسبته، فلم يتهياً له ذلك». ويشير إلى أن هذه الرحلة قد تمت بعد سنة ٥٨٠هـ... إذن، فقد كان النباتي، يومئذ، شاباً لم يتعدّ العشرينات من عمره!<sup>(١١)</sup>

إلا أن الرحلة الكبرى، المؤثرة، كانت تلك التي قام بها باتجاه الشرق وقد تجاوز الخمسين من عمره. ومثل هذه الرحلات كان ينهض بها ذوو الهمة من علماء الأندلس بقصد الحج ولتحصيل العلوم والمعارف من المشرق الإسلامي الذي ظلّ، في منظومة الثقافة الإسلامية، مهبط الوحي ومنهل

العلم وموئل الحضارة؛ وكثيراً ما كانت الرحلة تتجاوز الأشهر التي يقتضيها السفر وأداء الفريضة لتمتدّ سنين عدداً. وقد استهدف عالمنا أبو العباس في رحلته المشرقية - عدا الحج - غايتين اثنتين: الاستزادة من جمع الحديث، والوقوف على أنواع من النباتات والأعشاب ليس يعرفها الناس في الأندلس.

ويحدثنا صاحب «الذيل والتكملة» أن أبا العباس «رحل إلى المشرق، بنية الحج، عام اثني عشر وستمائة، فأدى فريضته عام ثلاثة عشر، ولُقّب هنالك بـ «مُحِبِّ الدين»<sup>(١٢)</sup>، وأقام في رحلته نحو ثلاثة أعوام. ولقي، في وجهته، من أعلام العلماء الأكابر جملة كبيرة...»<sup>(١٤)</sup>؛ ثم يمضي ابن عبد الملك فيعدد لنا مئتين من هؤلاء العلماء، في المدن التي حلّ بها منذ خروجه من الأندلس، بجاية، وتونس، والإسكندرية، ومصر، والقدس (التي نزل بها في رمضان ٦١٣هـ/كانون الأول ١٢١٦م)، ومكة، ودمشق، وبغداد (التي وصلها يوم الأربعاء غرة صفر ٦١٤هـ/١٠ أيار ١٢١٧م)، والموصل... ومن بين هؤلاء العلماء عالماتٌ كثيرات، أخذ عنهن أبو العباس الحديث<sup>(١٤)</sup>.

وينتهي ابن عبد الملك، بعد سرده كثيراً من أسماء شيوخ أبي العباس في رحلته الكبرى هذه، إلى أنه «قفل إلى بلده برواية واسعة وفوائد جمة، وجلب كتباً نافعة وتصانيف غريبة»<sup>(١٥)</sup>، وهو يعني ماحصله عالمنا في رحلته من رواية الحديث، ويضيف إلى ذلك عناية النباتي - في رحلته هذه المشرقية وفي رحلات له أخرى داخلية - بالنبات - فيقول، بلهجة الاعتزاز، إنه «جال بسببه الكثير حتى وقف على منابته وصوره، ورحل في ذلك إلى جبل غرناطة وغيره من بلاد الأندلس؛ وعان، في وجهته المشرقية، كثيراً مما لا يكون بالمغرب منه [أي النبات]، وفاوض فيه»<sup>(١٦)</sup> هنالك كل من أمكنه ممن يشهد له بالفضل في معرفته؛ ولم يزل باحثاً عن

حقائقه، كاشفاً عن غوامضه، حتى وقف منه على ما لم يقف عليه غيره ممن تقدّم في الملة الإسلامية، فصار أوحّد عصره في ذلك، فرداً لأجاريه أحدّ فيه، بإجماع من أهل هذا الشأن»<sup>(١٧)</sup>.

وكان من حصيلة هذه الرحلة، من الوجهة العلمية، أن أبا العباس ألف كتاباً بعنوان «الرحلة النباتية»<sup>(١٨)</sup> سرعان ما عوّل عليه معاصره ابن البيطار لدى تصنيفه موسوعته «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»، التي أشرنا إليها أعلاه، والتي سنتوقف عندها طويلاً!

### ٣ - النباتي في «طبقات الأطباء» :

ولقد اتفق، في أثناء رحلة أبي العباس إلى الشرق، أن الأقدار كانت تُهيئُ شاباً نابغاً لتعلّم الطب والاستعداد بعد ذلك لكتابة أحسن موسوعة عربية - ونكاد نجزم: أحسن موسوعة عالمية حتى ذلك الوقت - في تاريخ الطب والأطباء: ذلك الرجل هو «أبو العباس أحمد بن القاسم»، الذي شهر في التاريخ بـ «ابن أبي أصيبعة»، والمولود بدمشق سنة ٥٩٦هـ (١٢٠٠م) في أرجح الأقوال. وتردّد، هذا الطبيب الشاب، بين موطنه دمشق وبين القاهرة وقد كان يظّلهما حكم الأيوبيين، وذلك في المدة التي تلت زيارة محب الدين أبي العباس النباتي لهاتين العاصمتين، حيث التقى - نعني ابن أبي أصيبعة - بابن البيطار القادم من الأندلس وتلمذ عليه.

ولابأس في أن نتصوّر أن ابن أبي أصيبعة قد امتلأ خاطره بأخبار العالم الأندلسي أبي العباس النباتي، وإن لم يُقدّر له أن يلتقيه. فلما شرع في تصنيف موسوعته، التي غدت شهيرة، «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، وفرغ من مسودتها الأولى سنة ٦٤٣هـ بدمشق، تبين أنه قد أفرد فيها للنباتي الأندلسي فصلاً حقّ بما عرّف من أخباره، دون أن يُعوّل في ذلك، كما يبدو، على المصادر الأندلسية المعاصرة، تلك التي لم يكن قد أن لها أن تذكر عن النباتي شيئاً بعد؛ وكان قد توفي، في موطنه إشبيلية، قبيل ذلك

يبضع سنوات (٦٣٧هـ)، ابن أبي أصيبعة لا يدري، بدليل أنه لم يُشر إلى الوفاة، أو هو سمع بها ولكنه ما عرف تاريخ وقوعها فلم يذكره .

عرّف صاحبُ «طبقات الأطباء» به، فقال:

«هو أبو العباس : أحمد بن محمد بن مقرج النباتي، المعروف بـ «ابن الرومية»<sup>(٣١)</sup>، من أهل إشبيلية، ومن أعيان علمائها وأكابر فضلائها (...) له الذكرُ الشائع والسمعةُ الحسنة، كثير الخير، موصوف بالديانة، مُحَقِّقٌ للأمور الطبية، قد شَرَّف نفسه بالفضائل. وسمع من علم الحديث شيئاً كثيراً عن ابن حزم وغيره»<sup>(٣٢)</sup>.

وفي مجال تخصصه العلمي الفريد، قال :

و «قد أتقن علم النبات، ومعرفة أشخاص الأدوية، وقواها، ومنافعها، واختلاف أوصافها، وتباين مواطنها (...) ووصل سنة ثلاث عشرة وستمئة إلى ديار مصر، وأقام بمصر والشام والعراق نحو سنتين، وانتفع الناس به، وأسمع الحديث، وعاین نباتاً كثيراً في هذه البلاد مما لم ينبت بالمغرب، وشاهد أشخاصها في منابتها ونظرها في مواضعها».

وينفرد ابن أبي أصيبعة برواية حكاية وقعت لأبي العباس في المشرق بعد نزوله الإسكندرية .

«لما وصل من المغرب إلى الإسكندرية، سمع به السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب رحمه الله، وبلغه فضله وجودة معرفته بالنبات. وكان الملك العادل في ذلك الوقت بالقاهرة، فاستدعاه من الإسكندرية، وتلقاه وأكرمه ورسم بأن يقرّر له جامكية وجراية<sup>(٣٣)</sup> ويكون مقيماً عنده، فلم يفعل، وقال: إنما أتيت من بلدي لأحج إن شاء الله، وأرجع إلى أهلي»<sup>(٣٤)</sup>.

ويقول ابن أبي أصيبعة: «وبقي مقيماً عنده مدة، وجمع الترياق الكبير وركبه<sup>(٣٥)</sup>، ثم توجه إلى الحجاز. ولما حج عاد إلى المغرب، وأقام

بإشبيلية» (٢٤).

#### ٤ - مزاياء .. وسجايا!

ولكي نستطيع رسم صورة لمحِب الدين أبي العباس النباتي، بما نملك من ملامح وظلال وتلاوين، أملاً في أن نستحضر من قلب الماضي البعيد شخصيته الحلوة الجذابة، يتعين علينا القول بأنه كان يتمتع بخلال ومزاياء خلقية قد شاعت عنه بين خلّائه وطلّابه قبل أن تبلغ أسماع المؤرخين فيسجلوها في عداد مناقبه النبيلة وسجاياه السامية .

لقد كان، مع زهده في الدنيا، شغوفاً بالعلم، كثيرَ العناية بالكتب، جماعاً لها، عاكفاً على نسخها بنفسه، متبرعاً بها لمن يحتاج إليها! وكان مستقلاً برأيه، حريصاً - فيما بعد - على أن يستجيب لدواعي النفس والروح ولما يعتقد أنه من رسالته في هذه الحياة الدنيا.

يحدثنا ابنُ عبد الملك أن أبا العباس «كان كثيرَ الشغف بالعلم، والدُّؤوب على تقييده - على إفراط رداءة خطّه - ومداومة سهر الليل من أجله، مع استغراق أوقاته وحاجات الناس إليه، إذ كان حسنَ العلاج في طبّه، مورد الموضوع لثقته ودينه» (٢٥).

ويقول، أيضاً، إنه كان «موسعاً عليه في معيشته، كثيرَ الكتب في كل فن من العلوم على تفريقها»، ويضيف : وكان «سمحاً لطلبة العلم بها [بالكتب]، وربما (٢٦) وهب منها، ملّتمسه، الأصل النقيس، الذي يعزّ وجوده ويعظم جدواه وترتفع قيمته، احتساباً به [وإعانة] (٢٧) على التعلّم؛ له، في ذلك كله، أخبارٌ منبئة عن فضله وكرمه طبعه» (٢٨).

ولقد تفقه أبو العباس أحمد بن مفرّج، في شبابه، طويلاً على أبي الحسين ابن زرقون (٢٩) في مذهب الإمام مالك، وبات يتوقّع له أن يصبح واحداً من فقهاء المالكية، المذهب الذي شاع في الأندلس، ابتداءً من مطلع المئة الثالثة للهجرة، فاتبعه العامة في البلاد فضلاً عن الأدباء والعلماء والأمراء .

إلا أن محبّ الدين تحوّل عن المالكية إلى «الظاهرية»، هذه التي لا يأخذ أتباعها إلا بمظاهر المعنى للآيات القرآنية والأحاديث النبوية (٣٠)، متأسيّاً في ذلك بآبن حزم، من أكابر علماء الأندلس وأدبائها المفكرين في القرن الخامس الهجري، الذي كان قد تحوّل أيضاً إلى الظاهرية عن المذهب الشافعي، ولقي في ذلك من الفقهاء والملوك عنقاً كثيراً، حتى إن بعض كتبه أحرق في إشبيلية ومُرّق علانية! (٣١)

لقد استجاب أبو العباس لنوازع الروح ومآمله عليه داعي المعتقد، فانصرف انصرافاً ابن حزم عن مذهبه الذي شبّ عليه، ليُقبل بكلّيته على الظاهرية، حتى عُرِفَ بأنه كان «سنيّاً، ظاهريّ المذهب، مُنحياً على أهل الرأي، شديد التعلّص لابن حزم»! (٣٢)

وإذا لم يُعرف عن النبائي، الظاهري، أنه «استفزّ» معاصريه، بمثل ذلك الجدال الذي كان رائده ابن حزم «يصكّ به معارضته صكّ الجندل»، كما قال شيخ مؤرخي الأندلس ابن حيّان، فإنه قد أتى بعمل آخر ذي شأن كبير. ذلك أن مصنفات ابن حزم، التي كان قد أحرق بعضها في إشبيلية ومُرّق، تلك التي كانت تُكمل «وَقَرَّ بعير، لم يتجاوز أكثرها عتبة البادية» التي قضى فيها مصنفها... إن مصنفاته ورسائله، الفقهيّ منها والاجتماعي والأدبي، التي بات يتوقّع لها الفناء في أيدي حائزيها مع ذلك الحصار المعنوي المضروب حولها (٣٣). قد «عني بها [أبو العباس] كثيراً، واستنسخها» (٣٤)، وأنفق عليها أموالاً جسيمة، حتى استوعبها جميعاً فلم يشدّ عنه منها إلا ما لا خطر له إن كان قد شدّ، مقتدرّاً على ذلك مُعاناً عليه بجِدته ويساره... حتى قيل: وعن أبي العباس النبائي «انتشرت تصانيف ابن حزم»! (٣٥)

**فأية حماسة واندفاع! وأي إيمان!**

وهل كان اعتذاره للملك العادل بالقاهرة، عن أن يظلّ في كنفه مقيماً،

ينطوي على حرص منه على العودة، بعد أداء الفريضة، إلى الوطن، ليتابع قيامه برسالته التي آمن بها، وهي العناية بمصنفات ابن حزم، استنساخاً وبذلاً ونشراً؟! ... أم أنه لما يكن - قبل رحلته المشرقية سنة ٦١٢هـ - قد تحول بعد إلى المذهب الظاهري، بدليل أن ابن أبي أصيبعة - الذي عرّف به من خلال رحلته هذه إلى الديار المصرية والشامية، حتى لقد تحدث عن شئون فيه حميمة (٣٦) - لم يُشر أية إشارة إلى أنه من أتباع داود الظاهري؟!

ولن نغفل، أخيراً، القول بأن عالمنا محبّ الدين النباتي كان متعلقاً بالأدب مثلاً ما كان ابن حزم؛ وكان شاعراً - مثله أيضاً - ولكنه لم يكن يتظاهر بقول الشعر؛ وكان، بعد ذلك، محباً لدمشق الشام، التي زارها في رحلته وقضى فيها مدةً وهو يُنقَر عن الحشائش والأعشاب! يقول معاصره ابن سعيد الأندلسي:

«جالستُه، يوماً، بعد عودته من رحلته، فرأيتُه متعلقاً بالأدب، مرتاحاً إليه ارتياحَ البحتريّ لحلب (...) وكان غير متظاهر بقول الشعر، إلا أن أصحابه يسمعون منه ويروون عنه، وحملته عليه في بعض المرات، فقال: تكفيك هذه الأبيات:

خَيْمٌ بـ «جَلْقٍ» (٣٧) بين الكأس والوترِ

وفي جنةٍ هي ملء السمع والبصرِ

متّع الطرف في مرأى محاسنها

تروضُ فكرَكَ بين الروض والزهرِ

وانظرْ إلى ذهبيات الأصيل بها

واسمعْ إلى نغمات الطير في الشجرِ

وقلْ لمن لام في لذاته بشراً:

دعني، فإنك عندي من سوى البشر!

«وكان كثيراً ما يُطَنَّب في الثناء على دمشق ويصف محاسنها، فلا أنفصلُ عنه إلا وقد امتلأ خاطري من شكلها، فأتمنى أن أحلَّ مواطنها، إلى أن بلغ الله الأمل والأمانى قبل المنون:  
وإني لو نظرتُ بألف عين  
لما استوفتُ محاسنها العيون» (٣٨)

#### ٥ - مصنفاته :

تعددت مصنفات محب الدين أبي العباس النباتي، «وله، فيما ينتحله من الفنين [الحديث والنبات] تصانيف مفيدة، وتنبيهات نافعة، واستدراكات نبيلة بارعة، وتعقبات لازمة» (٣٩) ... وهي :

#### ١- «الحافل في تكملة الكامل» :

وهو سفرٌ ضخْمٌ ذيلُ به كتاب «الكامل في معرفة الضعفاء والمتروكين من الرواة»، الذي كان ألفه، في القرن الرابع الهجري، ابنُ عدي الجرجاني (٤٠). ورد ذكر «الحافل» في: «التكملة..»: ١٢١ (٤١)، «تذكرة الحفاظ» ٤: ٢١٠، «الإحاطة..» ١: ٢١٢، «نفع الطيب» ٢: ٥٩٧.

#### ٢- «المُعَلِّم بزوائد البخاري على مُسَلِّم» :

«الذيل..» ١: ٥١٣، «تذكرة الحفاظ» ٤: ٢١٠، «الإحاطة..» ١: ٢١٢ (٤٢)، «نفع الطيب» ٢: ٥٩٧.

#### ٣- «نظم الدراري فيما نفرَّد به مُسَلِّم عن البخاري» : «الإحاطة..» : ٢١٢:١.

#### ٤- «توهين طرق حديث الأربعين» : «الإحاطة..» ١: ٢١٢.

#### ٥- «حكم الدعاء في أدبار الصلوات» : «الإحاطة..» ١: ٢١٢.

#### ٦- «كيفية الأذان يوم الجمعة» : «الإحاطة..» ١: ٢١٢.

#### ٧- «أخبار محمد بن إسحق» (٤٣):



وقد انفرد بذكر هذه الكتب الخمسة الأخيرة ابن الخطيب في الإحاطة..  
٢١٢:١.

٨ - مختصر كتاب «الكامل» لابن عدي، مجلدان : «التكملة..» : ١٢١،  
«الإحاطة..» : ٢١٢:١، «نفح الطيب» ٥٩٧:٢.

٩ - مختصر «غريب حديث مالك» للدارقطني<sup>(٤٤)</sup> : «التكملة..» : ١٢١<sup>(٤٥)</sup>،  
«الإحاطة..» : ٢١٢:١، «نفح الطيب» ٥٩٨:٢.

١٠ - فهرسة بمشيخته :

«التكملة» : ١٢١<sup>(٤٦)</sup>، «الذيل..» : ١٠٥١<sup>(٤٧)</sup>، «تذكرة الحفاظ» : ٤ : ٢١٠،  
«الديباج المذهب» : ٤٣، «نفح الطيب» ٥٩٨:٢.

١١ - «تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس» : «طبقات  
الأطباء» : ٥٣٨، «نفح الطيب» ١٨٥:٣<sup>(٤٨)</sup>.

١٢ - «شرح حشائش ديسقوريدس وأدوية جالينوس» والتنبيه على أوهام  
مترجمها:

«الذيل..» : ١٠١٣، «الإحاطة..» : ٢١٢:١.

١٣ - مقالة في «تركيب الأدوية» : انفرد بذكره «طبقات الأطباء» : ٥٣٨.

١٤ - «التنبيه على أغلاط الغافقي في أدويته»<sup>(٤٩)</sup> : «الذيل..» : ١٠١٣،  
«الإحاطة..» : ٢١٢:١.

١٥ - «الرحلة النباتية» :

انفرد بذكره «الإحاطة..» : ٢١٢:١<sup>(٥٠)</sup>. وعنه نقل ابن البيطار كثيراً.

تلك هي أسماء مصنفات العالم أبي العباس النباتي، في فني الحديث  
والنبات، التي لم يصل إلينا أي منها مع الأسف !

وإذا كانت هذه الكتب قد اندثرت، كما يغلب على الظن اليوم، فإنّ العزاء  
في أنّ تلميذ أبي العباس - ونعني بلديّه عبد الله بن البيطار، والذي وفد إلى  
المشرق وأقام في كنف الأيوبيين في القاهرة ودمشق - قد ألّف لأحد

سلاطينهم، هو الملك الصالح أيوب (ت ٦٤٧هـ)، كتابه الخالد: «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»؛ وفي هذه الموسوعة، التي تجاوزت مفرداتها الألف، حشد مصنفها كل ما وصل إلى علمه من معارف الأقدمين، عرباً ومسلمين ويونانيين وغيرهم ...

قلت: فكان ابن البيطار، في تحريره العلمي الواسع وفي موضوعيته المُرَهفة، يبدأ - في كل مفردة من مفردات كتابه التي رتبها على حروف المعجم - بأن يذكر مصدره: اسم الطبيب أو النباتي أو العالم، وأحياناً اسم الكتاب الشهير الذي أخذ عنه، ثم يتبع ذلك المعلومة المقتبسة بنصها !

والتلميذ النابه البار، لم يدخر وسعاً في أن يستفيد من علم أستاذه الجليل أبي العباس: فرأيناه يقتبس، مرات كثيرة، من كتابه «الرحلة ..»، هذه التي يصفها أحياناً بـ «..النباتية» وأحياناً أخرى بـ «..المشرقية»، وفي مرات غيرها يذكر اسم أستاذه صريحاً .

وقد راجعت هذه الموسوعة بأجزائها الأربعة<sup>(٥١)</sup>، وحصرت المفردات التي فيها لأبي العباس النباتي تحليّة أو قول، فوجدتها مئةً واثنين من المفردات النباتية والحيوانية والمعدنية<sup>(٥٢)</sup>.

وليس الذي قدمته، أعلاه، إلا تعريفاً بشخص هذا الطبيب الصيدلاني العالم الطلعة، المنسي، الذي يعدّ - مع ضياع كتبه - من أعظم صيادلة الأندلس في توالي عصورها!.

وهو، كذلك من أعظم الصيادلة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وذلك لما تميّزت به الأندلس من عطاء علمي مطرد في مجال المفردات الدوائية، منذ بلوغ ذلك القطر - العربي الذي كان - ذورة الازدهار الحضاري في عصر عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ)، وإلى يوم غابت شمس الأجداد في غرناطة مع غروب القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) . ولكل أجل كتاب.

## مصادر البحث (مبسطة حسب أزمان مؤلفيها)

- ١- ابن حزم - أبو محمد، علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ): «رسائل بن حزم الأندلسي» (صدر منها أربعة أجزاء)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ١٩٨٠-٨٣ (الجزء الأول ١٩٨٠).
- ٢- ابن البيطار، ضياء الدين أبو محمد، عبدالله بن أحمد المالقي (ت ٦٤٦هـ): «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» (أربعة أجزاء في مجلدين)، دار المدينة (د.م.د.ت) (مصورة عن طبعة بولاق، القاهرة ١٢٩١هـ/١٨٧٥م).
- ٣- ابن الأبار - محمد بن عبد الله القضاعي (ت ٦٥٩هـ): «التكملة لكتاب الصلة» (جزآن)، مكتب نشر الثقافة الإسلامية [القاهرة، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥] (الجزء الثاني).
- ٤- ابن أبي أصيبعة - موفق الدين أبي العباس، أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي (ت ٦٦٨هـ): «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» تحقيق الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة ببيروت (د.ت).
- ٥- ابن سعيد الأندلسي - علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ): «اختصار القدر المعلى في التاريخ المحلى»، تحقيق إبراهيم الإيباري. وزارة الثقافة بالقاهرة ١٩٥٩م.
- ٦- ابن عبد الملك الأنصاري المراكشي - أبو عبد الله، محمد بن محمد بن عبد الملك (ت ٧٠٣هـ): «الذيل والتكملة لكتابي الوصول والصلة» (ثمانية أسفار، المطبوع منها خمسة متفرقة)، تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد بن شريفة، دار الثقافة ببيروت وأكاديمية المملكة المغربية بالرباط، ١٩٦٤ - ٨٤ (السفر الأول، تحقيق الدكتور ابن شريفة، دار الثقافة ببيروت. د.ت).
- ٧- الحافظ الذهبي - محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ): «تذكرة الحفاظ» (خمس أجزاء، آخرها فهارس)، حيدر آباد الدكن، الطبعة الثانية ١٣٣٣ و ٣٤هـ (الجزء الثالث والرابع).
- ٨- لسان الدين بن الخطيب - أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن سعيد ... السلماي (ت ٧٧٦هـ): «الإحاطة في أخبار غرناطة» (أربعة أجزاء)، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٩٥٦ - ٧٧، (الجزء الأول، الطبعة الثانية ١٩٧٣).
- ٩- المقرئ التلمساني - أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ): «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» (ثمانية مجلدات آخرها فهارس)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر ببيروت ١٩٦٨، (المجلد الثاني).

(١) أي أنه لا ينحدر من أصل أموي، بل هو من موالي الأمويين .

(٢) « التكملة لكتاب الصلة » : ١٢١ .

(٣) « الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » ١ : ٥١٢ و ١٣ .

(٤) في « القاموس المحيط » : نَقَر الشئ، ونَقَرَه، ونَقَر عنه : بحث عنه .

(٥) لسان الدين بن الخطيب « الإحاطة في أخبار غرناطة » ١ : ٢١٣ و ٢٠٨ .

(٦) في « لسان العرب » : تَحَلَّاهُ : عَرَفَ صِفَتَهُ، وَتَحَلَّيْهُ : الوصف، والحَلْيَةُ : الصفة والصورة .

(٧) « الذيل... » ١ : ٥١٢ . وتضطرب العبارة الواردة في « الذيل... »، حول الجَدِّ «مفرج»، وتختلف

عن صورتها التي نقلها لسان الدين بن الخطيب:

فهي في «الذيل...»: «وكان ولاء جده مفرج لأحد أطباء قرطبة، وكان قد تبنَّاه، وعن مولاه هذا

يعني ابن عبد[أخذ علم النبات] ! : ٤٨٨ . وهي في «الإحاطة...»: «قال القاضي أبو عبد الله

: كان والده جدُّ أحد أطباء قرطبة، وكا قد تبنَّاه ... ! : ٢٠٧ .[الملك المراكشي

(٨) « التكملة .. » : ١٢١ .

ويقول ابن عبد الملك: « وكان له دكانٌ مُتَّع يقعد فيه لبيع الحشائش الطبية... »، «الذيل...»

٥٣١ : ١ .

وفي شأن بيع الحشائش والأعشاب الطبية في الدكاكين، حدَّثني صديقي الموسوعي الأستاذ عمر

رضا كحالة أنه، عهد إقامته في نيجيريا سنة ١٩٢٧ م، وجد في العاصمة «لاغوس» حوانيتَ

يقوم بها نفَرٌ من أمثال هؤلاء العشَّابِين . فكان يتفق له - كما حدَّثني، أمدُّ الله في عمره، أيام

إعدادي هذا البحث - ونحن نتسامر، في أمسيات صيف ١٩٨٦، في حديقة ابن سينا (في حي أبو

رمانة بدمشق) - أن يرى العليلُ هناك يُقِلُّ على العشاب في حانوته، ويعرض عليه حالته أو

حاجته من العشب، فينهض صاحب الحانوت إلى أعشابه ويعطي منها للزبون ماينفعه. وقد

لاحظ الصديق الفاضل أن العليل، إذ يقف في باب الحانوت، يبادر إلى إلقاء التحية منحنيًا،

وكذلك ينحني ساعة الانصراف، مما يدل على مدى الاحترام الذي يحظى به هؤلاء

العشابون، الذين يقومون بدور الأطباء والصيادلة . ويقوم، اليوم، بدور العشَّابِين في البلاد

العربية «العطَّارون». وهم يبيعون، مع الأعشاب التي تضاءلت أنواعها وقيمتها بسبب شيوع

الأدوية المركبة انتشار الصيدليات، مايلزم ربة البيت من التوابل والأفاوية، وكذلك العطور .

(٩) «نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب» ٢ : ٥٩٧، وقد انفرد بهذه الرواية. ومحمد بن يوسف

بن هود كان، أول أمره، من قادة الجيوش في دولة الموحدين في مدينة مرسية. فلما ظهر الخلل

في الدولة تحرَّك ضد الموحدين، واستولى على عدد من المدن الأندلسية، وتسلمن وتلقب بـ

«أمير المسلمين المتوكل على الله». وبعدئذ ثار عليه ابن الأحمر (محمد بن يوسف)، فتنازعا

رياسة الأندلس وتجاذا بها حبل الملك فيها، إلى أن قتل ابن هود غدراً من قبل أحد قادته سنة

٦٣٥ هـ .

فوقوف سلطان الأندلس في باب دكان النبائي، كان وأبو العباس في نحو السبعين من العمر! وفي شأن إقبال أبي العباس النبائي على النسخ، بدا أنه يقتصر على النسخ بنفسه، بل كان يتعهّد الإشراف على مايقوم به بعض النساخ. ففي بحث للدكتور محمد زهير البابا عن «المخطوطات الطبية العربية في المكتبة الوطنية بباريس»، نقرأ للباحث، في تعريفه بنسخة من كتاب ديسقوريدس عن الحشائش بالعربية أطلع عليها في تلك المكتبة الباريسية الكبرى، هذه العبارة: «الناسخ: عبد الملك بن أبي الفتح، بإشراف أبي العباس النبائي الأندلسي المشهور بابن الرومية»، «مجلة معهد المخطوطات العربية»، الجزء الثاني (المجلد التاسع والعشرون) شوال ١٤٤٥هـ/يوليو ١٩٨٥.

(١٠) «الإحاطة ..» ٢١٣:١.

(١١) «التكملة ..» ١٢١.

(١٢) وردت في «الإحاطة..»: «حب الدين! ٢١٠:١.

(١٣) «الذيل..» ٤٨٩:١.

(١٤) «الذيل..» ٤٩٠:١ - ٥١٠.

وقد اقتبس ابن عبد الملك أسماء هؤلاء الشيوخ من الفهارس التي أعدها النبائي في حياته.... يقول صاحب «الذيل..»: «هذا منتهى ماانتقاء أبو العباس النبائي من الشيوخ الذين استعجزوا له على ماذكرهم في فهارس له منوعة، بين بسط وتوسط واقتضاب، وقفت منها بخطه وبخط بعض أصحابه والأخذين عنه»، ٥١٠:١.

(١٥) «الذيل..» ٥١١:١.

(١٦) في «الإحاطة..»: «وعاوض! ٢٠٩.

(١٧) «الذيل..» ٥١٢:١ و ١٣.

(١٨) انفراد بذكره ابن الخطيب، «الإحاطة..» ٢١٢:١.

(١٩) نلاحظ أن ابن أبي أصيبعة يُسمي معاصره، ويُعنون الفصل الخاص به، بـ «ابن الرومية»! وكذلك سمّاه مؤرخوه غالباً؛ وهي كنية كان أبو العباس النبائي - يقول ابن عبد الملك - يكرها ويقلق لها! «الذيل..» ٤٨٧:١. وقد نحاشيناها في بحثنا. وسوف نذكره أحياناً بذلك اللقب النبيل، الذي حظي به في المشرق واستحقّه عن جدارة: «محبّ الدين». وقد فات المؤرخين كافة وصفه به!

(٢٠) ينبغي أن نصرف معنى العبارة إلى أن أبا العباس النبائي قد «قرأ» لابن حزم كثيراً ولم «يسمعه» مباشرة، لأن الرجليين لم يتعاصرا، فيين وفاة ابن حزم (٤٥٦هـ) وبين ولادة النبائي (٥٦١هـ) أكثر من مئة سنة!

ونلاحظ أن صاحب «طبقات الأطباء» لم يصف أبا العباس بأنه «طبيب» وإن قال إنه «محقّق للأمر الطبية»!

(٢١) «الجامكية»: مرتّب موظفي الدولة، و«الجرابية»: هي الجاري من الرواتب.

(٢٢) الملك العادل هو محمد بن أيوب بن شادي، أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي. استقلّ، بعد

وفاة أخيه، بملك الديار المصرية سنة ٥٩٦هـ. وضم إليها الديار الشامية. كان ملكاً عظيماً، حسن السيرة، محباً للعلماء. توفي سنة ٦١١هـ في إحدى قرى دمشق وهو يجهز العساكر لقتال الإفرنج، ودفن في مدرسته المعروفة بالعدالية، التي اتخذت فيما بعد مقراً للمجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) منذ تأسيسه بدمشق سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٩م).

(٢٣) الترياق كلمة يونانية معربة، تُطلق على ذلك الدواء المركب من عشرات المواد، كان القدماء يعتقدون أن مداومة على تناوله تنفع في حفظ الصحة وإزالة المرض والتخلص من السموم. وكان لبعض المشاهير من الأطباء ترياق خاص بكل منهم، يزيد فيه مواد ويهمل أخرى. وأبو العباس، هنا، يركب لمضيفه ترياقه الكبير.

(٢٤) «طبقات الأطباء»: ٥٤٨، طبعة دار مكتبة الحياة ببيروت (د.ت).

(٢٥) «الذيل...»: ٥١٢:١.

وقد تحولت العبارة الأخيرة، عند ابن الخطيب، بفعل الناسخ أو المحقق، إلى مايلي: «إذ كان حسن العلاج في طبه الموزود، الموضع، لنقته ودينه!» «الإحاطة...»: ٢٠٨:١.

قلت: وقد أشرنا، أعلاه إلى مدى استغراقه في نسخ الكتب وهو في دكانه!

(٢٦) وردت في «الذيل...»: وبما وهب! والتصحيح من «الإحاطة...».

(٢٧) في «الذيل...» بياض، والإضافة من «الإحاطة...».

(٢٨) «الذيل...»: ٥١٢:١، و «الإحاطة...»: ٢٠٨:١.

قلت: بدا أن فضيلة الكرم هذه، التي تحلى بها محب الدين، قد فاح منه عبرها وهو في المشرق؛ قال ابن أبي أصيبعة، في جملة أوصافه، إنه كان «كثير الخير... قد شرف نفسه بالفضائل!» «الطبقات...»: ٥٣٨.

وليس من شك في أن إهداء كتاب، في ذلك الزمن، يعني شيئاً كبيراً، وبخاصة إذا كان الكتاب المهدى أصلاً لانسوخة، وكان من النقاسة على نحو ما وصف المؤرخ المعاصر للتباني؛ ولبت ابن عبد الملك كان روى لنا بعض تلك «الأخبار المنبئة عن الفضل»، لنأمل... ونتعلم!

(٢٩) هو محمد بن محمد بن سعيد، من أهل إشبيلية، «كان فقيهاً مالكيًا حافظاً مبرزاً، متعصباً للمذهب قائماً عليه»، وأحد جدوده هو الذي لقب بـ «ابن زرقون» لحمرة في وجهه. توفي سنة ٦٢١هـ وهو ابن ثلاثة وثمانين. «التكملة...»: ٣٢٩ و ٣٠.

(٣٠) وصاحب هذا المذهب هو داود بن علي بن خلف الأصبهاني (ت ٢٧٠هـ)، أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام، تنسب إليه الطائفة الظاهرية، وسميت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسنة وإعراضها عن التأويل والرأي والقياس.

على حين يعتمد المذهب المالكي على القرآن والسنة وعلى قياس أهل المدينة المنورة وإجماعهم دون سواهم؛ وأما الأحناف، فإنهم يسلكون سبيل الرأي، ومذهبهم رمزٌ لحرية الفكر؛ وأما الإمام الشافعي، فقد توسط في مذهبه بين أهل الرأي وأصحاب الحديث... «أطوار الثقافة والفكر في ظلال العروبة والإسلام» ٣٦٠:٢، لعلي الجندي ورفيقه، القاهرة ١٩٥٩ - ٦٠.

(٣١) لقد أجمع فقهاء العصر - كما يقول المؤرخ الأندلسي ابن حيان - أولئك الذين استهدفهم ابن

حزم بمعارضته العنيفة، «على تصليله، وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنه، ونهوا عوامهم عن الدنو منه! فطُفق الملوك يُقصونه ويُسيرونه عن بلادهم» إلى أن انتهى إلى بلدة من بادية لبلة. وتوفي سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٤م). وأما مصنفاته فإن أكثرها «لم يجاوز عتبة باديته، لزهده الفقهاء فيها...»! «تذكرة الحفاظ...» ٣: ٣٢٦ و ٢٧، للإمام الذهبي، حيدر آباد الدكن ١٣٣٤هـ.

(٣٢) «الذيل...» ١: ٥١٢.

قلت: لم يكن أتباع هذا المذهب بالمرضى عنهم من جمهور الفقهاء والكتّاب بصورة عامة. ومن طريف الأمر أن عبارة ابن الأبار، عن معاصره النبائي بأنه «ظاهري المذهب»، قد جاء، بعد نحو مئة عام، الإمام الذهبي لينقلها منه، ويضيف كالمستدرك: «إلا أنه على دين، وورع، ومعرفة، وإيثار»! «تذكرة الحفاظ...» ٤: ٢١٠. ويقول صاحب «الإحاطة...»: إن أبا العباس النبائي كان «على دين متين، وصلاح تام، وورع شديد»، ١: ٢٠٩.

(٣٣) أحصاها الباحث الكبير الدكتور إحسان عباس، فكان مائتم العثور عليه منها حتى اليوم خمساً وعشرين، وأما المفقود والمحتجب فيتجاوز عدده الثمانين. «رسائل ابن حزم الأندلسي» ١: ٥٠ - ١٥، تحقيق د. إحسان عباس، صدر منها حتى تاريخه أربعة أجزاء.

(٣٤) في «الذيل...»: استحسنها، والتصويب من: «الإحاطة...».

(٣٥) «الذيل...» ١: ٥١٢، و «الإحاطة...» ١: ٢٠٩.

(٣٦) «كثير الخير، موصوف بالديانة... قد شرف نفسه بالفضائل...».

(٣٧) جلق في دمشق.

(٣٨) «اختصار القدح المعلق...»: ١٨١، تحقيق إبراهيم الإبياري، القاهرة ١٩٥٩.

وعلى بن موسى... بن سعيد، من ذرية عمار بن ياسر، مؤرخ أندلسي من الشعراء، ولد سنة ٦١٠هـ قرب غرناطة، وقام برحلة طويلة زار بها مصر والعراق والشام، وتوفي بتونس سنة ٦٨٥هـ، وقيل في دمشق. له تأليف منها: «القدح المعلق في التاريخ المعلق» في تراجم بعض شعراء الأندلس، الذي اختصره أحدهم فيما بعد وقدّ الأصل، ولعل أهم مصنفاته: «المغرب في حلى المغرب».

قلت: ونقل عنه ابن الخطيب: ... إلى أن «أبلغ» الأمل، «الإحاطة...» ١: ٢١٣، والصواب ماأثبتناه، لأنه تحقق لابن سعيد أن يزور دمشق قبل المنون وقبل تأليفه كتابه هذا!

(٣٩) «الذيل...» ١: ٥١٣.

(٤٠) عبد الله بن عدي بن عبد الله بن القطان الجرجاني (٢٧٧ - ٣٦٥هـ):

علامة بالحديث ورجاله، أخذ عن أكثر من ألف شيخ، وكتابه «الكامل» - يقال - ستون جزءاً، ثمة منه ثمانية عشر.

(٤١) يقول ابن الأبار: «سمعت شيخنا أبا الخطاب بن واجب يستحسنه ويثني عليه».

(٤٢) كان قد ورد في «الذيل...»: ولابن العباس «في الحديث ورجاله: المعلم بزوائد البخاري على

مسلم»، فتم نقل العبارة في «الإحاطة..»: له «في الحديث: رجالة المعلم بزوائد البخاري على مسلم! وذلك مثال على مايقع في تحقيق الكتب من الأوهام.

(٤٣) محمد بن إسحق بن يسار: من أقدم مؤرخي العرب، من أهل المدينة المنورة، سكن بغداد ومات فيها سنة ١٥١هـ، من كتبه «السيرة النبوية» هذبها ابن هشام. قيل فيه: لم يكن أحد بالمدينة يقارب ابن إسحق في علمه أو يوازيه في جمعه.

(٤٤) علي بن عمر بن أحمد، إمام عصره في الحديث وأول من صنف القراءات وعقد لها أبواباً، ولد سنة ٣٠٦هـ في حي بـ «دار القطن» ببغداد، ومات بها سنة ٣٨٥هـ.

(٤٥) يقول ابن الأبار: «وغيره أضبط منه»!

(٤٦) يقول ابن الأبار إنها «فهرسة حافلة، أفرد فيها روايته بالأندلس من روايته بالمشرق».

(٤٧) وعن هذه الفهرسة، أو عن الفهارس المنوعة التي صنفها أبو العباس بشيوخه، نقل ابن عبد الملك في كتابه بضعا وعشرين صفحة حشد فيها أسماء شيوخ النباطي، وقال: «إني «عشرت، فيما طالعه منها، على كثيرة، بين تصنيف، ونقص من الأنساب وزيادة فيها وقلبها، وتكرار، فلم أُلْ جهداً في إصلاح ما أمكنني من ذلك كله وتصحيحه وتقييده وإكماله، معتمداً على ما وقع إلي، له أو لغيره، من خطوط أولئك الشيوخ أنفسهم (...)، فمن وجد في نسخة من فهارس أبي العباس خلاف ما أثبتته هنا، مما قيدته وأزحت إشكاله، فالأولى به الرجوع إلى ما يثبته هنا، وتصحيحه على ما هنالك بناء على ما قررته، اللهم إلا أن يستقرغ وسعاً في البحث جهده...».

(٤٨) يقول المقرئ نقلًا عن ابن سعيد الأندلسي في تذييله على رسالة ابن حزم ذاكراً فضل الأندلس: «وأما الطب، فالمشهور بأيدي الناس للأن في المغرب - وقد سار أيضاً في المشرق لنبله - كتاب «التيسير» لعبد الملك بن أبي العلاء ابن زهر (...)، ولأبي العباس ابن الرومية الإشبيلي، من علماء عصرنا، بهذا الشأن، كتاب في الأدوية المفردة»!

(٤٩) الفافقي، أحمد بن محمد، حكيم عالم من الأكابر في الأندلس، يقول ابن أبي أصيبعة: إن كتابه في الأدوية المفردة «لأنظير له في الجودة ولاشبيه له في معناه». توفي بعد ٥٦٠هـ.

(٥٠) وأضاف ابن الخطيب إلى ذلك ماسمًا «المستدركة» (?) وقال: «وهو الغريب الذي اختص به، إلا أنه عدم عينه بعده»! وقال أيضاً في حق محب الدين أبي العباس النباطي: «أحد خزائن الأدوية، ومطازن القوايد الغربية، ويجرى ذلك في تواليفه بما لا يفتر إلى شاهد»، ٤: ٢١٠.

(٥١) «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية». دار المدينة (دم.د.ت) (طبعة مصورة عن طبعة بولاق ١٢٩١هـ/١٨٧٥م).

(٥٢) ولهذا، عندي، حديث «آخر علمي نباتي»؛ فإن لي في الإعداد ما عنوانه: «كتاب الرحلة النباتية. مستخرج من مفردات ابن البيطار، تأليف أبي العباس النباطي»! وأحب أن أبين أنني قدمت دراسة مطولة عن هذا النباتي الأندلسي، في الندوة العالمية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب، التي انعقدت في رحاب جامعة حلب. معهد التراث العلمي العربي؛ في شعبان ١٤٠٧هـ/نيسان ١٩٨٧م.



# حول ذكرى اليوم الوطني

الأستاذ عبدالله بن حمد الطهيل

في أول الميزان من كل عام تمر ببلادنا ذكرى عزيزة علينا وأثيرة لدينا وهي ذكرى غالية تتجدد كل عام حافلة بالأمجاد ومفعمة بالبطولات، فالיום الوطني من الأيام المجيدة في تاريخ هذه الأمة.

وفي هذه الذكرى الخالدة تتجدد المشاعر وتقوى العزائم وتقوى الروابط فهي ذكرى تاريخية لها تاريخ موصول مجيد كلها عمل وكفاح وبناء وتأسيس وكم خاض الملك عبد العزيز من المقامع والمعارك وتصدى للعظائم والعلما حتى أقام صرح هذه المملكة، وجمع الملك عبد العزيز، رحمه الله، حوله القلوب وألف النفوس بالحب وأقام قواعد المجتمع على العدل والدين والأخلاق والإخلاص لله تعالى في جميع المجالات وشتى الميادين، ولقد وهبه الله التوفيق والنجاح مما جعله معقد رجاء هذه الأمة ومناط آمالها ومبعث نهضتها وعدة تطورها



لوحة لجلالة الملك عبد العزيز، ويظهر في خلفيتها البطل على فرسه شاهراً سيفه، كما يظهر جزء من حصن المصمك، الذي شهد بعضاً من أمجاد البطل الراحل.

ومستقبلها والسير بها قدماً إلى الأمام على ضوء التوجيه الكريم الذي جاء به القرآن الكريم والسنة الشريفة فكان سيراً متواصلاً على بصيرة وهدى، وفي عزم ومضاء فتم بفضل الله تحقيق هذه المفاخر العظيمة والمكتسبات المجيدة لهذه البلاد. وفي ذكرى اليوم الوطني متمسكاً للكاتب فلايضيق عليه الموضوع الذي يكتبه .

إن تاريخ الملك عبد العزيز هو تاريخ هذه المملكة الشامخة وهو متعدد الجوانب تميز الملك عبد العزيز بتاريخ ثر وتجربة ناضجة تجلت فيما قدم لدينه وأمتة من إصلاح وجهاد ونفع وخير.. وإن أبرز خصائص الملك عبد

العزیز ہی عبقریتہ سیاسیہ.. حیث اقام هذه الوحدة الراسخة على دعائم  
مکينة صالحة وسار على سنة السلف الصالح ونشأ أبناؤه على العمل والسير  
على منهجه وهده.

إن في سيرة الملك عبد العزيز وفي عبقریتہ وفي أسلوبه في التعامل مع  
البادية والحاضرة وفي أوقات السلم وأوقات الحرب وغير ذلك من  
الخصائص والصفات والأعمال الرائعة.. لينبوعاً ثراً لا ينضب معينه  
للباحث والدارس.

ومازلنا نسمع من معاصريه ذكريات مفعمة بالمواقف النبيلة وزاخرة  
بالمفاخر والفضائل والشهامة.

يقول المؤرخ الإنجليزى "آرمسترونج" في كتابه سيد بلاد العرب.. كان  
عبد العزيز كبير القلب ندي الكف جسوراً لا يعرف الصبر عنده حدوداً  
عليماً بنفوس العرب حكيماً في معاملته للقبائل..

وقد أوتي المزايا والخصال التي يعجب العرب بها..  
ولله در القائل:

|                                |                            |
|--------------------------------|----------------------------|
| حسب عبد العزيز مجداً وفخراً... | ضمها في تعاطف وإباء        |
| قادها للعلا فألقت إليه         | بمقاليدها لكل سخاء         |
| منحته الإخلاص صرفاً وسارت      | خلفه تبتغي عنان السماء     |
| تخذت منه رمزها في المعالي      | وأحاطته بالعيون الوضاء     |
| واحلته قلبها وهي تتلو          | سور الحمد والرضا والثناء   |
| زاده الدين قوة وحياة           | قلب عبد العزيز معنى الوفاء |

لقد كان، رحمه الله، يردد دائماً.. أني داعية أدعو إلى عقيدة السلف



الصالح وهي التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، محمد صلى الله عليه وسلم، وما جاء عن الخلفاء الراشدين وأناي مسلم أحب جمع كلمة الإسلام والمسلمين وليس أحب عندي من أن تجتمع كلمة المسلمين ويتحد شملهم ويعلو شأنهم.

ولذا فإن تطبيق الشريعة الإسلامية كان مبدأ أساسياً في حياته، رحمه الله .. وحينما تمر بنا ذكرى اليوم الوطني فإننا نتذكر فيه يوماً من أعز أيامنا سجله التاريخ بأحرف من نور على صفحاته الخالدة حيث جاء تنويجاً لعمل خالد عظيم قاده المؤسس البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، رحمه الله، ولم يكن طريقاً سهلاً ولكن بنصر الله وإرادته تحققت الوحدة عملاً وتطبيقاً وتعاوناً وإيماناً، وكان الهدف إعلاء لكلمة الله ورفع راية القرآن.. لقد كان عمله رحمه الله إنجازاً تاريخياً هائلاً وكانت له الآثار الكبرى التي امتدت في مختلف أرجاء المملكة العربية، وكان النجاح والتوفيق والاستقرار والإصلاح والخير والازدهار واتبع في مساره

الفكري والعملية شريعة الإسلام على مثال من الأخوة والعدالة والمساواة. لقد برز الملك عبد العزيز في حقبة تاريخية مليئة بالظروف القاسية ولكن قوته وصبره ومؤهلاته القيادية ووعيه للتاريخ وشخصيته المتعددة الجوانب مكنته من القدرة على النجاح والإصلاح والوحدة.. إن كل خصاله العبقريّة مكنته من إقامة دولته تحت راية القرآن ومنهج الإسلام الصحيح.. وإن ذكرى اليوم الوطني لهي انطلاقة خير وإشراق نهضة وتطور..

وإن الأمم لتسعد دائماً بأيامها الخالدة وشرح أهدافها.. ومنذ أن توحدت هذه البلاد وهي تسير في سعيها الحثيث في مضمار الحضارة وميدان الرقي والازدهار..

إننا نتذكر الذكرى الخامسة والخمسين للوحدة المباركة الميمونة التي قادها المؤسس في سبيل جمع شمل هذه الأمة وتوحيد كلمتها في حقبة تاريخية دقيقة..

ولم تكن هذه الوحدة معجزة بقدر ما هي موهبة وعطاء وخير.. فقد كانت كلمة التوحيد ونعمة التوفيق رمزاً عظيماً ونصراً كبيراً.. حيث رُفِرت كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» التي استقرت على مبدأ عظيم ودستور خالد هو القرآن الكريم والسنة المطهرة.. ولقد عمل الملك عبد العزيز، رحمه الله، على تركيز الإيمان وترسيخه في النفوس صافياً نقيّاً كما أوضحه نبي الهدى والرحمة وتنقية العقيدة وسلامتها من الوثنية والشرك والبدع والخرافات.

فلهذا الهدف النبيل كان العمل والبناء حتى تحقق بفضل الله ما أراد من جمع المسلمين.

وبعد فقد غرس الملك عبد العزيز في هذه الأرض المباركة الطيبة  
أعظم وحدة في تاريخ هذه البلاد من خلال جهاده المتواصل ولا تزال  
هذه البلاد سائرة في نفس الطريق القويم بخطى واسعة في سبيل التقدم  
والازدهار وفي شتى المجالات في ظل رسالة الإسلام الخالدة.

وهكذا ستبقى ذكرى الملك عبد العزيز، رحمه الله، حية نابضة من  
خلال ما قدم للأمة من جلائل الأعمال وما خلف لها من طيب الذكرى  
مصدقاً لقوله تعالى:

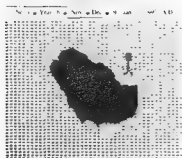
﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾.. حيث كان رائداً  
صادقاً وناصحاً أميناً قاد أمته في ضوء منهج واضح سليم هو  
شريعة الإسلام وعقيدة التوحيد وتوفير الأمن والاستقرار والوحدة  
والبناء والازدهار..

وبعد...

إن تاريخ الملك عبد العزيز ثري ومتنوع يعطي قارنه روافد مستمرة  
وتفاصيل كثيرة، هذا قليل من كثير نذكره في يومنا الوطني، الذي نعتز  
به لأنه ثمار جهد كبير، وكفاح متواصل، وعمل فاق كل تصور، وأعظم  
تلك الثمار هو ما نعيشه اليوم، ونجنيه في عصرنا الميمون، تحت رعاية  
خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، حفظه الله، وسمو  
ولي عهده الأمين.. وفقنا الله جميعاً لما يحبه ويرضاه..







National Day of K.S.A.

P. 222,251 National Day of K.S.A.

The writers' views do not necessarily reflect  
Those of the magazine

## Annual Subscriptions

- Saudi Arabia : 20 Riyals.
- Arab Countries : The equivalent  
of 4 issues prices : SR 20.
- Non-Arab Countries : US . 6\$

- Articles can not be returned to  
authors wether published or not.
- Articles are arranged technically  
regardless of the writer's prestige.

## PRICE PER ISSUE

- |                           |                                |
|---------------------------|--------------------------------|
| - Saudi Arabia : 3 Riyals | - Morocco : 5 Dirhams          |
| - U.A.E : 4 Dirhams       | - Tunisia : 400 Millimes       |
| - Qatar : 4 Riyals        | - Non-Arab Countries : 1 US.\$ |
| - Egypt : 40 Piastres     |                                |

## Distributors

**Saudi Arabia :** Saudi Distributing Co.

☎ 6530909 JEDDAH  
☎ 4916727 - 4616741 Riyadh

**Abu-Dhabi :** ☎ 3778, Abu Dhabi.  
☎ : 323011

**Dhubai :** Dar-Al-Hikma Library.

☎ 2007, ☎ : 228552

**Qatar :** Dar-Al-Thakafa,

☎ 323, ☎ : 413180

**Bahrain :** Al-Hilal Distributing Est.

Manama, ☎ 224, ☎ : 262026

**Egypt :** Al-Ahram Distributing Est.,

Al-Gala'a Street, Cairo, ☎ : 755500

**Tunisia :** The Tunisian Distributing Company

☎ 5, Nahg Kartaj.

**Morocco :** Al-Sharifia Distributing Company,

☎ 683, Cassablanca, 05.



## **EDITOR-IN-CHIEF**

**Mohammad Hussein Zeidan**

Director General of "ADDARAH" and  
Secretary General of King Abdul Aziz Research Centre

**Abdullah Hamad Al-Hoqail**

## **Editorial Board**

**DR. MANSOUR IBRAHIM AL-HAZMI**

**ABDULLAH ABDUL-AZIZ BIN EDRIS**

**DR. ABDUL-RAHMAN AL-TAYYEB AL-ANSARI**

**DR. ABDULLAH AL-SALEH AL-UTHAYMEEN**

**DR. MOHAMMAD AL-SULAYMAN AL-SUDAIS**

## **Editorial and Technical Secretary**

**MUSTAFA AMIN JAHIN**

### Articles

Articles should be  
directed to the  
Editor-in-chief  
☎ :4417020

### Editorial Board

All correspondence  
should be directed to:  
☎: 4412318 - 4413944  
fax 4412316

### Subscriptions

Subscriptions should  
be directed to king  
Abdul Aziz research  
centre



IN THE NAME OF ALLAH  
THE MERCIFUL. THE BENEFICENT



An Academic Quarterly Issued by:  
King Abdul Aziz Research Centre - Riyadh

## **King Abdul Aziz Research Centre - Riyadh**

- Established by a Royal decree No. M/45 dated 5/8/1392 A.H. as an autonomous body with independent juristic identity.

- Run by a Board of Directors vested with full authority to have its objectives materialized.  
objectives :

- To further studies pertaining to the history of the Kingdom, its geography, literature, intellectual and cultural heritage in particular as well as those of the Arab and Islamic world in general.

- To issue a cultural magazine carrying its name.

### **ADDARAH.**

- In accordance with the Royal approval No. 5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has become the home of the National Saudi Archives and Manuscripts.

No. "3" • Year <<17>> • Nov • Dec.91, Jan. 1992 A.D.

P.O. Box 2945 Riyadh 11461 Kingdom of Saudi Arabia

Facsimile No : 00/966/1/4417020

تشرين الثاني ، كانون أول ، كانون ثان ١٣٧٠ هـ.ش.

بسم الله الرحمن الرحيم

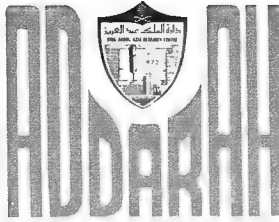


مصلحة الإحصاءات العامة

# التعداد العام للسكان والمساكن

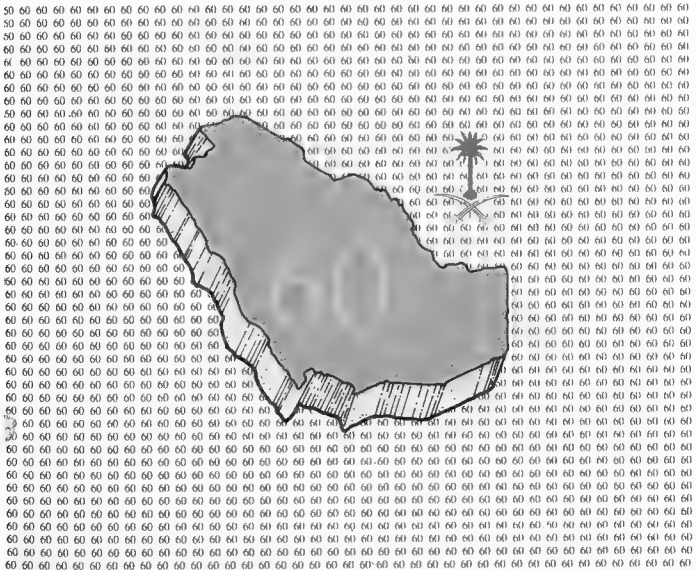


التعداد أساس التنمية الشاملة  
فسا هم معنا في إنجازاته



An Academic Quarterly Issued by : King Abdul Aziz Research Centre - Riyadh

No. 3 • Year 17 • Nov. Dec. '91, Jan. 1992 A.D.



*National Day of K.S.A.*

# الجمعية

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دار الملك عبدالعزيز بالرياض

العدد الرابع • السنة السابعة عشرة • رجب، شعبان، رمضان ١٤١٢هـ





فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٦﴾

(سورة يوسف).



مجلة فصلية مُحكَّمة تصدر عن  
دائرة الملك عبد العزيز بالرياض

## دائرة الملك عبد العزيز بالرياض

أنشئت بمقتضى المرسوم الملكي الكريم رقم م/٤٥، في  
١٣٩٢/٨/٥ هـ، كهيئة مستقلة ذات شخصية اعتبارية،  
يديرها مجلس إدارة له كافة الصلاحيات اللازمة لتحقيق  
أهدافها.

والغرض من إنشائها: خدمة تاريخ المملكة  
وجغرافيتها، وآدابها، وآثارها الفكرية والعمرانية بخاصة،  
والجزيرة وبلاد العرب والإسلام بعامة، وذلك عن طريق إنجاز  
البحوث ونشرها، وجلب الوثائق والمخطوطات وتحقيقتها،  
وإصدار مجلة تحمل اسمها.

كما أنها «المركز الوطني للوثائق والمخطوطات»، بمقتضى  
الموافقة السامية رقم ١٢٦٠٨/٥ في ١٢٦٠٨/٥/٢٠ هـ.

العدد الرابع ● السنة السابعة عشرة ● رجب، شعبان، رمضان ١٤١٢ هـ

٢٩٤٥ - الرياض. ١١٤٦١ المملكة العربية السعودية

رقم الفاكسيميلي: ٠٠/٩٦٦/١/٤٤١٧٠٢٠

رئيس التحرير

محمد حسين زيدان

الأمين العام للإدارة والمدير العام للمجلة

عبد الله بن حمد الحقييل

### هيئة التحرير

- د. منصور إبراهيم المازني
- عبد الله بن عبد العزيز بن إدريس
- د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري
- د. عبد الله المسالج المنيمن
- د. محمد السليمان السديس

مدير التحرير والمقر الرئيسي

مصطفى أمين جاهين

### الاشتراكات

ترسل الاشتراكات بشيك  
مصدق باسم  
دارة الملك عبد العزيز بالرياض

### الإدارة، والتحرير

٤٤١٣٩٤٤ - ٤٤١٣٣١٨  
الفاكس: ٤٤١٣٣١٦

### البحوث

يرسل البحوث باسم  
رئيس التحرير  
٤٤١٧ ٢٠



## ● آراء الكتاب لإتبع بالضرورة عن رأي المجلة ●

- ترسل البحوث مطبوعة على الآلة الكاتبة أو بالكمبيوتر على ألا تزيد على ثلاثين صفحة من القطع المتوسط، وأن يكون اسم الباحث رباعياً، وأن يذكر عنوانه مفصلاً.
- ترسل البحوث سرياً إلى محكمين، ويتم نشرها بعد النظر في صلاحيتها لمنهج المجلة.
- ترتيب البحوث داخل العدد يخضع لأسباب فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث.
- لن ينظر في البحوث غير المستوفية لشروط المجلة.
- لا ترد البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

## ● قيمة المصروف ●

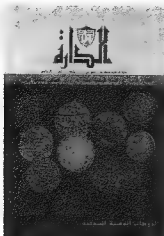
- السعودية : ثلاثة ريالاً - الإمارات العربية : أربعة دراهم
- قطر : أربعة ريالاً - مصر : ٤٠ قرشاً - المغرب : خمسة دراهم - تونس : ٤٠ مليم
- خارج البلاد العربية : دولار للعقد

## ● الاشتراكات السنوية ●

- ٢٠ ريالاً للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية.
- وفي البلاد العربية ما يعادلها.
- ٦ دولارات خارج البلاد العربية.

## ● الموزعون ●

- |   |  |
|---|--|
| ● البحرين : مؤسسة الهلال للتوزيع<br>٢٢٤ النامة - ☎ : ٢٦٢٠٢٦     | ● السعودية : الشركة السعودية للتوزيع<br>١١٦٧٤١ - ١٢٠٣٢٢ جدة<br>☎ : ٤٩١٦٣٧ الرياض |
| ● مصر : مؤسسة الأهرام للتوزيع<br>شارع الجلاء - القاهرة ☎ : ٧٥٥٥ | ● أبو ظبي : مكتبة المنهل<br>٢٧٧٨ أبو ظبي - ☎ : ٢٢٣٠١١                            |
| ● تونس : الشركة التونسية للتوزيع<br>5 نهج قرطاج ☎               | ● دبي : مكتبة دار الحكمة<br>٢٢٨٥٥٢ - ٢٠٠٧ ☎                                      |
| ● المغرب : الشركة الشريفة للتوزيع<br>683 الدار البيضاء ☎ : 5    | ● قطر : دار الثقافة<br>٣٢٢ : ☎ : ٤١٣١٨   |



### في هذا العدد

- الافتتاحية ..... رئيس التحرير ٥
- أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية..... د. محمد محمود محمدين ٧
- العناية بالتراث .. لماذا ؟ ..... مصطفى أمين جاهين ٣٢
- نقوش إسلامية مؤرخة من الصويدة ..... د. سعد بن عبد العزيز الراشد ٤٢
- مع شاعر الملك عبد العزيز السياسي ..... أ. عبد الله بن سعد الروشد ٥٥
- الشيخ حمزة فتح الله وجهوده اللغوية ..... د. ضاحي عبد الباقي ٦٨
- الدوكات الذهبية البندقية ..... د. رأفت محمد محمد النيراوي ٩١
- ثريات من النواقيس في جامع القرويين بمدينة فاس ..... د. محمد محمد الكحلوي ١٢٣
- حول كرم حاتم الطائي ..... د. فضل بن عمار العماري ١٦٢
- الشاعر الفارس جريه بن الأشيم ..... د. محمد علي دقة ١٨٣
- الصوت والصورة السمعية في الشعر الجاهلي (١) ..... د. مريم محمد هاشم البغدادي ٢٠٠

# مواقف بدرية



بقلم رئيس التحرير

شهر رمضان الكريم شهر القرآن والنصر، ليلة القدر من لياليه ويوم النصر في بدر وفي حطين والعبور تلك أيامه البيض، وتلك نعمة الله على هذا الشهر فبدر ذكرها الله في كتابه، هي ذات الشوكة، هي رمية الله: ﴿وَمَارِمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ والحديث عن بدر كريم كبير غير أنني أتحدث عن مواقف وقفها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ فهذا أبو عبيدة عامر بن الجراح العامري أمين هذه الأمة، فاتح الشام حين اشتد عضده باخوته المؤمنين، أبو عبيدة هذا قتل أباه في بدر فقد كان يتجنب مواجهة أبيه، ولكن أباه أخذ يلاحقه حتى إذا ضاق أبو عبيدة ولعله مافكر في حياته وإنما أخذه اليقين لا يقتل كافر مؤمناً فالتفت يقتل أباه فسمع بعض القائلين من أهل



بدر يقولون بطل عمل عامر لأنهم استهونوا أن يقتل الابن الأب، ولكنه الله الذي أمد ذات الشوكة بالنصر أبان لنا الحق بالثناء على عمل أبو عبيدة فإذا هذه آيات من القرآن : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَفَّ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ عظة وعبرة فالمؤمن يتعظ بالقدوة ويعتبر إذا ماتجنب الشين من أي عمل.. والموقف الثاني في بدر هو موقف عبقري هذه الأمة الفاروق أبي حفص عمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام في يوم ذات الشوكة يوم بدر. محمود هذا الموقف لعمر، ولكن كيف خرج العاص بن هشام في النفير رغبة أن يكون مع أخيه أبي جهل أم غير ذلك، إنه غير، فما هو لقد تقامر أبو لهب والعاص ابن هشام فقامر أبو لهب العاص بما طرحه من ملك فعز على العاص أن يقرر هكذا، فقامر عن نفسه أيهما يصبح رقيقاً للآخر ورضي أبو لهب فإن قمر هذه المرة يستطيع أن يفندي نفسه بمالك من العاص، أما العاص فقد قمر فأصبح مسترقاً لأبي لهب لأنه لا يملك ما يفندي به، وحين صرخ النداء يستنفر النفير لم يخرج أبو لهب وإنما أرسل عبده المسترق بالمقامرة العاص بن هشام وعجيب كيف يرضى السيد في غزوة أن يخضع لحكم المقامرة يلتزم بعهد القمار ولا ينظر إلى هداية الله بهذا الإسلام.. فلو أسلم واحد من هؤلاء وآخر لغرضوا امتيازات، ولكنها ذات الشوكة، ولكنها رمية الله.

● محمد حسين زيدان ●

# أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية

## دراسة في الدلالة الجغرافية وأنماط الاشتقاق

د. محمد محمود محمدين

إن دراسة أسماء الأماكن مجال اهتمام كثير من الباحثين على اختلاف تخصصاتهم من اللغويين وعلماء الآثار والتاريخ وعلماء الاجتماع والجغرافيين وغيرهم.



وتحظى دراسة أسماء الأماكن باهتمام الجغرافيين لأن من الأسماء ما يعد وثيقة جغرافية لها دلالتها لمن يحسن قراءتها.

وعند دراسة أسماء المدن العربية نجد أن مدينتي مكة المكرمة والمدينة المنورة تحظيان بعشرات الأسماء والكنى بصورة لامثيل لها بين مدن العالم، ويرجع ذلك إلى الأهمية الدينية لهاتين المدينتين وسمو مكانتهما في نفوس المسلمين، وكما قيل فإن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى حتى تحيط بهذه المزايا العديدة وتستوعب خصائصها، وتستأثر المدينة المنورة بما يربو على تسعين اسماً وكنية<sup>(١)</sup>، كما أن أسماء مكة المكرمة وفق ما جاء في المصادر

المختلفة تريد على خمسين اسماً وكنية<sup>(٢)</sup>، ولقد قال الإمام النووي: «لا يعرف في البلاد بلدة أكثر أسماء من مكة المكرمة والمدينة المنورة»<sup>(٣)</sup>.

ومن تتبع أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية نجد أنها لا تخرج عن وصف نظاهرة جغرافية أو تكون مشتقة من اسم نبات أو حيوان أو تكون رمزاً لحدث تاريخي أو اسماً لشخصية وطنية عرفاناً وتقديراً لجهودها. ومع معرفة أصل اشتقاق اسم المكان يمكن تصحيح نطق وطريقة كتابة هذه الأسماء بعد أن انتشر الاختلاف في نطق وكتابة كثير منها.

وأسماء الأماكن أولاً وأخيراً كلمات تختلف في أعمارها، بعضها يندثر ويختفي، وبعضها قديم تعجز ذاكرة التاريخ عن تحديد مدى قدمه، ومن الأسماء ما هو حديث لا يتجاوز عمره بضع عشرات من السنين.

ويختلف الباحثون كثيراً في تفسير بعض هذه الأسماء، وليس هذا غريباً لأن البحث في هذا المجال ليس سهلاً أو ميسوراً، ومن الطريف أن يمتد الاختلاف كذلك إلى أصل اشتقاق لفظ الاسم ذاته، وبيان ذلك مذهب إليه الكوفيون من أن الاسم مشتق من الوسم أي العلامة، بينما رأى البصريون أنه مشتق من السمو وهو العلو<sup>(٤)</sup>.

### أسماء الأماكن في المملكة وحروف بدايتها:

يعد المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية أكثر المعاجم الجغرافية التي حصرت أسماء المدن والقرى وأهم موارد البادية، وقد استند مؤلفه الشيخ حمد الجاسر على كثير من المصادر والبيانات الرسمية والكتب، إلى جانب قيامه برحلات عديدة في غربي البلاد وشرقيها وشمالها، ومعروف أن مدن وقرى وهجر المملكة لا يتعدى مجموعها أحد عشر ألفاً<sup>(٥)</sup>. أما بالنسبة للمعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية المختصر فقد ضم أكثر من ستة عشر ألف اسم مرتبة على حروف المعجم<sup>(٦)</sup> ووفقاً لهذا الترتيب، فإن حروف بدايات الأسماء تتوزع على النحو التالي:

أكثر الحروف تكراراً في بدايات الأسماء حرف الميم بنسبة ١٦٪ أي ستة عشر

اسماً من كل مئة اسم، يليه حرف العين بنسبة ٩٪، فحرف الحاء بنسبة ٨٪، فحرف الألف ٨٪، ثم حرف القاف بنسبة ٧٪، وحرف الباء بنسبة ٤٪، أي أن هذه الحروف الستة تستأثر بنسبة ٥٢٪، من بداية الأسماء الواردة في هذا المعجم، وأما أقل الحروف تكراراً في بداية أسماء المدن والقرى والهجر، فهو حرف الذال ٠,٥٤٪ (أي أربعة وخمسون اسماً من كل عشرة آلاف اسم) وحرف الياء ٠,٥٧، وحرف الظاء ٠,٥٨، وحرف التاء ٠,٨٣٪.

### أب- ابن- أم- آل في أسماء الأماكن

تزيد أسماء الأماكن التي تبدأ بأبي وأبا وأبو وأم وابن وآل على ألف اسم ونسبة تزيد على ٨٦٪ من مجموع أسماء الأماكن المبدوءة بحرف الألف وفق ما جاء في المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (٧).

أها- أبو- أبي:

تصل أسماء المدن والقرى والهجر وبعض الظاهرات الجغرافية الأخرى المختلفة (جبل/تل/وادي...) إلى نحو ٣٥٠ اسماً، تستأثر منطقتا مكة وجازان بنحو ٥٠٪ من هذه الأسماء، وتتوزع نسب هذه الأسماء على بقية المناطق على النحو التالي:

♦ الرياض ١٥٪.

♦ عسير ٩٪.

♦ الطائف ٧٪.

♦ القصيم ٦٪.

وبقية المناطق نقل نسبة كل منها من هذه الأسماء عن ٥٪، وأقل المناطق في هذا المضمار تبوك والباحة.

وجدير بالذكر أن أسماء الأماكن التي تبدأ بـ (أبو) تنتشر في معظم الأقطار العربية، بل إن كلمة (بو) في الهيروغليفة تعني (مكان) فياترى هل هناك علاقة بين اسم (أبو) وبين (بو) علماً بأن الاسمين كليهما يشيران إلى المكان كما أن هناك أسماء

ورد ذكرها في مصادر قديمة (بو) وأصبحت الآن (أبو) مثل (أبو كبير) في محافظة الشرقية بجمهورية مصر، وقد ذكرت في قوانين ابن ممتي وفي تحفة الإرشاد باسم (بو كبير)<sup>(٨)</sup>.

وهناك من يرى أن اسم (أبو) و (أبا) محرف من (بيث وبيت) وكلاهما آرامي ويحمل أيضاً مدلول مكان الشيء<sup>(٩)</sup>.

ويذهب الشيخان حمد الجاسر، وعبد الله بن خميس إلى أن (أبو) بمعنى (ذو) ومثلها (أبا) بمعنى ذا تلازم العلم دائماً في اللهجة الشعبية وتؤدي معنى (ذو) أي الموضع الذي يتوافر فيه الشيء<sup>(١٠)</sup>.

وهناك أكثر من ثلاثين قرية وهجرة بالملكة تبدأ أسماؤها بـ (أبا) ومن أشهر هذه القرى (أبا الدود) وهي إحدى قرى الأسياح في شمال شرقي القصيم، أما عن سبب التسمية فينقل العبودي عن رجل من أهل الأسياح قوله: إن السيل إذا تتابع عليه وليث الماء في واديه ومضى عليه مدة طويلة أسن الماء وتولد فيه دود، أو قد تكون كلمة الدود من الرائحة الكريهة التي تنشأ عن ركود الماء والتي غالباً ما يقرن وجودها بالدود<sup>(١١)</sup>.

#### أسماء الأماكن التي تبدأ بـ أم

يزيد عدد أسماء الأماكن التي تبدأ بـ «أم» على ٧٥٠ اسماً، منها نحو ٦٥٠ اسماً لقرى وهجر وموارد بادية، وما يزيد قليلاً على ١٠٠ اسم لظواهرات جغرافية طبيعية متنوعة، ويأتي في مقدمة تلك الظواهرات التلال والجبال مثل: أم العاشاش.

وجدير بالذكر أن ثلاث مناطق في المملكة تستأثر بنسبة ٧٦٪ من مجموع أسماء الأماكن البدوئية بـ (أم) وهي عسير ٣١٪، وجيزان ٢٤٪، ومكة ٢١٪، وأقل المناطق في أسماء الأماكن البدوئية بأم هي: حائل والباحة ونجران والقريات حيث تقل النسبة في كل منها عن ٢٪ من مجموع تلك الأسماء، أما منطقة الرياض فيصل نصيبها من مجموع أسماء الأماكن البدوئية بأم إلى ٨٪، والطائف ٦٪، والشرقية ٣٪، والمدينة والقصيم لكل منها ٢٪.

وتعني كلمة (أم) أي ذات، وحينما يطلق اسم «أم الأفاعي» على إحدى الرياض



الواقعة شمالي مدينة بريدة فيمكن أن يكون ذلك دليلاً على أن سبب التسمية لكثرة الأفاعي فيها، وغالباً ما يستخدم الجمع مع (أم) مثل (أم الحرايبب) أي الحفر والشقوق في اللهجة العامية، و (أم الريلان) جمع رأل وهو ولد النعامة، وهذه كلها أسماء أماكن بالقصيم<sup>(١٢)</sup>. وقد تحل أم محل أداة التعريف «أل» بسبب اختلاف اللهجات مثل: (أم خنصر والخنصر) وهي خبرا جنوب شرقي عرعر إلى الشمال من خط أنابيب النفط (التابلين).

و (أم أسودية والأسودية) بمنطقة جازان بقعة (آل الدائر أمداثر) و (وادي البئر وأمبير) و (بقعة السندر، أمسندر) و (بقعة الشامية، آل امشامية) وكل هذه في منطقة جبل فيفا بجازان<sup>(١٣)</sup>.

وتجمع (أم) على «أمات» مثل: أمات السلم منطقة تلال جنوبي الربع الخالي على درجة عرض ١٧ درجة شمالاً وشرقي خط طول ٤٧ درجة شرقاً. ومن المعروف أن جمع (أم) أمات بغير هاء فيما لا يعقل، وبالهاء فيمن يعقل، فالأمهات للناس، والأمات للبهائم وغيرها، وقال ابن بري: الأصل في الأمهات أن تكون للآدميين وأمات أن تكون لغير الآدميين<sup>(١٤)</sup>.

وهناك أيضاً أماكن عرفت باسم أمهات مثل: (أمهات الشوك) وهما روضتان شمالي بريدة، و(أمهات الذيابة) أي ذوات الذيابة جمع الذئب في لغتهم العامية.

### أماكن سعودية ذات أسماء من أصل نباتي

ارتبطت مناطق السكنى في كثير من الأحيان في شبه الجزيرة العربية بالقرب من النباتات مزروعة كانت أم نباتات طبيعية.

فالنباتات كانت تحدد مكان الإناخة وكانت تقصد من أماكن بعيدة، وليس بغريب أن تتخذ أسماؤها لتصبح أعلاماً تميز بها المدن والقرى والهجر والأودية والتلال، وكانت الأسماء تختار إما لانتشار النبات في نفس المنطقة وإما لشهرته والتفاؤل به. وتجدر الإشارة هنا بأن إطلاق أسماء النباتات على المدن والقرى ليس اتجاهًا

مقصوراً على العرب، بل إنه يسود بدرجات متفاوتة في كل مناطق العالم وعلى سبيل المثال اسم فيينا عاصمة النمسا مشتق من كلمة كلتية تعني الشجرة. كما أن مدينة بنها المصرية يتكون اسمها من مقطعين (بي) ومعناه بالمصرية القديمة بيت أو حظيرة، و (نها) ومعناها شجر الجميز<sup>(١٥)</sup>.

### تعليق من أسماء الأماكن ذات الأصل النباتي:

إن عرض أسماء الأماكن ذات الأصل النباتي في هذا البحث ليس جزءاً بأن تلك الأماكن التي يشير إليها البحث سميت أساساً بأسماء النباتات أو ما يمكن اشتقاقه من أسماء تلك النباتات عن طريق التصغير أو الإضافة إلى صفة أو اسم آخر، وإنما يستعرض البحث، في ظل ماتوافر من مصادر ومراجع، نماذج تتشابه فيها أسماء الأماكن مع أسماء النباتات أو ما يمكن اشتقاقه منها، مع الترجيح باحتمال أن تكون تلك الأسماء قد اشتقت من أسماء نباتات، لأن النبات سابق في وجوده وباسمه المدينة أو القرية، وإن كان هذا الترجيح لا يسلم من اعتراضات قد توجه إليه وإلى ما اعتمد عليه من شواهد.

وعلى سبيل المثال: كلمة مثل (الطلح) تتضمن معاني متعددة تتخير منها: الطلح (الاعياء والكلال)، الطلح بالفتح والتحريك (النعمة)، والطلح (مابقي في الحوض من الماء الكدر) والطلح (القراد)، والطلح: شجرة حجازية لها شوك، منابتها بطون الأودية، وهي أعظم العضاة شوكاً وأصلبها عوداً وأجودها صمغاً<sup>(١٦)</sup>.

وقال ابن شميل: الطلح شجرة طويلة لها ظل يستظل بها الناس والإبل.. ولا يثبت الطلح إلا بأرض غليظة شديدة خصيبة، وأحدثه طلحة، وبها سمي الرجل، قال ابن سيده وجمعها عند سيبويه طلوح وطلاح. وإذا قيل إبل طلاحية وطلاحية فهذا يعني أنها ترعى الطلح<sup>(١٧)</sup>.

واستقداً على ما أورده من معاني لكلمة الطلح ومشتقاتها فإني أرجح أن تكون أسماء المدن والقرى مثل: طليحة/ أم طلحة/ طلحاء/ أبو طلح وطلوح وغيرها، وهي

عشرون مدينة وقرية تقريباً، قد اشتقت من اسم نبات الطلح تلك الشجرة الطيبة. ومن النباتات التي تتردد أسماؤها وماشتق منها على قرى وأودية عديدة يصل عددها إلى أكثر من عشرين، النخلة تلك الشجرة المكرمة التي طلب منا رسول الله ﷺ، أن نكرمها، فكرمت بإطلاق أسمائها على كثير من المواضع، ومن أسماء النباتات الأخرى الواسعة الانتشار، والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم السدر ﴿وَأَخْضَبُ الْيَمِينِ مَا أَخْضَبَ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ خَضُودٍ﴾ الواقعة ٢٧/٢٨.

وقد اشتق من السدر أسماء مثل: اسدير، سديرة، السديرة، سديري وغير ذلك، حيث يوجد بالملكة أكثر من عشر مدن وقرى اشتقت أسماؤها من السدر، بالإضافة إلى نحو عشرة أماكن أخرى من أودية وشعاب وخشوم (جمع خشم) تطلق عليها أسماء مشتقة من السدر.

وربما يكون الطرف أكثر النباتات التي اشتقت منها أسماء الأماكن في المملكة حيث يوجد أكثر من عشرين اسماً لمدينة وقرية قد اشتقت من الطرف، ومعظم هذه المدن والقرى في المنطقة الجنوبية.

وهناك أسماء أخرى تتعلق بمننتاجات نباتية كالخشب، ويوجد نحو عشرة أسماء تقريباً ما بين قرى وهجر وأودية وتلال وجبال تحمل أسماء اشتقت من (الخشب) مثل: الخشبية (مكة) والخشبي (القصيم)، والخشابية (جازان)، الخشبية (المدينة المنورة)، الخشبي (الحدود الشمالية) وغيرها.

إن تتبع المصادر والمراجع المتاحة لأسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية يظهر أن بها، ما يقرب من مئتي مدينة وقرية تحمل أسماء ذات أصول نباتية على وجه الترجيح وليس بالتأكيد، وكما سبقت الإشارة فإن أكثر الأسماء النباتية انتشاراً (الطرف) وما صيغ منه من أسماء.

ومن الجدير ذكره أن منطقتي الرياض والقصيم تأتيان في مقدمة مناطق المملكة العربية السعودية من حيث أسماء المدن والقرى ذات الأصول النباتية (تضم الرياض بصفة عامة نحو ٣٠٪، من مجموع تلك الأسماء، تليها القصيم ٢٠٪، ففسير ١٧٪، ثم المدينة المنورة ٨٪، فحائل ٦٪، وبقيّة مناطق المملكة الأخرى ١٩٪، وربما تصدرت

منطقتا الرياض والقصيم بقية المناطق بالملكة في هذا المجال بسبب اتساع مساحة منطقة الرياض، مع توافر النباتات المختلفة وانتشار الزراعة وأماكن الرعي في كل من منطقتي الرياض والقصيم، مما ساعد على الاهتمام بأسماء النباتات وأشاع استخدامها وسيلة للتمييز بين الأماكن.

### بعض أسماء مدن والقرى يرجع اشتقاقها من أصول نباتية:

سبقت الإشارة إلى أن هناك نحو مئتي مدينة وقرية بالملكة تحمل أسماء ذات أصول نباتية، وفيما يلي بعض هذه الأسماء مرتبة ترتيباً أبجدياً.

#### الأرطاوية :

نسبة إلى الأرطى أو الأرطة *Calligonum Com.* ، وهو عبارة عن شجيرة لها فروع كثيرة، وأوراقها خيطية لا يزيد طولها على ٢ سم ، وثمارها حمراء بيضية الشكل غير منتفخة، وتنتشر شجيرات الأرطى في مناطق متفرقة من المملكة في شرقي نجد وشمال الحجاز والمنطقة الشرقية والمنطقة الشمالية<sup>(١٨)</sup>، وهناك سبعة أسماء لمدن وقرى بالملكة من اسم الأرطى مثل: الأرطاوية/ أم أرطى/ أرطاوي/ الأرطاوي وغيرها، وجدير بالذكر أن منطقة الرياض تضم خمسة من هذه الأسماء، على أن أبرزها جميعاً الأرطاوية التي تقع شمال غربي الرياض بنحو ٣٠٥ كم.

#### حريملاء:

تقع مدينة حريملاء شمال غربي الرياض بنحو ٩٠ كم تقريباً، على طريق الرياض/القصب/شقراء، وقد نشأت المدينة لتكون تجمعاً سكانياً قديماً في وادي حريملاء<sup>(١٩)</sup>. ولا يستبعد أن تكون تسمية حريملاء مشتقة من نبات الحرمل، وهو

شجيرة دائمة الخضرة من النباتات غير السائغة للحيوان والتي تستخدم وقوداً ووصفها أولردخبير المراعي بأنها سامة(٢٠) وينمو الحرمل على الأكمات الرملية ويتميز بغروعه الكثيرة.

وهناك نحو عشرة أماكن مابين مدينة وقرية وتلال وأودية تحمل أسماء مشتقة من (الحرمل) مثل: الحرملية وأم حرمل وتلال الحرمليات ووادي الحرملية وغيرها.

### الخرمة

تقع مدينة الخرمة على طريق الرياض/ الطائف، وذلك إلى الشمال الشرقي من مدينة الطائف بنحو ٢٣٠ كم، وقد نشأت المدينة كقرية صغيرة حول وادي الخرمة، وربما تكون تسمية الخرمة مشتقة من نبات Solanum nigrum الذي يعرف كذلك بعنب الديب.

وقد أورد حمد الجاسر في معجمه ست قرى تحمل اسم الخرمة(٢١).

### الخفجي

تقع الخفجي شمال شرقي المملكة على بعد عشرة كيلو مترات تقريباً من الحدود السعودية الكويتية، وهي إحدى المدن الساحلية بالمنطقة الشمالية وقد ظهرت منذ مايقرب من ثلاثين عاماً، فبعد اكتشاف حقل بترول الخفجي أنشأت شركة الزيت العربية مدينة الزهور لعمالها فكانت تلك المدينة نواة للمدينة الحالية(٢٢).

ويرى حمد الجاسر أن الأصل في الاسم الخفجي والعامة ينطقون القاف جيما على لهجة سكان الكويت، وأن الخفق هو المنخفض من الأرض، وكان اسم الخفجي يطلق على رأس من البحر كانت السفن ترسو فيه وكانت فيه آبار عذبة(٢٣).

على أن مذهب إليه حمد الجاسر يلقي بعض المعارضة على أساس أن الخفجي بالجيم، وإذا كان الخفجي يعني الأرض المنخفضة فلماذا يطلق على جبل يقع جنوبي

رياض العوسجيات بالمنطقة الشرقية اسم الخفجي فالأصل عند هؤلاء هو الخفجي.  
وإذا سلمنا بصحة اسم (الخفجي) فإن هذا الاسم يحتمل معاني كثيرة (٢٤) أبرزها أن  
يكون مشتقاً من الخَفَج وهو نبت من نبات الربيع أشبه عريض واحدته خفجة.  
وينمو نبات الخفج في المنطقة الشرقية والمناطق الشمالية والجنوبية ونجد وشمال  
الحجاز (٢٥).

### ومن الأماكن الأخرى التي سميت بأسماء نباتات:

قرية دُخْنَة (مركز قروي) على طريق الرس البجادية في الجزء الجنوبي من  
القصيم على مسافة ٦٠ كيلومتراً من الرس. ودُومة الجندل: وتقع دومة الجندل في  
منطقة الجوف والاسم مشتق من نخلة الدوم *Hyphaene thebaica*.  
والشبيحية هي إحدى قرى بريدة، تقع غربها على مسافة تقدر بنحو ٣٤ كم والاسم  
مشتق من الشيح وهو من النباتات التي تنتشر انتشاراً واسعاً في إقليم نجد.  
وهناك مايقرب من عشرة أماكن تحمل أسماء تبدو أنها صيغت من اسم الشيح.  
وعرعر وهي مدينة نشأت مع ظهور خط التابليين منذ أكثر من أربعين سنة،  
ويحتمل أن تكون تسمية عرعر نسبة إلى نبات العرعر *Juniperus procera*. وجدير  
بالذكر أن هناك مايقرب من عشرة أمكنة تحمل أسماء مشتقة من العرعر.  
والعَوْشَرِيَّة هي قرية من قرى الإمارات الجنوبية بمنطقة القصيم، ولقد اشتق  
اسمها من نبات العَوْسَج *Lycium shawii*.

القَطِيف: وتقع القطيف في المنطقة الشرقية، وربما تكون القطيف قد اكتسبت اسمها  
من نبات القَطَف *Atriplex halimus*.  
القَيْصُومَة: وهي منطقة سكنية نشأت نتيجة لإنشاء خط التابليين وتقع جنوب شرقي  
حفر الباطن. وهناك احتمال كبير بأن يكون اسمها مشتق من نبات القَيْصُوم وهو  
نبات عطري يميل لونه إلي البياض.

السَّمَاص: وهي إحدى مدن منطقة عسير، تقع شمالي أبها بحوالي ١٥٠ كم، وهي

مدينة جبلية (على ارتفاع ٢٣٠٠ متر تقريباً).

وهناك ستة أماكن مابين مدينة وقرية ووادي اشتق اسمها من النّماص والنّص (الحلفا).

ومن الأسماء الأخرى التي لاتخفى على أحد الخروعية قرية بمنطقة الرياض نسبة إلى نبات الخروج، وقرية الرطريات بمنطقة عسير نسبة إلى الرطريط، وأم أثلة بالمنطقة الشرقية نسبة إلى الأثل والأثلة بمنطقة الرياض، والأثلة بعسير، وأم مرخ بمنطقة الرياض نسبة إلى نبات المرخ، واللصافة من هجر المنطقة الشرقية، وآل اللصفاء نسبة إلى نباتات اللصف *Capparis cartilaginea*، واللبيدي إحدى قرى حائل وليّدة إحدى هجر الخاصرة، نسبة إلى نبات اللبيد *Tetrapogon villosus*.

وإضافة إلى أسماء المدن والقرى والهجر ذات الأصل النباتي فإن هناك كثيراً من المظاهر الطبوغرافية التي تتخذ أسماء نباتات مثل الأودية والسبخات والعروق والجبال والتلال، وليس المجال هنا بمتسع لحصر هذه الظواهر، وإنما سوف نذكر بعض النماذج مثل: وادي الأثل بمنطقة عسير، ووادي الخلّة نسبة إلى نبات الخلّة، والخلّة عند الإبل بمنزلة الخبز، ووادي عرنة نسبة إلى نبات العرن وهو أنواع عديدة لجنس نباتي سام (٢٦)، ووادي مرخ نسبة إلى المرخ، وهو شجر كثير النار وفي الأمثال: (في كل شجر نار واستمجد المرخ والغار) (٢٧). وهناك ثلاثة أودية تحمل اسم وادي الغضى نسبة إلى نبات الغضا، وتل العاقولة نسبة إلى نبات العاقول وهناك فيضات وسبخات وروضات سميت بأسماء نبات مثل: فيضة العجرمية نسبة إلى شجر العجرم، وسبخة العوسجية، وسبخة العكرشية، وروضة أم شبرم، وروضة أم عثر، وروضة الشيع وغيرها.

بعض أسماء المدن والقرى السعودية ذات الدلالة التضاريسية:

إن المدينة أو القرية والهجرة كيانات عمرانية ومستوطنات بشرية ذات أبعاد مكانية، والمكان جزء من سطح الأرض وليس سطح الأرض في مجمله إلا مظاهر

تضاريسية متنوعة.

لقد جرت العادة في كثير من الأحيان على أن يسمى المكان باسم الظاهرة التضاريسية التي تغلب على طبيعته، وهذا اتجاه مألوف لدى جميع شعوب العالم لا سيما في العصور القديمة.

ولما كانت مظاهر السطح تختلف في القطر الواحد من منطقة إلى أخرى فذلك تختلف الأسماء المشتقة عن هذه الظاهرات وتتنوع وفق مايسود كل منطقة، وعلى سبيل المثال: اسم (الشَّعْب) وهو مسيل الماء أو مانفراج بين جبلين ينتشر وجوده بصيغ مختلفة في جميع مناطق المملكة حتى أنه ليوحد أكثر من ١٧٠ قرية وهجرة اشتقت أسماؤها منه تقع أكثر من مئة قرية وهجرة منها بمنطقة عسير والطائف ومكة وذلك لانتشار المرتفعات والجبال في تلك المناطق (٢٨).

ومثال آخر، اسم مثل (الخبْ) وهو الطريق بين الكتبان الرملية كهينة الفالق بكثرة وجوده في مناطق الكتبان الرملية التي تتميز بوجود مستوطنات بشرية، كما هي الحال في منطقة القصيم حيث يوجد أكثر من عشر قرى تقع بهذه الخبوب مثل خب الجطيلي وخب القصبة شمال غربي عنيزة، وخب الثنيان وخب روضان وخب الطلحة جنوبي غربي بريدة.

وبمنطقة الرياض تكثر الأسماء المشتقة من الرُوضة، وهو المكان الذي تستريح فيه المياه، ومن هذه الأسماء الروضة/ الروضة (تسعة أسماء) كما تكثر الأسماء المشتقة من القاع، وهو مااستوى من الأرض لاحصى فيه وتنصب إليه المياه، ومن هذه الأسماء: القاعية والقويع وقويعان (ثمانية أسماء تقريباً) كما تكثر الأسماء المشتقة من العين مثل العيينة والعين من قرى الخرج وعين الراحة وعين الصوينع من قرى الدوادمي وعيينة الهمة بوادي الدواسر.

وفيما يلي نستعرض بعض أسماء المدن والقرى والهجر التي لها أسماء ذات دلالات تضاريسية وذلك وفق ترتيبها الهجائي:

- أبرق: هو الجبل الذي يجلله الرمل، ومنها البرقة والبرقاء وهي الأرض الغليظة المختلطة بالحجارة والرمل، وجمعها برق وبراق، وإذا اتسعت فهي الأبرق، وجمعها



أبارق، وقال الأصمعي الأبرق والبرقاء غلظ منه حجارة ورمل وطين مختلطة (٢٩)، ويرجع ذلك لاختلاف الألوان وتباينها، فالتيس الأبرق فيه سواد وبياض. وتتعدد أسماء القرى والهجر التي اشتقت أسماؤها من البرقة والأبرق حتى لتصل إلى مايقرب من ثلاثين قرية وهجرة منها الأبرق من قرى منطقة العلا، وبرقة من قرى منطقة إمارة حائل (٣٠).

- الأبطح والأباطح: مشتقة من البطحاء وهو مسيل فيه دقاق الحصى. ومما ورد في المعاجم اللغوية والجغرافية نستنتج مجموعة من الخصائص تميز البطاح منها: البسط، ودقاق الحصى، والتراب اللين، والتسوية والانتساع (٣١). وتكرر ذكر (البطح) وما اشتق من هذا اللفظ من أسماء نحو عشرين مرة وذلك في المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، لحمد الجاسر (٣٢) وكلها أسماء لقرى وهجر.

#### - الأحياء - الحصى - الحسى - الحشرج:

الأحياء جمع حصى وهو منقع الماء ولا يكون إلا فيما سهل من الأرض، وقيل الحصى غلظ من الأرض فوقه رمل يجتمع فيه ماء السماء، فكلما نزحت دلواً جمعت أخرى.

وهناك مايقرب من عشر قرى وهجر اشتقت أسماؤها من الحصى والحسو والأحياء بالإضافة إلى ثلاث قرى اشتقت أسماؤها من الحشرج حين يكون في الحصى، ولاشك أن مدينة الأحساء بالمنطقة الشرقية هي أشهر الأماكن التي اشتقت أسماؤها من الحصى.

#### الجال:

يطلق في شبه الجزيرة العربية مصطلح الجال على صفحة الجبل القائمة (٣٣) ويقابل هذا المصطلح مايعرف بالحقافة أو الكويسنا Cuesta وهي كلمة إسبانية.

### جبل/ جبيل/ جبيلة

الجبل اسم لكل مرتفع عالٍ من سطح الأرض له قمة، وجبيل وجبيلة تصغير للجبل والجبلة، وتضم المملكة العربية السعودية ما يقرب من ثلاثين اسماً لمدينة وقرية ومعظم هذه الأسماء في منطقة إمارة بلاد عسير وبمنطقة جازان. على أن أشهر تلك السميات مدينة الجبيل في المنطقة الشرقية، ولقد أصبحت الجبيل مركزاً صناعياً مهماً للبتر وكيمياويات. جدّة: جاء في لسان العرب أن الجدّة شاطئ النهر ومنها جدة ساحل البحر بحذاء مكة، وجدة كل شيء جانبه<sup>(٣٤)</sup>.

### الجو/ جو/ جوة

قال ابن سيده: الجو الوطاء السهل في الأرض مالان ورقّ وجمعه جواء، والجوة المنخفض من الأرض<sup>(٣٥)</sup>. ويوجد أكثر من عشرين قرية اشتقت أسماؤها من الجو مثل: الجو من قرى آل مطير من بني مالك في إمارة بلاد عسير، والجو من قرى أضرم بمنطقة الليث في إمارة مكة المكرمة. الجوّف: هو المظمن من الأرض<sup>(٣٦)</sup>، وبالمملكة العربية السعودية أكثر من عشر مدن وقرى تتسمى بأسماء مشتقة من الجوف مثل الجوف من قرى البرك في إمارة مكة المكرمة، والجوف بمنطقة نجران والجوفاء من قرى بني شهر في إمارة بلاد عسير، والجوفة من قرى رابغ بمنطقة إمارة مكة المكرمة<sup>(٣٧)</sup>.

### الحوطة/ الحوْط

الحوطة هي المكان الذي تحوطه إحدى الظاهرات المختلفة وغالباً ما تكون الحوطة منطقة منخفضة نسبياً تحيط بها المرتفعات، ويوجد بالمملكة نحو عشر مدن وقرى

اشتقت أسماؤها من الحوطة وأشهر هذه المدن والقرى مدينتا الحوطة (حوطة بني تميم) و (حوطة سدير).

### الخبرة أو الخبراء

عبارة عن ظاهرة ترتبط بسطح الأرض وتتمثل في منخفضات لا يزيد عمقها عما يجاورها على بضعة أمتار ويتريض فيها الماء أحياناً وتنبث بها النباتات وخاصة السدر والآراك، ولذلك أطلقت العرب اسم الخبراء (جمع خبراء) على منابت السدر. ويوجد بالمملكة العربية السعودية نحو خمس عشرة مدينة وقرية تحمل أسماء اشتقت من الخبرة أشهرها مدينة الخبر في المنطقة الشرقية ورياض الخبراء في القصيم.

### الخرج

عرف ابن سيده الخرج بأنه وادٍ لا منفذ له<sup>(٣٨)</sup>، فإذا انتهى الوادي إلى منطقة متسعة عرفت بالخرج فالخرج بذلك يتشابه مع التنتية أي مكان انتهاء السيل، وبالمملكة خمس مدن وقرى على الأقل تحمل أسماء مشتقة من الخرج مثل الخرجة في منطقة الجمع بين اللونين الأسود والأبيض، وقد أشار لسان العرب إلى أن الخرجاء قرية في طريق مكة سميت بذلك لأن في أرضها سواداً وبياضاً<sup>(٣٩)</sup>.

وتعد مدينة الخرج، التي وصفها ابن منظور بأنها اسم موضع باليمامة منذ ما يقرب من ثمانية قرون بأنها أشهر الأماكن التي سميت بالخرج، وتقع هذه المدينة جنوب شرقي الرياض بأكثر من ثمانين كيلومتراً وهي وسط منطقة سهلية خصبة تتوافر فيها المياه.

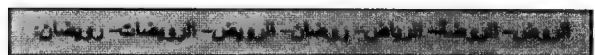
### الخيف

الخيف هو ما ارتفع عن موضع السيل وانحدر عن غلظ الجبل، وسمي مسجد منى

بمسجد الخيف لأنه في سفح جبلها<sup>(٤٠)</sup>. وماتجدر الإشارة إليه أن بالملكة مايقرب من خمسة عشر اسماً لقرى كلها تقريباً بمنطقة الحجاز تحمل اسم الخيف وخيف. منها ست قرى بمنطقة إمارة المدينة المنورة<sup>(٤١)</sup>.



**قال ابن منظور: الدارة كل أرض واسعة بين جبال وجمعها دور ودارات، وقال الأصمعي: الدارة رمل مستدير قدر ميلين تحفه الجبال وقال: هي الجوبة الواسعة تحفها الجبال<sup>(٤٢)</sup>. وذكر ياقوت الحموي: أن دارات العرب تنيف على ستين دارة.**  
وأما بالنسبة للقرى والهجر التي تتخذ اسم الدار أو الدارة فهي تقرب من ثمانين قرية وهجرة منها مايقرب من ثلاثين قرية في منطقة إمارة الطائف وحدها وخمس عشرة قرية بمنطقة مكة المكرمة<sup>(٤٣)</sup>.



**جاء في معجم لسان العرب أن الروضة هي الموضع يجتمع إليه الماء يكثر نبتة، وقيل الروضة عشب وماء ولا تكون روضة إلا بهما معاً، وكأن الروضة سميت روضة لاستراضة الماء فيها.**

**وجدير بالذكر أن ياقوت الحموي تناول الرياض التي ببلاد العرب فقدرها بنحو مئة وأربعين روضة، وقال: والرياض المجهولة كثيرة جداً إنما نذكر هنا الأعلام منها وماأضيف إلى قوم أو موضع أو وادٍ أو رجل بعينه<sup>(٤٤)</sup>.**

**وقد جاء في المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية لعلامة الجزيرة حمد الجاسر، ومعجم الأسماء الجغرافية المكتوبة على خرائط المملكة العربية السعودية لأسعد عبده، مايقرب من أربعين اسماً مشتقاً من الروضة مثل: الرياض والروض والرويض وغيرها<sup>(٤٥)</sup>.**

وتعد مدينة الرياض أشهر المدن التي اشتق اسمها من الروض والروضة.

### شعب - الشعب - الشعبة

الشعب ما انفرج بين جبلين، والشعب مسيل الماء في بطن من الأرض، والشعبة المسيل الصغير وشعب الجبال رءوسها، وقيل ما تفرق من رءوسها<sup>(٤٦)</sup>، وجدير بالذكر أن هناك أكثر من ١٧٠ اسماً لقرية وهجرة اشتقت أسماؤها من شعب والشعب والشعبة. بالنسبة لشعب، فهناك ما يقرب من مئة قرية معظمها في إمارات بلاد عسير والطائف وتهامة، أما الشعبة فهناك أكثر من خمسين قرية وهجرة تعرف بالشعبة أو تنسب إلى شيء آخر مثل شعبة أنصاب في إمارة عرعر<sup>(٤٧)</sup>.

### العرق - عروق - عريق

العرق عبارة عن تكوين رملي طولي ضيق يمتد لمسافات طويلة كالحبال ولهذا يعرف كذلك بالحبل، وغالباً ما تكون العروق سلاسل رملية ضيقة متوازية وتنتشر العروق في صحراء الربع الخالي وصحراء الدهناء بصفة خاصة. ويصل عدد القرى التي اشتقت أسماؤها من العرق إلى نحو خمسين قرية تنتشر في إمارة بلاد عسير ومكة المكرمة والطائف ومنطقة جازان.

### العطف - العطف - العطف - عطف

العطف الانحناء للوادي أو جانب الجبل، ومنعطف الوادي منعرجه ومنحناه وتورد العطف ومشتقاتها في أسماء أكثر من ستين قرية من قرى المملكة، تستأثر إمارة بلاد عسير بأكثر من خمسين اسماً، وتأتي العطف معرفة ومفردة كما في العطف من قرى بني شهر في إمارة بلاد عسير، ويأتي الاسم عطف مفرداً أو مضافاً مؤنثاً، ومعرفاً

مثل العطفة من قرى المعالية بمنطقة الليث في إمارة مكة المكرمة<sup>(٤٨)</sup>.

### العين - عين - العين - العين:

العين ينبوع الماء الذي ينبع من الأرض ويجري، والجمع أعين وعيون، واسم العين ومشتقاتها من أكثر الأسماء شيوعاً في المملكة حيث يوجد ما لا يقل عن مئة مدينة وقرية وهجرة اشتقت أسماؤها من عين ومشتقاتها، منها ثلاثون قرية وهجرة في إمارات مكة وعسير والمدينة والقصيم والباحة تعرف بالعين، وتعد عين ابن فهد من أشهر المستوطنات التي اشتقت أسماؤها من العين، وتقع عين ابن فهد إلى الشمال الشرقي من بريدة.

### القاع - القاعة - القويع - القويعة:

أرض واسعة سهلة مستوية لا ارتفاع ولا انهباط، تنفجر عنها الجبال والآكام ولا حصى فيها ولا حجارة ولا تنبت الشجر، وقيل: هو منع الماء في حر الطين. ومن التعريفات السابقة يتضح لنا أن القاع عبارة عن أرض مستوية تحيط بها أراضٍ ترتفع عنها وتنصرف مياه هذه الأراضي المرتفعة إليها. ونظراً لانتشار هذه الظاهرة في معظم مناطق المملكة فإن هناك ما يقرب من خمسين مدينة وقرية اشتقت أسماؤها من القاع. وتعد مدينة القويعة التي تقع جنوب غربي الرياض على بعد ١٧٠ كم أكبر الكيانات العمرانية التي اشتقت أسماؤها من القاع بالمملكة العربية السعودية، وترجع نشأتها إلى أواخر القرن الحادي عشر الهجري، وقد اكتسبت تسميتها من وادي القويع (تصغير قاع).

### القرن - قرن - القرنين - القرون - قرين:

ذكر ابن سيده في المخصص أن القرن القطعة من الجبل تستطيل صاعدة<sup>(٤٩)</sup>، وقيل القرن هو الجبل المنفرد، وقيل قطعة تنفرد من الجبل، وقيل هو الجبل الصغير

والجمع قرون وقران (٥٠)، وجدير بالذكر أن بالمملكة أكثر من مئة وخمسين قرية اشتقت أسماؤها من القرن مثل: القرن بمنطقة الباحة.

**القوز:** هو كتيب الرمل الصغير، وقيل هو المستدير من الرمل كأنه هلال، وذكر ابن سيده أن القوز نفا (أي كتيب من الرمل) مستديرة من الرمل وجمعها أقواز وأقاوز وقيزان (٥١).

ويصل عدد القرى التي اشتقت أسماؤها من القوز إلى أكثر من ثلاثين قرية، منها القوز من قرى الليث بإمارة مكة المكرمة. وهناك من يذهب إلى القول بأن تسمية جيزان محرفة عن قيزان لكثرة القيزان بمنطقة جازان.

**النيد:** هناك أكثر من خمس وعشرين قرية تعرف بالنيد ونيد، منها ثلاث وعشرون في جازان، والنيد في لهجة منطقة جازان الجهة المنخفضة بين جبلين أو بين قمتي جبل وتصلح للاستيطان (٥٢).

هناك أسماء أخرى كثيرة متنوعة أثرت ألا أنطرق إليها لأمرين: الأمر الأول تجنب الإطالة التي قد تكون سبباً للملل؛ والأمر الثاني أن هذه الدراسة ليست بالدراسة المستقصية وإنما اكتفيت بالمشهور من الأسماء وإن قل عدد مسمياتها، وذكرت المتعدد من الأسماء وإن لم يكن مشهوراً

### أسماء الأماكن مشتقة من الأجرام السماوية

تتخذ بعض المدن والقرى أسماء مشتقة من الأجرام السماوية مثل (بدر) وهي مدينة بمنطقة المدينة المنورة على بعد ١٥٠ كم جنوب غربي المدينة المنورة و (الشمس) من قرى الرشم بمنطقة الرياض، و (قمر) وهي قرية صغيرة شمال الخوية بجازان. و (مريخ) من موارد المياه بالمنطقة الشرقية، و (النجمة) من قرى بني ثابت بإمارة الطائف، و (الهلالية) من قرى منطقة القصيم.

### أسماء أماكن بعضها من مشتقة من الأرقام

تشيع في معظم دول العالم أسماء الأماكن المشتقة من الأرقام، ويرجع ذلك إلى

ارتباط هذه الأرقام بقصص أو أساطير، أو بسبب تقاؤل الناس بها.  
ومما يجدر ذكره أن في المملكة العربية السعودية مالا يقل عن ثلاثين اسماً لموارد  
مياه وقرى ومدن ترتبط أسماؤها بالأرقام، ومن أشهر هذه الأماكن مدينة تثليث،  
وتبعد نحو ٢٣٥ كم شمال شرقي مدينة أبها.

ومن الأسماء الأخرى (الثاني) من قرى الطائف بمكة، و (ثلاثوة) بمنطقة حائل، و  
(رباع) قرية في سراة زهران، و (الربع) و (الربعين) من قرى منطقة الليث بمكة  
المكرمة. وبالنسبة للربع الخالي فيذهب بعض الباحثين إلى أن العرب نظرت إليه  
وكأنه يساوي ربع جزيرتهم، وأنه شبه خال فأطلقوا عليه الربع الخالي<sup>(٥٣)</sup>، إلا أنني  
لأنتفق مع هذا الرأي لأنه يثير تساؤلات وهو من أين للبدو أن يعرفوا مساحة هذا أو  
تلك حتى يطلقوا تعبير (الربع الخالي)؟!، إن تسمية الربع الخالي لم تظهر إلا حديثاً إذ  
أن هذه المنطقة كانت تعرف (بمغارة صيهد) وعرفت (برملة يبرين) وعرفت بالرملة،  
وفي رأيي أن التسمية يمكن أن تكون (الربع الخالي) بفتح الراء أي المكان الخالي  
وتسمية الربع سائدة بين البدو، ويرجح هذا الرأي أن تسمية الربع الخالي جاءت في  
كتاب يرجع إلى سنة ١٨٧٢م أي أكثر من مئة عام، وهو أقدم ذكر صادفته للربع  
الخالي حتى الآن، وعنوان الكتاب: Arabia before Muhammad: تأليف دلاسي  
أوليري Delacy O'Leary وجاءت ترجمته Abode of emptiness (أي المكان  
الخالي)<sup>(٥٤)</sup> أما إذا كانت الربع الخالي بضم الراء فإنما تشير إلى الركن إي الركن  
الخالي. ومن الأسماء الأخرى المشتقة من الأرقام (الخمس) من قرى منطقة جازان،  
و (سدس) من قرى حريملاء، و (سبع) مورد مائي في سلوا بالمنطقة الشرقية.  
ومن الأسماء التي ترتبط بالرقم عشرة (العشرة) أربع قرى في عسير ومكة،  
و (العشرات) من قرى اضم بمنطقة الليث، وأبو اتعشر (العشرة) من قرى العارضة  
بمنطقة جازان.

بعض أسماء ذات دلالات لونية

تنتشر أسماء الأماكن ذات الدلالات اللونية في غالبية أقطار العالم وغالباً ما تستند



هذه الأسماء إلى بعض الأسماء مثل لون الارسابات أو المياه أو لون الرمال والأحجار أو لون المباني، وعلى سبيل المثال: الدار البيضاء، البحر الأحمر، البحر الأسود، ويوجد بالمملكة العربية السعودية بضعة عشرات من الأسماء المشتقة من الألوان تأتي مفردة مثل (الأبيض) وهما قرينتان الأبيض الأعلى والأبيض الأسفل من قرى أبي عريش بمنطقة جازان، أو مقترنة مثل (أصفر الطريق) أو بصيغة التصغير مثل (الأصفر). ومن نماذج الأسماء ذات الدلالة اللونية (البيضاء) من قرى بني الحرث شرقي بلدة الخوبة بجازان، و(بيضاء) جنوب غربي العارضة بجازان و(أبان الأسمر) و(أبان الأحمر) وهما جبلان يقعان غربي مدينة الرس بنحو خمسين كيلومتراً، ومتوسط المسافة التي تفصل بينهما نحو ٢٠ كيلومتراً أحدهما شمالي مجرى وادي الرمة، وكان يسمى أبان الأسود قديماً، والثاني جنوبي وادي الرمة وهو أبان الأحمر.

وهناك أسماء أخرى مثل: أصفر الطريق، وأبي الأزرق والأسود والأسودية وغيرها.

### أسماء أماكن تقترب إلى أيام الأسبوع

نمت كثير من المدن والقرى نتيجة الأسواق الأسبوعية التي تعقد بها، ومعروف أن ظاهرة الأسواق الأسبوعية ظاهرة منتشرة مألوفة في جميع مناطق المملكة حيث ينتقل التجار ببضائعهم من سوق إلى أخرى وفق يوم انعقادها، وتكثر الأسواق الأسبوعية في منطقة عسير ومنطقة الباحة بسبب وجود العوائق الجبلية والاعتماد على الدواب، وفي منطقة تهامة يقل عدد الأسواق بسبب سهولة السطح إلى حد ما، وغالباً ما تكون الأسواق الأسبوعية عند ملتقى الأودية. وقد زالت بعض الأسواق الأسبوعية من بعض المناطق كما هي الحال في الباحة مثل: آل نعمة والصفح والرومي والعشامرة والمروة وشنقل ونيرا الأحد، ونيرا السبت.

وجدير بالذكر أن الأسواق الأسبوعية ليست ظاهرة اقتصادية فحسب بل ظاهرة

اجتماعية، حيث يجتمع الناس ويتناقشون فيما بينهم ويستفسرون عن أخبار الأمطار وأحوال المعيشة<sup>(٥٥)</sup>.

وما زالت أسماء بعض المدن والقرى تحمل دلالة هذه الأيام مثل: (أحد رُفيدة) بمنطقة عسير.

ومن الأسماء الأخرى التي تبدأ بأحد (أحد بني زيد) و (أحد المشايخ) و (أحد المشعل) وكلها قرى في منطقة مكة<sup>(٥٦)</sup>.

ومن القرى التي تنسب إلى يوم الإثنين (اثنين بالأسمر) في منطقة أبها، ومن القرى التي تنسب إلى يوم الثلاثاء (ثلوث الحزم) من قرى القنفذة بمنطقة مكة المكرمة، و (ثلوث المنظر) و (ثلوث عمارة) بمنطقة مكة و (ثلثاء الحميد) بغامد في الباحة، و (ثلوث ريم) بإمارة الحبيل بمنطقة عسير.

أما بالنسبة ليوم الأربعاء فهناك: (ربوع قريش) و (ربوع الصفح) بمنطقة الباحة، وإمارة (الربوعة) بجازان.

(الخميسين) مثني الخميس، من قرى صامطة بمنطقة جازان، و (خميس الشعراء) و (خميس المخوة) في تهامة زهران بالباحة، و (خميس حرب) قرية بإمارة القنفذة بمنطقة مكة المكرمة، و (خميس برحرح) في سراة زهران بالباحة، ومدينة (الخميس) التي تقع شرقي مدينة أبها بنحو ٢٥ كم وهي المركز التجاري لمنطقة عسير.

أما بخصوص يوم الجمعة، فهناك قرية (الجمعة) بإمارة الضبية بمكة المكرمة، وإمارة (جمعة ربيعة) بمنطقة عسير، و (الجمعة) بإمارة سلطان حجلا بمنطقة عسير، ومن الأماكن التي تنسب إلى السبت (سبت تنومة) بإمارة تنومة بعسير، و (سبت العلايا) بإمارة بلقرن بمنطقة عسير، و (سبت حجاب)، وفي منطقة الباحة عدة قرى منها (سبت بلجرشي) و (سبت غُشمر) في سراة غامد و (سبت المندق) و (سبت النقعة) و (سبت الرومي) في سراة زهران، و (سبت رما) في تهامة زهران و (سبت الجارة) من قرى القنفذة بمنطقة مكة المكرمة.

## المقدمة

يبدو جلياً من عرضنا السابق لنماذج مختلفة من أسماء الأماكن السعودية، أن تلك الأسماء تجسد اتجاهات وأفكاراً مختلفة، فقد تنسب الأسماء لصفات بارزة تميز طبيعة أرض المنطقة أو المكان، وقد تنسب إلى ما اشتهرت به المنطقة من النباتات، وقد تنسب إلى أشخاص أو حيوانات وحشرات. وتتباين هذه الأسماء من حيث أنماط اشتقاقها فقد يكون الاسم مفرداً أو مركباً وقد يكون جمعاً، وأحياناً تأتي التسمية على صيغة التصغير أو صيغة المبالغة، وقد تأتي على وزن فعل أو اسم فاعل.

لقد تتبعنا في هذا البحث أصول اشتقاق أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية بوصفها نموذجاً يوضح بما لا يدع مجالاً للشك في أن معرفة أصل اشتقاق الأسماء ودلالاتها هو أهم العناصر التي يمكن الاعتماد عليها في تصحيح نطق وكتابة أسماء الأماكن، ليس فقط في المملكة العربية السعودية، ولكن في سائر أقطار الوطن العربي.



## المصادر والمراجع

- ١- السهمودي، (د.ت) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج ١، دار إحياء التراث العربي، ص ٧ - ٢٧.
- ٢- محمد محمود محمد (١٤٠٨هـ)، أسماء مكة المكرمة، مجلة البلديات، المملكة العربية السعودية، وزارة الشؤون البلدية والقروية، العدد ١٤، شوال ١٤٠٨هـ، ص ٢١ - ٢٧.
- ٣- محمود الشرقاوي، د.ت، أم القرى، دار الإسلام بالقاهرة، ص ١٤.
- ٤- الشيخ الإمام كمال الدين أبي البركات، سنة ١٣٨٠هـ الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، ج ١، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ص ٧.
- ٥ - مملكة العربية السعودية، وزارة الأشغال العامة والإسكان (١٩٨٧م)، السكن للجميع، الرياض، ص ١٦ - ٢٥.

- ٦- حمد الجاسر(د.ت) المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، معجم مختصر، القسم الأول، ص٣.
- ٧- المرجع السابق نفسه. ص ١٤٥-٢٤٥.
- ٨- عبدالمحسن بكير (١٩٨٢)، قواعد اللغة المصرية القديمة، ط٤، القاهرة، ص ٩٩.
- ٩- جمال بابان (١٩٧٦م)، أصول أسماء المدن والمواقع العراقية، ج١، مطبعة المجمع العلمي الكردي، بغداد، ص ٤.
- ١٠- حمد الجاسر (١٣٩٩هـ) المعجم الجغرافي... المنطقة الشرقية، القسم الأول ص ٩٩، عبدالله بن خميس، المعجم الجغرافي (١٤٠٠هـ) معجم اليمامة، ج ١، ص ٥٦.
- ١١- محمد بن ناصر العبودي (١٣٩٩هـ) المعجم الجغرافي... بلاد القصيم، القسم الأول، ص ٢٤٨.
- ١٢- العبودي، مرجع سبق ذكره، ص ٣٨٠-٣٨٤.
- ١٣- محمد بن أحمد العقيلي (١٣٩٩هـ) المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية مقاطعة جيزان، منشورات دار اليمامة، الرياض، ص ٣٢٤-٣٣٢.
- ١٤- ابن منظور (د.ت) لسان العرب، ج٢، دار صادر، بيروت ص ٢٩.
- ١٥- محمد رمزي، (١٩٥٤)، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عصر قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م، مطبعة دار الكتب المصرية، ج١، ص ٢٦.
- ١٦- ابن منظور، مرجع سبق ذكره، ج٢، ص ٥٣٠-٥٣٢.
- ١٧- المرجع السابق نفسه، ص ٥٣٣.
- ١٨- Migahed, A., M., Flora of Saudi Arabia Riyadh University publication-1978, Vol.I. p. 196.
- ١٩- وزارة الشؤون البلدية والقروية، وكالة تخطيط المدن (١٤٠٧هـ)، أطلس المدن السعودية، الوضع الراهن، ص ١٦٥.
- ٢٠- أولرد، ب، و، (د.ت) المراعي وإدارتها، مترجم، وزارة الزراعة والمياه المملكة العربية السعودية، ص ٩٥.
- ٢١- حمد الجاسر، المعجم الجغرافي للبلاد السعودية، مرجع سبق ذكره، القسم الأول، ص ٥٢١.
- ٢٢- أطلس المدن السعودية، مرجع سبق ذكره، ص ٥٩.
- ٢٣- حمد الجاسر، المعجم الجغرافي... المنطقة الشرقية، القسم الثاني، ص ٦٠٩.
- ٢٤- من هذه المعاني: عوج في الرجل، والخفق الماء الغليظ، وبه خفاج أي كبر.
- ٢٥- مجاهد، مرجع سبق ذكره، ج١، ص ٨٥.
- ٢٦- محمد نذير سنكري (١٣٩٦هـ) مبادئ التراث العربي في البيئة النباتية الصحراوية، الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، جامعة حلب ص ٢٤٣.
- ٢٧- الأصمعي: (١٩٧٢م) كتاب النبات، تحقيق يوسف الغنيم، القاهرة، ص ٣٤.
- ٢٨- أسعد سليمان عبده (١٤٠٤هـ)، معجم الأسماء الجغرافية المكتوبة على خرائط المملكة العربية السعودية مقاس ١:٥٠٠٠٠٠، ص: ٢٦٧-٢٦٩، وحمد الجاسر، القسم الثاني من المعجم

المختصر، ص: ٧٨٥-٧٩٦.

- ٢٩- ابن منظور، لسان العرب، ج١، مصدر سبق ذكره، ص ١٦.
- ٣٠- حمد الجاسر، المعجم الجغرافي، مرجع سبق ذكره، القسم الأول، ص ١٥٠-٢٧١.
- ٣١- ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص ٤١٢-٤١٤.
- ٣٢- حمد الجاسر، المعجم الجغرافي، مرجع سبق ذكره، القسم الأول، ص: ٢٨١-٢٨٣.
- ٣٣- عبدالله بن محمد بن خميس (١٤٠٧هـ) تاريخ اليمامة، الرياض، ج٣، ص ١٢.
- ٣٤- ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص ١٠٨.
- ٣٥- ابن سيده، دت، المختصر، السفر العاشر، ص ١٢١.
- ٣٦- معجم البلدان، ج٩، ص ٣٤.
- ٣٧- حمد الجاسر، المعجم الجغرافي...، القسم الأول، ص ٣٩٠-٣٩١.
- ٣٨- ابن سيده، المختصر، مصدر سبق ذكره، السفر العاشر، ص ١٠٧.
- ٣٩- ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص ٢٥٢.
- ٤٠- ابن سيده، مصدر سبق ذكره، السفر العاشر، ص ٨٠-٨٢.
- ٤١- حمد الجاسر، المعجم الجغرافي، القسم الأول، ص ٥٥١-٥٥٣.
- ٤٢- ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص ٢٩٦.
- ٤٣- حمد الجاسر، مرجع سبق ذكره، القسم الأول، ص ٥٥٨-٥٦٣.
- ٤٤- ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة: روضة.
- ٤٥- حمد الجاسر، المعجم الجغرافي، القسم الثاني، مرجع سبق ذكره، ص ٦٥٤-٦٥٩، ٦٦٤، وأسد عبده، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٣-٢٢٦.
- ٤٦- لسان العرب، ج١، ص ٤٩٨.
- ٤٧- حمد الجاسر، المعجم الجغرافي، القسم الثاني، مرجع سبق ذكره، ص ٧٨٥-٧٩٦.
- ٤٨- المرجع السابق نفسه، ص ٩٥٤-٩٨٣.
- ٤٩- ابن سيده: المختصر، السفر العاشر، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥.
- ٥٠- لسان العرب، مصدر سبق ذكره، ج ١٣، ص ٣٣٤.
- ٥١- ابن سيده: المختصر، السفر العاشر، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥.
- ٥٢- حمد الجاسر، المعجم الجغرافي، القسم الثالث، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٨٥-١٤٨٧.
- ٥٣- عاتق بن غيث البلادي (١٤٠٢هـ) بين مكة وحضرموت، مكة المكرمة، ص ٢٢٠.
- ٥٤- محمد محمود محمد، (١٣٩٩هـ) دراسات في الأسماء الجغرافية العربية-مجلة الدارة، ع ٤، ص ٢٣٨.
- ٥٥- عبدالله سالم الزهراني (١٤٠٤هـ) أسواق الباحة، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة الملك سعود، ص ٩٨-١١٢.
- ٥٦- حمد الجاسر، المعجم الجغرافي، مرجع سبق ذكره، القسم الأول، ص ١٧٨.



# النهاية بالتراث لماذا؟..

مصطفى أمين جادين

التراث الفكري والفني لكل أمة أعز ما في ماضيها المجيد التليد، تستمد منه القوة والحيوية والتجديد والتطور، وتهتدي به في دياجير الأحداث وتقيم عليه حاضرها المشرق الباهر، وتباهي به وتكاثر وتفاخر ..

ولقد كان لتراثنا العربي الفكري والفني والحضاري تقدير عظيم لا يزال يثير الإعجاب، وينطق العلماء من الشرق والغرب بالثناء عليه؛ ولا عجب فهو كنوز ثمينة ضخمة متنوعة الجواهر، من الواجب علينا أن ننقب عنها، وأن نزيل عن نفائسها الغبار، وألا نتركها نهياً للضياع ..

ومن ثم نجد جدوى الحفاوة بهذا التراث العربي القديم، والإجابة عن تساؤل بعض الناس عن جدوى الحفاظ على تراثنا، وما تجشمنه غناء الكتابة في هذا الموضوع إلا ليكون في جملته إجابة عن ذلك السؤال ..

إن تراثنا مدين في تواصله وتكامل مقوماته إلى طوائف أربع من الناس: أما الطائفة الأولى: فهي التي نرفع أيدينا تقديراً لها، وإعظاماً لشأنها، وثناءً عليها، فهي طائفة العلماء والأدباء الذين أفنوا أعمارهم في التفكير المثمر والإنتاج الغزير، نثراً وشعراً وعلماً وفناً، وكانوا يطربون لصرير أقلامهم كما يطرب الموسيقار لألحان الآلة التي يعزف عليها .. وهم والحمد لله يعدون بالعشرات بل بالمئات في أغلب الأمصار والعصور ..

وأما الطائفة الثانية: فهي طائفة أرباب المكتبات العامة، وأصحاب المكتبات الخاصة، من ملوك وأمراء وأثرياء وعلماء، لأنهم صانوا كنوز التراث حتى وصلت إلينا تطلبتنا بنشرها ..

ولولا الكنوز التي صانوها ما عرفنا شيئاً عن تفاسير الطبري (٣١٠ هـ) .. والزمخشري (٥٣٨ هـ)، والقرطبي (٦٧١ هـ)، وابن كثير (٧٧٤ هـ) وغيرهم .. وما علمنا شيئاً عما جمعه البخاري (٢٥٦ هـ)، ومسلم (٢٦١ هـ)، وابن حنبل (٢٤١ هـ)، ونظراؤهم من علماء الحديث الشريف .. وما وقفنا على شيء من معاجم الخليل بن أحمد (١٧٥ هـ)، وابن دريد (٣٢١ هـ)، وابن منظور (٧١٨ هـ)، وأمثالهم ..

وما أحطنا بكثير أو قليل من شعر امرئ القيس (الشاعر الجاهلي)، وجميل بثينة (٨٢ هـ)، وأبي تمام (٢٣١ هـ)، والبحتري (٢٨٤ هـ)، والمتنبي (٣٥٤ هـ) وأشباههم .. وما درينا شيئاً عن نثر ابن المقفع (١٤٢ هـ)، والجاحظ (٢٥٥ هـ)، وأبي حيان (٤١٤ هـ)، والحريري (٥١٥ هـ)، ومن على شاكلتهم ..

وما عرفنا طب ابن سينا (٤٢٩ هـ)، وابن النفيس (٦٨٧ هـ)، وأمثالهما .. وما أطلعنا بشيء من فلسفة ابن سينا، وابن رشد، وإخوان الصفا وأضرابهم .. وهكذا يتجلى لنا أن تراثنا هو النهر الزاخر الفيض الذي يمدنا بالحضارة والنماء والازدهار ..

فإذا ما أردنا أن نقرب إلى الأذهان ضخامة ما خلف أسلافنا من تراث فعلياً أن نتصور سعة العالم الإسلامي الممتد من شرقي الصين إلى الأندلس، وأن ندرك أن هذا

العالم الفسيح أثنى بآلاف المكتبات العامة والخاصة التي تعمر كل مدينة أو شبة مدينة، لنجد في كل منها مكتبة أو مكتبات حافلة بالمؤلفات التي أورشنا إياها أبائنا السابقين، يتردد عليها المشغوفون بالقراءة والاطلاع والنقل، ولنجد في كثير من القصور مكتبات يحرص أربابها على تزويدها بأنفس الكتب وأندرها، ولنرى في كثير من المساجد مكتبات موقوفة مباحة للقراء..

وليس أدل على وفرة الكتب التي كانت تزخر بها هذه المكتبات من الأمثلة القليلة التي أستعرضها في السطور التالية:

بلغ عدد الكتب التي كانت في بيت الحكمة الذي أنشأه الخليفة المأمون (٢١٨هـ)، ببغداد أربع مئة ألف كتاب ..

وكان في القاهرة دار الحكمة التي أنشأها الخليفة الفاطمي العزيز بالله، قالوا إنها حوت أكثر من مليون ونصف المليون كتاب وكان بها أكثر من ثلاثين مخطوطة من كتاب العين «للخليل بن أحمد».

وبلغ من شغف العزيز بالله اقتناء الكتب أنه اشترى نسخة واحدة من كتاب تاريخ الطبري بمئة ألف دينار ..

وكان للعرب في الأندلس سبعون مكتبة عامة، منها مكتبة قرطبة التي ضمت نحو نصف مليون كتاب ..

وكان في مكتبة الخليفة الأموي الحكم الثاني بقرطبة ست مئة ألف كتاب، وفيها أربعة وأربعون مجلداً للفهارس ..

وقد جمعت مكتبة منصور بن نوح الساماني أمير بخارى نحو مليون ونصف المليون كتاب ..

واشتملت مكتبة طرابلس الشام على نحو ثلاثة ملايين كتاب، وكان لدى أصحاب هذه المكتبة وهم قضاة آل عمار عدد كبير جداً من النساخ ..

وأما مكتبات الأفراد فهي كثيرة، منها مكتبة علي بن يحيى النجم، التي أباح للقراء أن يترددوا عليها وقد ذكر أبو معشر النجم أنه أقام بها زمناً وقرأ ونقل ..

ومنها مكتبة الصاحب بن عباد التي كانت تحتاج إلى أربع مئة بعير لحملها، وكان



فهرسها وحده يشغل عشرة مجلدات.

ولم تكن هذه المكتبات مقصورة على ما كتب باللغة العربية، بل كان في بعضها مئات من الكتب التي ألفها العلماء باللغتين اليونانية والفارسية ..

ويكفي أن نعلم أن الخليفة المأمون (٢١٨ هـ - ٨٢٣ م) نقل إلى بغداد مئات من الكتب اليونانية التي كانت في القسطنطينية، وأنه عقد الصلح مع الإمبراطور على أن يبيع له نقل ما يختاره من كتب العلوم القديمة المخزونة في بلاد الروم، فأجابته إلى ذلك بعد امتناع، فأنفذ المأمون جماعة، منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلم صاحب بيت الحكمة ويوحنا بن ماسويه وغيرهم، فقللوا ما اختاروه وكان مما اختاروه كتاب بطليموس في الرياضيات .

ولما صالح المأمون حاكم جزيرة قبرص طلب منه أن يبعث إليه بالكتب اليونانية التي كانت بالجزيرة فبعث بها، وأقام المأمون سهل بن هارون قِيَمًا عليها.

وقد شارك في جمع الكتب واستساخا بنو شاطر، ذكر محمد بن إسحاق أنه ممن عنوا بإخراج الكتب من بلاد الروم هم: بنو شاطر، وهم محمد، وأحمد، والحسن، وأنهم أنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلاد الروم، فتعلم اليونانية، وجاءهم بطوائف من الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقا، والطب، والأرثماطيقى ..

وكان ابن لوقا البعلبكي قد حمل معه شيئاً، فنقله، وكان بنو المنجم ينفقون على جماعة من الترجمة، منهم حنين بن إسحاق، وحبيش الحسن، وثابت بن قرة وغيرهم، وبلغت أرزاق هؤلاء الترجمة خمس مئة دينار في كل شهر ..

ولقد ضمت المخطوطات التي في المكتبات العامة والخاصة علوماً وفنوناً شتى، منها اللغة والنحو والصرف، ومنها الأدب والبلاغة والنقد، ومنها التفسير والحديث والأصول وعلم الكلام، ومنها التاريخ والتراجم والجغرافية، ومنها الرياضيات والموسيقا، والطب والصيد، والفنون الحربية، والفروسية ... إلخ.

فإذا ما رجعنا إلى كتاب الفهرست لابن النديم (٣٧٧ هـ : ٤٣٨ هـ) وجدناه يقسم العلوم والفنون في عصره إلى عشرة أقسام، ويقول إنه سيذكر في كتابه هذه الأصناف كلها، وأسماء مؤلفيها وأخبارهم ..

وجاء بعده أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده (المتوفى سنة ٩٦٨هـ) فألف كتابه (مفتاح السعادة ومصباح دار السيادة) وجمع فيه ستة عشر وثلاث مئة علم، وهي علوم كتب فيها العرب والمسلمون.

وتلاه مصطفى بن عبد الله المعروف بحاجي خليفة (المتوفى سنة ١٠٦٧هـ) فألف كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) الذي سجل فيه أسماء نحو ثمانية عشر ألفاً وخمسة مئة كتاب، وذكر أنه رأى بعينه ستة عشر ألف كتاب منها ..

ثم جاء التهانوي (١١٥٨هـ) فألف كتابه (كشف اصطلاحات الفنون) ذكر فيه أكثر من ألفي مصطلح في الثقافة العربية، وعرف كلاً منها في دقة. وهكذا يمتد الحديث عن المخطوطات التي كانت تعمر المكتبات العامة والخاصة، وقد سلم كثير من هذه المخطوطات من عوادي الزمن وعوامل البلى، وما تزال آلاف منها مفترقة في مكتبات العالم ..

فمثلاً في مكتبة برلين أكثر من عشرة مجلدات كبار بأسماء الكتب العربية التي هي فيها، وفي مكتبة الفاتيكان أكثر من خمسة آلاف مخطوطة، وفي مكتبة الأسكوريال بمدريد أكثر من مئة ألف مخطوطة، وهكذا الحال في مكتبات موسكو، ولندن، وشنغهاي وغيرها...

وأما الطائفة الثالثة : فهي طائفة النساخ الذين سكبوا نور عيونهم على الأوراق فحفظوا هذه المخطوطات من الضياع والغناء، إذ نهضوا بأعباء النسخ، وبلغوا درجة عالية بتجويد الخط وزخرفته ودقة النقل وأمانته، سواء أكانوا ينسخون المخطوط من الأصل الذي كتبه المؤلف نفسه، أم من نسخ آخر منقولة عنه، ولم يكن تكرير العمل أو مشقته لتغلب بهم عن تجويد الخط ومراعاة أصول الضبط.

وأريد أن أوضح أن بعض النساخ كانوا من العظماء والأدباء الكبار، وكان آخرون من ذوي الوظائف العالية في الدولة، حتى إنهم تولوا القضاء والوزارة. فمثلاً كان في مكتبة المأمون كثير من النساخ، وكثير من التراجمة على رأسهم

ثابت بن قرة وحنين بن إسحاق.

أذكر من أولئك النساخ على سبيل المثال:

◆ - أبو علي، محمد بن علي بن الحسين المعروف بابن مقلة (٣١٦ هـ) كان جيد الخط، يضرب بخطه المثل، ولا ينازعه في ذلك منازع.

وكان عند سيف الدولة بن حمدان خمسة آلاف ورقة بخط أبي علي هذا، لأنه كان منقطعاً إلى بني حمدان سنوات كثيرة، يقومون بأمره أحسن قيام، وقد تولى الوزارة للمقتدر سنة ٣١٦ هـ.

◆ - أبو عبد الله، الحسن بن علي بن مقلة (٣٣٨ هـ) كان أكتب من أخيه الوزير أبي علي، وقد ولاه أخوه ديوان الضياع الخاصة، وديوان الضياع المستحدثة وديوان الدار الصغيرة، وكان أبوهما الملقب بابن مقلة كاتباً مليح الخط.

◆ - أبو سعيد، السيرافي النحوي الحسن بن عبد الله المرزباني (٣٦٨ هـ) كان عالماً كبيراً تولى القضاء ببغداد، وكان زاهداً لم يأخذ على القضاء أجراً، أفتى في مسجد الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة، فما وجد له خطأ.

كان أبو سعيد يعتمد في نفاقاته على أجر النسخ، وكان لا يخرج من بيته إلى مجلس القضاء ولا إلى مجلس التدريس حتى ينسخ عشر ورقات، يأخذ أجرتها عشرة دراهم تقوم بمئونته ثم يخرج إلى مجلسه.

وله مؤلفات كثيرة منها:

(١) شرح كتاب سيبويه.

(٢) شرح مقصورة ابن دريد.

(٣) وكتاب أخبار النحويين البصريين.

◆ - علي بن محمد بن عبيد الزبير الأسدي (٣٤٨ هـ) صاحب الخط المعروف بالصحة، المشهور بإتقان الضبط وحسن الشكل، كان من أجل أصحاب العلامة ثعلب، ومن جماعي الكتب ومحبيها، وله تأليف كثيرة.

◆ - أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى (٣٨٤ هـ) كان إماماً في العربية والأدب، وله مؤلفات كثيرة.

◆ - ابن البواب، علي بن هلال (٤١٠ هـ) صاحب الخط المتقن والأدب الفائق، وكان ناثرًا شاعرًا وقيمًا على خزانة كتب بهاء الدولة بن عضد الدولة بشيراز.

◆ - أبو حيان التوحيدي (٤١٤ هـ) كان يحترف الوراقة، ولما اتصل بالصاحب بن عباد قال له صاحب: الزم دارنا، وانسخ هذا الكتاب، فقال أبو حيان: أنا سامع مطيع.

ثم شكّا لبعض الناس أنه جاء من العراق إلى صاحب ليتخلص من حرقة الشوم فإن الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة، فنقل هذا الكلام إلى صاحب كله أو بعضه أو على غير وجهه فتكر لأبي حيان.

وحدث أبو حيان فيما بعد فقال: قدّم إلى نجاح الخادم - وكان ناظرًا على خزانة كتب صاحب - ثلاثين مجلدة من رسائل صاحب، وقال: يقول لك مولانا: انسخ هذا، فإنه طلب منه بخراسان، فقلت بعد ارتياد (تدبر وإمعان): هذا طويل ..

◆ - موهوب بن أحمد بن الحسن الجواليقي (٥٣٩ هـ)، إمام اللغة والأدب، جميل الخط، تنافس الناس في الحصول على خطه، والمعجب به.

◆ - كمال الدين علي بن حمزة البغدادي (٥٥٦ هـ) صاحب الخط السلس غاية السلاسة على طريقة علي بن هلال بن البواب، وبخاصة علم المصاحف فإنه لم يكتبه أحد مثله فيمن تقدم أو تأخر (حسب علمي)، كان من الأعيان الأمثال، ولأه الخليفة العباسي المسترشد الحجابة، وركله وكالة مطلقة، ثم ولأه الخليفة المقتفي لأمر الله، صدرية المخزن.

وأما الطائفة الرابعة: فهي طائفة المحققين الذين نهضوا بنشر هذا التراث بعد ظهور المطابع، فصححوا نسخه، وقابلوا بعضها ببعض، وأكملوا ما نقص، وشرحوا ما غرض، وعقبوا بما ينبغي أن يعقبوا به، وفهرسوا الكتب فهارس متعددة، تيسر البحث والاطلاع، وعرفوا بالمؤلفين ومناهمهم، نذكر من هؤلاء:

● أحمد تيمور باشا (١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م) الذي احتوت مكتبته على اثني عشر ألف كتاب ومخطوط.

● وأحمد زكي باشا (١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤ م) فقد جمع أكثر من ستة آلاف مخطوط، والذي قام بتحقيق كتاب «أنساب الخيل» «لابن الكلبي»، «والأصنام» لابن الكلبي أيضاً، وقد طبعاً بمطبعة بولاق سنة ١٩١٤ م (المطبعة الأميرية الآن)، ولعل هذين الكتابين مع كتاب «التاج» للجاحظ الذي حققه أيضاً، من أوائل الكتب التي كتب في صدرها كلمة «بتحقيق» كما أن تلك الكتب قد حظيت بإخراجها على أحدث المناهج العلمية للتحقيق، مع استكمال المكملات الحديثة، من تقديم النص إلى القراء، ومن إلحاق الفهارس التحليلية، ويضاف إلى ذلك أنه أول من أشاع إدخال علامات الترقيم الحديثة، في المطبوعات العربية، وألف في ذلك كتاباً، سماه «الترقيم في اللغة العربية» طبع في مطبعة بولاق سنة ١٩١٣ م، ومما حققه أيضاً، كتاب «نكت الهميان في نكت العيمان» لصلاح الدين الصفدي، ونشره عام ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م .

ومن الذين قاموا على حراسة العربية، وجاهدوا في سبيلها، وكشفوا عن جوانب فذة منها هؤلاء الأعلام:

أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، والسيد أحمد صقر، وعبد العزيز الميمني الراجكوتي، وأحمد راتب التفاح.. وغيرهم .. وغيرهم ..

ولا ننسى تلك الهيئات الكبيرة والكثيرة في مصر وفي العالمين العربي والإسلامي، كالجامعة العربية، والمجلس الأعلى لرعاية الآداب والعلوم والفنون والجامعات والمعاهد العليا ومجامع اللغة العربية، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.. وغيرهم .. فقد بذلت جهوداً حميدة مشكورة في إحياء التراث وتحقيقه، ونشر هذا التراث الذي نعنى به كانت له آثاره العظيمة في نهضة أوروبا، لأنه هو الأساس الذي قام عليه المذهب العلمي التجريبي..

وقد سرت الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا في عدة غدران، منها إسبانيا وصقلية وإيطاليا، ومنها الحروب الصليبية، وذلك أنه منذ سنة (٥٥٥ هـ / ١١٣٠ م) بدأ مكتب للترجمة في طليطلة ينقل - برعاية رئيس الأساقفة أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية..

وحسبنا أن نشير إلى أن علم الضوء مدين لكتاب (الناظر) للعلامة ابن الهيثم. كما أن أصول الرياضيات مدينة للعلامة الخوارزمي، وإليه ينسب علم الجبر. وكما أن أصول علوم الهيئة والنجوم والفلك ترجع إلى كتاب (القانون) للمسعودي، كذلك كان لكتب ابن سينا في الطب أثرها العظيم إلى أواخر القرن الثامن عشر.

ولقد قضت أوروبا ثلاثة قرون، من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر وهي تترجم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية، ولم تقتصر على مؤلفات ابن سينا، وابن رشد، والرازي ونظرائهم، بل إنها ترجمت عن العربية كتب اليونان التي كان العرب قد ترجموها، مثل كتب جالينوس وبقرات وأفلاطون وأرسطو وإقليدس، وبطليموس، فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاث مئة كتاب.

ولم يظهر في أوروبا قبل القرن الخامس عشر عالم لم يستنسخ كتب العرب ولم ينتفع بها ومن الذين استنسخوا كتب العرب وانتفعوا بها روجر بيكون، وألبرت الكبير، وتوماس الأكويني، وغيرهم، قال رينان: إن ألبرت الكبير مدين لابن سينا، وإن توماس الأكويني مدين لابن رشد.

وقد ظلت ترجمات الكتب العربية ولا سيما الكتب العلمية هي المصدر الوحيد تقريباً للتدريس في جامعات أوروبا قرابة ستة قرون.

وبفضل هذه الترجمات عرف الغرب كتب اليونان التي ضاع أكثرها، مثل كتاب جالينوس في الأمراض السارية، وكتاب أرسطو في الحجارة، وكتاب أبو لونيوس في المخروطات، كما ذكر الدكتور لوكليز في كتابه (تاريخ الطب العربي)، وقد عقب جوستاف لوبون على هذا بقوله: «إذا كانت هناك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان»، فعلى العالم أن يعترف للعرب بعد الإسلام بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة، قال لييري: لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا عدة قرون.

فإذا مارجعنا إلى ورق الكتابة حدثنا التاريخ بأن العرب عرفوه من الصين في القرن الثاني للهجرة، لكنهم لم يلبثوا أن أنشأوا المصانع لإنتاجه منذ القرن الثالث في مصر والأندلس والمغرب، وبلغت صناعة الورق على أيديهم درجة عالية من الجودة سواء أكان أبيض ناصعاً أم ملوناً وعن العرب نقلت أوروبا هذه الصناعة في القرن السادس للهجرة، إذ كانت حضارتهم تعمر الأندلس وإيطاليا وجنوبي فرنسا.



فقد آن للذين يتساءلون عن بواعث حقاوتنا بتراثنا العربي أن يدركوا قيمته وآثاره وأسباب عنايتنا به وحرصنا على إحيائه على المستوى العالمي، يأنن الله تعالى ..



# نقوش إسلامية مؤرخة

من الصويدة  
المملكة العربية السعودية



مقدمة ..



تقع الصويدة على خط عرض ٤٣-٢٤ وخط طول ١٦-٤٠، وتبعد عن الحناكية غرباً بحوالي ٣٨ كيلاً وعن المدينة المنورة شرقاً بحوالي ٦٢ كيلاً. وهي بلدة عامرة كثيرة السكان تطورت بسبب وقوعها على الطريق الذي يربط المدينة المنورة بمنطقة القصيم، وتتوافر فيها الخدمات الحديثة والمرافق الحكومية المتعددة وتأتي أهمية الصويدة من الناحية الأثرية لاحتوائها على عشرات من النقوش الإسلامية والرسوم الصخرية القديمة للأسود والوعول وبعض الكتابات التمودية. وتقع الكتابات والنقوش في قم الوادي مباشرة وعلى ضفتيه الشرقية والغربية. وهذه المنطقة المشهورة بكتابتها ونقوشها بني عليها جسر يتجه من الشرق إلى الغرب يربط خط الأسفلت المتجه إلى المدينة المنورة. وفي الجهة الجنوبية من الجسر تقع بلدة الصويدة. كما تنتشر بعض منازلها الحديثة على



الهضبة الشمالية الواقعة بعد الجسر في الجزء الغربي من البلدة على يمين خط الأسفلت. كما أن بطن الوادي استغل للزراعة وحفرت فيه آبار سطحية لسقي المزارع، وحيث إن الوادي يضيق في هذه المنطقة فقد أخذت الجرافات أجزاء من جانبي الوادي وأزيلت الصخور التي على بعضها كتابات ونقوش قديمة، كما أن النقوش الواقعة مما يلي البلدة الحديثة تعرضت للتخريب والعبث من المتطفلين والجهال من الناس والبقية الباقية من النقوش والكتابات مهددة بالزوال في أي وقت، ويعدُّ الشيخ عبدالقدوس الأنصاري- رحمه الله- من أوائل من زار الصويدة وأشار إلى آثارها الكتابية. وكانت أول زيارة له للمنطقة عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م وأعقبها بزيارة أخرى في سنة ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م. ويبدو أن الظروف في ذلك الوقت لم تساعد على حصر كافة النقوش واستنساخها وتصويرها، فقد اكتفى بالإشارة إلى وجود بعض النقوش والرسومات القديمة والكتابات الإسلامية وكان له الفضل في التنبيه إلى هذه المنطقة وأهميتها الحضارية<sup>(١)</sup>.

وقد ظلت الصويدة موضع اهتمام كاتب هذه الأسطر منذ فترة من الزمن وكانت الزيارة الأولى للموقع في ١/٥/١٣٩٣هـ، ٦/١٣/١٩٧٣م وأعقبها زيارات متعددة تمت في عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م وعام ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م. ومن خلال هذه الزيارات اتضح لنا أن الصويدة كانت منطقة زراعية في العصور الأولى للإسلام حيث شاهدنا آثاراً لقنوات مكشوفة (Canals) تمتد على جانبي الضفة الغربية للوادي وتتجه من الجنوب إلى الشمال. وهذه القنوات كانت تستخدم لتلقي الأمطار الساقطة على المنطقة المحيطة بالوادي من الناحية الجنوبية الغربية حيث يتم تصريفها إلى المناطق الزراعية أو إلى مستودعات حفظ المياه، التي لانجد لها الآن أثراً في المنطقة. كما شاهدنا وجود آثار لمقبرة إسلامية على يمين المتجه إلى المدينة المنورة بعد عبور جسر الوادي، وهذه المقبرة تقع إلى الناحية الشمالية لخط الأسفلت خلف منطقة الباني الحديثة.

ولذا فلا غرابة أن نجد عشرات من النقوش الإسلامية في هذه المنطقة إذ لا بد وأنها كانت محطة مهمة للتجارة والحج في العصور الإسلامية المبكرة. فعلى ضوء دراستنا لطريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة اتضح لنا أن الصويدة كانت منطقة مرور

لفرع الطريق الذي يتجه من معدن النقرة<sup>(٢)</sup> إلى المدينة المنورة. والمحطات الرئيسة الواقعة على هذا الطريق الفرعي من معدن النقرة ورد ذكرها في كتب الجغرافيين المسلمين الأوائل وهي: العُصَيْلَة، بطن نخل، الطرف ثم إلى المدينة المنورة<sup>(٣)</sup> وبدراستنا لهذا الطريق الفرعي ومعالمة الأثرية الباقية تبين لنا دون أدنى شك أن الصويدة هي موضع الطرف قديماً<sup>(٤)</sup> فابن رسته يضع الطرف على ٢٢ ميلاً من بطن نخل (ما يعادل ٣٧,٤ كيل) ويقول عنه: «وهو منزل يكون أهلاً أيام الحاج وفيه ماء السماء من الغدران»<sup>(٥)</sup>. ويشير ابن خرداذبة إلى الطرف بقوله: «ثم إلى الطرف فيها ماء السماء اثنان وعشرون ميلاً»<sup>(٦)</sup> ويذكر ياقوت نقلاً عن الواقدي: «الطرف ماء قريب من المرقى دون النخيل وهو على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة»<sup>(٧)</sup>. ويروي السهوي نقلاً عن الأسدي أن الطرف «على خمسة وعشرين ميلاً من المدينة، وعلى عشرين ميلاً من بطن نخل وذكر فيه أباراً وبركاً...»<sup>(٨)</sup>.

هذا ويميل الشيخ حمد الجاسر إلى هذا الرأي وهو أن الصويدة هي موضع الطرف قديماً<sup>(٩)</sup> ويكرر عاتق البلادي الرأي نفسه<sup>(١٠)</sup>. ولانعرف بالتحديد متى اختفى اسم (الطرف) وظهر اسم (الصويدة) ولم يشر لأي منهما الرحالة المتأخرون الذين سافروا على هذا الطريق مثل: ابن جببر<sup>(١١)</sup> وابن بطوطة<sup>(١٢)</sup>.

وعلى أي حال فإن الطرف (الصويدة اليوم) لا بد وأنه كان محطة على درجة كبيرة من الأهمية يتجمع فيها الحجاج والمسافرون سواء عند قدومهم إلى المدينة أم عند خروجهم منها ولا بد أن السكان والتجار على حد سواء استفادوا من هذه المنطقة في مثل مواسم الحج خاصة في نهاية القرن الأول الهجري وحتى منتصف القرن الثالث للهجرة. وعلى ضوء زياراتنا المتكررة لموقع الصويدة فقد أمكن التعرف على أكثر من سبعين نقشاً إسلامياً، أما العدد الإجمالي للنقوش فيزيد على ذلك بكثير. وجميع النقوش التي جمعناها غير مؤرخة عدا ثلاثة نقوش منها فقط. وربما عثر مستقبلاً على نقوش أخرى عليها تواريخ تساعد في التعرف على التاريخ الحضاري لهذه المنطقة في العصور الإسلامية المبكرة.

ونظراً لأهمية هذه النقوش الثلاثة المؤرخة فقد رأينا إخراجها في بحث منفصل خدمة للباحثين والدارسين في تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها في العصور

الإسلامية المبكرة (١٣).

### النقوش المؤرخة :

توجد النقوش المؤرخة في الجهة الجنوبية الغربية للوادي على صخور المرتفع الجبلي الواقع غرب الجسر وشمال بلدة السويدرة الحديثة. وسوف نتناول بالدراسة كما ذكرنا سابقاً هذه النقوش الثلاثة فقط، حيث سنوضح قراءتها ونقدم دراسة تحليلية لكل نقش منها من حيث أسلوب كتابته والتاريخ المسجل عليه، كما سنحاول تحقيق الأسماء الواردة في النص.

١- نقش لطلب المغفرة مؤرخ سنة ١٩٥ هـ لوحة (أ) شكل (١)

كتب هذا النقش على واجهة صخرية بمساحة (١٨ × ٤ سم) ويتكون من ثلاثة أسطر تقرأ كالتالي:

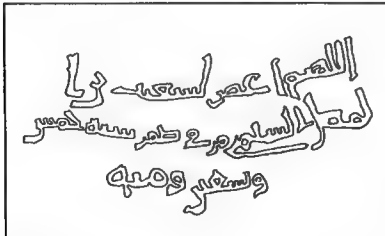
١- اللهم اغفر لشعيب بن [ ١ ] .

٢- الفضل السلمي مر في صفر سنة خمس

٣- وتسعين ومئة.

ويلاحظ على هذا النقش أنه كتب بطريقة النحت أو الكشط، وليس بأسلوب الحفر الغائر. كما أن الواجهة الصخرية عليها بعض التشققات والتآكلات ومع ذلك أمكن قراءة النقش كاملاً.

والنقش بصفة عامة كتب بأسلوب واضح لطلب المغفرة لشخص يدعى شعيب بن الفضل السلمي، والذي يبدو من صيغة النقش أنه ليس من سكان الطرف (منطقة



شكل (١)

صورة مفرغة لنقش شعيب بن الفضل السلمي المؤرخ سنة ١٩٥ هـ.

الصويدة حالياً) لأنه مر بهذه المنطقة وفي وقت معلوم وهو شهر صفر من سنة ١٩٥ هـ وهذا يعني أن التاريخ عبارة عن توثيق لمروور صاحب النقش بهذه المنطقة إما في طريقه إلى المدينة المنورة أو عند خروجه منها أو أنه جاء من أية منطقة أخرى وتوقف في هذا الموضع.

أما نسبة شعيب فيمكن أن تكون: السلمي: بضم السين المهملة وفتح اللام نسبة إلى بني سليم القبيلة العربية المشهورة التي يوجد موطنها بالحجاز وخاصة في حرة رهاط الواقعة إلى الجنوب الشرقي من المدينة المنورة. وأورد السمعاني: السلمي بفتح السين المهملة وسكون اللام وهي نسبة «إلى الجد وهو ممن كان في آبائه وأجداده سلم»<sup>(١٤)</sup> كما ذكر نسبة: السلمي بفتح السين المهملة وفتح اللام -نسبة إلى بني سلمة حي من الأنصار»<sup>(١٥)</sup>. ونرجح أن يكون صاحب النقش ينتمي إلى قبيلة بني سليم وذلك بسبب قوة انتشار هذه القبيلة في هذه المنطقة واشتهار هذه النسبة بأنها تخص قبيلة بني سليم. وعلى الرغم من أن اسم شعيب من الأسماء المستخدمة والمألوفة في القرن الثاني الهجري إلا أننا لم نعثر على شخصية باسم شعيب منسوبة فيما اطلعنا عليه من مصادر إلى قبيلة بني سليم<sup>(١٦)</sup>.

**وتاريخ النقش** يقع في فترة الخليفة العباسي الأمين (١٩٣ هـ/٨٠٩ م - ١٩٨ هـ/٨١٣ م). ومن الظواهر الجديدة لدينا في هذا النقش أسلوب كتابة حرف الميم النهائية في كلمة (اللهم) حيث وضع لها طرفاً يتجه إلى أسفل بشكل قائم (هكذا) (س) بعكس ما هو متبع في معظم النقوش الإسلامية حيث يكون طرف الميم ممتداً بشكل أفقي، وهذه الحالة جديدة حسب ما نعلم، ولم نجد لها مايمثلها في النقوش الإسلامية المحفورة على الصخور. أما حروف النقش بصفة عامة فتمثل مرحلة متطورة عن كتابة القرن الأول للهجرة، ولا تزال الحروف خالية من الزخرفة. وتأتي نهايات بعض الحروف القائمة (مثل الألفات واللامات) برءوس مدببة في أحد أطرافها كما نلاحظ في هذا النقش أن العين الوسطى كتبت بطريقتين مختلفتين: ففي كلمة (شعيب) كتبت العين على شكل مثلث أو ما يمكن تسميته بالعين المقنطرة هكذا (س)، بينما جاءت العين في كلمة (تسعين) ولها ثلاث رءوس هكذا، (س) أي على شكل

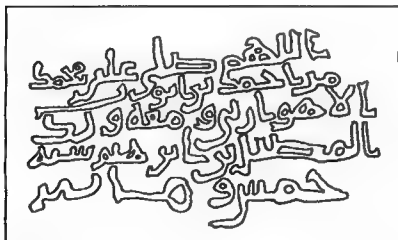
زنبقة (Fleuron) غير مكتملة الزخرفة. وبصفة عامة يشبه أسلوب كتابة هذا النقش بعض النقوش المكتشفة في شمال غرب المملكة، في شهبية بدا وإلى الشمال منها على طريق الحج المصري الداخلي.

ومن هنا نقش أيوب بن خالد المؤرخ سنة ١٦٠هـ والنقش المؤرخ سنة ١٦٥هـ بالإضافة إلى نقش أبي حرملة عبد الرحمن بن حرملة الأسلمي غير المؤرخ (١٧) ويصعب في كثير من الأحيان مقارنة النقوش الصخرية مع الكتابات التي تظهر على شواهد القبور، أو الكتابات التأسيسية وغيرها، وذلك لأن النقوش الصخرية غالباً ما يكتبها المارون بشكل سريع، وقد لا يتوفر الوقت المناسب لإظهار الكتابة بشكل دقيق، ومع ذلك نتلمس في النقوش الصخرية أساليب الكتابة المختلفة في كثير من المناطق.

٢- نقش في الدعاء مؤرخ سنة ٢٠٥هـ لوحة (ب) شكل (٢) .

كتب هذا النقش على صخرة في الطرف الجنوبي الغربي للوادي بمواجهة الشرق وعلى مساحة ٦٠×٣٠سم تقريباً والنقش يتكون من خمسة أسطر تقرأ على النحو التالي:

- ١- اللهم صلى على محمد .
- ٢- مرأ أحمد بن أيوب .
- ٣- الأهوازي ومعه ولد .
- ٤- الفضيل بن [ ] إبراهيم سنة .
- ٥- خمس ومائتين .



صورة مفرغة لنقش أحمد بن  
أيوب الأهوازي مؤرخ سنة  
٢٠٥هـ.

وقد أشار الشيخ عبدالقدوس الأنصاري إلى هذا النقش وقرأه قراءة صحيحة عدا كلمة (مر) في بداية السطر الثاني فقد قرأها (من) وعدّ الأنصاري هذا النقش أنه أقدم النقوش الكتابية بعد النقوش الثمودية في المنطقة ولكن هذا الاستنتاج لا ينطبق على واقع النقوش الكثيرة في الصويدة التي لم يطلع الشيخ الأنصاري على جميعها حيث يوجد فيها ما هو أقدم من هذا النقش<sup>(١٨)</sup>، ونلاحظ في أسلوب كتابة تاريخ النقش أنه كتب مباشرة هكذا: سنة خمس ومائتين بدون أن يكون مسبوقة بعبارة (وكتب في) كما هو الحال في كثير من النقوش الإسلامية كما أن كاتب النقش لم يكمل استدارة حرف النون في آخر كلمة من السطر الخامس حيث جاءت هكذا (سمر) ولعل هذا يعود إلى خشونة الصخرة وعدم انتظام سطحها في هذا الحيز.

ويتضح من النقش أنه يشتمل على شخصيتين الأول وهو:

**أحمد بن أيوب الأهوازي** والثاني شخص آخر مرافق للأهوازي لم يذكر اسمه الأول واستعاض عنه بكلمة (ولد) (أي ابن) الفضيل بن إبراهيم، وقد يكون ظهور الاسم بهذه الصفة يعني أن ابن الفضيل هذا ربما كان صغير السن أو أن شهرته كانت هكذا. ويبدو واضحاً أن الشخصيتين ليسا من المنطقة نفسها وقد سجل هذا النقش ذكرى لتوقفهما في الصويدة (الطرف قديماً)؛ إما في طريق الذهاب إلى المدينة المنورة وإما عند عودتهما. ولم نجد ترجمة، فيما لدينا من مصادر لأي من هاتين الشخصيتين. ولكن يتضح أن الشخصية الأولى:

(أحمد بن أيوب الأهوازي) ينسب إلى الأهواز. يقول السمعاني «هذه النسبة إلى الأهواز، وهي من بلاد خوزستان» ويقول أيضاً عن هذه البلدة بأنها «كانت إحدى البلاد المشهورة المشحونة بالعلماء والأئمة والتجار والمتمولين من أهل البلد والغرباء وقد خربت أكثرها وبقيت التلال، ولم يبق منها إلا جماعة قليلة...»<sup>(١٩)</sup>.

أما بالنسبة لأشكال الحروف فنجد أنها تمثل المرحلة الانتقالية للخط العربي من القرن الثاني إلى الثالث الهجريين حيث نشهد أشكالاً زخرفية مبسطة في نهايات وأطراف الحروف على هيئة رءوس مدببة أو مثلثات ذات رأسين حادين.

وهذه الأنماط الزخرفية نشاهدها تظهر بشكل أدق وأكثر غزارة على شواهد القبور التي تحمل نفس التاريخ وهو (٢٠٥هـ) ويعزى ذلك إلى أن شواهد القبور

تخضع لخطوات فنية ومهارات مع توافر الوقت الكافي لإظهار النصوص المكتوبة بشكل جيد يعكس أسلوب كتابة النقوش الصخرية التذكارية التي قد لا يتوفر لها الوقت والأدوات اللازمة لإظهار الكتابة بنفس الجودة التي نشاهدها على شواهد القبور (٢٠).

### ٣- نقش لطلب المغفرة مؤرخ سنة ٢٤٩هـ لوحة (ج) شكل (٣)

يوجد على واجهة صخرة في الجهة الجنوبية الغربية للوادي، غرب الجسر نقش مكون من خمسة أسطر، كتب على مساحة ٦٥×٦٥ سم ويقرأ النقش على النحو التالي:

١- اللهم اغفر .

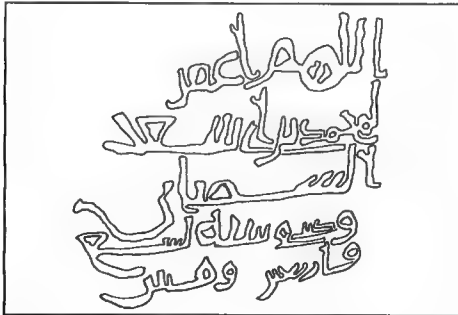
٢- لمحمد بن أبي سعد .

٣- السفيناني .

٤- وكتب في سنة تسع .

٥- وأربعين ومنتين .

والنقش كتب بحروف واضحة ولكنها غير منقوطة، ولم نجد أية إشارة لهذا النقش لدى الشيخ عبدالقدوس الأنصاري. وحروف النقش تمثل مرحلة ظهور العناصر الزخرفية البدائية، ونجدها في أوائل الحروف خاصة في حروف الألف واللام.



◆ صورة مفرغة لنقش حمد بن أبي مسعد السفيناني مؤرخ سنة ٢٤٩ هـ ◆

وعلى الرغم من أن النقش كتب في القرن الثالث للهجرة إلا أننا نلاحظ فيه استمرارية كتابة بعض الحروف على غرار أسلوب القرن الأول للهجرة حيث نجد أن حرف العين كتبت بدون قطرة هكذا (حـ) ونجد أن الكاتب يستغل المساحة المتاحة لكتابة النص كاملاً فنلاحظ أنه كتب الياء الراجعة مرتان: في كلمة (أبي) هكذا (أبي) وفي كلمة (في) هكذا (في) ولكنه كتبها على هذه الصفة (في) في كلمة (السفياني) أما شخصية محمد بن أبي سعد السفياني فلم نجد لها ترجمة فيما لدينا من مصادر. أما نسبة السفياني: بضم السين المهملة فيقول عنها السمعاني: «هذه النسبة لجماعة على مذهب سفيان الثوري، وهم عدد كثير لا يحصون، وإلى الساعة أهل الدينور أكثرهم على مذهب»<sup>(٢١)</sup>. وهناك أيضاً «جماعة ينسبون إلى سفيان بن حرب، يعرف كل واحد منهم بالسفياني. كما يقول وببلدة نسا جماعة من أولاد الحسن بن سفيان بن عامر بن العباس الشيباني النسوي، يكتبون لأنفسهم السفياني لانتسابهم إلى الحسن بن سفيان...»<sup>(٢٢)</sup> ولعلها السفياني: بكسر السين أو السفياني: بالسين المهملة المفتوحة: «وهذه النسبة إلى سفيان، وهي قرية من قرى هراة»<sup>(٢٣)</sup>.

ويصعب إرجاع صاحب النقش إلى إحدى هذه النسب وربما نرجح النسبة الأولى التي تعود إلى سفيان الثوري. وعلى أي حال قد نجد في المستقبل أسماء ذات صلة بصاحب هذا النقش في المصادر أو في نقوش صخرية.

وباستعراض نقوش الصويدة المؤرخة نجد أنها كتبت على مدى أكثر من نصف قرن. فالنقش الأول كتب سنة ١٩٥ هـ والثاني سنة ٢٠٥ هـ (أي بين الاثنين عشر سنوات) والثالث كتب سنة ٢٤٩ هـ (بينه وبين الثاني ٤٤ سنة) وبين النقش الأول والثالث ٥٤ سنة. ولهذا فإن تقارب التواريخ وتباعدها على النقوش الإسلامية وفي منطقة واحدة يعين الدارسين على معرفة أوجه التشابه والاختلاف بين هذه النقوش من حيث أسلوب الخط والصيغ اللفظية ويلاحظ على هذه النقوش الثلاثة بأنها متشابهة من حيث الأسلوب فعلى سبيل المثال: تبدأ جميعها بكلمة (اللهم) والأول والثالث يبدأان بـ (اللهم اغفر) أما الثالث فيبدأ بدعاء (اللهم صلي) كما يلاحظ أن البسملة غير مكتوبة في بدايات هذه النقوش ويمكن على ضوء دراسة الأساليب الخطية وتحليل مضمون صيغ هذه النقوش معرفة ما إذا كان كتابها من السكان



المحليين أم من القادمين من مناطق أخرى من خارج الجزيرة العربية. ولعلنا نعثّر مستقبلاً على أكثر من نقش يتعلق بشخصية واحدة ويكرر في المناطق التي مر بها ذلك الشخص قبل أو بعد توقفه في الصويدة (الطرف قديماً).

هذا وعلى ضوء دراستنا لنقوش الصويدة المؤرخة يتضح لنا أنها مهمة بالنسبة لتاريخ المنطقة وبالأخص فيما يتعلق بحركة استخدام طرق الحج المؤدية إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة. وإذا استعرضنا سلسلة النقوش الإسلامية الصخرية من العصر العباسي المبكر، في المملكة العربية السعودية، نجد أنها محدودة حتى الآن<sup>(٢٤)</sup> ولعله من المفيد أن نستعرض تسلسل النقوش العباسية المؤرخة المكتشفة في المملكة العربية السعودية، بما في ذلك نقوش الصويدة حسب القائمة التالية:

### النقوش العباسية المؤرخة

| النقش | تاريخه                                      | الموقع                                    |
|-------|---|---|
| ١     | نقش أسلمه بن نجم مؤرخ سنة ١٣٢ هـ.           | الحائط والحويط (٢٥)                       |
| ٢     | نقش مؤرخ سنة ١٣٢ هـ.                        | منطقة تبوك/نقع بني مر (٢٦)                |
| ٣     | نقش الوليد بن كبير البربري مؤرخ سنة ١٤٢ هـ. | منطقة تبوك/نقع بني مر (٢٧)                |
| ٤     | نقش يعلى بن يزيد مؤرخ سنة ١٤٤ هـ.           | التبصة/دومة الجندل (٢٨)                   |
| ٥     | نقش عبدالله مؤرخ سنة ١٥٠ هـ.                | الحائط والحويط (٢٩)                       |
| ٦     | نقش حفص بن عمر مؤرخ سنة ١٥٤ هـ.             | شهبية بدا الشمالية (٣٠)                   |
| ٧     | نقش النماص مؤرخ سنة ١٥٥ هـ.                 | بادية بني عمرو/النماص (٣١)                |
| ٨     | نقش أيوب بن خالد مؤرخ سنة ١٦٠ هـ.           | شهبية بدا الشمالية (٣٢)                   |
| ٩     | نقش مؤرخ سنة ١٦٥ هـ.                        | شهبية بدا الشمالية (٣٣)                   |
| ١٠    | نقش مدرك بن الملا مؤرخ سنة ١٨٤ هـ.          | القرعاء/سكاكة (٣٤)                        |
| ١١    | نقش الحكم بن الأسعد مؤرخ سنة ١٨٦ هـ.        | القرعاء/سكاكة (٣٥)                        |
| ١٢    | نقش شعيب بن الفضل الملقب مؤرخ ١٩٥ هـ.       | الصويدة (٣٦)                              |
| ١٣    | نقش معبد بن إبراهيم مؤرخ سنة ٢٠٤ هـ.        | متحف قسم الحضارة /<br>جامعة أم القرى (٣٧) |
| ١٤    | نقش أحمد بن أيوب الأهوازي (وَوَلَدُ)        | الصويدة (٣٨)                              |

|    |   |                                |
|----|---|--------------------------------|
| ١٥ | نقش الحارث بن قيس مؤرخ سنة ٢٢٠ هـ.            | جبل عرير/بحران (٣٩)            |
| ١٦ | نقش محمد بن أبي سعد السفياني مؤرخ سنة ٢٤٩ هـ. | الصويدرة (٤٠)                  |
| ١٧ | نقش مؤرخ سنة ٢٥٠ هـ.                          | منطقة بنو كند/تقع بني كند (٤١) |

وفي ختام هذه الدراسة نأمل أن يكون في إخراج نقوش الصويدرة المؤرخة فائدة للباحثين والدارسين. كما أن تضافر الجهود في نشر النقوش الإسلامية، وعلى الأخص المؤرخة، سيعطي بعداً جديداً لمعرفة تطور الكتابة العربية في الجزيرة العربية وبالأخص في منطقة الحجاز ويمدنا بمعلومات لغوية وثقافية وبمعرفة الشخصيات التي كتبت هذه النقوش، بالإضافة إلى أن هذه النقوش تساعد على تحقيق وتحديد الفترات التاريخية للمواقع الأثرية التي تقع فيها.

• • •

### الحواشي والتعليقات

(١) عبدالقدوس الأنصاري، بين التاريخ والآثار، الطبعة الأولى (بيروت ١٩٦٩م)، ص ١١٩-١٤٩.

(٢) معدن النقرة موقع أناري يقع بالقرب من النقرة على طريق المدينة القصيم. وكان معدن النقرة من أهم المحطات الواقعة على طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة، ومنها يتفرع الطريق إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة. ويجمع الموقع بين محطة للحج ومكان للتعدين في العصور الإسلامية المبكرة. للمزيد من المعلومات عن هذا الموقع انظر:

Saad A. Al-Rashid, Darb Zubaydah; The pilgrim road from kufa to mecca, (Riyadh University Libraries) 1980, p.97.

صلاح الحلوه - نيل مكنزي، «التقرير الميدني عن المرحلة الرابعة لمسح درب زبيدة عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م»، أطلال، عدد ٤ (١٤٠٠هـ/١٩٨٢م) ص: ٣٥-٦١ (انظر ص: ٣٦-٣٧) وانظر القسم الأجنبي من نصالعدد 37-50 pp. (وعن النقرة ٣٧-٣٨ pp. ٣٤) وانظر أيضاً الأطلال، عدد ٦ (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص: ٦٣-٧٦، اللوحات (٨٢-٨٤، واللوحات ٩٣-٩٥).

(٣) أبو علي أحمد بن عمر ابن رسة، الأعلاق النفيسة، تحقيق دي جويه، (ليدن، ١٨٩٢) ص: ١٧٦-١٧٧ أبو القاسم، عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة، المسالك والممالك، تحقيق دي جويه

- (لیدن، ١٨٨٩) ص: ١٢٨.
- الإمام أبو إسحاق الحربي، كتاب «المناسك» وأماكن طرق الحج ومعالن الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، الرياض ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص: ٦٠٨.
- (٤) سيظهر تفصيل أكثر عن الصويدة في كتابنا المطول عن درب زبيدة: الذي سيظهر في المستقبل- إن شاء الله.
- (٥) ابن رسته، الأعللق، ص: ١٧٧.
- (٦) ابن خرداذبة، المسالك، ص: ١٢٨.
- (٧) أبو عبدالله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٥ أجزاء (دار صادر-بيروت ١٩٥٥-١٩٥٧م) ج٤، ص: ٣١.
- (٨) نور الدين علي بن أحمد السموذي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبدالحمد (القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٣هـ/١٩٥٥م، ج٤، ص: ١٢٥٨).
- (٩) الحربي، كتاب «المناسك» حاشية (٢)، ص: ٥٢١.
- (١٠) عاتق بن غيث البلادي، معجم معالم الحجاز، (١٠ أجزاء، ١٣٩٨-١٤٠٤هـ/١٩٧٨-١٩٨٤م)، ج٥، ص: ١٧١ ص: ٢٢٧-٢٢٨.
- (١١) لم يذكر ابن جبير (الطرف) ولكنه ذكر وادي العروس، العسيلة والنقرة. انظر: أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، دار التراث (بيروت ١٩٦٨م/١٣٨٨هـ)، ص: ١٦٢.
- (١٢) يذكر ابن بطوطة نفس المواقع التي ذكرها ابن جبير، انظر: محمد بن عبدالله اللواتي ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق علي المنتصر الكتاني، جزآن (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ج١ ص: ١٩١.
- (١٣) نأمل أن تظهر نقوش الصويدة في بحث ممتقل في القريب العاجل.
- (١٤) الإمام أبو سعيد عبدالكريم بن محمد السمعاني، الأنساب، (تقديم وتعليق عبدالله عمر البارودي) ٥ أجزاء (دار الحنان-بيروت) (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج٣، ص: ٢٧٨، وانظر عز الدين ابن الأثير الجزري، اللباب في تهذيب الأنساب، جزآن، دار صادر-بيروت، (د.ت)، ج٢ ص: ١٢٨.
- (١٥) السمعاني الأنساب، ج٣، ص: ٢٨٠، ابن الأثير اللباب، ج٢، ص: ١٢٩-١٣٠.
- (١٦) للمزيد عن تاريخ بني سليم انظر: عبدالقدوس الأنصاري، بنو سليم، (دار العلم للملايين) بيروت ١٣٩١هـ/١٩٧١م وانظر أيضاً:
- Michael Lecker, The Banu Sulaym, (The Hebrew University of Jerusalem) 1989.
- Ali Ibrahim Hamed Ghabban, "introduction a l'etude archéologique des Deux Routes syrienne et egyptienne de Pelerinage au Nord-Quest de L'Arabie Saoudite".
- Universite de Provence Aix, Avril, 1988, pp. 526 - 526.
- (١٨) عبد القدوس الأنصاري، بين التاريخ والآثار، ص: ١٣٢-١٣٤.
- (١٩) السمعاني، الأنساب، ج١، ص: ٢٣١-٢٣٢.
- (٢٠) Hassan Hawary et Hussein Rached, Catalogue Général de Musée Arabe Du Caire,

- (٢١) السمعاني الأنساب، ج٣، ص: ٢٦١، ابن الأثير، اللباب، ج٢، ص: ١٢١.
- (٢٢) السمعاني الأنساب، ج٣، ص: ٢٦١، ابن الأثير، اللباب، ج٢، ص: ١٢١.
- (٢٣) السمعاني الأنساب، ج٣، ص: ٢٦١، ابن الأثير، اللباب، ج٢، ص: ١٢١.
- (٢٤) يجب التنويه هنا أن المقصود هو سلسلة النقوش الصخرية فقط ولا يدخل في هذا التصنيف شواهد القبور والكتابات الوثائقية المورخة.
- (٢٥) أطلال، عدد ١١ (١٤٠٩هـ/١٩٨٨م) ص: ٨٩ ولم ترد صورة فوتوغرافية أو تفريغ لهذا النقش.
- (٢٦) أطلال، عدد ٩ (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص: ١٤٣ لم ترد صورة أو تفريغ ولا قراء لهذا النقش بل ورد ذكره ضمن سلسلة النقوش المورخة المكتشفة.
- (٢٧) أطلال، عدد ٩، ص: ١٤٣ لوحة ١٢٠/ب.
- (٢٨) Khaleel Ibrahim Al-Muaikeel, "A Critical Study of The Archaeology of The Jawf Region of Saudi Arabia With Additional Material on Its History and Early Arabic Epigraphy" ph. D. Theses University of Durham, November-1988. pp. 160-162, pl. LXVI, no.4.
- (٢٩) أطلال، عدد ١١، (١٤٠٩هـ/١٩٨٨م) ص: ٨٩ لم ترد صورة فوتوغرافية أو تفريغ أو قراءة لهذا النقش.
- (٣٠) Ali Hamed Ghabban, op.cit, pp. 519-21, pl. 249-250 A.
- (٣١) آثار منطقة النماص: (نشرة صادرة عن قسم الآثار.. (إدارة التعليم بمنطقة النماص): (ت. بدون) ص ١٤٠ ولم ترد صورة فوتوغرافية أو تفريغ أو قراءة لهذا النقش.
- (٣٢) Ali Hamed Ghabban, op. cit, pp. 524-26. pl. 255-256.
- (٣٣) Ali Hamed Ghabban, Ibid, pp. 526-28, pl. 257-258 a.
- (٣٤) Khaleel Al-Muaikeel, op. cit, pp. 162-163, pl. LXVII, No.5.
- (٣٥) Khaleel Al-Muaikeel, Ibid, pp. 164-165, pl. LXII, No.6.
- (٣٦) النقش الأول في هذا البحث.
- (٣٧) محمد فهد عبدالله الفهر، تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، (مشتورات نهامة) جدة (١٤٠٥هـ/١٩٨٤م)، ص: ٢١٢-٢١٤ لوحة رقم ٣٤ وهذا النقش كتب على كتلة صخرية نقلت فيما بعد إلى متحف الحضارة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة.
- (٣٨) النقش الثاني في هذا البحث.
- (٣٩) A.Grohmann, Arabic Inscriptions Lovain, 1962, p. 130, pl. xvii, Z.217.
- (٤٠) النقش الثالث في هذا البحث.
- (٤١) أطلال، عدد ٩ (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص: ١٤٣ ولم ترد قراءة أو صورة أو تفريغ لهذا النقش.

# مع شاعر

## الملك عبد العزيز الساسي

للأستاذ عبد الله بن سعد الرويشد



شخصية فذة، وشاعر فحل، ورائد من رواد البلاغة في العصر الحديث.  
ذلكم هو: (محمد بن عبد الله بن عثيمين) أشهر شعراء الجزيرة العربية في العصر الحديث.

ولد ابن عثيمين عام ١٢٧٠ هجرية، في قرية السلمية، من قرى الخرج، من صميم نجد، موطن أمه وحنولته، وكانت حوطة بني تميم بلد آبائه وعمومته، ومات والده عنه وهو يومئذ صبي في المهد ولم يترك له شيئاً، فتعهدته أمه حتى أجاد القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم.

وهكذا نشأ ابن عثيمين، نشأة العصاميين، الذين ينبتون في مواطن اليتيم والبؤس، فتعوضهم رعاية الله ما فقدوا من عطف وحنان وأبوة.

وسمع الشاعر بالشيخ عبد الله بن محمد الخرجي، عالم القرية وقاضياها، ورأى الناس يهرعون إلى مجلسه، يدعوهم إلى الله، ويفقههم في الدين، فهداه التوفيق إلى الاتصال به والأخذ عنه. ولما نما إدراكه واكتملت رجولته، حُبب إليه أن يعيش في الحوطة، بين قومه وعشيرته، ولكنه ظل قوي الصلة بشيخه، يزوره وينتفع بفضله،

وقويت لدى الشيخ الخرجي دواعي الرحلة عن نجد، فرافقه تلميذه ابن عثيمين، في تجواله على شواطئ الخليج العربي، وتنقلاً بين إماراته، حتى نزلاً في كنف الشيخ قاسم بن ثانٍ حاكم قطر، وهناك تكشفت للشيخ قاسم مواهب الشاعر ودينه وفضله، فأقبل عليه، وأحلّه محلاً كريماً، مما شجعه على الإقامة لديه أربع سنوات خفت عليه فيها أعباء الحياة، وزال عنه كثيرٌ من همومها. فقد اختلط بأفراد الأسرة، وداخلهم مداخلة قوية، تقوم على الإعجاب بروحه وأدبه، فممت هناك شاعريته، وأخصب خياله، وتفتحت مواهبه، ثم أقبل على الأدب وحفظ كثيرٍ من روائعه، وتدرج من الشعر الشعبي إلى الشعر الفصيح، وما زال يعالجُه حتى سيق كافة معاصريه، من شعراء الجزيرة العربية، وعاد الشاعرُ بعد تلك الفترة إلى وطنه نجد، ولكنه دأب على الرحلة التي ألفها، وجنى منها الخير، مادياً وأدبياً، وتوالت أسفاره على شواطئ الخليج العربي، متنقلاً بين قطر وعمان والبحرين، فكثر أصدقاؤه والمعجبون به في تلك الأقطار، وتوثقت عرى المحبة بينه وبين آل خليفة، حكام البحرين خاصة فكانوا له كآل ثانٍ حبا وكرماً ورداءً من اللوات، ولما نزلت بالشاعر في تجارته (اللؤلؤ والأحجار الكريمة) ضائقة مالية، وركبه دين فادح، وجد في صديقه الأديب الشيخ محمد بن عيسى آل خليفة ماأقاله من عثرته، وكشف من ظلماته، وجازاه الشاعر بمدائح جليلة، قال في إحداها:

فما نظرت عيني ولا مرّ مسنعي

بحلّ ولا حيث استقلّ رحيل

كمثل بني عيسى حفاظاً ونائلاً

إذا عمّ أقطار البلاد مخول

وهأنت ذا ترى أنه قد ذهب ما أعطوه وبقي ما أعطاهم.

صفات الشاعر وأخلاقه

كان ابن عثيمين ربعةً من الرجال، ليس بالطويل ولا بالقصير، أسمر اللون، حادّ

البصر، مكتمل الصحة، وكان قوياً حسن السمعة، دائب الجد؛ وقد يتندر، ولكن مع قلة يصطفئها من الصحاب، وكان إلى ذلك سخي الكف، كثير البر شجاعاً وفيّاً لأصدقائه، ويؤيد ذلك أنه لما وقعت حروب بين أصدقائه آل ثان، وبين خصومهم، اشترك في القتال، فلما كانت موقعة (خنور) قُتل حامل الراية من جيش آل ثان، وكادت الهزيمة أن تلحق بهم، لولا أن الشاعر نهض إلى الراية فحملها، وأخذ يتقدم ويعود بها، حتى التحم الجيشان، وأخذ يشق الصفوف، ويهتف بالجند، وقد أثار بذلك حماسة صحبه، فكان النصر حليفهم.

### شعالة الشاعر

وقد جد الشاعر في التحصيل والدرس، رغم كد العيش وعبث الأيام، وقد حاول أن يكون له سبق في الشريعة وعلومها، لذا رأيناه في باكورة حياته ينقطع إلى الشيخ الخرجي بالسلمة، يأخذ عنه، ولما اشتغل بتجارة اللؤلؤ على ساحل الخليج العربي جعل للعلم طرفي النهار، فإن كان بعمان كان أستاذه الشيخ/ أحمد الرجباني. وإن كان بفطر تتلمذ على العلامة الشيخ/ محمد بن عبدالعزيز بن مانع، فإن رجع إلى نجد رأيناه بالأفلاج في دروس الشيخ (سعد بن حمد بن عتيق)، وبالرياض مع أئمة الدعوة السلفية، من آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله، لكنه رغم هذا الجد ورغم طموحه إلى المشيخة في العلوم الشرعية، غلب عليه الأدب، وعرف به دون سواه، وقد حفظ مقامات الحريري، كما حفظ وقرأ كثيراً من شعر الأقدمين، من شعراء الجاهلية والإسلام والمخضمين والأمويين والعباسيين.

### سنة الشاعر بال سعود

فتح الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود، رحمه الله، الأحساء سنة (١٣٣١هـ)، والشاعر إذ ذاك ينتقل بين الإمارات العربية على الخليج كما قدمنا، وقد

ازدهاه هذا النصر بوصفه مسلماً تعنيه عزة دينه ، وبوصفه مواطناً يتمنى لبلاده  
القوة والمنعة .

وأثْلَج صدره هذا النصرُ المبين ، فأَنطق لسانه ، وقام مسرعاً بتقديم تهنئته للملك  
عبدالعزیز وتسجيل ذلك الفتح العظيم بقصيدة رائعة يقول في مطلعها :

الْعَزَّ وَالْمَجْدُ فِي اللَّهِ ——— نَذِيَّةُ الْقَضْبِ

لَا فِي الرُّسَائِلِ وَالسُّتُمِيقِ لِلْخُطْبِ  
تَقْضِي الْمَوَاضِي فِيمَضِي حُكْمُهَا أَمَّا

إِنْ خَالَجَ الشُّكُّ رَأْيَ الْحَاقِقِ الْأَرْبِ  
وَلَيْسَ يَنْبَغِي الْغَلَا إِلَّا نَذَى وَوَعَى

هَذَا الْمَعَارِجُ لِلْأَسْتَى مِنَ السُّرُتْبِ  
وَمَشْغَلُ أَخُو عَزَمٍ يَشِيعُهُ

قَلْبٌ صَرُومٌ إِذَا مَافَهُمْ لَمْ يَهَبِ  
لِلَّهِ طَلَّابٌ أَوْ تَارٍ أَعْدَّ لَهَا

سَيَرًا حَتَّى ——— ثَابِتًا بِعَزَمٍ غَيْرِ مُؤْتَشِبِ  
ذَاكَ الْإِمَامَ الَّذِي كَادَتْ عَزَائِمُهُ

تَسْمُو بِهِ فَوْقَ هَامِ النَّسْرِ وَالْقُطْبِ  
عَبْدُ الْعَزِيزِ الَّذِي ذُلَّتْ لِسْطُوتُهُ

شَوْسُ الْجَبَابِرِينَ عَجَمٌ وَمِنْ عَرَبِ  
لَيْثُ السُّلَيْمِ أَخُو الْهَيْجَاءِ مِسْعَرُهَا

السَّيِّدُ النَّجَبِ ابْنُ السَّادَةِ النُّجَبِ  
قَوْمٌ هُمْ زِينَةُ الدُّنْيَا وَبَهْجَتُهَا

وَهُمْ لَهَا عِمْدٌ مَمْدُودَةُ السُّطُوبِ  
لَسْكَنٌ شَمْسٌ مَلُوكِ الْأَرْضِ قَاطِبَةُ

عَبْدُ الْعَزِيزِ ——— زِيْلَا مَيْنٍ وَلَا كَذِبِ



قَادَ الْمَقَانِبَ يَكْسُو الْجَوَّ عَثِيرَهَا  
 سَمَاءَ مَرْتَكِمٍ مِنْ نَفْعِ مَرْتَكِبِ  
 حَتَّى إِذَا وَرَدَتْ مَاءَ الصَّوْءِ وَهَذَا  
 صَارَتْ لَوَاحِقِ أَقْصَابِ مِنَ السَّعْبِ  
 قَالَ السَّيْرُ لَنَا فِي الْحَرْبِ شَيْئَانِ  
 نَمُشِي إِلَيْهَا وَلَوْ جُنْيًا عَلَى السَّرْكِ  
 فَسَارَ مِنْ نَفْسِهِ فِي جَحَقٍ حَرْدِ  
 وَسَارَ مِنْ جَيْشِهِ فِي عَسْكَرِ لَجِبِ  
 فَتَحَ بِهِ أَضْحَتِ الْأَخْصَاءِ طَاهِرَةً  
 مِنْ رَجْسِهَا وَهِيَ فِيهِمَا مَرٌّ كَالْجُنْبِ  
 شُكْرًا بَنِي هَجَرَ لِلْمَقَرِنِيِّ فَقَدْ  
 مِنْ قَبْلِهِ كُنْتُمْ فِي هَوَاةِ الْعَطَبِ  
 هَذَا كُنْتُمْ قَبْلَهُ نَهَابًا بِمَضِيعَةٍ  
 مَا بَيْنَ مَقَرَسٍ مِنْكُمْ وَمُسْتَلَبِ  
 رُومَ تَحْكِمَ فِيكُمْ رَأْيَ ذِي سَقَةِ  
 أَحْكَامَ مَعْقِدِ الثَّلَاثِ وَالصَّكْبِ  
 وَلِلْأَعَارِيِبِ فِي أَمْوَالِكُمْ عَيْتَ  
 يَمْزُونَكُمْ مَرِيَّاتِ الصَّنُوفِ فِي الْحَلَبِ

ويقول فيها؟ .....

وَهَبْ لَكُمْ جُنَّ تَجَدَّ وَاسْتَطْبِـرَ بِهِ  
 فَمَادَهُ بِشِفَارِ الْبَيْضِ وَالْيَلَبِ  
 شَوَارِدَ هَيْدَتِهَا صِدْقَ عَزَمَتِهِ  
 فَظَلَنَ يَرْهَنَ بَعْدَ الْوُخْدِ وَالْخَبِـبِ

مَلِكٌ يُؤْودُ السَّيِّئِينَ وَيَجْعَلُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِيزَانَ  
 وَلَوْ كَانَ بِكُمْ حَقٌّ لَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمُ الْمَائِدَةَ  
 فَتَكْفُرَ فِي دِينِكُمْ وَأَنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ  
 إِذَا الْمُلُوكُ اسْتَغْلَاوُا فَارْجِعُوا  
 عَلَى الْأَرْكَانِ يُبَيِّنُ الْخَرْدَ الْعَرْبِ  
 فِي الْمَوَاضِي وَفِي السُّمْرِ الْبَدَانِ وَفِي الْجُرَدِ الْجِيَادِ لَهُ شُغْلٌ عَنِ الطَّرَبِ  
 يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ  
 اسْمِعْ هَذِيكَ مَقَالَ السَّائِغِ الْحَدَبِ  
 اجْعَلْ مَشْهُدَكَ فِي أَمْرِ تَحَاوُلُهُ  
 مُهَذَّبُ السَّيِّئِينَ رَأْيِي ذَا عِلْمٍ وَذَا أَدَبٍ  
 وَقَدِّمِ السَّيِّئِينَ ثُمَّ السَّيِّئِينَ إِنَّهُمَا  
 قَوَامٌ ذَا الْخَلْقِ فِي بَدْعٍ وَفِي عَقَبِ  
 هُمَا السَّيِّئُونَ لِأَقْوَامٍ إِذَا صَعُرَتْ  
 خُدُودُهُمْ وَاسْتَحَقُّوا صَوْلَةَ الْغَضَبِ  
 وَاسْتَعْمِلِ الْعَفْوَ عَمَّنْ لَا تُصِيبُ رَأْيُهُ  
 إِلَّا إِلَهُهُ فَذَلِكَ الْعِزُّ فَاحْتَسِبِ  
 وَاعْتَدِ مَعَ اللَّهِ عَزْمًا لِلْجِهَادِ فَقَدْ  
 أَوْتِيَتْ نَصْرًا عَزِيزًا فَاسْتَقِمْ وَتَوَكَّلْ  
 وَأَكْرِمِ الطَّمْعَاءَ الْعَامِلِينَ وَكُنْ  
 بِهِمْ رَحِيمًا تَجِدُهُ خَيْرَ مَنْقَلَبٍ  
 وَاحْذَرِ أَنْاسًا أَصَارُوا الْعِلْمَ مَذْرَجَةً  
 لِمَا يَرْجُونَ مِنْ جَاهٍ وَمِنْ تَشَبُّبِ

هَذَا وَفِي عِلْمِكَ الْمَكُونُ جَوْهَرَةٌ

مَا كَانَ يَغْنِيكَ عَنْ تَذَكُّرٍ مُخْتَسِبٍ  
وَحَدِّ شَوَارِدِ أَيْنِياتٍ مُتَفَكِّةٍ

كَأَنَّهَا دُرٌّ فَصَلَنَ بِالذَّهَبِ  
زَهَتْ بِمَدْحِكَ حَتَّى قَالَ سَامِعُهَا

[أَلَلَّةُ أَكْبَرُ كُلِّ الْحُسْنِ فِي الْغَرْبِ]  
ثُمَّ الصَّلَاةُ وَتَسْلِيمُ الْإِلَهِ عَلَى

مَنْ خَصَّهُ اللَّـهُ بِالْأَسْنَى مِنَ الْكُتُبِ  
الْمُصْطَفَى مِنْ أَرْوَمِ طَالِبِ غَنَصِهَا

مُحَمَّدِ الطَّاهِرِينَ الطَّاهِرِ النَّسَبِ

وتعد هذه معارضة لقصيدة أبي تمام في مدح المعتصم العباسي وتهنتته بفتح  
عمورية وهي القصيدة المشهورة التي مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

وكان شاعرنا موفقاً في هذه المعارضة كل التوفيق، فالمناسبة قوية بين الفتحين: ففتح  
عمورية كان إنقاذاً للمسلمين من تنكيل الروم، وكذلك كان فتح الأحساء إنقاذاً  
للمسلمين من تنكيل المحتلين والمستعمرين، وهذه أول قصيدة قالها الشاعر في مدح  
الملك عبدالعزيز آل سعود، ومنذ ذلك التاريخ سطع نجم شاعرنا الهمام ابن عثيمين في  
سماء الأدب وسجل في قصائده انتصارات الملك عبدالعزيز، وبطولاته المظفرة،  
ووقائعه الفاصلة وفجواته الكبرى، وعرف الملك عبدالعزيز، غفر الله له، للشاعر  
النجدي فضله، وقدر أدبه، فأضفى عليه ثوب النعمة.

طائفة حياه الشاعر

وفي أخريات عمر الشاعر الطويل انصرف عن الشعر إلى العبادة، بعد أن بلغ

خمسـة وثمانين عاماً، ووافاه القـدرُ المحتوم في اليـوم الثامن من شهر ذي الحجة، سنة ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م، وله من العـمر ثلاثـة وتسعون عاماً وهو بكامل قـواه، ودافق حيويته -رحمه الله.

يمتاز شعر ابن عثيمين بالسهولة والعذوبة ووضوح المعنى، وجزالة التركيب، ويظهر فيه كلفه باحتذاء الأقدمين في بعض قصائدهم المشهورة، وإذا قيس شعره بزمـنه ويئـتبه التي عاش فيها، وبـعصره الذي سادـه التأخر والجهل، حق لنا أن نعدّه، من قادة النهضة الأدبية الحديثة، ورائدها في الجزيرة العربية، ومن يستوعب ديوان ابن عثيمين (العقد الثمين) من شعر محمد بن عثيمين، الذي قام بجمعه وترتيبه وشرح مفرداته اللغوية والذي الشـيخ سعد بن عبدالعزيز الرويشد، حيث بذل جهداً كبيراً في البحث عن قصائد الشاعر في قطر والبحرين، ولدى بعض العلماء والأدباء في الرياض وحوطة بني تميم والخرج، وفي مكتبة معالي الشـيخ محمد سرور الصبان -رحمه الله- بمكة المكرمة، وقد طبع هذا الديوان القيم (العقد الثمين) الطبعة الأولى على نفقة معالي الشـيخ عبدالله السليمان الحمدان رحمه الله، بدار المعارف بمصر عام (١٣٧٥هـ) والطبعة الثانية بأمر حاكم قطر السابق أحمد بن علي آل ثان والثالثة والجديدة على حساب الشـيخ عبدالعزيز العبدالله الحمدان وإخوانه.

ويقلب على ابن عثيمين في شعره ثلاثة أغراض، هي المدح والتهنئة والرثاء، وهي تكاد تتبّع من معين واحد.

أما المدح فقد تفوّق فيه، ونظّم روائعه، فحاكى غيره من الشعراء، غير أنه اختار لدجـه ثلاث أسـر عربية ماجدة، هي آل سعود، وآل خليفة، وآل ثان، حيث اختصهم

بمدحه، فقدره حق قدره، ورباً بنفسه أن يمدح من هو دون الملوك والأمراء ولم يكن في مدحه يقصد عطاءً ولا مالاً، ولم يكن من المتكسبين بشعره، فقد كان تاجراً يعيش بكفاحه وكده، وكان يشكر لهؤلاء الملوك عنايتهم به وحذبهم عليه، فنراه يقول:

وما كنت ممن يجعل الشعر مَكْسَباً

ولم يضطربني للمطامع قليل  
ولكن غمام من نداء أظلني

فأخضلت فيه والزمان محيلاً  
وامتأثر بأكثر مدائح الملك عبدالعزيز عندما توالى فتوحاته للعواصم الكبرى من مملكته فهو شاعره السياسي.

أما الرثاء فمبعثه الوفاء لمن أحسن إليه من العظماء والعلماء فهو ينزع فيه عن عاطفة صادقة إسلامية نبيلة وروح سامية، وفي هذا الغرض نجد له بعض أمثلة من الحكمة، ولم يتصرف شاعرنا في بقية الأغراض الشعرية الأخرى فقد ترك الهجاء لعفة لسانه وسمو خلقه وحرصه على محبة الناس ومسالمتهم، وترك الغزل لأنه إنما يحسن من ذوي الطبيعة المرحية، فلا يليق بمن كان مثله في توفقه وسمته؛ على أنه جارى السابقين وحاكاهم بالتشبيب في أول قصائده ويكاد لا يترك ذلك إلا نادراً ومن قول شاعرنا في الرثاء ماقاله في رثاء العلامة الشيخ عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ المتوفى سنة ١٣٣٩هـ:

لميل ذا الخطب فلتبك العيون دماً

فما يماثله خطب وإن عظم ما  
كانت مصائبنا من قبله جللاً

فالآن جب سقام المجـد وأنهـما  
بحر من العلم قاضت جداوله

لكنه سائغ في نوق من طعما

تَشْقُ أَصْدَافُهُ فِي النَّحْتِ عَنْ دُرَرٍ

تَهْدِي إِلَهِي الْحَقَّ مَقْهُومًا وَمُلْتَرِمًا  
فَكَمْ قَوَاعِدَ فُقِّعَ بِهِ هَذَا بَابُكُمْ

أَشَادَ رَسْمًا مِمَّنْ الْعُلَمَاءُ  
نَقَى إِلَيْنَا الْعِلْمَ وَالْبِرَّ مَصْرَعَهُ

وَالْعِلْمَ وَالْفَضْلَ وَالْإِحْسَانَ وَالْكَرَمَ  
هَدَى الْخِصَالُ الَّتِي كَانَتْ تَفْضِلُهُ

عَلَى الرِّجَالِ فَأَضْحَى فِيهِمْ عِلْمًا  
فَلَيْتَ شِعْرِي مَنْ لِلْمَشْكَلَاتِ إِذَا

مَاحِلٌ مِنْهَا عَوِيصٌ يَبْهَمُ الْفَهْمَا  
وَالْعُلُومُ الَّتِي تَخْفَى غَوَامِضُهَا

عَلَى الْفُحُولِ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْعُلَمَا  
مَنْ لَأَرْامِلِ وَالْأَيْتَامِ إِنْ كَلَحَتْ

غَيْرُ السَّيِّئِينَ وَأَبْدَتْ نَاجِدًا خَدِمَا  
لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ إِذْ حَانَتْ مَنِيئُهُ

دَفَعْتُهَا عَنْهُ لَكِنْ حَمَّ مَا حَمَمَا  
إِنَّ الْحَيَاةَ وَإِنْ طَالَ السُّرُورُ بِهَا

لَا يَذُّ يَلْقَى الْفَقَى مِنْ مَسْهَمَا أَلَمَا  
أَمَا تَرَى الشَّيْخَ عَبْدَ اللَّهِ كَيْفَ مَضَى

وَكَانَ عَقْدًا نَقِيًّا سَا بَفَضْلِ الْقِيَمَا  
أَلَا هُوَ أَكْبَرُكُمْ بِأَكْ وَبِأَكِيَّةِ

وَحَائِرٍ كَاظِمٍ لِلْفَقْرِ يَنْظُرُ قَدْ وَجَمَا

وَفَجَعَةَ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا لِمَصْرَعِهِ

وَفَرَحَةَ النَّاسِ وَالْإِسْلَامَ لَوْ سَلِمَا

ومن قول شاعرنا في صديقه وراوية شعره الأديب عبدالله بن أحمد العجيري المتوفى سنة (١٣٥٢هـ):

هُوَ الْمَوْتُ مَا مَنِيْنُهُ مَلَأَتْ وَمَهْرَبُ

مَتْنِيْ حَطَّ ذَا عَنْ نَعْشِهِ ذَاكَ يَرْكَبُ

إِلَى النَّهْرِ نَشْكُوْهُ قِسْوَةً فِيْ قُلُوْبِنَا

وَفِي كُلِّ يَوْمٍ وَأَعِظُ الْمَوْتَ يَنْدُبُ

نَهِيْلُ عَلَيْهِ السُّرْبَ حَتَّى كَأَنَّهُ

عَدُوٌّ وَفِي الْأَحْشَاءِ نَارٌ تَلْهَبُ

سَقَى جَدْنَا وَارَى ابْنُ أَحْمَدَ وَأَيْلُ

مِنْ الْعَفْوِ رَجَّاسُ الْعَشِيَّاتِ صَيَّبُ

قُلُوْبُ كَانَ يُقْدِي بِالْأَنْفُسِ وَمَا عَلَا

لَطِيْنًا نَفُوسًا بِالَّذِي كَانَ يَطْلُبُ

وَلَمَّا كَانَ إِذَا تَمَّ الْعَدَى نَقَذَ الْقَضَا

وَمَا لِأَمْرِئٍ عَمَّا فَضَى النَّهْرُ مَهْرَبُ

أَخْ كَانَ لِي نِعَمَ الْمَعِينِ عَلَى السُّقَى

بِهِ تَنْجِيْ عَنِّي الْهَمُّومُ وَتَذَهَبُ

فَطَوْرًا بِأَخْبَارِ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ

وَطَوْرًا بِآدَابِ تَلْدُ وَتَعْدُبُ

عَلَى ذَا مَضَى عَمْرِي كَذَاكَ وَعَمْرُهُ

صَفِيْنٌ لَا تَجْفُو وَلَا تَنْعَتُبُ

لِكَلِّ اجْتِمَاعٍ مِنْ خَلِيٍّ ————— لَيْنِ فِرْقَةٍ  
 وَلَوْ بَيْنَهُمْ قَدْ طَابَ عَيْشٌ وَمَشْرَبٌ  
 فَمَا نَحْنُ فِي دَارِ الْمُنَى غَيْرَ أَنَّا  
 شَفِيتْنَا بِدُنْيَا تَضْمَحِلُ وَتَذْهَبُ  
 فَحَلُّوْا مَطَايَا الْإِرْتِحَالِ وَشَمِّرُوا  
 إِلَى اللَّهِ وَالْـدَّارِ الَّتِي لَيْسَ تَخْرُبُ

وقد جمع ديوان الشاعر كل ما أمكن جمعه من شعره إلا هذه الأبيات الخمسة التي وجدتتها مخطوطة بيد الشاعر في مكتبة الشيخ إبراهيم بن عبدالله الشايفي ضمن جواب خطاب قد بعثه الشاعر وهو بحوطة بني تميم إلى الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سعود والد الملك عبدالعزيز - رحمهم الله جميعاً - وهو بالرياض وذلك بتاريخ أربعة رجب عام ١٣٤٦هـ.

وكان الإمام عبدالرحمن قد بعث إلى الشاعر رسالة ومعها (عباءة) له، وكان الشايفي يعمل مديراً لمكتب الإمام عبدالرحمن وكذلك قصيدة في الملك سعود - رحمه الله - يهنئه الشاعر بولاية العهد ومقطعة شعرية في الشيخ محمد بن مانع أستاذ الشاعر عليهما رحمة الله:

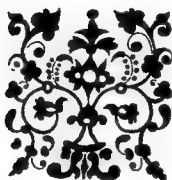
كسوتني حلة تبلى محاسنها  
 فسوف أكسوك من حسن الثا حلا  
 انت ابن من زانت الدنيا مكارمهم  
 وأصبحوا مجدهم بين الوري مثلاً  
 بكم هدى الله ماضينا وآخرنا  
 فأنتم رحمة نلنا بها الأمل  
 يحصى الحصى قبل أن تحصى فضائلكم  
 دنيا وديننا وإحساننا ومنتحلا



فأله يكسوكمو نعماً ويجعلكم

ملوكنا ما بدا نجم وما أفلا


وأسجل هنا للحقيقة والتاريخ أن شاعرنا الكبير محمد بن عثيمين قد نقل  
الشعر العربي في مجتمعه في الجزيرة العربية من مرحلة التقليد والصناعة  
اللفظية إلى عهد جديد من الأصالة والبلاغة الشعرية وسمو المعنى وقوة النسيج  
وتحليق الخيال....



# الشيخ حمزة فتح الله

## وبهوده اللغوية

د. شاحري عبد الباقي

 الشيخ حمزة فتح الله علم من أعلام العربية على اختلاف علومها وأحد عمد نهضتها الحديثة. كان حجة ثبًا في اللغة والأدب، ذا إنتاج غزير نشرًا ونظمًا. تنوع نثره ما بين خطب ومقالات وبحوث وكتب وهو إلى جانب ذلك فقيه في العلوم الإسلامية.

ولد حمزة فتح الله المصري ابن السيد حسين بن محمد شريف التونسي بمدينة الإسكندرية مع غروب العقد الخامس من القرن الماضي (١٨٤٩م = ١٢٦٦هـ)<sup>(١)</sup>.

وكان شأنه شأن لداته: حفظ القرآن الكريم وتلقى مبادئ التعليم بالكتاب، ثم التحق بجامعة الشيخ إبراهيم باشا بالإسكندرية، وانتقل بعد ذلك إلى القاهرة حيث أكمل دراسته بالأزهر الشريف ثم عاد إلى الإسكندرية موطن الأهل لبدأ دورًا جديدًا هو دور البذل والعطاء واستهل حياته الجديدة بالعمل محررًا بصحيفة «الكوكب الشرقي» وهي جريدة يومية أنشأها سليم الحموي، الدمشقي المولد مع أخيه عبدالله<sup>(٢)</sup>.

وحين بلغ الرابعة والعشرين سافر إلى تونس ومكث بها ثماني سنوات عمل في أنشائها محرراً بجريدة «الرائد التونسي» وهي الجريدة الرسمية للحكومة<sup>(٦)</sup> وقد أكسبه العمل بالجريدتين دربة على الكتابة وصقلاً لمواهبه وخبرة بمهنة الصحافة فأصدر بعد رجوعه إلى مصر جريدة «البرهان»<sup>(٧)</sup> ثم عهد إليه في أثناء حصار الإسكندرية بتحرير جريدة «الاعتدال»<sup>(٨)</sup> وقد وقف إلى جانب الخديو توفيق يؤيده في موقفه المعادي للعربيين<sup>(٩)</sup>، وهذا ما يؤخذ على الشيخ؛ لأن جمهور المصريين كان يناصر العربيين ويقف في صفهم ضد الخديو، وظل يصدر هذه الصحيفة إلى أن أخمدت الثورة العربية واستتب الأمر للخديو وجثم الإنجليز على صدر مصر. ثم عين في نظارة المعارف (التربية والتعليم الآن) مدرساً ثم مفتشاً. وقد تولى التدريس بمدرسة الألسن سنة ١٨٨٨م، ثم نقل إلى مدرسة دار العلوم<sup>(١٠)</sup> وعمل مفتشاً في مدارس الحكومة على اختلاف أنواعها ثم اختير المفتش الأول للغة العربية سنة ١٩١٠م. وهو أول من تولى هذا المنصب. وظل يشغل بالعلم بعد إحالته إلى المعاش حتى انتقل إلى جوار خالقه في فبراير سنة ١٩١٨م<sup>(١١)</sup>.

ولمكانة الشيخ فتح الله العلمية اختير ليمثل مصر في مؤتمرات من مؤتمرات العلوم الشرقية (مؤتمرات المستشرقين) عقد أولهما في فيينا سنة ١٨٨٦م، وقد صاحبه في هذا المؤتمر حفني ناصف<sup>(١٢)</sup>، والمؤتمر الآخر في استكهلم سنة ١٨٨٩م. وقد رأس وفد مصر في هذا المؤتمر عبد الله فكري وأما أعضاؤه فهم الشيخ حمزة وأمين فكري ومحمود عمر<sup>(١٣)</sup>.

وقد خلف لنا الشيخ حمزة طائفة من المؤلفات مابين كتب ورسائل، وهي:

١- باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام ويقع في ١٠٧ صفحات وقدمه المؤلف إلى المؤتمر الشرقي الذي عقد في استكهلم ١٨٨٩م، وطبع في بولاق سنة ١٣٠٨هـ.

٢- المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية.

٣- مجموعة تشتمل على:

أ- قصيدة دالية اختتم فيها الحفلة الأخيرة من المؤتمر العلمي الشرقي في وينا (فيينا)

سنة ١٨٨٦م.

ب - قصيدة رائية ودع بها قينا وأهلها.

ج - حث عما للعرب جاهلية وإسلاماً من الفضائل والمعارف.

وقد طبعت طبع حجر سنة ١٣٠٤هـ.

٤ - قصيدة بهية في مدح حضرة أسكار الثاني ملك السويد والنرويج بالبلاد الأوربية، ألقاها في المؤتمر العلمي الشرقي باستكهلم في ذي الحجة ١٣٠٦هـ (١٨٨٩م).

٥ - أ - أربع رسائل هي:

أ - التحفة السنية في التواريخ العربية طبعت في بولاق ١٣١٥ في ١٩ صفحة.

ب - الكلمات غير العربية في القرآن الكريم، طبعت سنة ١٩٠٢م، في ١٧ صفحة (١).

ج - العقود الدرية في العقائد التوحيدية، وقد قررتها نظارة المعارف على تلاميذ المدارس الابتدائية.

د - هداية الفهم إلى بعض أنواع الوسم، في وسم الإبل والخيول وغيرهما عند العرب، وذيله برسوم وأشكال للوسم عند البدو المحدثين.

هذا ومن أعماله الجليلة الصحيحة «المصباح المنير» للفيومي، وقد طبعته وزارة المعارف ووزعته على طلبة المدارس وحذف من هذه الطبعة بعض الألفاظ التي ينبغي ألا يلم بها الطلاب في هذه المرحلة من عمرهم.

من عرضنا لمؤلفات الشيخ حمزة وماكتبه عنه الباحثون يتبين لنا أنه كان دائرة معارف في العلوم العربية والإسلامية. وسنقف على جانب واحد من جوانبه وهو الجانب اللغوي. ويمكن حصر هذه الجهود في ثلاثة اتجاهات هي:

١- البحث والمحاورة.

٢ - الدعوة إلى نبذ العاميات.

٣ - تنمية اللغة لمواجهة التقدم العلمي والحضاري.

وفيما يلي وقفة سريعة مع هذه الجوانب الثلاثة:

أولاً- الباحث المحاضر: ولكي ندرك هذا الجانب نعرض لكتابه «المواهب الفتحية» وهو كما يذكر المؤلف في مقدمته- دروس أعدها ثم ألقاها على طلبة مدرسة دار العلوم في الدروس العامة إذ إن المدرسة قررت إلقاء دروس عامة بعضها في

الكتاب والمئة وبعضها في اللغة فأوكل للشيخ حمزة الدرس الأخير وكانت ثمرة هذا الدرس هذه المواهب، وهو يشتمل على:

**المقالة الافتتاحية:** وهي أول درس ألقاه على الطلبة وكان في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٨٨م، وكان عن العلم وأهميته وواجبات العالم في هذه الحياة شارحاً قول المصطفى ﷺ: «العالم أمين الله في الأرض».

ثم تلا «المقدمة» وتشتمل على تسعة مقاصد، هي:

الأول - في ماهية العلم.

الثاني - في تقسيمات العلوم.

الثالث - في أن اللغة توقيفية.

الرابع - في بيان أول اللغات وأول من وضع الخط العربي.

الخامس - فيمن يحيط بلغة العرب.

السادس - في العلوم العربية.

السابع - في خصائص اللغة العربية.

الثامن - فيما صح الاستشهاد به على اللغة والنحو والصرف.

التاسع - في اصطلاحات الكتب اللغوية المتداولة وشرح بعضها لسهولة مراجعتها.

وتلا ذلك عرض الدعائم الأربع، وبيانها كالتالي:

**الدعامة الأولى:** عشر قصائد تولى شرحها، وهي:

١- قصيدة امرئ القيس التي مطلعها:

الاعم صباحاً أيها الطلل البالي

وهل يَمْنُ من كان في العَصْر الخالي

٢- قصيدة أبي مخنف الثقفي وأولها:

لاتمالي الناس عن مالي وكثرته

وسائلي القوم عن ديني وعن خلقي

٣- قصيدة أبي طالب عم الرسول ﷺ:

خليلي ماأذنني لأول عائل

بصفواء في حق ولا عند باطل

٤- لامية العرب للشنفرى وأولها:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم

قناني إلى قوم سواكم لأمل

٥- قصيدته التي ألهاها في ختام مؤتمر العلوم الشرقية المنعقد باستكهم عاصمة

السويد في أواخر سنة ١٣٠٦هـ (١٨٨٩م) ومطلعها:

حمد السرى بأخي العود والثاب

أنمأك وعشاء إغباب واخباب

وختمها بقوله:

يعيش أسكار كي ترقى العلوم به

عزا مزيئا بأنجال وأحباب

٦- قصيدة زهير بن أبي سلمى التي أولها:

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يملو

وأقفر من سلمى التعانيق فالتقل

٧- قصيدة القطامي:

إننا محيوك فاسلم أيها الطفل

وإن بكيت وإن طالت بك الطيل

٨- قصيدة أبي محمد الخازن عبدالله بن أحمد يهنئ فيها صاحب أبا القاسم

إسماعيل ابن عبّاد المتوفى سنة ٣٨٥ ومطلع هذه القصيدة:

بشرى فقد انجز الاقبال ماوعدا

وكسوكب المجد في أفق العلا صعدا

٩- قصيدة الأعشى (أعشى باهلة) في رثاء المنتشر بن وهب، وكان أخاه لأمه وكان فارساً رئيساً قتله بنو الحارث بن كعب إثارة برجل منهم وقد استهلها بقوله:  
إني أتتني لسان لا أسرُ بها

من علو لا عجب منها ولا سخر  
١٠- شرح مقصورة ابن دريد، وهو العالم اللغوي محمد بن دريد صاحب معجم «جمهرة اللغة» الذي وصف بأنه (أعلم الشعراء وأشعر العلماء) وتوفي سنة ٣٢١هـ وتبدأ هذه المقصورة بقول ابن دريد:

إما ترى رأسي حاكى، لوئه

طرفة صبح تحت أذيال الدجى  
يلي ذلك الدعامة الثانية عن المحاكات العشر وهي مقارنات، قد تكون المقارنة بين بيت أو أكثر لشاعرين أو أكثر، وهي على النحو التالي:

المقارنة الأولى: بين بيتين لابن عنين الدمشقي وبيتين لربيعه الرقي.  
المقارنة الثانية: بين أربعة أبيات: الأول لكعب بن مالك شاعر الرسول ﷺ، والثاني للأخنس بن شهاب، والثالث للسموأل، والرابع لحميد بن ثور بن هلال الصحابي.

المقارنة الثالثة: في الشيب بين بيتين للمتنبى، وبيت للبحتري، وبيت لأبي تمام.  
المقارنة الرابعة: في شكوى الكبر بين أربعة أبيات لابن قميئة وستة للربيع بن ضبع الفزاري.

المقارنة الخامسة: بين بيتين لكل من عمر بن أبي ربيعة وقيس بن ذريح والقطامي.

الدعامة الثالثة: الرسائل العشر:

بعد هذه المقارنات عرض لعشر رسائل؛ خمس منها لبشر بن أبي كيار البلوى من أهل صنعاء.

والرسالة السادسة: من الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله

القصري وكان أمير العراقيين من قبله.

والسابعة : من الأمين للمأمون.

والثامنة : من المأمون للأمين.

والتاسعة: في شكوى الزمان كتبها البديع الهمداني إلى أستاذه أحمد بن فارس العالم اللغوي.

والعاشرة: وهي الأخيرة إحدى رسائل ابن زيدون التي بعثها بعد أن فر من السجن إلى ابن جهور أحد ملوك الطوائف بالأندلس يستعطفه، والتي عرفت بالجديّة ومطلعها «يامولاي وسيدي الذي ودادي له واعتمادي عليه...».

ثم انتقل إلى الدعامة الرابعة، وهي الأخيرة، وقد تناول فيها عشر خطب:

أولها لرسول الله ﷺ: (أيها الناس إن لكم معالم فأنتهوا إلى معالمكم)، والثانية: لأبي بكر الصديق وهي التي خطبها يوم السقيفة، والثالثة: لعمر بن الخطاب، والرابعة: لعثمان بن عفان، والخامسة: لسيدنا علي كرم الله وجهه، والسادسة: لسيدنا علي أيضاً، والسابعة لأعرابي، والثامنة لعمر بن عبدالعزيز، والتاسعة لعنبة بن سفيان في الموسم وكان قد حج بالناس سنة إحدى وأربعين، وأما الخطبة الأخيرة فهي لداود ابن علي بن عبدالله بن العباس في أول موسم ملكه بنو العباس بمكة.

والحديث عن المواهب يعود بنا إلى كتب الأمالي والمحاضرات التي أنتجها علماؤنا القدامى أمثال المبرد في كتابه الكامل الذي كان يشرح النص فيستشهد للشرح بمأثور الكلام من نثر وشعر، ثم يوضح ما استشهد به ويستشهد عليه. ويتعرض في شرحه للغة والنحو والصرف والتاريخ وغير ذلك من العلوم العربية على اختلافها.

وكذلك شأن كتاب «المواهب» فهو في مواطن كثيرة من شروحه وخاصة في القصائد الأولى التي شرحها ينتقل بالسامع (أعني الطالب) من علم إلى آخر ويغوص في بحار العلوم العربية والإسلامية مابين صرف وعروض وبلاغة وإملاء وتاريخ وجغرافيا وفقه وتفسير وحديث وقرآنية، وغير ذلك مما أنتجت قريحة العلماء المسلمين. وسأكتفي بمثال واحد وهو شرح لقلوب أبي طالب في مدح رسول الله ﷺ:



## يلوذ به الهلاك من آل هاشم

### فهم عنده في رحمة وفواضل

فقال: «الهُلَاكُ جمع هَالِكٍ، القراء الذين يتناوبون الناس طلباً لمعرفتهم. رجل هَالِكٌ من قوم هَلَاكٍ وهَلَكٌ وهَالِكِينَ وهَلَكْتِي، كَزَمَنِي وَمَرَضَنِي، لأنها أشياء ضربوا بها وأدخلوا فيها وهم كارهون. وهَلَكَ يَهْلِكُ هَلَاكاً وَهَلَاكًا ومهلكاً- مثلث اللام أو تهلكة. وقرئ شاذاً «يُهْلِكُ الْهَرَجُ» بفتح اللام، فلَمَّا تداخل كركن يركن وقط يقط أو مافيه هَلَكٌ بالكسر استعني عنه بهَلَكٍ بالفتح وبقيت يَهْلِكُ بالفتح دليلاً على المكسور. وأرض هَلَكُونٌ: جدبة. ولاذهين فلَمَّا هَلَكٌ وإما مَلَكٌ، أي إما أن أهلك وإما أن أملك، وهلكه وأهلكه. والاهلاك والانهلاك: رَمَى الإنسان نفسه في تهلكة. واستهلك المال: أنفقّه، قال:

تقول إذا استهلك مال الله

### فكرهه هَشْيٌ بكف يك لائق

أي هل شيء، وهو إدغام غير واجب كوجوب إدغام الشمس ونحوه ولاكلمه يفعلونه في هل شيء. وأفعل ذلك إما هَلَكْتَ هَلَكٌ بضمتين ممنوعة وقد تصرف أي على كل حال.

وهلك صفة مفردة بمعنى هالكة كناية سُرُحٍ وامرأة عَطُلٌ. وفي حديث الدجال: «ولكن الهَلَكُ كلُّ الهَلَكِ أن ربكم ليس بأعور» وفي رواية: «فلَمَّا هَلَكْتَ هَلَكٌ فإن ربكم ليس بأعور»، ومعنى الأولى الهلاك كل الهلاك للدجال لأنه وإن بُسَّ على الناس في دعوى الربوبية لايقدر على إزالة عوره ومعنى الثانية هَلَكٌ جمع هَالِكٍ، أي فإن هَلَكٌ به ناس وضلوا فاعلموا أن ربكم ليس بأعور. والفواضل: الأيادي الجميمة أو الجميلة، وفواضل المال ما يأتيك من غلته ومراققه من ريع ضيعة وريح تجارة ولبن وصوف ماشية، ومنه قولهم: إذا عَزَبَ المَالُ قُلْتَ فواضِلُهُ، أي إذا بعدت الضيعة أو الماشية قل انتفاع ربها بها.

فائدة - الفضولي: المشتغل بما لايعنيه. وعند الفقهاء: من ليس بمالك ولاوكيل ولاولي، وفتح فائه خطأ وأصله جمع فضل استعمل استعمال المفرد فنسب إليه على

لفظه. وحلف الفضول سمي به؛ لأن هاشماً وزهرة وتيماً دخلوا على عبدالله بن جدعان فتحالفوا بينهم على دفع الظلم وأخذ الحق من الظالم. والمُطَيَّبُونَ: هم عاقدوا ذلك الحلف، وهم خمس قبائل عبد الدار وجمع وسهم ومخزوم وعدى، وزيد عليهم سادسة وهي كعب وهم أحلاف قريش. وقيل سمي حلف الفضول تشبيهاً بحلف قديم كان بمكة أيام جرهم على التناصف والأخذ للضعيف من القوي والغريب من القاطن، وعاقدوه كل منهم يسمي الفضل وسبب حلف المطيبين أن بني عبدمناف أرادوا أخذ مافي أيدي بني عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء والسقاية فأبى بنو عبد الدار وعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا فأخرجت عبدمناف جفنه مملوءة طيباً فوضعتها لأحلافهم وهم أسد وزهرة وتيم عند الكعبة المكرمة فغمسوا أيديهم فيها وتعاقدوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً فسموا المطيبين، وتحالف عبد الدار ومن معهم حلفاً آخر مؤكداً على ألا يتخاذلوا فسموا الأحلاف، وكان سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ وأبو بكر من المطيبين وعمر من الأحلاف ويقال له أحلافي.

**والحجابه:** صناعة الحاجب كالشيبين، والرفادة: ما كانت تتراقد، أي تتعاون به قريش في الجاهلية فيخرج كل منهم مالا بقدر وسعة ويشتري به طعام وزبيب فلايزلون يطعمون الناس حتى ينقضي موسم الحج. وكانت الرفادة والسقاية لبني هاشم والسدانة واللواء لبني عبد الدار، وكان أول قائم بالرفادة هاشم بن عبدمناف، وهناك أحلاف غير هؤلاء. والحلف: العهد؛ والصديق يحلف لصاحبه ألا يغدر به وهو في المعاهدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق فماكان منه في الجاهلية على نصر وصلة الأرحام كحلف المطيبين وماجرى مجراه فذلك الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «وأما حلف كان في الجاهلية لم يزه الإسلام إلا شدة» يريد من المعاهدة على الخير ونصرة المظلوم وبذا يجتمع هذان الحديثان الشريكان». (١٢)

**وحزمة فتح الله** وهو يغوص في أمهات الكتب ومعظمها كان مخطوطا في عهده وماطبع منه نشر نشرة أشبه بالمخطوطة، فهي تحتاج إلى جهد في قراءتها لعدم ضبط ألفاظها وخلوها من علامات الترقيم التي لم تكن قد دخلت عالم العرب إلا قبيل وفاته كما أن المطبوع كانت تنقصه الفهارس التفصيلية التي تعين الباحث على الوصول

لبغيته بسهولة ويسر وللأسف ما تزال كتب التراث المنشورة يعوز الكثير منها هذه الفهارس.

والشيخ حمزة وهو في غوصه لكتب التراث ليستقي منها مادة درسه يقدم لنا الدرر ونوادر العربية ومن تلك النوادر قوله: «ونقل الصبان عن الفارسي آخر جمع التكمير أنهم قالوا في جمع جَمَلٍ أَجْمَلٌ ثم أَجْمَالٌ ثم جَامِلٌ ثم جِمَالَةٌ ثم جِمالات، فهو جمع جمع جمع جمع الجمع. وقرئ جِمالات بضم الميم». (١٣)

دفاع عن الإسلام: والمؤلف وهو التقي الورع - كما وصفه مؤلفا الوسيط في الأدب العربي، وهما ممن عاصره - حرص في محاضراته على أن يرد أية شبهة أثيرت حول الإسلام أو رجاله الذين وهبوا أرواحهم للذود عنه والدفاع عن حياته وقدموا أنفسهم فداء له، ومن أمثلة ذلك:

١ - أنه شاع بين بعض النسابين أن إحدى جدات الرسول ﷺ واسمها «برة بنت مر بن أد بن طابخة» تزوجها «كنانة» أحد أجداد الرسول وكانت زوجاً لأبيه فأنجب منها «النضر» وكان ذلك شائعاً في الجاهلية فأورد الشيخ حمزة ما يثبت أن هذا نشأ من التخليط عن اتفاق الأسماء فذكر معقّباً على الخبر «قال الحافظ قطب الدين عبدالكريم:

ولما وقعت على هذا أقمت مفكراً مدة، لأن برة المذكورة قد جاء منها النضر جد نبينا ﷺ وكيف يقع هذا في نسبه الشريف وقد روينا عنه ﷺ أنه قال: «ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء، إنما ولدت من نكاح كنكاح الإسلام»، إلى أن رأيت أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قال في كتاب له سماه كتاب الأصنام: وخلف كنانة بن خزيمة على زوجة أبيه بعد وفاته وهي برة بنت أد بن طابخة جد كنانة بن خزيمة ولم تلد لكنانة ولداً ذكراً ولا أنثى، ولكن كانت ابنة أخيها برة بنت مر بن أد بن طابخة تحت كنانة بن خزيمة فولدت له النضر بن كنانة قال: وإنما غلط كثير من الناس لما سمعوا أن كنانة خلف أباه على زوجته لاتفاق اسمهما وتقارب نسبهما وهذا هو الصحيح الذي عليه مشايخنا وأهل العلم والنسب.

قال: ومعاذ الله أن يكون أصاب نمب النبي ﷺ نكاح مقت وقد قال ﷺ: ما زلت

أخرج من نكاح كنكاح الإسلام حتى خرجت من أبي وأمي. قال: ومن اعتقد غير هذا فقد كفر، والحمد لله الذي نزهه عن كل وصمة وطهره تطهيراً، وصلى الله عليه وسلم. قالوا: وهذا مما يرجي به للجاحظ الفوز في منقلبه والعفو عن فلتاته في بعض كتبه». (١٤)

٢- بين أن السيدة عائشة والصحابيين الجليلين طلحة والزبير - رضوان الله عليهم أجمعين - لم يخرجوا لقتال الإمام علي وإنما لموازرتة ولكن أعوان الشر بذروا بذور الفتنة، يقول حمزة فتح الله:

«والحق في شأنها [أي في وقعة الجمل] أنه صح أن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ قال لأمهات المؤمنين بعد آية (وقرن في بيوتكن) «أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن» وصح أنهم كن يحججن بعد وفاته عليه الصلاة والسلام بلانكير من الصحابة: علي وغيره، فكان إجماعاً سَكُوتياً. ولما خرجت عائشة من المدينة إلى مكة للحج عام وقعة الجمل جاءها طلحة والزبير وكثير من الصحابة وذوو رحمها لائذين بها هاربين من قتل عثمان لعزمهم على إلحاقهم به لما أنكروا عليهم تبجحهم بذلك حتى امتلأت منهم قلوب جميع الناس رعباً، فأشارت عليهم بترك المدينة فاختاروا البصرة؛ لأنها إذ ذاك مجمع الجنود فألحوا عليها أن تكون معهم حتى تحسم الفتنة وينتظم أمر الخلافة العلوية احتماء بأم المؤمنين لمكانتها في القلوب أكثر من بقية الأزواج الطاهرات. فلما قربوا من البصرة أبلغ القتل علماً الخبر على غير وجهه فلحقهم معهم وبعث القعقاع إلى أم المؤمنين وطلحة والزبير فعلم الحقيقة - كما ذكرنا - واتفقوا على إقامة الحد على القتل بعد استتباب الحال واستقرار تلك الخلافة ليأمن العموم شر أولئك القتل وعينوا يوماً لإعلان مذكر للناس فسر ذلك أمير المؤمنين كما ساء القتل حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت. فلما غشيتهم الليلة التفت على الإعلان في صبيحتها سول لهم الشيطان أن أغاروا على من كان مع عائشة من المسلمين ليظنوا غدر الإمام فيجمعوا على عسكره ويظن هو أيضاً غدرهم فيستحر القتل. وقد تم لهم ذلك لنفاذ ما سبق به العلم الأزلي. هذا هو الصدق الواضح والحق الصابح كما نقله ثقة المؤرخين وأوثقهم من عدة طرق كادت تبلغ مبلغ التواتر عن الحسن وابن جعفر وابن عباس ولا يعول على سواه مما في السير... فأحرص على ذلك:

**\* وليعلم الطالب أن السيرة \***  
**\* تجمع ماصح وماقد أنكرا \* (١٥)**

وهكذا نجده في مواطن كثيرة من الكتاب يدافع عن الإسلام وعن صحابة رسول الله ﷺ بل وعن العربية بوصفها لغة القرآن العظيم وهو في كل ما يعرض دقيق فيما ينقل، يوثق ما يقوله من مصادر أمينة.

**هفوات:**

وإذا كان لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة والكمال لله وحده فإن مما يؤخذ عليه أنه عزا إلى أبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري: «إذا جاوزت المشاهير من الأفعال التي يأتي ماضيها على فعل فأنت في المستقبل بالخيار إن شئت قلت يفعل بضم العين، وإن شئت قلت يفعل بكسرها». (١٦) وقائل هذه العبارة ليس أبا زيد الأنصاري صاحب «النوادر في اللغة» المتوفى نحو ٢١٥هـ، وإنما هو أبو زيد البلخي أحمد بن سهل المتوفى سنة ٣٢٢هـ (١٧).

**ثانياً: الدعوة إلى نهب العاميات:** عاصر حمزة فتح الله منذ شبابه حملة شرسة ضد الفصحى تدعو إلى تمزيقها ومحوها من الوجود وإحلال العاميات مكانها فوليم سبنا الألماني الجنسية الذي كان مديراً لدار الكتب المصرية يؤلف عام ١٨٨٠م كتاباً بالألمانية في قواعد اللغة العربية في مصر ويدعو إلى اتخاذها لغة أدبية، وكذلك الدكتور كرل فولرس - وكان كذلك مديراً لدار الكتب - يؤلف «اللهجة العربية الحديثة في مصر» سنة ١٨٩٠م. بالألمانية ويترجم إلى الإنجليزية سنة ١٨٩٥م، ويؤلف القاضي الإنجليزي سلدن ولمور سنة ١٩٠١م كتاباً عن العامية المصرية بالإنجليزية وترجمة عنوانه «العربية المحكية في مصر»، ويلقي المهندس الإنجليزي وليم ويلكوكس محاضرة بنادي الأزبكية سنة ١٨٩٣ بعنوان «لِمَ لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن؟» قرر فيها أن سبب ذلك استبقاءهم اللغة الفصحى. (١٨) وعمل صاحبنا فترة طويلة من حياته الوظيفية مفتشاً للغة العربية ثم المفتش الأول لها - كما سبق أن ذكرنا - وقد حرص في أثناء ذلك على إحياء الفصحى ونبذ كل عامي ودخيل، يقول مؤلفا «الوسيط في الأدب العربي»: «أسند إليه تفتيش اللغة

العربية في مدارس الحكومة على اختلاف أنواعها فرأى المجال فسيحاً لتخليصها من أدران العامة وأوضار الدخيل وضاد التراكيب وعجمة الأساليب فأخذ يرشد المعلمين إلى مايعثر عليه من ذلك في كتابة التلاميذ، ويتحفهم بمراذفه تارة، ويرشدهم إلى المظان أخرى فتنبه بذلك الغافل، ودقق المتساهل»<sup>(١٩)</sup>  
هذا وقد كان الشيخ يلتزم الحديث بالعربية الصحيحة حتى مع خادمه.<sup>(٢٠)</sup>

### ثالثاً- قضية تنمية اللغة:

اقتضى احتكاك العرب بالغرب واقتباسهم من نهضته العلمية في القرن الماضي ضرورة الاصطلاح على تسمية ما جد معالم يكن للعرب به سابق عهد، وبالتالي لم تعبر عنه العربية في عصور الاحتجاج بها، فأثيرت قضية تنمية العربية لتواكب الحياة المعاصرة ورأى بعض العلماء تعريب كل الألفاظ الدالة على مسميات حديثة. ورأى غيرهم توليد ألفاظ جديدة لتعبر عن هذه المستحدثات عن طريق الاشتقاق أو المجاز، ورأينا الشيخ حمزة فتح الله يدلي بدلوه في المشكلة، وذلك في الخطبة التي ألقاها في مؤتمر المستشرقين المنعقد في فينا سنة ١٨٨٦م وهو وإن كان رأياً غريباً عجيباً إلا أنه يستحق أن نعرض له، فهو يرى أن العربية أفضل اللغات وأن العرب في العصور الغابرة تقدموا على سائر الأمم فعرفوا كل أنواع المدنيات مظهر منها وماسيظهر وأن كل جديد له في لغتهم مايقابله. وقد تعرض لمشكلة أسماء المسميات الحديثة فبين:

(أولاً) أن هذه المشكلة ليست سهلة الحل، فالشخص الواحد «ربما يقضي عامه أجمع في كلمة واحدة لايدري مايرادفها في العربية، ثم ينتهي به الحال إلى أن يستعمل مكانها إحدى الكلمات العامية. وأن بعضاً ممن ترفع عن هذه الوصمة وحاول المرادف قد وقع في غير المراد». <sup>(٢١)</sup>

(ثانياً) تعرض لاختلاف البلدان العربية في كثير من المصطلحات ورأى أن هذا الاختلاف يسبب بلبلة في أذهان القراء واستغلاًفاً في فهمهم للمسائل العلمية <sup>(٢٢)</sup>  
(ثالثاً) يرى أن هذه المسميات الحديثة يجوز أنه سبق إليها الإنسان في الماضي،

ووضع لها العرب أسماء في غابر الزمان، ثم اندثرت المسميات على مر الأيام وبقيت الأسماء فيقول<sup>(٢٣)</sup> «قد تقرر أن حاجات النوع الإنساني للاجتماع المدني وضروريات المعيشة متحدة في جميع أنواعه المتفرقة في الجزء المعمور، لأنه مدني بالطبع... لافرق في ذلك بين الأورباوي وغيره. فلم لايجوز أن يكون لهذه المحدثات سبق في الوجود بشهادة تماثلها في مثل البراري المصرية<sup>(٢٤)</sup>». ثم يقول «على أن عدم الدليل لايقضي عدم المدلول».

وهذا الرأي شبيه بالرأي الذي قاله ابن فارس فيما مضى وهو أن العرب في غابر أزمانهم كانت تعرف العلوم العربية بمصطلحاتها<sup>(٢٥)</sup> وأن العلوم الدخيلة عربية الأصل نقلتها عنهم الأمم الأخرى ونسبتها لنفسها<sup>(٢٦)</sup>، وحمزة ينتهي من مقدمته تلك بوضع حل للمشكلة هو:

١ - أن نبحث أولاً وقبل كل شيء عن مرادف عربي لهذه المسميات الحديثة<sup>(٢٧)</sup>. ونحن مع احترامنا لصاحب هذا الرأي وأن «عدم الدليل لايقضي عدم المدلول» فإننا نقول: هب أن هذا الرأي صحيح وأن لمعظم هذه المسميات الحديثة ألفاظاً ترادفها في العربية، فكيف نحدد اللفظ العربي الذي يقابل المسمى الغربي الحديث، وكيف نعرف أن العرب في قديم زمانهم أطلقوا عليه لفظ كذا، خاصة وأن التاريخ به كثير من الغموض ولايعيننا على ذلك؟

حقاً إن هناك كثيراً من الألفاظ كانت في أيام العرب أسماء لمسميات ماتت إلا أن أسماءها ماتت أو تقصت أسماء لمسميات أخر، من ذلك أن الإسلام لما ظهر بالجزيرة العربية وجاء بعقيدة ونظم تخالف بعض ماكان عليه العرب في جاهليتهم، تبع ذلك موت بعض الألفاظ، مثل: التشيطة (وهي مألصاب الرئيس قبل أن يصير إلى بيضة القوم، أو مايغنمه الغزاة في الطريق قبل الوصول إلى الموضع الذي قصدوه)<sup>(٢٨)</sup>، والمرباع (وهو ربح الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية)<sup>(٢٩)</sup>، على أن التاريخ حفظ لنا مثل هذه الأسماء مقترنة بمسمياتها مع أنه قضى عليها؛ لأن حوادثها ارتبطت بالإسلام الذي حاول المسلمون تسجيل كل شيء يتعلق به. كما أن تاريخ موت هذه المسميات كان قريباً من عهد تسجيل اللغويين للغة؛ وإلا فإن إسماعيل عليه

السلام بعث في المكان الذي بعث فيه محمد ﷺ ومن غير شك أمانت دعوته كثيراً من الألفاظ نجلها بسبب بعد هذا الزمن عن عصور التدوين.

٢- ثم يرى ثانياً أننا إذا بسنا من الاهتداء إلى المراد فلجاناً إلى الاشتقاق إذ لكل «مادة عربية معنى عام ترجع إليه كافة تصاريفها مهما تشعبت كثرة» (٣٠). وفتح الله لا يكتفي بأن تشق من أسماء المعاني بل يدعو إلى الاشتقاق من أسماء الأعيان. (٣١)

وهو أول من سبق لهذه الدعوة في العصر الحديث، على ما علم (٣٢) هذا هو الموقف النظري للشيخ حمزة فتح الله من قضية تنمية العربية أما جهوده العلمية فتتمثل في:

#### أ - إحياء ألفاظ قديمة لتحل محل مسميات حديثة :

فتش الشيخ حمزة عن ألفاظ استعملت قديماً واقترح إحياءها لتحل محل بعض المعربات الحديثة التي دخلت عالمنا العربي لتدل على مسميات حديثة وذلك مثل:

١- القَبالة في مقابل الكنتراتو والكمبيالة، يقول «وأما الكنتراتو والكمبيالة ونحوهما فعربيتهما قبالة، يقال تقبلت العمل من صاحبه إذا التزمته بعقد.

والقبالة، بالفتح: اسم المكتوب من ذلك لما يلتزمه الإنسان من عمل ودين وغير ذلك، قال الزمخشري: كل من تقبل بشيء مقاطعة وكتب عليه بذلك كتاباً، فالكتاب الذي يكتب هو القبالة بالفتح، والعمل قبالة بالكسر. (٣٣)

٢- الرثية (بفتح الراء وسكون التاء) في مقابل مرض الروماتيزم، يقول: «والرثية: وجع المفاصل واليدين والرجلين أو ورم في القوائم أو منعك الانبعاث من كبر أو وجع إلخ ويشبه أنه المعروف بالروماتيزم» (٣٤)

٣- الخورنق بدل البوفية، فهو ينقل عن الأصمعي قوله «هو من الخورنقاء بضم الخاء وسكون الواو وفتح الراء وسكون النون والقاف، يعني موضع الأكل والشرب بالفارسية فعربته العرب فقالت الخورنق وردته إلى وزن سفرجل» ويعقب على قول الأصمعي فيقول: «ويشبه أن يكون المعروف الآن بالبوفية» (٣٥)



## ب- الألفاظ الخاصة بالوسم:

ويمكن أن ندرج تحت هذا الصنف من الألفاظ التي أحيائها ما جمعه وحققه من ألفاظ خاصة بالوسم، والمراد به كي الإبل والبقر والغنم والحمير. (٣٦)

وذلك في رسالة ألفها في هذا الشأن وهي «هداة الفهم إلى بعض أنواع الوسم» طبعت سنة ١٨٩٥م ألفها تلبية لرغبة يعقوب أرئين باشا وكيل نظارة المعارف حينذاك، وقد جمع فيها الألفاظ الدالة على الوسم التي كان يستعملها العرب جاهلية وإسلاماً، بل زاد عليها سمات لا تنتج عن الكي وإنما بسبب القطع.

وقد وضع هذه الألفاظ في جداول ورتبها وفق آخر الكلمة (ترتيب مدرسة الصحاح للجوهري) وذكر مكان كل كلمة في «لسان العرب» لابن منظور و«تاج العروس» للزبيدي، يسبق كل لفظ بيان موضعه في المعجمين محدداً بالجزء والصفحة والسطر، ولم يكتف المؤلف بالألفاظ التي استعملها العرب قديماً، بل زاد عليها ألفاظاً يستعملها بعض البدو المعاصرين له.

ورغم صغر حجم الرسالة التي تقع في ٣٣ صفحة بالإضافة إلى لوحتين تشتملان على أشكال للوسم، فإن من يقرأها يتيقن أن المؤلف بذل جهداً جباراً في إعدادها، وفيما يلي نماذج منها:

١- القِصار (بكسر القاف): سمة على القَصْرَة (بالتحريك) أي العنق وأصل الرقبة (ص ١٣).

٢- المَشْط (بضم الميم): سمة للبعير على صورة المشط تكون في الخد والعنق والفخذ. وبعير ممشوط سمته المشط (ص ١٤).

٣- المفتاح: سمة في فخذ البعير وعنقه على هيئته (ص ١٥).

٤- اليَسَر (يفتح الياء والسين): سمة في الفخذين (ص ١١).

٥- شِمَال (بكسر الشين) - الشمال: سمة في ضرع الشاة (ص ١٦).

ومن ألفاظ السمات التي كانوا يسمون بها من غير طريق الكي، وذلك بقطع الجلد وغيره:

١- الرُّعْلَة (بفتح الراء وسكون العين): أن يشق من أذن الشاة والناقة شيء ثم يترك معلقاً (ص ٢٠٠).

٢- العِذْقَة (بفتح العين وكسرها وسكون الذال): العلامة تجعل على الشاة بأن يربط في صوفها صوفة تخالف لونها يعرف بذلك (ص ٢٠).

\*\*\*

هذا هو حمزة فتح الله العالم اللغوي الثبت الذي وقف حياته لخدمة العربية والعمل على عودتها إلى أيام قوتها.

وقد قدره العاملون في حقل اللغة حق قدره في حياته وبعد مماته، فها هو حفني ناصف الشاعر اللغوي يذهب إليه عند إنشاء المجمع اللغوي (المعروف بمجمع دار الكتب، لعقد جلساته به) للمشاركة فيه لكنه اعتذر لكبر سنه ومآلم به من مرض وقد أشار إلى ذلك في القصيدة التي رثاه بها، ففيها يقول:

لم أنس إذ زرته في البيت منفرداً

يوماً لأدعوه للمجمع العربي

فقلت: أدعوك للجلى فأنت لها

أهل وأحوزنا في السبق للقص

ثم يقول:

فابرنشق الشيخ من قولي وقال: نعم

لكنه منصب يحتاج للنصب<sup>(٣٧)</sup>

وبعد وفاته بعام له حفل تأبين في القاعة الكبرى التي نشأت فيها «دار العلوم» يوم أنشأها علي مبارك والتي حل محلها الآن مدرسة الخديوية الثانوية بشارع بورسعيد بالقاهرة. وقد رأس حفل التأبين وزير المعارف في ذلك الحين «عدلي يكن» ورثاه كبار الشعراء والأدباء وعلى رأسهم حفني ناصف الذي شارك بالقصيدة التي ذكرنا بعض أبياتها، وعلى الجارم وقد ألقى كلمة نثرية.<sup>(٣٨)</sup>

رحم الله حمزة فتح الله وجزاه الجزاء الأوفى عما قدمه خدمة للغة الضاد، اللغة التي شرفها الله فنزل بها كتابه الذي «لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»<sup>(٣٩)</sup>.

( هداية النهم )

| تابع (حرف العين)   | لسان العرب |           | تاج العروس |      |
|--|------------|-----------|------------|------|
|  | جوه        | صفحة      | جوه        | صفحة |
| سمة في مجرى الدمع خط صغير<br>(والدمع) في المتأخر سائل إلى المتأخر<br>وربما كان عليه دماغان ويعبر بدموع | الدمع      | 14<br>109 | 187        | 227  |
| سمة في جنب البعير أو عقه بالطول  | السطاع     | 9         | 19         | 373  |
| سمة في مخيض العنق ويعبر<br>بمنوع   | المنعة     | 16        | 56         | 7    |
| سمة في موضع ذراع البعير وهي سمة<br>لبن ثعلبة باليمن وناس من بني مالك<br>ابن سعد من أهل الرمال          | الذراع     | 13        | 31         | 28   |
| لذع بغير ملعة أو لذعتين وسمة في فخذ<br>أو في باطن الذراع   | اللذعة     | 11        | 193        | 13   |
| سمة في فخذ البعير خلقتان بينهما خباط<br>في طول الفخذ وفي العرض الخلقتان<br>صورته هكذا هـ               | البرقع     | 21        | 56         | 1    |
| سمة على قذال البعير والقذال جماع<br>مؤثر الرأس مما يلي القذ وهو منتهي<br>منبت الشعر من مؤثر الرأس      | الصقاع     | 7         | 70         | 28   |

( إلى بعض أنواع الهمز )

| ( حرف السين )  |             | لسان العرب |      | تاج العروس |             |
|--|-------------|------------|------|------------|-------------|
| سمة في موضع الصَّدْع طَوَّلًا وَبَعِيرٌ<br>مَصْدُوعٌ وَأَبِلُ مَصْدَعَةٌ   | الصِّدْعُ   | جزء        | صفحة | سطر        | جزء         |
|  |             | ٦          | ٢١   | ٢٩         | ١٠ ٢٣ ٢٢    |
| ( حرف القاء )  |             |            |      |            |             |
| سمة تُكْوِي رَضْفَةً مِنْ مَجَارَةٍ حَيْثُمَا<br>كَانَتْ رَضْفَةٌ وَرَضْفَةٌ وَالرَضْفُ مَجَارَةٌ<br>حَيْثُ بِالنَّهْمِ أَوِ النَّارِ      | الرَّضْفَةُ | جزء        | صفحة | سطر        | جزء         |
|  |             | ٦          | ١١٩  | ٢١         | ١١ ٢١ ٢     |
| سمة في فخذ البعير أَوْجَدَهُ بَانَ تَقَمَّعَ<br>جِلْدَهُ ثُمَّ لَا يَبِينُ   | الجُرْفَةُ  | جزء        | صفحة | سطر        | جزء         |
|  |             | ٦          | ٥٦   | ٢          | ١٠ ١٠ ٢٥ ٢٥ |
| سمة على شكل خُطَافِ الْبَكْرَةِ وَبَعِيرٌ<br>مُخْطُوفٌ وَسَمِيهِنَّ النِّعَةُ  | الْخُطَافُ  | جزء        | صفحة | سطر        | جزء         |
|  |             | ٦          | ٩١   | ٢٣         | ١٠ ١٠ ٢٥ ١١ |
| الطَّرْفَةُ - سمة لأطراف لها انماهي خَطٌّ  |             | جزء        | صفحة | سطر        | جزء         |
|  |             | ٦          | ١٧٧  | ١٦         | ٠ ٠ ٠       |
| ( حرف القاف )  |             |            |      |            |             |
| سمة في الأبل مدَوْرَةٌ شِبْهُ حَلَقَةِ الْبَابِ<br>وَأَبِلُ حَلَقٌ وَحَلَقَةٌ مَوْسُومَةٌ بِهَا<br>فِي التَّخْدِ أَوْ فِي أَصْلِ الْأَدْنِ | الْحَلَقَةُ | جزء        | صفحة | سطر        | جزء         |
|  |             | ٦          | ٣١٩  | ٣٩         | ١١ ١١ ٢٥ ١٢ |
| نَجْمَةٌ مَطْرُوقَةٌ وَجَمَّتْ بِالنَّارِ عَلَى وَسْطِهَا<br>أَنَّهَا مِنْ ظَاهِرِهَا وَتَمَّا هُوَ خَطٌّ أَيْضًا                          | الطَّرَاقُ  | جزء        | صفحة | سطر        | جزء         |
|  |             | ٦          | ١١٩  | ٤٤         | ١٢ ٩٤ ٢٠    |

## (هداية الفهم)

### وسم قبيلة العَمَرَاب

لهم وسم يقال له الكُرَيْت وهو مَكْبَمٌ من أَمْرَيْنِ . الاول خَطَّانُ رَأْسَيْنِ سَوَازِيانَ  
بَيْنَ الْأُذُنِ وَالْعَيْنِ جَهَةَ الْعَيْنِ . والثاني خَطَّانٌ كَذَلِكَ فِي مَفْجَةِ الْعُنُقِ الْيَمْنَى مِنْ أَوْسَطِهَا  
ولهم أيضا العُقَالُ السَّابِقُ لِلْعَلْيَابِ (راجع شكل ٦)

### وسم قبيلة الأَرِيَاب

لهم سمة الخَلْقَةُ السَّابِقَةُ تَمَامًا مَا عَادَا أَنْ تَهْتَمَّ الْأُذُنُ الْيُسْرَى (راجع شكل ٧) ولهم  
العُقَالُ السَّابِقُ لِلْعَلْيَابِ تَمَامًا فِي الشَّكْلِ وَالْمَوْضِعِ وَلَهُمْ أَيْضًا الْكُرَيْتُ لَكِنْ بِصُورَةٍ أُخْرَى  
وهي عبارة عن نصف قَوْسٍ فَتَحَهُ لَا عَلَى فِ مَنَصَفِ الْعُنُقِ يَمِينًا وَوَسْمٌ أُخَرُ يُسَمَّى الْأَبُورُ  
وهو خَطٌّ مَائِلٌ فِي وَسْطِ السَّامِ مِنْ الْجَهَةِ الْيَمْنَى (راجع شكل ٨)

تتبعه - جميع الوُسُومِ الْمَنَسُوبَةِ لِقَبِيلَةٍ تَوْضَعُ كَالهَا عَلَى كُلِّ جِلٍّ

(وحدثني عبد القوي بك الجبالي بالقيوم في شعبان المعظم سنة ١٣١٢)

الشُّبُورُ الْعَيْنِيَّةُ  
ان وسم قبيلة حَرْبٍ الَّذِي يَمُّ الْقَبِيلَةُ الشُّبُورُ وَالْدُّوَيْمَةُ وَصُورَتُهَا هَكَذَا /  
وَأَنْ وسم الْعَوَاكِلَةُ وَهُمْ يَطْنُونَ مِنْ حَرْبِ الْقَوَيْسَةِ وَصُورَتُهَا هَكَذَا x وَالشُّوَرِبُ  
وَصُورَتُهُ هَكَذَا / وَالتَّقْنَةُ وَصُورَتُهَا هَكَذَا //

فَالشُّوَرِبُ نَهْجِي أَحَدَ طَرَفَيْهِ إِلَى مَوْقِعِ الْعَيْنِ الْيُمْنَى وَالْآخَرُ لَطَرَفِ الْأَنْفِ وَرَأْسُهُ إِلَى  
جَهَةِ الْأُذُنِ وَالْدُّوَيْمَةُ فَوْقَهُ (أُنظُرْ شَكْلَ ٩) وَالشُّوَرِبُ بِطَرَفِ النِّسْفَةِ الْعُلْيَا مِنْ جَهَةِ  
الْيَسَارِ وَالْقَوَيْسَةُ يَاطُنُ الْفِنْدِ فَوْقَ الرِّكْبَةِ (أُنظُرْ شَكْلَ ١٠)

وَالْتَّقْنَةُ خَطَّانٌ أَقْصَىٰانَ تَقْرِبًا أَحَدُهُمَا بِالْيَمْنَى وَالْآخَرُ مُقَابِلَهُ بِالْيُسْرَى

(أُنظُرْ شَكْلَ ١١) (انتهى)

شكل ١



رسم جمل قبيلة الكلاب النابوية

شكل ٢



رسم جمل قبيلة المشايخ النابوية



## مراجع

- (١) الأعلام للزركلي.
- (٢) الكنز الثمين لعظماء المصريين، تأليف فرج سليمان فؤاد ١٦٥/١ (ط. القاهرة ١٩١٧م).
- (٣) انظر: معجم المطبوعات العربية، لسركيس ٧٩٥، ٧٩٨.
- (٤) المرجع السابق ٧٩٥.
- (٥) المفصل في الأدب العربي (تأليف أحمد الإسكندري وآخرين ط. القاهرة ١٩٣٤م) ٢/ ٤٠٠ والكنز الثمين ١٦٥ / ١.
- (٦) انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، تأليف الشيخين أحمد الإسكندري ومصطفى عناني ص ٣٣٩ (ط / ٨ . القاهرة ١٩٣٠م).
- (٧) المفصل في الأدب العربي ٢/ ٤٠٠.
- (٨) الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ٣٣٩، ٣٤٠.
- (٩) انظر: محاضرات حفي ناصف كاتباً وباحثاً لمحمد خلف الله ص ٣٩ (مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية- القاهرة).
- (١٠) انظر وقائع هذا المؤتمر في: إرشاد الألبا إلى مجالس أوربا لمحمد أمين فكري ص ١١ (القاهرة ١٨٩٧م).
- (١١) انظر: معجم المطبوعات العربية ٧٩٦. وقد أعاد طبعها تحت عنوان الأصل والبيان لمعرب القرآن «محمد إبراهيم سعد، وراجعها الشيخ محمد عبدالمطلب».
- (١٢) المواهب الفتحية ١٥٩/١-١٦١.
- (١٣) المواهب ٧٤/١.
- (١٤) المواهب ٢/ ٢٣٤.
- (١٥) المواهب ٢/ ٢٣٣، ٢٣٤.
- (١٦) المواهب الفتحية ١/ ٧١.
- (١٧) شرح ديباجة القاموس لنصر الهوريني (القاموس المحيط ١٩/١) ط ١٩٣٣م.
- (١٨) تاريخ الدعوة إلى العامة وآثارها في مصر للدكتورة نفوسة زكريا ١٦، ١٨، ٢٥، ٣٢ (الإسكندرية ١٩٦٤م).
- (١٩) الوسيط في الأدب العربي ٣٤٠.
- (٢٠) المفصل في الأدب ٢/ ٤٠١.
- (٢١) الخطبة ص ١٩.
- (٢٢) المرجع السابق ص ٢.

(٢٣) المصدر السابق ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢٤) نفس المصدر السابق ص ٢٢ .

(٢٥) الصاحبى ص ١٠ .

(٢٦) المرجع السابق ص ٤٢ .

(٢٧) الخطبة ص ٢٢ .

(٢٨) القاموس المحيط: مادة (نشط) .

(٢٩) القاموس المحيط: مادة (ربع) .

(٣٠) الخطبة: ص ٢٠ ، ٢١ .

(٣١) المرجع السابق ٢١ .

(٣٢) من ردد هذه الدعوة بعده عبد القادر المغربي (الاشتقاق والتعريب ص ١٠ ط ١) وعبدالله أمين (الاشتقاق ص ٢٣ وما بعدها ...) وقد اتخذ مجمع اللغة العربية بالقاهرة في هذا النوع من الاشتقاق قراراً في دورته الأولى نصه: «اشتق العرب كثيراً من أسماء الأعيان» والمجمع يجيز هذا الاشتقاق - للضرورة - في لغة العلوم (محاضر جلسات مجمع اللغة العربية: الدورة الأولى الجلسة ٢٤ ص ٣٥٦ ، وانظر: مجلة المجمع ٣٦/١) .

(٣٣) المواهب الفتحة ٢٠٦/١ .

(٣٤) المرجع السابق ٦٣/٢ .

(٣٥) المرجع السابق ٢١٦/١ .

(٣٦) هداية الفهم إلى بعض أنواع الوسم ٣ .

(٣٧) انظر: محاضرات عن حقني ناصف كاتباً وباحثاً للأستاذ محمد خلف الله أحمد ص ٦ .

(٣٨) انظر: لقاء مع علي الجارم بمناسبة جمع إنتاجه النشرى وتحريره ونشره، للدكتور / مهدي علام (بحث ألقاه في مؤتمر الدورة السابعة والخمسين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة) .

(٣٩) سورة فصلت ٤٢ .





# الدوكات الذهبية البندقية

## المحفظة في المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية

د. رَأفَتُ مُحَمَّدٌ مُحَمَّدُ النَّبَرَوِي

توجد بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ثمانى عشرة دوكة ذهبية بندقية<sup>(١)</sup> تحمل صوراً آدمية، وكتابات لاتينية، وإيطالية، وزخارف أخرى جديرة بالبحث، والدراسة. وقد ضربت هذه النقود في عهد الأدواج أو الأدواق التالية أسماؤهم: أندريادندولو (٧٤٤-٧٥٥هـ / ١٣٤٣-١٣٥٤م)، وجيوفاني دلفينو (٧٥٨-٧٦٣هـ / ١٣٥٦-١٣٦١م)، ولورنتسو شلسي (٧٦٣-٧٦٧هـ / ١٣٦١-١٣٦٥م)، ومرقس كرناو (٧٦٧-٧٧٠هـ / ١٣٦٥-١٣٦٨م)، وأندريا كونتارينى (٧٧٠-٧٨٤هـ / ١٣٦٨-١٣٦٨م)، وانطونيوشير (٧٨٤-٨٠٣هـ / ١٣٨٢-١٤٠٠م)، وميخائيل ستينو (٨٠٣-٨١٦هـ / ١٤٠٠-١٤١٣م). وسوف نتناول نقود كل دوق أو دوج من هؤلاء الأدواج حسب التمسلس التاريخي.

يبلغ عدد الدوكات التي تحمل اسم هذا الدوق من مجموعة، المتحف المذكور، ثلاث قطع، وتتشابه هذه الدوكات مع بعضها من حيث زخارفها، وكتابات التي تحيط بها من الخارج، بكل من الوجه والظهر دائرة من حبيبات. فقد ورد على وجهها صورة السيد المسيح واقفاً ينظر للأمام وحول رأسه هالة من حبيبات، وبين الهالة ورأس المسيح إشعاعات على شكل صلبان تصل ما بين رأس المسيح والهالة. ويظهر السيد المسيح رافعاً يده اليمنى، ومرتدياً العباءة. ويحيط بصورة المسيح شكل بيضاوي من حبيبات يبدأ من عند قدميه، يلتقي هذا الشكل من أعلى عند الهالة. وبين الشكل البيضاوي وصورة المسيح تسعة نجوم كل منها ذات خمسة أطراف تقف على جانبي صورة المسيح في شكل خط رأسي، أربعة نجوم منها تقع على يمين المسيح، وخمسة على يساره. وحول صورة السيد المسيح والشكل البيضاوي كتابات لاتينية تدور مع اتجاه عقارب الساعة على شكل دائري مواز للدائرة الخارجية ذات الحبيبات. ونص هذه الكتابات هو: SIT. T PF. DAT.Q. TV. REGIS. ISTE. DVCAT.

وهي اختصارات لما يلي: Sit tibi christe datus, quem tu regis iste ducatus.

وترجمتها بالعربية: «من أجلك أيها المسيح سكّت هذه الدوكة التي نحظى ببركتك»

وتوجد على ظهر هذه الدوكات أهم مرحلة من مراسيم تنويع الدوق أو الدوج وهي صورة دوق البندقية يركع في تقى وورع على ركبتيه جهة اليمين، وهو يتسلم العلم المرسوم عليه صورة الأسد ذي الأجنحة من القديس مرقس.

ويرمز هذا الأسد إلى القديس المذكور. ويظهر الدوق مرتدياً العباءة وفوق رأسه قرن الدوق Como Decale وهو يمسك العلم بكتفا يديه، اليد اليمنى من أعلى، واليسرى من أسفل. وفي جهة اليمين يقف القديس مرقس لابساً عباة ينظر لجهة اليمين ناحية الدوق وهو يمسكه العلم، وحول رأسه هالة من حبيبات متماسة. ويوجد في موازاة صارى العلم، من ناحية الدوق من أعلى لأسفل، الحرف اللاتيني D، يليه الحرف V، ثم زخرفة على شكل صليب.

**فالحرف D** هو اختصار لكلمة لاتينية إما أن تكون Ducatus بمعنى دوكة، أو Dux بمعنى دوق أو دوج. أما الحرف «v» فهو اختصار للكلمة اللاتينية Venetia بمعنى البندقية، فيكون المعنى الكلي إما: Ducatus Venetiae أي دوكة بندقية، أو Dux Venetiae بمعنى دوق البندقية. ويكاد الرأي الأخير أن يكون هو الراجح لوجود هذين الحرفين أعلى صورة الدوق إسوة بما فعله الفنان عند تسجيله للحرفين S.M فوق صورة القديس مرقص اختصاراً للقبه، واسمه، كذلك فإن ورود اسم الدوق مختصراً بدون ألقابه يؤيد ما ذكرت، ويؤكد حرص الفنان على تسجيل الألقاب مع الأسماء لتمييز الصور المنقوشة بظهر هذه الدوكات. وفضلاً عن هذا، فإن كلمة الدوكة نصت عليها صراحة الكتابات اللاتينية الموجودة بالوجه حول صورة المسيح وليس هناك مبرر لتكرارها.

**وبالإضافة إلى ماسبق،** فإن هذه الدوكات كانت تسك بأمر الدوق<sup>(٢)</sup> فكان من حقه أن يأمر بتدوين لقبه، ولو مختصراً- بسبب ضيق المساحة- فوق صورته. وبالنسبة للزخرفة الموجودة أسفل الحرفين المذكورين وهما V وD فهي تشير إلى الصليب رمز الديانة المسيحية التي يعتنقها أهل البندقية بمن فيهم الدوق والقديس مرقص المصوران على هذه الدوكات. وتوجد خلف صورة الدوق كتابات إيطالية تسير على شكل دائري مع اتجاه عقارب الساعة نصها: ANDR. DANDVLO وهي اختصار لاسم: Andrea Dandolo وتعني بالعربية أندريا دندولو. وخلف صورة القديس مرقص كتابات لاتينية تسير على شكل مستدير مواز للدائرة الخارجية ذات الحبيبات، على عكس اتجاه عقارب الساعة من أعلى لأسفل ونصها: S.M.VENETI. فالحرف S هو اختصار لكلمة Sanctus بمعنى القديس، والحرف M اختصار لكلمة Marcus أي مرقص. أما كلمة Veneti معناها أهل البندقية، فيكون المعنى الكلي: «مرقص قديس البندقية» النموذج الأول<sup>(٣)</sup> من دوكات أندريادندولو يبلغ وزنه ٣,٥٠ جرام وقطره ٢٠ مم (لوحة رقم ١، مسلسل رقم ١)، ويزن النموذج الثاني<sup>(٤)</sup> ٣,٥٠ جرام وقطره ٢٠ مم (لوحة رقم ١، مسلسل رقم ٢)، ويصل وزن النموذج الثالث<sup>(٥)</sup> إلى ٣,٦٠ جرام وقطره ٢٠ مم (لوحة رقم ٢، مسلسل رقم ٣)، وبذلك يبلغ متوسط وزن الدوكة

الواحدة من دوكات اندريادندولو ٣,٥٣ جرام تقريباً، وعلى الرغم من أن تاريخ سك هذه الدوكات غير مسجل عليها، فإنه يمكن تأريخها بفترة حكم الدوق المدون عليها اسمه، وهي الفترة من سنة ١٣٤٤هـ/١٣٤٣م إلى سنة ١٣٥٥هـ/١٣٥٤م.

وكان آل دندولو الذين ينتمي إليهم هذا الدوق من أشهر أسر أشراف البندقية. وقد اشتغلوا بالتجارة، وأعمال المصارف، والنقد في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر للميلاد، ويرجع إليهم الفضل فيما بلغته البندقية من الثراء الباهظ. وقد لعب الدوق أندريادندولو دوراً بارزاً في حياة مدينة البندقية. فشغل منذ سنة ١٣٣١هـ/١٣٣١م وظيفة كبرى هي سادن كنيسة القديس مرقس، وحصل على درجة الدكتوراة من بادوا، وكان أستاذاً للقانون في جامعتها<sup>(٦)</sup>، كما كان موضع حب الشعب في البندقية، وخلع عليه لقب الظريف تقديراً لدمائه خلقه، لدرجة أن البعض فكر في انتخابه دوجاً في سنة ١٣٣٩هـ/١٣٣٩م وكان عمره آنذاك اثنين وثلاثين عاماً. واستطاع بعد أربع سنوات أن يرقى إلى منصب الدوج<sup>(٧)</sup>. وكان مشرعاً عالياً، وكاتباً بارزاً، ووطنياً كبيراً، وكان همه هو العمل لخير رعاياه، ورعاية الجمهورية، ومن أقواله:

«إن شهرة الحاكم تزداد مجداً زيادة اهتمامه بالسهر على مصالح من يحكمهم».  
وفضلاً عن ذلك فقد ألف أندريا في التشريع والتاريخ، كما كان محباً للفنون<sup>(٨)</sup>.

#### ثانياً: جيوفاني دلفينو

تضم المجموعة المذكورة دوكة ذهبية واحدة لهذا الدوق تشبه الدوكات السابقة من حيث زخارفها، وكتابات عدا اسم الدوج الذي ورد على دوكته هكذا: G.DALPHYNO . والحرف الأول هو اختصار للاسم الأول وهو: Giovanni ويكتب بالعربية «جيو فاني». أما الاسم الأخير فقد ورد كاملاً ولفظه بالعربية: دلفينو. وبذلك يكون اسم الدوج كاملاً هو «جيو فاني دلفينو». يبلغ وزن هذه الدوكة<sup>(٩)</sup> ٣,٥٠ جرام، وقطرها ٢٠ مم (لوحة رقم ٢، مسلسل رقم ٤). وقد ضربت هذه الدوكة خلال الفترة من سنة ١٣٥٧هـ/١٣٥٦م إلى سنة ١٣٦٣هـ/١٣٦١م وهي فترة حكم

الدوق المدون اسمه عليها وهو «جيو فاني دلفينو».

### ثالثاً: لورنتسو شلسي

يوجد نموذجان من الدوكات عليهما اسم هذا الدوق من بين نقود المجموعة موضوع البحث، وهما يشبهان تماماً الدوكات السابقة من حيث زخارفها وكتاباتهما عدا اسم الدوج الذي أمر بسكها. وقد جاء الاسم على هذين النموذجين على النحو التالي: L.AVR. Colsi. والجزء الأول من الاسم هو اختصار للاسم الأول وهو Lorenzo: ولفظه بالعربية «لورنتسو».

أما الاسم الثاني والأخير فقد ورد كاملاً ولفظه بالعربية هي: «شلسي». وبذلك يكون الاسم كاملاً بالعربية هو: «لورنتسو شلسي». ويبلغ وزن الدوكة الأولى<sup>(١٠)</sup> ٣,٥٠ جرام وقطرها ٢٠ مم (لوحة رقم ٣، مسلسل رقم ٥)، كما يصل وزن الدوكة الثانية<sup>(١١)</sup> إلى ٣,٥٠ جرام وقطرها إلى ٢٠ مم (لوحة رقم ٣، مسلسل رقم ٦). وبذلك يبلغ متوسط وزن الدوكة الواحدة من نقود هذا الدوق ٣,٥٠ جرام وعلى الرغم من عدم نقش تاريخ السك على هاتين القطعتين فإنهما ضربا خلال الفترة من سنة ١٣٦٣هـ/١٣٦١م إلى سنة ١٣٦٧هـ/١٣٦٥م، وهي فترة حكم الدوج المذكور.

### رابعاً: مرقس كرناريو

لا تشمل هذه المجموعة إلا على دوكة ذهبية واحدة عليها اسم هذا الدوق وهي تشبه الدوكات السابقة تماماً من حيث زخارفها وكتاباتهما عدا اسم الدوج الذي ورد على هذه الدوكة هكذا: MARCO. CRNARIO، بمعنى مرقس كرناريو وهذا يدل على أن اسم الدوج ورد على هذه الدوكة كاملاً. ويبلغ وزنها<sup>(١٢)</sup> ٣,٥٠ جرام وقطرها ٢٠ مم (لوحة رقم ٤، مسلسل رقم ٧). وقد ضربت خلال مدة حكم الدوج المدون اسمه عليها، وهي الفترة الواقعة بين سنة ١٣٦٧هـ/١٣٦٥م، وسنة ١٣٦٨هـ/١٣٦٧م.

### خاتمة أندريا كونتارينى

تضم مجموعة المتحف المذكور قطعتين من الدوكات عليهما اسم هذا الدوق، تشبهان تماماً الدوكات السابقة من حيث زخارفها وكتاباتهما عدا اسم الدوق الذي نقش عليهما هكذا. ANDR. OTARENO. وقد جاء الاسم الأول فقط مختصراً لكلمة: ANDREA ولفظه بالعربية أندريا، غير أن الاسم الأخير فقط ورد كاملاً ولفظه بالعربية: كونتارينى. وبذلك يكون التعريب الكلي للاسم هو: أندريا كونتارينى، ويبلغ وزن القطعة الأولى<sup>(١٣)</sup> ٣,٥٠ جرام وقطرها ٢٠ مم (لوحة رقم ٤، مسلسل رقم ٨)، والقطعة الثانية<sup>(١٤)</sup> وزنها ٣,٥٠ جرام وقطرها ٢٠ مم (لوحة رقم ٥، مسلسل رقم ٩). وبذلك يكون متوسط وزن الدوكة الواحدة المضروبة باسم هذا الدوق هو ٣,٥٠ جرام. ويلاحظ أن تاريخ الضرب لم يسجل على هاتين الدوكتين، لكن على الرغم من ذلك، يمكننا تحديد الفترة الزمنية التي ضربنا خلالها بإنها تقع ما بين سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م وسنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م وهي فترة حكم الدوق المدون اسمه على هاتين القطعتين.

### ماتيو: أنطونيو فنير

يوجد نموذجان يحملان اسم هذا الدوق من بين الدوكات موضوع البحث، وهما يشبهان تماماً الدوكات السابقة من حيث زخارفها وكتاباتهما عدا اسم الدوق الذي نقش عليهما هكذا: ANTO. VENERIO. وقد ورد الاسم الأول فقط مختصراً للكلمة: An-tonio (أنطونيو). أما الاسم الأخير فقد سجل كاملاً ولفظه بالعربية «فنيير» وبذلك يكون المعنى الكلي للاسم هو: أنطونيو فنيير. ووزن الدوكة الأولى<sup>(١٥)</sup> ٣,٥٠ جرام وقطرها ٢٠ مم (لوحة رقم ٥، مسلسل رقم ١٠)، أما الدوكة الثانية<sup>(١٦)</sup> فيبلغ وزنها ٣,٥٠ جرام وقطرها ٢٠ مم (لوحة رقم ٦، مسلسل رقم ١١) وبذلك يصل متوسط وزن الدوكة الواحدة لهذا الدوق إلى ٣,٥٠ جرام وبالرغم من أن هاتين الدوكتين غير مؤرختين فإنه يمكن إرجاع تاريخ سكهما إلى الفترة من سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م إلى سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م وهي فترة حكم الدوق المدون اسمه عليهما.

يبلغ عدد الدوكات الذهبية المسجل عليها اسم هذا الدوج من مجموعة المتحف المذكور، سبعة نماذج تشبه تماماً النماذج السابقة من حيث زخارفها وكتابات عدا اسم الدوج الذي ورد عليها كاملاً هكذا: Michael Steno<sup>(١٧)</sup>. ولفظه بالعربية: «ميخائيل ستينو».

ويبلغ وزن الدوكة الأولى<sup>(١٨)</sup> ٣,٥٠ جرام وقطرها ٢٠ مم (لوحة رقم ٦ مسلسل رقم ١٢)، والثانية<sup>(١٩)</sup> يصل وزنها إلى ٣,٤٠ جرام، وقطرها ٢٠ مم (لوحة رقم ٧ مسلسل رقم ١٣)، ووزن الدوكة الثالثة<sup>(٢٠)</sup> ٣,٤٠ جرام، وقطرها ٢٠ مم (لوحة رقم ٧، مسلسل رقم ١٤)، ووزن الدوكة الرابعة<sup>(٢١)</sup> ٣,٤٠ جرام وقطرها ٢٠ مم (لوحة رقم ٨، مسلسل رقم ١٥)، ووزن الدوكة الخامسة<sup>(٢٢)</sup> ٣,٥٠ جرام وقطرها ٢٠ مم (لوحة رقم ٨، مسلسل رقم ١٦)، والدوكة السادسة<sup>(٢٣)</sup> يصل وزنها إلى ٣,٥٠ جرام، وقطرها إلى ٢٠ مم (لوحة رقم ٩، مسلسل رقم ١٧)، وأخيراً يبلغ وزن الدوكة السابعة<sup>(٢٤)</sup> ٣,٥٠ جرام، وقطرها ٢٠ مم (لوحة رقم ٩، مسلسل رقم ١٨). وبذلك يبلغ متوسط وزن الدوكة الواحدة لهذا الدوج ٣,٤٦ جرام تقريباً. أما عن تاريخ سك هذه الدوكات، فغير مسجل عليها ولكنها ضربت خلال الفترة من سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، وحتى سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٣م وهي فترة حكم هذا الدوق المدون اسمه على هذه النقود.

وفي ضوء ما سبق يتضح لنا أن جميع هذه الدوكات الذهبية قد ضربت في البندقية. أما تاريخ سكها فلم يدون عليها، ولكن جاء عليها اسم الدوق بكتابات الظهر، وعلى ضوء الاسم يمكننا تأريخ القطعة بفترة حكم الدوق المسجل اسمه عليها. وينحصر تاريخ ضرب هذه الدوكات في الفترة من سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م وحتى سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٣م.

وخلال الفترة المذكورة لم يصلنا ضمن المجموعة موضوع البحث دوكات ذهبية بندقية تحمل أسماء الأدواق التالية أسماؤهم: مارين فاليريو Marin Faliero (٧٥٥-

١٣٥٤-١٣٥٥م)، وجيوفاني جيرادنجو Giovanni Gradenigo (٧٥٦هـ/١٣٥٤-١٣٥٥م)، ميخائيل موروسيني Michele Morosini (٧٥٦-٧٥٧هـ/١٣٥٥-١٣٥٦م)، وربما يعزى ذلك إلى قصر مدة حكمهم، وعدم تمكنهم من ضرب كميات كبيرة من الدوكات.

ويتراوح وزن هذه الدوكات الذهبية موضوع البحث ما بين ٣,٤٠ جرام، و ٣,٦٠ جرام. ويبلغ متوسط وزن الدوكة الواحدة منها ٣,٤٩ جرام تقريباً. وأفضل هذه الدوكات وأقلها وزناً تحمل أسماء الأدواج على الترتيب التالي:

أندريا دندولو، جيوفاني دلفينو، لورنتسو شلسي، مرقس كرنارو، أندريا كوتاريني، أنطونيو قنير، وميخائيل ستينو. وبذلك يتضح لنا أن أعلى هذه الدوكات وزناً هي تلك التي ضربت في عهد الدوق أندريا دندولو حيث بلغ متوسط وزن القطعة ٣,٥٣ جرام تقريباً، وأقلها وزناً هي تلك الدوكة التي ضربت باسم الدوج ميخائيل ستينو حيث وصل متوسط وزن الدوكة الواحدة إلى ٣,٤٦ جرام تقريباً. أما متوسط وزن الدوكة الواحدة في عهد باقي الأدواج فقد بلغت ٣,٥٠ جرام. وتبين الدوكات موضوع البحث أن النماذج التي ضربت في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي كانت أفضل وزناً من تلك التي ضربت في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، أي أن متوسط وزن الدوكة التي تعود إلى القرن الثامن الهجري/الرابع عشر للميلاد يزيد قليلاً عن ثلاثة جرامات ونصف الجرام، في حين أن متوسط وزن الواحدة يقل عن ثلاثة جرامات ونصف الجرام في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر للميلاد. وهذا يثبت لنا أن متوسط وزن الدوكة بدأ يضمحل، ويقل تدريجياً منذ بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر للميلاد فصاعداً<sup>(٢٥)</sup>.

وعن الطريقة التي استخدمت في سك هذه الدوكات فكانت طريقة الطرق<sup>(٢٦)</sup>. وظلت هذه الطريقة مستخدمة في سك الدوكات الذهبية البندقية حتى نهاية الجمهورية في رجب سنة ١٢١٢هـ/يناير ١٧٩٨م<sup>(٢٧)</sup>، حينما دخلتها الجيوش النمساوية<sup>(٢٨)</sup>. ومن الأدلة على استخدام طريقة الطرق في سك هذه الدوكات موضوع البحث أن كتاباتها وزخارفها واضحة تماماً، كما أن لكل قطعة سماتها المميزة، فليس هناك دوكة تماثل الأخرى تماماً -عدا نقود الدوق الواحد-، هذا فضلاً عن عدم تقابل زخارف



وكتابات كل من الوجه والظهر لتزحزح أحد القالبين أثناء عملية الطرق. ومن حيث العيار فقد حافظت الدوكات البندقية على نقاء عيارها حتى سقوط البندقية في القرن الثامن عشر للميلاد<sup>(٢٩)</sup>.

ويلاحظ على أسماء الأدواج الواردة على الدوكات، موضوع البحث: إن الاسم الأخير كان يرد كاملاً في حين أن الاسم الأول في معظمها كان يسجل مختصراً عدا كل من الدوق مرقس كرنارو والدوق ميخائيل ستينو اللذين ورد أسماهما كاملاً على الدوكات التي تحمل اسم كل منهما.

وقد نقش البنادقة بوجه الدوكات موضوع البحث صورة المسيح واقفاً ينظر للأمام مرتدياً العباءة داخل شكل بيضاوي مكون من حبيبات، وحوله نجوم بلغ عددها تسعة<sup>(٣٠)</sup>، أربعة على يمينه، وخمسة على يساره، وكل نجمة خماسية الأطراف. وقد اهتم أهل البندقية بتصوير النجوم، فقد ظهرت في السقف العالي لقاعة المجلس الكبير حيث رسمت النجوم المذهبة<sup>(٣١)</sup>.

أما ظهر هذه الدوكات فقد ورد عليها أهم مرحلة من عملية تنويع دوق البندقية حيث ظهرت صورة القديس مرقص، وهو يتوج الدوق من خلال تسليمه العلم المزخرف بصورة الأسد ذي الأجنحة. وقد أطلق بعض المؤرخين الأجانب على البندقية اسم مدينة القديس مرقص. وترجع أسباب اهتمام أهل البندقية بهذا القديس، بالذات، إلى شدة تدينهم وتحليهم بطابع التقى والورع في العصور الوسطى لإيمانهم بأن رأس المال الديني بالنسبة للدولة مصدر قوة كرأس المال المادي، لذلك نجد أهل البندقية حرصوا دائماً على أن يجمعوا لادبنتهم رفات القديسين<sup>(٣٢)</sup> أففي سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م تمكن تاجران بندقيان من سرقة رفات القديس مرقص من الإسكندرية. وكان اسم هذا القديس محبوباً ومقدساً في البندقية منذ عهد بعيد، وتقول الأساطير القديمة إنه كان أول أساقفة ألويكية، وإنه جاء في أحد الأيام إلى رياتو فسمع أحد الملائكة يلقي إليه الكلمات الشهيرة التي نقشتها البندقية فيما بعد على أعلامها ورفوكها وهي: «السلام عليك يا بشيري مرقص ها هنا سترقد عظامك»<sup>(٣٣)</sup>. ولهذا استقبل البنادقة بحماسة زائدة جثمان القديس مرقص بعد سرقته وهي أول السرقات

الشهيرة التي أثرت بها البندقية، وتجمعت طوال العصور الوسطى. وقد شيدت كنيسة خصيصاً لتودع فيها رفات هذا القديس<sup>(٣٤)</sup>. وكذلك كان من أسباب اهتمام أهل البندقية بالقديس مرقص بالذات هو اعتقادهم بأنه يعد حامى المدينة، ويدفع عنها الأخطار، وينقذها من جميع المهالك، وأن الأسطورة البديعة التي ترجع إلى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر للميلاد التي خلدتها لوحة باريس بوردونى لتفصح عن الثقة المتناهية التي وضعها شعب البندقية تدور حول القديس مرقص وحول الهيكل الذي كرس له<sup>(٣٥)</sup>. ووصل اهتمام أهل البندقية إلى احتفالهم بأربعة أعياد لهذا القديس، هي على التوالي: ذكرى موته، وذكرى نقل رفاتة من الإسكندرية إلى البندقية، ومعجزة ظهوره في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد، وتكريس الكنيسة المقامة تمجيداً له<sup>(٣٦)</sup>.

وقد وردت أهم مرحلة من عملية التتويج واضحة على ظهر هذه الدوكات الذهبية حيث تظهر صورة الدوق - الممثل الرسمي للمدينة - راكعاً في تقى وورع وهو يتسلم العلم المزخرف بصورة الأسد ذي الأجنحة من القديس مرقص. ففي القرنين الثالث والرابع للهجرة/ التاسع والعاشر للميلاد كانت عملية التتويج تتم بعد تجمع أعداد كبيرة من الناس تقوم بالهتاف لرئيس الدولة الجديد ثم يسرون به في موكب فخم إلى كنيسة القديس مرقص، وهناك يقلده السلطة رئيس كهنة الكنيسة، وذلك بأن يسلمه الصولجان والعلم المرسوم عليه صورة القديس مرقص، ثم يتلقى الدوق في قصره يعين الولاء من شعبه، ويبدو منذ ذلك الوقت الرئيس الأعلى للمدينة: فيرأس مجلس الدوق أو مجلس القضاء الأعلى، وهو مركز الإدارة العامة والإدارة القضائية في نفس الوقت، ويدعو جمعية الشعب للانعقاد، ويعين الموظفين والقضاة، ويرأس الجيش ويبرم المعاهدات، ويقرر السلم، أو الحرب وله السلطة المطلقة في التصرف في مالية الدولة<sup>(٣٧)</sup>.

وفي القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي كانت عملية تتويج الدوق تتم بألوان شتى من التكريم والأبهة. فكان الرئيس الجديد للجمهورية يتوج في حفل باهر لامثيل له فيسير بين تحيات طلقات المدافع ورنين الأجراس بصحبة الخبراء الستة الكبار إلى قصر الدوق ثم إلى كنيسة القديس مرقص حيث يصعد

إلى المنبر الرخامي القائم على يمين الهيكل، فيبدو لشعبه، وبعد الانتهاء من إقامة صلاة القداس الرسمية يقسم الدوج يمين الولاء للقوانين ويتلقى من بين يدي مقدم الكنيسة العلم المزخرف بصورة الأسد ذي الأجنحة، ثم يحمله عمال الترسانة، وقد ارتدى عباءة الدوج حول ميدان القديس مرقس، ثم يعود بعد ذلك إلى القصر وهناك في أعلى سلم المردة يضع أحد المستشارين على رأسه قبعة الدوج التي تشبه القرن، وهي القبعة الشهيرة التي تميز الأدواج وتعرف بالقرن Corno وينتهي الحفل بوليمة فاخرة، ويظل الشعب في مرح، وسرور ثلاثة أيام، وتقام الحفلة بعد الأخرى لتكريم رئيس الدولة الجديد<sup>(٣٨)</sup>.

وبدأت سلطات الدوج تقل تدريجياً منذ منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد. ففي مجال السياسة الخارجية لم يعد في قدرته أن يعقد الصلح، أو يعلن الحرب، أو يبرم المعاهدات أو يرسل البعثات أو يستقبلها دون أن يشرك معه في الرأي الخبراء الذين يؤلفون مجلسه. أما فيما يتعلق بالسياسة الداخلية فقد نزع منه قبل نهاية القرن الثاني عشر الميلادي إدارة الشؤون المالية وعهد بها إلى رجال خزانة الجمهورية، ولم يعد في سلطاته أن يعين القضاة الذين أصبح اختيارهم من حق المجلس الكبير، أو يعين الموظفين في المناصب العامة، ولم يحتفظ من سلطة فعلية أخرى سوى حق قيادة العمليات الحربية والأسطول في وقت الحرب<sup>(٣٩)</sup>. وبعد ذلك وحتى نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر للميلاد كانت جميع مراسم الجمهورية تصدر باسمه، وتضرب النقود برسمه، ولكنه في الحقيقة يملك ولا يحكم. واقتصرت حقوقه على تعيين بطريق البندقية وأسقف كنيسة القديس مرقس، وكبار كهنتها، وكان مستشاروه يراقبون عمله باستمرار وليس لصوته في مجلس الشيوخ من القيمة أكثر مما لصوت أي عضو آخر. ويستطيع القضاة مقاضاة الدوج، ويمكن عزل الدوج بقرار يصدره مجلس الشيوخ فهو مختار الأرستقراطية وخادمها، ولن تجد حكومة دستورية قيدت رئيسها بأكثر مما فعلت البندقية بدوجها<sup>(٤٠)</sup>.

وبالنسبة للملابس الدوج فكان يرتدي عباءة قرمزية بديعة مزينة بالفراء الأبيض، ثم ارتدى بعد ذلك رداء موشي بالذهب وحذاء أحمر اللون مثل الذي يلبسه أباطرة

ببزنطة، ويضع فوق رأسه تاجاً من الذهب، استبدل به في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي لباس خاص بالرأس كان يدعى قرن الدوج<sup>(٤١)</sup>.

**وبخصوص صورة الأسد ذي الأجنحة** - رمز القديس مرقص - التي جاءت على العلم المسلم من القديس مرقص إلى دوج البندقية فقد زخرفت بها الأعلام التي تحمل في الأعياد والاحتفالات الرسمية<sup>(٤٢)</sup>.

كما كان يصور أسد القديس مرقص كحارس لمدينة البندقية، فيذكر ديل أن الفنان فيرونيز صور البندقية في القاعة السابقة لقاعة المجمع بأنها متربعة على عرش العالم والتاج على رأسها والصولجان في يدها، وقد ارتدت حلة بيضاء مذهبة، وربض تحت قدميها أسد القديس مرقص كما يربض الحارس اليقظ الأمين<sup>(٤٣)</sup>، كذلك كان الأسد ذو الأجنحة يشرف من أعلى العمود الذي نصب فوقه خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي على المدينة الممتدة تحت قدميه<sup>(٤٤)</sup>. وفي بعض الأحيان كان يُصوّر الأسد ذو الأجنحة، ودوق البندقية راکعاً أمامه. ففي باب دلاكرتا بقصر الدوج نجد صورة الدوج فرانشيسكو فوسكاري (٨٢٧-٨٦٣هـ/ ١٤٢٣-١٤٥٧م) بثيابه الفاخرة قد ركع في تقى وورع أمام الأسد ذي الأجنحة الذي يصور قوة البندقية تصويراً رائعاً<sup>(٤٥)</sup>.

وعرفت البندقية نوعين من النقود. النوع الأول وهو البندقي الفضي المعروف بالجرسو Grosso وهو النقد الأقدم. وقد ضرب في عهد الدوج هنري داندولو (٥٩٠-٦٠٢هـ/ ١١٩٣-١٢٠٥م). واختلف الباحثون في تحديد السنة التي سك فيها هذا النوع من النقود، إذ يذكر ديل<sup>(٤٦)</sup> أنه ضرب سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م، بينما يعتقد جريرسون<sup>(٤٧)</sup> أن تاريخ سكه هو سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م، في حين يرى محمد باقر الحسيني<sup>(٤٨)</sup> أن تاريخ ضربه كان سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م.

**والنوع الثاني هو البندقي الذهبي المعروف باسم الدوكات** وهو النقد الأحدث، وقد تم سكه بأمر مجلس شيوخ البندقية في جمادى الآخرة سنة ٦٨٣هـ/ أكتوبر ١٢٨٤م في عهد الدوق جيوفاني دندولو (٦٧٩-٦٨٨هـ/ ١٢٨٠-١٢٨٩م)<sup>(٤٩)</sup>. وبعد البندقي الذهبي هو النقد الرئيسي للبندقية، وبذل البنادقة اهتماماً كبيراً من أجل المحافظة على نقاء عياره<sup>(٥٠)</sup>. ومنذ سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م أطلق عليه اسم Sequin أو Zecchino<sup>(٥١)</sup>.

وظل هذا الاسم مستخدماً في مصر حتى قدوم الحملة الفرنسية إليها في سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٨م (٥٢). وقد ضرب البنادقة كميات كبيرة من هذه الدوكات الذهبية بلغ عددها في كل عام مليون قطعة تقريباً (٥٣).

وأطلق على هذه النقود البندقية عدة أسماء هي الدوكات Ducat في أوربا، وبندقي أو أفرنقي (٥٤) في أسواق الشرق العربي، كما عرفت أيضاً باسم الشخصية (٥٥)، نسبة إلى صور القديسين النقوشة على أحد وجهيها، وصورة دوج البندقية على الوجه الآخر (٥٦). ويذكر القلقشندي أن هذه «الدنانير على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين اللذين بعث بهما المسيح إلى رومية» (٥٧).

وبعد اطلاعنا ودراستنا للدوكات الذهبية البندقية موضوع البحث، وجدنا أن هذا الكلام غير صحيح، وينقصه الدقة، لأن هذه الدوكات تحمل بالوجه صورة السيد المسيح وحوله الكتابات اللاتينية التي تثبت ذلك، وليس صورة دوج البندقية. أما الظاهر فعليه صورة القديس مرقس يتوج دوق البندقية، ويؤكد ذلك الكتابات المسجلة حول كل منهما وبذلك لا يشتمل الظاهر على صورة كل من بطرس وبولس الحواريين (القديسين).

وقد وصلت هذه الدوكات الذهبية البندقية إلى مصر وبقيّة بلاد الشرق العربي عن طريق التجارة التي نشطت بينها وبين جمهورية البندقية الإيطالية. واختلف الباحثون حول تاريخ وصولها، فيذكر الدكتور عبدالرحمن فهمي أن هذه الدوكات ظهرت في مصر منذ سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٢م أي بعد ثمانين سنة من تاريخ سكها (٥٨). ولكن المقرئ يذكّر أن تداول هذه النقود في القاهرة يرجع إلى سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م (٥٩). ويضيف بأنه قد زاد تداول هذه النقود وأصبحت أكثر تداولاً، وانتشاراً من غيرها من النقود الذهبية الأخرى سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م عندما تم تداولها في معظم مدن العالم كالقاهرة وجميع بلاد الشام، والحجاز، واليمن، وغيرها (٦٠). أما جيري باكاراك (٦١) فيرى أن تاريخ ظهور هذه الدوكات في العصر المملوكي لا يزال غامضاً على الرغم من قيام النظام التجاري المعروف باسم

Muda سنة ٨٧٤٦م/١٣٤٥م والذي أدى قيامه إلى زيادة عدد الدوكات البندقية المرسلة إلى الشرق العربي عاماً بعد آخر، وانتشار التجارة البندقية انتشاراً واسعاً حتى شملت بلدان الشرق العربي. وفي هذا الامتداد الجغرافي تم تداول الدوكات البندقية بعد الحرب التي قامت بين جنوة، والبندقية (٧٨٠-٧٨٣م/١٣٧٨-١٣٨١م) والتي أصبحت بعدها السيادة للبندقية على تجارة الشرق العربي<sup>(٣٢)</sup>.

ومن أهم أسباب انتشار هذه النقود البندقية في مصر وغيرها من بلاد الشرق العربي دقة سك هذا النوع من النقود من حيث استدارة الدوكة تماماً، ووزنها الثابت، وعيارها المرتفع. وفي الوقت نفسه كانت النقود الذهبية المملوكية المعاصرة تعاني من اضطراب وزنها، وانخفاض عيارها حتى أن التعامل بها كان يتم بالوزن لا بالعد وذلك على عكس الدوكات البندقية التي تم التعامل بها على أساس العدد فقط<sup>(٣٣)</sup>.

وقد كثر تداول هذه الدوكات في مصر وغيرها من البلاد، وأصبحت هي النقود المطلوبة في التجارة الدولية بصفة عامة، وفي كل بلاد الشرق العربي بصفة خاصة. وليس غريباً بعد ذلك أن تسربت كميات كبيرة من الذهب من أسواق الشرق العربي إلى إيطاليا لتزويد دور السك فيها بالمعادن اللازمة لضرب الدوكات وغيرها من النقود. وقد بذلت الجمهوريات الإيطالية جهداً كبيراً من أجل الحصول على الذهب بأسعار مرتفعة لتغمر الأسواق بنقودها الذهبية التي تتمتع بالراج الكبير<sup>(٣٤)</sup>.

وقد وصلت إلى أسواق مصر والبلاد الأخرى سنوياً أعداد كبيرة من الدوكات الذهبية البندقية مع التجار الغربيين<sup>(٣٥)</sup> لشراء التوابل وغيرها من البضائع<sup>(٣٦)</sup>. كما وصلت أيضاً إلى مصر عن طريق الصفقات التجارية غير الرسمية، وكذلك مع الحجاج المسيحيين<sup>(٣٧)</sup>.

وكانت البندقية من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وحتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر للميلاد أعظم دول البحر الأبيض المتوسط، قبلت طيلة تلك الحقبة أقصى درجات الغنى والرخاء بسبب ازدهار التجارة<sup>(٣٨)</sup>. وعقدت البندقية الصفقات التجارية مع دول الشرق العربي وخاصة مصر، وكان لها قنصل بالإسكندرية، يرعى مصالحها، كما كانت لها جالية في المدينة نفسها، وتمتعت بالكثير

من الامتيازات. وكانت هذه المدينة تأتي إليها منتجات الهند، وبلاد الغرب عن طريق البحر الأحمر. ووجدت البندقية منها ميداناً يدر الكسب الوفير مادفعها إلى السعي للاحتفاظ بعلاقاتها الطيبة بها إلى أبد الدهر<sup>(٦٩)</sup>. فقد عقد البنادقة مع الملك العادل الأيوبي اتفاقية تحوي عدداً من الامتيازات المهمة في الأسواق المصرية بعدئصر مركز القوة الإسلامية في الشرق الأدنى<sup>(٧٠)</sup>. وهذا مادفع الدوق هنري دندولو إلى تحويل الحملة الصليبية الرابعة من مصر إلى القسطنطينية سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م<sup>(٧١)</sup>. كما طلب مجلس شيوخ البندقية من البابا سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٧م، وسنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م، ٧٤٦هـ/١٣٤٥م السماح للبنادقة بالتجارة مع المسلمين. وقد وافق البابا سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م على إجراء الاتصالات التجارية مع سلاطين مصر<sup>(٧٢)</sup>. ومما يؤكد حرص البنادقة على إقامة علاقات طيبة مع مصر هو اهتزاز البندقية لنبا إغارة بطرس لوزجنان ملك قبرص على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م وإرسالها الرسل إلى السلطان الأشرف شعبان في شهر شعبان سنة ٧٦٨هـ/أبريل ١٣٦٦م تؤكد له أن السفن التي أغارت على الإسكندرية، لامتت إلى البندقية بصلة، وأن البنادقة لم يساعدوا ملك قبرص، ولم يشتركوا معه<sup>(٧٣)</sup>. واستمرت العلاقات التجارية، قائمة ونشطة بين الممالك في مصر وجمهورية البندقية حتى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وتحويل التجارة في القرن العاشر الهجري/السادس عشر للميلاد.

**ولاشك أن الثقة التي حازتها الدوكات الذهبية البندقية لدى المتعاملين بها من أهل مصر وبقية بلاد الشرق العربي. وما كان يقابله في الوقت نفسه من ضعف الثقة في الدنانير المملوكية المعاصرة للأسباب التي وضحناها سابقاً مما جعل الإقبال كبيراً على التعامل بالدوكات البندقية، مما يسبب إزعاجاً للسلاطين المماليك وعدوّه هجوماً على الدنانير المملوكية المتداولة في الأسواق المصرية.**

**ممدافع السلطان الناصر فرج إلى العمل بجذ على وقف هذا الهجوم وسحب الدوكات من التداول، وضرب نقود إسلامية محل محلها. فقام بمحاولتين الأولى سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م عندما ضرب الدينار السالمي<sup>(٧٤)</sup>. واستمر تداول هذا الدينار لمدة ثماني سنوات ولكنه فشل في أن يحل محل الدوكة البندقية لأنه كان يقدر في الأسواق**

بأقل من قيمته<sup>(٧٥)</sup>. ويرى شوشان أن فشل السامي يرجع إلى نقص الذهب اللازم لمسكه<sup>(٧٦)</sup>. أما المحاولة الثانية فقد حدثت سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م عندما ضرب الناصري<sup>(٧٧)</sup> ولكن هذه المحاولة فشلت أيضاً<sup>(٧٨)</sup> لعدم ثبات وزن الناصري وانخفاض عياره وعدم قدرته على منافسة الدوكات البندقية، فلم يقبل الصيارفة صرفه دون وزنه، كما انحطت قيمة الناصري في الأسواق عن قيمة الدوكة<sup>(٧٩)</sup>. واستمرت الدوكات هي السائدة في التداول إلى أن استطاع السلطان برسباي في سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م أن يضرب الدينار الذي عرف بالأشرفي. ومنذ ذلك التاريخ تم التعامل بالأشرفي والدوكة على قدم المساواة على الرغم من أن الدوكة كانت تحتوي على نسبة أعلى من الذهب. وكان الأشرفي يقدر في الأسواق في علاقته مع الدوكة- بأكثر من قيمته. ففي شهر صفر سنة ٨٢٩هـ/ ديسمبر ١٤٢٦م أصدر السلطان برسباي أوامره بإبطال التعامل بالنقود الذهبية التي تحمل صور الكفار عليها وجمعها وصهرها وضربها دنانير أشرفية على نفس وزن الدوكات البندقية<sup>(٨٠)</sup>.

ورغم التساوي في الوزن بين الدنانير الأشرفية، والدوكات البندقية فإن نسب إبدال الأشرفي كانت أعلى من نسب إبدال الدوكة<sup>(٨١)</sup>.

ومما ساعد على نجاح الأشرفي في تحدي الدوكة الغنائم الكبيرة التي حصل عليها السلطان برسباي في حملته التي أرسلها إلى قبرص سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م ومنها الفدية التي دفعت له مقابل فك أسر الملك جيمس الأول ملك قبرص والتي بلغت حوالي مئتي ألف دوكة ذهبية<sup>(٨٢)</sup>، هي التي ساعدته على ضرب الأشرفي<sup>(٨٣)</sup>. ومنذ سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م أصبحت السيادة للدينار الإسلامي على النقود الذهبية البندقية، واستمرت حتى نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي على الأقل. وهذا لم يمنع استمرار التعامل بالدوكات حتى العصر العثماني.

وفي ضوء ما سبق يتضح لنا أن الدوكات، موضوع البحث، تسجل لنا أهم مرحلة من مراحل تنويع الدوج من خلال تسلمه الراية من القديس مرقس. فهذه الدوكات وثائق دينية وسياسية مهمة تثبت لنا ما كان يتمتع به رجال الدين في العصور الوسطى من سلطة ونفوذ قويين، وتوضح أن السلطة الدينية أقوى من السلطة السياسية، وتسيطر عليها، وذلك من خلال ركوع دوج البندقية-ممثل



السلطة السياسية- في تقى وورع أمام القديس مرقص ممثل السلطة الدينية وهو يتسلم منه علم البندقية أثناء عملية تتويجه كما أن تخصيص أحد وجهي الدوكة لصورة السيد المسيح يؤيد ذلك. كذلك فإن وجود هذه الصورة إلى جانب الصليب- شعار المسيحية- يبرهن على أن الديانة المسيحية هي السائدة ويعتقها أهل البندقية.

وباختصار فإن هذه الدوكات تعكس لنا الحياة الدينية والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفنية في البندقية خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. كما إنها تبين لنا اللغة التي كانت سائدة في البندقية خلال القرنين المذكورين وهما: اللغة اللاتينية واللغة الإيطالية. فالأولي كانت اللغة الرسمية لغة الكنيسة وسُجل بها معظم الكتابات التي جاءت على هذه الدوكات موضوع الدراسة وخاصة ذات الصبغة الدينية. أما اللغة الإيطالية فكانت اللغة الشعبية أو المحلية للبندقية لذلك دوت بها أسماء الأدواق السبعة السابق ذكرهم. كما وضحت هذه الدراسة أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين رجال الدين والكتابات اللاتينية والهالة. فالسيد المسيح والقديس مرقص وهم من رجال الدين تحيط برأس كل منهما هالة<sup>(١٤)</sup> وهي رمز التقديس لأنهما من الشخصيات الدينية المهمة، كما توجد حولهما الكتابات اللاتينية وعلى العكس نجد أن الدوج وهو من الشخصيات ذات الصفة المدنية تحيط برأسه قبعة الدوق وأعلاه الكتابات الإيطالية.

وقضلاً عما سبق فقد صحت هذه الدوكات ما ذكره القلقشندي وبعض المحدثين بخصوص الصور الأدمية الواردة عليها.



### الهوامش والتعليقات

(١) هذه الدوكات تنشر في هذا البحث لأول مرة.

(٢) شارل ديل: البندقية جمهورية أرستقراطية. ترجمة د. أحمد عزت عبدالكريم ونوفيق إسكندر.

مصر، ١٩٤٨م. ص ٨٦.

(٣) مجموعة المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية سجل رقم ٢٩٩٠٨.

(٤) سجل رقم ٢٩٩٠٩.

(٥) سجل رقم ٢٩٩١٠.

(٦) ظهرت أولى الجامعات الأوروبية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في بولونيا بإيطاليا، وفي باريس بفرنسا. وقد تفرغت عن الأولى بقية الجامعات الأوروبية في حوض البحر المتوسط، في حين تفرغت عن الثانية جامعات شمال أوروبا وغربها والتي ظهرت في أواخر العصور الوسطى.

د. سعيد عبدالفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى. الجزء الثاني النظم والحضارة. الطبعة الثالثة، القاهرة عام ١٩٧٢م ص ١٣٦-١٣٧.

Rashdall (H.), The Universities of Europe in the Middle Ages, Vol.1 (oxford, 1951), pp. 4-6.

(٧) ديل: البندقية ص ١٢٦.

(٨) ديل: البندقية ص ١٢٦.

(٩) سجل رقم ٢٩٩١١.

(١٠) سجل رقم ٢٩٩١٣.

(١١) سجل رقم ٢٩٩١٤.

(١٢) سجل رقم ٢٩٩١٥.

(١٣) سجل رقم ٢٩٩٠٦.

(١٤) سجل رقم ٢٩٩٠٧. نشر ميتشيز دوكة ذهبية بندقية مشابهة تماماً لهذه الدوكة من حيث زخارفها، وكتاباتنها، بل ووزنها، وكذلك قطرها، ولكنه ذكر أن أندريا كونتاريني تولى منصب دوج البندقية سنة ١٣٦٢ وحتى سنة ١٣٨٢م. Mitchiner(M.), The World of Islam, London, 1977, p. 322, no. 2373.

تولى المنصب المذكور سنة ١٣٦٨م وليس سنة ١٣٦٢م كما ذكر ميتشيز، انظر. ديل: البندقية. ص ٢٤٣.

(١٥) سجل رقم ٢٩٩١٢.

(١٦) سجل رقم ٢٩٩٢٣.

(١٧) يترجم اسم Michael بالعربية إلى: ميخائيل، وبالفرنسية إلى: ميشيل، وبالإنجليزية إلى: مايكل.

(١٨) سجل رقم ٢٩٩١٦.

(١٩) سجل رقم ٢٩٩١٧.

(٢٠) سجل رقم ٢٩٩١٨.

(٢١) سجل رقم ٢٩٩١٩.

(٢٢) سجل رقم ٢٩٩٢٠.

(٢٣) سجل رقم ٢٩٩٢١.

(٢٤) سجل رقم ٢٩٩٢٢.

(٢٥) يوجد بدار الكتب القومية بالقاهرة ضمن مجموعتها من النقود عدد من الدوكات الذهبية البندقية ترجع إلى القرن السادس عشر، والسابع عشر والثامن عشر للميلاد يتراوح وزنها ما بين ٣,٣٠ جرام و ٣,٤٨ جرام وهذا يؤيد ما تدر عليه الدوكات موضوع البحث فيما يتعلق بالوزن.

Norman D. Nicol, Raafat el-Nabarawy, Jere L. Bacharach., Catalog of the Islamic Coins, Glass Weights, dies and Medals in the Egyptian National Library at Cairo. U.S.A, 1982., p.p 171-173.

(٢٦) وعن هذه الطريقة انظر: ابن بعره (منصور الذهبي الكامل): كتاب كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية. تحقيق دكتور عبد الرحمن فهمي القاهرة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م ص ٢١-٢٢.

Grierson, Philip., The Venetian Gold Ducats and its Imitations. The (٢٧) American Numismatic Society, New York, 1954., p.7.

(٢٨) ديل: البندقية ص ٢٣٨.

Bacharach, Jere.L., The Dinar Versus the Ducat. Institute Journal of the (٢٩) Middle east studies, 4, 1973., p. 77.

(٣٠) يوجد نموذجان من الدوكات البندقية كل منهما يشتمل على تسعة نجوم. وهذان النموذجان لم يسبق نشرهما، ومحفوظان بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة تحت رقم سجل ١٦/٢٥٣٦٩، ١٧/٢٥٣٦٩. كما توجد دوكة واحدة لم يسبق نشرها من قبل وتشتمل على اثنتي عشرة نجمة حول المسيح، ستة من كل جانب وهي محفوظة بالمتحف المذكور تحت رقم سجل ١/٢٥٣٦٩. وتوجد أيضاً أربع عشرة دوكة لم يسبق نشرها تحتوي كل منها على ستة عشرة نجمة موزعة بالتساوي على الجهتين حول صورة المسيح وهي محفوظة بالمتحف المذكور تحت أرقام سجل ١/٢٥٣٦٩، ٢/٢٥٣٦٩، ٣/٢٥٣٦٩، ٤/٢٥٣٦٩، ٥/٢٥٣٦٩، ٦/٢٥٣٦٩، ٧/٢٥٣٦٩، ٨/٢٥٣٦٩، ٩/٢٥٣٦٩، ١٠/٢٥٣٦٩، ١١/٢٥٣٦٩، ١٣/٢٥٣٦٩، ١٤/٢٥٣٦٩، ١٥/٢٥٣٦٩.

(٣١) ديل: البندقية ص ١٠٣.

(٣٢) ديل: البندقية ص ١٢٠-١٢١.

(٣٣) ديل: البندقية ص ٢١.

(٣٤) شيد هذه الكنيسة الدوق جستنيان پارثنيكو سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م وكانت أول كنيسة كرمت باسم هذا القديس حرز المدينة، وكافل عظمتها. وقد أتم بناءها من بعده أخوه يوحنا، وأصبحت بالتلف الشديد سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م أثناء الفتنة التي انتهت بخلع بطرس الرابع ولكن أصلها، ورمها بطرس الثاني أروسيولو (٣٨١-٣٩٩هـ/ ٩٩١-١٠٠٨م). وكانت رفات القديس

مرقص في مكان لا يعرفه إلا نفر ضئيل. وبدأت البندقية في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر للميلاد تتسع حول كنيسة القديس مرقس خوفاً من سرقة حاميتها، وحرزها وأصبحت رباتو منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي مدينة كبيرة، تحيط بها الأسوار التي شيدت سنة ٢٨٨هـ/٩٠٠م.

دیل: البندقية ص ١٣.٢٢.

(٣٥) دیل: البندقية ص ٩٦.

(٣٦) دیل: البندقية ص ١١٤.

(٣٧) دیل: البندقية ص ١٦.

(٣٨) دیل: البندقية، ص ١٧٨-١٧٩. كما كانت عملية تنويع الدوقة أو الدوجة لا تقل اهتماماً من تنويع الدوج. إذ كانت تتركب سفينة الدولة الرسمية (البوستور) وتقطع المياه الكبرى وسط موكب من الجندولات التي زينت بأفخر الزينات تنزل الأميرة إلى الميدان الصغير، وتذهب أولاً إلى كنيسة القديس مرقس، ومنها إلى القصر يتقدمها ألف شاب ينتمون إلى مختلف النقابات، وقد ارتدوا جميعاً أفخر أنواع الملابس الحريرية. وكانت قاعات القصر تزين بأجمل الزينات ويقوم على تزيينها مختلف نقابات الحرف. وتجتاز الدوجة القاعات المذهبة على أصوات الموسيقى، وتقدم النقابات إليها باحترام أبديع آيات صناعتها ومنها فنها. دیل: البندقية ص ١٧٩.

(٣٩) دیل: البندقية، ص ٧١.

(٤٠) دیل: البندقية، ص ٨٥-٨٦.

(٤١) دیل: البندقية، ص ٧٢.

(٤٢) دیل: البندقية، ص ١٧٩.

(٤٣) دیل: البندقية، ص ١٧٨.

(٤٤) دیل: البندقية، ص ٩٦.

(٤٥) دیل: البندقية، ص ١٠٢.

(٤٦) دیل: البندقية، ص ٦٥ هامش (١).

Heopli.Manuali., Manuale di Nonismatica Milane, 1845. p. 161, fig.81.

Grierson., Th Venetian Gold Ducats., p. 6 (٤٧)

(٤٨) محمد باقر الحسيني: نقود أوربية تداولتها رسمياً أسواق عربية إبان الحروب الصليبية. مجلة

أفاق عربية. العدد ٣. تشرين الثاني ١٩٧٥م. ص ١٠٢.

(٤٩) دیل: البندقية ص ٦٥ هامش (١).

د. عبدالرحمن فهمي: النقود العربية ماضيها وحاضرها. المكتبة الفيصلية بمكة المكرمة ١٩٨٧م

ص ٨٣.

Heopli., Manuale., p.161.

Grierson., The Venetian Gold Ducats., p.5.

Bacharach., The Dinar., p. 77.

(٥٠) ديل: البندقية، ص ٦٥ هامش (١).

(٥١) ديل: البندقية، ص ٦٥ هامش (١).

Gennep, A. Rauge., Le Ducat Venitien en Egypte., La Revue Numismatique, Paris, 1897., p.380.

(٥٢) علماء الحملة الفرنسية: وصف مصر. المجلد الأول «المصريون المحدثون». ترجمة زهير الشايب. الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٧٩م) ص ٢٣٦.

(٥٣) ديل: البندقية، ص ٦٦.

(٥٤) جمعها أفرنسية، والأفرنسي أصله إفرنسي، بسين مهملة، بدل التاء المتأخر من فوق، نسبة إلى قرنسية، مدينة من مدنيهم، وربما قيل فيها إفرنجة، وإليها تنسب طائفة الفرنج وهي معرفة الفرنسيس (الملك فرانسو) ملكهم.

القلقشندي (شهاب الدين أبو العباس): صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج٣ (طبعة دار الكتب المصرية عام ١٩١٣م) ص ٤٤١، والدنانير المسكوكة مما يضرب بالديار المصرية. (كتاب النقود العربية الإسلامية وعلم النميات للأب أنستاس الكرمل). الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٨٧م، ص ١٢٤.

سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المالكي في مصر والشام. الطبعة الثانية. (القاهرة ١٩٧٦م) ص ٣١٧.

(٥٥) القلقشندي: صبح الأعشى ج٣ ص ٤٤١.

محمد باقر الحسيني: المرجع السابق ١٠٣.

سعيد عاشور: العصر المالكي ص ٣١٧.

عبد الرحمن فهمي: النقود العربية ص ٨٣.

(٥٦) عبد الرحمن فهمي: النقود العربية ٨٣.

(٥٧) القلقشندي: صبح الأعشى ج٣ ص ٤٤١، الدنانير المسكوكة ص ١٢٤.

(٥٨) عبد الرحمن فهمي: النقود العربية ص ٨٤.

(٥٩) المقرئزي (نقي الدين أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك ج٤ قسم ١. نشر د.

سعيد عاشور (دار الكتب المصرية ١٩٧٣م) ص ٣٠٥.

(٦٠) المقرئزي: السلوك ج٤ ص ٧٠٩.

(٦١) Bacharach. The Dinar., p. 79.

Iskender, Tufik., Les Relations Commerciales et Politiques de Venise (٦٢)

Avec L'Egypte au Xive et Xve Siecles., Paris, 1933., pp. 94-96.

Lane. Frederic & Barbarigo., Merchant Venice, Biltimore,

1944., p.77. Bacharach., The Dinar., p.79.

(٦٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج٣ ص ٤٤١.

سعيد عاشور: العصر المالكي ص ٣١٧.

عبدالرحمن فهمي: النقود العربية ص ٨٥.

Cippolla. Carlo. M.: Money, Prices and Civilization in the Mediterranean world. princeton., p.24.

Lopez. Robert., England to Egypt, 1350-1500. (Studies in the Economic History the Middle East). edited by M.A.Cook. oxford., p.125.

Bacharach, The Dinar., P.78.

(٦٤) عبدالرحمن فهمي: النقود العربية ص ٨٤-٨٥.

Ashtor. Eliyahu., les Metaux precieux et la Balance des payments du (١٥) proche- Oriental a Basse Epoque. paris, 1971. pp. 66-68. Ashtor., The Venetian Supremacy in Levantine Trade Monopoly or pre- Colomalism., Journal of the economic History of the orient,3. 1914, p.52.

Ashtor., Les Metaux., p.p 80-81.

(٦٦)

Bacharach., The Dinar., p.79.

(٦٧)

و عن أعداد هذه الدوكات وتاريخ وصولها إلى مصر وبقيّة أسواق الشرق العربي. انظر:

Grierson. philip., La Moneta Venezian nell Economica Mediterranean del Trecentds Quatirdcentd, La civita venezian del Quatirdcentd Florence, 1957. p.p 869-97.

Bacharach., The Dinar., p.79.

Heyd. wilhem., Histoire du Commerec du levant a Moyen Ages Trans furcy Raynaud., 2 vols, Leipzig, pp. 885-86.

(٦٨) ديل: البندقية، ص ٥٧.

سعيد عاشور: العصر المالكي ص ٢٧٨.

(٦٩) ديل: البندقية ص ٣٢.

سعيد عاشور: العصر المالكي ص ٢٧٧.

(٧٠) هـ.أ.ل. فشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى. القسم الأول. ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العربي. الطبعة الثالثة. مصر ١٩٥٧ م. ص ٢٤٤.

(٧١) ديل: البندقية، ص ٥٩.

Ashtor., observation on venetian Trade., p.538.

(٧٢)

(٧٣) سعيد عاشور: العصر المالكي ص ٢٧٧.

(٧٤) المقرئزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. طبعة بولاق سنة ١٢٧٠ هـ ج ٣، ص ١٨٩-١٩١.

Bacharach., the dinar., p.79. (٧٥)

Shoshan. Boaz., Money, prices and population in Mamluk Egypt 1382- (٧٦)

1517. (A dissertation presented to the Faculty of Princeton University in Candidacy for the Degree of Doctor of philosophy, December.

1977.p.132

(٧٧) العيني (الحافظ بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ ج٢٥ قسم ٢ ص ٣٢٣. المقرئ: الملوك ج٤ قسم ١ ص ٨٥.

العسقلاني (الحافظ بن حجر): إنباء الفجر بأنباء العمر. ج٢ تحقيق د. حسن حبشي القاهرة (١٣٨٩-١٣٩٢هـ/ ١٩٦٩-١٩٧٢م) ص ٣٢٣.

الجوهري (علي بن داود الصيرفي): نزهة النفوس والأبدان في تاريخ أهل الزمان ج٢ تحقيق د. حسن حبشي. حوادث سنة ٨١١هـ ص ٢٧٦-٢٧٧.

Bacharach., The Dinar., p.87. (٧٨)

Bacharach., The Dinar., p.87. (٧٩)

(٨٠) المقرئ: السلوك ج٤ قسم ١ ص ٧٠٩.

العسقلاني: المرجع السابق ج٣ ص ٣٦٤.

ابن تغرى بردي (جمال الدين أبو الحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. دار الكتب المصرية (١٩٣٠-١٩٤٢م) ج٤ (ص ٢٨٣-٢٨٤).

ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي): بدائع الزهور في وقائع الدهور تحقيق د. محمد مصطفى الطبعة الثانية (القاهرة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م) ج٢ ص ١٠٤.

محمد محمود باشا: التوقيعات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجية والقبليّة. (بولاقي ١٣١١هـ) ص ٤١٥.

Shoshan., op. cit., pp.134-135.

(٨١) العيني: عقد الجمان ج٢٥ قسم ٤ ورقة ٦٣.

المقرئ: السلوك ج٤ قسم ٢ ص ٨١٩.

(٨٢) السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن عثمان سابق الدين الخضير) تاريخ السلطان الملك الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦١ تاريخ ورقة ٤٢.

Bacharach., The Dinar., p.88.

Bacharach., The Dinar., pp. 88-90

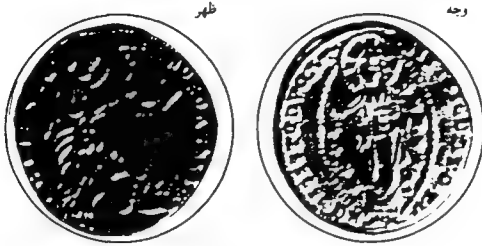
(٨٣)

(٨٤) الهالة ترمز في هذا البحث إلى القداسة. أما الهالة في الفن الإسلامي لم تكن ترمز إلى أي مظهر من مظاهر القداسة، بل ربما كان يقصد بها لفت الأنظار إلى هؤلاء الأشخاص. ومن الغريب أن بعض تصاوير المدرسة العربية كانت تشتمل على هالات حول رؤس الطير بل وحول الأزهار.

د. حسن الباشا: التصوير الإسلامي في العصور الوسطى.

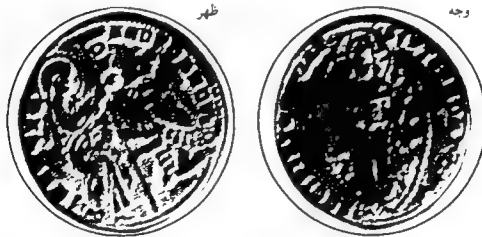
القاهرة ١٩٥٩م ص ١٢٨.

## لوحة رقم « ١ »



مسلسل رقم ١

دوكة ذهبية بنقدية عليها اسم الدوق أندريا دندولو  
المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩٠٨

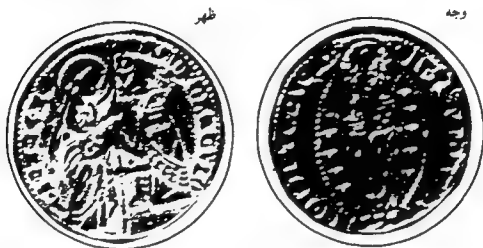


مسلسل رقم ٢

دوكة ذهبية بنقدية عليها اسم الدوق أندريا دندولو  
المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩٠٩

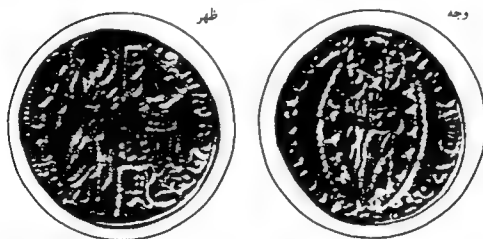


## لوحة رقم «٢»



### مسلسل رقم ٣

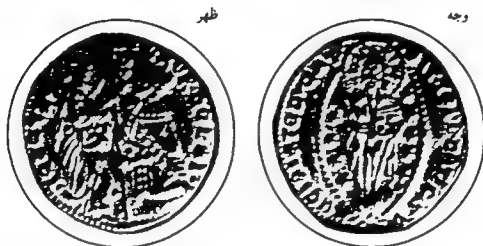
دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق أندريا دندولو  
المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩١٠



### مسلسل رقم ٤

دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق جيوفاني دلفينو  
مجموعة المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩١١

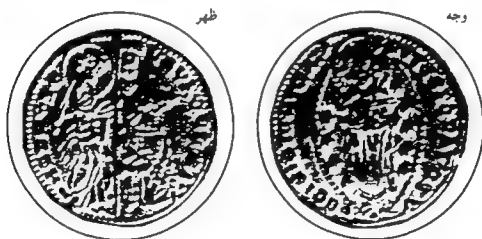
### لوحة رقم « ٣ »



مسلسل رقم ٥

دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق لورنتسو شلسي

محفوظة بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩١٣



مسلسل رقم ٦

دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق لورنتسو شلسي

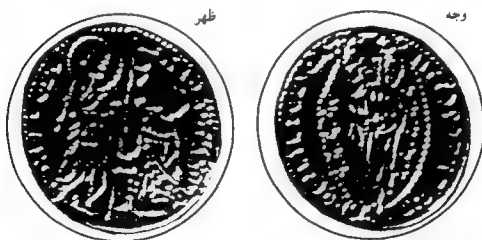
محفوظة بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩١٤

### لوحة رقم «٤»



مسلسل رقم ٧

دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق مرقس كرنارو  
مجموعة المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩١٥



مسلسل رقم ٨

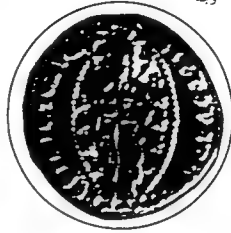
دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق أندريا كونتاريني  
مجموعة المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩٠٦

## لوحة رقم «0»

ظهر



وجه



مسلسل رقم ٩

دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق أندريا كونتاريني

محفوظة بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩٠٧

ظهر



وجه

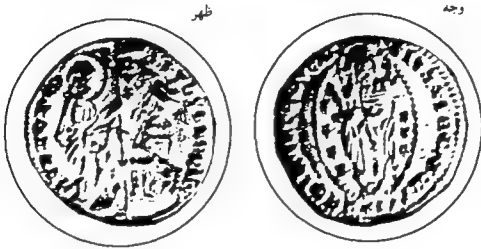


مسلسل رقم ١٠

دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق انطونيو فثير

محفوظة بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩١٢

## لوحة رقم «٦»



مسلسل رقم ١١

دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق انطونيو فثير

محفوظة بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩٢٣



مسلسل رقم ١٢

دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق ميخائيل ستينو

محفوظة بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩١٦

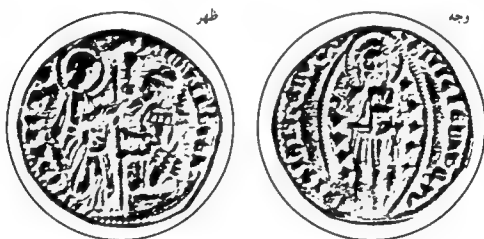
## لوحة رقم «٧»



مسلسل رقم ١٣

دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق ميخائيل ستينو

محفوظة بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩١٧



مسلسل رقم ١٤

دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق ميخائيل ستينو

محفوظة بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩١٨

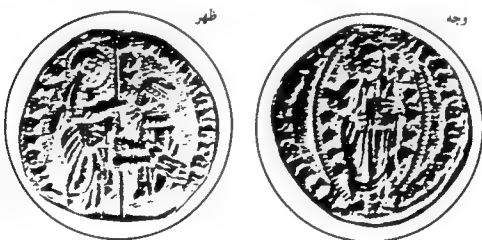
## لوحة رقم «٨»



مسلسل رقم ١٥

دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق ميخائيل ستينو

محفوظة بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩١٩



مسلسل رقم ١٦

دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق ميخائيل ستينو

محفوظة بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩٢٠

## لوحة رقم «٩»



مسلسل رقم ١٧

دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق ميخائيل ستينو

محفوظة بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩٢١



مسلسل رقم ١٨

دوكة ذهبية بندقية عليها اسم الدوق ميخائيل ستينو

محفوظة بالمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية ، سجل رقم ٢٩٩٢٢



# ثريات من النواقيس

في

جامع القرويين بمدينة فاس

د. محمد محمد الكحلوي

مقدمة :



على الرغم من ندرة التحف المعدنية التي وصلتنا من المغرب والأندلس، إلا أن أمثلتها الباقية القليلة، وبخاصة الثريات تكفي وحدها لإبراز دور المغرب في هذه الصناعة.

ومن أقدم التحف المعدنية في المغرب العربي الثريا التي عثر عليها في المخزن الملحق بجامع القيروان بتونس<sup>(١)</sup>. وأهم ما يميز هذه الثريا هو احتواؤها على اسم صانعها منقوشاً بالخط الكوفي ومنقداً بطريقة الحفر، وهو يقرأ «من عمل محمد بن القيس الصفار المغربي».

وقد أرجع الباحثون هذه الثريا إلى القرن الرابع أو الخامس الهجري/ العاشر والحادي عشر للميلاد بناء على أسلوب الخط الذي نقشت به كتابات الثريا<sup>(٢)</sup>، إلى جانب احتوائها على أقدم العناصر الزخرفية المنفذة بطريقة التخريم<sup>(٣)</sup>.

وقد حفظت لنا النصوص التاريخية المغربية الكثير عن صناعة التحف المعدنية في المغرب الإسلامي وبخاصة الثريات التي تتطلب صناعتها أموالاً طائلة لا يستطيع دفعها إلا السلاطين والأمراء. ومن بين تلك النصوص ما ذكره ابن القاضي عن الثريا الكبرى التي صنعت خصيصاً لجامع القرويين بفاس، فقال: «وأما الثريا فإنه كان بموضعها قبل عملها به ثريا مثله في الجرم فتكسرت<sup>(٤)</sup> وصنعت هاذة (هذه) في أيام الفقيه الخطيب عبدالله بن موسى المعلم، وكان الإنفاق فيها سبعمئة دينار وسبعة عشر ديناراً وخمس دينار من الدنانير الفضية، وفي وزن هذه الثرية سبعة عشر قنطاراً وربع قنطار وفي دورها اثنان وثلاثون شبراً، وعدد مراكز قناديلها خمسمئة وعشرون، والذي يملأ قواريرها من الزيت خمس قل»<sup>(٥)</sup>.

ويوضح النص السابق بما لا يدع مجالاً للشك حجم الثريا وعدد قواريرها والتي أفتى الفقهاء بعد ذلك بعدم إضاعتها مرة واحدة لما فيه من إسراف في أموال المسلمين، وهناك نص آخر نقله لنا ابن مرزوق عن الثريا التي صنعها هو بنفسه لجامع المنصور بتلمسان فقال: «وأما الثريا، فكان عملها على يدي وأنا الذي رسمت تاريخها في أسفلها بخطي على ماهي عليه الآن في جامع تلمسان، وتشتمل على ألف مشكاة أو نحوها وعهدي بقدر وزنها مرسوم في أسفلها وهي على مقدار كرم»<sup>(٦)</sup>.

وبين النص السابق أيضاً ضخامة الثريا التي كانت تحمل ألف مشكاة، كما يوضح الأموال الطائلة التي كانت تتطلبها النفقة على مثل هذه الصناعات.

ويحتفظ المغرب الأقصى بأمثلة نادرة لثريات صنعت خصيصاً لمساجده. ومن أشهر تلك الثريات الثريا الموحدية التي أمر بصنعها الخليفة الناصر الموحدي لجامع القرويين بفاس عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٠م والتي تقع بالقبعة الخامسة من جهة المحراب. وتعد هذه الثريا من أضخم ثريات المساجد على الإطلاق إذ يبلغ قطرها ٢.٢٥ متر تقريباً، أما الشكل العام للثريا فهو مخروطي يحتوي على اثني عشر دوراً أكبرها

السفلي وأصغرها العلوي، وتحتوي كل دورة على إطار بارز ركبت عليه مساند القوارير الزجاجية التي بلغ عددها في الدور الأولى أربعاً وخمسين قارورة، وفي الدورة الثانية تسعاً وأربعين قارورة، وفي الثالثة خمساً وأربعين، وفي الرابعة تسعاً وثلاثين، وفي الخامسة ستاً وثلاثين، وفي السادسة ثلاثين، وفي السابعة خمساً وعشرين، وفي الثامنة تسع عشرة، وفي التاسعة أربع عشرة، وفي العاشرة عشر قوارير، وفي الحادية عشر أربع قوارير، وفي الثانية عشر قارورتين فقط، ويتوسط الثريا قبة من النحاس المشغول، كما زخرفت إطاراتها بزخارف نباتية قوامها مراوح نخيلية، وأنصاف مراوح نخيلية يتخللها نقوش كتابية مكتوبة بالخط النسخ المغربي نفذت بطريقة الحفر. وتعد مجموعة النقوش الكتابية المحفورة على هذه الثريا آية من آيات الفن الموحد إذ تضمنت نقوشها الكتابية عبارات منفصلة نقشت بالخط الكوفي وتقرأ «العظمة لله»، «العزة لله» كما توجد عبارة أخرى تقرأ «السعادة والإقبال» نقشت بالخط النسخي، هذا إلى جانب النقوش الكتابية الأخرى التي تتضمن آيات من القرآن الكريم نقشت على إطاراتها بالخط الكوفي<sup>(٧)</sup>.

ولم تكن تلك الثريا هي الوحيدة التي يزخر بها جامع القرويين، بل كان مجموع ما يضمه هذا الجامع من ثريات قد بلغ مئة وثلاثين ثريا على حسب ماذكر الجزنائي، حيث قال: «وعدد الثريات التي تسرج فيها المصابيع مئة وثلاثون ثريا، جميعها من النحاس مختلفة الصناعات والأشكال»<sup>(٨)</sup>. ثم يضيف الجزنائي توزيع هذه الثريات على ظلات المسجد فيقول: «منها عشرة كبار معلقة في البلاطة الوسطى ومئة وعشرون معلقة في سائرة»<sup>(٩)</sup>.

أما جامع الأندلسيين بفاس، فكان نصيبه من الثريات إحدى وستين ثريا، الكبار منها خمس قد علقن بالبلاطة الوسطى بظلة القبلة، وقد وزعت باقي الثريات على سائر ظلات المسجد<sup>(١٠)</sup>.

ويحتفظ جامع تازي<sup>(١١)</sup> بالمغرب الأقصى بتحفة أخرى من الثريات المغربية تعد الثريا الثانية من حيث الحجم والوزن بعد ثرية جامع القرويين وقد أمر بصناعة ثريا جامع تازي أمير المسلمين أبو الحسن المريني حيث ذكر بن أبي ذرع في حوادث سنة

٦٩٣هـ/١٢٩٣م، مايلى:

«وفي سنة ثلاث وتسعين وستمئة فرغ من بناء جامع تازي، عملت الثريا بالجامع وزنتها اثنان وثلاثون قطاراً من النحاس، وعدد كؤوسها خمسمئة كأس وأربعة عشر كاماً، وأنفق في بناء الجامع والثريا من المال ثمانية آلاف دينار ذهباً» (١٧).

وهذا النص يوضح لنا تكاليف الإنفاق على هذه التحف والتي لا يستطيع تحملها إلا السلاطين ومن في مستواهم. وتقع الثريا في البلاطة الوسطى بظلة القبلة بجامع تازي، وهي تتكون من أحد عشر دوراً، ستة منها تحتوي على سنادات للقوارير (لوحة رقم ١٥). وقد شغلت الثريا بمجموعة إطارات من النحاس تحتوي على زخارف نباتية وهندسية وكذلك على نقوش كتابية زخرفت جميعها بطريقة التخريم (لوحة رقم ١٦).

وتعد الأساليب الفنية التي نفذت بها العناصر الزخرفية على هذه الثريا إعجازاً فنياً وشهادة تفوق للصانع المغربي الذي تعامل بالنقش على كافة المواد من حجر وخشب وجص ومعدن، محافظاً على وحدة نسبه الفنية وأصول عناصره الزخرفية وكذلك نفوشه الكتابية (لوحة رقم ١٦).

#### ثريات النواقيس في جامع القرويين (١٨):

إلى جانب الثريات الكبرى التي كانت تصنع خصيصاً للمساجد والمدارس والتي كان يوقف عليها الكثير من الأوقاف لإنارتها، عرف المغرب الإسلامي وبخاصة المغرب الأقصى، نوعاً آخر من الثريات كانت تصنع من نواقيس الكنائس التي كان ينجح المسلمون في الحصول عليها بعد منازلة أعدائهم في الأندلس.

ويزخر جامع القرويين بفاس بوجود مجموعة من الثريات المصنعة من نواقيس أبراج الكنائس بجانب مجموعة الثريات الأخرى التي يزدان بها الجامع منذ عصوره الأولى. وتمثل ثريات النواقيس بجامع القرويين مجموعة نادرة في العالم إذ لا يوجد

أمثلة سابقة أو لاحقة في أي مسجد في العالم يقتني واحدة من مثل هذه النواقيس. (١٤)  
وتأتي قيمة ثريات النواقيس، ليس لكونها صنعت من أجراس الكنائس فقط، أو لكونها تسجل انتصاراً للمسلمين في موقعة معينة، ولكن قيمتها تكمن في كونها تمثل إضافة جديدة لمجموعة التحف المعدنية في المغرب الإسلامي، لما تحمله من أساليب فنية تكمن في مجموعة الإضافات الفنية التي يتطلبها تحويل الناقوس إلى ثريا، أي تحويل شيء أصم إلى تحفة فنية مضيئة، هذا إلى جانب زخرفتها بكافة العناصر الفنية، وأيضاً نقشها بالنقوش الكتابية التي تتضمن عبارات دينية ودعائية وأيضاً نصوصاً تأسيسية، وتلك العناصر السابقة تمثل القاعدة الأساسية التي تتطلبها أية دراسة تبحث في مجموعة جديدة من التحف وتمكن الباحثون من وضع تصنيف فني جديد لها.

### الإشارات التاريخية الأولى حول ثريات النواقيس:

كانت أولى الإشارات التاريخية التي وصلتنا والتي نص فيها صراحة على انتزاع هذه النواقيس من الكنائس الأسبانية قد أوردها لنا المؤرخ (ابن صاحب الصلاة) وهو واحد من أهم المؤرخين المعاصرين للدولة الموحدية حيث ذكر عند وصفه لغزوة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحي لفتح مدينة وبدة في سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م (١٥) بعد أن استولى عليها الأسبان فقال: «فعندما ضربت الطبول ودفعت العساكر صار النهار ليلاً.. وكانت مدينتهم دون أبواب.. وهدمت بيعهم وأخذ منها تسعة نواقيس» (١٦). ولم يخبرنا ابن صاحب الصلاة بعد ذلك شيئاً عن مصير تلك النواقيس، هل نقلت إلى المغرب أم لا؟ وإن كانت قد حملت إلى هناك ففي أي المساجد ركبت؟ تلك هي علامات الاستفهام التي تركها لنا نص ابن صاحب الصلاة حول النواقيس التسعة، التي حصل عليها الموحدون.

والاحتمال الوحيد للإجابة على هذه الاستفسارات جاء في نص آخر أورده لنا الجزنائي عند وصفه لمجموعة ثريات جامع القرويين وبخاصة التي توجد على امتداد بلاطة المحراب، فقال: «منها عشرة كبار (أي من مجموع عدد ثريات

**المسجد) معلقة في البلاطة الوسطى... يندرج في هذه العشرة النواقيس المكففة بالنحاس»<sup>(١٧)</sup>.**

وفي موضع آخر يذكر الجزنائي نصاً آخر يتعلق بناقوس جديد حمل من الأندلس إلى المغرب في عصر أمير المسلمين أبو الحسن المريني عندما تمكن ولده أبو مالك من فتح مدينة جبل الفتح عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م من أيدي الإسبان<sup>(١٨)</sup>. وانتزع من كنيسة الناقوس الكبير الذي أمر السلطان أبو الحسن المريني بعد ذلك بتحويله إلى ثريا كما أمر بتعليقه في جامع القرويين. وتعظيماً لهذا الفتح فقد أمر السلطان أبو الحسن المريني معماره ببناء قبة خاصة في البلاطة الوسطى بظلة القبلة لتعليقه بها<sup>(١٩)</sup>.

فلو أضفنا النواقيس الموحدية التسعة التي أخذت من مدينة وبدة بالأندلس إلى الناقوس المريني الذي أخذ من مدينة جبل طارق بالأندلس أيضاً فسوف يصبح عدد النواقيس المشار إليها تاريخياً ووفقاً للنصوص السابقة عشرة نواقيس، يوجد منها بجامع القرويين وحده سبعة نواقيس من بينها الناقوس المريني. وهذا العدد يتفق مع ما ذكره الجزنائي بقوله: «ويندرج في العشر (أي العشر ثريات المعلقة ببلاطة المحراب) ثريات النواقيس»<sup>(٢٠)</sup> أي لم يشر الجزنائي في نصه السابق على أن جميعهم من النواقيس.

كما يوجد ناقوس آخر معلق في البلاطة الوسطى بجامع تازي ولكنه لم تشر إليه المصادر أو البحوث الحديثة (لوحة رقم ١٣، ١٤).

وبإضافة ناقوس جامع تازي يصبح عدد النواقيس الباقية ثمانية فقط، وهذا العدد قريب من رقم العشرة نواقيس المأخوذة من الأندلس، إذا ما وضعنا في حساباتنا عوامل الدهر وكذلك الإهمال الذي يصيب الكثير من تراثنا الحضاري، كما كان البعض منها يصهر ويعاد تشكيلها في أدوات جديدة<sup>(٢١)</sup> ثم تتوالى بعد ذلك الإشارات التاريخية وبخاصة نصوص الرحالة التي ركزت في وصفها على مجموعة النواقيس التي توجد بجامع القرويين، ومن أهم هذه النصوص: نص الرحالة الوزان الذي وصف ثريات النواقيس بجامع القرويين، قال: «وفي الصف المكون من أقواس الوسط وبالأخص التي تؤدي إلى المحراب فيه وحده مئة وخمسون مصباحاً، وهناك ثريات عديدة من البرونز في كل واحدة منها ألف وخمسمائة مصباح

صنعت من نواقيس بعض المدن المسيحية التي فتحها ملوك فاس»<sup>(٣٣)</sup>.

كما ذكر الرحالة مرمول ثريات النواقيس عند وصفه لجامع القرويين فقال: «وفي القبة الرئيسية حيث منبر الخطيب.. ثريات عظيمة من النحاس تحيط بها مائة وخمسون مصباحاً... فضلاً عن الثريات المعلقة في الأقواس، في كل واحدة منها ثريا من نفس المعدن بحيث يمكن أن توجد فيه ألف وخمسمائة مصباح في آن واحد.. وأن هذه الثريات كلها مصنوعة من نواقيس أخذها المسلمون من كنائس أسبانيا ووضعت كأنصاب تذكارية»<sup>(٣٤)</sup>.

وأخيراً تعدّ الإشارات السابقة هي آخر النصوص التاريخية التي وصلتنا عن ثريات النواقيس على حد علمي، وجميعها قد تركزت على وصف مجموعة ثريات النواقيس بجامع القرويين والتي سوف تشملها الدراسة موضوع هذا البحث.

### ثريات النواقيس الموزعة على امتداد بلاطة المحراب بجامع القرويين

تحتوي بلاطة المحراب<sup>(٣٥)</sup> بجامع القرويين على ست ثريات صنعت من النواقيس مختلفة الأحجام والأشكال والسعة. وقد وزعت هذه الثريات على خط مستقيم واحد حيث علقت في مجموعة القباب المتتالية بدءاً من القبة الرابعة من جهة المحراب، وحتى القبة العاشرة الواقعة خلف العنزه (المحراب الخشبي) عدا القبة الخامسة، وهي القبة التي تتوسط امتداد البلاطة حيث علقت بها الثريا الموحدية (انظر توزيع القباب على شكل رقم ١)، (لوحة رقم ١). كما يحتوي جامع القرويين على ثريا من ناقوس آخر ركببت في داخل باب الشماعين (لوحة رقم ١٢).

وقد تطلبت عملية تحويل النواقيس إلى ثريات عدة خطوات جوهريّة منها إضافة مجموعة من الأحزمة أو الأذرع أو الإطارات حول بدن النواقيس إما بشكل أفقي يوازر البدن، ومن أمثلتها ثريات النواقيس المعلقة في القبة الرابعة والسادسة والسابعة والتاسعة والعاشرة (اللوحات أرقام ٢، ٣، ٥، ١٠)، أو توضع الأذرع بشكل رأسي

يمتد من قاعدة الناقوس إلى قمته ومن أمثلتها ثريا الناقوس المعلقة في القبة الثامنة (لوحة رقم ٦، ٨).

وتستخدم تلك الأحزمة والأذرع كوسائد أو ركائز يركز عليها مجموعة سنادات القوارير وهذا بالنسبة لبدن الناقوس، أما الجزء السفلي في الناقوس والذي يحتوي على الفوهة والحافة، فهي تعد الجزء الفني على جسم الناقوس إذ يخصصها الفنان بثلاثة عناصر رئيسة هي:

أ - الطبق النحاس الذي يغلق على فوهة الناقوس والمكون من أجزاء مجمعة نذكرنا بالطبق النجمي<sup>(٢٥)</sup>، (لوحة رقم ٥، ٩).

ب - الكرسي النحاسي الصغير الذي يتوسط الطبق وفوهة الناقوس.

ج - مجموعة الكوابيل التي تربط الكرسي النحاسي وتحمل الطبق الذي يغلق على فوهة الناقوس (لوحة رقم ٨) وتثبت تلك الأجزاء ببعضها عن طريق السامير التي أخذت هيئتها الخارجية شكل القمم أو البرمق المخروط من رقبة ومجموعة قبيبات صغيرة (لوحة رقم ٨، ٩، ١٠).

وأخيراً الجزء الذي تتدلى منه الثريا بعد تحويلها وهو عبارة عن عمود حديد ملبس في ثلاث أو أربع تقافيح - أي قبيبات صغيرة - نذكرنا بتقافيح المآذن (لوحة رقم ٢، ٥، ١٠) وقد ثبت طرفي العمود الحديدي من أعلى بمقبض على هيئة حرف S ومن أسفل في الحلقة المنصلة بقمة الثريا (لوحة رقم ٩).

أمّا العناصر الزخرفية والنقوش التي تشغل بها هذه الثريات فهي تتكون من عناصر نباتية قوامها مراوح تخيلية أو أنصاف مراوح تلتف حولها سيقان رفيعة وفي نماذج قليلة ظهرت ورقة نباتية ثلاثية القصوص إلى جانب الزخارف الهندسية التي تشكل دائماً على هيئة دائرة أو أطباق مجمعة نفذت جميعها بطريقة التخريم.

كما تشمل الثريات على نقوش قديمة حفرت على أبدان النواقيس من الخارج بحروف لاتينية تتضمن عبارات دينية، ومن أمثلتها النقش اللاتيني المحفور على قمة الناقوس المعلق بالقبة السادسة والذي يقرأ: «صوت الرب يجلس في بيته»<sup>(٢٦)</sup> (لوحة رقم ٣، ٤).

وكذلك في العبارة المحفورة على بدن الناقوس المعلق بالقبة الثامنة والذي يقرأ:



«جدير بالنفس التقية أن تشكر فضل الله عليها في النجاة من شرور الضلال»<sup>(٣٧)</sup>،  
(لوحة رقم ٦، ٧).

والى جانب النقوش اللاتينية القديمة المحفورة على أبدان النواقيس توجد نقوش إسلامية حفرت على الإطارات الخارجية للثريات، ومعظمها يتضمن آيات من القرآن الكريم<sup>(٣٨)</sup>، تضمنت معانيها الكريمة الوظيفة الجديدة للناقوس وهي الإنارة، كما تضم النقوش الكتابية بعض العبارات الدعائية أو عبارات التوحيد مثل «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» «الملك لله» «والعزة لله» (شكل رقم ٢، ٣). أو عبارات دعائية مثل «اليمين والإقبال»، أو «الغبطة المتصلة» وغيرها، ومن الجدير بالذكر أن كل من النقوش الكتابية القديمة أو الإسلامية قد تضمنت معانيها الوظيفة التي كانت تؤديها على الرغم من اختلاف وظيفة الجرس في الكنيسة عن الثريا في المسجد، إذا أشارت الكتابات القديمة إلى عبارة «صوت الرب يجلس في بيته». وفي العبارة السابقة تصور لقرع النواقيس التي تجلس من شدة طرقها في أرجاء الكنيسة.

أما على الثريات فتأتي عبارات التوحيد كدلالة على الموقع الجديد التي ركبت فيه النواقيس ثم يتبعها نقوش أخرى تتضمن آيات من القرآن الكريم تحتوي على البسملة وآيات من سورة النور تقرأ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كِشَافُهَا مِصْبَاحٌ...﴾ إلى آخر الآية الكريمة، أو تتضمن العبارات الدعائية التي استمدت معانيها من وظيفة الثريا عند إضاءتها وامتدته من غبطة ويمين وإقبال. وسوف ينضج كثير من هذه التفاصيل بالدراسة التفصيلية لكل ثريا.

### أولاً: الثريا الأولى:

تقع بالقبة الرابعة من جهة المحراب في امتداد البلاطة الوسطى (شكل رقم ١) والثريا من الحجم المتوسط إذ يبلغ سعة قطرها ٥٨ سم<sup>(٣٩)</sup> وتتكون الثريا من الداخل من بدن الناقوس الذي يحيط به من الخارج ثلاثة إطارات متطابقة ومختلفة الأحجام، إذ يبلغ قطر الإطار الأول من أسفل ٦٢ سم تقريباً وهو يعد أكبر الإطارات اتساعاً

ثم يليه الإطار الأوسط الذي يؤازر وسط الناقوس ثم يليه من أعلى الإطار الثالث الذي يتوج رقبة الناقوس (لوحة رقم ٢). وقد صنعت الإطارات الثلاثة من البرونز السميك ويتوج حافة كل إطار شريط من النحاس المزخرف بطريقة التخریم ويحتوي كل إطار على مجموعة من الخوص الصغيرة المثبتة بشكل رأسي وظيفتها حمل السنادات التي تركب عليها القوارير (لوحة رقم ٢).

وتتدلى الثريا من أعلى عن طريق عمود نحاسي يحتوي على ثلاث تقافیح (قبيبات صغيرة) متدرجة الأحجام، أكبرها السفلى، وأصغرها العليا، وقد زخرفت هينتها الخارجية بتضليعات (لوحة رقم ٢). تذكرنا بتضليعات القباب التونسية.

كما شغل الفنان كافة الأشرطة النحاسية للإطارات الثلاثة، وكذلك مجموعة الأطباق النحاسية التي تغلق على فوهة الناقوس بزخارف نباتية وهندسية نفذت جميعها بطريقة التخریم.

### نقوش زخرفية على الناقوس والثريا:

يحتفظ كل من الناقوس القديم والثريا على نقوش زخرفية نفذت بطريقة الحفر، إذ يوجد على بدن الناقوس عناصر زخرفية على هيئة رسوم حيوانية حفرت على بدن الناقوس الخارجي<sup>(٣٠)</sup> تميزت بصغر حجمها، كما يحتوي بدن الناقوس على رسوم «حليات» صغيرة نفذت هي الأخرى بطريقة الحفر.

أما بالنسبة للنقوش الزخرفية التي على الثريا فهي عبارة عن نقوش كتابية تتضمن آيات من القرآن الكريم وبعض العبارات الدعائية، فعلى الشريط الذي يحيط بقاعدة الثريا من أعلى يوجد نقش كتابي يقرأ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾»<sup>(٣١)</sup>.

ويسبق هذا الشريط نقش آخر يتضمن عبارات دعائية مكررة تقرأ: «اليمين والإقبال» وهذا الشريط يدور بحافة الثريا من أسفل، (لوحة ٢).

## الثريا الثانية

تقع هذه الثريا في القبة السادسة من جهة المحراب، وهي القبة التي تغطي جزءاً من امتداد البلاطة الوسطى بظلة القبلة (شكل رقم ١)، وتتكون الثريا من بدن الناقوس، وهو من الحجم المتوسط إذا يبلغ اتساع قطر فوهته الدائرية من أسفل ٥٨ سم تقريباً (٣٢).

وقد شغل بدن الناقوس من الخارج بثلاث أحزمة متطابقة توازّر جميعها بدن الناقوس، والأحزمة الثلاثة تتدرج إلى الصغر كلما اتجهت إلى رقبة الناقوس (لوحة رقم ٣). وتشتمل مجموعة الأحزمة على أذرع منكسرة الشكل بزواوية تقدر بـ ٩٠ درجة تقريباً تحمل أطرافها العليا سندات القوارير (لوحة رقم ٣).

أما فوهة الناقوس من الداخل فقد سدت بواسطة طبق نحاسي مستدير الشكل مكون من أجزاء منفصلة ثبتت عن طريق الأذرع المتصلة بالكرسي النحاسي الصغير، وقد ركبت في قاعدة الكرسي من أسفل أربع برامق نحاسية صغيرة، وتحتوي قمة الثريا على مقبض مستحدث (لوحة رقم ٣).

## النقوش الكتابية على الناقوس والثريا

يحتفظ كل من الناقوس والثريا ببعض النقوش الكتابية وأقدم هذه النقوش هي التي حفرّت على بدن الناقوس الخارجي من جهة الرقبة، وهي عبارة عن نقوش تتضمن عبارة حفرّت بحروف لاتينية قام الدكتور عبد الهادي التازي بقراءتها وترجمتها على النحو التالي:

«Vox Domini Sonata Domini Rome Fecit» وترجمتها: «صوت الرب يجلجل في بيته، صنع هذا الجرس روميو». وإن كان النص السابق قد اشتمل على اسم صانع الناقوس وهو «روميو» إلا أن النص اللاتيني لم يشتمل على تاريخ صناعة الناقوس (انظر لوحة ٤).

أمّا النقوش العربية التي نقشّت على الإطارات النحاسية فقد تضمنت آيات من

القرآن الكريم منها النقش القرآني المنقوش على حافة الثريا من أسفل بطريقة الحفر بالخط النسخ، وهو يقرأ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً. قل هو الله أحد، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»<sup>(٣٤)</sup>. وبلي سورة الإخلاص نقش آخر يشتمل على البسمة منقوشاً بالخط النسخ أيضاً.

كما يوجد نقش آخر منقوشاً على الطبق النحاسي في أسفل بالخط النسخ المنفذ بطريقة الحز يقرأ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وأخيراً يحتوي كرسي الثريا على نقوش كتابية تشتمل على عبارات دعائية نقشت بالخط النسخ وتقرأ: «الملك الدائم العز القائم».

ومن الملاحظ على النقوش الكتابية السابقة سواء التي نفذت على بدن الناقوس بالحروف اللاتينية أو التي نفذت على إطارات الثريا بالحروف العربية لم تحتو على تواريخ الصنع أو تواريخ النقش أو أسماء الحكام الذين أمروا بتصنيعها وتعليقها مما يثير لدى الباحثين الكثير من علامات الاستفهام<sup>(٣٥)</sup>، وإن كان من المسلم به نسبة هذه النواقيس إلى العصر الموحد، إلا أن عناصر زخرفتها والنقوش الكتابية التي نقشت عليها وماتحمله من عبارات دعائية لو قارناها مع أشكال الخطوط والعبارات الموحدة على العمائر الدينية الثابتة التاريخ نجد أنه من الصعب أن ندرج هذه النقوش إلى العصر الموحد، ويستنتج من هذا أن الثريا قد أدخلت عليها ترميمات جوهرية فقدت الثريا الموحدة من خلالها كافة العبارات والنقوش التي كانت عليها واستبدلت بنقوش أخرى متأخرة، ويلاحظ ذلك بوضوح من خلال العبارات المستخدمة والتي تقرأ على الثريا الحالية مثل عبارة «الملك الدائم العز القائم» وتلك العبارة لم تكن تستخدم ضمن العبارات الدعائية الموحدة والتي مازال الكثير منها قائماً على عمائرهم الدينية ومن أهم تلك العبارات عبارة: «الملك لله» أو «العزة لله»، أو «لا إله إلا الله»، أو «الحمد لله»، أو «أعوذ بالله» (انظر الأشكال أرقام ٢، ٣، ٤، ٥). وكانت هذه العبارات تنفذ داخل تكوينات زخرفية ومن أمثلتها العبارات الدعائية الموحدة التي تشاهد في الحشوات الجصية أسفل القبة التي تعلو محراب جامع

تتمل (٣٦) أو في مجموعة العبارات التي نقشَت على صومعة جامع الكتبيين بمراكش (٣٧)، والتي تحتوي على عبارة «الحمد لله» وعبارة «العزة لله» وعبارة «الملك لله» (شكل رقم ٢، ٣).

هذا من حيث العبارات، أما من حيث الخطوط فهي أيضاً تؤكد على أن النقوش التي تحملها الثريا الحالية ليست من عصر الموحدين إذ شاع في عصر الموحدين استخدام نوعين من الخط، هما خط النسخ المغربي في التدوين والخط الكوفي في الزخرفة، سواء كانت على عمائر أو على السكة. وعلى هذا فإنني أرجح أن تكون أعمال الترميم التي آلت إليها الثريا الحالية، ترجع إلى العصر السعدي وهو العصر الذي انتشرت فيه مثل هذه العبارات «الملك الدائم والعز القائم» ويعزى ذلك إلى هجرات الأندلسيين بكثرة في ذلك الوقت حيث إن هذه العبارات كانت شائعة على التحف الأندلسية (٣٩).

### الثريا الثالثة:

تقع هذه الثريا بالقبعة السابعة من جهة المحراب، وهي تتدلى من القبعة الخشبية (شكل رقم ١). ويتكون الهيكل الداخلي للثريا من بدن الناقوس الذي يبلغ اتساع قطر فوهته ٧١ سم تقريباً، وتعد هذه الثريا من ضمن الثريات التي نفذت بأسلوب فني متطور عن الثريات السابقة، حيث شغل الفنان بدن الناقوس بثلاث طوابق توازر جميعها. بدن الناقوس من الخارج بشكل متدرج في السعة إذ تأخذ تلك الطوابق في الصغر كلما اقتربت من رقبة الناقوس (لوحة رقم ٥).

ويتوج حافة كل طابق شرفات نحاسية صغيرة مدببة الشكل ثبتت في قممها أذرع صغيرة تركز عليها قواعد نحاسية كانت تثبت فيها القوارير الزجاجية، أما الآن استبدلت بإضاءة حديثة (لوحة رقم ٥).

وقد شغل الفنان شرفات الطوابق الثلاثة للثريا بزخارف هندسية نفذت بطريقة التخریم (لوحة رقم ٥). كما شغل الفنان الإطار الذي تركز عليه مجموعة الشرفات

بالبطاق الأول بزخارف نباتية غاية في الدقة، نفذت بطريقة الحفر (لوحة رقم ٥). أما فوهة الناقوس من أسفل فقد سدت بطبق من النحاس المجمع من عدة أجزاء ثبتت مع بعضها عن طريق أذرع نحاسية ثبتت أحد أطرافها في حافة الناقوس من الداخل أما طرفها الثاني فقد تجمع حول الكرسي النحاسي الصغير الذي يتوسط قاعدة الطبق الذي يغلق على فوهة الناقوس (لوحة رقم ٥). وقد ملأ الفنان كافة الأشرطة النحاسية المكونة للطبق والكرسي بزخارف نباتية دقيقة نفذت جميعها بطريقة التخريم (لوحة رقم ٥).

### الطابق الثاني من الثريا

حجبت الطابق الثلاثة التي تلفت حول بدن الناقوس رؤية أجزائه الداخلية، ولذا أصبح من الصعب التعرف على وجود زخارف أو نقوش قديمة على بدنه من الخارج، وكل ما يحمله هذا الناقوس من نقوش ترجع جميعها إلى وقت صنع الثريا، وتعد مجموعة النقوش العربية المحفورة على الثريا قليلة بالنسبة لحجمها إذ تحتوي الثريا على عبارتين فقط تتضمن أدعية، العبارة الأولى نقشت على الإطار الأول من أسفل بالخط النسخ المغربي، وتقرأ: «اليمن والإقبال والسعادة» وهذه العبارة متكررة على حافة الإطار. أما الإطار الأوسط الذي يلي الإطار السفلي فيحتوي على نقش كتابي يقرأ: «اليمن والإقبال والغبطة» وقد نقشت هذه العبارة بالخط النسخ المغربي مكررة على نفس الإطار.

### الثريا الرابعة

تقع هذه الثريا في القبة الثامنة من جهة المحراب وهي القبة التي تغطي جزءاً من امتداد بلاطة المحراب، وفي نفس الوقت تقع في مواجهة باب الكتبيين من الجهة الغربية وباب ابن حيون من الجهة الشرقية (شكل ١). وناقوس هذه الثريا يعد من

أضخم نواقيس ثريات المسجد على الإطلاق (لوحة رقم ١).

وتماز هذه الثريا بعدة خصائص أخرى أهمها:

١- يعد هذا الناقوس الوحيد الذي يرجع إلى عهد الدولة المرينية، وكانت تحتفظ بثريته بنقوش كتابية تأسيسه إلا أنها قد تلاشت الآن.

٢- حفظت لنا بعض المصادر التاريخية وصفاً دقيقاً لمجموعة الإضافات التي أدخلت على بدن الناقوس لتحويله إلى ثريا، أفادتنا في معرفة التغيرات التي ألحقت على الثريا بعد أعمال الترميم.

٣- كما حفظت لنا أيضاً بعض المصادر التاريخية تسجيلاً كاملاً لكافة النصوص الكتابية المنقوش على إطارات الثريا من الخارج، وأهم ماتضمنته تلك النصوص، التي قد تلاشى رسمها الآن.

إلى جانب عدة معلومات أخرى تتضمن مقدار ماصرف في تحويل الناقوس إلى ثريا، وكذلك مقدار وزنه حين جلب إلى المغرب.

وأخيراً أفادنا على بناء السلطان المريني قبة خاصة لهذا الناقوس بجامع القرويين، فقال الجزنائي: «أما الناقوس الكبير المعلق بالبلاطة الوسطى لهاب الكتبيين، لهو الذي ألقى بجبل الفتح من بر الأندلس، حين استفتحه المسلمون على يد الأمير الأسعد الشهيد أبي مالك عبد الواحد ابن أمير المسلمين أبي الحسن رحمهما الله تعالى»<sup>(٤١)</sup>.

وعن وزن الناقوس يخبرنا الجزنائي بأنه كان يزن عشرة قناطير<sup>(٤٢)</sup>، حين جلب إلى المغرب، وقد أمر أمير المسلمين أبو الحسن المريني أن تعمل في جوانبه أجناح قائمة منفردة ليبقى جرمه ظاهراً، كما أمر بأن تعمل على أجنحته مراكز للقوارير الزجاج التي تسرج فيه»<sup>(٤٣)</sup>.

ونظراً لما تحدثه تلك الأعمال من شحن النفوس للجهاد، فقد أمر أمير المسلمين أبو الحسن بتعليق هذا الناقوس في جامع القرويين بعد أن جهز له معماره قبة كبيرة كان قد أمر ببنائها السلطان أبو الحسن المريني، وهي القبة التي مازال معلقاً بها إلى الآن<sup>(٤٤)</sup>.

يتكون الوصف العام للثريا من البدن الداخلي للناقوس والذي تقدر سعة فتحة فوهته ٨٦.٠ سم تقريباً<sup>(٤٥)</sup> (لوحة رقم ٦، ٨) وقد شغل بدن الناقوس الخارجي باثني عشر ذراعاً رأسياً وزعت جميعها بالتساوي على بدن الناقوس، وهذا الأسلوب يعد جديداً بالنسبة لباقي النواقيس إذا اعتاد الفنان أن يشغل البدن الخارجي بمجموعة من إطارات أفقية توازر دائماً بدن الناقوس. وكانت هذه الإطارات مع السنادات والقوارير تخفي الكثير من بدن الناقوس، أما الناقوس المريني فقد أتاحت مجموعة الأذرع الرأسية رؤية باقي أجزاء بدن الناقوس بدون صعوبة (لوحة ٦، ٨، ٩). وهذا يتفق مع ما أوصى به السلطان أبو الحسن المريني ليبقى جرمه ظاهراً.

وقد ركبت الأذرع الرئيسة وثبتت عن طريق طرفيها إذ ثبت طرفها السفلي على قاعدة فوهة الناقوس من الخارج وطرفها العلوي على نهاية قمة الناقوس من أعلى ولذا جاءت الاثني عشر ذراعاً مجمعة على مسافات متقاربة على قاعدته (لوحة رقم ٦، ٨).

وقد ركبت على حافة الأذرع المقوسة سندات القوارير والتي أخذت هيئتها الخارجية شكلاً مدرجاً طبقاً للشكل العام الذي عليه بدن الناقوس (لوحة رقم ٦). وقد ملأ الفنان الفراغات الواقعة بين الأذرع وبدن الناقوس بأشرطة مزخرفة بأشكال هندسية وأخرى نباتية نفذت جميعها بطريقة التخريم (لوحة رقم ٨).

وقد توج الفنان حافة الناقوس الخارجية بشرقات نحاسية صغيرة مسننة (لوحة رقم ٩) أما فوهة الناقوس، فقد أغلقها الفنان بمجموعة أشرطة نحاسية ثبتت على اثني عشر كابولي ربطت قاعدتهما بالكروسي النحاسي الصغير الذي يتوسط فوهة الناقوس من أسفل أما أذرع الكوابيل الأفقية فقد اتخذت كسنادات تحمل قرص الطبق النحاس من أسفل (لوحة رقم ٨).

وقد شغل الفنان الفراغات الواقعة بين كوابيل الكروسي النحاسي بشبابيك صغيرة معقودة حجبت فتحاتها بأشرطة نحاسية رقيقة تحتوي على عناصر زخرفية مكونة من



تكوينات نفذت بطريقة التخريم (لوحة رقم ٨).

أما قاعدة الكرسي النحاسي، فقد أغلقها الفنان بطبق من النحاس مقعر الوسط به تضييعات رأسية تذكرنا بتضييعات قباب المساجد التونسية<sup>(٦٦)</sup> وقباب الأضرحة الفاطمية في مصر<sup>(٦٧)</sup> (لوحة رقم ٨، ٩).

وقد ثبت الإطار الخارجي للطبق المجوف بكرسي الثريا باثني عشر برمق صغير (لوحة رقم ٨) وهذا الوصف يطابق إلى حد كبير وصف الجزنائي لكرسي الثريا حيث قال: «بأسفله أوصال (أي كوابيل) عددها اثني عشر، وتحت كل وصل منها غلون مكف وفي وسط ذلك طبق شبه الخاتم نات عن الأوصال وفي أسفل حرف الطبق بيادق مخروطية ونطاق مقور في وجه الأوصال، كل ذلك من النحاس الأصفر المنقوش المخرم بالصناعة المحكمة»<sup>(٦٨)</sup>.

### الناقوس الكتابية على الناقوس والثريا

ما زال كن من الناقوس والثريا يحتفظ كل منهم ببعض النقوش الكتابية التي كانت تزخرف كل منهما وإن كانت النقوش القديمة الواقعة على بدن الناقوس مازالت جميعها موجودة أما النقوش الإسلامية التي ترجع إلى العصر المريني فقد تلاشت معظمها.

### النقوش القديمة

يحتوي بدن الناقوس الخارجي على نقوش مكتوبة بالحروف اللاتينية بطريقة الحفر قرأها الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي:

«Mentem Sanctam Sponaneum Onorem»

«Decet Patre Liberacionem»

وترجمها إلى: «جدير بالنفس التقية أن تشكر فضل الله عليها في النجاة من شرور

الضلال»<sup>(٤٩)</sup> . ويتضح من ترجمة العبارة بأنها تتضمن نصوص عقائدية تتفق مع الوظيفة التي كان يستخدم فيها الناقوس في موقعه القديم.

### النقوش العربية على الثريا المرينية

أما النقوش العربية التي تزرع بها الثريا والتي ترجع إلى عهد المرينيين فقد تلاشي معظمها نتيجة لأعمال التجديد التي ألحقت بالثريا في وقت متأخر، ولكن من حسن الحظ أن المورخ الجزنائي قد دون لنا كافة النصوص الكتابية التي كانت تزدان بها الثريا المرينية، حيث كانت تشتمل حافة الثريا على نقوش كتابية تتضمن نصوص تأسيسية تحتوي على السلطان وألقابه وكذلك تاريخ الحصول على الناقوس، وكانت تقرأ: «الحمد لله وحده أمر بتعليق هذا الناقوس المبارك، مولانا أمير المسلمين<sup>(٥٠)</sup>، ناصر الدين أبو الحسن<sup>(٥١)</sup> بن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف يعقوب بن عبدالحق، أيد الله سلطانه وأسعد عصرهم وزمانهم، وهو الناقوس الملقى بجبل الفتح حرصه الله افتتحه بعون الله وتأييده مولانا أمير المسلمين أبو الحسن أيدته الله ونصره على يد ولده الأمير الأسعد أبي مالك، ومولانا أيدته الله ونصره محاصرة مدينة سجلماسه، وكان افتتاح الجبل المذكور في يوم الأحد الخامس لشهر شوال المبارك من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمئة والله يرشده»<sup>(٥٢)</sup> ويؤكد لنا الجزنائي على أنه قد نقل تلك النصوص من على الثريا نفسها بمساعدة وقاد الجامع المكلف بها فقال: «هكذا أملاه من موضعه وقاد الجامع المذكور»<sup>(٥٣)</sup>.

أما النقوش الكتابية التي تضمنتها الآن الثريا، فهي تحتوي على آيات قرآنية وعبارات دعائية نقشت على ستة أذرع من الأذرع الاثني عشر الحاملة للقوارير، إذ نقش على كل ذراع بالخط الكوفي عبارة «الغبطة المتصلة» ويلاحظ بعض التعديلات في حروف العبارة.

أما الأذرع الستة الباقية فقد نقش على كل منها بالخط الكوفي عبارة أخرى تقرأ: «اليمين والإقبال»، كما يوجد على الإفريز الذي يحيط بالإطار الخارجي لفوهة

الناقوس نقش كتابي آخر يقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد، اليمن والإقبال، والعز لله..» وعلى نفس الإقريز نقوش كتابية نقشت في اتجاه معاكس تحتوي على أربع وعشرين قطعة كل منها عليه نقش مكون من كلمة واحدة تقرأ: «الغبطة»، مكتوبة بالخط الكوفي ومنفذة بالحفر وتحتوي حروفها على عناصر زخرفية مورقة.

وهناك نص آخر يوجد على الإطار الذي تركز عليها الشرفات النحاسية الصغيرة المتوجة لحافة الناقوس من الخارج وهذا النص يحتوي على نقش كتابي يتضمن آيات من القرآن الكريم تقرأ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورُ عَلٍّ نُورٌ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾.. ثم يليها نقش آخر يتضمن آيات من سورة غافر تبدأ من الآية رقم [٦٤] وتقرأ: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾. ويؤكد الدكتور التازي على أن التجديد الذي أدخل على هذا الناقوس قد طمس كثيراً من نقوشه الكتابية<sup>(٥٦)</sup> (لوحة رقم ٦، ٨).

### الثريا الخامسة

تقع هذه الثريا بالقبعة الثانية من جهة العنزة (المحراب الخشبي)، (شكل رقم ١)، ويتكون البدن الداخلي للثريا من بدن الناقوس الذي يبلغ اتساع قطر فوهته ٦٨ سم تقريباً وتتشابه هذه الثريا إلى حد كبير مع الثريا الثالثة التي تقع بالقبعة السابعة من حيث عدد طوابقها الثلاثة وكذلك من حيث أشكال القطع النحاسية الصغيرة المعقودة التي تشكل إطار كل طابق (لوحة رقم ١٠).

وتتكون هذه الثريا من ثلاث طوابق متطابقة ومندرجة في السعة من أسفل إلى أعلى (لوحة رقم ١٠)، ويوازر الطابق الأول الحافة الخارجية لفوهة الناقوس بينما

يؤازر الطابق الثاني وسط الناقوس والثالث رقبة الناقوس (اللوحة رقم ١٠)، وقد شكل الفنان الطوابق الثلاثة من قطع نحاسية صغيرة مدببة الشكل زخرفت صدورها بزخارف نباتية وهندسية دقيقة نفذت بطريقة التخريم (لوحة رقم ١٠).

أما فوهة الناقوس فقد سدت بواسطة طبق نحاسي يتوسطه آخر مقعر الشكل بأسفل قاعدته يوجد كرسي الثريا، وهو دائري الشكل تنتهي قاعدته بشكل قمم مقعور (اللوحة رقم ١٠). وقد ملأ الفنان كافة الأشرطة النحاسية المكونة للأطباق وكرسي الثريا بزخارف نباتية قوامها مراوح نخيلية مزدوجة وأخرى منفردة نفذت جميعها بطريقة التخريم وتتشابه الزخارف النباتية مع أمثلتها الموحدية وبخاصة في الزخارف التي تزدان بها الثريا الموحدية الكبيرة المعلقة في القبة الخامسة من بلاطة المحراب، وكذلك في الزخارف النباتية التي نفذت في الجص على نوافذ صومعة جامع الكتبية<sup>(٥٧)</sup> (لوحة رقم ١٠).

أما إطار فوهة الناقوس الخارجية فقد توجهها بإطار من النحاس مشرشر الشكل زخرف سطح الإطار الخارجي بزخارف هندسية محزوزة، ويعلو قمة الثريا ثلاث تفاصيل متدرجة في السعة أكبرهم السفلي وأصغرهم العلوي وقد شغل الفنان أسطحهم الخارجية بتضليعات وتهشيرات. (لوحة رقم ١٠).

وتعد هذه الثريا من ضمن الثريات الموحدية برغم من تعرضها إلى أعمال ترميم فقدت من خلالها نقوشها الكتابية الموحدية، ولكن يمكن مقارنة عناصرها الزخرفية بالثريتين الموحديتين اللتين مازالتا تحتفظان بنقوشهما الكتابية المتضمنة اسم الخليفة الناصر الموحدي وكذلك ألقابه حيث يقرأ على إطار الثريا التي أمر بصنعها الخليفة الإمام، أمير المؤمنين، أبو عبدالله بن الخليفة الإمام المنصور، أمين المؤمنين، أبو يوسف ابن الخلفاء الراشدين أدام الله تأييدهم ونصرهم<sup>(٥٨)</sup>.

والنص السابق يوضح العبارات التي كانت تضمها النصوص التأسيسية في زمن الموحدين وألقابهم مثل أمير المؤمنين، والخلفاء الراشدين.

## الثريا السادسة

تقع هذه الثريا في القبة العاشرة الواقعة خلف العنزة مباشرة (شكل رقم ١). وتتكون من بدن الناقوس الذي شغله الفنان من الخارج بأربعة إطارات توازر جميعها بدن الناقوس من الخارج، وهي على هيئة متدرجة في السعة أكبرها الإطار السفلي وأصغرها الإطار العلوي (لوحة رقم ١١) وقد صنعت الثريا من ناقوس صغير الحجم، إذ يبلغ سعة فوهته ٥٨ سم تقريباً (٥٩).

وقد يبدو على المظهر الخارجي للثريا بأنها قليلة الارتفاع، وذلك نتيجة شغل الفنان بدن ناقوسها الخارجي بأربعة إطارات القوارير في حين شغلت النواقيس السابقة بثلاثة طوابق فقط (لوحة رقم ١١).

وقد شكل الفنان إطارات الطوابق من شرفات نحاسية صغيرة مدببة الشكل يرتكز على قمعتها سنادات صغيرة تركب عليها القوارير، أما فوهة الناقوس فقد سدت بطبق نحاسي يتوسطه كرسي الثريا الذي تحتوي قاعدته على أربعة برايق صغيرة (لوحة رقم ١١). وقد زخرفت جميعها بأشرطة نحاسية تحتوي على نقوش نفذت بالتخريم.

## الثريا المعلقة داخل باب الشماعين (٦٠)

تقع هذه الثريا في سقف دخلة باب الشماعين الواقع في الضلع الغربي من الجامع وتتكون الثريا من بدن الناقوس الذي يبلغ اتساع قطر فوهته ٦٧ سم تقريباً (٦١)، وتتشابه هذه الثريا إلى حد كبير مع الثريا الثالثة المعلقة في القبة السابعة (لوحة رقم ٥، ١٢).

وقد شغل الفنان بدن الناقوس بثلاثة إطارات شكل كل إطار من قطع نحاسية صغيرة ذات حافة مشرشرة وهذه القطع أكثر تطوراً من شرفات إطارات الثريا الثالثة والثريا السادسة (لوحة رقم ٥، ١٠، ١٢).

أما فوهة الناقوس فقد سدت بطبق نحاسي مجمع من أجزاء صغيرة ويتوسط

الطبق من أسفل كرسي الثريا، وهو دائري الشكل ثبتت في قاعدته أربعة مسامير على هيئة برايق صغيرة (لوحة رقم ١٢).

وقد شغل الفنان كافة أجزاء الثريا بدءاً من الشرفات التي تتوج حافة طوابقها الثلاثة وكذلك الطبق والكرسي النحاسي بأشرطة نحاسية تحتوي على نقوش زخرفية بعضها مكون من عناصر نباتية والبعض الآخر مكون من عناصر هندسية نفذت جميعها بطريقة التخريم (لوحة رقم ١٢).

كما تحتوي الثريا على نقوش كتابية نقشت في قاعدة الطبق تتضمن «البسمة ثم التصلة» وبأسفلها نقشت عبارات تقرأ: «العزة لله، والعظمة لله ولرسوله، وعلى كرسي الثريا نقشت عبارة تقرأ: «الملك لله، العزة لله ولرسوله» وهذه العبارات تتفق مع العبارات الدينية التي شاع استخدامها في العصر الموحيدي<sup>(٦٢)</sup>، سواء العبارات التي نقشت على وجهات العائز أو التحف المنقولة (شكل رقم ٢، ٣، ٤، ٥) وبأعلى الثريا ركبت أربع تغافيح أكبرها السفلى وأصغرها العليا، نقشت على سطوحها زخارف دقيقة (لوحة رقم ١١).

### ثريا الناقوس بجامع تازي:

يحتفظ جامع تازي الواقع بمدينة تازي المغربية بناقوس من الحجم الصغير معلق بالبلاطة الوسطى بظلة القبلة في الزيادة المربنية بجامع تازي، والناقوس ربما يكون منقولاً من جامع القرويين حيث لم تذكر المصادر التاريخية شيئاً عن هذا الناقوس وقد قمت بفحصه أثناء زيارتي العلمية هناك، وتبين لي أن الإطارات النحاسية المسطحة والتي ظهرت لأول مرة على بدن ناقوس بهذا الشكل تحوي بداخلها زخارف نباتية قريبة الصلة بالزخارف المربنية وبخاصة التي توجد على إطارات الثريا الكبيرة<sup>(٦٣)</sup> بنفس الجامع (لوحة رقم ١٤، ١٥، ١٦).

وتتكون الثريا من بدن الناقوس الذي يبلغ اتساع فوهته ٤٤ سم تقريباً (لوحة رقم ١٤).

ويحتوي بدن الناقوس على ثلاثة إطارات أكبرها السفلي وأصغرها العلوي ، وتطوي حافة الإطارات من الخارج على حلقات دائرية كانت تستخدم قديماً في حمل قرارير الزيت ، أما الآن فقد استبدلت بإضاءة حديثة وضعت على سطح الإطارات من أعلى (لوحة رقم ١٤) .

وقد زخرفت كافة الإطارات النحاسية بزخارف نباتية نفذت بالتخريم قوامها عناصر نباتية مكونة من مراوح نخيلية مزدوجة وأخرى مكونة من أنصاف المراوح (شكل ٦) وقد ربط بين كل مروحة كاملة بسيقان رفيعة بحيث تعطي شكل عام عبارة عن شبكة من السيقان المعقدة بتخللها تلك المراوح وهو أسلوب شاع استخدامه منذ عصر المرابطين والموحدين<sup>(٦٤)</sup> بعد ذلك ، (لوحة رقم ١٤) .



وبعد العرض السابق لمجموعة التحف المعدنية للثريات المصنوعة من النواقيس والتي يزدان بها كل من جامع القرويين والأندلسيين والتي تعد من ضمن التحف المغربية ذات القيمة الكبيرة التي لم يفرد لها دراسة مستقلة حتى كتابة هذا البحث بالرغم من قيمتها الأثرية والحضارية والتي تشكل في مجموعها مجموعة نادرة لما تحويه أولاً نوعيتها وكذلك لما تتضمنه من عناصر زخرفية نباتية وهندسية، وأيضاً نقوش كتابية لها دلالتها.

وقد قمت بدراسة هذه المجموعة من خلال مقارنة عناصرها الفنية ونقوشها الكتابية مع أمثلتها المتشابهة معها في محاولة لتحديد فترة صنعها، وقد أفادت تلك الدراسة في إلقاء الضوء على هذه المجموعة وإبراز دور الفنان والصانع المغربي ووضوح قدرتهما الفائقة على تحويل تلك النواقيس إلى ثريات مع التزامه الكامل باستخدام كافة الطرق المستخدمة في صناعة الثريات الأخرى

وكذلك حفاظه على استخدام كافة العناصر الزخرفية والنقوش الكتابية والطرق المتبعة في تنفيذها مما يصعب على الناظر لها التعرف على هيتها الأولى إلا بعد صعوبة بالغة، كما تكمن أهمية دراسة هذه الثريات في كونها تضيف إلى رصيد التحف المعدنية المغربية مجموعة جديدة متكاملة العناصر استخدم فيها الفنان والصانع المغربي كافة الأساليب الفنية المختلفة من حفر وحز وتخريم وتكفيت وغيرها.

وهي نفس الأساليب التي برع فيها الفنان المغربي في النقش على الخشب والجص والحجر والتي على أساسها وصل الفن الزخرفي المغربي إلى قمة الفنون الإسلامية من حيث الدقة في التنفيذ والبراعة في اختيار التكوينات الزخرفية.



### «الهوامش والتعليقات»

(١) محمد عبدالعزيز مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت، دار الثقافة، د. ت، ص ١٧١.

(٢) مرزوق، ص ١٧٢.

(٣) تقوم زخرفة التحف المعدنية على الحز «Scratching» وعلى الحفر «Engraving» وعلى التخريم «Piercing» وعلى التطعيم «Inlaying» أو بواسطة الطرق «Beating» أو بواسطة القالب «Moulding».

(٤) كان يوجد بجامع القرويين ثريا كبيرة ترجع إلى عهد الزننبيين وقت أن قاموا بتجديد عمارة المسجد وعمل المذنة التي مازالت قائمة إلى اليوم، ولكن تلك الثريا قد نداعت مما جعل الخليفة الناصر الموحدي إلى استبدالها بالثريا الكبيرة الموجودة الآن معلقة في القبة الخامسة من بلاطة الحراب.

(٥) أحمد بن القاضي الكناس: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، المغرب، الرباط، دار المنصور للطباعة، ١٩٧٣م، ص ٦٩.



- (٦) محمد بن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق الدكتور ماريخيسوس بيغيرا، الجزائر، المكتبة الوطنية، ١٩٨١م، ص ٤٠٢.
- (٧) محمد محمد الكلاوي: العمارة الإسلامية في الغرب الإسلامي، عمائر الموحدين الدينية في المغرب، رسالة الدكتوراه غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٧، ص : ٤٩٠.
- (٨) علي الجزنائي: جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، الرباط، المطبعة الملكية، ١٩٦٧م، ص ٧٩.
- (٩) الجزنائي: ص ٧٩.
- (١٠) الجزنائي: ص ٩٤.
- (١١) يقع هذا الجامع برباط تازي شيدته الخليفة عبد المؤمن ٥٢٩هـ وكان يتكون من صحن وثلاث ظلات أكبرها ظلة القبلة وكانت تعلوه ثلاث قباب موزعة على أسكوب الحراب، وقد وسع الجامع في عهد المرينيين وأدخلت عليه إضافات كثيرة. انظر السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير - القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦م، ص ٨٣٩.
- (١٢) علي بن أبي ذرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور للطباعة، ١٩٧٣م، ص ٤٠٩.
- (١٣) قام أستاذنا الدكتور عبد الهادي التازي، بنشر هذه المجموعة، وهو يعد الوحيد الذي كتب عن ثريات الأجراس.
- انظر: عبد الهادي التازي: أحد عشر قرناً في جامعة القرويين، المغرب، طبعة وزارة التربية الوطنية، ١٩٦٠م، ص ١٩. وانظر لنفس المؤلف جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس، ثلاثة أجزاء، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٣م، جـ ٢، ص ٣٢٩-٣٣٠. وانظر الحروف المنقوشة بالقرويين في خدمة الآثار - مقالة في كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة، ١٩٧٩م، ص ٢٧٤.
- (١٤) يحتفظ المتحف الوطني بمدريد بثريا صنعت من ناقوس، وهي معلقة في القسم الإسلامي من المتحف، وللأسف لم يتمكن من فحص الثريا للتعرف على نوعية النقوش التي تحملها، ولكن يبدو من خلال الشكل الخارجي للثريا أنها صنعت من ناقوس صغير وإطارات الثريا لم يبق منها إلا إطارين ويقال إن تاريخ هذه الثريا ينسب إلى المنصور بن أبي عامر.
- (١٥) ذكر الأستاذ عبدالله عنان أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أمر جنده المحاصرين لمدينة وبدة بالرحيل وأن يقوم مقدم الدواب بشحن النواقيس التي أخذت من الكنيسة من وبدة. انظر محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، جزأين، القاهرة، لجنة التأليف والنشر، ١٩٧٤م، ق ٢، ص ٧٩.
- (١٦) عبدالله بن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة

وجعلهم الوارثين، تحقيق عبدالهادي التازي، بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٤م، ص ٤٩٦.

(١٧) الجزناني: ص ٧٩.

(١٨) أبو العباس أحمد بن خالد النصاري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر

ومحمد النصاري، ٨ أجزاء، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٤م، ج ٣، ص ١٢٠.

(١٩) الجزناني: ص ٧٥.

(٢٠) الجزناني: ص ٧٥.

(٢١) يذكر د. عبدالعزيز مرزوق أن النواقيس التي غنمها المسلمون في غزواتهم بالأندلس والتي

كانت في جامع القرويين، قد صهرت واستحالت بعد الصنعة إلى ثريات مرزوق: ص ١٦٩،

وفي الحقيقة لم أعثر على إشارة تفيد ذلك في المصادر، أو في المراجع الحديثة، كما أنه لم

نصهر النواقيس لتصنع ثريات، والدليل الوحيد على ذلك يوجد في مجموعة ثريات النواقيس

الباقية، حيث إن بدن الناقوس مازال كاملاً والتغيير يتم بالإضافة وليس بالصهر.

(٢٢) الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف أفريقيا، جزأين، ترجمة محمد حجي ومحمد

الأخضر، الرباط، منشورات الجمعية المغربية، ١٩٨٠م ج ١، ص ١٧٧.

(٢٣) مارمول كريخال: أفريقيا- جزأين، ترجمة مجموعة باحثين، الرباط، الجمعية المغربية

للتأليف والترجمة، ١٩٨٨م، ج ٢، ص ١٤٦.

(٢٤) البلاطة هي المساحة المحصورة بين صفين من البوائك تكون مسار عقودها عمودية على

جدار القبلة وغالباً ما يميز المعمار البلاطة الوسطى بأن يجعلها تفتح على المحراب كما يجعلها

أكثر اتساعاً من باقي بلاطات المسجد.

(٢٥) يعد الفن الإسلامي هو الوحيد الذي اختص بنوع من الزخارف الهندسية هي ما اصطلاح على

تسميتها بالأطباق النجمية «Star Pattern» وقد ظهرت التكوينات الأولى للطبق النجمي في

القرن ١٢/٥٦م وطريقة تنفيذه تتم عن طريق تجميعه من ثلاثة عناصر أساسية هي الترس،

واللوزة، والكندة: انظر فريد شافعي: العمارة الإسلامية، المجلد الأول، عصر الولاة،

القاهرة، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، ١٩٧٠، ص ٢١٩.

(٢٦) التازي: جامع القرويين، ج ٢، ص ٣٢٩.

(٢٧) التازي: جامع القرويين، ج ٢، ص ٣٣٠.

(٢٨) سورة النور، الآية ٣٥

(٢٩) التازي: جامع القرويين، ج ٢، ص ٣٢٩.

(٣٠) التازي: جامع القرويين، ج ٢، ص ٣٢٩.

(٣١) سورة آل عمران الآية رقم ٩٦ ..

(٣٢) التازي: جامع القرويين، ج ٢، ص ٣٢٩.

(٣٣) التازي: جامع القرويين، ج٢، ص ٣٢٩.

(٣٤) سورة الإخلاص.

(٣٥) قضت أعمال الترميم والتجديد التي ألحقت بثريات النواقيس بجامع القرويين على معظم نقوشها الزخرفية والكتابية حيث كانت تستبدل الإطارات النحاسية القديمة التي كانت غالباً ماتتضمن نقوش كتابية ترجع إلى وقت تصنيع الناقوس إلى ثريا، ومن أمثلة ذلك النقوش الكتابية التي كانت على ثريا الناقوس المعلقة بالقبة الثامنة والتي ترجع إلى العصر المريني.

(٣٦) يقع هذا الجامع بمدينة تتمثل على بعد ٨٠ كم من مراكش، وهو يعد من أول المساجد الموحدية، ويتكون المسجد من صحن أوسط وثلاث ظلات أكبرها ظلة القبلة. ويعطو أسكوب المحراب ثلاث قباب موزعة على امتداده، وقد شيد هذا الجامع في أول الأمر المهدي بن تومرت، ثم أعاد الخليفة عبد المؤمن بنائه سنة ٥٤٣هـ/١١٤٣م.

الكللاوي: ص ١٥٢.

(٣٧) يقع هذا المسجد بمدينة مراكش، شيده الخليفة عبد المؤمن بن علي الموحدي عام ٥٥٣هـ، وكان يتكون من مسجدين إلا أن المسجد القديم تداعت معظم أجزائه ولم يبق إلا المسجد الثاني الذي يرجع عهده إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، وتكوينه المعماري مكون من صحن وأربع ظلات أكبرها عمقاً واتساعاً ظلة القبلة، ويغطي أسكوب المحراب خمس قباب، أما الصومعة فهي من أعمال الخليفة يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن.

انظر: الكللاوي، ص ٢٠٠.

(٣٨) شاع في العصر الموحدي استخدام عبارات دينية ظهرت بوضوح على العماائر الدينية والتحف الفنية، ومن أهم تلك العبارات «العزة لله» و «الملك لله» وعبارة «لا إله إلا الله» وعبارة «الحمد لله»، وكانت هذه العبارات تنفذ دائماً داخل تكوينات زخرفية، ومن أمثلتها عبارتي «الحمد لله» و «العزة لله» التي تشاهد بوضوح على نوافذ صومعة جامع الكتبية وعلى صومعة جامع قسبة مراكش كعبارة «الحمد لله»، «الملك لله»، «العزة لله» وعلى النوافذ الجصية أسفل قبة المحراب بجامع تتمثل كتبت عبارة «الحمد لله» و «لله الملك» وعبارة «العزة لله». انظر:

Deverdum (G) Inscrptions-Arabs Marrakech Edition Techniques ord  
Africain-Rabat, 1956, p. 15

وانظر:

Basset et Terrasse : Sanctuaires et Forteresses Almohades-Paris, 1932. p.  
189.

أما العبارات التي وجدت على التحف النقولة الموحدة أهمها العبارات التي نقشت على الثريتين

المعلقين بجامع القرويين والأندلسيين واللتين مازالتا تحتفظان بنقوشهما الموحدية، متضمنة اسم الخليفة الناصر، ومن أهم العبارات التي وردت عليهما عبارة: «العظمة لله»، و «العزة لله»، واللتان نفذتا بالحفر بالخط الكوفي على إطار ثريا جامع القرويين، أما العبارات التي وجدت على ثريا جامع الأندلسيين فهي تحتوي على عبارة دعائية تقرأ: «أدام الله تأييدهم ونصرهم». انظر:

Terrasse L a Mosquee de Fas. P77.

والكللاوي. ص ٤٣٤.

ومن الجدير بالذكر أن مثل هذه العبارات قد نقلت إلى مصر من المغرب مع الفاطميين، ومن أهمها عبارة: «العزة لله» و «المالك لله» التي ظهرت لأول مرة في مصر على منذنة جامع الحاكم ٤٠٣هـ: ١٠١٢م، كما ظهرت بعد ذلك في كوشات العقود بضريح الإمام الشافعي ٦٠٨هـ/ ١١٢١م، ثم استمرت بعد ذلك في العصر المملوكي. انظر:

Farid (SH) West Islamic Influences on Architecture in Egypt. (before Turkish period)

Reprint From the Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University  
VOL.XVI part 11, Decamber 1954, p.p 25-26.

(٣٩) وردت على التحف المعدنية الأندلسية عبارات مختلفة عن العبارات التي توجد على التحف المعدنية المغربية، ومن أهم العبارات الدعائية التي وردت على التحف الأندلسية كلمة «البركة» و «الغبطة» أو عبارة «بركة من الله الأحد»، أو عبارة «لا غالب إلا الله» وظهرت على التحف الزجاجية المصنوعة من البلور الصخري والمنسوبة إلى الأندلس أيضاً عبارات كاملة مثل «بركة من الله وسعادة لصاحبه» أو عبارة «بركة من الله» انظر مانويل جوميت موريتو: الفن الإسلامي في أسبانيا، ترجمة د. لطفي عبدالبديع ود. السيد عبدالعزيز سالم، القاهرة الدار المصرية للتأليف والنشر، ص ٣٩٩-٤١٠.

(٤٠) التازي: جامع القرويين ج ٢، ص ٣٣٠.

(٤١) الجزنائي: ص ٧٥.

(٤٢) القطار هو وحدة موازين تساوي من حيث الأساس ١٠٠ رطل، وإذا أطلق اسم القطار على كمية كبيرة من الذهب فيكون المقدار = ٤٢,٢٣ كغم، والقطاير المغربية حيثما وجدت تحسب بمضاعفة أوزان الأبطال المتوافقة معها مئة مرة، أما وزن القطار في المغرب فهو يساوي ٦٧,٨١ كغم.

انظر فالترهس: الكايل والأوزان الإسلامية ومايعادلها في النظام المتري ترجمة د. كامل العسيلي-عمان، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠م ص ٤٠-٤٣.

(٤٣) الجزنائي: ص ٧٥-٧٦.

- (٤٤) الجزنائي: ص ٧٦.
- (٤٥) التازي: جامع القرويين، ج٢، ص ٣٣٠.
- (٤٦) سليمان مصطفى زيس: القبة التونسية، مقالة منشورة في كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، القاهرة، المنظمة العربية، ١٩٧٩م، ص ٩٦-١٠٠-١١٠.
- (٤٧) فريد شافعي: العمارة العربية الإسلامية، ماضيها، حاضرها، مستقبلها، الرياض، منشورات عمادة شئون المكتبات، ١٩٨٤م، ص ١٨٧.
- (٤٨) الجزنائي: ص ٧٥.
- (٤٩) التازي: جامع القرويين، ص ٣٣٠.
- (٥٠) حول التعريف بلقب أمير المؤمنين، انظر حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٦٧م، ص ١٩٤.
- (٥١) ومن لقب ناصر الدين، انظر الباشا، ص ٥٣٢-٥٣٣.
- (٥٢) الجزنائي: ص ٧٥.
- (٥٣) الجزنائي: ص ٧٥-٧٦.
- (٥٤) سورة النور- آية رقم (٣٥).
- (٥٥) سورة غافر- آية رقم (٦٤).
- (٥٦) التازي: الحروف المنقوشة، ص ٢٧٤.
- (٥٧) الكحلوي، ص ٤٦١-٤٦٢.
- (٥٨) يتضمن النقش الكتابي على الثريا الموحدية لجامع الأندلسيين نصاً منقوشاً على إطار الثريا يقرأ: «هذا ما أمر به الخليفة الإمام، أمير المؤمنين أبو عبدالله، الخليفة الإمام المنصور، أمير المؤمنين أبو يوسف ابن الخلفاء الراشدين أدام الله تأييدهم ونصرهم».
- انظر (H) Terrasse La Grand Mosque de Andalous Afes-Paris. p. 77.
- (٥٩) التازي: جامع القرويين، ج٢، ص ٣٣٠.
- (٦٠) يعد باب المشاعين أحد أبواب جامع القرويين الشهيرة، نسبة إلى السوق الواقع أمامه الذي كان يباع فيه قديماً الشمع.
- (٦١) التازي: جامع القرويين، ج٢، ص ٣٣١.
- (٦٢) الكحلوي: ص ٤٩٣-٤٩٤.
- (٦٣) (H) Terrasse La Grand Mosque de Taza-Paris p. 28.
- (٦٤) انظر توريس بلياس: الفن المرابطي والموحدي، ترجمة. سيد غازي، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٧٦م، ص ١٤٣.

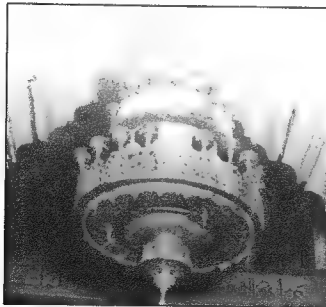




لوحة رقم ( ١ )

البلاطة الوسطية بظلة القبلة بجامع القرويين وصورة توضع صف من ثريات النواقيس معلقة بأسقف قباب البلاطة.

« عن التازي »



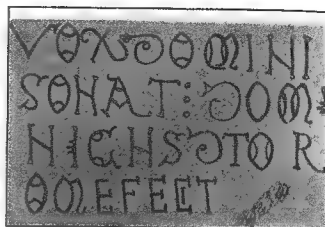
لوحة رقم ( ٢ )

ثريا الناقوس الأول وقد عُلقت  
بسقف القبة الرابعة من جهة  
المحراب بالبلاطة الوسطية.

« عن التازي »



لوحة ( ٣ )



لوحة ( ٤ )

ثريا الناقوس الثاني المعلقة بسقف القبة السادسة ببلاط  
المحراب مع تفصيل للكتابات اللاتينية المنقوشة عليها.  
« عن التازي »



لوحة ( ٥ )

ثريا الناقوس الثالث المعلقة بسقف القبة  
السابعة ببلاط المحراب وتفصيل  
لمصفوف الشرفات التي تتوج إطارات  
الطوابق.

« عن التازي »



#### لوحة ( ٧٠٦ )

ثريا الناقوس الرابع المعلقة بسقف القبة الشامنة من جهة  
المحراب وتفاصيل للأذرع التي ركبت على بدن الناقوس  
بطريقة راسيا ، مع تفاصيل أخرى للنقوش الكتابية اللاتينية  
القديمة المنقوشة على بدن الناقوس.

« عن النازي »



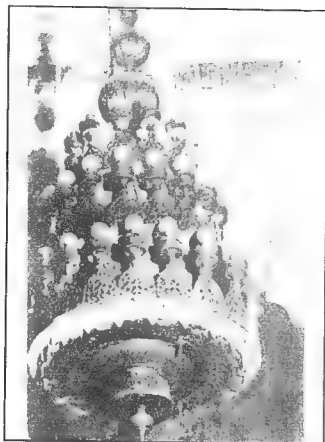


لوحة ( أ )

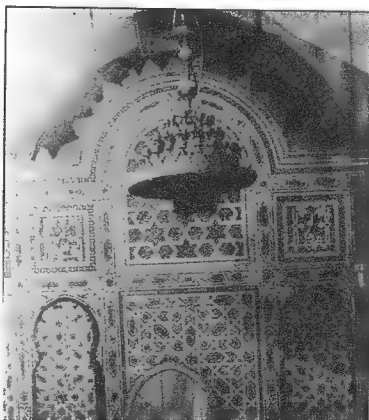
ثريا الناقوس الرابع المعلقة بسقف القبة  
الشامنة ببلاطة المحراب وتفصيل للطبق  
النحاسي المنقوش بالتخريم والذي يعلق  
على فوهة الناقوس من أسفل.  
« عن التازي »



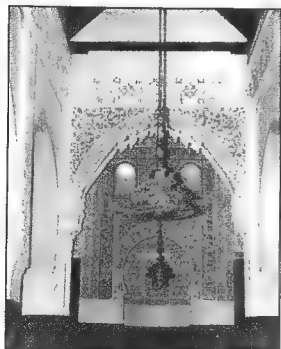
لوحة ( ب )



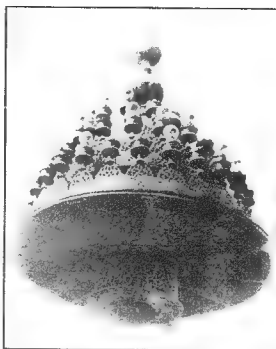
لوحة ( ١٠ )  
ثريا الناقوس الخامس  
المعلقة بسقف القبة  
التاسعة ببلاطة المحراب  
من جهة العترة  
« عن التازي »



لوحة ( ١١ )  
ثريا الناقوس السادس المعلقة  
بسقف القبة العاشرة الواقعة خلف  
العترة.  
« عن التازي »



لوحة ( ١٣ )

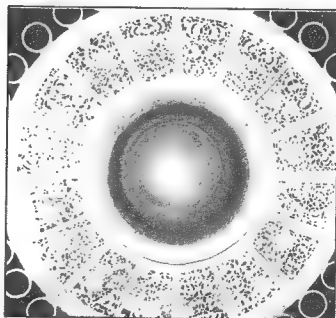


لوحة ( ١٢ )

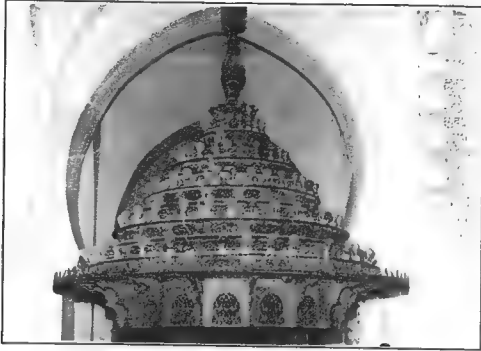
ثريا الناقوس السابع المعلقة بسقف دخلة باب  
الشماعين بجامع القرويين  
« عن التازي »

لوحة ( ١٤ ، ١٣ )

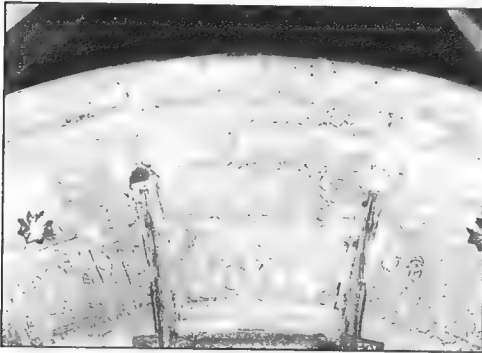
جامع تازي وتفصيل من ثريا الناقوس  
المعلقة بسقف بلاطة المحراب بظلة القبلة  
مع تفاصيل أخرى لفوهة الناقوس من  
أسفل والإطار النحاس المنقوش بالتخريم.  
« عن الباحث »



لوحة ( ١٤ )



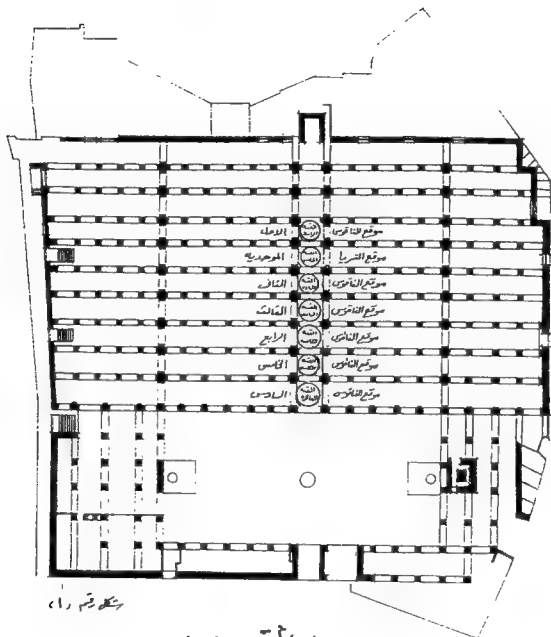
لوحة ( ١٥ )



لوحة ( ١٥ )

جامع تازي وصورة توضع حجم الشرا المرينية الكبيرة مع تفاصيل للإطارات النحاسية  
المنقوشة بزخارف نباتية وهندسية ونصوص كتابية.

« عن الباحث »



مسجد القرويين

«لغة ماعربية والكولوى»

مسقط أفقى



مقياس الرسم ١:٥٠٠



صومعة الكتبية شكل ( ٢ )

تفريغ لزخرفة كتابية بالخط الكوفي تقرأ «الملك  
لله» في الجهة الجنوبية الغربية  
«عن تيراس»



صومعة الكتبية شكل ( ٢ )

تفريغ فزخرفة كتابية بالخط الكوفي تقرأ «العزة  
لله» في الجهة الجنوبية الغربية  
«عن تيراس»



صومعة الكتبية شكل ( ٥ )

تفريغ لدخلة معقودة على الواجهة الشمالية  
الغربية يعلوها كتابة بالخط الكوفي تقرأ  
«العزة لله».

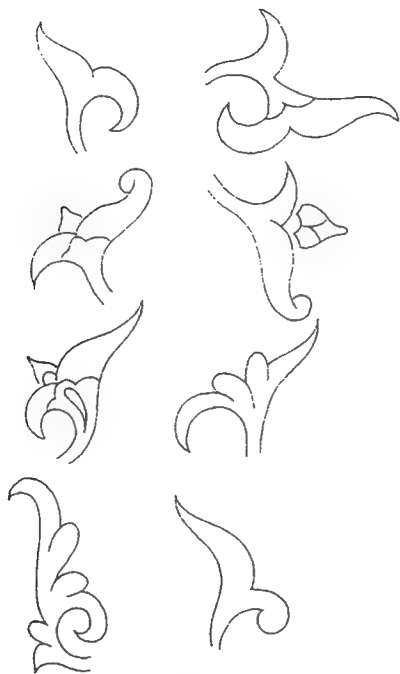
«عن تيراس»



صومعة الكتبية شكل ( ٤ )

تفريغ لدخلة معقودة على الواجهة الجنوبية  
الشرقية يعلوها كتابة بالخط الكوفي تقرأ «الملك  
لله».

«عن تيراس»



صومعة الكتبية شكل ( ٦ )  
تفريعات لأشكال المراوح النخيلية المزدوجة

«الباحث»

# حول كرم حاتم الطائي

## « دراسة في قصيدة »

د. الصلوك عمار الصلوكي

مجلد

ليس من المجدي بعد هذا الإنتاج الغزير في المسائل النظرية حول صحة قصيدة ما من قصائد الشعر الجاهلي، المضي على المنهج نفسه دون إضافة أو توسع في قضاياها المعروفة، خاصة بعد هذه الجهود الكبيرة في تحقيق النصوص والحديث عن روايتها وطابعها الفني.

وسوف نعود هنا إلى معالجة قضية تحتاج إلى نظرة أخرى غير ما كنا نعهد في قراءتنا السابقة لبعض قضايا الفكر القديم. إنها قضية الكرم الجاهلي، وذلك من خلال دراسة القصيدة الميمية للشاعر الجاهلي حاتم الطائي. إذ قد راج كثيراً أن الكرم الجاهلي كرم فرضته البيئة، فهو استجابة للحاجة والمنفعة، وليس أمراً متأسلاً في الذات التي عبرت عنه. ومن خلال تحليل القصيدة سنحاول الربط بين علاقاتها المختلفة لاستجلاء عناصرها الأساسية ومقوماتها الفكرية.

ومن أجل التعرف على القصيدة<sup>(١)</sup> في ضوء هذه المقدمة منقسمها إلى أقسام أربعة

هي:

- ١- المقدمة الطللية.
- ٢- النسب.
- ٣- حاتم يتحدث عن نفسه.
- ٤- الصلوك.



ونبدأ أولاً بمطلعها :

## ١ - المقدمة الطللية :

يقول :

أُتْعِرَفْ أَطْلَالاً وَنُؤِيَا مَهْـدَمَا      كَخَطْكَ فِي رَقِّ كِتَابِنَا مِنْـمَنَّمَا  
أَذَاعَتْ بِهِ الْأَرْوَاحُ بَعْدَ أَنْيَسِهِ      شَهْـوَرَاً وَأَيَّامَاً وَحَوْلَاً مَجْرَمَا  
دَوَارِجٌ قَدْ غَيَّرْنَ ظَاهِرَ تَرْبِهِ      وَغَيَّرَتْ الْأَيَّامُ مَاكَانَ مَعْلَمَا  
وغيرها طول التقادم والبلى      فَمَا أَعْرِفُ الْأَطْلَالَ إِلَّا تَوْهُمَا

يبدأ حاتم قصيدته بالموقف المعروف عند الشعراء الجاهليين وهو ما يعرف بالمقدمة الطللية التي قال عنها ابن قتيبة: «إن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار، والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربيع واستوقف الرفيق...» (٢)

إنه يصور ما اعتاد الشعراء تصويره في مقدماتهم، فجد بعض عناصر تلك المقدمة وهي: ١ - الأطلال. ٢ - النؤي. ٣ - الرياح. ويأتي ضمنها تشبيه الأطلال بالكتابة، وحركة الرياح في الأرض. وتكون النتيجة عدم معرفة الديار من أثر عوامل التعرية التي تجتاحها. والملاحظ هنا أننا افترضنا من تلك المقدمة: الأمطار التي كثيراً ما صاحب الرياح. ومن ناحية أخرى، فإن المنظر يبدو جافاً جامداً، يقف الشاعر إزاءه وقفة جامدة. ولعل ذلك يفسر سبب خلو الأبيات من ذكر الأمطار أو أي شيء آخر يشير الحياة غير النؤي المهدم. كما يبدو أن المنظر صحراوي لم ينعم بالري والخصوبة، وهذا واضح من البيت الثالث: «دوارج قد غيرن ظاهر تربه». إن الجفاف في هذه الأبيات يشكل فيها قوة مؤثرة: فالأرض أصبحت الآن موحشة «بعد أنيسها». إذ كانت في الماضي البعيد «شهوراً وأياماً وحولاً مجرماً» تستقبل الساكنين ويأتون إليها، ولعل هذه الأرض كانت مرعى خصباً ينبت فيه المرعى بفعل الأمطار، ولذلك اختفت المياه فيها الآن، ومن ضمنها الأمطار، كما اختفت وسائل الحياة الأخرى قبل ذلك.

ولكن هل تشكل هذه الأبيات شخصية فريدة متميزة عن غيرها من شخصيات عند الشعراء الآخرين أو حتى عند الشاعر نفسه؟ إن المقدمة الطللية أمر معروف متداول في غالبية القصائد الجاهلية ذات النمط الطويل، أي الطويل نسبياً ومجئها بهذه

الصورة يجعل من الصعب تحديد نسبتها إلى شاعر معين خاصة، عند بترها من بقية القصيدة. وإذا نظرنا إلى القصائد الماثلة عند الشاعر، فإن الديوان كله كاد يخلو من المقدمة الطللية، ولا يوجد به إلا بيتان هما :

لم ينسني أطلال ماوية ناسي

ولا أكثر الماضي الذي مثله ينسي

إذا غربت شمس النهار وردتها

كما يرد الظمان آبية الخمس<sup>(٣)</sup>

وقوله :

أرسماً جديداً من نوار تعرف

تسائله إذ ليس بالدار موقوف<sup>(٤)</sup>

وليس هناك وجه شبه بين الحالة التي تصفها الأبيات الأولى، والحالات التي تصفها هذه الأبيات، إذ تُشعر الأطلال في البيتين الأولين بكونها أرضاً مخصبة رحل أهلها عنها، ولعل هذا قد استدعى الاسم «ماوية» مرتبطاً بالماء.

وعلى العموم، فقد كان الأداء في كلتا الحالتين مختلفاً الواحد عن الآخر، ولكنه يعجز عن أن يطلعنا على لمسات خاصة تعين على استنباط شخصية القائل أو تميزها عما يشابهها. وهذا على عكس الموقف الشخصي الذي ندركه عند قراءة معلقة امرئ القيس أو لبيد. ولذلك، فلا مشاحة من الاعتماد على أقوال الرواة في نسبة هذه الأبيات إلى حاتم على أنها جزء من قصيدته. وإذا كان لابد من محاولة إيجاد تعليل ينسب المقدمة بالقصيدة، فهو أن حاتم ترك ذكر الأمطار متعمداً، لأن كرمه هو ينوب عن الأمطار رمز الخير والعطاء، ولأنه حينما جاء بها على تلك الصورة من الجفاف، كان يركز بطريقة أخرى على كرمه وسخائه، وبذلك تصبح تلك الأبيات جزءاً حقيقياً من القصيدة، متصلاً بالأجزاء الأخرى التي راح يؤكد فيها على ذلك الكرم، ومع ذلك تظل خالية من الإحساس المباشر الذي نجده في مثل قول امرئ القيس :

## كأنّي غداة البين حين تحمّلوا

لدى سمّرات الحي ناقف حنظل<sup>(٥)</sup>

والى جانب ذلك، فورود القصيدة، بهذه الصورة الطليّة. لا يترك مجالاً للقول بأنها موضوعة، لأنها عكست تقريباً الاتفاق العام لدى الباحثين حول المقدمة الطليّة<sup>(٦)</sup>، أي أنها تتفق مع الإطار العام المعروف عند الجاهليين.

وتتّصف أيضاً بـ "التماسك" إذ لا يجد الدارس فيها خلخلة أو اضطراباً من ناحية اللغة أو التراكيب، ولو أنها كانت منحولة، لدخلت فيها آثار إسلامية، ولسايرت، الاتجاه العام في شعر هذه الفترة.

هذا إضافة إلى أن مدلولها العام مدلول لا يشبه مدلول أية قصيدة في ديوان امرئ القيس أو الأعشى مثلاً. بل إن تماسكها اللغوي يجعلها متميزة حتى عن الأبيات الثلاثة المنسوبة له فيما سبق.

وربما أدى كل ذلك إلى ترجيح نسبتها إلى شاعر جاهلي أولاً، وقد يكون ذلك الشاعر حاتماً إذا أخذ في الاعتبار الناحية النفسية المشار إليها سابقاً، أي الجود والكرم في مقابل الجفاف .

### ٢ - النسب :

يرتبط النسب بالطلال ارتباطاً عضوياً، فما إن يتحدث الشاعر عن أماكن محبوبته، حتى ينتقل بطريقة أو بأخرى إلى وصف محبوبته. يقول حاتم :

ديار التي قامت تريك وقد خلت

وأقوت من الزوار كفا ومعصما

تهادى عليها حليها ذات بهجة

وكشأ كطيء السابرية أهضما

ونحرا كفاثور اللجين يزيّنه

توفد يا أقوت وشذراً منظما

كجمر الفضا هبت له بعد هجعة

من الليل أرواح الصبا فتبسما

## إذا انقلبت فوق الحشية مرة

ترنم وسواس الحلي ترنما

والغالب على التمسبب أن يصف الشعراء المظاهر المادية من المحبوبة وبالأذات أعضائها وتقسيماتها الجسدية، وما صاحب ذلك من أدوات زينة تستعملها المرأة. وكثيراً ما يستدعي - وهو شيء طبيعي - ذلك الوصف التطرق إلى تذكر نوع من العلاقة الجنسية المكشوفة بين الشاعر والمرأة، وهذا واضح في معظم الشعر الجاهلي، ماعدا حالات خاصة مثلما جاء في ثائية الشنفرى<sup>(٧)</sup>، ونوعاً ما في أبيات لعنترة<sup>(٨)</sup>. ولقد قامت دراسات جادة حول الموضوع<sup>(٩)</sup>. وانعكاس ذلك لا يخفى في هذه الأبيات، فصورة المرأة هي المرأة حسيماً مر أنفأ: «تريك .. كفا ومعصما»، «كشحا...»، «نحرا...»، وهناك العلاقة الجنسية المكشوفة: «إذا هي ليلاً حاولت أن تبسما»، «إذا انقلبت فوق الحشية ..»، ونجد ما يتعلق بالجسد من زينة: «حليها»، «ياقوت»، «شذرا منظما».

والمتلقي هنا أمام صورة لامرأة قد لا تختلف عن أية امرأة بدوية أخرى، بمعنى أننا أمام صورة تتوافق مع الكثير من الصور الجاهلية حول المرأة، دون أن تسعفنا الملاحظات بوضع أصابعنا على امرأة معينة ذات تخطيط خاص، ويظل الشاعر، وهو يرسم تلك الصورة، بعيداً عن أن يتفاعل معها. لقد كنا نتوقع من شاعر نبيل الأهداف والطامح أن يعبر عن نبل من نوع يقترّب فيه، على الأقل، من الشنفرى في وصف محبوبته، لا أن يقدمها امرأة جسدية خالصة. ولذلك يمكن أن يقال: إن حاتماً لا يصف امرأة أصلاً وإنما يصف قدراته المادية حين يلجأ إلى التصوير وإضفاء النعمة والرفاهية على تلك المحبوبة، كما يصف قدراته الشخصية في التمتع ببسر وسهولة مع ربّات المال والجمال. على الرغم من أن ديوانه لا يخلو من تلك الحالات النبيلة، مثل :

وما أنا بالماشي إلى بيت جارتى

طروفاً أحياها كآخر جانب<sup>(١٠)</sup>

وقوله:

وشر الصعاليك الذي هم نفسه

حديث الغواني واتباع المأرب<sup>(١١)</sup>

قوله :

وماتشكنيني جارتني غير أئنني

إذا غاب عنها بعلها لأزورها<sup>(١٢)</sup>

سبيلها خيرني ويرجع بعلها

إليها ولم يقصر عليّ ستورها

هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فإنه قال :

ديار التي قامت تريك وقد خلت

وأقوت من الزوار كفاً ومعصما

إذن للعبارتين «خلت/أقوت» دلالة معنوية ونفسية كبرى، فلقد كانت الديار عامرة بـ«أنيسها»، أي بهذه المرأة، وقد كانت هذه المرأة تنزل مع قومها تلك الأرض وهي خصبة صالحة للمرعى حين أنست بهم وأنسوا بها، أما الآن فهي (خالية/قاوية)، أي مقفرة قاحلة، ليس فيها أنيس ولا تصلح للمرعى .

وهكذا يمكن القول إن إضفاء الترف والبخ على المحبوبة في الماضي يقابله، الفقر والقط في الحاضر، فليس هنا الآن تلك الخصوبة وذلك الثراء المتمثل في لبس المجوهرات، بل هنا الفقر المحقق بالناس وبالطبيعة، وقد ظهر تأثير ذلك في الأطلال. فلقد زالت عن الأرض كل مظاهر الخصوبة التي تمثلت حيناً في الأطلال بزوال المياه، وحيناً آخر في التسيب بزوال المرأة - الأنثى، رمز الخصوبة والحياة! وبذلك ينسجم هذا التصوير مع عرض حالة الجفاف في المقدمة الطليقة. خاصة ونحن نصادف وصفاً يلتصق بالكرم في الصحراء، متمثلاً في إيقاد النار للأضياف ليلاً، وقد جاء هنا بطريقة لاشعورية في قوله :

كجمر النضا هبت له بعد هجعة

من الليل أرواح الصبا فتنسما

وعن طريق هذا الانسجام والتداخل بين الصورتين يمتد الخيط بينهما ليشكلا وحدة فنية من ناحية، ووحدة نفسية من ناحية أخرى، وبذلك يقوى الترابط بينهما، وتنتأرجح كفة نسبة هذه الأبيات إلى شاعر جاهلي مفرد .

ثم إذا اتضح أن بين هاتين الصورتين وبين بقية القصيدة تواشجا من نوع ما، قويت الاحتمالات بنسبتهما إلى حاتم الطائي. خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن «التماسك الدلالي والترابط المعنوي والفكري»، يظان مستمرين ههنا بالدق نفسه، وبالتوافق نفسه، من غير أن تلين اللغة أو يهتز التركيب. بل إن الجفاف المادي السابق، والصورة الجامدة هنا، متلازمان تلازماً وثيقاً. وإضافة إلى ذلك، فإن عرض هذه الأبيات الجامدة عن المرأة على أبيات من مثيلاتها في شعر الغزل الجاهلي، يرينا أنها لا تتداخل فيها بل تتقاطع، وهذا ما يعطيها شخصية خاصة ليست لغيرها على الرغم من استوائها المادي، ومن ذلك قول الأعشى في وصف محبوبته:

غراء فرعاء مصقول عوارضها

تمشي الهونيا كما يمشي الوجي الوحل

كان مشيتها من بيت جارتها

مر السحابة لاريث ولا عجل

تسمع للحلي وسواساً إذا خطرت

كما استعان بريح عشرق زجل

يكاد يصرعها لولا تشدها

إذا تقوم إلى جارتها الكسل

أما إذا نظرنا إليها باعتبارها جزءاً من التيار الشعري عند الشاعر نفسه، فإن شخصيتها تتضح أكثر قوة وبروزاً، إذ لا تشبه شيئاً مما في الديوان، وهذا يؤكد استقلاليتها وشخصيتها المفردة. وربما أصبح واضحاً الآن - أن هذا الشاعر، ولنفترض أنه حاتم، كان قد أعد هذه الأبيات حتى هذه اللحظات حسب تخطيط شعوري (أو لاشعوري، سيان)، يسير وفق تقليد خاص، ولكنه يسير أيضاً وفق تفاعل وتبادل بين الذات والموضوع.

إن احتفاظ الذاكرة بهذه الأبيات على هذه الصورة، يدفع المرء إلى الاطمئنان بأن جزءاً من الشعر القديم، قديم في طبيعته، وقد سلك إلى حد كبير من أيدي العبد والتزييف بسوء نية، أو من الخلط والتشويه بحسن نية، كما يدفع بالمرء مرة أخرى

إلى أن لا يتعجل في تحميل ذلك الشعر أكثر من طاقته. ونخلص من ذلك إلى أن القطعة الثابتة هي إضافة لاحقة للقطعة الأولى، وإن كانت الدراسة تسمح بقليل أو كثير من أخطاء الرواية الشفوية، ومن أهمها «التصحيف والتحريف»، «واختلاف ترتيب الأبيات»، و«التنوع في الرواية» للقصيدة الواحدة، مع ملاحظة بأن هذه الأبيات انخفضت فيها نسبة ذلك انخفاضاً يكاد يكون معدوماً، ولو وجد شيء من ذلك لما أثار الدهشة، بل هو من المسلمات المعروفة في ميدان «الرواية الشفوية»، وخلو هذه الأبيات من تلك القضايا، ومجيئها على تلك الصورة، تدعيان لآس بهما في نفي الافتراضات الشائعة وهي: الوضع، الغناء، التقليد الشفاهي، علماً بأن حاتم في الموضوعين السالفين كان يجاري التقليد المتبع في افتتاح القصائد بالطلل والنسيب.

### ٣ - حاتم يتحدث عن نفسه

إذا كان من المتعذر كشف قائل الأبيات السالفة الذكر بسهولة وذلك نتيجة لغياب «الأنا» تقريباً منها، فإننا نواجه في هذا القسم من القصيدة الرجل يتحدث عن نفسه ويمحور الأحاديث حولها، حتى إنه نتيجة لسيرورتها بين الناس أصبح الناس جميعاً حين يقرأونها يتذكرون قائلها، ويرون أنه حاتم. ولعل الذاكرة القديمة احتفظت بها على هذه الصورة وحافظت على نسبتها إليه. ولما لم يشاركه فيها أحد، فإن نسبتها إليه تظل هي الكفة الراجعة. ولعل المضي في الدراسة بسلط أعضاء أخرى على مانحن بصده.

### أ - عتاب الزوجة :

يقول حاتم :

وعاذلتين هبتا بعد هجمة

تلومان متلافا مفيداً ملوما

تلومان لما غورَ النجم ضلة

فتى لا يرى الإلتاف في الحمد مغرماً

فقلت وقد طال العتاب عليهما

وأوعدتاني أن تبسنا وتصرمنا

ألا تلوماني على ماتقدما

كفى بصروف الدهر للمرء محكما

فإنكما لآمامضى تدركانه

ولست على مافاتني متقدما

إن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو، لم العتاب؟

لم تخشى المرأة على مال زوجها؟ إذ لو كانت في بحبوحة من العيش، والمال لديها وفير، لما اهتمت من إتلاف جزء منه مادامت واثقة من بقائه ونمائه ويتضح من قوله: "لما غور النجم" أن حالتها المادية سيئة جداً، لأن إلحاح الزوجة عليه هذا الإلحاح حتى بعد منتصف الليل، دليل الخوف من الفاقة والعوز، بل ربما دل على أنه لم يبق لديهما ما يسدان به رمتيهما سهرًا طول الليل في خصام حول ممتلكاتهما، ولهذا قال: «وأودعنا أن تبينا وتصرما»، أي أن زوجتيه خشيتا على نفسيهما من الحاجة فاضطرتا أن تهجراه، ولهذا فهما لم تكتفيا باللوم فحسب، بل لجأتا إلى التهديد والوعيد، فهما «أوعدها»، وكما يرى الأصمعي فإن (أوعد) تحمل ذلك المعنى، أي الوعد بالشر، بعكس (وعده) الوعد أو الميعاد<sup>(١٤)</sup>، ولذلك فلا بد أن التوعد كان لضرورة قصوى دفعتهما إلى ذلك خوفاً على مستقبلهما وما ينتظرهما من أخطار.

والأمر الآخر، هو أن كرم حاتم ليس طبعياً، إذا استعنا بالنويهي، فقد كان كرمًا متكلفًا من أجل الحمد<sup>(١٥)</sup>: «فتى لا يرى الإتلاف في الحمد مغرماً». إن النويهي وغيره بالطبع سيصفون كل ذلك بالكرم وذلك لأنه غابت عنهم الرؤية الوجودية من وراء تلك الأفعال التي يقوم بها الإنسان حين يسيطر عليه تفسير معين للحياة، ولهذا فإن تلك الأفعال تبدو متكلفة، ويصبح مفهومها هو الكرم. أما إذا توصلنا إلى تفسير محتمل لتلك الظاهرة، وربطناها بالسلوك الإنساني إزاء لغز الحياة، فإن مصطلح الكرم عند حاتم سيأخذ صورة أخرى، ويصبح موقفاً فكرياً يساعد على فهم ذلك السلوك. أما عدم فهم ذلك السلوك بهذا المنظار، فإنه سيفقدو «تكلفاً» كما رآه النويهي، أي الفهم نفسه الذي فهمته زوجته، وهو حي بين أيديهما، أي: «ضلة»: كما يصبح طلب الحمد هو الحصول على الرضا والراحة النفسيتين اللذين يجلبهما تحقيق ذلك.



وهذا العتاب يتردد كثيراً في شعر حاتم بالذات كقوله :

مهلاً نوار أقلي اللوم والعذلاً

ولاتقولي لشيء فات مافعلاً

ولاتقولي لمال كنت مهلكه

مهلاً وإن كنت أعطي الجن والخبلا

ثم يقول:

إن البخيل إذا مات يتبعه

سوء الثنايا ويحوى الوارث الإبلا

ويقول بعد ذلك:

لاتعذليني على مال وصلت به

رحيماً وخير سبيل المال ماوصلنا (١٦)

وقوله:

وعاذلة هبت بليل تلومني

وقد غاب عيوق الثريا فعردا

تلوم على إعطائي المال ضلة

إذا ضن بالمال البخيل وصردا

تقول ألا أمسك عليك فإنني

أرى المال عند الممسكين معبدا (١٧)

إن الفكرة واحدة في هذه الأبيات وفي غيرها من الديوان، ولذلك فإن نسبتها إلى حاتم تصبح قوية جداً .

ثم إن النظر الدقيق فيها يؤكد أنها تشكل وحدة واحدة. إنها تشكل لحمة واحدة في عرض قضيتها يتجاذبها اتجاهان: فناء المال - فناء الحياة. لقد رأينا في السابق كيف أصبحت منازل الأحبة أطلالاً، وكيف غابت المرأة ذات البذل والعطاء، وهنا نجد حاتماً مأخوذاً بتلك الفكرة، فكرة الوجود/الفناء. إن صبغة الشعر الحاتمي بهذا اللون

الخاص ، أي تحكم الهرب من المستقبل عن طريق التركيز على فكرة الفناء التي تمثلت في الجفاف في الأرض كان هو الدليل العيني على ذلك الشعر . إن فناء المال عنده ، رد فعل على فناء الطبيعة الحية . فهو يقول : «كفى بصروف الدهر للمرء محكما» . «قلن تلقى لها الدهر مكرما» ، «إذا مت كان المال نهبا مقسما» . وبهذا الشكل ، لا يخطئ الدارس أن يميز شعر حاتم في الكرم مع وجود مقدار لا بأس به من الشعر الجاهلي في هذا الموضوع . ولعل وحدة القافية والوزن وعدم تكرارهما في شعر من هذا النوع يشفع بضم هذه الأبيات إلى الأبيات السابقة بعد أن رأينا ظللا من ذلك الخط الذي جمع الطللية والنسيب ينتشر ههنا ، إن موقف حاتم من الوجود هو بالتأكيد غير موقف طرفه ، فطرفة يساعد في عملية الفناء على نحو سلبي : أي أنه يركز على هدم ذاته وماله دون غاية ، أي عبثية الوجود ، فهو يقول :

**فلولا ثلاث هن من حاجة الفتى**

**وجدك لم أحفل متى قام عودي**

**فمنهن سبقي العاذلات بشرية**

**كميت متى ماتعل بالماء تزيد**

**وكري إذا نادى المضاف مجنبا**

**كسيد الغنا، نبهته، المتورد**

**ونقصير يوم الدجن والدجن معجب**

**بيهكنة تحت الطراف الممدد<sup>(٨)</sup>**

أما حاتم ، فموقفه من الفناء مختلف تماما . إنه فناء يجابه الفناء الذي يحدث بالطبيعة والأحياء من أجل إنقاذهما ، ولكنه مع ذلك يشترك معه في الخضوع لعملية الفناء نفسها ، والاستجابة لها - ولعل مرد ذلك أنه جاهلي ، وأنه كان يمارس «تلك العملية» بطريقة فاجعة على وسيلة الحياة الوحيدة المتبقية لديه ألا وهي المال ، أي الإبل . يقول في قصيدة أخرى :

**وفتيان صدق ضمهم دلج المسرى**

**على مسهمات كالقдах ضوامر**

فلما أتوني، قلت: خير معرّس  
ولم أطرح حاجاتهم بالمعادر  
وقمت بموشي المتون كأنه  
شهاب غضا في كف ساع مبادر  
ليشقى به عرقوب كوماء جبلة  
عقيلة أدم كالهضاب بهازر<sup>(١٩)</sup>

وليسست تلك الممارسة مقصورة على البعير الذكر، بل الأنثى رمز الخصب والعطاء. وهكذا، ففي طريق تعيين هذه المواقف يمكن التحقق من صحة الشعر، ومن نسبته، ومن تأليفه .

وتأتي ملحوظة مهمة جداً هنا، فنحن افقدنا - كما رأينا الماء - المطر في الطليّة، وأصبح مكان المرأة مقفراً (خلت - أقوت)، ورأينا أن حاتمًا يعوض الطبيعة عن خسارتها تلك بكرمه، المعادل الآخر للأمطار وللخصوبة عامة، ولكننا نراه هنا أيضاً يلج على (التبذير)، وهو يعني الإلحاح على سفك دماء مثل تلك الناقّة، ولعل صورة الدم وهو سائل من عراقيب نياقه هو صورة أخرى لسيلان المياه - الأمطار فوق تلك الأرض، حيث تشير كلتا الصورتين إلى الكرم والجود، فجريان الدم هو الكرم نفسه كما أن جريان المياه والأمطار تعني جود الأرض . إن فكرة الفناء، على العموم، واضحة تمام الوضوح، فهو إذ يغدو كريماً ببذل ماله، يستعمل مفردات هي في أدق خصائصها ألفاظ تعبر عن الفناء. فهو يستعمل لبذل المال كلمة «إتلاف»، أي قضاء تام على ما هو موجود بين يديه. وهو يقوم بذلك الدور على الرغم من قلة المال عنده، لأنه سيصبح كما يقول «مغرماً». أي لن يتوقف عن الإتلاف، بل سيلجأ إلى مواصلته عن طريق الاقتراض من الآخرين. وهكذا تتضخم فكرة الفناء لديه، ويتسع مدلولها لتؤكد حقيقة إصرار حاتم على مجابهة الموت، أو الفناء الوجودي في الطبيعة كموقف فكري وجودي له أبعاد شمولية. ومن ثم يتضح لنا أن القحط قد شكل عمقاً فكرياً في الزمن القديم. «وأن تقدمة مثل هذه الشعائر تقابل الكارثة وتقاتلها. فالوباء والقحط وأياً كانت الكارثة ينظر إليها بوصفها ريحاً تهب على السهول وتحصد أمامها كل

ماتصادفه، حتى تقابل الضحية التي تعترض طريقها كالأسد الرابض. وعند ذلك ينشأ صراع مفزع بينهما، يقهر على أثره الوياء والقحط ويرجع أدرجه مخذولاً بينما تظل الضحية المنتظرة مهيمنة على الحقل». (٢٠) أي أن سفك الدم لم يكن مجرد نحر للضيافة فحسب، بل إنه أيضاً ممارسة لمن يرى في الدم حقيقة، "القربان" (٢١).

لقد كان حاتم، في الحق، يمارس شعيرة دينية وثنية في العصر الجاهلي لها طوقسها المعروفة لديهم، والتي تتمثل في النحر والعقر. (٢٢)

ولعلنا نجد بعض آثار تلك الطوقس في امتناع بعض الناس عن الأكل منفرداً حتى إن الرجل كان يمكث أياماً جائعاً حتى يجد من يؤكله. ومنه قول أحدهم:

إذا ماصنعت الزاد فالتمسي له

أَكِيلًا فَلَسْتُ أَكَلُهُ وَحْدِي (٢٣)

حتى قيل إن هذه السيرة موروثه عندهم عن إبراهيم عليه السلام. (٢٤) ومن شعائريهم في ذلك أنهم كانوا في الجذب إذا استعار أحدهم قدراً، رد فيها شيئاً من الطبخ، قال عوف بن الأحوص:

فلاتسأليني واسألي عن خليقتي

إذا رد عافي القدر من يستعيرها (٢٥)

كما يمكن أن نجد تفسير ذلك في عمل لبيد بن ربعة الذي كان لا يمر به يوم إلا أراق فيه دماً، وكان يفعل ذلك إذا هبت الريح. قالت ابنته:

إذا هبت رياح أبي عقيل (٢٦)

ومن هنا ارتبطت رائحة الشواء برائحة العود، يقول لبيد:

ولأضف بمغبوط السنام إذا

كان القنار كما يستروح القطر

فقد أخبر أنه وجود بإطعام اللحم في المحل إذا كان ريح قنار اللحم عند القرمين كرائحة العود ييخر به. (٢٧) ولقد قيل إن قدور عبد الله بن جدعان كان يصعد إليها في الجاهلية بسلم. (٢٨)

قال أمية بن أبي الصلت يمدح ابن جدعان :

له داع بمكة مشمعل

وأخر فوق دارته ينادي

إلى رُدح من الشزى ملاء

لباب البر يلبك بالشهاد<sup>(٣٩)</sup>

وقال النابغة يمدح النعمان بن الجلاح الكلبي :

له بفناء البيت دهماء فخمة

تلقم أوصال الجزور الغراعر<sup>(٤٠)</sup>

ومما يؤكد أن الكرم قديم كما تمثل عند حاتم، وكما مارسه ابن جدعان .. يعكس شعائر جاهلية بدائية المثل المضروب في قدر بني سدوس فيقال :

«كما خلت قدر بني سدوس»، وهي قدر عادية (نسبة إلى عاد) عظيمة تأخذ جزورين، وكان الطم بن عياش السدوسي، سيد بني سدوس يطعم فيها حتى هلك الطم، ولم يكن له في قومه خلف، ولا أحد يطعم في تلك القدر، فخلت قدرها طويلاً.<sup>(٤١)</sup>

لقد كان الكرم، إذن، شعيرة جاهلية، يفسرها عقر الإبل، ويقولون إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته فكافئه بمثل صنيعه بعد وفاته<sup>(٤٢)</sup>.

ونخلص بعد ذلك إلى القول إن الكرم ارتبط بالجفاف في الصحراء بحيث تحول ذلك الارتباط إلى رؤية شمولية عند الإنسان العربي فيما بعد، وليس أدل على ذلك الارتباط من تسمية نزول المطر بالجود، والأرض الساقط عليها المطر بالمجود، وهو في العموم غيث لتلك الأرض. يقول صخر الغي :

يلعب الريح بالعصرين قصطله

والوايلون وتهتان التجاويد<sup>(٤٣)</sup>

وتبقى بعد ذلك أبيات هي في أحسن أحوالها تخفيف نفسي على الشاعر من شدة معاناته للوم اللائمين ، وإحساسه الشخصي بأن ممارساته الدموية أو مشاركته في

الفناء لن يوفقا الهدم في الوجود، ولن يتغلبا على التحديات الطبيعية فنجده ينقل رؤيته تلك إلى مستمعيه فيقول: "أهن للذي تهوى التلاد" وهَوَان المال معنى آخر لإتلافه، كما يتضح الهرب من المستقبل في مواجهة الخطر الأكبر أو النتيجة الحتمية للوجود، الموت، "وقد صرت في خط من الأرض أعظما". ولعل هذه الأبيات من ١٨ - ٢١ هي ألصق الأبيات بفكرته، وتصبح عملية احتوائها في مجمل الأبيات السابقة أمراً مقبولاً ومسوغاً. ثم تبقى بعدئذ الأبيات ٢٢ - ٢٦ وهي حِكْم عامة قد لا يكون لاحتوائها كبير أهمية. فإذا كانت جزءاً من القصيدة، فإنها تتسجم معها، أما إذا أفرغت منها، فلن يضيرها شيئاً. وربما كان إثباتها مقبولاً، خاصة تلك الأبيات التي تتعلق بفكرة الكرم الرئيسية، مثل قوله :

وَنُو اللَّبِّ وَالتَّقْوَى حَقِيقٌ إِذَا رَأَى

ذُوِي طَبِيعِ الْأَخْلَاقِ أَنْ يَتَكْرَمَا

وقوله:

فَجَاوِرٌ كَرِيماً وَاقْتَدَحَ مِنْ زَنَادِهِ

وَأَسْنَدَ إِلَيْهِ، إِنْ تَطَاوَلَ سَلْمَا

وقوله:

وَلَا زَادَنِي عَنْهُ غِنَايَ تِبَاعِذَا

وَإِنْ كَانَ ذَا نَقْصٍ مِنَ الْمَالِ مُصْرِمَا

ويمكن أن تقبل كذلك بقية الأبيات، على أساس أنها تعكس موقفه من القبيلة، وهو موقف معروف عند الجاهليين، إذ يصيح الشاعرُ الناطقَ الرسمي باسمهم والمعبر عن تطلعاتهم، خاصة إذا كان سيداً فارساً مثله بحيث يتنازل عن كثير من حقوقه الشخصية في سبيل مصلحة الجماعة. كما أن من مرجحات هذا القبول هو «التماسك الدلالي والترابط المعنوي والفكري فيها»، حيث تسير وفق النهج المرسوم لها لتصبح امتداداً طبيعياً لما سبقها من أبيات.

٣ - الصعلوك :

في تلك الأبيات تتكرر لدينا كلمة «صعلوك» ثلاث مرات. فكان الأولى مدخل

عام للصعلكة أو تفسير لمفهوم الصعلكة في قوله :

ولن يكسب الصعلوك حمداً ولا غنى

إذا هو لم يركب من الأمر معظما

أما الثانية فهو الصعلوك المرفوض في رأي حاتم وهو كما يقول :

لحا الله صعلوكاً مناه وهمه

من العيش أن يلقي لبوساً ومطعماً

ينام الضحى حتى إذا يومه استوى

تنبه مثلوج الفؤاد مورما

مقيماً مع المثرين ليس بهبارح

إذا كان جدوى من طعام ومجثما

أما الثالثة فهو :

ولله صعلوك يساورهمه

ويمضي على الأحداث والدهر مقدما

فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة

ولاشعبة إن نالها عد مغنما

إذا مارأى يوماً مكارم أعرضت

تيمم كبراهن ثمت صمما

ترى رمحه ونبله ومجنه

وذا شعب غضب الضريبة مخدما

وأحناء سرج قاطر ولجامه

عتاد فتى هيجا وطرفا مسوما

فصورة الصعلوك الأول تسير حسب موقفه من مشكلة الفناء، أي هو "مقيماً مع المثرين"، وبمعنى آخر إنه ذلك الرجل الذي يحافظ على المال وبذلك يفر من مواجهة

تحديات الطبيعة. إن مواجهة تلك التحديات تقع على عاتق الرجل الذي يقضي على المال، أما "المثرون" فهم يحافظون على المال ولا يقومون بأي دور في التغلب على تلك التحديات بل هم بهذه المحافظة يسبهمون بطريق آخر في مساعدة تلك التحديات، على القضاء على المال (الإبل) التي تساعد هي أيضاً على تجريد الطبيعة من مظاهرها الحيوية - وهي النباتات الصحراوية - كما يحرمون بتلك المحافظة الإنسان من التمتع بها وهم في أمس الحاجة إليها.

إن فصوص هذا الصعلوك عند حاتم، صورة الرجل الذي يعجز عن مواجهة عملية الفناء في الطبيعة بقبوله موقف الأثرياء .

هذا الصعلوك حاتم «ينام الضحى».. «مثلج الفؤاد». ويحسن بنا أن نتذكر هنا صورة المرأة عند امرئ القيس حين يقول عنها: «نؤوم الضحى»، أي مرفهة منعمة، وصعلوك حاتم، على هذه الحال، مرفه منعم، أي ليس له يد في البذل والعطاء، فقد توافرت له أسباب الحياة، فهو صعلوك وليد معاناة فكرية تأملية في الحياة والوجود، وهي توافر المال .

أما الصعلوك الآخر عنده، فهو - يطلب هدفاً في الحياة، إنها المكارم :

إذا مارأى يوماً مكارم أعرضت

تيمم كبراهن ثمت صمما

إنه مليء بالطموحات والتحديات، ليس هدفه كسب المعيشة، بل على العكس من ذلك، إنه لايهتم بالمعيشة «لا يرى الخمص ترحة..»، فهو إذ يحمل «رحمه ونبله ومجنه، وذا شطب» ... إلخ، إنما يحملها لتحقيق غاية كبرى لا تقع ضمن متطلبات الحياة اليومية للمرء نفسه، إنه يطلب «المال» بكل ما يحمل من معنى ليوافق الفناء بالفناء، وإنه ليتصعلك من أجل حياة الأرض فحياة الآخرين .

**فالصعلكة** عند حاتم، هي ما يطلق عليه البدو المعاصرين "الكريم"، وهو "الذي تدفق السمن يمانه لكثرة ما يصيبه للأضياف والنزلاء. بيته مفتوح يقدم لهم الذبائح ... يسد رمق الجياع، ييش في وجه الرواد، وينقذهم من الهلاك، وهو محطة لرحال الناس". (٣٤)



إنّ فصلكة حاتم، فصلكة مبدأ، فصلكة قيم ومثل من أجل حياة الإنسان، القيمة الكبرى في حياته هي إنقاذ الإنسان من مأساة الطبيعة .

ولكن السؤال الذي ينشأ عن صورة الصعاليك الثلاثة تلك هو، كيف اجتمعت صورة السيد الفارس الكريم، وصورة الصعلوك الفقير المحتاج المطارد؟ إن الصورتين متعارضتان تمام التعارض، فهل تشك في نسبة حاتم إلى الصفات النبيلة، ونلصق به صفات الصعلوك المتشرد؟؛ صحيح أنه وضح لدينا الآن أنه يعبر عن موقف وجودي من الطبيعة بالذات، ولكن لماذا اختار التعبير بـ "الصعلكة" عن فكرته عن الفناء؟؛ إن الصعلكة بلا شك موقف سلبي عديمي من الكون ولكنه في حالة الشعراء الصعاليك موقف لا يعبر عن فكرة، إنما عبر عن نزوات خاصة دافعها الحاجة والفقر والإحساس بالدونية، ولهذا انحصرت كما نجد عند عروة في مشكلة الفقر أو الطبقية في المجتمع الجاهلي، أما مفهوم الصعلكة عند حاتم، فمفهوم وجودي له رصيد لأبأس به من التأمل وبعد النظر .

إن الإجابة على ذلك السؤال تعود بنا إلى حياة الشاعر من خلال شعره، فهو يذكر ترك أبيه إياه وتحوله عنه:

**وإني لعف الفقر مشترك الغنى**

**وودك شكل لا يوافقه شكلي (٣٥)**

لقد أحس بعدمية الوجود منذ صباه وتنأى معه ذلك الإحساس في كبره، وتجمع كلمة «الفقر» مع القفر فالقفر انعدام «المال»، أي الإبل عند الإنسان الجاهلي، والقفر انعدام الحياة من الأرض، ولكي يواجه هذا الإنسان الفقر، فلا بد من إيجاد ذلك المال لمواجهة القفر . ولذلك نجد أن الفقر والغنى يتزامنان في حياته كما هو واضح من منظر البيت السابق ومن قوله في قصيدة أخرى:

**غنيًا زمانًا بالتصعلك والغنى**

**كما الدهر في أيامه العسر واليسر (٣٦)**

إن عامل الزمن مهم جداً في اجتياح الطبيعة بكارثة الجفاف بعد فترات الخصب، وهكذا يصبح الزمن أحد تحديات حاتم فلا بد من مواجهته، ولن تكون تلك المواجهة إلا

بالكرم، أي بفناء المال. فالتصعلك ههنا إذن يعني الفقر/ القفر، أي الجفاف كما رأيناه في الأطلال واختفاء مظهر الخصوبة في حياة البدو، وهو أدوات الزينة الثمينة، بل إن اختفاء المرأة التي قال عنها "تنهادى" لما تتمتع به من خير ورفاهية، وظهور المرأة الحريصة على اقتناء المال دون أية صفة خارجية يسبغها عليها، هي أيضاً إحدى مظاهر الجفاف الذي عم موجودات الطبيعة الجامدة والحيوانية، والإنسان أيضاً .

وبذلك ينتهي الخيط الذي امتد شيئاً فشيئاً في القصيدة مبتدئاً بالأطلال ماراً بالنسيب، ومنتهاً بالصعلكة، ليؤكد أن هذه القصيدة في النهاية هي وحدة واحدة. وهي لشاعر واحد.



#### التعليقات .

- ١ - هشام بن محمد الكلبي :  
ديوان شعر حاتم عبد الله الطائي وأخباره، تحقق، عادل سليمان جمال ( مصر، مط -المدني ب ( ت ) ص ص ٢٣٣ - ٢٤١ .
- ٢ - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقق، أحمد محمد شاكر ( مصر، مط دار المعارف ط ١٣٨٦ هـ سنة ١٩٦٧ م ) .
- ٣ - ديوان شعر حاتم، ص ٧٩ .
- ٤ - المصدر نفسه، ص ٢٢٣ .
- ٥ - ديوان امرئ القيس، تحقق محمد أبي الفضل إبراهيم ، ( مصر، دار المعارف ١٩٦٤ . ٢٧ م ) ، ص ٩ .
- ٦ - نصرت عبد الرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ( الأردن . مط الأقصى، ١٩٨٢ م ) ، ١٢٧ - ١٣٧ .
- محمد عبد المطلب مصطفى، قراءة ثانية في شعر امرئ القيس - الوقوف على الأطلال، فصول، مجلد ٤، عدد ٢ فبراير/مارس ١٩٨٤ م، ص ١٥٣ - ١٦٣ .
- ٧ - أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد التبريزي، شرح المفضليات، تحقق على محمد البجاوي (مصر، مط نهضة مصر، ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م)، ج ١، ص ٣٨١ - ٣٨٥ .
- ٨ - ديوان عنتره، تحقق، كرم البستاني (بيروت دار بيروت ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م) ص ٧٦ .

- ٩ - شكرى فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام (دمشق، مط، جامعة دمشق ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م)، أحمد محمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي (القاهرة، مط، المدني ط٢).
- ١٠ - ديوان حاتم، ص ٢٠٤.
- ١١ - المصدر نفسه ص ٢٠٦.
- ١٢ - المصدر نفسه ص ٢٤٧.
- ١٣ - ديوان الأعشى، تحق محمد محمد حسين (مصر، مط، النموذجية ١٩٥٠م) ص ٥٥.
- ١٤ - أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني، الموشح، تحق علي محمد البجاوي (مصر - مط - البيان العربي ١٩٦٥م) ص ٣٠٨-٣٠٩.
- ١٥ - محمد النزيهي، الشعر الجاهلي (مصر، مط الدار القومية ١٩٦٥م). ح ١، ص ٢٤٠-٢٤١.
- ١٦ - ديوان حاتم، ص ٢٠٠-٢٠١.
- ١٧ - المصدر نفسه، ص ٢٢٩. وانظر كذلك: ص ١٦٠، ١٨٧، ٢١٠، ٢٣٠.
- ١٨ - ديوان طرفة بن العبد، تحق درية الخطيب ولطفي الصقال، دمشق، مط، مجمع اللغة العربية (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) ص ٣٣ - ٣٤، وانظر: فولتر براونه، الوجودية في الجاهلية، المعرفة، حزيران ١٩٦٣م، ص ١٥٦-١٦١.
- ١٩ - ديوان شعر حاتم، ص ١٩٧-١٩٨.
- ٢٠ - جيس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، تر. نبيلة إبراهيم (مصر - مط - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢) ج ١، ص ٢٤٦.
- ٢١ - أحمد عويدي العبادي، من القيم والأدب البدوية، (عمان، مط دار الشعب ط أولى ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) ص ١٣٤، ١٢٩.
- ٢٢ - عادل جاسم البياتي، المنابع الثقافية الأولى للشعر الجاهلي، مجلة المجلة عدد ١١٣ مايو ١٩٦٦م، ص ١٠.
- ٢٣ - أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (مصر، مط. دار الكتاب العربي، ط ٣، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) م ٦، ج ٢، ص ٣١٧.
- ٢٤ - المصدر نفسه.
- ٢٥ - أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري، المفضليات. تحق: كارلوس يعقوب لایل (بيروت. مط الآباء اليسوعيين ١٩٢٠م) ص ٣٤٨.
- ٢٦ - أسامة بن منقذ، لباب الأدب، تحق: أحمد محمد شاكر (القاهرة، مط، الرحمانية ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م)، ص ٩٣.
- ٢٧ - الزبيدي، التاج (قتر).

قال ابن الرقيات في الإسلام عاكساً هذه الفكرة :

### حين القفار إلى القفا أحب من أمانها

ديوان عبد الله بن قيس الرقيات، تحقق: محمد يوسف نجم (بيروت، دار بيروت ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م)، ص ١٢٠.

كما قال مسكين الدارمي :

### إذا كان القفار أحب ريحا إلى الفتوات من ريح العبير

ديوان مسكين الدارمي، تحقق: عبد الله الجبوري (و) خليل إبراهيم العطية (بغداد، مط، دار البصري، ط أولى ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م)، ص ٣٦.

٢٨ - القرطبي، الجامع ...، ٧، ج ٤، ص ٢٧٦.

٢٩ - ديوان أمية بن أبي الصلت، تحقق: بشير يموت (بيروت - مط، الوطنية ط أولى ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م)، ص ٢٧.

٣٠ - ديوان التابعة الذبياني. تحقق: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (تونس. مط. الشركة التونسية ١٩٧٦م). ص ١١٣.

٣١ - أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني، مجمع الأمثال، تحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد (مصر. مط. السنة المحمدية ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م) ج ٢، ص ١٥٤.

٣٢ - الزبيدي، التاج: "عقر".

٣٣ - اللسان، "جود".

٣٤ - العبادي، من القيم .... ٢١٨.

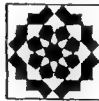
أحمد محمد الحوفي، الصعاليك في العصر الجاهلي، الكتاب، مجلد ٨، ١٩٥٣ ص ٨٤١ - ٨٥٠ يوسف خليف الشعر والصعاليك (مصر، دار المعارف ١٩٥٩م) ص ٢٦، ٣٠، ٣٧،

٥٣، ٢٦٦، ٢٧٥، ٣٢٦. محمد مصطفى هدارة، دراسات ونصوص في الأدب العربي،

(الإسكندرية، مط - دار المعرفة الجامعية ١٩٨٥م) ص ٤٧ - ٦٥.

٣٥ - الكلبي، ديوان حاتم، ص ١٥٦.

٣٦ - المصدر نفسه، ص ٢١٣.



# الشاعر الفارس

## جربية بن الأشيم

### « أخباره وشعره »

جمعه وشرحه وحققه:

د. محمد علي دقة

أولاً - أخباره:



هو جربية بن الأشيم بن عمرو بن وهب بن دثار بن فففس بن طريف،<sup>(١)</sup> وطريف هو ابن عمرو بن فعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد<sup>(٢)</sup>. قال الأُمدي إنه «جد مطير الأشيم»<sup>(٣)</sup>، وهذا وهم، فمطير من بني منقذ بن طريف<sup>(٤)</sup>.

وجربية شاعر جاهلي أدرك الإسلام فأسلم. قال عنه أبو زيد الأنصاري وابن دريد إنه جاهلي<sup>(٥)</sup>، ولم يذكر إسلامه. قال ابن رشيقي: «جاهلي قديم»<sup>(٦)</sup>. وأورد الشهرستاني عبارة يفهم منها أنه مات في الجاهلية، فقال: «قال جربية بن الأشيم في الجاهلية، وقد حضره الموت»<sup>(٧)</sup>. ولكن ابن حجر أورده في الإصابة فيمن

أدركوا النبي ﷺ ولم يروه، وذكر أنه أسلم وأنشد له رجزاً قاله في إسلامه<sup>(٨)</sup>.  
وزعم صاحب الحماسة البصرية أنه شاعر أموي<sup>(٩)</sup> وهذا وهم.

وجريبة أحد أعلام بني أسد، وبنو أسد قبيلة بدوية ضاربة في قلب نجد عرفت  
باللسن والفصاحة، والخطابة والبلاغة، وصفها صعصعة جد الفرزدق بأنها لسان  
مضر<sup>(١٠)</sup>. وقال فيها عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه): «ماكلمني رجل من بني  
أسد إلا تمنيت أن يمد له في حجته، حتى يكثر كلامه فأسمعه<sup>(١١)</sup>». وكثر الشعر  
والشعراء في هذه القبيلة كثرة بالغة، وقد وقفت على ذكر ثلاثة وخمسين شاعراً أسدياً  
لم يدركوا الإسلام، وقرابة هذا العدد من شعرائهم المخضرمين الذين عاشوا في  
الجاهلية المتأخرة وصدر الإسلام.

وأسد قبيلة ذات شوكة وحصى، كان لها أثر كبير في الأحداث التي شهدتها جزيرة  
العرب، إذ قتلت في الجاهلية حُجراً ملك كندة وقوّضت ملكها، وقادت حركة الردة  
بنجد في الإسلام، وكان لرجالها مواقف مشهودة في معارك الفتح الإسلامي.

وأما بنو فقعس قوم جريبة فهم بطن كبير من بطون بني أسد، فيهم الشعراء  
الفرسان، والروساء الحكام، لذلك جمع ابن عبدة نسبهم في كتاب مستقل، إذ ذكر ابن  
النديم أن ابن عبدة ألف «كتاب نسب بني فقعس بن طريف بن أسد بن خزيمة»<sup>(١٢)</sup>.  
وخص رواة الشعر شعر بني فقعس بكتاب غير كتاب «أشعار بني أسد» الذي صنعه  
أبو سعيد السكري، فقد أخذ النمرى في كتابه الملمع نقولاً من «أشعار بني فقعس»<sup>(١٣)</sup>.

ومن رجالات فقعس الذين سادوا أسداً في الجاهلية خالد بن نضلة، وكان يلقب  
«بالسيد الصمد»، وعمرو بن مسعود، الذي أخذ حجر بن عمرو ملك كندة رهينة لما  
طرد بني أسد إلى تهامة، وقد قتل المنذر بن ماء السماء خالدًا وعمراً لأنهما أبيا أن  
تدخل أسد في طاعته<sup>(١٤)</sup>. ورثتهما هند بنت معبد الأسدية، فقالت:

أَبَا بَكْرٍ السَّيِّدِ الْبَخِيرِ بَنِي أَسَدٍ

بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ<sup>(١٥)</sup>

ومن أعلامهم طليحة بن خويلد وكان خطيباً شاعراً كاهناً ناسباً فارساً يعدل بألف فارس<sup>(١٦)</sup> . ادعى النبوة وقاد ردة الحليفين أسد وغطفان، فقاتله خالد بن الوليد وهزمه، ثم أسلم في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وأحسن البلاء في معارك الفتوح الإسلامي.

ومن شعراء قعس سبرة بن عمرو، وكان مع عمرو بن مسعود وخالد ابن نضلة لما قتلها المنذر بن ماء السماء<sup>(١٧)</sup> . ومغلّس وبغتر ونافع أبناء لقيط ابن حبيب وجاهد خالد بن نضلة، وابن أخيه مضر بن ربيعة بن لقيط الذي وصفه الأمازيغي بأنه «شاعر محسن متمكن»<sup>(١٨)</sup> ، وله ديوان شعر لم يصل إلينا نقل عن ياقوت الحموي وذكره ابن بري في أماليه على الصحاح<sup>(١٩)</sup> . ومن شعرائهم أيضاً الكميّ بن ثعلبة الأكبر، وهو شاعر مخضرم، والكميت بن معروف الأوسط، وهو شاعر إسلامي أموي، وأبو المهوش، وقرآن بن يسار، وحسين بن عرقة<sup>(٢٠)</sup> ، وهم شعراء مخضرمون.

وأما شاعرنا جريبة فهو من شياطين بني أسد في الجاهلية، ومن فرسانها المعدودين، فرسه اسمه «خراج»<sup>(٢١)</sup> ، وقيل «الخراج»<sup>(٢٢)</sup> ، وله فرس اسمه «شراف»<sup>(٢٣)</sup> ، وفي «الخراج» يقول:

وكنْتُ إذا الخَراجُ حال استمئنه

بمنجبة أو قلت خراج أعقب<sup>(٢٤)</sup>

ومن أيام بني قعس التي شهدا جريبة «يوم الكتيب»، وكان لقعس على بني ضبيعة بعض بكر بن وائل، وقد ذكره جريبة في شعره وافتخر فيه، وقصة ذلك اليوم أن النعمان بن بجير الضبيعي ويكنى أبا سلّهب خرج في جمع من بكر بن وائل يريد الغزو، وخرجت بنو قعس في غزي لهم أيضاً يطلبون الغنائم، ورئيسهم أهبان بن عرفطة، فالتقى الجمعان، ولا يريد واحد منهم صاحبه، فلما التقوا صاح بنو قعس نزال نزال فلم ينزلوا، وقاتلوا على الخيل، فشد فروة بن مرثد الأسدي على أبي

سلب، فاختلفا ضربتين فكلاهما قتل صاحبه، وقتلت بنو فقعهس عدداً منهم وهزمتهم، وقُتل في ذلك اليوم أهبان بن عَرْفُطَة رئيس بني فقعهس، قتله الحِصْف بن مَعْبِد الضُبُعِي (٢٥).

ومن أخبار جريية أنه خرج وهو شيخ حتى أتى الأعرج بن شأس الفقعهسي، فخطب إليه ابنته صَعْبَة، فلما تخوفت أن يُزَوِّجها أنت جريية، فعازت بظهره، فقالت: إنك شيخ أبو غلمة مُضِرٌّ بالنساء. فقال: والله لاتدخلين قَرْيَة بيت المُخْدَع أبداً. ثم ارتحل، وأنشد شعراً ذكر فيه بنيه وأنه لا يبيعهم بامرأة يتزوجها، فقال:

فإذا سمعت بأثني قد بعثهم

بوصال غسانية فقل كذبذب

وبرافع والجهم أسلم إنهم

أدنى إلى من النساء وأقرب (٢٦)

ولعل شعر جريية وثيقة تاريخية تصور بعض معتقدات العرب في الجاهلية، إذ كان دهماء العرب يتصورون أن ناقة الرجل إذا عقلت على قبره، وتركت حتى تموت، فإنها تبعث معه وتكون مطية له في الحشر، وذلك قول جريية:

ياسعد إماً أهلكن فأثني

أوصيك إن أخا الوصاة الأقرب

لا تتركن أباك يعلثر راجلاً

في الحشر، يصرع ليليين ويتكب

واحمل أباك على بعير صالح

وابغ المطية إنه هو أصوب

ولعل لي مما تركت مطية

في الحشر أركبها إذا قيل اركبوا (٢٧)



ويخاطب ولده في أبيات أخرى، فيدعو عليه بالفقر أيد الدهر إن لم يعقر عليه مطيته:

وإن أنت لم تعقر علي مطيتي

فلا قام في مال لك الدهر خالب

لكن جريبة بدل بالدين القديم ديناً جديداً، إذ أدرك الإسلام وأضاء الله قلبه بنوره، فودع ضلالة الجاهلية وعمايتها، وقال:

بدلت ديناً بعد دين قد قدم

كنت من الدين كائني في حلم<sup>(٢٨)</sup>

ويبلغ شعر جريبه الذي وقفت عليه واحداً وثلاثين بيتاً. وهي في بعض عقائد الجاهلية، وفي وصف فرسه والحماسة والفخر، وفي إسلامه، وشعره متين السبك، جزل الألفاظ وافر الغريب بدوي المعاني والأخيلة.

تأنيب شعر جريبة بن الأشيم بن عمرو بن وهب بن ليث بن قيس

(١) في النوادر لأبي زيد (٢٨٧-٢٨٨): (٢٩)

«من الكامل»

١- لقد طال إيضاعي المخدّم لا أرى

في الناس مثلي من معدّ يخطب<sup>(٣٠)</sup>

٢- حتى تأويت الـبيوت عشية

فوضعت عنه كوره يتّاعب<sup>(٣١)</sup>

٣- فإذا سمعت بأثني قد يغني

بوصال غانية قلّ كدّذب<sup>(٣٢)</sup>

وفي كنز الحفاظ (٢٦١): (٣٣)

٤- وَيَرَأْفِعُ وَالْجَهَنَّمَ أَسْلَمَ إِنَّهُمْ

أَدْنَى إِلَيَّ مِنَ السَّمَاءِ وَأَقْرَبُ<sup>(٣٤)</sup>

وفي المال والنحل (٢: ٢٤٤):

٥- يَا سَعْدُ إِمَّا أَهْلَكُنَّ فَمَا أَتَانِي

أَوْصِيكَ إِنَّ أَخَا الْوَصَاةِ الْأَقْرَبُ<sup>(٣٥)</sup>

٦- لَا تَتْرُكُنَّ أَبَاكَ يَغْتَرُ رَاجِلًا

فِي الْحَشْرِ، يَصْرَعُ لِلْسَيِّدَيْنِ وَيَنْكَبُ<sup>(٣٦)</sup>

٧- وَاحْمِلْ أَبَاكَ عَلَى بَعِيرٍ صَالِحٍ

وَابْغِ الْمَطْيِيَّةَ، إِنَّهُ هُوَ أَصَوَّبُ<sup>(٣٧)</sup>

٨- وَلَعَلَّ لِي مِمَّا تَرَكْتُ مَطْيِيَّةً

فِي الْحَشْرِ أَرْكَبُهَا، إِذَا قِيلَ أَرْكَبُوا<sup>(٣٨)</sup>

(٢) فِي الْحَيَوَانَ (٦: ٤٥٣-٤٥٤):

«من الطويل»

١- فَمَنْ مَبْلَغُ عَنِّي يَسَارًا وَرَافِعًا

وَأَسْلَمَ، إِنَّ الْأَوْهَنِينَ الْأَقَارِبُ<sup>(٣٩)</sup>

٢- فَلَا تَدْفِنَنِي فِي ضَرٍّ وَادْفِنَنِي

بِدِيْمُومَةٍ، تَتَزَوُّ عَلَى الْجَنَادِبِ<sup>(٤٠)</sup>

٣- وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَعْقِرْ عَلَيَّ مَطْيِيَّةً

فَلَا قَامَ فِي مَالِكَ الدَّهْرُ خَالِبُ<sup>(٤١)</sup>

٤- فَلَا يَأْكُلُنِي الذَّنْبُ فِيمَا دَفَنْتَنِي

وَلَا فَرَعَلْ مِثْلَ الصَّرِيْمَةِ حَارِبُ<sup>(٤٢)</sup>



«٦» في شرح الحماسة للتبريزي (٢: ٢٧٣-٢٧٥): (٥٢)

«من المتقارب»

١- فدى لقوارسي المعلمي

من تحت العجاجة خالي وعم

٢- هم كشفوا عينة العالبيين

٣- من العار أوجههم كالحمم (٥٣)

إذا الخيل صاحت صباح السور

٤- حزننا شراسيرها بالجذم (٥٤)

إذا الدهر عضتك أنيابا

٥- لدى الشر فآزم به ما أزم (٥٥)

ولا تلق في شره هانبا

٦- كأنك فيه ير السقم (٥٦)

عرضنا نزال فلم ينزلوا

٧- وكاننت نزال عليهم أطم (٥٧)

وقد شبهوا العير أفراسنا

٨- فقد وجدوا ميرها ذا شيم (٥٨)

«٧» في المؤلف والمختلف (١٠٣): (٥٩)

١- بذلت ديننا بعهد دين قد قدم

٢- كنت من الدين كائي في حلم (٦٠)

٣- يا قيم الدين أقمنا نستقم (٦١)

٤- فإن أصادف مائما فلم أليم (٦٢)



## الهوامش

- (١) جمهرة النسب ١: ٢٤٢، والمؤلف: ١٠٣، والإصابة ١: ٢٦١، وفيها «وهب بن ديان» تحريف.
- (٢) جمهرة النسب ١: ٢٣٩.
- (٣) المؤلف: ١٠٣.
- (٤) مطير هو ابن الأشيم بن الأعشى والأعشى هو قيس بن بجرة بن قيس بن منقذ بن طريف ابن عمرو بن قعين. انظر جمهرة النسب: ٢٤١ وجمهرة ابن حزم: ١٩٥، ومعجم الشعراء: ٤٣٩.
- (٥) انظر النوادر: ٢٨٧، وجمهرة اللغة ١: ٢٥١.
- (٦) العمدة ١: ١٤٢.
- (٧) الملل والنحل ٢: ٢٤٤.
- (٨) انظر الإصابة ١: ٢٦١.
- (٩) الحماسة البصرية ١: ٨٤.
- (١٠) انظر المنق: ٩.
- (١١) البيان والتبيين ١: ١٧٤.
- (١٢) الفهرست لابن النديم: ٩٤.
- (١٣) انظر الملح: ٧١.
- (١٤) انظر اسماء المغتالين: ١٣٣-١٣٤.
- (١٥) الخزائن ١١: ٢٦٩.
- (١٦) انظر على التوالي البيان والتبيين ١: ٣٥٩، وجمهرة النسب ١: ٢٣٩.
- (١٧) انظر اسماء المغتالين: ١٣٣-١٣٤.
- (١٨) المؤلف والمختلف: ٢٩٢.
- (١٩) انظر معجم البلدان ٣: ٣٩٢، وشرح شواهد الشافية ٤: ٤٨٣-٤٨٤.
- (٢٠) اسمه حُسَيْلٌ وسماه النبي (صلي الله عليه وسلم) حُسيناً. انظر أسد الغاية ٢: ١٧.
- (٢١) أسماء الخيل لابن الأعرابي: ٥٥، والمخصص ٦: ١٩٤، والقاموس (خرج).
- (٢٢) أسماء الخيل للفندجاني: ٩٤.
- (٢٣) شرح الحماسة للتبريزي ٢: ٢٧٣.
- (٢٤) الفندجاني: ٩٤.
- (٢٥) شرح الحماسة للتبريزي ٢: ٢٧٣-٢٧٥.

(٢٦) تهذيب الألفاظ: ٢٦١-٢٦٢.

(٢٧) الملل والنحل ٢: ٢٤٤.

(٢٨) الحيوان ٦: ٤٥٣.

(٢٩) قال الفبريزي: «خرج جُريبة بن الأشيم حتى أتى الأعرج بن شأس بن دثار بن قفص، فخطب إليه ابنته صنعبة، فلما تخوفت أن يزوجه أبت جريبة فعازت بظهره، فقالت: إنك شيخ أبو غلثة مضرب بالنساء. فقال: والله لا تدخلين قريعة بيت المخدع أبداً. ثم ارتحل وذكر بنيه وميله إليهم لأنه لا يبيعهم بامرأة يتزوجها» كنز الحفاظ: ٢٦٢.

(٣٠) في التكملة، والعمدة: «في معد» - وفي البيت خزم باللام في قوله «لقد»، والخزم زيادة في أول البيت لا يعتد بها في التقطيع. انظر الكافي: ١٤٣. وفي النوادر: «قال أبو حاتم: اللام في لقد زائدة، والوزن: قَدْ طَالَ». والوضع: ضَرَبَ من سَبَر الإبل دون الشدة، يقال: وَضَعَتِ النَّاقَةُ، وَأَوْضَعْتُهَا أَنَا إِضَاعاً، إِذَا حَمَلْتُهَا عَلَيْهِ. والمُخْدَمُ: اسم بعيده. وَيَخْطُبُ: من الخطبة.

(٣١) في التكملة: «فَحَطَّطْتُ عَنْهُ كُورَةَ يَتَأَبُّ». وفي العمدة: «تَتَأَبُّ»، تصحيف. وتأوتت البيوت: أُنِيَتْهَا أَوَّلَ اللَّيْلِ. والكُورُ: الرَّحْلُ، وقيل: الرَّحْلُ بأدائه، والجمع أَكُورٌ وَأَكُورٌ. وتَأَبَّ وتَأَبَّ وأصابه كمل.

(٣٢) في إصلاح المنطق، وجمهرة اللغة، وشرح ديوان المتنبي للعسكري ١: ٢٠٠، وكتاب الأفعال: «وإذا». وفي الخصائص، والتاج، وألف با: «وإذا أُنَاكَ». وفي جمهرة اللغة، والعسكري ٣: ٢٦٨، والخصائص، وألف با، والتاج، والتكملة: «بعثها». وفي إصلاح المنطق، وكنز الحفاظ، والأفعال: «بعثهم». وفي تهذيب اللغة، واللسان، والعسكري ١: ٢٠٠ «بعثكم» ويعود الخلاف في الرواية إلى الخلاف فيما قيل حول مناسبة الأبيات، فقيل يصف بعيده، وقيل بسبب امرأة خطبها فرفضته. وفي إصلاح المنطق: «نَقُولُ كُذِّبْتُ» دون تشديد الذا- وكُذِّبْتُ وكُذِّبْتُ: كَذَابٌ، وقال ابن جني: «ولسنا نعرف كلمة فيها ثلاث عينا غير كُذِّبْتُ وَذُرْجُحُ» الخصائص ٣: ٢٠٤.

(٣٣) البيتان الثالث والرابع في كنز الحفاظ، وقد تقدم البيت الرابع على البيت الثالث.

(٣٤) أَسْلَمَ بَدَلَ مِنَ الْجَهْمِ. انظر كنز الحفاظ: ٢٦٢.

(٣٥) إِمَاءٌ، هنا شرطية، وهي مركبة من إِنْ وَمَا الزائدة. انظر مغني اللبيب ١: ٦١.

(٣٦) يُنْكَبُ: يُعْدَلُ، يقال: نَكَبَ عَنِ الطَّرِيقِ يَنْكَبُ نَكْبًا وَنُكُوبًا، إِذَا: عَدَلَ. وكانوا يعتقدون في الجاهلية أن الرجل يحشر يوم القيامة على رجله، إِذَا لَمْ تَعْلَ راحلته عند قبره حتى تبلى. انظر المحبر: ٣٢٣.

(٣٧) في المحبر: «وَقَرَّ الْخَطِيئَةُ إِنَّ ذَلِكَ أَصُوبٌ» وأبغ المطيئة، أي: انظر كيف هي. وقوله: وَقَرَّ الْخَطِيئَةُ، أي: احذرْها، يقال: اتَّقَيْتُ الشَّيْءَ وَتَقَيْتَهُ، إِذَا حَذَرْتَهُ.

(٣٨) في المحبر، واللسان، والتاج: «وَلَقُلْ». وفي المحبر «رَمَمًا جَمَعْتُ» وفي اللسان، والتاج: «مِمَّا جَعَلْتُ». وفي المحبر: «في الهار». وفي اللسان، والتاج: «في الهام أَرْكَبُهَا إِذَا مَارَكَبُوا»- والهام: جماعات الناس، مفردا هامة. والهار: والهوار: السقوط والضعف، يقال: هَارَ البناءُ والجُرْفُ يَهْوُرُ هَوْرًا، إِذَا سَقَطَ، وَرَجُلٌ هَارٍ، إِذَا كَانَ ضَعِيفًا فِي أَمْرِهِ، وَقَالَ مُحَقِّقُ الْمَحْبَرِّ: «وَجَدْتُ بِهَا مَشَ الْأَصْلُ: (الهار: الضَرْ)». انظر المحبر: ٣٢٤.

(٣٩) في البرصان والعرجان: «مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي مَبْنَانًا وَنَافِعًا... إِنَّ الْأَوْثَقِينَ».

(٤٠) قوله: وَأَذْفَنْتَنِي: أثبتت نون الوقاية بين نون التوكيد وياء المتكلم، ويجوز إثباتها، ويجوز حذفها. انظر مغني اللبيب ٢: ٣٤٤. ويثبتها يستقيم الوزن. وقوله «الضراء»، أراد: الضراء، فقصر الممدود لضرورة الشعر، وهذا جائز لما فيه من رد الاسم إلى أصله بحذف الزائد منه. انظر ضرائر ابن عصفور: ١١٦. والضراء: الشجر الملتف في الوادي، يقال: فلان يمشي الضراء، إذا مشى مستخفياً فيما يوارى من الشجر. والديمومة والديموم: القلة يدوم السير فيها بعدها. وتَنَزَّوْ: تَنَبَّ، وَالتَّنَزُّو: الْوُثُوبُ.

(٤١) في البرصان: «مَطِيَّةٌ»- وقام حالب، أراد: حالب إبل، والحلب صنفان، حلب من قيام وهو حلب الإبل، وحلب من قعود وهو حلب الغنم، قال الزبيدي: «ونقول العرب: إن كنت كاذباً فَلَحَبْتُ قَاعِدًا، يريدون أن إبله تذهب فيفتقر فيصير صاحب غنم، فيعد أن كان يحلب الإبل قائماً صار يحلب الغنم قاعداً» التاج (حلب).

(٤٢) في البرصان ط بغداد «وَلَا يَأْكُلُنِي.. ذَفْتَم.. مِثْلُ الْغُصْبَةِ دَارِبٌ» تحريف. وفي البرصان ط بيروت: «مِثْلُ الْغُصْبَةِ»، تحريف- والفَرْعُ: ولد الضئع. والصريمة والصريم: الليل المظلم، سُمِّيَ صَرِيماً لَانْقِطَاعِهِ عَنِ النَّهَارِ. وَالْحَارِبُ: السَّالِبُ، وَالْحَرْبُ: أَنْ يُسَلِّبَ الرَّجُلُ مَالَهُ. وَالدَّارِبُ: نَضَارِي، وَالدُّرْبَةُ: الضَّرَاوَةُ.

(٤٣) في البرصان: «أَرْبُ هَلْبٌ لَا يَزَالُ مُطَابِقًا إِذَا انْتَشَبَتْ»- والأزل: الأرْسَج، الصغير العَجَز، والجمع الزَّلُّ. والأَرْبُ: الكثير الشعر. والهلب والهلب: الغليظ الشعر، والهلب: ما غلظ من الشعر. و «مَابِطًا» تحريف، ولعلها «مَبَالِطًا»، والمبالة: المجاهدة والمجالة. وَدُرِبَتْ أَنْيَابُهُ: صَارَتْ حَادَّةً، وَالدَّرِبُ: الْحَادُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

(٤٤) الخراج فرسه، وفي القاموس (خرج)، والمخصص ٦: ١٩٤: «خَرَّاجٌ كَقَطَامٍ فَرَسٌ جَرَبِيَّةٌ بِنِ الْأَشِيمِ». وَحَالٌ: أَتَى عَلَيْهِ حَوْلٌ. وَالْمُنْجِيَةُ: الَّتِي تُلْدُ النَّجَّاءَ، وَأَرَادَ فَرَسًا نَجِيَّةً، أَيْ كَرِيمةً عَتِيقةً. وَأَعْقَبَ، أَيْ: أَزَادَ جُودَةً فِي جَرَبِهِ، وَالْعَقَبُ: الْجَرِي بِجِيءَ بَعْدَ الْجَرِي الْأَوَّلِ.

(٤٥) الْأَزْرَقُ: الْبَازِي، وَالْجَمْعُ زَرَّاقٍ، عَلِي غَيْرُ قِيَّاسٍ. وَالْحَوْلِيُّ: الَّذِي أَتَى عَلَيْهِ حَوْلٌ، وَأَرَادَ قَتَاءً. وَامْتَلَأَ: أَسْرَعَ، يُقَالُ: مَرَّ فُلَانٌ يَمْتَلَأُ امْتِلَاءً، إِذَا مَرَّ مَرَّةً سَرِيعًا. وَالشَّوْطُ: الْغَايَةُ.

(٤٦) قال الامدي: «وقال لابنه يسار: البينان».

(٤٧) الخَلْب: حجاب بين القلب والكبد.

(٤٨) قوله: «فَرَشْتُ خَذَكْ»، أراد: فَرَشْتُ لَخَذَكْ، فحذف حرف الخفض من المفعول ووصل العامل إليه بنفسه لضرورة الشعر. تشبيهاً له بالعامل الذي يصل بنفسه، وهذا جائز. انظر ضرائر الشعر: ١٤٦.

(٤٩) قال التبريزي: «غزا النُعمانُ بنُ جُبَيْرِ بنِ عابدِ العَجَلِيّ، ويكنى أبا سَلْهَبٍ، فلقى فَعَسَ بنَ طَرِيفٍ، ورئيسهم أَهْبَانُ بنُ عَرُوطَةَ، فلما بصر بنو قعس بالخيول قالوا: هذه غير عليها نمر، فابتدرونها خيلهم، فلحق بهم جُرَيْبَةُ بنُ الْأَشْثِمِ، ويكنى أبا سعد، فلما رآهم رجع، واقتتل القوم، فَقُتِلَ أَهْبَانُ، وقُتِلَ الْحَصَفُ بنُ مَعْبُدٍ... فقال جُرَيْبَةُ: البيتين» شرح الحماسة ٢: ٢٧٣.

(٥٠) في أسماء الخيل للفندجاني: «تالله.. عَلَيَّ خَرَّاجٌ حِينَ تَصَرَّفُوا». وفي ابن الأعرابي: «مَنْتُ خَرَّاجٌ عَلَيَّ حِينَ تَصْدَفُ». وفي رواية عند الفندجاني: «مَنُوا عَلَيَّ الْخَرَّاجَ حَتَّى تَصَرَّفُوا» - وشراف: كحزام وقطام فرس جُرَيْبَةُ. انظر التبريزي ٢: ٢٧٣. وخرَّاج: كحزام: فرس جُرَيْبَةُ. انظر الفندجاني: ٩٤. وتَنَحَّرَفُ: تَمِيلُ وتَعْبُدُ.

(٥١) في البيت إقراء. وأنجى: عَرَقَ. والعجلة: المزاودة، وقربة الماء، والجمع: عَجَلٌ، مثل قرته وقرب. والمُخَلَّفُ: الذي يأتي القوم، وهم في ربيعهم، بالماء العذب من موضع آخر، ولا يكون إلا خلاف إلا في الربيع، وهو في غيره مستعار منه.

(٥٢) روى أبو محمد الأعرابي: أن قوماً من بكر بن وائل، على رأسهم أبو سلهب الضبيعي، ساروا يطلبون، وخرجت بنو قعس في غزي لهم أيضاً يطلبون الغنائم، فالتقى الجمعان، وقاتلوا على خيولهم، واختلف فروة بن مرثد الأسدي وأبو سلهب ضربتين، فكلاهما قتل صاحبه، وهزمهم بنو أسد، فقال جريبة في ذلك: الأبيات. انظر شرح الحماسة ٢: ٢٧٥.

(٥٣) في التبريزي: «غَيَّةُ الْغَائِبِينَ»، وأثبت رواية التصحيف والتحريف، وقال التبريزي: «ويروى: غَيَّةُ الْغَائِبِينَ» - والحُم: القَحْم، الواحدة: حُمَّة. وقال التبريزي: «من روى غَيَّةُ الْغَائِبِينَ» أراد من قتل منهم في عار تسود منه وجوههم أدرك هؤلاء القوم ثأرهم، ففسلوا ذلك العار عنهم، فكانهم بذلك حفظوا من غاب عنهم، قال أبو هلال: والوجه الأول أجود - أي: غَيَّةُ الْغَائِبِينَ، بالمهمل - لقوله كَشَفُوا ولم يقل حفظوا» شرح الحماسة ٢: ٢٧٣.

(٥٤) قوله: «صاحت صياحُ الشُّور»، أي: أصدرت أصواتاً قصيرة. والشراسيف: جمع شُرُوف، وهو رأس الضلع مما يلي البطن. والجذم: جمع جذمة، وهي السوط لأنه يقطع مما يضرب به. وقال أبو هلال: «يقول إنها عودت ترك الصهيل في الغزو، فإذا صاحت صياح الشُّور لأمر يعرض لها، وهو صوت واحد، ضربناها بالسياط لتذكر العادة» شرح الحماسة ٢: ٢٧٤.



(٥٥) الأزم: العَض. وما، هنا: مصدرية زمانية. انظر مغني اللبيب ١: ٣٠٤. وقال التبريزي في شرح البيت: «أراد بالأنياب: نوب الدهر وأحداثه. والمعنى: اعرض به مدة عضه

بك. وروى بعضهم فارزَم به مارزَم، أي: أثبت به ماثبت لك من قولهم أسد رَزَم ورِزَم، إذا جَمَّ على الفريسة وهمَّ عليها» شرح الحماسة ٢: ٢٤٧.

(٥٦) في التذكرة السعدية، ورواية في التبريزي ٢: ٢٧٤، والمرزوقي ٢: ٧٧٥: «مُثِرُ السَّعْمِ ومُثِرُ السَّعْمِ: مَظْهَرُهُ، يقال: أَشَرُ الشَّيْءِ، إذا أَظْهَرَهُ. وقال التبريزي في شرح البيت: «أي لا تَهَبِ الدهر ولا تنكسر له كأنك بمنزلة من به داء عضال لزمه فأعياء مداواته حتى يش من إقلاعه فجعل يكتمه ويخفي أثره وهو خائف مما يتعقبه، ورواه بعضهم مثير السَّعْمِ، أي: مظهره» شرح الحماسة ٢: ٢٧٤.

(٥٧) في الفاخر: «دَعُونَا» - وقوله: عَرَضْنَا نَزَالَ، أي: عَرَضْنَا أَنْ يَنْزَلَ الفريقان عن خيلهما فينصاربوا، ونَزَالَ كَقَطَامٍ بمعنى أنزَلَ، وكذا الاثنان والجمع والمؤنث بلفظ واحد. وقوله «أطَم»، أراد: أطَم، خفف التشدد في القافية، لضرورة الشعر، وهذا جائز. انظر ضرائر الشعر: ١٣٢. وأطَم: أعظم بليَّةً، والطَّامة: الدَّاهية تغلب ماسواها.

(٥٨) في المرزوقي، والتذكرة السعدية، ورواية في التبريزي ٢: ٢٧٦: «ذا بَشْم» - والعير: الإبل التي تحمل الميرة، لا واحد لها من لفظها. والمير: جلب الطعام، يقال: مَارَ عِيَالَهُ يَمِيرُهُمْ مِيرًا وامتارَ لهم، إذا أتاهاهم بميرة، أي بطعام. والشبم: البرد. والبشم: الثَّخْمَةُ والنَّقْل. وقال التبريزي في شرح البيت «إذا رويته (بشم) يكون معناه أنهم عدونا غنيمة فاستولوا عاقبة غنيمتهم، فأما من رواه (ذا شَبِم) فالشَّبِم: البرد، ويكون معناه التهكم، أي صادفوا منا خلاف ما اعتقدوه فينا. وقال أبو رياش: الشَّبِم: البرد، ومعناه صادفوا الموت والموت بارد والمم بارد» شرح الحماسة ٢: ٢٧٦.

(٥٩) قال الامدي: «جُرْبِيَّة بن الأشيم.. أحد شياطين بني أسد وشعرائها، قال بعد أن أسلم: الرجز» المؤلف: ١٠٣.

(٦٠) في الإصابة: «كُنْتُ مِنَ الذَّنْبِ كَأَنِّي فِي ظِلِّمٍ» - وقوله: كَأَنِّي فِي حِلْمٍ، أي: في ضلال، يقال: هذه أحلام نائم للأمان الكاذبة.

(٦١) قِيمُ الدِّين، أي: مقيمه والحافظ له، والقِيم: السيد وسائس الأمر.

(٦٢) في المؤلف: «قَلَمُ أَلَمٍ» بفتح اللام، تصحيف، ولا يستقيم المعنى، ولعل الصواب ما أثبت. وفي الإصابة: «قَلَمُ أَلَمٍ»، تحريف - ولم أَلَم، أي: لا أقترف إثماً أَلَمَ عليه، يقال: أَلَمَ الرجلُ فهو مُلِمٌ، إذا أتى ذنباً يَلَامُ عليه.

## تفريغ الشعر

### «١»

- ٣-١ في النوادر في اللغة لأبي زيد: ٢٨٧-٢٨٨، والتكملة (كذب).  
 ٢-١ في العمدة ١: ١٤٢.  
 ٤-٣ في كنز الحفاظ: ٢٦١-٢٦٢.  
 ٣ في جمهرة اللغة ١: ٢٥١، والخصائص ٣: ٢٠٤، واللسان، والناج (كذب)، وشرح ديوان المتنبي للعكبري ١: ٢٠٠، و٣: ٢٦٨. ودون عزو، في إصلاح النطق: ٢١٢، وتهذيب اللغة ١٠: ١٧٣، وكتاب الأفعال ٢: ١٥٠، وألف- با ١: ٥٢٣.  
 ٨-٥ في الملل والنحل للشهرستاني ٢: ٢٤٤، والمحرر: ٣٢٣-٣٢٤.  
 ٨ في اللسان، والناج (هوم).

### «٢»

- ٥-١ في الحيوان ٦: ٤٥٣-٤٥٤، والبرصان: ٢٥٢-٢٥٣.

### «٣»

- ٢-١ في أسماء خيل العرب للغندجاني: ٩٤.

### «٤»

- ٢-١ في المؤلف والمختلف: ١٠٣.

### «٥»

- ٢-١ في شرح الحماسة للتبريزي ٢: ٢٧٣، لجربية، وقال التبريزي: «وفي رواية أخرى: ... وقال الحصف- بن معبد العجلي- وهو الذي أنشده أبو تمام ونسبه إلى جربية، والصحيح أن الحصف قال ذلك».  
 ٣-٢ في أسماء خيل العرب لابن الأعرابي: ٣٨.  
 ٢ في أسماء خيل العرب للغندجاني: ٩٤.

### «٦»

- ٧-١ في شرح الحماسة للتبريزي ٢: ٢٧٣-٢٧٥، والمرزوقي ٢: ٧٧٣-٧٧٦. وقال التبريزي، «وقال أبو هلال: ورواها غير أبي تمام لسيرة بن عمرو». ومن غير الممكن الأخذ بهذه الرواية لأن المصادر أجمعت على نسبتها إلى جربية.

- ٦، ١ في الإصابة ١: ٢٦١.

- ٢ في التصحيف والتحريف: ٤٩١.

- ٤، ٣، ٦ في الحماسة البصرية ١: ٨٤.

- ٣ في شرح سقط الزند ٢: ٧٣٠.

- ٧-٤ في التذكرة السعدية: ١٤١-١٤٢.

- ٦ في اللسان (نزل)، ودون نمية في الفاخر: ٣٢٣.

- ٧ في الناج (شبنم)، ودون نمية في اللسان (شبنم).

### «٧»

- ٤-١ في المؤلف والمختلف: ١٠٣، والإصابة ١: ٢٦١.

- ١ - أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير علي بن محمد (٦٣٠ هـ)، المكتبة الإسلامية، طهران، بلا تاريخ.
- ٢ - أسماء خيل العرب وفرسانها، لابن الأعرابي محمد بن زياد (٢٣١ هـ). تحقيق: د. نوري حمود القيسي وحاتم الضامن، المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- ٣ - أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها، للأسود الغندجاني أبي محمد الأعرابي (نحو ٤٣٠ هـ). تحقيق: د. محمد علي سلطاني، مؤسسة الرسالة، دمشق، بلا تاريخ.
- ٤ - أسماء القتالين، لـ محمد بن حبيب (٢٤٥ هـ). من مجموعة نواذر المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون، ط ٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م.
- ٥ - الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر أحمد بن علي (٨٥٢ هـ). المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م.
- ٦ - إصلاح النطق، لابن السكيت يعقوب بن إسحق (٢٤٤ هـ). تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م.
- ٧ - الأفعال، للسرقسطي أبي عثمان سعيد بن محمد المعافري (نحو ٤٠٠ هـ). تحقيق: حسين محمد شرف، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م.
- ٨ - ألف باء، للبلوي يوسف بن محمد (٦٠٥ هـ). المطبعة الوهبية، مصر ١٢٨٧ هـ.
- ٩ - البرصان والعرجان والعميان والحولان، للجاحظ أبي عثمان (٢٥٥ هـ). تحقيق: عبد السلام هارون، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٢ م.
- ١٠ - البيان والتبيين، للجاحظ. تحقيق: عبد السلام هارون، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م.
- ١١ - تاج العروس، للمرئضي الزبيدي (١٢٠٥ هـ). تحقيق: عبد الستار فراج وآخرين، مطبعة حكومة الكويت، ١٢٨٥ هـ وما بعدها.
- ١٢ - التذكرة السعدية، للعبيدي محمد بن عبد الرحمن (القرن الثامن الهجري). تحقيق: عبد الله الجابوري، مطابع النعمان، النجف، ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م.
- ١٣ - التكملة والذيل والصلة، للصغاني الحسن بن محمد (٦٥٠ هـ). تحقيق: عبد العليم الطحاوي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠ م.
- ١٤ - تهذيب الألفاظ، للخطيب التبريزي يحيى بن علي (٥٠٢ هـ). تحقيق: لويس شيخو، المطبعة

- الكاثوليكية، بيروت ١٨٩٥ م.
- ١٥- تهذيب اللغة، للأزهري أبي منصور (٣٧٠ هـ). تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤ م.
- ١٦- جمهرة أنساب العرب، لابن حزم علي بن أحمد (٤٥٦ هـ). تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م.
- ١٧- جمهرة اللغة، لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن (٣٢١ هـ). دائرة المعارف العثمانية، ط ٢، حيدر آباد، ١٣٤٥ هـ (نسخة مصورة بالأوفست، دار صادر بيروت).
- ١٨- جمهرة النسب، لابن الكلبي هشام بن محمد (نحو ٢٠٦ هـ) تحقيق: محمد فردوس العظم، دار البقعة، دمشق، ١٩٨٣ م.
- ١٩- الحماسة البصرية، للبصري صدر الدين علي بن أبي الفرج (القرن السابع الهجري). تحقيق مختار الدين أحمد، معهد الدراسات الإسلامية، الهند، ١٣٧٤ هـ / ١٩٦٤ م. (نسخة مصورة إصدار عالم الكتب، بيروت).
- ٢٠- الحيوان، للجاحظ أبي عثمان (٢٥٥ هـ). تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، مصر، ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٨ م.
- ٢١- خزانة الأدب، للبغدادي عبد القادر بن عمر (١٠٩٣ هـ). تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م.
- ٢٢- الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني (٣٩٢ هـ). تحقيق: د. محمد علي النجار، دار الهدى، ط ٢، بيروت، دون تاريخ.
- ٢٣- شرح ديوان الحماسة، للتبريزي. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م.
- ٢٤- شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي أبي أحمد بن محمد (٤٢١ هـ). تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، لجنة التأليف، ط ١، القاهرة، ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م.
- ٢٥- شرح ديوان المتنبي (البيان في شرح الديوان)، للعسكري أبي البقاء (٦١٦ هـ). تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م.
- ٢٦- شرح سقط الزند، للمعري أبي العلاء أحمد بن عبد الله (٤٤٩ هـ). دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م.
- ٢٧- شرح شواهد الشافية، للبغدادي عبد القادر بن عمر (مع شرح شافية ابن الحاجب). تحقيق: محمد نور الحسن ومحمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد الزقزاق، المكتبة التجارية، ط ١، مصر، ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م.
- ٢٨- شرح مايقع فيه التصحيح والتحريف، للمسكري أبي أحمد الحسن بن عبد الله (٣٨٢ هـ). تحقيق: السيد محمد يوسف، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨١ م.
- ٢٩- العمدة في محاسن الشعر، لابن رشيق القيرواني (٤٥٦ هـ). تحقيق: محمد محيي الدين الحميد، دار الجليل، ط ٢، بيروت، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

- ٣٠- الفاخر، للمفضل بن سلمة (٢٩١ هـ). تحقيق: عبد العليم الطحاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، مصر، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م.
- ٣١- الفهرست، لابن النديم (٣٨٥ هـ). مكتبة خياط، بيروت، دون تاريخ (نسخة مصورة عن طبعة لايزغ ١٨٧١ م).
- ٣٢- القاموس المحيط، للفيروز آبادي مجد الدين بن يعقوب (٨١٧ هـ). دار العلم للملايين، بيروت، دون تاريخ.
- ٣٣- لسان العرب، لابن منظور محمد بن مكرم (٧١١ هـ). طبعة دار المعارف، مصر.
- ٣٤- المؤلف والمختلف، للأمدى أبي القاسم الحسن بن بشر (٣٧٠ هـ). تحقيق: عبد الستار فراج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ٣٨١ هـ / ١٩٦١ م.
- ٣٥- الحبر، لمحمد بن حبيب (١٢٤٥ هـ). صحفته د. إيلزة ليخن شتير، المكتب التجاري، بيروت، دون تاريخ.
- ٣٦- المخصص في اللغة، لابن سيده علي بن الحسين (٤٥٨ هـ)، المكتب التجاري، بيروت، دون تاريخ.
- ٣٧- معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي (٦٢٦ هـ). دار صادر ودار بيروت، بيروت ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م.
- ٣٨- معجم الشعراء، للمرزباني أبي عبيد الله محمد بن عمران (٣٨٤ هـ). تحقيق: عبد الستار فراج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٩ هـ.
- ٣٩- الممل والنحل، للشهرستاني (٥٤٨ هـ). محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ (مصورة عن طبعة مصر، ١٣٦١ هـ).
- ٤٠- الملمع، للنمري أبي عبد الله الحسين بن علي (٣٨٥ هـ). تحقيق: وجيهة السطل، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م.
- ٤١- المنق في أخبار قریش، لمحمد بن حبيب (٢٤٥ هـ). تصحيح خورشيد أحمد فاروق دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م.
- ٤٢- النوادر في اللغة، لأبي زيد الأنصاري (٢١٥ هـ). تحقيق: د. محمد عبد القادر أحمد، دار الشروق، ط ١، بيروت، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.



# الصوت والصورة السمعية

## في الشعر الجاهلي

«١»

د. مريم محمد هاشم البغدادي

العلاقة بين الشاعر الجاهلي والعالم من حوله علاقة حميمة، مفعمة  
بالفعل والحركة، وتمتلئ بالحياة، تلك العلاقة جعلته يحس الأشياء كما  
يراها أحياناً، ويتخطى ذلك أحياناً أخرى، فيرى في الجامد حياةً ونبضاً، ويلتفت إلى  
الحيوان فيجد فيه أنيساً يحس بإحساسه، ويتعامل معه بروح التعاطف والمشاركة  
الوجدانية، فيشعر بحضوره وإيقاع مشاركته فرحه وترحه، فيندفع نحوه،  
يصف هذه الصلة النفسية والانفعالية، ويلمس الحياة والحركة والفاعلية في  
صوته، وفي تنفسه، وفي نظراته، وفي تلفته، وفي عدوه، وفي سكونه. وترسم  
أبعاد هذه الصلة فيرى أن الحياة من حوله بما فيها من مفردات- تشاركه وجوده  
كما يشاركها وجودها، ذلك الوجود المبني على الاستجابة والعطاء، والزاخر



بالحركة والصوت، نلكما اللذان يشخصان الحياة ويبعثان على الألفة، ويتلاحمان إلى مالا نهاية .

**والصوت** - وهو نبض الحياة - ظاهرة طبيعية تدرك عن طريق السمع، وتختلف باختلاف المصدر والموقف والعمر والجنس والحالة الانفعالية والنفسية والصحية والخلقية، فمن حيث المصدر فإن صوت الإنسان غير صوت الحيوان والطير والرياح والأشياء الأخرى، وأما من حيث الموقف، فإن نبرات صوت الغضب غير نبرات الرضا والصحة والمرض وهكذا ومن حيث العمر، فإن صوت الطفل غير صوت البالغ والعجوز، والأمر نفسه بالنسبة للرجل والمرأة، كما أن هناك أصواتا خشنة وأخرى رقيقة، وأصواتا هادئة وأخرى ناعمة، وهناك الحادة والندبة، ومن هنا، فإن الصوت من حيث رنينه يختلف ويتعدد بتعدد المصادر كما سيأتي لاحقا.

**وينشأ الصوت** عن «اهتزاز الأجسام الصلبة أو السائلة أو الغازية، وبانتقال هذه الاهتزازات خلال الهواء أو أي وسط آخر مرّن يؤثر في الأذن، محدثة مانسميه الصوت، وهذه الاهتزازات الناتجة إما أن تكون منتظمة أو غير منتظمة، فإن كانت الأولى سمي الصوت الناشئ عنها بالصوت الموسيقي، وإن كانت الثانية سمي دويًا»<sup>(١)</sup>.

**ويقصد** بالأجسام الصلبة المعادن وماشابهها، والسوائل الماء ومايجري مجراه، وبالغازات الهواء، وينتقل الصوت حين يتحرك من «الشيء المهتز في كل الاتجاهات، مثل الأمواج التي نراها عندما نسقط حجراً في الماء، فالموجات - الناتجة عن اهتزاز جسم ما - مثل التموج في الماء، تتحرك إلى الخارج في دوائر تزايدية، وعندما يتحرك خيط المطاط = مثلاً - إلى الأمام والخلف أي يهتز، فإن جزيئات الهواء الذي حوله تفعل نفس الشيء تماماً، فهي تندفع للأمام عند كل حركة أمامية للجسم المهتز، ثم تعود إلى وضعها الأصلي لتبدأ الحركة مرة أخرى.... وتتحرك جزيئات الهواء في حركتها الأمامية حركة تكفي لإزاحة جزيئات الهواء التالية لها، والتي تتحرك بدورها حركة أمامية لإزاحة جزيئات أخرى، وهكذا تصل الاهتزازات إلى آذاننا. إن طبلة الأذن مثل طبلة الأوركسترا تماماً، فعندما ترتطم بها جزيئات الهواء المتحركة، فإنه لا يوجد هواء لتحركه ولذلك فإنها تحرك طبلة الأذن بدلاً من الهواء فتهتز وتتحوّل الاهتزازات إلى دفعات حسية تذهب إلى العقل الذي

يفسرها على أنها صوت». (٢) وإذن، فإن الحصول على صوت لا يتم إلا بوجود حركة ما.

وللصوت سرعة كما هي للضوء، إلا أن سرعة الصوت لا تزيد على أربع مئة وبضعة عشر متراً في الثانية، بينما تصل سرعة الضوء إلى ثلاث مئة ألف كيلومتر في الثانية، وتزداد سرعة الصوت بازدياد حرارة وكثافة وضغط الوسيط، ومن الغريب أن الفراغة أدركوا هذه القيمة، ولذا استفادوا من أشعة الشمس، وسخروها لتسخين الهواء وتشغيل «الصفارات»، وإحداث أصوات ذات مدلولات دينية... فقد أقيمت في تلك الأونة تماثيل جوفاء مشقوقة عند أقدامها وأفواهها، وحين كانت تشرق الشمس كان هواء جوف التماثيل يتمدد مطلقاً صفارات من أفواهها، فيما يحل محله هواء بارد يدخل من الشقوق قرب أقدامها». (٣) وبين الموقف العلمي الذي أشرنا إليه والموقف التجريبي عند قدماء المصريين، تبدو فلسفة الصوت عند بعض المفكرين تابعة من تخيل مغاير، فقد ذكر العالم (جوتسمان) إن «أول صراخ الوليد ومدلوله هما الطلسم الذي حاول الناس تفسيره، فاعتقدوا أن صراخ الذكور عتاب لسيدنا آدم، وصراخ الإناث عتاب لحواء.... بينما يرى (ميشيليب) أن صراخ الوليد فزع من استيلاء الطبيعة عليه، واستكانة لها.

وزعم آخرون أنه احتجاج ضد الولادة ومنازلته لمعترك الحياة المفعمة بالبؤس والضيق»، والرأي الأخير له ما يشابهه عند بعض شعرائنا القدامى ممن فلسفوا سبب تبرمهم بالحياة، وضيقهم بالأعيابها ويغدر الأيام وتقلبها، ومع ذلك فقد يرى العلم تفسيراً غير هذا لصوت الطفل، من حيث إنه يمثل درجة من درجات الرنين في أول مراحل حياته، إذ يتدرج هذا الصوت أو هذا الرنين فيبدو في مرحلة الطفولة غيره في مرحلة البلوغ والشباب والشيخوخة، وكلما تقدمت به السن انخفضت منطقة الصوت وتنزل إلى منطقة الأصوات الغليظة- كما يقول المختصون- فصوت المرأة يصبح أكثر خشونة ويقترب من صوت الرجل كلما تقدمت بها السن، وكذلك الحال بالنسبة للرجل، إذ تقل شدة صوته كما «تضيق منطقة أصواته الغليظة التي تسمى فنياً بالأصوات الصدرية. وضعف الصوت ناشئ عما يحصل من الضعف التدريجي في القوة الحيوية وانخفاض الضغط التنفسي». (٤)

ولقد قسم بعض الدارسين الصوت أنواعاً، منها الخفي ومنها الشديد والمبهم،



ويحتوي كل من هذه الأصوات درجات يحددها الرنين، وعليه، فقد رأوا أن (الدندنة) هي الكلام السموع وإن لم يكن مفهوماً لأن المصدر يخفيه، أما (النبأة) فهي الصوت القليل الشدة، و (النأمة) هي الصوت الضعيف للإنسان أو لحركته أو وطء قدميه، أما (الهسهسة) فهي الصوت الخفي عامة، وهذه الدرجات تعدّ من الأصوات الخفية. أما الأصوات الشديدة فتتجسّد بالصراخ، وهو الصوت الشديد عند الفزع، و (الصياح) وهو صوت كل شيء إذا اشتد، أما (العج) فهو رفع الصوت بالتلبية، غير أن (التهليل) هو رفع الصوت بلا إله إلا الله، و (الاستهلال) صياح المولود عند الولادة، و (الزجل) رفع الصوت عند الغناء والطرب، بينما (النقع) الصراخ المرتفع.

ويقسم العلماء الأصوات المبهمة إلى (لفظ) وهو صوت مبهم غير مفهوم، و (تغمغم) وهو صوت كلام لا يبين و (لجب) وهو صوت العسكر، و (ضوضاء و جلبة) وهو اختلاط أصوات الناس والدواب، وقد رأوا أصواتاً للدعاء والنداء، منها (الهلثاف) وهو الصوت بالدعاء، و (الجخخة) وهو الصياح بالنداء، و (الجأأة) وهي نداء الإبل للشرب، و (الهاهأة) وهي نداؤها إلى العلف، أما (الابساس) فهو نداء الإبل إلى الحلب، و (السأسة) نداء الحمار... إلخ.

ولقد ميزوا بين صفات الأصوات فوجدوا منها (الشجي) وهو أحسن الأصوات وأصفاها وأكثرها نغماً، ومنها (الناعم) وهو الصوت الموقّع، و (الرطب الندى) وهو السلس، و ((الجهوري) وهو الغليظ ذو النبرات الفخمة، و (الأبيح) ذو البحة المليحة إن كانت طبيعية غير طارئة، و (المدور) وهو ذو النبرات الظاهرة دون حدة، و (الأغن) ذو الغنة الواضحة المليحة النغم، و (الكرواني) الرقيق الصافي. أما (الصياحي) فالنافر الشاذ، و (المصهرج) وهو الخالي من الترجيع والنغم، و (المصلصل) وهو الجاف الخالي من الحركة الفنية، و (الأخن)، وهو الخارج من الأنف، و (المرتعد) المصحوب بعة أو مرض، و (المقعقع) وهو الشبيه بكلام اليادية. أما (الخشن) فهو الخارج من الفم وكأنه مصحوب بلقمة طعام، و (الصرصوري) وهو الحاد المنفر، أما (المظلم) فهو الخافت الذي لا يكاد يسمع، و (الأجوف) وهو القوي الخارج من جسم ضخم لانغمة فيه.<sup>(٥)</sup>

إن التحليل العلمي لهذه التقسيمات الفنية يبيّن أن الأصوات الصاخبة والهادئة والعالية والمنخفضة هي نتيجة اختلاف الاهتزازات التي أشرنا إليها، فقررع الطبل

مثلاً- إذا كان شديداً-يسبب اهتزازات عنيفة تجعل طبلة الأذن تهتز أكثر، وذلك على خلاف النقر على الطبل بخفة، وكلما بعدنا عن مصدر الصوت كلما ضعف وأصبح أكثر هدوءاً. وتعتمد الطبقات الصوتية على عدد الاهتزازات التي يحدثها الصوت، فإذا كان عدد الاهتزازات كثيراً في الثانية الواحدة، فإن الصوت يكون عالياً، بينما إذا قلّ العدد فإن الصوت يكون منخفضاً، ويمكن ملاحظة الأمر نفسه في الآلات الموسيقية، إذ إن النغمة العالية قد تهتز (٣٥٠٠) مرة في الثانية، بينما تهتز النغمة المنخفضة (١٥٠) مرة فقط، وهكذا نرى أن نوعية الصوت واختلاف المصدر والبعد والقوة والضعف وعدد الاهتزازات، كل ذلك يتدخل في تحديد صفة الصوت.<sup>(٦)</sup>

**وللصوت علاقة بالعلوم الإنسانية والطبيعية الأخرى، فلم التجويد مثلاً يرتكز أساساً على الصوت وتطويعه لخدمة القراءة الصحيحة الواردة عن النبي ﷺ، ومن هنا كان الاهتمام بمخارج الحروف من أهم الدروس التي يتلقاها طالب علم التجويد، ولاشك في أن هذه المخارج تشبه- إلى حد بعيد- الآلات الموسيقية من حيث اختلاف درجات النغمة تبعاً للألة نفسها، فالحنجرة مثلاً وقاعدة سقف الحلق والأحبال الصوتية والعضلات التي تتحكم في الفتحة بين الأحبال الصوتية، والفم والأنف والجيوب الأنفية وغيرها، كلها تتحكم في رنين الصوت ودرجته وعلوه وانخفاضه وهدوئه وصخبه، ومعلوم أن الصوت البشري هو نتيجة اندفاع تيار من الهواء «صادر من الرئتين بين الأحبال الصوتية في الحنجرة، وتنقل اهتزازات الأحبال الصوتية إلى الفجوات الرنانة المكونة من الحنجرة وسقف الحلق...» ولعل الحنجرة أول آلة صوتية تتحكم في درجات الصوت من خلال مفعول العضلات المتحركة في الفتحة بين الأجيال الصوتية، وتوترها، واندفاع الهواء المتوجّه إلى هذه الأحبال، ويتحدد نوع الصوت من خلال الأثر الرنان للفجوات الهوائية المختلفة كذلك التي في الصدر والفم والحلق والأنف، ومن هنا عرفت في علم التجويد اصطلاحات صوتية تنطلق من هذا التحكم في مفعول العضلات، منها الإدغام والإظهار والإقلاب والإخفاء وغيرها مما يتصل بمخارج الحروف من حيث التماثل والتجانس أو الاختلاف، وهكذا<sup>(٧)</sup> ولعل الأمر نفسه ينطبق على علم الموسيقى وعلاقته بالصوت، وكذلك الغناء وأساليبه، فالموسيقى تعتمد على قواعد توافقية (هارمونية) معينة، تضم تردد النغمات من أقلها وهي الـ (Bass) الغنائي، إلى أعلاها تردداً وهو الـ (Soprano)، وفي كل**

الحالات تؤدي الأوتار- وهي تقابل الأحبال الصوتية في الكائن الحي- وظيفة مهمة في تحديد درجة انخفاض الصوت أو ارتفاعه وهدونه وصخبه. وقس على ذلك أنواعاً أخرى من العلوم التي ترتبط بالصوت، أو لها به علاقة ما، مثل علم الأصوات (النطقي، والسمعي، والفيزيائي) وعلاقته بعلم التشريح وعلم الأحياء وعلم وظائف الأعضاء، ولاشك في أن هذه العلوم تقود إلى ميادين أخرى منها هندسة الصوت وما يتصل بها من أمور تبين طبائع الصوت الإنساني من حيث مكونات الحركات، والحزم الصوتية للصوامت، وانتقال الصوت في الهواء ورد فعل الأذن لهذه المثيرات كلها.

**والأصوات أنواع:** إنساني، وحيواني، وأصوات الطير والحشرات، وأصوات مناخية كالرياح والرعد والمطر وأصوات الأشياء وهي نوعان أساسيان: أشياء طبيعية كالأخشاب والأحجار وبقية الجمادات التي تصدر الأصوات عن طريق الضرب والطرق والخبط والحركة والاحتكاك بفعل خارجي عنها، وآلية كالعود والبربط والصنج والون والطنبور والطبل... إلخ.

ولقد حفلت اللغة بكثير من المفردات الدالة على الصوت، منها ما هو صريح مباشر، ومنها ما يوحى بالصوت إيحاء، ومن ذلك لفظ «أجاب»، والجواب رديد الكلام، والإجابة رجع الكلام، يقال: أجاب إجابة وجواباً وجابة، واستجوبه استجابة واستجاب له، والمجوبة والتجاوب والتحاور، وفي الأخير صوت، كما يقال إن الجواب صوت الجوب وهو انقضاء الطير.

**أما (الخبب)** فضرب من العدو (والصخب) الصياح والجلبة وشدة الصوت واختلاطه، و (الطرب) وهو الفرح والحزن، والتطريب ترجيع الصوت ومدّه وتحسينه، و (الجب) الصياح وارتفاع الصوت واضطرابه واختلاطه، و (التحيب) رفع الصوت بالبكاء، و (الندب) وهو البكاء وتعداد المحاسن، وفي كل صوت، و (النزيب) وهو صوت تيس الظباء، و (التعيب) وهو صوت الغراب وجاء في صوت القرس أيضاً، و (هبوب) الريح وهو صوت ثورانها وهياجها، و (الإهابة) وهي صياح الراعي بغنمه لتقف أو ترجع، و (الوجبة) وهي صوت السقوط فيسمع له كالهدة، و (الاستغاثة) وهي الصياح بواغوثاه، و (الخوات) وهو صوت خص أبو حنيفة به الرعد والسيل، و (الشحيج والشجاج) صوت البغل والحمار والغراب إذا

أسنّ، وهو بالبغل والحمار أخصّ، و (الصنج) وهو في الدفوف عند العرب وفي الأوتار عند العجم، ويطلق على الآلة نفسها أيضاً، و (الضجيج) وهو الصوت بضجة عند المكروه أو المشقة والجزع أو المشاغبة والمشارة. و (العجيج) وهو الصياح، ويقرن بالبعير والقوس والريح أحياناً، و (النشيج) وهو الصوت وأشدّ البكاء مع توجع، أما (الجهجة) فصوت المرء إذا صاح بالأسد أو الناقة وزجرهما، وأما (الهزج) فصوت مطرب دقيق مع ارتفاع وترنم، وأما (البحة والباح والباححة) فكلها غلظ وخشونة في الصوت، و (الصدح والصداح) هما رفع الصوت بالغناء وغيره، و (النبح) صوت الكلب ويقرن بالظبي والتيس والحية أحياناً، أما (النوح) فصوت النائحات من النساء، ويطلق أحياناً على صوت الريح، و (الصراخ) وهو الصوت الشديد، وصوت الاستغاثة، و (الرعد) وهو صوت يسمع من السحاب، و (التغريد) هو التطريب في الصوت، أما (النشيد) فرفع الصوت، و (الهدّة) صوت مايقع من السماء، و (الهدد والهدد) الصوت الغليظ، أما (الجوار) فرفع الصوت مع تضرع واستغاثة، وكل هذه الأصوات وردت في الشعر الجاهلي، بالإضافة إلى: (الخوار) وهو مااشتد من صوت البقرة والعجل، و (الزئير) وهو صوت الأسد الغاضب وتردّد صوت الفحل في جوفه، و (الزجر) وهو النهي عن المضي في حاجة بارتفاع وشدة، أما (الزحير) فإخراج الصوت أو النفس بأنين عند شدة أو عمل مضن، و (التذمر) وهو رفع الصوت في العتاب، و (الزمر) وهو صوت المزمار، أما (الزمار) فصوت النعامة، و (الزمجرة) الصوت الخارج من الجوف، و (الصرصر والصرير) فالصوت المتكرر وفيه ترجيع، و (العرار) صوت الظليم، بينما (الهدير) صوت البعير في حنجرته، و (الهرير) صوت الكلب دون النباح من قلة صبره على البرد، وأما (الأزيز) فصوت غليان القدر، والرعد البعيد، و (الرز) كل صوت بعيد لاتراه شديداً أو ضعيفاً، و (الركز) الصوت الخفي وليس بالشديد، و (الجرس) مصدر الصوت المجروس، و مناقير الطير على شيء تأكله، و (الحس والحسيس) فهو الصوت الخفي والحركة والرنة، أما (الهجس) فصوت غير مفهوم، و (الوسوسة والوسواس) هما الصوت الخفي من ريح، وحلي، و (الجشيش والجشة) وهو صوت غليظ فيه بحة يخرج من الخياشيم، وهو أيضاً أحد الأصوات التي تصاغ عليها الألحان، أما (الخشخشة) فهي صوت السلاح وكل يابس يحك بعضه بعضاً، و (فصيص) الجندب صوته،

و(الأطيط) صوت الرَّحْل الجديد والإيل من حمل أثقالها يخرج من أجوافها، و(الزيط والزياط) هو الصوت عند المنازعة والتخاصم، و(الغطيظ) وهو الصوت الخارج من نفس الثائم وهو ترديده، وأما (الترجيع) فهو ترديد الصوت في الحلق وتقارب ضروب الحركات فيه سواء أكان ذلك في قراءة أم غناء أم زمر وغيره مما يترنم به، و(القعة) حكاية أصوات السلاح والجلود اليابسة والحجارة والرعد، و(المعمعة) صوت الحريق في القصب، والشجعاء في المعركة، و(الحفيف) صوت الشيء تسمعه كالرنة أو طيران الطائر أو الرمية أو الريح أو أخفاف الإبل إذا اشتد جريها و(الخفخة) صوت الجباري والضبع والخنزير والثوب الجديد والقرطاس إذا حركتهما، ولصوت المرأة إذا خرج من أنفها، و(الهتاف) وهو الصوت الجافي العالي، و(البعاق) شدة الصوت، و(الشهيق) أقبح الأصوات، وهو ترديد البكاء في الصدر أيضاً وآخر صوت الحمار، و(الصفق والتصفيق) وهما الضرب الذي يسمع له صوت هذا وقد ورد في الشعر غير ذلك من ألفاظ صوتية، نذكر منها (النعيق) وهو دعاء الراعي الشاء والصياح بها لئزجرها، أما (النغيق) فهو صياح الغراب، و(النهاق والتهيق) صوت الحمار، و(الجلجلة) هي الحركة مع الصوت الشديد الحاد، و(الزجل) هو رفع الصوت والجلبة عند اللعب، وخصّ فيه التطريب، وقد جاء أيضاً مع الرعد والريح، أما (الأزمل) فهو الصوت الغليظ، و(الصحل) حدة الصوت مع بححّ وحشرجة في الصدر، و(الصلصلة) هو الصوت المرجع المضاعف، ويأتي مع الرعد إذا صفا والحديد والحلي والطين اليابس و(الصهل) هو حدة الصوت مع بحح كالصحل، ويأتي مع الخيل، و(العول والعويل) رفع الصوت بالبكاء، ويأتي مع القوس أحياناً، و(الانهلال) صوت المطر الشديد، و(الإهلال) رفع الصوت بالتلبية، و(الاستهلال) مثله، أما (البغام) فهو صوت الطيبة، و(الحمحمة) صوت البرذون عند الشعير، وصوت الفرس حين يقصر في الصهيل، وهو دون الصهيل والصوت العالي، و(الرزمة) صوت حنين الناقة إلى ولدها تخرجه من حلقها لاتفتح به فاهها، ومثله (الإرزام)، وقرن بالرعد إذا اشتد صوته، والسباع، أما (الزمزمة) فصوت ترابن الطلوج عند الأكل، وهو كلام يقولونه بصوت خفي لا يكاد يفهم، وقرن أحياناً بالرعد إذا كان صوته بعيداً له دوى كما يرى ابن سيده، و(الغغمغة) و(التغمغم) هما الكلام الذي لا يبين، و(الرنيم والترنيم) تطريب الصوت، أما (النأمة) فالصوت

الضعيف كالأنين يكاد يخفى، و (الهزمة والاهترام والتهزّم) صوت جري الفرس وهو شبيه بالتكسر ويقرن أحياناً بالرعد والسحاب والقدر إذا اشتد غليانها، و (الهمهمة) صوت البقر والغيلة ونحوها، لا يفهم، وهو ترديد الصوت في الصدر، أما (النهيم) فشبّه الأنين، ويكون ضرباً من التوعّد والزجر أحياناً، و (الأنين) صوت التأوّه والألم الممتد، و (الحنين) ترجيع الصوت في حالتي البكاء والطرب، ويقرن بالقوس والعود أيضاً، أما (الرنّة) فهي الصيحة الحزينة، ومثلها (الرنين والأرنان) وهما الصوت الحزين عند البكاء أو الغناء، وتأتي أحياناً مع القوس في إنباضها، والمرأة في نوحها والسحابة في رعدها والماء في خريره و (اللحن) وهو ترجيع الصوت والتطريب وتحسين القراءة والشعر والغناء، أما (التأوّه) فهو صوت التوجع، و (الرغاء) صوت ذوات الخف، و (الزقو والزقاء) صوت كل صائح كالديك والطائر والصدى والهامة، و (الصدى) هو صوت ما يجيبك من صوت جبل أو نحوه بمثل صوتك، ويعتقد القدماء أنه ذكر البوم والهامة أثناء، أما (البكاء) فهو الصوت المعروف الحزين، و (الدوي) صوت الرعد والريح والنحل والفحل ليس عالياً، و (العواء) صوت السبع والكلب والذئب، و (الوغي) هو الصوت في الحرب وغمغمة الأبطال، وصوت النحل والبعوض، أما (النبأة) فهي صوت الكلام، والجرس أيّا كان والصوت الخفي.

هذا وهناك مفردات توحى بالصوت وردت في الشعر الجاهلي أيضاً، نختار منها: الحديث، الضرب، التسبيح، السح وهو انصباب الماء، النفخ، الرد، الإسعاد، التنديد، النعوذ، الكسر، الوقوع والارتطام، نشر الريح، الانتهاز، الإنذار، النهز، الجيشان، الركض، الخبط، السجع، السمع والسمع، القرع، البصاق، الحك، السؤال، التعلّل، النطق، الضحك والهزق، الصك وهو الضرب الشديد بشيء عريض، الترتيل، التناجل وهو تنازع القوم، الولولة وهو الصوت المتتابع بالويل والاستغاثة، الشتم والسب، اللطم، الدعاء، الشكوى، اللغو، النجوى، الغليان، النعي.

أما الآلات الموسيقية التي تردد ذكرها في الشعر الجاهلي، وهي مصدر الصوت، فإنها كثيرة ومتنوعة، تختار منها: الون، الصنج، الطبل، البربط، الناقوس، الروقش<sup>(٨)</sup>.

هذه المفردات الصوتية نراها تلون الصور السمعية وتوحي بإحساس العربي

الأصيل والعميق بالصوت، ودقة تمييزه بين أنواعه ودرجاته ومصادره، وإبداعه في رسم هذه الأصوات بحيث تتجسد أمام المتلقي، فتبدو الصورة الذهنية للصوت صورة واقعية، مسموعة ومرئية، وكأنني بالمرء يرى حركة الشفاه، ويتلمس هيئة التنفس، وحركة أعضاء النطق في حالات الصراخ والوشوشة، في حالة الثورة والهدوء، في حالة السرور والغضب، في حالة الخوف والطمأنينة، وفي حالة البعد والقرب. وكأن الشاعر الجاهلي أيضاً كان عالم أصوات، يصفها فيجعل لها أنواعاً وصفات تشير إلى أوضاع أعضاء النطق في كل حالة، وذلك من خلال رسمه للصورة السمعية بوحداثها الصوتية التي تختلف باختلاف السياق الذي تقع فيه.

ولقد جعل الإحساس بالصوت الشاعر الجاهلي يختار الألفاظ والحروف التي تحقق له صورته الفنية، وكأنه كان يعلم خواص الحروف وماتحققه من معنى في تكوين الكلمة، ويعلم أيضاً موسيقا الكلام أو الدلالة التنغيمية في التمييز بين المعاني المختلفة للكلمة أو الجملة أو السياق، ومن ثم التمييز بين المواقف، ونعني بذلك أن استخدامه لها في مواقف مختلفة يحدد المعنى المراد، كأن يستخدمها في التعبير عن الاستفهام أو عدم الاهتمام أو الإنكار أو الاشتزاز أو غير ذلك من مواقف تسهم في فهم النص الإبداعي أو الصورة الفنية التي يريد الشاعر أن يوصلها إلى ذهن المتلقي ويقرّبها من صورته.

**ولعلنا** - قبل عرض صورة الصوت الشعرية - نعرض لبعض الصور السمعية التي وردت في القرآن الكريم، لكونه مصدراً مهماً لتوضيح إحساس العربي بالصوت، وتصوير الانطباع السمعي لديه، ولقد رسم القرآن صوراً للصوت الإنساني والحيواني والناخي، وإن كان الصوت الإنساني قد حظي بالنصيب الأوفر من خلال الألفاظ: (قال، نادى، سمع، صاح، صرخ، استصرخ، جهر، ناجى، همس، ثم: صيحة، بكاء، صريخ، ضحك، صفيق، حديث، دعاء واستغاثة.) ثم الصوت الحيواني من خلال الألفاظ: (خوار، صوت الحمار دون ذكر نوعه، ثم صوت الأشياء والظواهر المناخية من خلال: رعد، صواعق، صر، ريح، صوت النار) (شقيق وزفير) حسيس وصرصر).

**فمن** الآيات التي استحضرت الصور الذهنية للصوت الإنساني، نختار قوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعُوا قُلُوبَنَا وَعَصَيْنَا﴾ وعن اليهود ﴿فَدَكَانَ فَرَيْقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ

كَانَ اللَّهُ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴿١٠﴾ ، ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ ﴾  
 وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴿١١﴾ ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ  
 لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ﴾ ، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَةً ﴾ ، ﴿ وَإِذْ أَسْأَلُكَ عَبْدِي عَنِّي  
 فَأِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١٢﴾ ، ﴿ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَكَ ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ آيَةِ  
 بَيْنَةٍ ﴾ ، ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ ﴿١٣﴾ ، ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ  
 الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ ، ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ ، ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي  
 حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ ﴿١٤﴾ ، ﴿ وَإِذْ أُنَادِيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ أَتُحْذَرُوهَا هُزُوا ﴾ ، ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ  
 الْآلِيَةِ إِلَّا مَكَاةً وَتَصْدِيَةً ﴾ ﴿١٥﴾ ، ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ ،  
 ﴿ وَأَمَرْتُهُ فَقَامَهُ فَضَحِكْتُ ﴾ ؛ وعن إخوة يوسف عليه السلام ﴿ وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءً  
 يَبْكُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ .

وعلى لسان الشيطان ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِمْ ﴾ ﴿١٧﴾ ، وعن يوم  
 القيامة: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ أَعْوَجَ لَهْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا  
 هَمْسًا ﴾ ﴿١٨﴾ ، ﴿ وَأَسْرَأُ السَّجُودَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ، وعن استغاثة زكريا عليه السلام  
 ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ ، ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ  
 مَا تَكْتُمُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ ، وفي قصة موسى عليه السلام ﴿ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَصْرَفْتَهُ بِالْأَمْرِ يَسْتَصْرِخُهُ  
 قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ ، وعن الكفار في النار ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَسُولًا  
 أَخْرَجَنَا لَعْمَلِ صَالِحًا ﴾ ﴿٢٠﴾ ، ﴿ وَإِنْ تَسَاءَلْتَهُمْ فَلَا يَصْرِخُ لَهُمْ ﴾ ﴿٢١﴾ ، ﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا  
 لَا تَرْفَعُوا أَصْوَارَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ ، ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ  
 أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ ﴾ ﴿٢٢﴾ ، ﴿ وَأَسْمِعْ يَوْمَئِذٍ السَّمَاةَ مِنْ تَحْتِهَا  
 قَرِيبٌ ﴾ ﴿٢٣﴾ ، وعن امرأة إبراهيم عليه السلام وهي تصرخ وتضرب وجهها ﴿ فَأَقْبَلَتْ  
 أَمْرًا ثُمَّ فِي صَرْخٍ فَصَبَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ ﴿٢٤﴾ ، وكأنها استهجن أن تلد  
 في هذه السن المتقدمة، وصراخها هنا صراخ دهشة وفرح، وأما الصوت الخفيض أو  
 الوسوسة فجاءت في قوله تعالى ﴿ فَاطْلُقُوا هُمُزَيْنَهُنَّ ﴾ أي يتهايمسون لئلا يسمعون  
 أحد، وعن المنافقين ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ ﴿٢٥﴾ .

ولقد جاءت المفردات "صيحة- زجرة في سياق الحديث عن يوم النفخ في الصور  
 والقيامة، وفي سياق ذكر نعمة الله في الدنيا من الذين كفروا يخسف الأرض بهم،  
 ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ ، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ ﴾ ، ﴿ إِنْ



كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً ﴿٢٢﴾ ، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَّةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٢٢) ،  
﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ ، ﴿فَأَنبَأَهُمُ رَجَّةً وَجِدَةً﴾ (٢٣) .

أما الصوت الحيواني فجاء في سياق الحديث عن العجل والحمار ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَخَذَ قَوْمٌ مِّنْ بَعْدِهِمْ مِّمَّنْ عَلَّمَهُمْ عِبْرَةَ جَسَدِ اللَّهِ حُورًا﴾ ، وقوله ﴿إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتَ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (٢٤) .

أما الصور الصوتية المناخية ، فقد وردت في سياق الوعيد وغيره ، ومنها قوله تعالى : ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي مَا أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾ ، ﴿يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ (٢٥) ، ﴿مِثْلَ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمِثْلِ رِيحٍ فِيهَا مِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْ﴾ ، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ (٢٦) . أما صوت نار جهنم فجاء في قوله تعالى ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَاشِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ ، ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِّنَ امْكِانِ بَعِيدٍ حَبِغُواهَا تَغْنِطًا وَزَفِيرًا﴾ (٢٧) . ولقد استخدم (الشهيق والزفير) في قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (٢٨) ، (والزفير هو صوت نفس الإنسان وأول نهيق الحمار ، والشهيق آخره) .

ومادام الصوت أثرًا سمعيًا يصدر طواعية عن أعضاء النطق ، فإن وصفه يشير - بطريق غير مباشر - إلى حركتها ووضعها ، كما يشير إلى الآثار السمعية التي تنتشر في الهواء في صورة ذبذبات صوتية ، أشار إليها الشاعر الجاهلي - دون وعي - معبرا عن إحساسه الفطري بالأصوات إحساساً مميزاً ودقيقاً .

والصور السمعية التي نرمي إليها هي الصور الفنية التي تستثير رصيدنا المعرفي الخاص بالصوت ، وتستدعي من الذاكرة ما يشعرون بالزنين متجسداً في صور بصرية حقيقية ، نعيد صياغتها مع الشاعر بكل ما فيها من مضامين ومواقف شعرية . والشاعر المبدع يستطيع أن ينقل إلينا القيم الجمالية للصوت من خلال تشكيل لغوي يستثير الخيال ويستدعي الخبرات الانفعالية لدى المتلقي ، فيشعر بفرح أو حزن أو خوف أو طمأنينة أو رضا... إلخ .

وهكذا ، ينقل إلينا هذا الشاعر نبض الصور الصوتية ، فنسمع زئير الأسد ورغاء الناقة وصهيل الخيل ، والزجل المطرب ، وصلصلة الحديد ، ووسوسة الحلبي ، وتغريد الطير ، ونقر الدف ، وغير ذلك من أنواع صوتية تعترف عليها وشكلت المعجم

اللغوي للأصوات.

**فإذا** استعرضنا لوحات الصوت، يقابلنا الصوت الإنساني يرن بين الحرب والسلام، بين البكاء والضحك ووسط مجلس أنس وغناء، على سرير مريض أو على سرير سلطان، يعلو أحياناً بحيث يصبح صراخاً وصياحاً، ويخفت أحياناً أخرى ليصبح وشوشة تكاد لا تسمع.

**والصوت** - دون تحديد نوعه ودرجته وصفته - كثر وروده في الصور الفنية التي تضم الحمر الوحشية ومثلاتها، وهي تصيخ السمع لتمييز مصدر الصوت، وما يتبعه من تحركات تعرضها للأذى، كوقوعها في يد قانص مثلاً. ويرسم أوس بن حجر أطراف لوحة من هذه اللوحات يظهر فيها حمار وحش متلفتاً، ويستروح هل يجد ريح إنسان، إذ يبدو وكأنه يسمع صوتاً يخشاه وإن لم يتبينه جيداً بعد، يقول أوس:

**يصرّف للصوات والريح هادياً      تميم النضي كدحته المناسف<sup>(٢٩)</sup>**  
**ويأتي المخضرم التقليدي أبو ذؤيب الهذلي بصورة أخرى لثور مسن، يرمي**  
**بطرفه إلى الأمكنة المطمئنة لما آتاه صوت منها وأراد التأكد من طبيعته ومصدره:**

**يرمي بعينه الغيوب وطرفه      غص يصدّق طرفه ما يسمع**  
**أما الآن فإنها تسمع حساً بعيداً أتيا من وراء حرة مرتفعة، ويراه أبو ذؤيب**  
**فيرسم لها هذه الصورة:**

**فشرين ثم سمعن حساً دونه      شرف الحجاب، وريب قرع يقرع<sup>(٣٠)</sup>**  
**أما أعشى قيس فيستخدم لفظ (النبأة) ليرسم صورة لثور آخر يصيخ أسماعه**  
**إصاخة من يستمع إلى منشده:**

**يصيخ للنبأة أسماعه      إصاخة الناشد للمنشد**  
**ضم صماخيه لتكرية      من خشية القانص والموسد<sup>(٣١)</sup>**  
**وإذا، فإن الثور هنا - في إصاخة سمعه - يحاول أن يتعرف على الصوت ليأخذ**  
**حذره قبل أن يكون مصدره قانصاً ما يوقعه في الشرك، وهو ما يخشاه.**

**وتبدو ملامح الظليم - في تشكيل علقمة بن عبدة - ساكنة، مما يشير إلى أنه لم يسمع**  
**صوتاً، ذلك الصوت الذي حرص الشاعر على ذكره في التشكيل غفلاً من أي وصف**  
**كما هو الحال مع غيره من الشعراء في مواقف مشابه، إذ يرون أن أكثر الألوان**  
**ملاءمة هنا هو رصد (الصوت) دون ملامح تميزه، يقول علقمة:**

**فـلـوـه كـشـقّ العـصـا لـأَيـاً تـيـتـه أسـك ما يـسـمـع الأـصـوات مـصـلـوم**  
**أما سويد بن أبي كاهل،** فـيـتـرك سـامـع الصـوت دون تحـديـد مـلـامـحـه أو نـوعـه أهـو  
 إنـسان أم حيوان، كما لا يحدّد ملامح الصوت، وإن كان يبدو ساكن القفر هذا الذي  
 يرسم صورته حيواناً ناصباً أذنيه للاستماع:  
**ساكن القفر أخو دوية** **فإذا ما أنس الصوت امصع<sup>(٣٢)</sup>**  
**أما النابغة الذبياني** فيصور عظمة النعمان بن المنذر في لوحة نابضة يكسوها  
 الضوء:

**لا يـخـفـض الرزّ عن أرض ألم بها ولا يـضـلّ على مصباحه الساري<sup>(٣٣)</sup>**  
**والرزّ هو الصوت** تسمعه من بعيد ولا تدرى ماهو، وإذا، فهو صوت غفل ليس  
 بالشديد، وهنا يكون الشاعر قد حدد- بعض الشيء - درجته. ويرسم سويد صورة  
 لعدو أنضج الغيظ صدره، ولذا فهو يتمنى له الشر وإن لم يتحقق له ما أراد، يقول:  
**مزيد يخطر مالم يرني** **فإذا أسمعته صوتي انقمع**  
**وإذا كان سويد** قد رسم حركات الحاسد هذا، فإن امرأ القيس يتأمل نفسه فيراها  
 أحق بالتصوير، ويتذكر صباه والكواعب حوله معجبات به، متلفات يخطبن ودّه،  
 فيرى أن هذه المرحلة من عمره تستحق الرصد والتسجيل، إن كان إعجابه بنفسه أكثر  
 من إعجابه بهن، يقول:

**ويارب يوم قد أروح مرجلاً** **حبيباً إلى البيض الكواعب أملسا**  
**يرعن إلى صوتي إذا ماسمعه** **كما ترعوى عيط إلى صوت أعيسا**  
**والملاحظ أن الصوت** قد أتى هنا مرتبطاً بإصاخة السمع باهتمام، خوفاً وحذراً في  
 الصورة الأولى، واستثناساً في الصورة الأخيرة، كما أن مصدر الصوت هو  
 المتحرك بينما السامع ثابت مكانه غالباً، وعليه، فإن تردد النغمة (الصوت) المسموعة  
 أعلى مما لو كان المصدر ثابتاً أمامه، إذا تتزاحم الموجات، وتبدو أعلى من حقيقتها كما  
 تقول الهندسة الفيزيائية، ولهذا فإن السامع كان يوجه انتباهه كله إلى هذا المصدر  
 الصوتي ليصدق طرفه ما يسمع من صوت على حد قول أبي ذؤيب، ذلك الصوت  
 الذي ينتشر في الهواء المحيط حتى يصل إلى الأذن، بدرجة وشدة تختلفان باختلاف  
 مصدر الصوت من خلال الإحساس به، وانطلاقاً من معرفة سابقة أسهمت في تكوين  
 المعجم الصوتي بدرجاته ومصادره.

## الأصوات الحربية:

ولوحات الصوت في الحروب الجاهلية تشغل مساحة كبيرة من التكوين الفني للصورة في هذا الجانب، ويلاحظ فيها تشابك الأصوات وتداخلها، فهناك جلبة وصياح وصخب وصراخ، وهناك بكاء وعويل وتذب، وهناك أيضاً لجب وضجيج ونشيج، وخشخشة سلاح ومعمة شجعاء ومقاتلة، ثم صهيل وحمحة، ولولة وغمجمة، كلها تحدد مصدر الصوت ودرجته، وتعرض فنياً في لوحات تدفعنا إلى الاعتقاد بسماعها فعلاً لاحكاية.

والخنساء- من خلال اشتراكها في هذا المعرض الفني- تكشف عن ولعها بألوان صوتية دون غيرها، ومن الألوان المفضلة عندها (الصياح)، ويحمل في صورها معاني الاستغاثة، والحماسة، وشدة القتال، والعويل وتلمس ذلك في قولها:

من لضيف يحلّ بالحي عان      بعد صخر إذا دعاه صياحا  
وفي قولها حين تصف بسالة أخيها:  
فارس يضرب الكتبية بالسيف      إذا أردف العويل الصياحا  
وقولها:  
ومن لطعة خلّس أو لهاتفة      يوم الصياح بفرسان مغاوير  
ومثله:

وبيض منعت غداة الصياح      تكشف للروع أذيالها<sup>(٣٥)</sup>  
ويستخدم النابغة الذبياني اللون الصوتي نفسه حين يرسم صورة لمدوحه فيقول:  
قوم، إذا كثر الصياح، رأيتهم      وفرا، غداة الروع والانفار  
في مكانه على الأطلال يقول:

كانَ على الحدوج نعاج رمل      زهاها الذعر، أو سمعت صياحا  
ولئن كان (الصياح) هنا مبهم المصدر والحالة أو الصفة، إلا أنه يوحى- بطريقة ما- بالصوت المرتفع، أما في صورة تأبط شرا، فنلمس معنى الاستغاثة:

ليلة صاحوا وأغروا بي سراهم      بالعيكتين لدى معدي ابن براق<sup>(٣٦)</sup>  
ثم تعود الخنساء، فتستخدم لفظاً صوتياً آخر هو (هامهم)، والمهمة هي كل صوت

معه بحج، تقول في صورتها الفنية:

أهلُ بها وكف الدماء ورعدهما همام أبطل قليل فتورها  
ومن الألفاظ الصوتية الأخرى التي استخدمت في موقف حرب، لفظ: (صراخ) و(صارخ) و(صرخة) و(صريخ) وغيرها من مشتقات المادة، ومن ذلك ماورد في صورة خراشة بن عمرو العبسي مادحاً:

مصاليث ضر أبون في حومة الوغى إذا الصارخ المكروب عمً وخلاً  
فإذا استغاث امرؤ بسلامة بن جندل وقومه، رسم إجابته وسجل استجابته في صورة تقول:

كنا إذا ماتانا صارخ فرع كان الصراخ له قرع القنابيب (٣٧)  
ويفعل فعله زهير بن أبي سلمى، فيسجل:

إذا ماسمعا صارخا معجت بنا إلى صوته ورق المراكل ضمراً (٣٨)  
ويروح يذكر الجيش، ويصور أصوات المقاتلة المختلطة بصهيل الخيل، فيقول:  
إذا حلّ أحياء الأحالييف حوله بذى لجب أصواته وصواوله  
ويمدح أسيد بن جناة اليربوعي يوم العظالي، ويستخدم (الصارخ) في تشكيه:  
لعمري لنعم الحي أسمع عدوة أسيد وقد جد الصراخ المصدق (٣٩)  
أما الحارث بن عبادة، فيستخدم الفعل (يصرخون)، ويرسم لوحته على النحو التالي:

فاسألوا ضبة بن كلب وأودا تخبروا أننا شقيينا القليلا  
منهم حين يصرخون بكعب وبذهل وكل قدما نكولا  
ويلاحظ أن معظم الشعراء يفضلون الاسم من المادة، فهذا ثعلب بن عمرو يراه أكثر ملاءمة لصورته، فيقول:

بلت بها يوم الصراخ وبعضهم يخب به الحي أوزق شارف (٣٩)  
وكذلك البراق بن روحان بن ربيعة، ولكنه يجمع بين (الصياح والصارخ):  
ولولا صائحات أسفتهم جهاراً بالصارخ المستجار  
لما رجعوا ولا عطفوا علينا وخافوا ضرب باترة الشفار

فِيالك من صراخ وافتـضاح ونقع ثانـر وسـط الديار

ويصف لبيد بن ربيعة كتيبة، مستخدماً أكثر من لون صوتي، فيقول:

فمـتى ينـقع صراخ صادق يحـطـبـوه ذات جرس وزجل<sup>(٤٠)</sup>

وهي أصوات منوعة، فالصراخ هو الصياح الشديد عند الفزع أو المصيبة، ويشير إلى الاستغاثة أيضاً، بينما (الجرس) هو الصوت الخفي، و(الزجل) هو الجلبة ورفع الصوت في التطريب عادة، وبهذه الأصوات المتباينة والمختلطة معاً جسّد الشاعر الموقف الحربي تجسيداً مقنعاً، وذلك لأن المعركة - عادة - تضم أصواتاً تتفاوت في الدرجة والشدة والمصدر، تبعاً للمواقف، ومن هنا يكون صوت المعركة مميزاً يحمل طابع الفوضى. وإذا تأملنا لوحة دريد بن الصمة، نجدّه يعلل سبب شبّه، ويستخدم (الصريخ) لتجسيد ما يريد تصويره، فيقول:

أعانـل، إنـما أفـنى شـبابي ركوبي في الصريخ إلى المنادي

ومثله- في هذا التفضيل سلامة بن جندل التميمي بقوله:

غداة أانا صريخ الـرياب ولم يك يصلح خـذلانها<sup>(٤١)</sup>

وإذا، فإن استغاثة الرباب كانت تستأهل منه هذه الشهامة، ومن ثم الاستجابة. أما الخنساء فتشير إلى الخيل من خلال اللون نفسه وتقول:

إذا زجروها في الصريخ وطابقت طباق كلاب في الهراش وهرت

ويذب عنتره الحماسة في القلوب، ويرى في اللفظين (صرخت، وصرخة) أداة صالحة لتكوين صورته بدقة ترتفع إلى مستوى هذه الحماسة:

فصرخت فيهم صرخة عـبسية كالعـرد تدوى في قلوب العـسكر<sup>(٤٢)</sup>

غير أن استخدام أوس الصيغة نفسها يشعرنا بلامح أخرى، لعلها تجمع بين الحرب والهدنة، يقول:

لنا صرخة، ثم اسكاته كما طرقت بنفـاس بكر

ويؤكد مرة بن همام على معنى الاستغاثة حين يستخدم (الصراخ) في تشكيله:

ناله لولا أن تشاءـي أهـلها وتشرّـ ما قال امرؤ أن يكـذبا

لبعثت في عرض الصراخ مفاضة وعلوت أجرد كالصـيب مشـدبا

ويشير لبيد إلى منادي الحرب، ونلمس التطويل في الصوت ومدّه هنا. وهاهي ذى صورته تؤيد رؤيتنا:

ومبْلَغ يوم الصراخ منذد بعنان دامية الفروج كليم<sup>(٤٤)</sup>  
ويبدو الموقف شديداً، مما يستدعي المنادي أن يجد في النداء ويكرره ويمدّ صوته، لحث الجماعة على التأهب والإغاثة وتدارك الموقف بعد تنبيه هؤلاء إلى خطورة الموقف وشدته، وعاقبة التراخي عن الإقدام.

أما (اللجة) لوناً صوتياً، فيستخدمه المهلهل بن ربيعة وزهير، وهو صوت العسكر والغلبة مع اختلاط واضطراب، وهو مضمون متوافق مع موقف الحرب ومععتها لاختلاط الأصوات فيها، يقول المهلهل في تصوير هذا اللون من الأصوات:

وجمع همدان له لجبة وراية تهوى هوى الأنوق<sup>(٤٥)</sup>  
ويرسمها زهير على النحو التالي:

إذا حلّ أحياء الأحاليف حوله بذى لجب أصواته وصواوله  
وقريب منها تشكيل أبي دؤاد الإيادي، وهو يركّز فيه على اختلاط الأصوات وتنوعها:

لجب تسمع الصواهل فيه وحنين اللقاح والإرزام<sup>(٤٦)</sup>  
أما حين يشعر المرء بخطر يهدّد قومه، فإن إحساسه بالمسؤولية تجاههم يمنع عنه النوم، وقد صور النابغة هذا الموقف المسئول بقوله:

وما بحصن نعاس، إذ تورّقه أصوات حي- على الأمرار- محروب  
والصوت هنا يمكن أن يوحي بالصراخ والصياح معاً، وذلك لأنه في موقف حرب أيضاً، والصورة الذهنية للحرب تقود إلى هذا الانطباع.

والصور الصوتية- عادة- تعتمد في معناها على ترتيب الألفاظ في السياق وعلى التكوين التعبيري لها مثلها مثل غيرها من صور على اختلاف موضوعاتها. ولو مثلنا لذلك نقول: إن كلمة (دعاء) منفردة تعني (النداء بصوت عال، والاستعانة والرجاء)، فإن وضعناها في سياق يتضمن الحديث عن معركة أو غزو، فإن المضمون يوحي بالصراخ والاستنجد والاستغاثة، وهو- في هذا- يأتي على نفس المستوى التعبيري للكلمتين (صراخ وصياح) اللتين وردتا فيما استعرضنا من شعر، ولنأخذ مثلاً صورة

رسمها عمرو بن الأسود، يقول فيها :

لما سمعت نداء مرةً علّا وابني ربيعة في الغبار الأقم  
فإننا هنا نجد تأييداً لما أشرنا إليه، ويزيد الأمر تأكيداً ماشكّله الكلّبة العربي، وقد  
أشار إلى تحذير منادي أو صريخ القوم من هجوم مباغت، يقول:  
ونادي منادي الحيّ أن قد أتيتم وقد شربت ماء المزادة أجمعاً<sup>(٤٧)</sup>  
أما صورة بشر بن أبي خازم فتوحي- بالإضافة إلى الاستغاثة- باللوم والأسى،  
يقول واصفاً مسرح الغزوة:

وكم من مرضع قد غادروها لهيب القلب كاشفة القناع  
ومن أخرى مثابرة تنادي ألا خلتِ مونا للضياح  
ويشير عنتره إلى صريخ القوم أو نذيرهم في هذه الصورة:  
غدوا لما رأوا من حد سفي نير الموت في الأرواح حادي  
كما يشير إلى معنى استجماع الهم وبث الحماسة من خلال النداء والدعوة إلى  
النزال والإقدام:

ناديت عبساً فاستجابوا بالقنا بكل أبيض صارم لم ينجل  
بل إن سيفه أيضاً يفعل فعله وكأنه قد ناب عنه في إنجاز مهمة الصريخ:  
يضحك السيف في يدي وينادي وله في بنان غيري نحيب<sup>(٤٨)</sup>  
ويتذكر عمرو بن معد يكرب فروسيته وشجاعته في مرحلة الشباب، وكيف كان  
يلبي نداء الحرب، ويبين لمن يعاتبه هذه الحقيقة التي غابت عن بال الأخير، فيقول:  
أعازل، أنما أفنني شبابي ركوبي للصريخ إلى المنادي  
ويقول في معرض حديثه عن الحرب، مندداً بأسلوب غير مباشر بمن لا يستجيب  
لنداء الحرب، وقد أخذت الصورة الفنية شكل المثل والحكمة:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي<sup>(٤٩)</sup>  
ولعلنا نلاحظ- هنا- أن الشعراء يرسمون في تشكيلاتهم وقائع الغزوات، ومعالماً  
وما يحيط بها، ويسجلون البطولة والهزيمة والانصار، وتتناثر- داخل الأبيات-  
أطراف المعركة بما فيها من: مقاتلين ومقتولين ونساء وسبائا وخيل وسلاح ومكان



المعركة وزمانها أحياناً ونواتجها، وموقف الشاعر من كل ذلك، وإحماسه بكل حركة قد رآها وكل صوت قد سمعه، واستغلاله مخزونه المعرفي في رصد هذا كله، وتأسيساً على ذلك، فإن اختياره للألفاظ الدالة الموحية لا بد أن يكون اختياراً موفقاً دقيقاً، ليكون مقنعاً في تجسيد مرئياته وما يصف وما يعرض من لوحات حرب ضروس.

ومن الألفاظ الصوتية التي تجد لها مكاناً في شعر الحرب، الفعل (دعا)، وتتضمن المادة أحياناً معنى النداء والرجاء، وتوحي بهذه المعاني صورة عرضها القتال الكلابي، ويبين فيها ندمه على قتل خصمه الشجاع، وقد أصر الأخير على المنازلة، بتكرار نداء التحدي أيضاً، وفي هذا الموقف الانفعالي والحماسي لا بد أن يكون الصوت عالياً شديداً كما هو الحال في حالة الصراخ والصياح، يقول القتال:

ولما دعاني لم أجبه لأتني خشيته عليه وقعة من مصم

فلما أعاد الصوت لم أك عاجزاً ولا وكلاً في كل دهياء صيلم

ولما رأيت أنني قد قتلته ندمت عليه أي ساعة مندم

وفي هذا المضمون جاءت المادة بصيغة الاسم عند لبيد، يحكي فيها دعوة خصم مخوف الجانب، قد أجابه الشاعر للنزال، فقال:

ودعوة مرهوب أجبت وطعنة رفعت بها أصوات نوح مسئب

ويستخدم الخصفي الفعل الماضي بصيغة الجمع:

ويوم يود المرء لومات قبله ربطناله جاشاً وأن كان معظماً

دعونا بني نل إليه وقومنا بني عامر، إذ لا ترى الشمس منجماً (٥٠)

ومن الصور الصوتية الإنسانية التي تسمع في أرض المعركة، الصور التي توحيها الكلمات: زجر، تغغم، نذمر، ضجيج، دمام، عجيج، ههجة، خوار، هزير، صياح، استغاثة.

والزجر كما ذكرنا هو الانتهاز بالنهي عن المضي في شيء برفع الصوت والشدة، أو هو الحث عليه، ولقد استخدم الزجر في أكثر من موضع، خاصة مع ذكر الخيل في الحرب، ومن ذلك ما قاله عامر بن الطفيل، حاثاً حصانه على الإقدام حين رأى تراجعاً خوفاً:

إذا زور من وقع الرماح زجرته وقلت له: ارجع مقبلاً غير مدير

وتمدح بنت بدر بن هفان قومها فتقول:

قوما إذا ركبوا سمعت لهم لفظاً من التأبيه والزجر<sup>(٥١)</sup>

والشاعرة هنا ترسم صورة اختلاط الأصوات وجلبة المحاربين من خلال الألفاظ: (لفظ) وهو الصوت المختلط البهم الذي لا يفهم، و(التأبيه) وهو التنبيه، ثم (الزجر) وهو الحث على السرعة إذا قصدت به الخيل، والنهي إذا قصد غيرها، وكلها تشير إلى الالتحام والكثرة والضوضاء.

أما (تغمغم)، وهو الكلام الذي لا يبين وأصوات الأبطال في القتال، فقد فضلها عنتره لتلوين لوحته الحربية، فقال:

في حومة الموت التي لا تشكي غمراتها الأبطال غير تغمغم

وقد نسبه الأصمعي إلى عمرو بن الأسود، وإن كانت الروح لعنتره، وعند الأصمعي الجعفي تأتي المادة على هذا النحو:

لا يشكون الموت غير تغمغم حكّ الجمال جنوبهن من الشذى<sup>(٥٢)</sup>

واقتران اللفظ بكلمة (حك) يوحي بصوت غير واضح لاصخب فيه، والصوت في البيتين يبدو خفيضاً يكاد لا يسمع ولعل كبرياء الأبطال تمنعهم من الجهر بشكواهم في وطأة المعركة خشية اتهامهم بالعي والضعف والجب. أما (التذمر) فصوت رسمه عنتره بقوله:

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون، كررت غير مذمم

والتذمر - لغة - هو حضّ المقاتلين بعضهم بعضاً في الحرب، والتلاوم برفع الصوت في حالة العتاب أيضاً، ورفع الصوت في الحرب ههنا يقرب صفة التذمر - من حيث درجة الصوت - من صفة الصراخ أو النداء المقصود به إثارة الهمّة والحث على الإقدام والمنازلة.

ودائماً يأتي عنتره بالصورة الصوتية التي توحى بوقع الأصوات الشديدة أو المرتفعة الدالة على زخم الحركة واحتدام المعركة وتفاعل المقاتلين، والتحامهم الشديد، ولعل ذلك نلمسه في قوله:

وضجت تحته الفرسان حتى حسبت الرعد محلول النطاق

ويلاحظ هنا ربطه بين الضجيج والرعد، كما يلاحظ دقة ترتيب الألفاظ في التعبير

التمثل في الشطر الثاني من البيت، فالرعد ليس عادياً وإنما منطلق من كل القيود، وإذا، فإن صوته قوي شديد لا يحده مساحة أو درجة، ووقع الضجيج هنا يبدو أقوى - من حيث الدرجة والصفة - من الضجيج الذي استخدمه في صورة أخرى تقول:

**وتضج النساء من خيفة السبي وتبكي على الصغار اليتامى**

**والضجيج** هو الصياح ورفع الصوت والجلبة، وهو المضمون الذي يحرص عنتره على تشكيل صوره الصوتية من خلاله وخاصة في الصور الحربية، ومع أن اللون الصوتي المستخدم في الصورتين واحد هو: الضجيج، إلا أن السياق هو الذي فرض الفرق في درجة هذا اللون الصوتي، فبينما هو عال جداً بحيث لا نستطيع ضبط درجته في الصورة الأولى، فإنه في الصورة الثانية يبدو أقل ارتفاعاً مهما بلغ صوت النساء، صيحاً وبكاء، وعليه، فإن ترتيب الألفاظ في اللوحة الفنية الواحدة هو العامل الأساسي في تحديد المضمون، الذي يرصد الصوت بكل دقة، ومهارة المبدع هي التي تؤدي الدور المهم في تجسيد الصوت بحيث يبدو مسموعاً بدرجته وصفته، بشدته ورقته، بعلوه وانخفاضه، بجماله وقبحه، بصفائه واختلاطه، ومن ثم تبدو ملامحه واضحة، سواء أكانت ملامح هادئة أم أكثر توهجاً وحيوية تصل إلى درجة الصخب، ويؤكد هذا قول عنتره أيضاً:

**وفرقت جيشاً كان في جنباته دمامد رعد تحت برق الصوارم**

وكلمة (دمامد) تشعر بقوة الصوت وشدة وقعه، لاقرانها بكلمة "رعد"، والفعل (دمدم) - لغة - يعني: طحن وأهلك، وللطحن صوت وشدة ووطأة ثقيلة، وقد ساعد السياق على إضفاء صورة تضغط على القلب وتقود إلى حبس النفس، وهكذا، ويفتية تعرف سر اللفظ وموقع القوة في اللغة، استطاع عنتره أن ينقلنا إلى قلب المعركة، نشاهد ما يشاهد، ونسمع كما نسمع، بل ربما نحمل السلاح معه ونركب الخيل ونكر ونفر، ونقبل وندبر، ونردد معه قوله:

**أطيب الأصوات عندي حسن صوت الهندواني**  
**وصرير الرمح، جهرا في الوغي، يوم الطعان**  
**وصياح القوم فيه وهو للأبطال دانسي**  
**أسمعاني نغمة الاسـ ياف حتى تطرباني**

والمفردات الصوتية هنا متنوعة، منها الهادئ الذي يبعث على الراحة والاسترخاء بحيث يطرب، ومنها ما يستفز الهمّة والمشاعر، ويثير الأحاسيس المتوثبة، وعجيب أمر عنتره في هذا فهو يسمع طعن الرماح وضرب السيوف نغمًا مطرباً يدغدغ سمعه بأحلى الأصوات وأطيبها، بينما الرمح يصير جهرًا، والصريير يوحى بصوت ناب (نشار)، ثم يُذجل صوتًا آخر هو الصياح، وهو صوت شديد يشعر بعدم الراحة، فكيف جمع عنتره بين النغمات الموسيقية المريحة التي تُشعر بالرضا والسعادة أو النشوة، وبين أصوات تثير الأعصاب وتسم الآذان وهو للأخيرة مرتاح وبها سعيد غير كل الناس، وتعليل ذلك تكوين عنتره النفسي، ذلك التكوين المتوثب الحيوي حيوية كلها عنفوان، عنفوان قدّم لنا إيقاعاً صاخباً صادراً من الجوّ العام للمعركة، يرى فيه المقاتلون والصرعى والنساء المعولات والصواهل، يلفهم الضجيج، وتوجههم الخصومة.

لكم هو عنتره، الذي يملك الإحساس القوي بالصوت، في شدته وضعفه، في هدوئه وصخبه، في علوه وانخفاضه، هو إحساس نابع من نفسية متوثبة، تعشق الحركة والحيوية حتى وإن كانتا دامتين.

وأما عمرو بن معد يكرب، فيرى أن الفعل "عج" قد يعطي صورته الصوتية زخماً لرسم لوحة لنساء بني زياد في موضع يقال له (الأرنب)، وكان مكاناً لغزوة قام بها عمرو ضد بني الحارث، فأصاب فيهم، فقال متفخراً:

|                             |                            |
|-----------------------------|----------------------------|
| لما راوني في الكتيبة مقبلاً | وسط الكتيبة مثل ضوء الكوكب |
| تركوا السوام لنا، وكل خريدة | بيضاء خرعبة وأخرى ثيب      |
| عجت نساء بني زياد عجة       | كعجيج نسوتنا غداة الأرنب   |

والعجة والعجيج الصياح والجلبة، وهو في هذا يقرب من مضامين عنتره في انتقائه اللفظ (ضجيج)، واقتران لفظي (عجيج، وضجيج) بالنساء يوحى بصوت الجزع والمشقة والاختلاط والفوضى والارتباك عند حدوث مكروه يصيب النساء بالأذى وربما الأمر أو التكل، وكلها توجب استخدام هذين اللفظين اللذين يشتركان في حرفين هما (الجيم) وهو حرف شديد مجهور، و(الياء)، ويفيد الإطالة في زمن النطق، ومن ثم امتداد الصوت الجزع المكروب، فإذا عرفنا أن العين هو صوت حلقي

احتكاكي مجهور بين الشدة والرخاوة، وأن الضاد صوت شديد انفجاري مجهور، فإننا نجد أن هناك تلاقياً بينهما في الجهر، وفي الشدة مع تفاوت النسبة بدرجة بسيطة، ومن ثم فإن تكوين الكلمتين: ضجيج وعجيج، يوحي بتشابه الحالة النفسية في موقعين تبدو النساء فيهما العامل المشترك، وأرضية اللوحة واحدة هي المعركة، وعليها تتعرض النساء للتطاول والاستباحة المؤلمة المهينة، وهكذا نرى أن استخدام بعض المفردات دون غيرها في مواقف معينة هو تبع للجو النفسي في الموقف، والصورة الشعرية تأتي لتجسيد معني أو فكرة أو إحساس أو جو نفسي.

**والجو النفسي-** في الحرب عادة- يكون مشحوناً صاخباً بضج بالأصوات المفعمة بالخوف والألم والتأهب والدموع والحماصة والإحجام، وأظهر الدموع هنا هي دموع الثكلي، وعليه فإن الصور الصوتية التي سجلها الشعر الجاهلي للبكاء كثيرة كثرة غزواتهم ووترهم، خاصة أن البكاء كان من ضمن مراسم الموت، بل الأهم لاسترضاء روح الميت وتلافي غضبه، لاسيما وأنه كان يُصْحَبَ بذكر محاسن الميت وهذا الذكر شعيرة جنائزية كان البابليون القدماء يطلقون عليها اسم (شعيرة ذكر الاسم)، ويعتقدون- كما هي عند عرب الجزيرة- أن إهمالها يدفع بروح الميت إلى الخروج على شكل هامة أو طير ليعبث بالأحياء، وينقص عليهم هدوءهم، ولذا فإن البكاء - وهو الركن الأساسي في هذه الشعيرة- لَوْنٌ كثيراً من صورهم الفنية في شعر الحرب، ولعل الخنساء هي الأكثر رسماً للوحات البكائية هذه.

ويبدو صوت البكاء مسموعاً من خلال عدة صور، منها صورة النائحات، والناديات وقريبات الفقيد، ومنها صورة الاستبكاء كأن يستبكي الشاعر الأرمال والأيتام والفقراء، وأبناء السبيل والضيغان وآخرين ممن كان فضل الفقيد يصلهم وخيره يعمهم.

وحين نتبادل الحديث مع الشعراء في هذا المضمار، يقابلنا لبيد بن ربيعة ليرينا لوحته الفنية التي تظهر النائحات معدّات، وموكب النواح والندب قائماً مهيباً يشعر بالرهبة، ونسمع من خلالها صوته أمراً بنيته بالمشاركة، فيقول:

قوما تجوبان مع الأنواح  
في مأتم مهجر الرواح

## وقسنة ومزهر صداح

وهو هنا يشير إلى من كان له علاقة بالميت، ومن هؤلاء القينات اللواتي كان يفشي دورهن للسماع والطرب والاستمتاع بمجالس الأنس، وهو في صورة أخرى يصف النائحات فيقول:

الباعث النوح في مآتمه مثل الظباء الابلكار بالجرود  
ثم يحدد المكان:

ونائحتان تندبان بعاقل أذا ثقلة لاعين منه ولا أثر  
ثم يعين اسم النائحة ويذكر محاسن المتوفى وذلك بقوله:

يامي قومي في المآتم واندبي فقي كان ممن يبتني المجد أروعا  
وقولي: ألا لايبعد الله أريدا وهدي به صدع الفؤاد المفجعا(٥٣)

وإحياء الصور يقضي بأن هناك صوتاً حزيناً مصحوباً بالدموع، وهو ما يتضمنه لفظ (اندبي)، فإذا أضفنا (المآتم) وهو الجماعة من الناس في حزن غالباً، ثم (النوح والنائحات والأنواح)، والنياحة هي اشتداد البكاء بصوت، فإننا نظفر بلوحة صوتية قائمة تجمع مفردات الحزن والأسى التي يختلط فيها الكلام بالدموع والأهات ولعل بعضها يتخذ طابع الشدة والصراخ، ولعل صوراً أخرى أيضاً تضيف إليها صوت التهديد والوعيد، خاصة إذا كان الفقيد ذا مكانة، ومات مقتولاً. ويكون طرفه تشكيلاً للنادبات بقوله:

إذا الصعب ذو القرنين أرخى لواءه إلى مالك ساماه، قامت نوادبه

ويزيد عامر بن الطفيل في مفردات الصورة الصوتية، بإضافة توجع النادبات، واعاوهن برفع الصوت والصياح والرنين، وذلك لأن الفقيد مات مقتولاً، وهو بهذا حقيق برفع الصوت والعيول في المشهد الحزين، يقول:

تركت نسوته لهن تفجع يندبنه أصلاً بنوح معول  
ثم يكرر مؤكداً:

تركنا دورهم فيها نعاء وأجساد فقد ظهر العويل  
ويبرز عناصر المشهد:

تركت نساء ساعدة بن مرّ لهـن لدى مزاحفه عويل<sup>(٥٤)</sup>  
أما عنتره فيستعرض ملامح بطولته من خلال مبالغته في القتل وترك النساء  
بأكيات حزينات، يقول:

وكم بطل تركت نساءه تبكي يرددن النواح عليه حزنا  
ويقول مخاطباً عبلة التي يحرص على إظهار بطولته أمامها:  
يا عبل كم من حرّة خلّيتها تبكي وتعي بعلمها وأخاها  
وكم خلّفت من بكررداح بصوت نواحها تشجي الفؤاد  
وهو- هنا- يؤكد على ذكر البكاء والنواح بحيث يقطعان نياط القلوب، خاصة إذا  
كان يكاؤهن مصحوباً بالطم وضرب الصدور، كما هي الحال في الصورة الصوتية  
التي رسمها عمرو بن معد يكرب لمشهد معاتل، يقول راثياً صديقه:

وكننت إذا نهضت به لقوم تجاوب صوت نوح بالتدام  
وعند لبيد:

ودعوة مرهوب أجبت وطعنة رفعت بها أصوات نوح سلب<sup>(٥٥)</sup>  
وعند حسان في قوله:

يامي قومي فأنديبي بسمة شجو النواح  
كالحاملات الوقر بالثقل الملحاح الدوالج  
المعولات الخامشات وجوه حشرات صحائح  
وفي صورة أخرى يقول الأفوه الأودي:

فنانحة تبكي وللنوح درسه وأمر لها يبدو وأمر لها بسر  
وبيكي زهير ابن جذيمة العبسي ابنه شأساً قائلاً:

سأبكي عليه إن بكيت بعبرة وحق لشأس عبرة حين تسكب<sup>(٥٦)</sup>

والبكاء في حالة ندب عزيز كثيراً ما يصحبه الصوت، سواء أكان صادراً عن  
كلام يعدد محاسن الفقيّد أم صادراً عن نواح فعلي، وهذا مانلمحه في شعر الرثاء  
عادة.

ويشارك علقمة الفحل في المعرض الصوتي، إذ يعرض لوحة فنية، موضوعها  
رثاء قتلى قريش يوم بدر منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة، ويظهر فيها الحمام الباكي

الحزين، والنوائح، ومخاطب يطلب الشاعر منه البكاء أيضاً، وهاهو ذا يرسم لوحته:

ألا بكيت على الكرام بني الكرام أولى الممادح  
كبكا الحمام على فروع لأيك في الفصن الصوادح  
يبكين حزني مستكينات رحن مع الروائح  
أمثالهن الباكيات المعولات من السنوائح  
من يبكمهم بك على حزن ويصدق كل مادح<sup>(٥٧)</sup>

أما الخنساء- سيدة الصور الباكية الحزينة- فندخل لونا آخر من ألوان الصوت الباكى، باستخدام ( الحنين) وهو الشدید من البكاء المرجع الصوت، و(الرنين) وهو الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند البكاء المصحوب بالشهيق، وبذا تبدو درجات وصفة الصوت أكثر تحديداً، نقول:

فنساؤنا يسندین نوحا بعد هادية النوائح  
يحنن بعد كرى العيون حنين والهبة قوامح

وفي صورة ثانية:

تبكي خناس فما تنفك ماعمرت لها عليه رنين وهي مقنار  
وفي ثالثة:

رنينا وما يغني الزنين وقد أتى بموتك من نحو القرية حامله  
ثم تولول وتتلفت راثية:

ويلاي مارحيم ويلايه إذ رفع الصوت الندى الناعيه  
وتختم المشهد فنقول:

فلما سمعت النائحات ينحنه تعزيت واستيقنت أن لا أخا ليا  
وتأتي ليلى الأخيلية بلون صوتي آخر، حين تستخدم (الهتاف)، وتوحي الكلمة بسمع صوت دون رؤية مصدره كما توحي بالنداء والدعاء والصوت العالي، نقول راثية توبة:

كم هاتف بك من باك وباكسية ياتوب للضيف إذ تدعى وللجار  
وتأرق صفية بنت عبد المطلب حين تسمع صوت النائحة فترثي أباه باكية:



أرقت لصوت نائحة بليل على رجل بقارعة الصعيد<sup>(٥٨)</sup>  
ومضامين الأبيات تشير إلى صوت البكاء والنواح تصريحاً أو تلميحاً، كما في  
صورة عبيد بن الأبرص حين جسد صورة النساء اللواتي يكيّن قتيلاً جندله الشاعر:

إذا جاء سرب من ظباء يعدنه تبادرن شتى كلهن تنوح  
وقد يكون النواح في حالة فراق سفر ورحيل لافراق موت، ونرى هذا المضمون  
عند عنتره في معرض غزله غالباً، كما في قوله:

وناحت وقالت كيف تصبح بعدنا إذا غبت عنا في القفار الواسع  
والبكاء- كالنواح- يوحى بالصوت إحياء عند عبيد أيضاً، ونجد هذا الملمح في  
صورته الفنية على النحو التالي:

فليبكهم من لا يزال نسائه يوم الحفاظ يقتل أين المهرب<sup>(٥٩)</sup>  
وفي القول إحياء بالصوت، وقد ورد هذا اللفظ كثيراً في الشعر الجاهلي كما سيأتي  
لاحقاً. والقول مصحوباً بالبكاء يؤكد أن البكاء كان بصوت في هذه الصورة وفي  
غيرها خاصة إذا كان صادراً من نائحات أو نادبات كما رأينا، ويؤكد هذا المضمون  
الشاعر الفضل النكري بقوله:

يجاوين النياح بكل فجر فقد صحت من النوح الحلو  
ولا تصحل الحلو أو تبج إلا إذا أكثر الإنسان من الكلام أو الصياح، وما دام  
الموقف بكاء هنا، فإنه- بكل تأكيد- بكاء مصحوب بصوت قاد إلى بحة الحلو، وإن  
كان عمرو بن كلثوم ينفي ويستبعد- إباءً وتماسكاً في تحمل المصائب- أن تنوح نساء  
قومه أو يضح أباطلهم من القتل، يقول في ذلك:

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا على هالك أو أن نضج من القتل  
وهم- في هذا- على خلاف نساء جساس بن مرة، إذ يعترف بأن نواحين عني،  
تحسراً وألماً، يقول:

وما تفك نائحة تعزى بما نديت وتعلن بالنواح  
أما الحارث بن عباد، فإنه يرى أن القتل يستحق كل هذا البكاء جهراً، ولذا يقول:  
وكلبا تبكي عليه البواكي وحبيب هناك يدعو العويلا<sup>(٦٠)</sup>

والألوان الصوتية ( تبكي، البواكي، يدعو، عويلا) كلها تركز على أن الصوت أساسي في بكاء الميت، خاصة إذا كان من الرؤساء أو العظماء، قياماً بواجبه وإرضاء لروحه وهامته.

أما صورة خراشة بن عمرو العبسي، فتشبه- من حيث المضمون- صورة الفضل النكري، مشيراً إلى المقتلة العظيمة التي أنزلوها بالعدو، بحيث تركوا النسوة تكلي بيكين قتلهن بحرقة، والألفاظ (عنوة، تجاوب)- في الصورة- توحى بالجهر:

**ونحن تركنا عنوة أم حاجب تجاوب نوحا ساهر الليل تكلا**

إن هذه الجراح بإيقاعاتها النفسية والانفعالية تشكل مضامين الشعر الحربي الذي انتشر البكاء بين صوره الفنية بشكل نمطي تتشكل من خلاله تجربة الشاعر الفنية والتي ينصهر فيها وجدان الجماعة في تلك الحقبة من التاريخ العربي، وقد يأتي (البكاء) في حالات أخرى غير النذب والنواح، مثلما نرى عند أوس- كما يبدو- وذلك في قوله:

**فلم أر يوماً كان أكثر باكيا ووجهها ترى منه الكأبة تجنب**

ولئن كان هذا البكاء يسمع عند الأفوه في تشكيله الذي استخدم فيه اللون الصوتي (مرنات) بدلاً من النوح، يقول راثياً:

**فرموا له أثوابه وتجعوا ورن مرنات وثار به النفر**

ولاشك في أن الألوان الصوتية التي استخدمت فيما سبق من صور فنية توحى بالصوت الظاهر، وهي ألفاظ يكثر من بينها: (النواح، البكاء، النذب، العويل، الرنين، الحنين، الولولة) وكلها- بلا شك- تحمل للسمع صوتاً يوحى بالارتفاع مع تفاوت في درجاته. وهذا وهناك ألفاظ أخرى شكلت بعض الصور الحربية تشكيلاً دلالياً ذا قيمة إنسانية، وكان لكل صورة سياق وخصوصية يحددان معجم الشاعر الفني، ويميزان تشكيلاته- برغم تشابهها - عن غيرها. فالشفرى الصعلوك يرسم تشكيله مستخدماً "الهجعة" بدلاً من الزجر، في تصوير لوحة حربية أو بمعنى أدق في تصوير أحداث غزوة:

**فثاروا إلينا في السواد فهجهجوا وصوت فينا بالصياح الموثوب<sup>(٣)</sup>**

أما البراض الكناني فيصف قتله لأحد الأعداء، ويلون صورته الصوتية باللفظ

(خوار)، وهو في الأصل صوت الثور وما اشتد من صوت البقرة والعجل، ولكن الشاعر استخدمه ليحدد -بدقة- ملامح الصوت الصادر من المقتول لحظة النزاع، والصوت -في هذه الحالة- كثير الشبه بالخوار، ولتلق نظرة على لوحة الشاعر وإن كانت المبالغة فيها ظاهرة:

**علوت بحد السيف مفرق رأسه      فاسمع أهل الواديين خوارا**

وإذا، فإن الذبح بالسيف هو سبب الخوار، وذلك لأن النزاع العادي يختلف -من حيث ملامح ودرجة الصوت- عن نزاع المذبوح، وعليه، فإن السياق تدخل في تحديد هذه الملامح، فإذا اختلف السياق والموقف اختلف التصوير، والمفضل النكري -حين يصور دوران المقاتلين في الساحة- يرى أن الهزيز أقرب إلى الدقة في هذا المشهد من غيره:

**كان هزينا يوم التقينا      هزيز أباءة فيها حريق<sup>(١٧)</sup>**

فهو هنا يجعل صوت دورانهم مثل صوت أجمة القصب المشتعلة، فإذا عرفنا أن الهزيز أصلاً هو صوت دوران الرحي أو صوت حركة الريح، والصوت فيهما متقطع متذبذب عادة، فإن صوت دورانهم المكون من (صوت السلاح المختلط بوقع الأقدام وغيرهما من أصوات متقطعة ومتغيرة) شبيه بصوت دوران الرحي أو صوت الريح المتقطع، وإذا كان صوت أجمة القصب المشتعلة متقطعاً أيضاً كما نعلم، فإن تكوين الصورة بهذا الشكل -من خلال ألفاظ منتقاة ومرتبة بسياق على هذا النحو- تكوين مقبول شكلاً ومضموناً، نجح الشاعر من خلاله في أن يسمعا الصوت كما أحس هو به، وكما أراد له أن يبدو في سياقه.

وقد يستخدم الشاعر صوتاً آخر في تلوين تشكيله الفني، كالفعل (استغاث) مثلاً، ومعناه (صاح واغوثاه) والصياح هنا مصحوب بكلام معين يشير إلى ضعف المستغيث وربما خوفه، خاصة إذا كان المستغيث أقل مكانة ومقدرة من الغيث، وهذا المضمون حفلت به صورة تأبط شراً حينما وصف رئيس الصعاليك، وكيف استعان به على شدته، يقول:

**سباق غايات مجد في عشيرته      مرجع الصوت، هذا بين أرفاق**

**فذاك همي وغزوي استغيث به      إذا استغثت بضافي الرأس نفاق**

وإذا كانت هذه الأصوات الإنسانية تشكل جزءاً كبيراً من الصور الصوتية الحربية، فإن (سهيل الخيول) يشكل مساحة بارزة من هذه الصور، ويذكر السهيل منفرداً كما يذكر موصوفاً، فعامر بن الطفيل يذكر انتصاره في غارة على بني عابس، ويرسم لوحته على النحو الآتي:

لنا في الروع أبطال كرام إذا ما الخيل جدّ بها السهيل  
وإدخال جدّ بها في السياق يوحي بتتابع السهيل وإن لم تظهر درجته، أما عبيد فيجعل (سهيل الخيول) مقروناً بالفخر، ولعل ذلك يوحي بصوت منتش له وقع متقطع سريع الاهتزازات، خاصة وأن الخيل كانت مسرعة كما تبدو في هذه الصورة:

لاحقات البطون يصهلن فخراً قد حوين النهاب بعد النهاب  
فإذا كانت خيل عبيد تصهل فخراً، فإن خيل عنتره تصهل خوفاً لشدة الالتحام، ولذا فإن سهيلها يبدو مغايراً:

وتسهل خوفاً، والرماح قواصد إليها، وتتسلل الأرقام (٣٣)  
ويطلق أبو دؤاد الأيادي على الخيل اسم (الصواهل) ويقرنه بالفعل (تسمع) ومفردات صوتية أخرى تصور احتدام المعركة مثل (لجب، حنين، إرزام)، فيقول:

لجب تسمع الصواهل فيه وحنين اللقاح والارزام  
وتسهل خيل دريد بن الصمة، وتبدو على هذا الشكل:  
يحارب جرّداً كالسراحين ضمّراً تروّد بأبواب البيوت وتسهل (٣٤)  
أما عامر، فيجعل السهيل كالرعد، وبذا يحدد صفة الصوت ودرجته، والصورة الفنية متكاملة تشير إلى ارتفاع السهيل:

وأثارت عجاجة بعد نقع وسهيل مسترعد فاكفهرت  
ويحدد لبيد صفة الصوت باستخدام الصفة (أجش) والأجش هو الصوت الغليظ فيه بحة يخرج من الخياشيم، ويمتاز بالشدّة، وإن لم تعرف درجة الشدة هذه، ولا ارتفاع الصوت أو انخفاضه:

بأجش الصوت يعيوب إذا طرق الحي من الغزو سهل  
ومثلها لوحة الكلبة العرني، فصوت حصانه أجش .. ذلك الحصان الضخم الشديد الذي يسود الخيول، ويبدو على النحو التالي:

يعدو به قارح أجش يسود الخيل نهد مشاشه زهم<sup>(٦٥)</sup>

والصهيل الأَجَشّ الذي يصدره حصان مزرد بن ضرار غريب، إذ أن وقع هذا الصهيل في أذن صاحبه مزامير وجلجل، وهي صورة للصوت غريبة فلما وردت في الشعر الجاهلي، بل لعلها الوحيدة التي تخيلها مزرد، وسمعتها مقطوعة موسيقية يشترك في عزفها المزامير والجلجل، ويصدرها حصانه نغمة صورها على النحو التالي:

أَجَشّ صرّيحى كان صهيله مزامير شرّب جاوبتها جلجل

ولاشك في أن الحالة النفسية للشاعر تتدخل في تحديد إطار الصور الصوتية واختيار ألوانها الفنية، وهذا ما لسناه فيما سبق من صور الصهيل المختلفة. ويلاحظ أوس بن حجر اختلاف درجة صوت الحصان حين يعدو، ودرجته حين يقف، من حيث الارتفاع والشدة، وذلك في صورة يصف فيها حصانه السريع ويتذكر كيف نجاه وهو يجري، وكأنه يلتهب التهاب الميسم في الوبر، يقول:

نجاك جياش هزيم كما أحميّت وسط الوبر الميسما

ويفضل امرؤ القيس لفظ (اهترام) لوصف حصانه، فيقول:

على العقب جياش كان اهترامه إذا جاش فيه حميه غلي مرجل

أما عمرو بن معد يكرب فيفضل الفعل (تهزّم) ليصف صوت جري حصانه، وكأنه رعد مصاحب لمطر مثقال أحدث سيولاً جارفة، وهي صورة تشبه في مضمونها صورة عامر التي أشرنا إليها سابقاً، يقول:

إذا ما الركض أسهل جانيه تهزّم رعد مبترّك جلاح<sup>(٦٦)</sup>

ومن الملاحظ في البيتين السابقين أن استخدام مادة (هز م) يشير إلى شدة وقع أقدام الخيل في حالة الجرى السريع، كما يشير إلى تلاحق الخطوات وهي حالة تؤدي عادة إلى ارتفاع صوت هذا العدو بشكل لافت، وقد يؤكد هذا مارسمه عنتره، وإن كان قد أثر استخدام (الصواعق) بدلاً من الرعد في تحديد ملامح الصوت التي تبدو شديدة جداً في صورته الفنية، يقول:

وحوافر الخيل العتاق على الصفا مثل الصواعق في قفار الفدفد

بينما يستخدم (الرعد) في صورة أخرى ترصد صوت ركض الخيل في قوله:

**طرقت ديار كندة وهي تدوي دوي الرعد من ركض الجياد**

والصور السابقة تجتمع عل وصف عدو الخيل، وشدة الصوت التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسرعة وجديّة الموقف، حيث تكون السرعة عنصراً مهماً في إحراز السيطرة على جوّ المعركة، والفوز فيها إذا اشتد الالتحام، أما إذا كان الموقف مختلفاً، فإن الصوت يكون مختلفاً، إذ يكون وقع أقدام الخيل خفيفاً كحفيف وقع القطر، كما هو عند عمرو بن معد يكرب إذ يصف ركض فرسه بقوله:

**إذا ضربت سمعت لها أزيزاً كوقع القطر في الأدم الجلال** (٦٧)

والأزيز صوت غليان القدر، والرعد البعيد، وهما صوتان خفيفان ضعيفان، واقتراحهما بوقع المطر - وهو صوت خفيف ضعيف أيضاً - يعطي الشاعر دقة في الوصف، ويجعل التشبيه هنا منطقياً ومعقولاً، وذلك لأن التجانس محقق، وهذا التجانس نلمسه أيضاً في صورة البيت نفسه - حسب رواية أخرى، إذ أتى فيها البيت على النحو التالي:

**إذا ركضت سمعت لها ونيداً كوقع القطر في الأدم الجلال**

ومعروف أن للجلد اليابس الصلب صوتاً ملموساً وإن كان ضعيفاً لا يضاهي أي صوت لجري الفرس فيما سبق من أبيات لعمرو نفسه ولغيره. فإذا انتقلنا إلى الأعشى نجده يستخدم (الصلصلة) وهي الصوت المرجع المضاعف، ويرسم صورته على هذا النحو:

**عنتريس تعدو، إذا مسها الصوت كعدو المصلصل الجوال**

وترثي ليلي الأخيلية، فتصف عدو الخيل دون الإشارة إلى صفة الصوت أو

درجته:

**وللبازل الكوماء يرغو خوارها وللخيل تعدو بالكماة المشاعر** (٦٨)

أما امرؤ القيس فيسمع صوت وثبة فرسه مثل معمة السعف الذي يحترق، فيقول:

**سبوخاً جموحاً واحضارها كمعمة السعف الموقد**

ونلاحظ درجات متباينة لصوت العدو، تتراوح بين الخفة والشدة، والارتفاع والانخفاض، مما يدل على أن إحساس العربي الجاهلي بالصوت إحساس مرهف

استطاع رسمه باقتدار ودقة، ومن هنا، فقد سَمِعَ للخليل صوتاً آخر - غير ما ذكرنا - وكان (الحمحة)، وهي دون الصهيل، وعرّ الفرس حين يقصّر في الصهيل ويستعين بنفسه كما يقول ابن منظور، ويستخدم عنترة اللفظ (تحمحم، وحممح) في بيتين أحدهما:

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرة وتحممح  
والآخر:

قحمت بها بحر المنايا فحممحت وقد غرقت في موجه المتلاطم  
وبطولة عنترة - هنا - واقتحامه بحر الموت، لم يمنع حصانه من الشكوى، فوطأة المعركة شديدة، والشاعر غير مكترث والحصان مدرك لما هو مقدم عليه، ومن ثم لم يجد بداً من الحمحة، تلك التي أحسّ بها الشاعر، ومع ذلك مضى إلى سبيله رغم توسلات هذا الحصان.

ومع أن اللفظ (حممح) ألصق بالخليل منه بالإنسان، فقد استخدم ذو الإصبع العدوانى هذا الفعل بصيغة المضارع - في صورته إذ قال:

إني رأيت بني أبي ——— يحممحون إليّ سوسا<sup>(٦٩)</sup>

وهي صورة تشعر بتقارب صوت الإنسان والحصان في هذا اللون الصوتي، إلا أن البيت يشعر بأن حمحة هؤلاء تتضمن الغيظ، بينما حمحة الحصان تتضمن الرجاء والإرهاق، ولعل ما يجمع بين الموقفين الانفعاليين هو عدم الرضا. ومن الملاحظ أن بعض المفردات الصوتية ترد في الصور الإنسانية والحيوانية للصوت في حالات المواقف المتشابهة، أو المقاربة.

وللخليل صوت آخر سمعه عبيد بن الأبرص، وهو (الحسّ، والحسيس) فجعل يرسم ويقول:

يدب من حسنها ديبا والعين حمالقها مقلوب

فاشتال وارتاع من حسيسها وفعله يفعل المذؤوب

والحس والحسيس هما (الصوت الخفي، والحركة، والرنة)، وهما - في هذا - صوتان مخالفان للصهيل والحمحة، وإن كانا يتميزان باختلاف الدرجة والشدة.

وقد يستشف الصوت من خلال ألفاظ أخرى ترصد صوت الخيل، ومن ذلك ما

استخدمه الحارث بن ولة الجرمي في صورته:

ولما سمعت الخيل تدعو مقاعسا تطالعني من شفرة النحر جائر (٧٠)

والدعاء ألصق بالإنسان، ويشير إلى النداء، وعليه، فإن استخدامه في صورة الخيل نوع من المجاز وليس حقيقة، ولكنه - مع ذلك - يشير إلى صوت ما بأسلوب غير مباشر. وكثيراً ما يأتي مثل هذه الألفاظ في صور الخيل الصوتية لتدلّ على أن الحرب قد وقعت، ومن ثم فإن الخيل تدعو المقاتلين إلى المنازلة، تعبيراً عن نداء الواجب لحماية الديار والأهل من العدوان القائم أو المحتمل.

ويمضي الشاعر الجاهلي يرسم الصور الصوتية التي تسمع في ساحة المعركة بكل لون يتأتى له ويشعر أنه أكثر دقة - من غيره من الألفاظ - في تصوير ما يريد تصويره. ويسمع أصواتاً ليس مصدرها الخيل، فيلتفت لمعرفة مصدرها الحقيقي، فيرى السيف والرمح والدرع والخوذة والقوس وغيرها، وتتوزع الأصوات في أذنه أنغاماً ملونة بالقوة أحياناً وبالضعف أحياناً أخرى، وبالعلو أو الانخفاض مرة، وبالخفة أو الشدة مرة ثانية، وهكذا ينصت الشاعر، فيسمع شهقة طعنة، ونثيم قوس، ووقع رماح، ونغمة سيف، ورنة هندی، وخشخشة درع. ويبدو - من بين هذا كله - أوس بن حجر وهو يلقي السمع لطعنة حسبها (شهيقاً)، فيأخذ ريشته ويرسم:

وفي صدره مثل جيب الفتاة تشهق حيناً وحيناً تهرأ  
أما عنتره فيسمع لها (جرساً)، فيقول:

برحيبة الفرغين يهدي جرسها بالليل مغمس السباع الضرم  
ويذكر دريد بن الصمة الطعن دون تحديد صوته، فيقول:

ويوم طعن القنا الخطي تحسبهم عانات وحش دهاها صوت منذر (٧١)

ويستخدم محرز بن الكعبر الضبي اللفظ (ضرب) مشيراً إلى الطعن من خلاله، ويبدو ذلك الطعن شديداً بحيث تصيح الهام من شدته:

دارت رحانا قليلاً ثم صبحهم ضرب يصيح منه حلة الهام  
وقريب منه قول النابغة، وإن بدا أكثر غرابة:

بضرب يزيل الهام عن سككاته وطعن كايذاغ المخاض الضواب

والطعن والضرب يرتبطان بالسيف أو الرماح عادة، ولا شك في أنهما يتضمنان



معنى الصوت- وإن كان يبدو خفيضاً- خاصة وأنهما في ميدان المعركة، حيث الضجيج والعجيج والأنين ووقع السيوف وطعن الرماح، وأصوات ملّونة بين العالي والخفيض، ولعل صورة عنتره تؤيد وجود هذا الصوت الضعيف، إذ يقول:

وَاسْتَكَّتْ كُلُّ صَوْتٍ غَيْرِ ضَرْبٍ وَعَتْرَسَةٍ وَمَرْمِيٍّ وَرَامِيٍّ

ويجمع بين وقع الرماح والسيوف، فيقول:

وَأَقْبَلْتُ الْخَيْلَ تَحْتَ الْغُبَارِ بِوَقَعِ الرِّمَاحِ وَضَرْبِ الْحِذَادِ (٧٢)

والسيوف وقع- كالرماح- عند الحارث بن حلزة أيضاً، وقد حدد نوع صوته

ودرجةته:

وَحَسِبْتُ وَقَعَ سَيْوْفَانِ بَرٍّ وَعَوسِهِمَ وَقَعَ السَّحَابُ عَلَى الطَّرَافِ الْمَشْرِجِ

ويستخدم حاتم الطائي (الضرب) في صورة أخرى أيضاً:

لَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ هَرَّتْ كَلَابِهِمْ ضَرَبْتُ بِسَيْفِي سَاقَ أَفْعَى فَخَرَّتْ

ويؤكد عنتره وجود أصوات للرماح والسيوف إذ جمعها في صورة صوتية

متداخلة، تشير إلى طبيعة تكوينه النفسي تلك الطبيعة التي تعشق الفروسية مهما جرت عليه وعلى غيره من متاعب وأخطار، يقول في صورته:

أَطْيَبُ الْأَصْوَاتِ عِنْدِي حَسَنُ صَوْتِ الْهِنْدَوَانِي

وَصَرِيرِ الرَّمْحِ، جَهْرًا فِي الْوُغْيِ، يَوْمَ الطَّعَانِ

وَصِيَاكِ الْقَوْمِ فِيهِ وَهُوَ لِلْأَبْطَالِ دَانِي

أَسْمَعَانِي نَغْمَةَ الْأَسَى يَا فِ، حَتَّى تَطْرِبَانِي (٧٣)

ولقد حدد الأصوات هنا، فصوت السيف حسن في أذنه، ونغمة وقعه تطربه،

وصرير الرمح عنده أطيب الأصوات، مثله مثل صوت السيف وصياح القوم، وقد

جعل من كل هذه الأصوات مقطوعة موسيقية متجانسة الألحان في سمعه هو، نخلبه

اللب فتأسره بأجعل الأصوات حسب رأيه. ولئن كان وصفه لصوت السيف عاماً،

جعل نغمة تطربه، فإنه حدد صوت الرمح فجعله صريراً، والصرير هو كل صوت

ممتد، ويلاحظ أنه ربط بين الصرير والجهر والطعان، مما يوحي بالعلاقة بين

الصوت والطعن.

أما الاعشى فيجعل للرماح (أطيطاً)، والأطيط- لغة- تمدد النمس وأشباهه،

وصوت الظهر والبطن والامعاء من الجوع أيضاً، وحنين الإبل الممتد، يقول في صورته الصوتية ذاكراً ناقة شديدة:

مفرجة يئط التسع فيها أطيظ السمهرية أن تقاماً  
والبراق بن روحان من ربيعة- مثله مثل عنتره- يجعل لضرب السيف نغماً  
وفصاحة أيضاً، فيقول:

ودارت رحي الحرب المشيبة للفتى وهالت نوي الألباب تلك المواقف  
بها نغم الأسياف تتطق بالقلبي فصيحاح حد ثائرات خفائف  
ويرسم عمرو بن معد يكرب صورة صوتية لسيفه، فيسمع لصوته رنة تارة،  
وخفخة تارة أخرى، والرنة- لغة- هي الصيحة الشديدة وهي الرنين والأرئان  
الصوت الحزين عند الغناء أو البكاء، وقد ورد اللفظ في اللغة مع القوس، في  
إنباضها، والمرأة في نوحها، والحمامة في سجعها، والحمار في نهيقه، والسحابة في  
رعدھا، والماء في خريده، أما الخفخة فجاءت في وصف الحبارى والضبع والخنزير  
وصوت الثوب الجديد والقرطاس إذا حركته، وللصوت يخرج من الأنف، وكلها  
ضعيفة منخفضة، فإذا تأملنا صورته الأولى:

ونسلم للسهندي في البيض رنة كرنئة أكار زففن عرائسا  
نشعر بنغمة خاصة في الصوت، فصوت العروس- عادة- خفيض مختلط، يبدو  
الحزن فيه لفراق أهل والربع، كما يبدو فيه الفرح لبداية حياة جديدة مع أنيس،  
وكلاهما ورد لغة، وعليه فإن رنة سيف عمرو تحمل المضمونين، لورودها أولاً في  
معرض الحديث عن معركة ونزال، وفيها ثنائية المنتصر والمهزوم والقوى  
والضعيف، ثم اقترانها ثانية برنة عروس زفافها، وفي كليهما يبدو الصوت  
خفيضاً مميزاً، كما تبدو في صورته:

لما وقعنا في التنازل خفخت مثل النعام مخافة للأشقر<sup>(٧٤)</sup>  
أما مهلهل بن ربيعة فيجعل للسيف صليلاً، جاء ذلك في صورته الصوتية:  
فولا الريح أسمع أهل حجر صليل البيض يقرع بالذكور  
ومفردات الصوت هنا كثيرة، منها: الريح، اسمع، صليل، يقرع، وكلها تكون  
صورة تتداخل فيها الألوان المختلفة للصوت، استخدمها الشاعر في لوحته الحربية

الشبيهة بلوحة بشامة بن عمرو بن معاوية ابن الغدير حيث يقول:

ومن نسج داود موضونة ترى للقواضب فيها صليلا  
ويأتي عنتره دائماً بالفرير، فهو يطرب لنغمة السيف، وفصاحته ونطقه، ثم يجعله  
بعد ذلك (يضحك، وينادي، ويكي، ويصيح)، ويرسم الصور التالية:

تصبح الردينيات في حجاباتهم صياح العوالي في الثفاف المثقَّب  
يضحك السيف في يدي وينادي وله في بنان غيري نحيب<sup>(٧٥)</sup>  
ولم لا يضحك سيفه وهو متأكد من انتصار حامله والضارب فيه، بينما يفقد ذلك  
الانتصار إذا كان في يد غير يد عنتره، ولذا، يبكي وينتحب، ذلكم هو عنتره دائماً،  
فارس متميز يرسم صوراً متميزة، يبدو الصوت فيها ملوناً بكل ألوان النغم، حتى  
وإن كان الموقف حزناً.

ولقد سجل الشعراء الجاهليون أصوات القوس على اختلافها، فهي مرة هتوف  
وأخرى كتوم، وفي ثالثة تحن وترن وتعلو، ولها نغم وأزمل وصوت، فقوس  
الشغرى كثيرة الهتاف مزينة بالنقوش، ويرسمها فيقول:

هتوف من الملس المتون يزينا رصانع نيطت إليها ومحمل  
ورغم أنه لم يحدد هنا متى تكون هتوفاً، إلا أنه في صورة صوتية أخرى يسمع  
حنينها إذا زل عنها السهم، وكأنها تكلى تنوح، يقول:

إذا زل عنها السهم حنت كأنها مرزاة تكلى ترن وتعلو  
والرنين عند عمرو بن كلثوم جاء مقروناً بالانقلاب، يقول:

عشوزنة إذا انقلبت أرنت تشج قفا المثقف والجبيننا  
وعند الأعشى:

وكل مرنان له أزمل ولين أكعبه حاد<sup>(٧٦)</sup>  
أما النابغة فيرسم صوت قوس الحب وليس الحرب، فيقول:

ولقد أصابت قلبه من حبها عن ظهر مرنان، بسهم مُصدَر  
وتذكر الخنساء صوت السهام، وتجعل لها (ولولة):

ونبعة ذات ارنان وولولة ومارن العود لاكر ولاعاد

والحنين والرنين للقوس واحد، وهو صوتها عند الإنباض، ويؤكد هذا المضمون

أوس بقوله:

كثوم طلاع الكف لا دون ملئها ولا عَجَسُها عن موضع الكف أفضلًا

إذا ماتعاطوها سمعت لصوتها إذا أنبضوا عنها نثيما وأرملًا

والصورة غريبة، إذ تجعل صوت القوس نثيما، والنثيم صوت البوم وصوت الأسد دون الزئير، وهو صوت ضعيف كالأنين كما تقول اللغة، وأما الأزل فهو الصوت المختلط، واللفظان معا يوحيان بصوت خفيض غير واضح المعالم ولعلهما يتفقا في الدرجة مع لفظي الحنين والرنين بالنسبة للقوس، من حيث انخفاض الصوت المضغوط المكتوم كصوت المرأة التكلي في حنينها، وهو مضمون لمسناه فيما سبق عرضه من شعر الخنساء وصورها الصوتية الباكية.

ويرسم أوس صورة أخرى لصوت القوس، مستخدماً لفظ (نذير)، وقد قرنه بكلمة (أفكل) وهي الرعدة، وإرسال القوس - دون تحفظ - كما تقول الصورة، يفضي بنا إلى سماع صوت أعلى من الأصوات التي رسمتها الأبيات السالفة، وكأن الصوت يحدده الراعي بالقوس كيف يشاء، تبعاً لظروف الرمي، ودعنا نشاهد الصورة:

وصفراء من نبع كأن نذيرها إذا لم تخفضه عن الوحش أفكل (٧٧)

ولم يهمل الشاعر الجاهلي ذكر صوت دروع الحرب، فهي جزء من مفردات المعركة، وتبدو في ساحة الصراع بين سيف ورمح، وبين ضرب وطقن، مخشخة لافتة نظر علقمة بن عبدة، مما دفعه إلى تدقيق السمع لتمييز صوت هذه الخشخشة الصادرة عن حركة فارس، أو وقع سيف، أو رمح، ويتبين فيما بعد أن صوتها على الفرسان كصوت خشخشة الحصاد اليابس حين تهب عليه الريح، ثم يأخذ ريشته ويرسم هذه الصورة:

تخشخش أهدان الحديد عليهم ما خشخشت ببس الحصاد جنوب.

ويرى الأعشى رؤيته، في رسم الصورة الصوتية لدرعه مستخدماً غير ذلك من ألوان قريبة الشبه منها:

له جرس كحفيف الحصاد صادف بالليل ريحاً دبوراً

وتوحي الصورتان بالصوت المتقطع، وإن لم يكن عالياً، ومثلها أو قريب منهما صوت الأدم الذي أشار إليه الأعشى في هذه الصورة:

صباحناهم بنشاب كفت قعة الأدماء  
ذلك لأن تلك الجلود- حين أصابها النشاب- قععت وصوتت تحت وقعه، وقد  
استخدم عمرو بن معد يكرب اللون نفسه حين وصف صوت اللجام وهو يقع بعضه  
على بعض، يقول مشيراً إلى فروسيته:

لقعة اللجام برأس طرف أحب إلي من أن تتحني<sup>(٧٨)</sup>  
وبرغم أن القعة- عامة- تكون عالية الرنين، إلا أنها في البتين هنا تشعران  
بصوت خفيض نوعاً ما، لاقرانهما بالأدم، وصوت الأخير خفيض، علاوة على أن  
السياق يفضي إلى ذلك الانطباع.

إن هذه اللوحات الحربية للصوت- في تلك البيئة سجل يضم إحساس العربي  
بالصوت، ودقة تصويره بغمية فذة تفيض بالحياة والحركة. فإذا تركنا هذا اللون من  
اللوحات واتجهنا إلى مشاهدة لون آخر للصوت الإنساني نجد:

#### سجل الطرب والغرب:

وتحتل رقعة واسعة من المعرض الجمالي، وينساب الصوت من خلالها رقيقاً  
محبباً إلى الأذان والقلوب، فيثير الإحساس وينقل دفقة المشاعر، فتتعالى الزفرات  
والآهات، وتتحرك العواطف وتتجدد الصور الغنائية كما تجسدت من قبل- أمامنا-  
أصوات البطولة والحياة الحربية التي تحمل- بين طياتها- ضمير الجماعة وقيمها في  
هذا المجتمع المولع بالفروسية والخاضع لظروف وأوضاع ومفاهيم معينة ترسم له  
توجهه وانطلاقه.

ولوحات الأنس والطرب التي تعبر عن الإحساس الذاتي والوجداني للشاعر  
ترصد لصوت القيان ألوانه، فهو أبج، طبيعياً، وأبج بفعل الشراب، وصداح مغرد  
تغريد الطيور أحياناً، ورخم أحياناً أخرى، تنشد القينة مرة، وترتل أخرى، وتقلب  
الأوتار بكفها مرة ثالثة، وترجع بصوتها فتلهب قلوب الندامى. ويشاركها الشرب  
الغناء بأصوات أنهكتها الخمر، فبدو كصوت نوح حول جنازة لم ترفع كما يقول  
الحادرة. ويبدو العازفون من وراء ذلك كله بين حامل عود وضارب دف، ولاعب

على صنج أو بربط، وهكذا تتصاعد الأنغام، فيعلو صوت المزهر الأَجَشَ حيناً، ويجاوبه الدفّ الزجل حيناً آخر، والنأى ييكي شجوه فيستجيب له موثّر تلاعبه مغنية. ونزهف أسمعنا فيأتينا صوت قينة منطلق من لوحة فنية لعبيد بن الأبرص وقد رسم فيها ملامح صوتها الذي بحّ من كثرة الشرب وهي تعزف على العود كما نرى:

**ومسمعة قد أصحل الشرب صوتها      تأوى إلى أوتار أجوف محبوب**  
ويرسم عيد المسيح بن عسلة صورة لقينة أخرى تبدو في وضع آخر:

**وسماع مدجنة تعلّنا      حتى تؤوب تتاوم العجم**  
وأما الأسود بن يعفر فيدقق في سماعه، ويصف صوت القينة بهذه الصورة التي تبدو فيها ملعة بأساليب الصنعة إلاماً جيداً، فالصوت أبج رخيم، والأسلوب هو الترتيل، والغناء متقن:

**تغنّية بحاء الغناء مجيدة      بصوت رخيم أو سماع مرثل**  
ويصور بشر بن عمرو بن مرثد مجلساً للغناء فيه أكثر من قينة تشترك في الغناء والعزف، فيقول:

**فباتوا لنا ضيفاً وبتنا بنعمة      لنا مسمعات بالدفوف وسامر**  
ويشير الأعشى أيضاً إلى هؤلاء المسمعات العازفات ويرسم الأكف وهي تقلّب الاوتار فيقول:

**ومسمعتان وصنّاجة      قلب الكف أوتارها**  
ثم يصف صوتها حين يشجعها الشرب على الغناء - منسجمين - فتضرب بمزهرها، وتبدو على هذا النحو:

**وصدوح إذا يهيجها الشرب      ترقت في مزهر مندوف**  
وكأنى - هنا - بالأصوات مختلطة عالية، يبرز من خلالها صداح هذه المغنية، ووصف صوت المغنية باستخدام (الصداح) جاء عند أكثر من شاعر، ومنها ما قاله أسماء بن خارجة المخضرم:

**وبه الصدى والعزف تحسبه      صدح القيان عزفن للشرب**  
ويصور غيره القيان عازفات بالدف في مجلس شراب:

**إن فينا القيان بعزفن بالدف      لفتياننا وعيشاً رخياً**

ومثله حسان بن ثابت إذ يقول:

**ظل حولي قِيَانُه عازقات مثل آدم كوانس وعَوَاط**

ولعل الأعشى أكثر من وصف هذه القينات في مجالس الأنس وهن يعزفن على آلات مختلفة، منها الدف والمزهر، وهو يدقق في وصف أصواتهن، لاسيما وأن علاقته بهن علاقة عميقة إذ كان يسمعهن في مجالس ممدوحيه، ويصفهن وصفاً دقيقاً، ومن ذلك قوله واصفاً مجلس أنس:

**بصبوح صافية وجذب كرينة بموثر تأتاله ابهامها**

وفي صورة أخرى يقول واصفاً ثياب قينة ترجع في صوتها:

**ومستجيب نخال الصنج يسمعه إذا ترجع فيه القينة الفضل**

وصداح القينات يختلط بصوت الخلاخيل حينما يقرن الغناء بالرقص، فتبدو لوحة صوتية متنوعة الألوان بين غناء ورقص وعزف بالعود، ورنه خلخال، ويرسم هذه اللوحة الملونة تميم بن أبي بن مقبل على النحو الآتي:

**صدحت لنا جدياء يركض ساقها عند التجار مجامع الخخال**

**فضلاً ينازعها المحابض رجعها بأحدلاصلحل ولا مصحال<sup>(٧٩)</sup>**

والأصوات في الصورة متنوعة نسمع أنغامها في أوتار العود وغناء القينة ورنه الخلال لتكوّن في النهاية انسجاماً موسيقياً شائفاً.

**ويتناول طرفه صوت قينة فيجد فيه ترديداً وترجيحاً وتحزيناً وترقيقاً، وهي درجات صوتية تتلاعب في إبداعها هذه القينة التي تعرف صنعتها أحسن معرفة، يقول:**

**إذا نحن قلنا: أسمعينا، انبرت لنا على رسلها مطروقة لم تشدد**

**إذا رجعت في صوتها خلت صوتها تجاوب أظار على ربغ ردى**

ويشير الشعراء أحياناً إلى الأصوات الموسيقية من خلال ذكر الغناء عامة أو ذكر العازفين أو ذكرهما معا دون تحديد صفة الصوت ودرجته، ومن ذلك قول الأعشى:

**وشاهدنا الورد والياسمين والمسمعات بقصائبها<sup>(٨٠)</sup>**

والقصايب هنا تصبّ الزامرين والمزامير، وتشير إلى أوتار العود غالباً، وقد ذكر المزار أبو ذؤيب وسماء (موشى ثقيب) إذ يقول مصوراً أثر الشوق والأرق:

أرقت لذكره من غير نوب كما يهتاج موشى ثقيب  
ويأتى مزرد بن ضرار بصورة طريفة، حين يرى أن سهيل فرسه مثل صوت  
مزامير، يقول:

أجش صريحى كان سهيله مزامير شرب جاوبتها جلاجل  
أما ذو جدن الحميرى فيذكر عزف القيان دون الغناء في مجلس شراب:  
لدى عزف القيان إذا انتشينا وإذ نسقى من الخمر الرحيق  
ويذكر زهير الغناء عامة من خلال لوحة أنس وانسجام:  
يجرون البرود وقد تمشت حمياً الكأس فيهم والغناء  
أما برج بن مسهر الطائى فيشير إلى المغنيات في لوحة شراب دون توضيح صفة  
الغناء أو درجة الصوت، وإن كان ذكرهن يوحي بوجود غناء معين حتى وإن لم  
يشر إليه الشاعر صراحة:

وفينا مسمعات عند شرب وغزلان يعد لها الحميم  
وعند الأعشى:  
ليأتينه منطلق سائر مستوثق للمسمع الأثر  
ومادام هناك مسمعات ومسمعون، فلا بد أن يكون هناك غناء، ولعل حسان أبرز  
اللوحة بصورة أكثر تحديداً:

تغدو على وندماني لمرقه نقضي اللذات من لهو واسماع  
ثم يشير إلى الغناء عامة دون وصف، في معرض حديثه عن مجلس شراب:  
نشربها صرفاً ممزوجة ثم نغني في بيوت الرخام  
وفي كل لا يبدو الصوت صراحة ولا درجته أو صفته، بل يلمس خلال عرض  
عام لهذه المجالس اللاهية التي لا تخلو من غناء وعزف. ومن الملاحظ أن وجود  
المغنيات أو المسمعات في معظم الصور الصوتية- وربما كلها- ملازم لمجلس أنس أو  
شراب، وفي أغلبها أيضاً تكون المغنية ضاربة على الأوتار وعازفة على آلة موسيقية  
معينة، ولعل أشهرها المزهر، وقد جاءت الصور هذه عند الأعشى بصورة واضحة  
منها قوله:

إذا قلت غني الشرب قامت بمزهر يكاد إذا دارت له الكف ينطق (٨١)



**فهي** بالإضافة إلى إبداعها في الغناء مبدعة في ملاعبة المزهري بحيث نراه يكاد ينطق، وحتى في حالة الرثاء- رثاء النفس أحياناً- نجد أن الشاعر الجاهلي حريص على الربط بين القيان المغنيات ومزهريهن خاصة، والآلات العازفة عامة، وكأن ذلك من مفردات تفوقها في هذا المجال، ودلالة على ضرورة إجادتها للعزف به لتكون قينة شرب لها حق الوجود والعمل في هذه المجالس المرحية، فليبد يقول، في رثائه، مشيراً إلى غشيان المتوفى دور الطرب والسماع:

**وهاهو ذا أحيحة بن الجلاح** أيضاً عندما شعر بأن أبا كرب تبع بن حسان قاتله، يوحى للقينة بغناء هذا البيت:

**لتبكني قينة ومزهريها** **ولتبكني قهوة وشاربها**

ولقد أشار عبدة بن الطيب إلى مستوى الشعر الذي كان يغني، فهو شعر مذهب وكأنه ضرب من النقوش تشده وتقرّد به قينة طويلة العنق، نقطعه بنغمات مؤداة أحسن أداء، وقد رسم لهذا كله صورة فنية تشير إلى مجلس شراب وشهرة الشعر المنشد:

**صرفاً مزاجاً وأحياناً يعلننا** **شعر كمذهبة السمان محمول**

**تذري حواشيه جيداء أنيسة** **في صوتها لسماع الشرب ترتيل<sup>(٨٧)</sup>**

والشاعر بهذا يحدد صفة الصوت هنا، فهو ترتيل يوحى بالضغط على بعض المقاطع وتقسيمها- مع الإطالة- تبعاً للنغمة والمضمون لتكون أكثر تأثيراً وأجمل وقعاً. وحيث يشير إلى أن القينة أنشدته فغنته، فإنه يشير من خلال ذلك إلى أن الإنشاد كان منغمّاً، وذكر صوت الإنشاد ورد عند عبدة أيضاً، بدلالة تنفيذ تقطيعه على شكل نغمات مطربة، ويؤكد ذلك الأخبار التي وردت عن الأعشي وتلقيه بصناعة العرب، كناية عن إنشاده شعره بأسلوب غنائي منغم، وقد أشار إلى الإنشاد بقوله يصف ثوراً:

**يصـيـخ للنبأ اسماعه** **اصاخة الناشد للمنشد**

والإنشاد نوع من الغناء وإن كان أقل في الترددات الصوتية التي تبرز في الغناء المعروف.

وليست النساء وحدهن من كنّ يلجن هذه المجالس المرحية من خلال مهنة الغناء

والعزف، وتناول الأصوات المختلفة بمهارة واقتدار، بل كان من الرجال من ناض هؤلاء القيان في هذا المجال، وإن كانت الظاهرة النسائية أوسع انتشاراً كما يبدو في القاموس الشرعي بالنسبة لهذا الجانب الفني عند عرب الجاهلية.

ومن الصور الصوتية التي تشير إلى المغنين من الرجال والعازفين. لوحة فنية رسمها الأعشي، وهي تقول:

ومغنٌ كلما قليل له      أسمع الشرب، فغنيّ وصدح  
وثى الكفّ على ذى عتب      يصل الصوت بذى زير أبخ

واللوحة التي تجمع بين الشرب والمغنين العازفين وآلاتهم الموسيقية تشير إلى رقيّ فني في الغناء والألحان فالغناء متنوع الأداء والأصوات، والآلات الموسيقية تحتاج إلى دراية في التوقيع عليها، وهي دراية يبدو أن الأعشى أعجب بها، فرسم لها هذه الألفاظ الصوتية العذبة بموسيقاها العذبة الراقصة، التي تجعل غناء هذه الصور الشعرية للأعشى وغيره ممن سار على منواله تنساب انسباً رقيقاً فيه ترديد وترجيع وخفة وجرس مرقص. والأعشي من الذين كان يأسرهم جمال الصوت وعذوبة اللحن، ولهذا كثر تصويره لهذا الغناء وآلات الطرب والعازفين والمسمعات، فهاهو ذا يصور كيف أن المغني يظل يصدح طوال ليلته حتى يغيب صوته أو يختفي فيكمل ليلته بالعزف، فإذا فني صوت المسمع وتراخي الصنج عن إكمال جلسة الأنس، أكمل الألوان الصوتية مغنٍ آخر في الصورة الفنية التي بدت على النحو التالي:

وإذا المسمع أفنى صوته      عزف الصنج فنادى صوت ون  
وإذا ماغض من صوتيهما      وأطاع اللحن، غنانا مغن

والصنج هو الدفّ عند العرب، فإذا كان ذا أوتار فذخيل تختص به العجم، وهو غالباً يكون من الآلات الوترية، وقد ورد أكثر من مرة عند الأعشى كما في قوله:

ومستجيب تحال الصنج بسمعه      إذا ترجّع فيه القينة الفضل

أما عند ساعدة بن جؤية، فقد حمل المغني لقب (صنّاجة)، ويعرض ساعدة في صورته العازف المغني في مجلس يجمعه بمذمن أخذ الشراب منه كل مأخذ، بحيث جعلته النشوة يترنم كما يفعل المغني ويغرد في غنائه، والشاعر في هذه الصورة يرصد لصفة الصوت الذي يبدو في اللوحة على النحو الآتي:

وعاودني ديني فبتَ كأنما      خلال ضلوع الصدر شرع ممدّد  
 بأوب يدي صناجة عند مدمن      غويّ إذا ما ينتشي يتغرّد<sup>(٨٣)</sup>  
 ولقد جاء ذكر التغريد - وصفا لصوت الغني أيضاً - عند امرئ القيس:  
 يغرد بالأسحار في كل سدفة      تغرد مباح الندامي المطرب  
 وقريب من هذا صورة رسمها لبيد لحمار وحشي يشبه فيه صوته بصوت المنتشي،  
 يقول:

يطرب أناء النهار كأنه      غويّ سقاه في التجار نديم  
 ولصوت الشارب نغمة ذات تردد بطيء تفرضه حالة السكر وارتخاء أعضاء  
 النطق، وفي هذه الحالة يكون الصوت خفيضاً نوعاً ما، غليظاً لأن ارتخاء الأحبال  
 الصوتية كارتخاء الأوتار في الآلة الموسيقية، ومنهما معاً يصدر الصوت الخفيض  
 الغليظ، ولقد أتى الطفيل الغنوي بصورة دقيقة لوصف هذا الصوت من خلال تشبيه  
 غناء الحمام به، وهو غناء متقطع خفيض يتراوح بين الشدة والرخاوة تبعاً  
 للاهتزازات العضوية التي يحدثها مرور كميات متفاوتة من الهواء، وهي التي تحدد  
 النغمة أو الجرس الموسيقي الصادر من الحمام والسكران على حد سواء، يقول الطفيل  
 في اللون الصوتي للمنتشي:

يقني الحمام فوقها كل شارق      غناء السكراني في عريش مظلل<sup>(٨٤)</sup>  
 وصوت المنتشي رصده أكثر من شاعر رسم مجالس الأنس والشراب، وإن كان  
 بعضهم أعطاه صفة البكاء، فليبد يرى سحيل الثور الوحشي شكوى أو بكاء شارب:  
 كأن سحيله شكوى رئيس      يحاذر من سرايا واغتيال  
 تبكي شارب أسرت عليه      عتيق البابلية في القلال  
 ويسمع الحادرة صوت رفاق الشراب، فيراه رؤية لبيد، ويرسم الصورة:  
 متبطحين على الكنيف كأنهم      يكون حول جنازة لم ترفع  
 وأبو ذؤيب يسمع صوتاً مشابهاً يجعله نشيجاً:  
 ضفادعه غرقى رواء كأنها      قيان شروب رجعتن نشيج  
 ويرسم الأعشي صورة أخرى لأحد الشرب وقد أخذه الغناء، وإن لم يعطه صفة  
 البكاء، يقول:

وطلاء خسروانى إذا ذاقه الشيخ تغني وارحن<sup>(٨٥)</sup>

ويشير هذا التشكيل إلى حالة المنتشي وترنحه في مشبه وغنائه، ومن ثم يكون صوته بين الشدة والرخاوة، وإن كان يميل إلى الرخاوة أكثر. ومن الجدير بالذكر هنا أن الوترين الصوتيين ينطبقان - عند إصدار النغمة الموسيقية - انطباقاً جزئياً بحيث يسمح للهواء المندفع من خلالهما أن يفتحهما ويغلقهما بسرعة وانتظام، ومن ثم ينتج ما يعرف بذبذبة الأوتار الصوتية، وهيذبذبة تحدث نغمة تختلف من حيث الدرجة والشدة، ومن هنا يبدو صوت المنتشي رخياً أكثر من غيره، وهكذا تتحدد الأصوات الغنائية، فيكون الصوت الأجش أو المطرب أو المغرّد أو الصادح أو المرتل، كما رأينا فيما سبق من لوحات فنية.

وحديثنا عن الصور الصوتية في مجالس الغناء يقودنا إلى الحديث عن الآلات الموسيقية التي كانت تستخدم في هذه المجالس، وقد شغف الشاعر الجاهلي بوصفها كما شغف المجتمع الجاهلي بالعزف عليها وسماع نغماتها العذبة، وتلك النغمات التي كانت تستخف الحليم، خاصة إذا كان ذلك في مجلس شراب وأنس يجعلهم يتغردون نشوة وطرّاً.

ورسم هذه الآلات يستجلي الرؤية الشعرية لهؤلاء في هذا المضمار، فالآلة الموسيقية عندهم حنون تصدر الصوت فتسعد وتشجي معاً، والطنابير حسنة الأصوات، والبرابط مبجوحة، والصنح بيكي، والمزهر أجش، والصوت الأجش - كما يقول الخليل بن أحمد - هو صوت من الرأس يخرج من الخياشيم فيه غلظة وبعة، وإطلاقة على صوت المزهر أحياناً يحدد صفته على نحو مشابه.

وهكذا يميز الشاعر بين أنواع النغمات والجرس الموسيقي الذي تختلف فيه الاهتزازات من آلة لأخرى - تلك الاهتزازات التي تكون الألوان الموسيقية المختلفة والأصوات المتباينة أو المتشابهة تبعاً لتكوين ووضع الآلة نفسها.

وامرؤ القيس والأعشى من أكثر الشعراء ذكراً لهذه الآلات، ومن الصور الفنية التي رسمها امرؤ القيس لصوت مزهر تعزف عليه القينة المغنية، قوله:

لها مزهر يعلو الخميس بصوته أجش إذا ما حركته اليدان<sup>(٨٦)</sup>

ويشير الأعشى إلى صوت المزهر من خلال ذكر العزف عليه، وقد استخدم

اللفظ (مندوف) صفة للمزهر، يقول:

وصدوح إذا بهيجها الشرب      ترقّت في مزهر مندوف  
ومثلها لوحة سلمى بن ربيعة واصفاً أنواع لذائذه، ومشيراً إلى صوت المزهر  
وصفته من خلال الصورة الفنية الآتية:

والبيض يرفلن كالدمى      في الریط والمذهب المصون  
والكثر والخفض آمنا      ومشعر المزهر الحنون  
وفي لوحة مشابهة، يقول الأعشي:

ومزهرنا مُعَمَّل دائم      فأى الثلاثة أزري بها  
ومادام المزهر معملاً، فإن صوته يتردد في الأنحاء لا ينقطع، وإن لم يشر إلى  
وصفه بصورة محددة، بينما نراه في تشكيل آخر يرسمه ناطقاً، ولعلها إشارة إلى  
إبداع العازفة عليه وإتقانها إلى درجة أنها تنطقه، فيأسر نطقه الأعشي ويسجل افتتاحه  
بهذا العزف العذب، فيقول:

إذا قلت غني الشرب قامت بمزهر      يكاد إذا دارت له الكف ينطق (٨٧)  
ولمزهر علقمة الفحل صوت رنم مطرب:

قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم      والقوم تصرعهم صهباء خرطوم  
أما مزهر لبيد فصدّاح، وبهذا ذكر صفة صوته بقوله:

وقيئة ومزهر صدّاح

والمزهر في كل هذه الصور: أجش، حنون، رنم، معمل، مندوف، وبعض هذه  
الصفات تأتي مع صوت الإنسان، وكان البدع الجاهلي كان يرى تشابهاً في الصوت  
بين هذين الطرفين، في أوضاع متشابهة يبدو الصوت فيها واحداً وإن اختلف  
المصدر.

أما البرابط والصنوج، فقد أكثر الأعشي من ذكرها بسبب تردده على مجالس  
الفناء، يقول في إحدى تشكيلاته الفنية:

وبربطنا دائم معمل      فقد كاد يقلب أسكارها

والشطر الأول من البيت شبيه - من حيث الألفاظ - بالبيت الذي سبق ذكره  
للشاعر، مع اختلاف في تقديم (معمل) على (دائم)، واستبدال بربط بمزهر،

واختلاف الشطر الثاني. وله أيضاً:

وطناير حسان صوتهَا عند صنَج كلما مسَ آرَن(٨٨)

وفي صورة ثلاثة يقرن بين الصنج والون، يقول:

وإذا المسمع أفنى صوته عزف الصنج، فنادى صوت ونَ

والصنج والبربط والطنبور آلات وترية أيضاً، أولع الأعشى بأصواتها، ولذا فهو لا يفتأ يذكرها ويصفها ويجمع بينها كما يجمع بينها مجلس الطرب الذي كان يغشاه، فهو في هذه الصورة يجمع بين الون والصنج والبربط وغيرها من آلات طرب وعزف، ولعل بعضها فارسي الأصل كما يبدو من أسمائها، يقول:

ومستقّ سينين، وون وبربط يجاوبه صنَج إذا ما ترنمّا

والشاعر هنا يحدد صوت البربط ونغمته من خلال (ترنم)، وبه يشير إلى صوت الصنج أيضاً، وإذا كان الترنم والترنيم والرنيـم تطريب الصوت وحسنه، فإنه بهذا يحدد صفة الصوت الذي يختلف عنه في صورة فنية أخرى له أيضاً، إذ يسمعه فيها بكاءً وشجواً، وهاهو ذا يقرنه بالناي أيضاً، فيقول:

والناي نرّم وبربط ذي بحة والصنج يبكي شجوه أن يوضعا

فالبربط أبجّ، والصنج يبكي خوفاً من أن يوضع فلا يعزف به.

أما العود فقد جاء من خلال ذكر صفاته عند الأعشى أيضاً، يقول في صورة صوتية:

ومستجيب تخال الصنج يسمعه إذا ترجّع فيه القينة الفضل

وترجيع القينة في المستجيب- وهو العود يشير إلى ترديد النغمة نفسها أكثر من مرة، كما يشير إلى صوت وغناء القينة بترنم، أما في صورة فنية أخرى فيرسم صوت العود على النحو التالي:

بصبوح صافية وجذب كرينة بموثر تاتاله إبهامها

ولعله أيضاً يشير إلى العود بقوله:

ومسمعتان وصناجة تقلب بالكف أوتارها(٨٩)

كما يحتمل أيضاً أن يكون عبيد بن الأبرص قد ذكره أو قصده حين قال:

ومسعة قد أصلح الشرب صوتها تاوى إلى أوتار أجوف محنوب

والحنوب هو المحدودب المقوس، واقتران الحنوب بالأجوف والأوتار يوجي بشدة بأن المقصود هو العود.

ولقد ورد ذكر الآلات الموسيقية في معرض ديني، ومنها الناقوس، وأغلبها يشير إلى موقف ديني عند النصارى خاصة، وفي هذا يسهم الأعشي أيضاً في عرض لوحته الصوتية الدينية هذه:

فإني ورب الساجدين عشية وما صك ناقوس النصارى أبينها  
وفي صورة أخرى يقول المرقش الأكبر:

وتسمع ترقاء من السيوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقيس (٩٠)

ولا يكون هذا إلا من قبل الرهبان الذين يقومون بضرب النواقيس في هذة الليل وقریباً من بزوغ الصباح إيدانا بالصلاة عندهم، ويؤكد هذا ما شكله الأعشي لمعاقرته الخمر حتى مطلع الفجر، حيث يدق الرهبان النواقيس للصلاة، يقول في تشكيله هذا:

وكأس كعين الديك باكرت جدّها بفتيان صدق والنواقيس تضرب  
ويفتخر لبيد بقومه، ويذكر النواقيس فيقول:

فصدّهم منطلق الدجاج عن العهد وضرب الناقوس فاجتبتا

أما الصور الصوتية التي تذكر فيها الآلات الموسيقية التي يستخدمها اليهود في سلوكياتهم الدينية، فإن الحارث بن عبّاد رسم بعضها في لوحته هذه:

فكأن اليهود في يوم عيد ضربت فيه روقشاً وطبولا

أما المزامير، فقد جاءت من خلال (قصب وقاصب)، وقد حمل بعضها الملمح الديني كما هو الحال عند عدي بن زيد إذ يقول، ذاكراً أحد الرهبان في صنعاء:

يأنس فيها صوت لئنهام إذا جاوبها بالعشي قاصبها (٩١)  
وعند لبيد في صورة أخرى:

يرجع في الصوى بمهضّات يجين الصدر من قصب العوالي

وقد أشير إلى المزامير من خلال صوتها (زمير أو زمر) وقد جمع الشاعر بين الزمير والدف، يقول عدّى بن زيد واصفاً صوت المطر المصحوب بالرعْد:

زجل عجزه يجاوبه دفّ لخوان مادوبة وزمير

كما يشار إلى المزامير من خلال صفاتها، يقول أبو ذؤيب:

أرقت لذكره من غير نوب كما يهتاج موشى ثقيب  
والمعقر بن أوس بن حمار البارقي يذكر صوت الدفوف من خلال الإشارة إلى  
المسمعات، ويعني بها- هنا- العازفات، يقول:

فباتوا لنا ضيفاً وبتنا بنعمة لنا مسمعات بالدفوف وسامر  
وهناك صور صوتية تتصل- أحياناً برجال الدين، فربيعة بن مقروم يصف  
صوت راهب يقوم ليله مصلياً داعياً يبدو في اللوحة الفنية على الشكل التالي:  
جار ساعات النيام لربه حتى تخدد لحمه متشمعل<sup>(١٢)</sup>  
ويصور عدي بن زيد الصوت نفسه قائلاً:

إنتي والله فاقبل حلفي لأبيل كلما صلتى جار  
والجار رفع الصوت مع الدعاء والاستغاث، وإن كان الدعاء- عادة- بصوت  
خفيض، إلا أن الاستغاث عند الشدة تدعو إلى رفع الصوت أحياناً، مع أن الإيحاء هنا  
يقضى بأن يكون الصوت خفيضاً نوعاً ما، خاصة وأن البيت الذي يليه يساعد على  
ذلك الإيحاء، فالراهب ترتعد أحشاؤه خشية من الله، والصوت الخفيض في هذه  
الحالة أكثر واقعية، يقول عدى:

مرعد أحشاؤه في هيكل حسن لعمته وافي الشعر  
وقد وردت صيغة التصغير من (أبيل) عند الأعشى، إذ يقول:  
وما أبيلي على هيكل بناه وصلب فيه وصارا  
يرواح من صلوات المليك طوراً سجوداً وطوراً جوارا  
وقد يكون الصوت (هزجاً)، والهزج- في الأصل- أنغام خفيفة راقصة تستخف  
الحليم، وقد لَوْن الأعشى به صورته الفنية حينما سمع صوت مجوسي يسقي الخمر في  
بيت عبادة، يقول:

ونظل تجرى بيننا ومقدم يسقي بها  
هزج عليه التومنا ن، إذا نشاء عدا بها  
وفي صورة أخرى يشير إلى صوت حارس الخمر- وعادة مايكون من رجال  
الدين اليهود أو النصارى- وهو يصلى ويزمزم، والزمزمة هنا صوت يصدر من  
المجوس في صلاتهم عادة، يقول الأعشى:



لها حارس ما يبرح الدهر بيتها إذا بحت صلى عليها وزمزا  
ولاشك في أن الصلاة تحمل معنى الدعاء، وهو - على كل حال - صوت سواء  
أكان خفيضاً أم عالياً، ويؤكد هذا الأعشى في صورته:  
وصهباء طاف يهوديها وأبرزها وعليها ختم  
وقابلها الرياح في دنها وصلّى على دنّها وارتمم<sup>(١٣)</sup>  
ومثله التسييح والابتهاال والتهايل، وكلها تصدر من المتعبد تضرعاً ودعاءً  
وتقديساً، وقد جاءت في الشعر الجاهلي في معرض الحديث عن الأصنام عامة، وهذا  
مانجده عند ربيع بن ضبع الفزاري ذاكراً صنم الأقيصر في الشام والغناء الديني  
حوله، ويقسم قائلاً:

فإنني والذي نغم الأنام له حول الأقيصر تسييح وتهليل  
وقد يؤكد هذا الاقتران ما قاله ضرار بن الأزور حين قدم على النبي وقد أسلم:  
خلعت القداح وعزف القيان والخمر تصلية وابتهاالا  
وقريب منه الصورة التي رسمها الأعشى ذاكراً الابتهاال:  
لاتقعدن، وقد أكلتها حطبا تعوذ من شرها يوماً وتبهل

• يقع في العدد القادم •

المراجع والمراجع

- ١- فن تربية الصوت وعلم التجويد، عطيات عبد الخالق خليل وناهد أحمد حافظ، ص/ ١٠، الأنجلو المصرية.
- ٢- كتاب الطبيعة والكيمياء/ ٢٠/ ملصلة كتاب المعرفة، بيروت ١٩٨٧.
- ٣- الطاقة الشمسية، محمود سليم عودة/ ٤٧/ دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٩.
- ٤- فن تربية الصوت/ ١٥، ٢٨، ٢٩.
- ٥- المرجع السابق/ ٦٢، ٦٧.
- ٦- الطبيعة والكيمياء/ ٢٠، ٢١، وكتاب: الصوت، ألكسندر أفرون/ ١٣، ١٤، ١٦، ١٩، ٢١، ٣٣، ٣٤، ٤٣، ٦٠، ترجمة محمد عز الدين فواد، مراجعة علي شعيب، دار الكرنك ١٩٦٢،
- ثم "الصوت، أفرون" ص/ ٦٥، ٦٦.

٧ - انظر كتاب "الاتقان في علوم القرآن" لجلال الدين السيوطي، ج ١/٩٤ وما بعدها المكتبة الثقافية بيروت.

٨ - لسان العرب، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، ج ١/١٥٦، ٢٧٥، ٢٧٦، ٣٢٠، ٣٥٦، ج ٢/٩، ٤٥، ٢٥٢، ٢٦١، ٢٧٦، ٢٨٩، ٢٩٤، ٣٣٦، ٣٦١، ٤٣١، ٤٨٠، ج ٣/١٠٦، ١٢٩، ١٣٥، ١٣٧، ١٤٣، ٢٠٠، ٢٠٩، ٢١٣، ٢٢٦، ٣٠١، ٣٠٥، ٤٦١، ٤٦٦، ج ٤/٤٢، ١٥٢، ١٦٠، ٢٠١، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٤٤، ج ٥/١٨١، ١٩٥، ٣٤٥، ٣٩٩، ٤٠٢، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤١٥، ج ٦/١٩، ١٣٠، ١٧٥، ٢٣٢، ج ٧/٥٥، ٦١، ٩٨، ١١٩، ١٢١، ١٧٠، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٦٨، ٢٨٨، ٢٩١، ٣٣٤، ٣٤٩، ج ٨/١٣٢، ١٤١، ١٦١، ١٦٥، ١٨٦، ج ٩/٣، ٤، ١٩، ١٢٦، ١٢٤، ١٥٠، ١٦٨، ١٨٠، ٢٣٧، ٤٧٢، ج ١٠/١٣، ٢٦، ١٣٥، ١٥٩، ٢١٧، ٢٢٧، ٢٩٧، ٤٢٩، ج ١١/١٤٩، ٢٥٩، ٣٠٣، ج ١٢/٥٩، ٦٦، ٦٩، ٢٣١، ٢٣٩، ٢٤٧، ٣٤٢، ٣٤٥، ج ١٣/١٩، ٣٨، ٢٨١، ٣٢١، ٣٢٩، ٤٠١، ٤٠٥، ٤١٠، ٥١٠، ج ١٤/٩٠، ١٧١، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٦٣، ٣١٧، ج ١٥/٥١، ٩٦، ١٢٩، ١٦٥، ٢١١، ٣٤٠، ٤١٨، ج ١٦/١٧، ٤٤، ٩١، ١٠٦، ٧٤، ١٦٨، ٢٨٥، ج ١٧/٣، ٤٧، ٤١، ٢٦٣، ٣٤٥، ٣٦٥، ج ١٨/٨٨، ٢٨١، ٣٠٧، ج ١٩/٤٥، ٧٦، ١٥٠، ١٦٩، ١٨٦، ٣٤٢، ٣٧١، ٣٧٦، ج ٢٠/١١٦، ١٧٩، ٢٠٧، ٢٣٦، ٢٥٣، ٢٧٧، طبعة مصورة عن طبعة يولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٩ - البقرة، الآيات/ ٩٣، ٧٥، ١١٣، ١١٨، ١٢٦، ١٨٦، ٢١١، ٢١٩.

١٠ - النساء، الآيات على التوالي/ ٩٦، ٤٢، ١٤٠.

١١ - المائدة/ ٥٨، الانفال/ ٣٥.

١٢ - هود/ ٤٥، ٧١ يوسف/ ١٦.

١٣ - إبراهيم/ ٢٢.

١٤ - طه/ ١٨.

١٥ - الأنبياء/ ٣، ٨٩، ١١٠.

١٦ - القصص/ ١٨، فاطر/ ٣٧.

١٧ - يس/ ٤٣.

١٨ - الحجرات/ ٢، ٣.

١٩ - ق/ ٤١.

٢٠ - الذاريات/ ٢٩.

٢١ - القلم/ ٢٣، المنافقون/ ٤.

٢٢ - هود/ ٦٧، المؤمنون/ ٤١، يس/ ٢٩، ٥٣.

- ٢٣- ق/ ٤٢، التازعات/ ١٣.
- ٢٤- الأعراف/ ١٤٨، لقمان/ ١٩.
- ٢٥- البقرة/ ١٩، الرعد/ ١٣.
- ٢٦- آل عمران/ ١١٧، القمر/ ١٩.
- ٢٧- الأنبياء/ ١٠٢، الفرقان/ ١٢.
- ٢٨- هود/ ١٠٦.
- ٢٩- ديوان أوس بن حجر/ ٧٣، ط. ثلاثة، بيروت ١٩٧٩، والتنصّي هو ما بين الرأس والكاهل من العنق كدَحْنه عنقه، منسف الحمار فمه، والنسف هو العض.
- ٣٠- المفضليات، لأبي العباس الفضل بن محمد الضبي/ ٨٧٢، ٨٦٥، بيروت ١٩٢٠.
- ٣١- شعراء النصرانية في الجاهلية، جمع لويس شيخو، ج٣/ ٤٠٢، المطبعة النموذجية ١٩٨٢.
- ٣٢- المفضليات/ ٨٠١، شعراء النصرانية/ ج٣/ ٤٣١.
- ٣٣- ديوان النابغة الذبياني/ ١٧٢، تحقيق فوزي عطوي، بيروت ١٩٦٩.
- ٣٤- شعراء النصرانية/ ج٣/ ٤٣١، شرح ديوان امرئ القيس، حسن السندوبي/ ١١٦، ط. - رابعة، مصر ١٩٥٩.
- ٣٥- شرح ديوان الخنساء/ ١٣، ٣٨، ٧٦، دار التراث بيروت ١٩٦٨.
- ٣٦- ديوان النابغة/ ١٢٢، ٢٠١، المفضليات/ ٧.
- ٣٧- شرح ديوان الخنساء/ ٤٦، المفضليات/ ٨٢٥، شعراء النصرانية/ ج٤/ ٤٨٩.
- ٣٨- ديوان زهير بن أبي سلمى/ ٣١، دار بيروت ١٩٨٢.
- ٣٩- شعر وأيام العرب، عفيف عبد الرحمن/ ٣١٠، ٣١١، ط. أولى، بيروت ١٩٨٤.
- ٤٠- شعراء النصرانية/ ج٣/ ٢٨٠، المفضليات ٥٤٢.
- ٤١- شعراء النصرانية/ ج٢/ ١٤٣، ديوان ليبيد بن ربيعة/ ١٤٦، دار صادر، بيروت.
- ٤٢- ديوان دريد بن الصمة/ ٦١، دار قتيبة، ١٩٨١، الشعر وأيام العرب/ ٢٣٩.
- ٤٣- شرح ديوان الخنساء/ ٧، ديوان عنتر بن شداد/ ٤٧، ط. أولى، بيروت ١٩٦٨.
- ٤٤- ديوان أوس/ ٣١، المفضليات/ ٦٠٥، ديوان ليبيد/ ١٩٠.
- ٤٥- جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي/ ٢٠٨، دار صادر، بيروت.
- ٤٦- الشعر وأيام العرب/ ٣١٠، الأصمعيات، اختيار أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك/ ١٨٩، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط. رابعة، دار المعارف، مصر.
- ٤٧- ديوان النابغة/ ٥٧، الشعر وأيام العرب/ ١٥٨، المفضليات/ ٢١.
- ٤٨- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، على البطل/ ٨٨، ط. ثانية

- ١٩٨١، ديوان عنصرة/ ٧٩، ١١٠، ١٩٦.
- ٤٩- ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي/ ١١٠، ١١٣، ط. ثانية، دمشق ١٩٨٢.
- ٥٠- الشعر وأيام العرب/ ٣٠٤، ديوان ليبد/ ٢٩، المفضليات/ ٦٢٦.
- ٥١- ديوان عامر بن الطفيل/ ٦٢، بيروت ١٩٧٩، شعر الحرب في أدب العرب، زكي المحاسني/ ٤٢، ط. ثانية، دار المعارف بمصر.
- ٥٢- ديوان عنصرة/ ١٧، الأصمعيات/ ١٤٠.
- ٥٣- ديوان عنصرة/ ١٧، ٤٩، ١٨٧، ٦٢، ١٥٧، ديوان عمرو بن معد يكرب/ ٦٧، ديوان ليبد/ ٤١، ٥٠، ٧٩، ٩٠.
- ٥٤- ديوان طرفة بن العبد/ ١٣، بيروت، ديوان عامر/ ٩٢، ٩٥، ١٠٠.
- ٥٥- ديوان عنصرة/ ٣١، ٦٧، ١٥٨، ديوان عمرو/ ١٦١، ديوان ليبد/ ٢٩.
- ٥٦- القان والغناء في العصر الجاهلي/ ناصر الدين الأسد/ ١٥٣، ط. ثانية، دار المعارف بمصر ١٩٦٨، شعر الرثاء في العصر الجاهلي، مصطفى الشورى/ ١٩٦، ١٩١، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٣.
- ٥٧- شرح ديوان أمية بن أبي الصلت/ ٢٤، قدم له سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- ٥٨- شرح ديوان الخنساء/ ١١، ٢٥، ٧٧، ٩٠، ٨٩، ١٠٨، ١٣٤.
- ٥٩- ديوان عبيد بن الأبرص/ ٤٨/ ٣٦، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣، ديوان عنصرة/ ٢٨.
- ٦٠- لأصمعيات/ ٢٠٢، شعراء النصرانية/ ج ٢/ ٢٠٤، ج ٣/ ٢٤٧، ٢٨٠.
- ٦١- المفضليات/ ٨٢٥، ديوان أوس/ ٦، شعر الرثاء/ ١٩٦، لامية العرب/ ٢٠، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٤.
- ٦٢- الشعر وأيام العرب/ ٤٠١، الأصمعيات/ ١٩٠.
- ٦٣- المفضليات/ ١٣، ديوان عامر بن الطفيل/ ٩٥، ديوان عبيد/ ٤٣، ديوان عنصرة/ ٦٢.
- ٦٤- الأصمعيات/ ١٨٩، شعراء النصرانية/ ج ٥/ ٧٧٨.
- ٦٥- ديوان عامر/ ٣٤، ديوان ليبد/ ١٤٤، المفضليات/ ٤٧.
- ٦٦- القيان/ ١٠٨، ٢٠٧، ديوان أوس/ ١١٤، ديوان عمرو/ ٧٧.
- ٦٧- ديوان عنصرة/ ٧٩، ديوان عمرو/ ١٠٨.
- ٦٨- ديوان الأعشى/ ١٦٥، بيروت ١٩٨٣، شرح ديوان الخنساء/ ١٠٦.
- ٦٩- شعراء النصرانية/ ج ١/ ٤١، ج ٥/ ٦٣٤، ديوان عنصرة/ ١٨، ٦٢.
- ٧٠- ديوان عبيد/ ٢٩، ٣٠، المفضليات/ ٣٢٩.
- ٧١- ديوان أوس/ ٣٠، ديوان عنصرة/ ١٦، شعراء النصرانية/ ج ٥/ ٧٨١.

- ٧٢-المفضليات/ ٥١٠، ديوان النابغة/ ٥٢، ديوان عنتره/ ١٠٧، ٢٤.
- ٧٣-المفضليات/ ٥١٠، شعراء النصرانية/ ج١/ ١١٨، ديوان عنتره/ ١٥٧.
- ٧٤-ديوان الأعشى/ ١٩، شعراء النصرانية/ ج٢/ ١٤٦، ديوان عمرو/ ١٢٧، ١٢٠.
- ٧٥-الأصمعيات/ ١٥٥، المفضليات/ ٨٩، ديوان عنتره/ ٩٧، ١٩٦.
- ٧٦-لامية العرب/ ٥٣، شرح المعقات السبع، اختيار القاضي الحسين بن أحمد الزوزني/ ١٢٥، مكتبة الحياة، بيروت، ديوان الأعشى/ ٩٦.
- ٧٧-ديوان النابغة/ ١٤٤، شرح ديوان الخنساء/ ١٨، ديوان أوس/ ٨٩، ٩٦.
- ٧٨-أشعار الشعراء السنة الجاهليين، اختيار الأعم الشنتمري/ ١٤٧، يوسف بن سليمان، ط. أولى، دار الفكر/ ١٩٨٥ شعراء النصرانية/ ج٣/ ٣٨٨، ديوان الأعشى/ ١٩٥، ديوان عمرو/ ١٨١/.
- ٧٩-ديوان عبيد/ ٣٧، شعراء النصرانية/ ج٢/ ٢٥٤، ج٤/ ٤٨٤، القيان/ ٢٧، ٢٦، ٢٨، ٤٧، ٦٦، ٦٧، الأصمعيات/ ٤٨.
- ٨٠-ديوان طرفة بن العبد/ ٣١، بيروت لبنان، ديوان الأعشى/ ٢٥.
- ٨١-القيان/ ١٠٨، ١٠٦، ١١٠، ١٦٦، ١٧٤، ١٧٣، ديوان الأعشى ٩٤، ١١٨.
- ٨٢-ديوان لبيد/ ٤٢، القيان/ ٧٧ المفضليات/ ٧٨٧.
- ٨٣-شعراء النصرانية/ ج٣/ ٤٠٢، القيان/ ٢٤٣، ٦٦، ١١١.
- ٨٤-أشعار الشعراء/ ٥٥، ديوان لبيد/ ١٨٢، ديوان الطليل الغنوي/ ١٥، تحقيق محمد عبد القادر أحمد دار الكتاب الجديد، ط. أولى، ١٩٦٨.
- ٨٥-ديوان لبيد/ ١٠٧، المفضليات/ ٦٠، القيان/ ١١٠، ٢٤٣.
- ٨٦-انظر: كتاب علم الأصوات، كمال بشر/ ٦٨، دار المعارف بمصر ١٩٨٦، امرؤ القيس، حياته وشعره الطاهر أحمد مكي/ ١٦٩، ط. رابعة، القاهرة ١٩٧٩.
- ٨٧-القيان/ ٢٧، ١٦٥، ديوان الأعشى/ ٢٥، ١١٨.
- ٨٨-القيان/ ١٧٠، ١٠٧، ١٠٨، ٢٤٣، ديوان لبيد/ ٤٢.
- ٨٩-ديوان الأعشى/ ١٨٦، القيان/ ٢٤٤، ٦٦، كرينة قينة، ٢٧.
- ٩٠-ديوان عبيد/ ٣٧، ديوان الأعشى/ ١٣٥، الأبييل الراهب، المفضليات/ ٤٦٥.
- ٩١-ديوان الأعشى/ ١١، ديوان لبيد/ ٢٠، شعراء النصرانية/ ج٣/ ٢٧٩، ج٤/ ٤٥٧.
- ٩٢-ديوان لبيد/ ١٠٩، شعراء النصرانية/ ج٤/ ٤٥٥، القيان/ ١٠٨، ٢٦، ١٣٦، والمتشمل
- المستخف طرياً.
- ٩٣-شعراء النصرانية/ ج٤/ ٤٥٣، ديوان الأعشى/ ٨٤، ١٨، ١٨٦، والمقدم رجل الدين الجوسي الذي يغطي فيه تعدياً في بعض شائره/ ١٩٦.



*The Venetian Gold Ducat P. 91*

**The writers' views do not necessarily reflect  
Those of the magazine**

#### Annual Subscriptions

- Saudi Arabia : 20 Riyals.
- Arab Countries : The equivalent  
of 4 issues prices : SR 20.
- Non-Arab Countries : US . 6\$

- Articles can not be returned to  
authors wether published or not.
- Articles are arranged technically  
regardless of the writer's prestige.

#### ● PRICE PER ISSUE ●

- |                |               |                      |                |
|----------------|---------------|----------------------|----------------|
| - Saudi Arabia | : 3 Riyals    | - Morocco            | : 5 Dirhams    |
| - U.A.E        | : 4 Dirhams   | - Tunisia            | : 400 Millimes |
| - Qatar        | : 4 Riyals    | - Non-Arab Countries | : 1 US.\$      |
| - Egypt        | : 40 Piastres |                      |                |

#### ● Distributors ●

**Saudi Arabia :** Saudi Distribution Co.

☎ 6530909 JEDDAH  
4916727 - 4616741 Riyadh

**Abu-Dhabi :** ☎ 3778, Abu Dhabi.  
☎ : 323011

**Dhubai :** Dar-Al-Hikma Library.

☎ 2007, ☎ : 228552

**Qatar :** Dar-Al-Thakafa,

☎ 323, ☎ : 413180

**Bahrain :** Al-Hilal Distributing Est.,

Manama, ☎ 224, ☎ : 262026

**Egypt :** Al-Ahram Distributing Est.,

Al-Gala'a Street, Cairo, ☎ : 755500

**Tunisia :** The Tunisian Distributing Company

☎ 5, Nahg Kartaj.

**Morocco :** Al-Sharifia Distributing Company,

☎ 683, Cassablanca, 05.



## ● قسيمة اشتراك ●

أرفق قسيمة مقبول الدفع .....

باسم دائرة الملك عبد العزيز بالرياض/ عن قيمة اشتراك لمدة سنة واحدة على أن ترسل

إلى العنوان الآتي:

الاسم .....

العنوان .....

رقم التللكس أو الفاكس .....

● لاشتراك ٢٠ ريالاً داخل المملكة العربية السعودية

● البلاد العربية ما يعادل ٢٠ ريالاً سعودياً

● دولارات خارج البلاد العربية.



مجلة قسيمة محكمة تصدر عن دائرة الملك عبد العزيز

٢٩٤٥ الرياض ١١٤٦١

٤٤١٣٩٤٤ - ٤٤١٣٩١٨

رقم الفاكس ١٢٠٠ / ٤٤١٣٩١٨ / ٩٦٦ / ٠٠

المملكة العربية السعودية



## ● Subscription card ●

Please enter my subscription for king abdul aziz Research Centre

address:

King Abdulaziz Research Center

2945

Riyadh 11461

4412318-4413944

facsimile No.: 00/966/1/4417020

Riyadh - Kingdom of Saudi Arabia

Please bill me .....

check enclosed for \$ .....

Name .....

Address .....

City .....

Country .....

☎ Fax .....

Annual Subscriptions

● Saudi Arabia: 20 Riyals

● Arab Countries: The equivalent of 4 issues Price. SR 20

● Non Arab Countries: US \$6





## **EDITOR-IN-CHIEF**

**Mohammad Hussein Zeidan**

Director General of "ADDARAH" and  
Secretary General of King Abdul Aziz Research Centre

**Abdullah Hamad Al-Hoqail**

## **Editorial Board**

**DR. MANSOUR IBRAHIM AL-HAZMI**

**ABDULLAH ABDUL-AZIZ BIN EDRIS**

**DR. ABDUL-RAHMAN AL-TAYYEB AL-ANSARI**

**DR. ABDULLAH AL-SALEH AL-UTHAYMEEN**

**DR. MOHAMMAD AL-SULAYMAN AL-SUDAIS**

## **Editorial and Technical Secretary**

**MUSTAFA AMIN JAHIN**

### Articles

Articles should be  
directed to the  
Editor-in-chief  
☎ :4417020

### Editorial Board

All correspondence  
should be directed to:  
☎: 4412318 - 4413944  
Fax 4412316

### Subscriptions

Subscriptions should  
be directed to King  
Abdul Aziz research  
centre





IN THE NAME OF ALLAH  
THE MERCIFUL. THE BENEFICENT



An Academic Quarterly Issued by:  
King Abdul Aziz Research Centre - Riyadh

## King Abdul Aziz Research Centre - Riyadh

- Established by a Royal decree No. M/45 dated 5/8/1392 A.H. as an autonomous body with independent juristic identity.
- Run by a Board of Directors vested with full authority to have its objectives materialized.  
objectives :
- To further studies pertaining to the history of the Kingdom, its geography, literature, intellectual and cultural heritage in particular as well as those of the Arab and Islamic world in general.
- To issue a cultural magazine carrying its name.  
**ADDARAH.**
- In accordance with the Royal approval No. 5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has become the home of the National Saudi Archives and Manuscripts.

No. "4" • Year <<17>> • Jan., Feb., March . 1992 A.D.  
P.O. Box 2945 Riyadh 11461 Kingdom of Saudi Arabia  
Facsimile No : 00/966/1/4417020

كانون ثاني ، شباط ، آذار ١٣٧٠ هـ ش.

حفل افتتاح  
مدرسة الملك فيصل  
تحت رعاية صاحب السمو الملكي  
الأمير سلطان بن عبدالعزيز  
الأربعاء ١٤١٢/٤/٣٠ - ١٤١١/١١/٦م



# AD DARAH



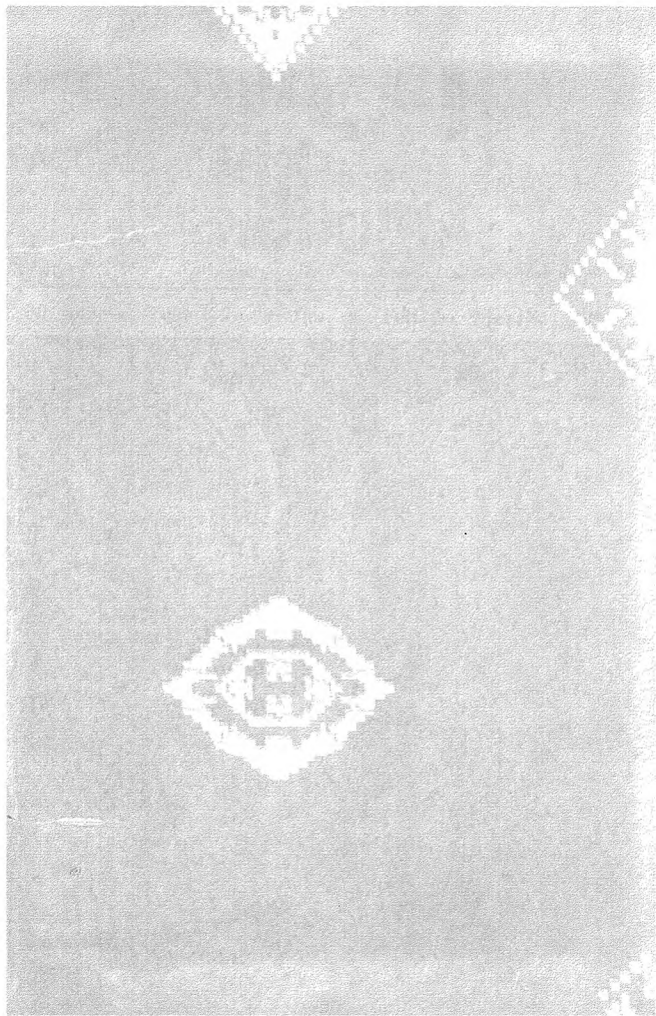
An Academic Quarterly Issued by : King Abdul Aziz Research Centre - Riyadh

No. «4» • Year «17» • Jan. • Feb. • March, 1992 A.D.



THE VENETIAN GOLD DUCAT

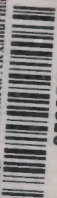








Bibliotheca Alexandrina



0530553